صراع الموساد والفلسطينيين





الطبالة الصغيرة

تأليف : جون لوكاريه

مؤسسة دار الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

سوريا ٤٢٠ ليرة – لبنان ١٥٠٠٠ ليرة – الأردن ٥٥٠٠ فلس – الكويت ٢٧٠٠ فلس – السعودية ٢٥ ريالا – تونس ٥ دينارات – المغرب ٦٠ درهما – البحرين ٢,٥٠٠ دينار – الدوحة ٢٥ ريالا – دبى / ابو ظبى ٢٥ درهما – مسقط ٢,٥٠٠ ريال – غزة والضفة والقدس ٤ دولارات – لندن ٥,٠٠ جك ..

العدد ٥٣٦

أغسطس ١٩٩٣ ● صفر ١٤١٤ هـ

No _536_Au _1993

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٦ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولارا ـ امريكا واوربا وآسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469

الطبالة الصغيرة

بقلم
جون لوكاريه

ترجمـة :
عبد الحميد فهمى الجمال

●

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

LITTLE DRUMMER GIRLE

تأليـــف :

John le Carrée

الغلاف للفنان :
حـلمى التونى

قبل أن تقرأ

يعد جون لوكاريه أهم كُتَّاب رواية التجسس المعاصرين على الإطلاق ، فهو الذى أعطى لهذه الرواية شخصيتها واكسبها هوية خاصة ، وأخرجها من هامشية إلتصقت بها دوما حتى من خلال الروايات التى كتبها أدباء لهم أهميتهم لم تكن أعمالهم فى الجاسوسية أفضل ما لديهم بل ربما أكثرها سوءا . وقد اكتسب لوكاريه أهمية خاصة لدينا فى العالم العربى لانه أول كاتب عالمى استطاع أن يكشف عن وحشية وكالة الاستخبارات الاسرائيلية ، كما أنه أول من كتب عن سور برلين ، والبيروسترويكا اعمالا ابداعية . وهو كاتب معطاء دائما فى هذه الرواية ليس غزير الانتاج كما أنه لم يبدع فى أى مجال آخر من مجالات الابداع عدا رواية التجسس .

ولوكاريه لايعتمد فى رواياته على عمليات تجسس حقيقية لها ملفات فى وكالة الاستخبارات ، ولكنه يتعامل مع الجاسوسية بمعناها العام ، حيث يهتم بموضوع ما ، فيروح يجمع حوله الكثير من المعلومات ثم يبدأ فى الكتابة ، مثل زيارته للمنطقة العربية مرات عديدة على مدى خمس سنوات قبل أن يكتب رواية «الطبالة الصغيرة» وقيامه بزيارة الاتحاد السوفييتى مرتين قبل أن يقدم روايته الاخيرة «المنزل الروسى» .

وجون لوكاريه هو اسم مستعار اتخذه الكاتب لنفسه عند نشر روايته الاولى فى عام ١٩٦١ ، كان يعمل فى تلك السنوات فى مكتب العلاقات الخارجية البريطانية الذى سبق أن عمل به كل من جراهام جرين وايان فلمنج من الذين كتبوا رواية التجسس . اسمه الحقيقى هو دافيد كورونويل . ولد بمدينة بوول البريطانية فى ١٩ اكتوبر عام ١٩٣١ . ثم سافر إلى سويسرا لدراسة اللغة الالمانية فى جامعة

برن . ثم عمل بالتدريس وسكرتيرا للسفارة البريطانية فى بون . ثم قنصلا فى هامبورج . أى أنه كان على مقربة من برلين ، وشاهد التغيرات التى عاشتها المانيا بعد الحرب العالمية الثانية . ومن هنا استوحى روايته «الجاسوس الذى أتى من الصقيع» وقد اكتشف كورونويل أن السلك الدبلوماسى فى العالم هو بؤرة عمليات التجسس حتى بين الدول الحليفة . ومن هذه التجربة ، استمد روايته الاولى ، «نداء الميت» عام ١٩٦١ . وفيها ابتدع شخصية الجاسوس جورج سمايلى الذى أصبح قاسما مشتركا فى أغلب رواياته .

وقد نشر لوكاريه خلال نيف وثلاثين عاما ثلاث عشرة رواية منها «مرآة الجواسيس» عام ١٩٦٥ ، و «مدينة صغيرة فى المانيا» عام ١٩٦٨ . ثم عاشق بسيط ورقيق» ١٩٧١ ، و «الجلنر» و «تلميذ شريف» ١٩٧٧ ، ثم «عشيرة سمايلى» ١٩٨٠ و «الطبالة الصغيرة» ١٩٨٣ و «جاسوس عريق» ١٩٨٦ ثم «المنزل الروسى» ١٩٨٩.

وقد رفض لوكاريه الوظيفة حتى لايسقط ، كما يقول ، فى اقبية البيروقراطية الادبية ، وترك العمل فى جهاز الاستخبارات البريطانى عقب اتجاهه للابداع. والجدير بالذكر أنه أول من صنع من رواية التجسس ادبا حقيقيا ، ونال جائزتين ادبيتين .

وعلى سبيل المثال ، فان لوكاريه صدم الاوساط الادبية بشخصية الجاسوس سمايلى لانه خان وكالة الاستخبارات البريطانية ، وعمل مع الاستخبارات الروسية ، وكانت الصدمة فى أن سمايلى شخص ناجح لايميل الى الأهواء العابرة . وقد تمثلت الصدمة فى أن الغربيين قد تذكروا على التو الجواسيس المعاصرين الذين خانوا وكالاتهم فى بلادهم مثل كيم فيلبى وانتونى بلونت .

وتعتبر رواية «الجاسوس الذى أتى من الصقيع» أبرز أعماله الاولى . وفيها يحكى كيف استطاع عميل لوكالة الاستخبارات البريطانية أن يعد سيناريو خاصا

لاختراق وكالة الاستخبارات فى المانيا الشرقية . وقد نجح فى تنفيذ خطته من خلال أمينة مكتبة شيوعية استطاع أن يوقعها فى حبائله بعد أن عرف أن رؤساءه قد ألغوا مهمته من أجل حماية عميل مزدوج .

وقد صور الكاتب الجاسوس أقرب الى المخلوقات المغرورة والخونة ، المصابين بالسادية والمخمورين دوما . وفى هذه الرواية كان على الجاسوس أن يهرب الى المانيا الغربية عبر سور برلين والصراع البارد بين الشرق والغرب على أشده .

أما آخر رواياته «المنزل الروسى» فهى عن نوع جديد من التجسس عقب انتهاء هذه الحرب الباردة وبطلة هذه الرواية كانت فنانة تشكيلية طليعية تقرأ كافكا، وتتعرف على ناشر بريطانى كى تقدم له مسودة كتبها فيزيائى روسى اتخذ لنفسه اسما مستعاراً هو «جوته» وهذه المسودة تتضمن اسراراً عن أشياء تهم الغرب . ويقرر الناشر أن يسافر إلى موسكو موفداً من وكالة الاستخبارات البريطانية ليعرف الحقيقة من موطنها . الا أنه يختفى فى ظروف غامضة . ولايعرف أحد أنه قد عشق الحياة فى روسيا واحب امرأة جميلة وقرر أن يعيش هناك حياة جديدة .

اذن ، فقد غير لوكاريه من مناظيره بدرجة كبيرة ان لم تكن وجهات النظر قد انقلبت رأسا على عقب . «فى وسط الحرب الباردة كان الخوف اعم . ومع الجلاسنوست تحول العدو وأصبح صديقا . والنتيجة : أصبح من الصعب فعلا معرفة كيف يفكر الروس» .

وقد تطرق لوكاريه لأبرز موضوعات التجسس فى رواياته ، خاصة بين الشرق والغرب ، ثم قرر أن يدخل منطقة الصراع الساخنة فى الشرق الاوسط بروايته «الطبالة الصغيرة» خاصة منذ عام ١٩٧٧ ، عقب انتهائه من روايته «تلميذ نبيل» حيث زار لبنان والاردن وسوريا ، واسرائيل . وفى عام ١٩٨٠ عاد مرة أخرى إلى المنطقة والتقى بالسيد ياسر عرفات الذى قال له : «نحن منفيون ، ولم يبق لنا سوى حب وطننا ، لكن اليهود سرقوه منا ، وليس وراءهم سوى الإساءة الينا . لانهم قوم لايملكون الوعى الهادئ ، لذا يفكرون فى قتلنا » .

وقد تجول لوكاريه فى المعسكرات الفلسطينية بلبنان ، ثم توجه الى اسرائيل ، وراح يسأل ضباط المعلومات الاسرائيلية عن طبيعة النزاع . ثم انتقل الى الاراضى الفلسطينية المحتلة ، وكان كلما التقى بشخصيات جديدة يجد الافاق تتفتح له اكثر . ثم سافر الى بون وزار حى الدبلوماسيين والذى أصبح مسرحا للفصل الأول فى روايته . وهناك تعرف على بعض العملاء الاسرائيليين ، وعرف ان هناك محاولة من رجال الموساد لاصطياد مناضل فلسطينى يدعى خليل .

وبدأت خيوط الرواية فى نسج نفسها بمخيلة الكاتب ، فراح يمزج حكاية المناضل خليل مع ما عرفه عن الفلسطينيين من . قائد الاشبال الفلسطينى فقد علم أن اسرائيل قامت باعتقاله ، ووضعه فى معسكر اعتقال . ولحسن الحظ . فان لوكاريه كان قريباً جداً من هذا الشخص لعدة أسابيع ، أقام خلالها فى بيته ، ومن ملامحه استقى لوكاريه شخصية خليل فى رواية «الطبّالة الصغيرة» .

تجئ أهمية هذه الرواية فى اطار «الصراع العربى الاسرائيلى» انها كانت على قمة المبيعات منذ صدورها . وقد صدر منها بين عامى ١٩٨٣ و١٩٩٠ تسعة طبعات باللغة الانجليزية ، وترجمت الى العديد من اللغات . والغريب أن مؤسسة عربية واحدة لم تقم بترجمتها ، رغم أهميتها . وقد قامت السينما الامريكية بتحويلها الى فيلم عام ١٩٨٤ ، قامت فيه ديان كيتون بدور تشارلى ، والممثل الالمانى كلاوس كينسكى بدور كيرتز ، والممثل الفرنسى سامى فراى بدور يوسف . والفيلم من اخراج جورج روى هيل .

وقد تعرض الكاتب للكثير من الهجوم . من قبل وسائل الاعلام الغربية «كنت متاكداً أنى سأتعرض لكمية ضخمة من نيران المدافع المضادة ، خاصة فى الولايات المتحدة الامريكية ، لمجرد أن قلت إن هناك حقا بجانب الفلسطينيين ، ولكنى فى ست من رواياتى التى كتبتها تناولت اليهود بتعاطف تام . واذا كان لإنسان غير يهودى أن يقول إن الحق ليس مع الاسرائيليين ، وإن زمام الامر قد افلت من ايديهم وانهم فقدوا السيطرة على الموقف ، فاعتقد أننى اكتسبت هذا الحق» .

وقد بدا أن لوكاريه يريد تقديم صورة المناضل الفلسطينى بوجهها الحقيقى فهو ليس ذلك الارهابى الذى تصوره وسائل الاعلام الغربية ، ولكنه الباحث عن الحق فى أن يعود الى أرضه التى طرد منها ، واذا كانت الموساد قد نجحت فى تحقيق هدفها باغتيال خليل فى هذه الرواية ، فإن المؤلف كشف عن الوسائل التى يتم بها تلفيق التهم للمناضلين ، مثلما حدث وادعت وسائل الاعلام أن ارهابيا اختطف فتاة وهو أمر غير حقيقى .

رواية لوكاريه اذن ، مهما قيل حول مضمونها وبراعة كاتبها فى السير بين النقاط ، فإنها ذات بنية روائية متماسكة ، واسلوب أخاذ ، وتماسك ملحوظ تضعها فى مرتبة مرتفعة لروايات من صنفها .

والجدير بالذكر أن عنوان الرواية «الطبالة الصغيرة» مستمد من اغنية تراثية مسيحية تُغَنّى فى الضفة الغربية اثناء اعياد الميلاد .

وفى حديث أجرته مجلة «لوبوان» فى ٢ يونيه ١٩٨٧ مع لوكاريه قال : «إن كاتب التجسس الذى يخبرنا ببعض الاشياء هو انسان مصاب بجنون العظمة، ترى هل هذا هو عصرنا ، حيث تباع فيه القرارات السياسية المعقدة مثلما تباع مساحيق الغسيل . أو أمزجة البشر التى يمكن أن تثير الحقيقة الساكنة . فى الضواحى هل هذا العصر ملائم لكاتب التجسس ؟ .. سؤال » .

روايات الهلال

الجزء الأول

الفصل الأول

كان حادث بادنسبرج هو الذى قدّم الدليل والبرهان ، رغم أن السلطات الألمانية لم يكن لديها وسيلة مادية تعينها على معرفة هذا . وقبل حادث بادنسبرج كانت الشكوك آخذة فى التزايد .. قدْر كبير من الشكوك . الاّ أن النوعية العالية للتخطيط والتى تتعارض مع النوعية الرديئة للقنبلة قد حولت الشكوك إلى يقين . وهم يقولون فى عالم التجارة إن رجلاً سوف يوقّع باسمه إن عاجلا أو آجلاً . وما يسبب الضيق والتوتر يكمن فقط فى الانتظار.

لقد انفجرت القنبلة فى فترة متأخرة كثيراً عما كان يراد لها ؛ إذ انفجرت فى وقت متأخر بحوالى ١٢ ساعة عن الموعد المحدّد . لأن الانفجار وقع فى الساعة الثامنة وست وعشرين دقيقة صباح يوم الاثنين . فالعديد من ساعات اليد التى تعطلت والتى هى من ممتلكات الضحايا قد أكدت وحددت الوقت الذى حدث فيه الانفجار . ولم يكن هذا الانفجار مصحوبا بتحذير مسبق مثلما تمَّ بالنسبة لحالات الانفجار السابقة التى حدثت خلال الشهور القليلة الماضية . ولكن حتى ذلك الحين لم يكن هناك أحد مستهدفاً . فإلقاء القنابل فى دلسدروف على سيارة موظف اسرائيلى يقوم بمهمة شراء الأسلحة لم يسبقه أىّ تحذير وكذلك الحال بالنسبة للطرد الملغوم المرسل لمنظمى المؤتمر اليهودى الأرثوذوكسى فى أنتويرب والذى نسف رئيسة الشرف وأحرق مساعدها حتى الموت ، وكذلك الحال أيضا بالنسبة للقنبلة التى وضعت فى صندوق الزبالة خارج بنك اسرائيلى موجود فى زيوريخ والتى أدت إلى اصابة اثنين من المارة بالعجز وعدم القدرة على الحركة . ولكن قنبلة

ستوكهولم هى فقط التى سبقها انذار مما يدل على أنها نفذت بمعرفة مجموعة مختلفة تماما وليست جزءاً من سلسلة الانفجارات الأخرى على الإطلاق .

وفى تمام الساعة ٨,٢٥ كان شارع دروسيل بمدينة بادنسبرج بمثابة مكان خلفى آخر منعزل له طابع دبلوماسى ومليئ بأوراق الشجر والظلال وبعيد عن القلاقل السياسية التى تجتاح بون . لقد كان شارعاً جديداً ولكنه شارع ناضج وبه حدائق مورقة وكتومة وبه مساكن للخادمات موجودة فوق أسطح الجراجات وبه نوافذ لها حواجز من القضبان المتصالبة . وطقس أراضى الراين فى معظم فترات السنة له نفس دفء الجوّ الممطر بالغابات ، كما أن نباتاته - شأنها شأن المجتمع الدبلوماسى - تنمو بنفس السرعة التى يبنى بها الألمان طرقهم بل وأسرع من الألمان عندما يصممون الخرائط الخاصة بهم . ومن ثم فإن واجهات بعض البيوت كانت بالفعل شبه غامضة بسبب وجود أشجار الصنوبر الكثيفة والتى اذا نمت واتخذت حجمها الطبيعى فإنها ستغرق المنطقة كلها فى التعتيم والإظلام الذى يكتنف حكايات الجن التى يكتبها الأديب جريم . وقد اتضح أن هذه الأشجار لها تأثير فعال ضد الانفجارات .

والعديد من المنازل تتخذ الطابع الوطنى على نحو واضح . فعلى سبيل المثال نجد أن مسكن السفير النرويجى الذى يقع عند الناصية بالقرب من شارع دروسيل هو عبارة عن منزل ريفى بسيط للغاية وخالٍ من الديكورات والزينة ومشيد بالطوب الأحمر وأشبه بالبيوت الموجودة بالمنطقة الخلفية الخاصة بالسماسرة فى أوسلو . كما أن القنصلية المصرية التى تقع عند الطرف الآخر لها نفس الطابع المهجور الذى تتميز بها فيلا اسكندرانية هاجمتها الأزمنة العصيبة . وتصدر الموسيقى العربية الحزينة عن هذه الفيلا كما أن نوافذها دائما ماتكون مغلقة فى وجه حرارة شمال افريقيا المناوشة . كان الموسم هو منتصف شهر مايو وكان النهار قد بدا رائعا مع اهتزاز البراعم والأوراق الجديدة سويا مع هبوب النسيم الخفيف . وكانت أشجار المانوليا قد أجهز عليها توا وبتلالها البيضاء الحزينة التى ذُرف معظمها قد أصبحت بعد ذلك احدى علامات الأطلال . ومع هذه الكمية الكبيرة

من أوراق الشجر الخضراء فإن ضوضاء حركة المرور المترامية من الطريق الرئيسى نادراً ما كانت تخترق الأجواء . اذ كانت الأصوات السائدة المسموعة قبل حدوث الانفجار هى شقشقة الطيور ـ بما فى ذلك العديد من الحمام الممتلئ ـ التى كانت معجبة بنبات الوستارية البنفسجى التابعة للملحق العسكرى الاسترالى والتى كان يتفاخر بها دائما . وعلى مسافة كيلو متر جنوباً فإن مراكب الرحلات غير المرئية فى نهر الراين كان يترامى منها هدير خفيف الاَّ أن السكان المقيمين اعتادوا تماماً على ذلك الهدير بحيث لاينتبهون إلى وجوده الا اذا توقف . وباختصار كان صباحا يؤكد لك أن بادنسبرج هى مكان هادئ مستقر وظريف مما يشجع المرء على العيش فيها وأن «بون» لم تكن رديئة على النحو الذى يصوره البعض .

ووفقا للجنسية والرتبة توجه بضعة مئات بالفعل إلى أعمالهم الاَّ أن الدبلوماسيين لن تكون لهم قيمة إلاَّ اذا كانوا كليشيهات متكررة معبرة عن نوعيتهم . مثال ذلك أن مستشارا اسكندنافيا منقبض الصدر كان لايزال موجودا فى سريره حيث كان يعانى من الآثار الناجمة عن تناول الخمور والهموم المتعلقة بالحياة الزوجية . كما أن نائب سفير من امريكا الجنوبية مرتديا روبا من الحرير الصينى ، كان يطل من النافذة ويعطى تعليمات لسائقه الفلبينى تتعلق بشراء الحاجيات . والمستشار الايطالى كان يحلق ذقنه ولكنه كان عاريا . وكان يحب دائما أن يحلق ذقنه عقب الانتهاء من الاستحمام قبل القيام بتمريناته الرياضية اليومية . وكانت زوجته المرتدية ملابسها بالكامل تقف فى الطابق الأول وتحتج على ابنتها لأنها عادت إلى المنزل فى فترة متأخرة للغاية فى الليلة الماضية وهو حوار يستمتعان به فى معظم فترات الصباح من أيام الأسبوع . وكان مبعوثا من ساحل العاج يتحدث فى التليفون الدولى ليبلغ رؤساءه بالجهود الأخيرة التى بذلها بهدف الحصول على مساعدات من وزارة المالية الألمانية التى كانت تبدى عدم الرغبة فى تقديم المساعدة على نحو متزايد . وعندما قُطع الخط التليفونى اعتقدوا أنه قد أغلق الخط فى وجههم فأرسلوا له برقية شديدة اللهجة تستفسر منه عما اذا كان يرغب فى تقديم

استقالته . وكان الملحق العمالى الاسرائيلى قد غادر مكانه منذ أكثر من ساعة ولم يكن يشعر بالارتياح فى مدينة بون .

وفى مكان ما مع كل انفجار لقنبلة تحدث معجزة وفى هذه المرة تم تقديم المعجزة من خلال أتوبيس المدارس الأمريكى الذى جاء لتوه وانصرف وهو محمل بمعظم الأطفال الصغار المنتمين للمجتمع الدبلوماسى والذين كانوا يتجمعون فى كل يوم مدرسى عند دائرة الناصية التى تبعد أقل من خمسين مترا عن مركز الزلزال . ومن حسن الحظ أن أحدا من الأطفال لم ينس واجبه المنزلى أو لم يستغرق فى النوم أكثر من اللازم مما يؤدى إلى انتظار الأتوبيس لحين مقدمه ، بل ولم يظهر أحد من الأطفال مقاومته للتعليم فى ذلك الصباح من يوم الاثنين لذلك انصرف الأتوبيس فى الوقت المحدّد له . وأغلق السائق النوافذ الخلفية ثم اتجه بالسيارة نحو حافة الطريق . وفقدت طفلة فرنسية احدى عينيها ونجى باقى الأطفال بدون التعرض لأى أذىً .

ولم يكن الصوت الحقيقى للقنبلة شيئاً يتذكره الناس حتى ولو كانوا موجودين فى مكان قريب ، فعبر النهر سمع الناس صوت حرب أجنبية تماما وانساقوا فى اهتزاز وشبه صمم وابتسموا لبعضهم البعض مثل شركاء فى جريمة تمكنوا من البقاء على قيد الحياة . وقالوا لبعضهم البعض : ماذا يمكن لكم أن تتوقعوا من أولئك الدبلوماسيين الملاعين ؟

وسارعت الصحافة إلى مكان الحادث بالطبع . وصدرت التقارير الحماسية الأولى وأشارت إلى مقتل ثمانية وجرح ثلاثين وألقت باللوم على منظمة جناح أيمن ألمانية تسمى «نبلونجين ٥» كانت تتألف من ولدين متخلفين عقليا ورجل عجوز مجنون ليس بمقدوره تفجير بالون . وبحلول منتصف النهار كانت الصحافة قد اضطرت إلى تخفيض الرقم إلى خمسة قتلى من بينهم شخص اسرائيلى علاوة على اصابة أربعة بجراح خطيرة بالاضافة إلى وجود ١٢ بالمستشفى بسبب جروح طفيفة وكانت الصحافة تتحدث عن منظمة الألوية الحمراء الايطالية التى لم يكن

هناك ـ كالمعتاد ـ أىّ دليل واحد يثبت تورطها . وفى اليوم التالى غيرت الصحافة اتجاهها مرة أخرى وألقت باللوم على منظمة أيلول الأسود . وبعد مرور يوم آخر ادعت منظمة تسمى نفسها «الكرب الفلسطينى» مسئوليتها عن هذا الحادث وغيره من الحوادث الأخرى المماثلة السابقة . ورسخت فى الأذهان أن منظمة «الكرب الفلسطينى» هى التى قامت بهذه العملية حيث صدرت المقالات الرئيسية تحت عناوين رئيسية تشير إلى تلك المنظمة .

ومن بين غير اليهود الذين ماتوا الطباخ الصقلى الذى يعمل لدى الايطاليين، ومن بين الجرحى الأربعة كانت زوجة الملحق العمالى الاسرائيلى الذى انفجرت القنبلة فى منزله . حيث فقدت ساقها أما الشخص الاسرائيلى الذى مات فهو ابنها الصغير جبرييل .

الاّ أن التقارير أشارت إلى أن الضحية الذى كان يُراد قتله لم يكن من بين أولئك الناس الذين أصيبوا وإنما هو عم زوجة الملحق العمالى الاسرائيلى الذى جاء إلى هنا من تل أبيب فى زيارة ، وهو باحث فى التلمود كان قد احتفل به تكريما له على آرائه المتشددة فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين بشأن الضفة الغربية ، اذ كان هذا الرجل يعتقد باختصار شديد أن الفلسطينيين لاينبغى أن يحصلوا على أية أراضٍ وكثيراً ما عبر عن آرائه علنا وفى صراحة تامة وتحد صارخ لآراء ابنة أخيه زوجة الملحق العمالى التى كانت منتمية لليسار الاسرائيلى المتحرر حيث إن نشأتها وتربيتها فى الكيبوتز لم تعدها لمواجهة الحياة الدبلوماسية الفاخرة .

ولو كان جبرييل قد وُجِد فى داخل أتوبيس المدرسة لكان قد أصبح آمنا . ولكن جبرييل فى ذلك اليوم كان متوعكا ومريضاً مثلما هو الحال فى الكثير من الأيام الأخرى . ولقد كان ولداً مفرطا فى النشاط وقلقا حيث كان يُنظر اليه على أنه عنصر من عناصر الضوضاء فى الشارع وخاصة فى فترة القيلولة . الاّ أنه كان موهوباً من الناحية الموسيقية مثل والدته تماما لم يكن بمقدور أحد بالشارع أن يتذكر أنهم أحبوا ولداً أكثر منه . ولقد وصفته جريدة ألمانية من الجناح الأيمن وزاخرة بالمشاعر الموالية لليهود بأنه «جبرييل الملاك» وهو عنوان يغوص فى أعماق

كل من الديانة اليهودية والديانة المسيحية . وراحت الجريدة على مدى أسبوع تلفق القصص والحكايات التى تتعلق بقدسية ذلك الطفل .

وتمَّ إبراز «جبرييل» على أنه شهيد مسيحى مثلما هو شهيد يهودى . وظهر كلام يتعلق بإنشاء نصب تذكارى خاص بجبرييل ولكن لم يظهر سوى كلام ضئيل للغاية عن الموتى الآخرين . وطبقا للتقاليد اليهودية فإن التابوت الصغير الخاص بجبرييل قد أعد على الفور من أجل أن يتم الدفن فى اسرائيل . وكانت والدته مريضة للغاية بحيث لم تتمكن من السفر مع التابوت فظلت باقية فى بون إلى أن يتمكن زوجها من اصطحابها وبحيث يمكن لهما الجلوس سويا فى القدس .

وبحلول الفترة المبكرة من بعد ظهر اليوم الذى حدث فيه الانفجار كان فريق يضم ستة من الخبراء الاسرائيليين قد غادر تل أبيب بالطائرة . ومن الجانب الألمانى تم تكليف الدكتور أليكسيس التابع لوزارة الداخلية للقيام بأعمال التحقيق فى هذا الحادث فانطلق لكى يستقبل الفريق الاسرائيلى فى المطار . وكان اليكسيس مخلوقا ذكيا وماكرا ظل يعانى طوال حياته من أنه أقصر من معظم زملائه بمقدار عشرة سنتيمترات . وربما كتعويض عن هذه الاعاقة فإنه اتصف بالتهور ،سواء فى حياته الخاصة أو الوظيفية وهو كان من ناحية محاميا ومن ناحية أخرى ضابط أمن ومن ناحية ثالثة ممارسا للسلطة والنفوذ مثلما يربيهم الألمان فى هذه الأيام بحيث يكون لديهم معتقدات ليبرالية لا تلقى الترحيب دائما من جانب الائتلاف . ولقد كان والده من ذلك النوع الذى يقاوم أفكار هتلر وجاء ابنه شارد الذهن وغريب الأطوار ومن المؤكد أنه كان هناك أولئك الموجودون فى قصور بون الزجاجية والذين يعتقدون أنه لايتمتع بالصلابة الكافية التى تتطلبها هذه الوظيفة كما أن طلاقه الذى تمَّ منذ فترة قصيرة والذى كشف أنه كان متزوجا من فتاة تصغره بعشرين عاما لم يساهم فى تحسين وجهة نظرهم عنه .

ولو كان الفريق القادم ليس اسرائيليا لما كان أليكسيس قد اهتم على الاطلاق بالذهاب إلى المطار لاستقبالهم ـ لأنه فى هذه الحالة لن تكون هناك تغطية صحفية للحادث ـ ولكن العلاقات بين اسرائيل وجمهورية ألمانيا الاتحادية كانت

تسير فى منخفض طويل ضيق . لذلك استجاب للضغوط الوزارية وذهب . وقاموا بتزويده - وذلك ضد رغبته - فى اللحظات الأخيرة برجل شرطة يتسم بالبطء والطابع التقليدى وهو رجل كان قد اكتسب شهرته فى مجال «السيطرة على الطلبة» فى خلال السبعينيات واعتبر خبيرا عظيما فى مجال المشاغبين وقنابلهم، والسبب الآخر هو أنه كان يلقى قبولاً من الاسرائيليين ولو أن اليكسيس - شأنه شأن كل فرد آخر - كان يدرك أنه كان هنالك أساسا لكى يكون بمثابة القوى التى تتوازن معه . وربما الأهم من ذلك فى هذا الجو الحالى المشحون أن كلا من اليكسيس ورجل الشرطة لم يكونا كبيرين فى السن بحيث يتحمل أقصى درجات المسئولية ازاء ما يشير اليه الألمان فى حزن على أنه الماضى الذى لا يُقهر والخاص بهم . وما كان يتم عمله من أجل اليهود اليوم هو مالم يفعله اليكسيس وزميله بالأمس . ولقد قامت الصحافة - من خلال توجيهات صادرة عن اليكسيس - بتوضيح الأمور. الاَّ أن مقالة واحدة افتتاحية أشارت إلى إنه مادام الاسرائيليون يواصلون قصف المعسكرات والقرى الفلسطينية بالقنابل - مما يؤدى ليس إلى مقتل طفل واحد فقط وانما يؤدى إلى قتل عشرات الأشخاص فى آن واحد فانه ينبغى عليهم أن يفترضوا أن يردّ الفلسطينيون فى انتقام بربرى من نفس ذلك النوع . وصدر تقرير شديد اللهجة عن الملحق الصحفى بالسفارة الاسرائيلية فى اليوم التالى . وأشار فى تقريره إلى أن اسرائيل تتعرض منذ عام ١٩٦١ لهجوم مستمر من جانب الارهاب العربى . وأضاف أن الاسرائيليين ليسوا على استعداد لأن يقتلوا فلسطينيا واحدا اذا تُركوا ليعيشوا فى هدوء وسلام . وأوضح فى تقريره الى أن جبرييل قد مات لسبب واحد فقط : وهو أنه كان يهوديا . وأشار إلى أن الألمان ينبغى عليهم أن يتذكروا أن جبرييل لم يكن هو الوحيد الذى لقى حتفه على ذلك النحو . واذا كان الألمان قد نسوا «الهلوكوست» فهل هم قد نسوا أيضا أحداث الأولمبياد فى ميونيخ منذ عشر سنوات ؟

وهبطت الطائرة الحربية القادمة من تل أبيب على الجانب البعيد من المطار . وتم التخلى عن الإجراءات الروتينية على الفور . وكان أليكسيس قد صدرت له

التعليمات بأن يقدّم للاسرائيليين كل التسهيلات . الاّ أن هذه التعليمات كانت غير ضرورية : فهو كان متعاطفا مع السامية . وكان مشهوراً بذلك التعاطف . ولقد سبق له أن قام بزيارة اجبارية لتل أبيب من أجل تعميق العلاقات . وتم تصويره وهو منحنى الرأس أثناء زيارته «لمتحف الهلوكوست» أما بالنسبة لرجل الشرطة فإنه كان يُذكّر كل شخص يصغى إليه بأنهم جميعا يبحثون عن نفس العدو الأحمر . وبحلول اليوم الرابع كان فريق العمل المشترك قد وضع صورة أولية مقنعة عمّا حدث .

أولاً لم يكن المنزل المستهدف موضوعا تحت مراقبة أمنية خاصة حيث لم ينص على ذلك فى الاتفـاقية التى أبرمت بين السفارة وسلطات الأمن فى حكومة بون . أما المنزل الذى يقيم فيه السفير الاسرائيلى والذى يقع بعد ثلاثة شوارع فكان يلقى الحماية على مدى الأربع والعشرين ساعة . حيث كانت تقف سيارة خضراء تابعة للشرطة بجوار المنزل من أجل توفير الحماية كما أن السور الحديدى كان يشمل الحدود الخارجية للمنزل علاوة على قيام اثنين من الحراس الشبان بأعمال الدورية فى الحدائق مع تزويدهما بالبنادق الآلية . كما أن السفير كان يستقل سيارة محصنة ضد الرصاص علاوة على مرافقة أفراد له من الشرطة الذين يركبون الخيول . فهو كان سفيراً علاوة على كونه يهوديا . أماً الملحق العمالى بالسفارة الاسرائيلية فكان وضعه مختلفا . وكان منزله موضوعا ضمن الحماية العامة التى تقوم بها الدوريات المتنقلة المخصصة لحماية الدبلوماسيين وكل ما يمكن قوله هو أن أىّ منزل اسرائيلى كان يخضع لمراقبة خاصة وذلك وفقا لما هو وارد فى سجلات الشرطة . ولتوفير المزيد من الحذر والحرص فإن عناوين الموظفين الاسرائيليين كانت لاتُطبع فى القوائم الرسمية الدبلوماسية .

وفى تمام الثامنة من صباح ذلك اليوم من أيام الاثنين قام الملحق العمالى بفتح جراج السيارة الذى كان مغلقا بالقفل . وقام بفحص أغطية محاور العمل الخاصة بسيارته علاوة على فحص الاجزاء السفلية من الشاسيه وذلك بمساعدة مرآة مثبتة فى يد مقشة أُعطيت له من أجل هذا الغرض . وقد أكد ذلك عمّ زوجته الذى كان راكبا معه . ونظر الملحق العمالى تحت مقعد القيادة قبل أن يدير مفتاح

التشغيل الخاص بالسيارة . فمنذ أن بدأت حملة القنابل أصبحت هذه الاجراءات الوقائية أمراً إجباريا يلتزم بها جميع الشخصيات الاسرائيلية الموجودة بالدول الأجنبية . وكان يدرك - مثلما يدرك الجميع - أنه يمكن شحن أغطية محاور العجل بالمتفجرات خلال فترة زمنية تقل عن أربعين ثانية بل ويمكن لصق قنبلة تحت خزان البنزين فى وقت أقل . وكان يدرك أيضاً أن أناساً كثيرين يودون نسفه وتفجيره . وقرأ الصحف والبرقيات . وبعد أن اطمأن على أن السيارة كانت نظيفة ودّع زوجته وابنه بأن قال لهما «إلى اللقاء» وقاد سيارته متجها بها إلى مكتبه من أجل انجاز الأعمال .

وثانيا فإن خادمة الاسرة وهى فتاة سويدية تسمى ايلكه كات قد بدأت فى اليوم السابق فى أجازة مدتها أسبوع فى الوسترفالد مع صديقها الألمانى وولف الذى كان فى أجازة من البندشفيهر وكأن وولف قد ذهب لإحضار ايلكه بعد ظهر يوم الأحد بسيارته الفلكس فاجن المكشوفة ، وأىّ شخص كان يمرّ بجوار المنزل أو يقوم بالحراسة على المنزل قد شاهدها وهى تخرج من الباب الأمامى مرتدية ملابس الخروج . وشاهدها وهى تقبلّ جبرييل الصغير وتستودعه وتنطلق ملوحة بيديها للملحق العمالى الذى ظل واقفا عند عتبة الباب لكى يشاهدها أثناء مغادرتها بينما زوجته التى تهتم بزراعة الخضراوات اليانعة الخضراء ، استمرت فى انجاز أعمالها فى الحديقة الخلفية . لقد ظلت ايلكه تعمل لديهم على مدى سنة أو أكثر . وكانت على حدّ تعبير الملحق العمالى - محبوبة للغاية من الأسرة بل وكانت تعتبر أحد أفراد الأسرة .

وهذان العاملان : غياب ايلكه وعدم وجود مراقبة من الشرطة هما اللذان مهدا الطريق أمام حدوث الهجوم . أمّا نجاح الهجوم فانه يرجع إلى الطبيعة الطيبة للملحق العمالى نفسه .

ففى تمام الساعة السادسة من نفس مساء يوم الأحد - أى بعد ساعتين من رحيل ايلكه - وبينما كان الملحق العمالى منهمكا فى مناقشة دينية مع ضيفه وبينما زوجته منهمكة فى حرث وفلاحة التربة الألمانية دق جرس الباب الأمامى . مجرد دقة

واحدة وكالعادة دائما نظر الملحق العمالى من خلال العين السحرية الموجودة بالباب قبل أن يفتح الباب . وكالعادة دائما التقط مسدسه أثناء النظر من خلال العين السحرية . الاّ أن كل ما شاهده من خلال عدسات عين السمكة هو : فتاة شقراء يبلغ عمرها حوالى ٢١ أو ٢٢ عاماً . وكانت ضئيلة الحجم نسبيا ومثيرة بعض الشئ ، وكانت واقفة على عتبة الباب بجوار حقيبة سفر رمادية مربوط فى مقبضها شرائط خاصة بشركة الطيران الاسكندنافية ، وكان يوجد تاكسى - أو كان ذلك سيارة صالون خاصة ؟ - واقفا فى حالة انتظار فى الشارع خلفها . وكان بمقدوره سماع موتور التاكسى يدمدم فى هدير خفيف . وخُيل اليه أنه سمع أيضاً صوت جهاز كهربائى من النوع الذى يحدث شررا إلاّ أن ذلك كان فيما بعد عندما أصبح يتشبث بالقش . لقد كانت بالفعل فتاة جميلة وفقا لوصفه لها . وكانت بالغة الرقة ومتسمة بالطابع الرياضى فى آن واحد مع وجود نمش وبقع حول أنفها . وبدلاً من الزىّ الشائع الذى يتكون من البنطلون الجينز والبلوزة كانت ترتدى فستانا محتشما أزرق اللون مليئا بالأزرار حتى الرقبة . وكانت تضع على رأسها منديلا من الحرير له لون أبيض أو كريمى مما زاد من وضوح شعرها الذهبى ومما جعله يشعر بالاحترام . نحوها ولذلك أعاد مسدسه إلى الدرج العلوى فى خزانة الصالة . وقام بفك سلاسل الباب لكى يفتح لها الباب . ثم حملق فى وجهها منبهرا لأنها كانت جذابة للغاية ولأنه هو نفسه كان يشعر بالخجل والارتباك .

وكل هذا كان من خلال المقابلة الشخصية الأولى . حيث لم يشاهد العم التلمودى أىّ شئ ولم يسمع أىّ شئ . فهو كشاهد كان عديم الجدوى . فمنذ اللحظة التى تُرك فيها بمفرده مع غلق الباب عليه فإنه انهمك على مايبدو فى قراءة تعليقات على مجموعة القوانين التى يتشكل منها التلمود وذلك تمشياً مع الوصية العامة التى صدرت اليه والتى تنص على ألاّ يضيع وقته هباءً وسدى على الاطلاق .

وتكلمت الفتاة باللغة الانجليزية بلكنة اسكندنافية وتساءلت فى بادئ الأمر عما اذا كانت ايلكه موجودة بالمنزل . ولم تسمها باسم ايلكه وإنما سمتها باسم «أوكى» وهو اسم الدلع الذى لايستخدمه سوى الاصدقاء المقربين لها . فأوضح لها الملحق العمالى أنها سافرت فى أجازة منذ ساعتين وأضاف متسائلا عما اذا كان

باستطاعته أن يقدم أى مساعدة لها فعبرت الفتاة عن شعورها بخيبة الأمل بعض الشئ وأشارت الى أنها ستجئ اليها مرة أخرى . وقالت إنها قد وصلت توا قادمة من السويد وإنها قد وعدت والدة ايلكه بأن تسلم هذه الحقيبة التى تحتوى على بعض الملابس واسطوانات جراموفونية . وكانت الاسطوانات الموسيقية هذه بمثابة لفتة كريمة نظراً لأن ايلكه مهووسة بالأغانى والموسيقى الشعبية . وكان الملحق العمالى بحلول ذلك الوقت قد أصرَّ على أن تدخل الفتاة إلى داخل المنزل بل التقط الحقيبة بشئ من البراءة نيابة عنها ونقلها عبر عتبة الباب وهو أمر لن ينساه طوال حياته ولن يغفر لنفسه هذا الخطأ . وهو بالطبع كان قد قرأ العديد من التحذيرات التى تتعلق بعدم استلام طرود يتم تسليمها من خلال وسطاء . وصحيح أنه كان يدرك أن مثل هذه الحقائب يمكن أن تسبب الهلاك . الاّ أن هذه الفتاة كاترين كانت هى الصديقة الحميمة لايلكه وكانت تنتمى لنفس مدينة ايلكه بالسويد وهى قد تسلمت تلك الحقيبة من والدة ايلكا فى نفس ذلك اليوم ! وكانت الحقيبة أكثر ثقلا مما كان يتوقع . ولكنه أرجع ذلك إلى اسطوانات الجراموفون . وعندما قال لها إن تلك الحقيبة قد استنفدت بكل تأكيد الوزن المسموح به لها من الأمتعة أوضحت كاترين أن أم ايلكه قد اصطحبتها بالسيارة إلى مطار ستوكهولم لكى تدفع قيمة الزيادة فى وزن الأمتعة . ولقد لاحظ الملحق العمالى أن الحقيبة من النوع الذى له حوائط ناشفة وأدرك أنها ممتلئة بالأشياء وثقيلة .

وعرض على الفتاة أن يقدم لها فنجانا من القهوة . ولكنها اعتذرت فى رقة وقالت إنه ينبغى عليها ألاّ تجعل السائق يستمر فى حالة انتظار . لم تقل التاكسى وانما قالت السائق وسألها عما كانت ستفعله فى ألمانيا فردت عليه قائلة إنها كانت تأمل فى الالتحاق بجامعة بون كطالبة فى علم اللاهوت . فراح يبحث فى اضطراب عن مفكرة التليفون وقلم رصاص . ثم دعاها لأن تكتب اسمها وعنوانها . الاّ أنها أعادت اليه المفكرة والقلم الرصاص وهى تقول له فى ابتسامة «عليك فقط أن تقول لها إن كاترين قد جاء ت ستدرك كل شئ» ، وأوضحت قائلة إنها تقيم فى بيوت لوثيران للفتيات . وأضافت أنها تقيم بصفة مؤقتة لحين العثور على شقة . (ومثل هذه البيوت الخاصة بالفتيات موجودة بالفعل فى بون وتلك لمحة أخرى تدل على

الدقة والصدق) وأشارت إلى أنها ستحضر مرة أخرى عندما تعود ايلكه من أجازتها وربما تتمكنان من الاحتفال بعيد ميلادها سويا . وكانت تأمل فى ذلك . فأشار الملحق العمالى الى أنهم ربما يقيمون حفلة من أجل إيلكه وأصدقائها - وربما يتم تقديم وجبة المنوبة المكونة من الجبنة والبيض والزبدة . وربما يقوم بنفسه بإعداد هذه الوجبة لأن زوجتى - وذلك وفقا لما أوضحه فيما بعد مراراً وتكراراً - يا سيدى من سكان الكيبوتزات وبذلك فهى لاتصبر على إعداد الطعام اللذيذ الطعم .

وبدأت السيارة أو التاكسى يطلق الكلاكسات التى ترامت من ناحية الشارع فتصافحا بالأيدى . وقامت بإعطاء المفتاح للملحق العمالى . وهنا لاحظ الملحق العمالى لأول مرة أن الفتاة كانت ترتدى فى يديها قفازاً من القطن له لون أبيض الاّ أنها كانت من ذلك النوع الرقيق من الفتيات . كما أن الجو فى ذلك اليوم كان مليئا بالرطوبة ولا يُشجع على حمل حقيبة ثقيلة الوزن على ذلك النحو . ولذلك فهى لم تكتب بخط يدها فى مفكرة التليفون كما أنها لم تترك بصمات على مفكرة التليفون أو الحقيبة أو مفتاح الحقيبة . وكل الوقت الذى استغرقه هذا التبادل - وفقا للتقديرات التى اشار اليها ذلك الرجل المسكين فيما بعد - كان فى حدود خمس دقائق . وليس أكثر من خمس دقائق وذلك بسبب السائق . وراح الملحق العمالى يرقبها وهى تغادر سائرة على الممرّ . وكانت مشيتها جميلة . وكانت مثيرة جنسيا على نحو طبيعى وبدون أن تتعمد ذلك ثم أغلق الباب وربطه بالسلاسل . وبعدئذ أخذ الحقيبة ونقلها إلى غرفة إيلكه التى كانت موجودة بالدور الأرضى . ثم وضعها فوق سريرها فى وضع أفقى على أساس أن ذلك الوضع يكون ملائما بالنسبة للملابس والاسطوانات الموجودة فى داخلها . ووضع المفتاح فوق الحقيبة . ونظراً لأن زوجته كانت موجودة فى الحديقة فإنها لم تسمع أىّ شئ خاصة وأنها كانت منهمكة فى عزق الأرض بالمجراف . وعندما انتهت من أعمـــالها ودخلت إلى المنزل لكى تنضم للرجلين نسى زوجها أن يخبرها بمـــا حـــــدث .

وهنا ظهرت مراجعة متسمة بالطابع الإنسانى .

نسيت ؟ هكذا سأله الفريق الاسرائيلى فى غير تصديق . كيف يمكن لك أن «تنسى» شيئا منزليا يتعلق بصديقة ايلكه القادمة من السويد ؟ بينما الحقيبة ملقاة فوق السرير ؟

فأصيب الملحق العمالى بالانهيار مرة أخرى أثناء إدلائه بأقواله . وقال إنه فى حقيقة الأمر لم ينس على وجه الدقة .

– إذن ماذا ؟ هكذا تساءلوا .

الأمر على ما يبدو هو أنه اعتقد - من خلال تفكيره الداخلى - أن الأمور الاجتماعية لم تعد تثير اهتمامات زوجته على الاطلاق . فكل ما كانت تريده هو العودة إلى الكيبوتز الخاص بها كى تتعامل فى حرية مع الناس بدون وجود ذلك العرف الدبلوماسي . ومن زاوية أخرى فإن الفتاة كانت جذابة وجميلة للغاية مما جعله على ما يبدو يفكر فى الاحتفاظ بها لنفسه . أمّا بالنسبة للحقيبة فإن زوجته لاتدخل أبداً غرفة ايلكه بمعنى أن ايلكه ترعى شئون غرفتها بنفسها .

– وماذا عن عم زوجتك المُتبحّر فى علوم التلمود ؟

إن الملحق العمالى لم يخبره أيضا بأى شئ عما حدث .

وكتبت اللجنة هذه العبارة بدون تعليق : إنه كان يريد الاحتفاظ بها لنفسه.

.. ..

وهنا توقفت الأحداث مثلما يختفى قطار غامض من فوق شريط السكة الحديد . وعادت الفتاة ايلكه ومعها وولف الى بون . وأفادت أنها لاتعرف فتاة تسمى كاترين . وتم اجراء التحريات عن الحياة الاجتماعية الخاصة بايلكه . واتضح أن أمها لم ترسل أية حقائب . بل ولم يخطر على بالها على الاطلاق على أن تفعل شيئا من هذا القبيل . وقالت للشرطة السويدية أنها كانت تبدى اعتراضها على ذوق ابنتها المنخفض فيما يتعلق بالموسيقى وبالتالى فهى لم تشجعها على الانخراط فى ذلك الذوق المنخفض وعاد وولف فى غمّ وكرب إلى وحدته . وقامت المخابرات

العسكرية باستجوابه فى دقة مثيرة للارهاق . ولم يقدم أىّ سائق نفسه سواء أكان سائق تاكسى أو سائق سيارة خاصة رغم نشر اعلانات بمعرفة الشرطة والصحافة فى جميع أرجاء ألمانيا تنص على تقديم مبالغ كبيرة للغاية نظير إدلائه بقصته . وكان الملحق العمالى فى حالة من الاضطراب النفسى . إذ لم يستطع أن يتذكر نوع الحذاء الذى كانت ترتديه تلك الفتاة أو ماإذا كانت قد وضعت أحمر شفاه على شفتيها أو ما إذا كانت وضعت عطراً أو مساحيق أو ما إذا كان شعرها مصبوغا أو ما اذا كانت قد وضعت باروكة شعر على رأسها . وأوضح الملحق العمالى للمستجوبين أن كل ما تلقاه من تدريبات تتعلق بالنواحى الاقتصادية وأن كل اهتماماته خارج نطاق اسرائيل وأسرته كانت تنصب على الموسيقار برامز فكيف يمكن له اذن أن يعرف أية معلومات عن صبغة الشعر الخاصة بالنساء؟ نعم . لقد تذكر أنها لها ساقان جميلان ورقبة شديدة البياض . نعم كانت أكمام ثوبها طويلة . وإلا لكان قد لاحظ ذراعيها . نعم لقد كانت ترتدى ثوبا نسائيا أو أى شئ من هذا القبيل والاّ لكان قد شاهد تكوين جسدها الذى سقط عليه ضوء الشمس بالخارج وهل كانت مرتدية الصديرية الخاصة بالثديين ؟ ربما لم تكن مرتدية تلك الصديرية . اذ كان لها ثديان صغيران مما يجعلها لاتحتاج إلى صديرية للثديين . وقامت عارضات الازياء بارتداء التصميمات المختلفة لكى يلقى نظرة على الملابس المختلفة. وألقى نظرة على مئات الفساتين الزرقاء المختلفة التى أرسلت من محلات من جميع أرجاء ألمانيا . الاّ أنه لم يستطع أن يتذكر ما اذا كان الفستان به ياقة وأساور من لون مختلف . كما أن العذاب الروحانى الذى مرّ به لم يستطع تحسين ذاكرته . وكلما أمطروه بالمزيد من الاسئلة كلما زاد نسيانه وأكد شهود العيان جوانب من قصته الاّ أنهم لم يضيفوا شيئا له أهمية . ودوريات الشرطة لم تشهد الواقعة على الاطلاق والسيارة أو التاكسى كانت ماركة «أوبيك» أو ربما كانت ماركة فورد . وكان لونها رماديا ولم تكن نظيفة للغاية . ولم تكن جديدة أو قديمة وكانت لوحة السيارة صادرة من بون . لا إن اللوحة كانت صادرة من سيجبورج . نعم . كانت توجد علامة التاكسى على السقف . لا لقد كان التاكسى له سقف من النوع المنزلق . كما أن

شخصاً ما سمع صوت موسيقى صادراً ولكن لم يتم التعرف على نوع البرنامج . نعم . لقد كان بالتاكسى ايريال هوائى . لا لم يكن به أىّ هوائى . ولقد كان السائق رجلاً قوقازيا ولكن يمكن أن يكون تركيا . فالاتراك قد فعلوا هذه المؤامرة . لقد كان السائق حليق الذقن ، له شارب وذو شعر أسود اللون . لا كان السائق ذا شعر أشقر. وكان بناؤه الجسدى خفيفا لعله كان امرأة متنكرة فى زىّ رجل . وقال شخص ما إنه متأكد من رؤية منظفة للمداخن متدلية من النافذة الخلفية أو ربما كان ذلك بمثابة ورقة مُصمَّغَة ملتصقة . وقال شخص ما إن السائق كان يرتدى سترة فرائية لها قلنسوة متصلة بها ، أو ربما كان ذلك بمثابة بلوفر .

وعند هذه النقطة المأزق أو الطريق المسدود بدا على الفريق الاسرائيلى وكأنه يتعرض لغيبوبة جماعية . اذ هبط السبات والتبلّد عليهم جميعا حيث كانوا قد وصلوا فى فترة متأخرة ونهضوا فى الصباح مبكرين وقضوا بعض الوقت فى السفارة الخاصة بهم حيث بدا أنهم كانوا يحصلون على تعليمات جديدة . ومرت الأيام واعتقد اليكسيس أنهم كانوا ينتظرون شيئاً ما . وبحلول اليوم الثالث انضم إلى الفريق رجل عريض الوجه وأكبر سنا ويسمى نفسه «شولمان» بصحبة صديق حميم يبدو نحيلا للغاية ويصل عمره إلى نصف عمر شولمان قال اليكسيس إنهما يشبهان قيصرا يهوديا ومعه الكاسيوس اليهودى التابع له .

.. ..

وما إن وصل شولمان ومساعده حتى شعر اليكسيس بشئ من الارتياح والتحرر من عبء التحرى والتقصى والتحرُّر من ملازمة رجل الشرطة له فى كل مكان حيث كان يتصرف وكأنه خليفة له أكثر مما هو مساعده . وأول شئ لاحظه أليكسيس على شولمان أنه رفع على الفور حمية الفريق الاسرائيلى . فقبل أن يجيئ شولمان كان الفريق المكُّون من ستة أفراد يبدو غير متكامل . اذ كانوا يميلون إلى الالتزام بالاخلاق الحميدة ولايتناولون الكحوليات وكانوا قد نشروا شباكهم فى صبر ، وحرصوا فيما بينهم على ظهور ذلك التماسك أو الالتحام الشرقى الذى

تتميز به وحدة قتالية وكان اتسامهم بضبط النفس يسبب الارباك والحيرة والاحباط لأولئك الذين لايشاركون فيه . وعندما قام الشرطى الأخرق أثناء تناول وجبة غذاء سريعة فى المقصف بإلقاء بعض النكات الساخرة بشأن طعام «الكشرى» ثم راح يجاملهم ويحدثهم عن مواطن السحر والجمال فى وطنهم سامحا لنفسه أن يشير إلى رداءة نوعية الخمور الاسرائيلية فانهم تلقوا ثناءه فى انحناءه مقتضبة . وبعدئذ ومع وصول شولمان فجأة أصبح كل شئ واضحا على نحو مختلف فقد كان هو القائد الذى ينتظرون قدومه ومجيئه : جاء شولمان من القدس . وقبل أن يصل بساعات قليلة علموا بوصوله من خلال مكالمة من المقر الرئيسى فى كولونيا .

«انهم يرسلون اخصائيا اضافيا . وهو فى الطريق إليكم» .

ووصل شولمان بالفعل . وبدا من وجهة نظر أليكسيس انه غير اخصائى ، وإنما هو رجل من المحاربين القدماء واسع الأفق وصاخب النشاط ويتراوح عمره مابين أربعين إلى تسعين عاماً وقصير وممتلئ وسلافى وقوى البنيان ومتسم بالطابع الأوروبى أكثر مما هو متصف بالطابع العبرى . وله صدر مثل البرميل وخطوته واسعة مثل مشية المصارع . كما بدا عليه وكأنه يحرّر كل فرد من الانزعاج والقلق . وكان معه مساعده الذى لم يذكر أىّ شئ عنه على الاطلاق . لم يكن مساعده مثل كاسيوس وانما كان أشبه بتلميذ ديستوفسكى : إذ كان فى حالة من الاعياء والصراع مع أنصاف الآلهة . وعندما ابتسم شولمان تدفقت التجاعيد على وجهه صنعتها أجيال من المياه المنسابة إلى أسفل نفس الممرات الصخرية . ثم ضاقت عيناه وأصبحت مثل عينى رجل صينى . وبعدئذ بفترة طويلة ابتسم صديقه الحميم معبرا عن بعض المعانى الداخلية الملتوية . وعندما تكلم شولمان فإنه أطلق آراءً وأفكاراً متصارعة مثل رصاصات متناثرة ثم انتظر لكى يرى أى الرصاصات ذهبت إلى أهدافها وأى الرصاصات ارتدت اليه . ثم لاح صوت مساعده شبيها بفريق النقالة الذى يجمع فى رفق جثث الموتى .

قال شولمان بالانجليزية المنطوقة بلكنة أجنبية «أنا شولمان ، وإننى لسعيد بمقابلتك يا دكتور أليكسيس» .

مجرد كلمة شولمان . بدون أى رتبة وبدون أى لقب أكاديمى أو أىّ فرع أو تخصص أو وظيفة . أمَّا المساعد الخاص به أو التلميذ فلم يكن له أىّ اسم على الاطلاق . لقد كان شولمان بمثابة جنرال شعبى من وجهة نظر أليكسيس، كان جنرالا يمنح الأمل . وكان مدربا عسكريا وفارضا للمهام على نحو غير عادى . وسرعان ما ترامى صوت شولمان الذى اتخذ نبرة النائب العام من وراء الباب المغلق وهو يتحدث مع الملحق العمالى محاولا فحص وتقييم ما تمَّ انجازه من أعمال . وراح أليكسيس يفكر : ان هذا الرجل يتسم بالطابع الارتجالى وهو قد ولد ليكون فدائيا حضريا . وعندما لاذ شولمان بالصمت فإن أليكسيس سمع الصمت أيضا وساءل نفسه : تُرى ماهو ذلك الشئ المهم الذى يقرأه ذلك الشيطان فجأة بحيث يجعل فمه يتوقف عن الكلام . أو هل كانا يؤديان الصلاة ؟ وهل هما قاما بتأدية الصلاة ؟ اللهم الاَّ اذا كان الدور قد جاء على تلميذ شولمان لكى يتحدث مما جعل اليكسيس لايسمع أىّ شئ ولا حتى مجرد همس لأن صوت ذلك التلميذ كان ضئيلا للغاية مثل جسده .

كان شولمان بمثابة نوع من الإنذار النهائى ينقل إلى فريقه الضغوط التى كانت واقعة عليه . ويقول لهم : يمكننا أن نكسب ، لكن يمكننا أيضاً أن نخسر . لقد تأخرنا أكثر من اللازم ولفترة طويلة للغاية . لقد كان شولمان هو المدير الخاص بهم أو الجنرال الخاص بهم . ولكنه هو نفسه كان واقعا تحت الكثير من الأوامر الصادرة إليه أو هذا هو ما أحس به أليكسيس . ولم يكن إحساس اليكسيس دائما على خطأ . اذ شاهد ذلك متمثلا فى الحركة التى اعتاد شولمان أن يقوم بها حيث يشمِّر عن كمّ سترته بأن يمسك بساعد ذراعه الأيسر السميك ثم يلوى معصمه كما لو كان معصم شخص ما آخر إلى أن يعكس ميناء ساعته الحديدية القديمة حلقته . إذن لقد كان أمام شولمان موعد نهائى أيضا لإنجاز الأعمال وذلك وفقا لما تراءى لأليكسيس : إذ توجد هناك أيضاً قنبلة زمنية تتكتك تحته . فتلميذه قد وضع تلك القنبلة فى محفظته الجلدية .

هذا التفاعل بين الرجلين أثار إعجاب اليكسيس ـ وقد رحب اليكسيس بهذا الأمر الذى شتت انتباهه وخفف من الهمّ والضغوط الواقعة عليه . وعندما قام شولمان بالتريض والتنزه ووقف بين الخرائب المحفوفة بالمخاطر الخاصة بالمنزل الذى دمرته القنبلة ملقيا بذراعه للأمام لكى يتفحص ساعته ومعبرا عن غضبه وتبرمه وكأن ذلك المكان كان تابعاً له فإن تلميذه راح يرفرف فوق ظله وكأنه الضمير الخاص به بينما يداه اللتان تشبهان الهيكل العظمى متشبثتان فوق ردفيه وقد بدا عليه كأنه يتحكم فى سيده من خلال جدية معتقداته الهامسة . وعندما قام شولمان باستدعاء الملحق العمالى من أجل أن يقول له كلمة أخيرة لها الطابع الخصوصى ثم تصاعد الحوار بينهما والذى كان يترامى فى خفوت غير مسموع بوضوح إلى صرخات ثم هبط بعد ذلك إلى همهمة خافتة شبيهة بالاعترافات التى تتم فى كرسى الاعتراف أمام الكاهن فإن التلميذ هو الذى اقتاد الرجل المحطم من الغرفة وأعاده إلى هموم سفارته مما أكد فكرة كانت قد خطرت على ذهن أليكسيس منذ البداية ، الاّ أن الأوامر صدرت له من كولونيا بأن يبعد تلك الفكرة من تفكيره .

كان كل شئ يشير إلى تلك الفكرة فالزوجة الغيورة الانطوائية لم تحلم الاّ بالأرض المقدسة والملحق العمالى كان غارقا فى الاحساس بعقدة الذنب لأن استقباله للفتاة كاترين كان متسما بالكرم أكثر من اللازم حيث جعل من نفسه أخا لها أثناء غياب ايلكه . علاوة على اعترافاته الشاذة التى تفيد بأنه كان يعتاد على الدخول إلى غرفة ايلكه فى حين أن زوجته لم تدخل إلى غرفة ايلكه على الاطلاق . اذن فالأمر كانت تشوبه نسمات جنسية وقد أشارت الدلائل إلى ذلك . وشعر بالرضا لأن شولمان أدرك ذلك أيضا . ولكن اذا كانت كولونيا قد اتخذت موقفا صلبا ازاء هذه النقطة فإن بون كانت قد اقتربت من الهستيرية فالملحق العمالى كان بطلا شعبيا : والد فقد ابنه وهو زوج لامرأة معوقة على نحو رهيب . وهو بذلك أصبح ضحية للانتهاك المناهض للسامية فوق الأراضى الألمانية كان دبلوماسيا اسرائيليا مفوضا لدى بون أى كان محترما مثل أىّ يهودى ومَنْ هم الألمان لكى يكشفوا أوراق هذا الملحق العمالى ويظهرونه على حقيقته من حيث هو انسان زان وفاسق وعاهر .

وفى نفس الليلة لحق الملحق العمالى المذهول بطفله إلى اسرائيل وقامت نشرات الاخبار بالتليفزيون بالتغطية وأظهرته وهو يسير فى تثاقل بين صفوف الناس على الممرّ بالمطار وظهر أليكسيس الموجود دائما فى كل مكان وقد أمسك بقبعته فى يده وراح يرقب الملحق العمالى وهو يسير فى احترام متحجّر .

لم تصل بعض الأنشطة التى قام بها شولمان إلى مسامع أليكسيس إلاّ بعد أن سافر الفريق الاسرائيلى بالطائرة عائداً إلى اسرائيل . إذ اكتشف أليكسيس بطريق المصادفة إلى حدٍّ ما أن شولمان وتلميذه قد انفردا بالفتاة إيلكه بعيداً عن المحققين الألمان وتمكنا من اقناعها فى سكون الليل ، أن تؤجل رحيلها إلى السويد حتى يتمكن ثلاثتهم من الانفراد بحديث خاص فيما بينهم نظير مبلغ مجزٍ يدفع لها . ثم أمضيا فترة أخرى من بعد الظهر فى اجراء حوار معها فى غرفة نوم باحد الفنادق ثم استقلا معها سيارة اجرة متجهة إلى المطار . وقد تمَّ هذا من وجهة نظر أليكسيس ـ بهدف التمكن من معرفة مَنْ هم أصدقاؤها الحقيقيون ومعرفة المكان الذى كانت تذهب اليه فى خلال الأوقات التى يعود فيها صديقها إلى الجيش . علاوة على معرفة المكان الذى اشترت منه المرجوانا وأقراص الفيتامينات التى عُثر عليها بين حطام غرفتها . أو معرفة اسم الشخص الذى أعطاها المرجوانا والأقراص ومعرفة اسم الشخص الذى تفضل الاستلقاء بين ذراعيه والتكلم فى استرخاء عن نفسها وعن مخدوميها . ولقد استنتج أليكسيس ذلك لأن الناس التابعين له كانوا قد احضروا له بالفعل تقاريرهم السرية التى تتعلق بايلكه كما أن الأسئلة التى نسبهاإلى شولمان كانت هى نفس الأسئلة التى كان يرغب فى أن يوجهها بنفسه لايلكه لو لم تقم بون بتقييد حريته وكبح جماحه والصراخ فيه «أرفع يديك ولاتتدخل» .

وظلوا يوجهون أليكسيس وينهونه إلى ضرورة الابتعاد عن البذاءة . ونظرا لأن أليكسيس كان يكافح من أجل البقاء على قيد الحياة فإنه التزم بالتعليمات الصادرة اليه والتزم بالصمت لأنه مع كل يوم يمرّ كانت أسهم الشرطى ترتفع مما يلحق الضرر بالوضع الخاص بأليكسيس .

وعلى كل حال فان أليكسيس كان على استعداد لأن يدفع نقوداً كثيرة من أجل الحصول على الاجابات التى انتزعها شولمان من ايلكه أثناء نظراته إلى ذلك المزول القديم لساعة خاصة به - والذى يحتوى على صورة لطالب عربى مكتمل الرجولة أو صورة لملحق دبلوماسى صغير ينتمى للجماعات الدبلوماسية الخارجية على سبيل المثال - أو أكان هو كوبيا ؟ - من خلال تبديد النقود وتقديم العبوات الملائمة الصغيرة من المواد والرغبة غير المتوقعة فى الاصغاء . وفى وقت متأخر أكثر من اللازم وعندما لم يصبح الأمر هاماً بسبب فوات الأوان فان أليكسيس علم أيضا - عن طريق أجهزة الأمن السويدية التى كانت قد اهتمت أيضاً بالحياة العاطفية لايلكه - أن شولمان وتلميذه قد عرضا بالفعل خلال الساعات الأخيرة أثناء نوم الآخرين مجموعة من الصور الفوتوغرافية للاشخاص المحتملين . وعلم أنها قد اختارت من بين تلك الصور صورة لشخص يزعم أنه قبرصى وقالت انها لم تعرف سوى اسمه الأول فقط : ماريوس . كما قالت إنه طلب منها أن تنطق كلمة ماريوس بالطريقة الفرنسية . وعلم أنها قد وقعت على عبارة وفقا لطلبهم وأن هذه العبارة نصها كالاتى : «نعم هذا هو الشخص الذى يسمى ماريوس والذى نمت واضطجعتُ معه» وقد أفهموها أنهم بحاجة إلى تلك العبارة من أجل عرضها على السلطات فى القدس . وراح اليكسيس يسائل نفسه فى تعجب : تُرى لماذا أرادوا عرض تلك العبارة على القدس ؟ هل من أجل التخلص من المأزق الذى وقع فيه شولمان ؟ وهل ذلك من أجل اثارة الثقة فى القاعدة ؟ لقد كان أليكسيس يفهم ويدرك هذه الأمور . وكلما فكر فى هذه الأمور كلما ازداد إحساسه بالألفة والانجذاب مع شولمان . وظل يسمع نفسه وهو يفكر قائلا لنفسه : أنت وأنا بمثابة كيان واحد فنحن نكافح ونشعر ونشاهد .

وكان أليكسيس يـــدرك كل ذلك فى عمق شـــديد علاوة على ايمـــــان راسخ بالذات .

.. ..

وتمّ عقد المؤتمر الختامى فى قاعة المحاضرات حيث كان الشرطى الأخرق الملّ يترأس على مايزيد على ٣٠٠ كرسى معظمها شاغرة ولكن بين هذه المقاعد كانت المجموعتان الألمانية والاسرائيلية تتجمعان على جانبى ممشى الكنيسة مثل العائلات المتعلقة بالزفاف والزواج . وكان الألمان مدعمين بموظفين من وزارة الداخلية وبعض الشخصيات الانتخابية المنتمية للبوندستاج . أما الاسرائيليون فكان معهم الملحق العسكرى الخاص بهم القادم من السفارة الاسرائيلية الاَّ أن العديد من أفراد الفريق الاسرائيلى بما فى ذلك التلميذ الهزيل التابع لشولمان كانوا قد سافروا بالفعل إلى تل أبيب . أو هذا هو ما قاله زملاؤه . وتجمع الباقون فى الساعة الحادية عشرة فى الصباح لكى يتم الترحيب بهم من خلال منضدة مغطاة بقماش أبيض وعليها شظايا متخلفة عن الانفجار وكأنها قطع أثرية موجودة عند نهاية حفرة طويلة وكل قطعة عليها البطاقة المتحفية الخاصة بها . وعند الباب كانت تقف فتاة جميلة وتبتسم بطريقة جذابة للغاية ، وتناول مطويات تذكارية موضوعة فى أغلفة بلاستيكية ومحتوية على بيانات ومعلومات . ولو أنها قدمت حلوى أو أيس كريم لما أصيب أليكسيس بالدهشة . وراح الفريق الألمانى يثرثر ويشقشق ويمدّ رقابه نحو أى شئ بما فى ذلك الاسرائيليين الذين حرصوا على الالتزام بالصمت المميت الذى يتميز به رجال ينظرون إلى أن تضييع دقيقة واحدة هباءً وسُدى يعتبر بمثابة عذاب أليم . وكان أليكسيس هو فقط الذى يدرك كربهم السرى وعذابهم الخفى ويشاركهم ذلك الكرب والعذاب مهما كان مصدر ذلك الكرب والعذاب .

قال أليكسيس لنفسه : نحن الألمان أقوى وأبرع من أن يتفوق علينا أحد . فنحن الطرف القصىّ الحىّ . وكان قد توقع قبل بدء الاجتماع بساعة أن يقف ليلقى كلمة فى ذلك الاجتماع توقع أن يلقى كلمة مختصرة بأسلوبه الرشيق باللغة الانجليزية ويقول لهم «شكرا جزيلاً لكم أيها السَّادة» . الاَّ أن ذلك لم يتحقق اذ كان البارونات قد اتخذوا قرارهم وأرادوا للشرطى أن يحضر على الافطار والغداء والعشاء ، ولم يرغبوا فى توجيه الدعوة لأليكسيس ولا حتى لمجرد تناول القهوة . لذلك راح يتسكع فى المنطقة الخلفية، وقد طوى ذراعيه مظهرا عدم الاكتراث أثناء

قيامه بالدردشة والرغى والتعاطف الوجدانى مع اليهود . وعندما أصبح جلس الجميع باستثناء أليكسيس بدأ الشرطى يدخل بتلك المشية التى يستخدمها فى كل مرة يتجه فيها إلى منبر الخطابة . وخلفه كان يسير شاب مرتديا معطفا له لون أبيض ويحمل معه نسخة طبق الأصل من الحقيبة الرمادية التى بها شرائط شركة اسكندنافيا للطيران ثم قام بوضع تلك الحقيبة على المنصة كما لو كانت قرباناً . وراح أليكسيس يبحث عن بطله شولمان ، فوجده جالسا بمفرده فى مقعد بجوار الممرّ فى المؤخرة . وكان شولمان قد خلع سترته ورباط عنقه وارتدى بنطلونا مريحا فضفاضاً ظهر قصيراً ومرتفعا بعض الشئ فوق حذائه ذى الطراز القديم وبسبب خصره الممتلئ السمين . وكانت ساعته المصنوعة من الحديد الصلب تتغامز مع معصمه البنىّ اللون . كما أن بياض قميصه المنعكس على بشرته الذابلة قد أعطاه المنظر الظريف لشخص ما بصدد أن يغادر المكان من أجل القيام بأجازة .

فقال أليكسيس فى سرّه فى شئ من الكآبة والحزن وهو يتذكر جلسته المؤلمة مع البارونات : «تمسَّك بموقفك يا شولمان وأنا سأجيئ معك» .

وتحدث الشرطى بالانجليزية «تعبيراً عن الاحترام ازاء اصدقائنا الاسرائيليين» ولكن أليكسيس شك أيضا فى أن ذلك كان تعبيرا عن الاحترام ازاء أولئك الناس الذين أيدوه وناصروه والذين جاءوا ليشاهدوا أداء بطلهم . كان الرجل قد حصل على دورة تدريبية تتعلق بمناهضة التخريب فى واشنطن ولذلك كان يتكلم باللغة الانجليزية المذبوحة لرائد من رواد الفضاء . وكنوع من المقدمة قال لهم الشرطى إن ذلك الهجوم الوحشى كان من أعمال «العناصر اليسارية الراديكالية» وعندما أشار إلى «التورط الاشتراكى من جانب الشباب الحديث» ظهرت بعض الموافقات التى تؤيد كلامه فى الكراسى البرلمانية . وراح أليكسيس يفكر : ان الفوهرر نفسه لم يكن بمقدوره أن يتناول الموضوع على نحو أفضل من ذلك ولكنه ظل غير مبالٍ وغير مكترث من الناحية الظاهرية فقط . وكان الانفجار قد اتجه لأعلى وفقا لأسباب معمارية ولما أوضحه الشرطى حيث دعمّ شرحه على رسم بيانى قام مساعده بنشره خلفه. وحطم الانفجار البنية الرئيسية بالمنزل ناسفا الطابق

العلوى مما أدى إلى تدمير غرفة النوم الخاصة بالطفل وباختصار كان الانفجار مروعا - من وجهة نظر أليكسيس - إذن لماذا لم يقل ذلك ويصمت ؟ الاَّ أن الشرطى لم يكن يميل إلى الكفّ عن الكلام إن أفضل التقديرات تشير إلى أن الشحنة الناسفة كان وزنها خمسة كيلو جرامات . ولقد تمكنت الأم من البقاء على قيدْ الحياة لأنها كانت فى المطبخ . وكان المطبخ فى مبنى ملحق بالمبنى الرئيسى .

وكرَّر الرجل السليزى القول بأفضل مالديه من لغة انجليزية حيث قال «مبنى ملحق بالمبنى الرئيسى» وتجاهل المصادر غير المرحبة واستأنف كلامه فى عنف وفى غير تبصّر .

فقال أليكسيس لنفسه «فى حياتى التالية سوف أكون يهوديا أو أسبانيا أو من الاسكيمو و أكون شخصا فوضويا مثل أىّ شخص آخر . ولكننى لن أكون ألمانيا - فالإنسان يكون ألمانيا مرة واحدة كنوع من الكفارة عن الذنوب . فالألمانى هو فقط الذى يستطيع أن يلقى خطابا افتتاحيا يتعلق بطفل يهودى ميت .

وألقى أليكسيس نظرة على شولمان وأدرك أن شولمان بدأ ينظر إلى الباب فى خلسة ويتهيأ للانصراف بينما رأسه العريضة قد مالت قليلا فى اتجاه أليكسيس وارتفعت ذراعه التى يوجد بها الساعة ولكن بالطريقة التى يستشير بها المرء معدته وليس من أجل معرفة الوقت . وتلاقت عيناهما بالفعل، ولكن أليكسيس أدرك على نحو أكيد أن شولمان كان فى انتظاره يرغب فى مقابلته ليقول له «الغداء». وكان الشرطى مازال يدندن ويطنطن وكان الحاضرون مازالوا يقفون حوله مثل مجموعة من المسافرين الواقفين فى كوكبة من أجل الصعود إلى طائرة . فسار أليكسيس على أطراف أصابعه بسرعة وراء شولمان الذى شرع فى الانصراف بالفعل . وفى الطرقة أمسك شولمان بذراع أليكسيس فى مودة . وعلى الرصيف بالشارع - حيث أصبح الجو مُشْمساً مرة أخرى - قام كل من الرجلين بخلع سترته ثم استدعى أليكسيس تاكسيا وأعطى السائق اسم مطعم ايطالى يقع على قمة تلّ موجود عند الطرف البعيد لبادنسبرج . لقد سبق أن اصطحب نساء إلى هناك ولكنه

لم يصطحب رجالاً من قبل على الاطلاق وكان اليكسيس يتذكر دائما النواحى الجنسية التى تحدث مع النساء لأول مرة .

.. ..

لم يتبادلا سوى كلمات قليلة أثناء انطلاق التاكسى بهما . وكان شولمان معجبا بالمناظر الطبيعية وظهر عليه الصفاء والهدوء الذى يشعر به الشخص الذى يقضى أجازة يوم السبت رغم أن اليوم كان فى منتصف الأسبوع . وتذكر أليكسيس أن شولمان من المقرّر له أن يغادر كولونيا على متن الطائرة التى تُقلع فى المساء . ومثل الشخص الذى يتم اخراجه من مدرسة راح أليكسيس يحصى الساعات المتبقية التى سيقضيها مع شولمان مفترضا أن شولمان لم يكن لديه أية ارتباطات أو مواعيد أخرى وهو افتراض يبعث على الضحك ولكنه رائع . وفى المطعم الموجود فى الأعالى فوق مرتفعات سيسيل، قام صاحب المطعم الايطالى بإبداء اهتمام أكثر من اللازم بأليكسيس ولكنه كان مفتتناً تماما بشولمان . اذ كان يطلق عليه اسم «الهرّ البروفسور» وأصرّ على تجهيز منضدة كبيرة بجوار النافذة تتسع لستة أشخاص حيث كانت تبدو أسفلهما المدينة القديمة . وإلى ما وراء المدينة كان يبدو نهر الراين ملتويا مع تلاله البنية اللون وقلاعه المحفوفة بالمخاطر . وكان أليكسيس يحفظ ذلك المنظر الطبيعى عن ظهْر قلب ولكنه اليوم ومن خلال عينى صديقه الجديد شولمان كان يشهد ذلك المنظر لأول مرة . وطلب أليكسيس كأسين من الويسكى . فلم يعترض شولمان على ذلك .

راح شولمان يحملق فى المنظر الطبيعى أثناء انتظارهما مجيئ كأسىْ الويسكى ثم تكلم أخيراً قائلا «ربما او أن فاجنر ترك ذلك الشخص الذى يسمى سيجفريد فى هدوء وسلام لكان الأمر قد أصبح على نحو أفضل» .

وللحظات لم يستطع أليكسيس أن يعرف ما الذى حدث . اذ كان يومه حتى تلك الآونة مشحونا ومزدحماً بالاضافة إلى أن معدته كانت خاوية وعقله كان مهزوزاً . وكان شولمان يتكلم باللغة الألمانية وفى لهجة أبناء السوديت وهى سميكة صدئة مليئة

بالأزيز مثل ماكينة بطل استخدامها . علاوة على أنه كان يتكلم وعلى شفتيه ابتسامة مليئة بالندم تحمل بين طياتها الاعتراف علاوة على التقارب نحو وضع خيوط مؤامرة . فاطلق أليكسيس ضحكة خفيفة ، عندئذ ضحك شولمان هو الآخر . وجاء الويسكى وراحا يحتسيان بعد أن تبادلا الأنخاب .

قال شولمان باللغة الألمانية «أخبرونى أنك بصدد الحصول على وظيفة جديدة فى فيزبادن وظيفة مكتبية من نوع ما . وقد سمعت أنها وظيفة أكبر من الناحية الشكلية ولكنها تشتمل على أعمال قليلة . فهم يقولون إن مواهبك الكبيرة لا تتلاءم مع الناس هنا . وبعد أن تقابلت معك بنفسى وشاهدت الناس ـ فاننى لاأشعر حاليا بالدهشة من ذلك القرار» .

وحاول أليكسيس ألاّ يبدو مندهشا هو الآخر . انهم لم يقولوا شيئا عن التفاصيل التى تتعلق بوظيفته الجديدة ـ كل ما قالوه إن وظيفة جديدة آتية فى الطريق . بل ان تعيين الشرطى فى الوظيفة التى يشغلها أليكسيس كان لايزال من الأمور السرية . ولم يكن لدى أليكسيس الوقت الكافى لكى يتحدث عن هذا الموضوع مع أى شخص آخر ولا حتى مع صديقته الشابة التى كان يتحدث معها فى مكالمات تليفونية لامعنىً لها مرات عديدة يوميا .

وقال شولمان معلقاً «هذه هى سنة الحياة . أليس كذلك ؟» . ونطق تلك العبارة بطريقة فلسفية وكان يوجه تلك العبارة إلى النهر أكثر مما هو يوجهها إلى أليكسيس . وأضاف قائلا «صدقنى اذا قلت لك إن حياة الانسان فى القدس هى أيضا محفوفة بالمخاطر ضد تيار النهر أو فى اتجاه مجرى النهر . هكذا تسير الحياة هناك» وبدا عليه وكأنه يشعر بالاحباط بعض الشئ . واستطرد قائلا : «وقد سمعت أنها فتاة لطيفة أيضا . وجذابة وذكية ومخلصة وأنها امرأة أكثر مما يستطيعون احتمالها» . وهو بذلك القول قد اصطدم مرة أخرى بما يدور فى رأس زميله من أفكار .

وقاوم أليكسيس الاغراء بتحويل المناسبة إلى حلقة دراسية تتعلق بمشكلات الحياة الخاصة به وتعمد توجيه دفة الحديث نحو المؤتمر الذى عُقد فى هذا الصباح، ولكن شولمان ردّ فى غموض قائلا إن الفنيين لم يسبق لهم أن حلوا أىّ مشكلة على الاطلاق وأضاف قائلا إن القنابل من الموضوعات التى تسبب له الضيق والملل . وكان قد طلب طبقا من مكرونة الباستا وراح يتناولها بأسلوب السجين حيث يستخدم ملعقته وشوكته بطريقة آلية دون أن يهتم بإلقاء نظرة لأسفل . وخشى أليكسيس أن يعرقل تدفقه تناول الطعام ولذلك التزم بالهدوء والصمت .

وشرع شولمان ـ منطلقا فى السرد والكلام مثل أىّ رجل عجوز ـ فى التفجع والرثاء والتحدث عن حلفاء اسرائيل المزعومين الذين يقامون التخريب فقال بصوت من يستعيد الذكريات البسيطة «فى شهر يناير الماضى عندما كنا نقوم بتفحص الأمور بطريقة مختلفة تماما دعونا أصدقاءنا الايطاليين للتشاور معهم وعرضنا عليهم بعض الأدلة والبراهين الدامغة ، وزودناهم ببعض العناوين الهامة . ثم بعد ذلك أدركنا أنهم قاموا بإلقاء القبض على عدد قليل من الايطاليين بينما الناس الذين تسعى القدس لإلقاء القبض عليهم كانوا يجلسون فى أمن وأمان فى ليبيا وقد اكتست بشرتهم باللون البرونزى الناجم عن التعرضّ لأشعة الشمس حيث كانوا ينتظرون تكليفهم بالمهمات الأخرى التالية . ولم يكن ذلك هو ما نهدف اليه» . ثم ملأ فمه بكمية من المكرونة . وبعدئذ راح يجفف شفتيه مستخدما ورق السفرة فراح أليكسيس يفكر : ان الطعام بالنسبة له بمثابة الوقود . فهو يأكل لكى يتمكن من أن يقاتل . واستطرد شولمان «وفى شهر مارس عندما ظهرت مسألة أخرى تكررت القصة مرة أخرى على وجه الدقة . ولكننا فى هذه المرة كنّا نتعامل مع باريس . اذ تم القاء القبض على عدد معين من الفرنسيين ولكن لم يتم القبض على أىّ شخص آخر . ثم حصل موظفون على الاستحسان أيضا ، بل وحصل بعضهم على الترقية. والفضل فى ذلك يرجع الينا» ثم هزّ كتفيه بشدة واستطرد «أماَ العرب فلم يتم إلقاء القبض على أحد منهم . وربما كان الأمر يغلب عليه المصلحة الذاتية أو المنافع الخاصة . فالسياسة البترولية قوية والاقتصاد قوى وكل شئ قوى . أماَ العدالة فهى

ضعيفة وواهنة . والعدالة هى الشئ الذى نحبه ونرغب فيه» وابتسم ابتسامة عريضة وأضاف : «لذلك يمكننى القول إننا قد تعلمنا أن نكون انتقائيين وأن نختصر فى الكلام لأن خير الكلام ما قلّ ودلّ . وتعلمنا كيف ننجز الأعمال مع أولئك الأشخاص الذين يتخذون موقفا وديا إزاءنا والذين لهم سجل مشرف مثير للاعجاب . ويتم التعامل فى حرص وحذر وبطريقة غير رسمية وفى داخل نطاق الأصدقاء . اذا كان الشخص الذى يتعامل معنا سيستخدم معلوماتنا بطريقة فعالة من أجل بناء وترقية نفسه فى وظيفته بعض الشئ ، فإنه لامانع عندنا من أن يحصل أصدقاؤنا على بعض النفوذ فى وظائفهم . ولكننا نريد نصيبنا ونتوقع من الناس أن يعطونا نصيبنا من الصفقة . وهذا هو الأمر الذى نتوقعه من أصدقائنا بصفقة خاصة » .

واستطرد شولمان قائلا : «منذ سنوات قليلة أثارت مجموعة من الفلسطينيين جحيماً فى بلادى . وهؤلاء الفلسطينيين من طبقة اجتماعية منخفضة . اذ يحاول بعض الفلاحين الفلسطينيين أن يظهروا على أنهم أبطال . فيقومون بالتسلل عبرْ الحدود ويرقدون داخل قرية ، ثم يتخلصون من القنابل الموجودة معهم ويلوذون بالفرار رغبة فى النجاة . ونحن اذا لم نتمكن من إلقاء القبض عليهم فى خلال العملية الأولى التى يقومون بها فإننا نمسك بهم فى خلال العملية الثانية . أمَّا الناس الذين أتحدث عنهم فكانوا مختلفين . اذ كان هناك مَنْ يقودوهم ويوجههم ، ولذلك كانوا يعرفون كيف يتحركون بأسلوب صحيح . ويعرفون كيف يظلون بعيدين عن الوشاة والمخبرين ، وكيف يخفون جُرة وانطباعات أقدامهم على الرمال وكيف ينجزون الترتيبات الخاصة بهم ، وكيف يكتبون الأوامر والتعليمات الخاصة بهم . ولقد تمكنوا فى أول مرة من ضرب سوبر ماركت فى بلدة بيت شيعان وفى المرة الثانية قاموا بهجوم على مدرسة ثم هجموا على بعض المستوطنات ، ثم ضربوا «سوبر ماركت» آخر إلى أن أصبحت تلك الهجمات أمراً اعتياديا يسير على وتيرة واحدة . وبعد ذلك بدأوا ينصبون الكمائن لجنودنا الذين يسافرون بطريقة «الأوتوستوب» لدى حصولهم على أجازة . وتعالت صيحات الغضب من جانب أمهات الجنود وامتلأت الصحف والمجلات بالمقالات التى تتفجر بالغضب والاستياء . وبدأ

كل شخص يقول : «امسكوا بهؤلاء الفلسطينيين» وشرعنا نعمل من أجل القبض على هؤلاء الفلسطينيين . واكتشفنا أنهم كانوا يستخدمون كهوفا فى وادى الأردن ويعيشون بعيداً عن الأماكن الآهلة بالسكان . ولم نستطع العثور عليهم . وقالت أجهزة الدعاية الخاصة بهم إنهم بمثابة أبطال «المجموعة الفدائية رقم ٨» . ولكن المجموعة ٨ لاتستطيع أن تشعل عود كبريت بدون أن نعرف مقدما ما يفعلون . وجاءتنا معلومات تفيد أنهم بمثابة مجموعة من الأخوة الأشقاء . أو هم بمثابة مشروع عائلى فدائى. وقال أحد المخبرين إنهم ثلاثة من الأخوة وقال مخبر آخر إنهم أربعة من الاخوة . ولكن الشئ المؤكد أنهم بالفعل أخوة أشقاء ويعملون انطلاقاً من أراضى الأردن . وكنا متأكدين من هذه المعلومة تماماً .

«فأنشأنا فرقا تسمى فرق السيارات وهى بمثابة فرق اغتيال صغيرة العدد تضم رجالاً يتسمون بالقوة والقسوة ولقد سمعنا أن القائد الفلسطينى يتميز بميله إلى العزلة ولايثق فى أىّ فرد آخر خارج نطاق أسرته . وكان من الواضح أنه شديد الارتياب والشك . ولكننا لم نعثر على ذلك القائد على الاطلاق . ولم يكن شقيقاه يتميزان بالذكاء الشديد . وكان لأحدهما علاقة عاطفية مع فتاة صغيرة تعيش فى عمّان . وبينما كان يغادر منزلها ذات صباح انهال عليه وابل من الرصاص المتدفق من المدافع الرشاشة . والشقيق الثانى قد وقع فى غلطة حيث ذهب لزيارة صديق له فى مخيم فى صبرا حيث قرر أن يقضى أجازة نهاية الأسبوع عند ذلك الصديق . فقام سـلاح الطيران بنسف سيارته بينما كان يقود سيارته على الطريق الساحلى» .

واستطرد شولمان قائلا «وبحلول ذلك الوقت كنا نعرف هوية هؤلاء الأشقاء الفلسطينيين . فهم من الضفة الغربية وينتمون لقرية مشهورة بزراعة العنب والكروم وقريبة من الخليل وقد هربوا من الضفة الغربية عقب حرب ١٩٦٧ . ولقد كان لهم أخ رابع ولكنه كان صغيرا فى السن للغاية بحيث لايتمكن من القتال حتى ولو كان قتالا وفقا للمستويات الفلسطينية . كما كانت لهم أختان الاّ أن إحداهما لقيت مصرعها

أثناء قيامنا بعملية انتقامية تشتمل على تفجير للقنابل فى جنوب نهر الليطانى . وبذلك تمكنا من تحطيم هذه الأسرة . ومع ذلك ظللنا نبحث عن الرجل الرابع . وكنا نتوقع له أن يقوم بجمْع التعزيزات استعدادا للهجوم علينا . ولكنه لم يهجم علينا . بل وتوقف عن شراء حاجياته من السلاح . ومرت ستة شهور بل ومرت سنة كاملة . فقلنا لأنفسنا : «يجب علينا أن ننساه . فأغلب الظن أن شعبه هم الذين قاموا بقتله» .

ثم سمعنا أن السوريين عاملوه فى قسوة شديدة ومن ثم توقعنا له أن يكون قد مات بالفعل . ومنذ شهور قليلة التقطنا إشاعة تفيد أنه وصل إلى أوروبا هنا . وكوَّن فريق عمل يضم العديد من النساء ، ومعظمه من الشبان الألمان» . ثم ملأ فمه بكمية أخرى من المكرونة وراح يمضغ ويبتلع وهو غارق فى التفكير . واستطرد قائلا : «وكان يدير فريق العمل التابع له من على مسافة حيث كان متحفظا فى علاقاته معهم . وقام بدور المفيستو * ، اسم شيطان عربى مع مجموعة من الأولاد والفتيات العاطفيين سريعى الانفعال» .

وغادر شولمان فى ذلك المساء . وتخلفت البقية الباقية من فريقه عن السفر وظلوا موجودين لمدة يومين آخرين . وفى حفل التوديع الذى أقامه الشرطى تعبيرا عن العلاقات الممتازة التى تربط الاستخبارات فى كل من ألمانيا واسرائيل ـ وهو حفل غير رسمى اشتمل على تناول البيرة البيضاء والسجق ـ أصرّ أليكسيس على تخريب ذلك الاحتفال عندما أشار أن حكومة بون اختارت ذلك اليوم لكى تلمح إلى صفقة الأسلحة المقرر عقدها قريبا مع السعوديين ، لذا فمن غير المحتمل أن يصبح ضيوفهم فى حالة نفسية بهيجة. وربما كان هذا هو آخر عمل فعال يقوم به أليكسيس خلال وظيفته . فبعد شهر تم نقله وابعاده إلى فيزبادن لكى يشغل وظيفة تعتبر من الناحية الشكلية ترقية له .

---

* المفيستو : أحد الشياطين السبعة فى اساطير القرون الوسطى

الفصل الثانى

لم يكد ينقضى ثمانية أسابيع حتى عاد الرجل الذى يعرفه الدكتور أليكسيس تحت اسم «شولمان» إلى ألمانيا . وفى ذلك الوقت كانت التحريات والخطط التى اضطلعت بها فرق القدس قد حققت قفزات غير عادية حتى أن أولئك الذين مازالوا يعملون من خلال أطلال وأنقاض بناء جودزبرج لم يكونوا بحالة تسمح لهم بالتعرف على الموضوع . ولو كان الأمر مجرد معاقبة المجرمين – ولو كان حادث جودزبرج مجرد حادث منفصل وليس جزءاً من سلسلة عمليات منسقة – لما اهتم شولمان بإدخال نفسه فى هذا الموضوع على الإطلاق . حيث إن أهدافه كانت أكثر طموحاً من مجرد معاقبة المجرمين كما أن أهدافه كانت تتعلق بشكل وثيق ببقائه على قيْد الحياة من الناحية المهنية الوظيفية . وعلى مدى شهور راحت الفرق التابعة له بدافع من إلحاحه واستعجاله القلق تبحث عما يسميه بالنافذة التى كانت متسعة بالقدر الذى يسمح بتسريب شخص ما من خلالها مما يؤدى بالتالى بأخذ العدو من داخل منزله وليس ضرب العدو بالدبابات والمدفعية من خلال مواجهة مباشرة معه وهو الاتجاه الذى بدأت اسرائيل تتجه نحوه بشكل متزايد .

ولم يكن مجيىء شولمان فى هذه المرة إلى بون وانما جاء إلى ميونيخ كما أن مجيئه فى هذه المرة لم يكن تحت اسم شولمان . بل إن أليكسيس والشرطى الذى شغل منصب أليكسيس لم يكونا على علْمٍ بوصوله وهو أمركان يهدف إليه شولمان . اصبح اسم شولمان فى هذه المرة – إذا كان له أى اسم – هو كيرتز وهو نادرا ما كان يستخدم ذلك الاسم حتى أنه يمكن أن يُغفر له إذا نسى ذلك الاسم

تماما فى يوم ما . وكلمة كيرتز تعنى القصير أو المختصر ، وقال البعض إنه كيرتز الذى يتميز باللجوء إلى الوسائل المختصرة . وقال ضحاياه إنه كيرتز صاحب الفتيل القصير . وقام آخرون بعقد مقارنات مضنية بينه وبين بطل رواية جوزيف كونراد «قلب الظلمات» فى حين أن الحقائق البسيطة كانت تشير إلى أن ذلك الاسم هو اسم أحد أبطال البرتو مورافيا وأنه كان يُنطق ويكتب أصلاً : كيرز إلى أن قام ضابط شرطة بريطانى أثناء فترة الانتداب البريطانى بإضافة حرف التاء إلى الاسم فأصبح كيرتز فصار حرف التاء المضاف بمثابة خنجر صغير مغروز فى كيان هويته وظل موجوداً فى جسد شخصيته كنوع من المهماز أو الشوكة .

وصل إلى ميونيخ قادما من تل أبيب عن طريق استانبول مغيرا جوازات سفره مرتين ومغيرا الطائرة ثلاث مرات . وقبل ذلك ظل يتجسس فى لندن لمدة أسبوع إلاَّ أنه فى لندن كان يقوم بعمل هادىء للغاية . ففى كل مكان ذهب إليه يختبر الأمور ويراجع النتائج ويجمع العون والمساعدة ويقنع الناس بوجهة نظره ويزودهم بقصص التغطية وأنصاف الحقائق ويهيمن على غير الراغبين بطاقاته المتواصلة غير العادية وبتخطيطه المسبق . وكان يحب أن يقول للناس فى ومضة رشيقة : نحن نعيش لفترة قصيرة للغاية بل إننا انتقلنا إلى رحمة الله منذ فترة طويلة مضت . وكان الحلّ من وجهة نظره هو التخلى عن النوم والسبات العميق . وفى اسرائيل كان يحلو لهم أن يقولوا إن كيرتز يعمل بسرعة وينام بسرعة أيضاً وإنه هو أستاذ الخطط الأوربية العدوانية . كما يقولون إن كيرتز هو الذى يجتاز الممرات الصعبة ويجعل الصحراء تزهر وتكتسى باللون الأخضر. وكان كيرتز يلف ويدور ويكذب حتى أثناء تأدية صلواته . الاَّ أنه جلب قـدرا كبيراً من الحظ يفوق ما جلبه كافة اليهود عبْر ألفين من السنوات .

وكان كيرتز متناقضا ومعقدا للغاية ويحمل فى داخله العديد من الأشكال والألوان . بل وفى العديد من النواحى كانت علاقاته مع رؤسائه – وبصفة خاصة مع رئيسه المباشر ميشا جافرون - أقرب إلى الاتسام بعدم الانتماء ؛ إذ لم يكن له منصب وظيفى محدد بفترة معينة . كما أن قاعدة نفوذه كانت فى حالة قلقلة

ودائمة التغيّر . وهو لم يكن من الصابرا كما كانت تنقصه خلفية الصفوة المستقاة من الكيبوتزات والجامعات وفرق الصاعقة التى تدعم على نحو متزايد الهيئة التى تعمل بها . وهو كان غير متوافق مع الأجهزة التى يعملون بها مثل أجهزة الكشف عن الكذب وأجهزة الكمبيوتر وغير ذلك من الأساليب الأمريكية مثل علم النفس التطبيقى والسيطرة على الأزمات . وهو كان يحب الديسبورا (*) وجعل ذلك شغله الشاغل وذلك فى الوقت الذى أصبح فيه معظم الاسرائيليين يجددون هويتهم على أنهم شرقيون .

قال كيرتز لفريق القدس التابع له «اعثروا على الولد» مبتدئا بذلك أسفاره وجولاته المظلمة . إنه ولد واحد ومعه رفيق ملازم له . اعثروا على الولد ولسوف يجيىء بعده زميله المرافق له بكل سهولة . وراح يكرر فى إلحاح ذلك المطلب . وأخذ يتصل بأعضاء فريقه تليفونيا من أماكن غريبة وفى أىّ وقت بالنهار أو بالليل لمجرد الإبقاء على وجوده بينهم فى كل الأوقات. هل عثرتم على ذلك الولد ؟ وألغى كيرتز الأجازات كما ألغى الراحة فى أيام السبت وذلك من أجل الاسراع بالبحث فى كل مكان . «أعثروا على الولد . لأن ذلك الولد سيوضح لنا الطريق» . وذات يوم ومن مكان ما ابتكر اسما كوديا لذلك الولد : يانوكا وهى كلمة آدامية تعنى : الطفل الرضيع الذى نما وكبر بعض الشىء . «احضروا لى يانوكا وأنا سأقوم بتقديم أولئك الفلاحين الأجلاف مع التنظيم كله على طبق» .

ولكنه لم يبعث بكلمة واحدة لرئيسه المباشر جافرون .

وكان رصيده كبيرا من المعاونين الخارقين للطبيعة المنتمين للديسبورا المحببين له . وفى لندن وحدها كان ينتقل من مكان لآخر بسرعة من تجار الفنون الكبار إلى الراغبين فى أن يكونوا أقطابا فى صناعة الأفلام ومن صاحبات الفنادق فى الايستاند إلى تجار الملابس وتجار السيارات المشكوك فى أمرهم وشركات المدينة الكبرى . كما شوهد مرات عديدة أيضا فى المسرح – وفى إحدى

(*) الديسبورا : الشتات الذى تم بعد الأسر البابلى .

المرات كان العرض فى خارج المدينة – ولكن دائما من أجل مشاهدة نفس العرض وكان يأخذ معه دبلوماسياً اسرائيلياً ذا اهتمامات ثقافية رغم أنهما لم يكونا يتناقشان فى النواحى الثقافية . وفى مدينة كامدين تناول الطعام مرتين فى مطعم متواضع يدار بمعرفة مجموعة من الهنود . وفى مدينة فروجنال التى تقع على مساحة ميلين فى الاتجاه الشمالى الغربى قام بمعاينة منزل فيكتورى قديم يسمى الأكر وأعلن أنه يتلاءم مع احتياجاته . ولكنه أوضح لأصحاب هذا المنزل إنه لن يجرى تعاقدات معهم الاَّ بعد أن يتأكد أن طبيعة عمله ستضطره إلى المجيىء إلى ذلك المكان. فوافقوا على هذا الشرط . ووافقوا على كل شىء وأشاروا إلى أنهم مبتهجون لأنهم يخدمون اسرائيل حتى ولو كان ذلك يعنى انتقالهم إلى منزلهم الموجود فى مارلو والعيش فيه لشهور قليلة . ألم تكن لديهم شقة فى القدس يستخدمونها من أجل زيارة الأصدقاء والعائلة فى كل عيد من أعياد الفصح اليهودية عقب قضاء أسبوعين بين مياه وشمس ايلات ؟ وألم يكن لديهم التفكير الجاد فى العيش هناك نهائيا . وأبدوا استعدادهم لتنفيذ أية مطالب يريدها كيرتز وبدون أىّ مقابل وبدون أن ينطقوا بأىّ كلمة أو يدلوا بأية معلومات لأىّ شخص .

وفى السفارات والقنصليات والمفوضيات كان كيرتز يعايش التطورات التى تحدث فى وطنه علاوة على معايشة التقدم الذى يحرزه شعبه فى أجزاء أخرى من العالم . وأثناء الرحلات الجوية كان يطلع على الأدب الثورى الراديكالى من كافة الأنواع حيث كان صديقه الحميم الضعيف الذى كان اسمه الحقيقى : شيمون ليتفاك يحتفظ بمختارات من ذلك الأدب فى حقيبته ويعرضها عليه .

وذات يوم سمع عن وجود منزل معروض للإيجار بسعر منخفض وهو المنزل رقم ١١ بشارع دزرائيلى . وفى سرية تامة أصدر أوامره للفريق الذى يعمل تحت رئاسته بالارتحال إلى هناك .

لقد كان المنزل رقم ١١ بمثابة فيلا عربية جميلة وهى ليست كبيرة الحجم ولكنها باردة بها شجرة ليمون فى الحديقة الأمامية . وحوالى مائتى قطة حيث

كانت الموظفات تطعمها فى سخاء . لذلك أصبح هذا المكان معروفا باسم «بيت القطط» . ودعم هذا المنزل وضع العملية التى سيتم تنفيذها وهذا فى حدّ ذاته يعتبر أمراً بالغ الأهمية من وجهة نظر كيرتز .

وفى اليوم التالى جاء ت الضربة التى كان ينتظرها والتى لا يزال عاجزا عن منع حدوثها . لقد كانت ضربة رهيبة ؛ إذ تم نسف شاعر اسرائيلى شاب قام بزيارة لجامعة ليدن بهولندا كان من المقرر له أن يتسلم جائزة . وتناثر جسده إلى اجزاء صغيرة أثناء تناوله طعام الافطار من خلال طرد ملغوم تم تسليمه للفندق الذى ينزل فيه فى صباح عيد ميلاده الخامس والعشرين . تلقى كيرتز هذه الأنباء وهو فى مكتبه . فجفل وأغلق عينيه للحظات ولكنه فى خلال ساعات كان فى غرفة رئيسه جافرون ، وقد حمل تحت إبطه مجموعة من الملفات علاوة على إمساكه بيده الشاغرة نسختين من خطته العملية بحيث يتسلم جافرون نسخة واحدة وتتسلم لجنة القيادة التابعة لجافرون نسخة أخرى وهى اللجنة التى تضم سياسيين عصبيين وجنرالات متعطشين للقتال .

ولم يكن بالمستطاع معرفة ما دار على وجه الدقة بين الرجلين لأن كلا من كيرتز وجافرون لا يشعر بالثقة فى الناس . ولكن بحلول صباح اليوم التالى نجد أن كيرتز قد حصل على ترخيص من نوع ما لأنه أصبح مسئولاً عن قوات جديدة . واستخدم ليتفاك كوسيط له لأن ليتفاك من الصابرا الذين تدربوا تدريبا جيدا . وكانت هذه الأسرة التى تكونت على وجه السرعة تضم شابا يبلغ من العمر ٢٣ عاما ويسمى أوديد قد نشأ فى نفس الكيبوتز الذى نشأ فيه ليتفاك . وكان الجدّ فى هذه الأسرة هو رجل جورجيانى عجوز يبلغ من العمر سبعين عاما ويسمى بوجاس شويلى - شويلى على سبيل الاختصار - وكان لشويلى رأس صلعاء لامعة وكتفان محدّبان . أما بنطاله فكان من النوع الذى يرتديه المُهرِّج - إذ كان منخفضا للغاية فوق الحوض وقصيراً بالنسبة للساق . بدأ شويلّى حياته كمهرّب وكمحتال من النوع الذى يسلب أموال الناس بعد كسب ثقتهم . وهى أمور ليست غير شائعة فى الاقليم الذى يقطن فيه . ولكنه تحوّل فى منتصف حياته إلى احتراف التزييف بكل أنواعه وكان كيرتز يحب شويلّى وكان عندما يتوفر لديه وقت

فراغ فى حدود عشر دقائق فإنه يصطحب شويلّى إلى كافتيريا تقع عند سفح التلّ من أجل أن يشترى له أيس كريم مضاعف بالكاراميل ، وهو النوع المفضل لدى شويلّى .

كما قام كيرتز أيضاً بتزويد شويلّى باثنين من المساعدين له . ولم يكن أحد يتوقع أو يتخيل تعيين هذين الشخصين كمساعدين لشويلّى . وكان المساعد الأول - وهو شخص من اكتشاف ليتفاك - متخرجا فى جامعة لندن ويسمى ليون وهو اسرائيلى أمضى فترة طفولته فى انجلترا بدون أن يكون له اختيار فى ذلك حيث كان والده شخصا فضوليا من أهالى إحد الكيبوتزات وتم إيفاده إلى أوربا كمندوب عن جمعية تعاونية تسويقية ، وفى لندن ظهرت على ليون بوادر الاهتمام بالآداب وأصدر مجلة وطبع رواية طويلة لم تحظ بالتقدير الكافى على الاطلاق . وأمضى ثلاث سنوات اجبارية فى الجيش الاسرائيلى ، مما أدى إلى شعوره بالتعاسة والبؤس . وبعد أن انتهى من فترة التجنيد بالجيش ذهب إلى تل أبيب لكى يختبىء فيها وهناك ألحق نفسه بإحدى المجلات الأسبوعية الثقافية التى تجيىء وتذهب مثل الفتيات الجميلات . وبحلول الوقت الذى انهارت فيه تلك المجلة كان ليون يقوم بمفرده بتحرير كافة موضوعات المجلة . الاَّ أنه أثناء وجوده بين شباب تل أبيب الذى تستبدّ به فكرة السلام والذى يعانى من الخوف المرضى من الأماكن المغلقة فإنه عاش تجربة اليقظة الجديدة العميقة لهويته كشخص يهودى مما أدى إلى شعوره الشديد بالرغبة فى تخليص اسرائيل من أعدائها سواء الذين تربصوا بها فى الماضى أو الذين يكمنون لها فى المستقبل .

قال كيرتز له «من الآن فصاعدا سوف تكتب من أجل أن أقرأ لك . ولن تكون لك مجموعة كبيرة من القــرّاء ولكن عدد منْ يقرأون لك سوف يتزايد تدريجيا».

وكانت المس باخ هى المساعدة الثانية لشويلّى إنها سيدة أعمال هادئة الطباع من سكان ساوث بند بولاية انديانا الأمريكية . وكان كيرتز قد انبهر بذكائها ومهارتها ومظهرها غير المتسم بالطابع اليهودى فقرر تجنيدها . وقام

بتدريبها على مجموعة من الخبرات والمهارات . ثم أوفدها فى نهاية الأمر إلى دمشق من أجل أن تقوم بالتدريس فى مجال إعداد برامج الكمبيوتر . وبعدئذ وعلى مدى سنوات عديدة كانت المس باخ الرّزينة الوقورة تبعث بتقارير عن قدرات وتنظيمات أنظمة الرادار الجوية السورية . وبعد أن تمّ استدعاؤها أخيراً لكى تعيش كمستوطنة فى الضفة الغربية فإنها عبرت صراحة عن كآبة الحياة فى الضفة الغربية . ولكن عندما استدعاها كيرتز مرة أخرى شعرت أن ذلك الاستدعاء قد أنقذها من الحياة غير المريحة بالضفة الغربية .

وهكذا تكونت مجموعة شويلّى + ليون + مس باخ ، وقد أطلق كيرتز على هذا الثلاثى اسم : لجنة القراءة والكتابة . وأعطى لهذه اللجنة وضعا متميزا فى داخل نطاق جيشه الخاص الآخذ فى التوسّع .

.. ..

وفى ميونيخ كان عمله متسما بالطابع الادارى . الاّ أنه كان ينجز أعماله فى كياسة صامتة . وأصبح مالا يقل عن ستة أعضاء من فريقه المكون حديثا متمركزين هنالك وشغلوا منشأتين منفصلتين تماما فى منطقتين مختلفتين تماما بالمدينة . وكان الفريق الأول يتألف من رجلين مخصصين للأعمال الميدانية . وكان ينبغى أن يتألف ذلك الفريق من خمسة أعضاء ، الاّ أن ميشا جافرون كان لا يزال مصمما على كبح جماحه وعدم اطلاق العنان له ولذلك أصبح عدد الأعضاء اثنين فقط . وبعد أن تم التقاط كيرتز من مقهى بشفابينج وليس من المطار وإخفاؤه فى داخل سيارة «فان» قديمة فإنهم اتجهوا به إلى القرية الأولمبية وإلى أحد جراجات السيارات المظلمة الموجودة تحت الأرض هناك والتى تعتبر بمثابة مأوى للسفاحين والمومسات من الجنسين . والقرية أقرب إلى قلعة مهجورة تضم مبانى خرسانية رمادية اللون وتشبه مستوطنة اسرائيل أكثر مما هى تشبه أىّ شىء يمكن العثور عليه فى بافاريا . ومن أحد الجراجات الموجودة تحت الأرض اصطحبوه لأعلى على سلالم متسخة وعبْر عدد من الروف جاردن الصغيرة إلى شقة مزدوجة كانوا قد استأجروها لفترة قصيرة على أساس أنها شبه مفروشة بالاثاث والمعدات

اللازمة . وفى الأماكن الخارجية كانوا يتحدثون معه باللغة الانجليزية ويسمونه : «السّيد» ولكن فى داخل الغرف المغلقة كانوا يشيرون إلى رئيسهم باسم «مارتى» ويتكلمون معه فى احترام شديد باللغة العبرية .

كانت الشقة تقع فوق سطح مبنى يقع على الناصية ، مليئة بأجهزة الاضاءة الفوتوغرافية علاوة على كاميرات رائعة مرفوعة فوق حوامل ، بالاضافة إلى أدراج للشرائط وشاشات العرض . كما تضم صالة عرض تحدث خشخشة إذا ساروا عليها بخطوات ثقيلة . وكانت الصالة تؤدى إلى غرفة نوم إضافية مقاس ٤ أمتار × ٥ر٣ متر . بها منور يؤدى إلى زاوية الانحدار بالسقف . وقد أوضحوا له أنهم قد سدوا هذا المنور ببطانية فى بادىء الأمر، ثم استخدموا بعد ذلك الورق المقوىّ وبعدئذ استخدموا أخيراً كتل الألياف الحريرية . وكانت الحوائط والأرضية والسقف مبطنة باللباد مما جعل المكان شبيها بمسكن حقير لقسيس أو صومعة رجل مجنون . كما تمَّ تقوية الباب بألواح من الصلب المدهون بالطلاء .كما شيدوا بالباب مساحة صغيرة من الزجاج المسلح فى الجزء العلوى ووضعوا لافتة مكتوبا عليها «غرفة مظلمة . ابتعد» وطلب كيرتز من أحد رجاله الدخول إلى هذه الغرفة المظلمة واغلاق الباب والصراخ بأعلى صوت . وعندما لم يسمع سوى صوت منخفض أجش فى صرير فإنه أعطى موافقته على ذلك المكان .

وكان باقى الشقة مليئا بالهواء الطلق . الاَّ أنه كان باليا ورثاً شأنه فى ذلك شأن القرية الأولمبية . وفى اتجاه الشمال كانت النوافذ تطل على الطريق المؤدى إلى داخاوى . وأشاروا باليد إلى مكان قريب لكى يحددوا لكيرتز نفس المكان الذى قام فيه الفدائيون الفلسطينيون باقتحام الغرف السكنية التى يقيم فيها الرياضيون الاسرائيليون حيث قتلوا البعض على الفور واصطحبوا الباقى منهم إلى المطار الحربى وقتلوهم هناك أيضاً . وقالوا لكيرتز إن الشقة التى تقع إلى يمين شقتهم يشغلها طالب وإن الشقة الموجودة أسفل شقتهم لا يشغلها أحد حاليا لأن آخر مستأجر لها أقدم على الانتحار . وبعد أن قام كيرتز بمعاينة كافة الأماكن المحيطة

وفكر ودرس كافة المداخل وطرق الهرب فإنه قرر استئجار الشقة السفلية أيضاً . ثم قام فى نفس اليوم بالاتصال تليفونيا بمحامٍ معين موجود فى نورمبرج وأصدر له تعليماته باتخاذ اجراءات التعاقد . وكان أعضاء فريقه قد تعمدوا أن تبدو أشكالهم عقيمة ومتخبطة بل وقام أحدهم - وهو الشاب أوديد بإطلاق لحيته. وكانت جوازات السفر الخاصة بهم تفيد أنهم يحملون جنسية الأرجنتين وأن مهنتهم هى احتراف التصوير الفوتوغرافى . وفى بعض الأحيان كانوا يطلبون من كيرتز أن يضفى على مجموعتهم الجوّ الطبيعى ، بحيث لا تسير حياتهم على وتيرة واحدة ولذلك كانوا يعلنون جيرانهم من وقت لآخر بأنهم سيقيمون حفلة فى وقت متأخر . وكان الدليل الوحيد على الحفلة هو تصاعد صوت الموسيقى لساعات طويلة علاوة على وضع الزجاجات الفارغة فى صناديق القمامة . الا أنهم فى حقيقة الأمر لم يسمحوا لأى شخص بالدخول إلى شقتهم باستثناء حامل الوثائق الذى يجيىء من الفريق الآخر : لا ضيوف ولا زوار من أىّ نوع . ولا مجال على الإطلاق لإقامة علاقات مع النســاء . حيث أخرجوا النساء من عقولهم تماما إلى أن يعودوا إلى اسرائيل .

واصطحبوا كيرتز من أجل أن يشتروا حلقات حديدية لوضعها بالحوائط المبطنة الخاصة بالغرفة المظلمة وراحوا يتجولون فى الأحياء الطلابية وتسكعوا عند مدرسة لتعليم صناعة الفخار ثم عند مدرسة لأعمال النجارة ، ثم مدرسة للسباحة إلى أن وجدوا أنفسهم من خلال قانون الجاذبية الأرضية واقفين بطريقة حتمية أمام نفس المنزل الذى شهد منذ حوالى عشر سنوات ذلك الهجوم الضارى الذى وقع على الأولاد الاسرائيليين والذى أحدث صدمة فى العالم .

وأصدر كيرتز أوامره لهم لدى عودتهم إلى السيارة قائلا «عليكم ألاّ تنسوا ذلك على الإطلاق» . وبالطبع لم يكونوا بحاجة لأن يتم تذكيرهم بذلك .

واصطحبوا كيرتز من القرية إلى منتصف المدينة حيث تعمد كيرتز أن يخلو إلى نفسه لفترة قصيرة فراح يتجول بدون هدف إلى أن أعطاه أولاده الذين كانوا

يرقبونه من الخلف إشارة تفيد أنه من الأفضل له أن يذهب إلى الموعد التالى المحدّد له . ولم يكن هناك تباين كبير بين المكان الأخير والمكان الجديد ، وذهب كيرتز إلى الطابق العلوى من ذلك المنزل الذى له لون كعكة الزنجبيل والذى يقع فى قلب ميونيخ الحديثة ، وكان الشارع ضيقا ومرصوفا بالحصى وفاخرا . وكان يضم مطعما سويسريا علاوة على صاحب مؤسسة للأزياء بدا عليه أنه لا يبيع شيئا ومع ذلك يبدو عليه الازدهار . وصعد كيرتز متسلقا إلى الشقة مستخدما سلالم الدرج المظلمة وما إن وصل إلى أعلى سلِّمة حتى فُتح الباب أمامه ، حيث كانوا يشاهدونه وهو يسير بالشارع فى اتجاههم على شاشة دائرة تليفزيونية مغلقة . ودخل إلى الشقة دون أن ينطق بكلمة واحدة . وكان هؤلاء الناس أكبر فى السن من الشخصين اللذين استقبلاه فى بادىء الأمر . كانوا أقرب إلى الآباء منهم إلى الأبناء . وكانت وجوههم شاحبة وممتقعة اللون مثل وجوه منْ قضوا فترة طويلة فى داخل السجن . حيث يختص هؤلاء بأعمال المراقبة الثابتة . وكانت الستائر الثقيلة تتدلى على النافذة .

لذا بدا الجو بأكمله متسما بالكآبة والحزن . وكانت هناك مجموعة من الأجهزة الالكترونية والبصرية متزاحمة بين أثاث غير أصيل بما فى ذلك الايريالات الهوائية الداخلية ذات التصميمات المختلفة . ولكن تحت ضوء الغسق المتلاشى زادت هياكلهم الشبحية من ذلك الجو الكئيب .

وقام كيرتز بمعانقة كل رجل فى وقار . وبعدئذ وأثناء تناول البسكويت والجبنة والشاى قام لينى أكبر الرجال سنا بإعطاء كيرتز فكرة عن أسلوب حياة يانوكا : المكالمات التليفونية التى جاءت إلى يانوكا من الخارج والمكالمات التى صدرت من الداخل إلى الخارج علاوة على بيان عن أحدث الزائرين الذين قاموا بزيارته وأحدث الفتيات اللاتى أجرين اتصالات معه . وكان كيرتز يحترم لينى ويصغى فى اهتمام شديد لكل كلمة يقولها لينى ويومىء برأسه من وقت لآخر ويهنئه على مجهوده .

وقال لينى «إن هذا الشاب يانوكا هو شاب طبيعى . والتجار وأصدقاؤه معجبون به . فهو شخص محبوب وله شعبية بين الناس ويبدو أنه يستمتع بنفسه

ويتحدث كثيراً ويميل إلى الجدية والرزانة وله اتجاهات صحية ، ثم نظر فى عينى كيرتز وأضاف قائلا «ولذلك يا مارتى فإنه من الصعب على المرء أن يصدق من وقت لآخر ذلك الجانب الآخر الموجود فى ذلك الرجل . صدقنى يا مارتى» .

فأكد كيرتز للينى أنه يفهم الموقف تماماً . ثم قفز ضوء على نافذة السقف بالشقة التى تقع عبْر الشارع مباشرة . ذلك الضوء الأصفر المتعامد بدون أن يكون هناك أىّ ضوء آخر قريب منه كان أشبه بإشارة صادرة عن عاشق . وفى صمت قام أحد رجال لينى بالسير على أطراف أصابعه بسرعة متجها إلى تلسكوب ثنائى العينين مثبت فوق حامل خشبى بينما قام رجل آخربالتقاط سماعة جهاز لاسلكى ووضعها على أذنه .

وقال لينى موجها كلامه لكيرتز «أتريد أن تلقى نظرة يا مارتى ؟» وأضاف «إننى أدرك من خلال ابتسامة جوشوا أنه يشاهد بوضوح يانوكا فى هذه الليلة . ما الذى تراه الآن يا جوشوا هل يانوكا يتهيأ للخروج فى هذه الليلة ؟ ومع مَنْ يتحدث هو بالتليفون حاليا ؟ إنها فتاة بكل تأكيد»

فقام كيرتز بإزاحة جوشوا فى رفق على جانب ثم وضع رأسه الكبير فى داخل التلسكوب الثنائى العينين . ثم ظل على هذا الوضع لفترة طويلة وقد تقوس ظهره مثل كلب البحر العجوز الذى يواجه عاصفة حيث راح يدرس يانوكا ويتأمل ذلك الطفل الذى لم يكتمل نموه .

وتساءل لينى «أتشاهد كتبه الموجودة هناك فى خلفية المنظر . إن ذلك الولد يقرأ كثيراً مثل والدى» .

فقال كيرتز أخيراً وهو يعتدل فى وقفته فى بطء : «هاأنت لديك ولد ظريف هناك . إنه ولد وسيم الشكل بكل تأكيد . ويجب عليك أن تتأكد من أنك لا ترغب فى تزويجه من ابنتك» . فظهر قدر من الارتباك على لينى . ولكن كيرتز أضاف قائلا «نحن نقدم لك جزيل الشكر يا لينى» واستطرد قائلا «عليك بمداومة التقاط الصور الفوتوغرافية ليانوكا من جميع الزوايا ، ولا تشعر بالحرج يا لينى لأن الأفلام ليست غالية للغاية» .

ثم قام كيرتز بمصافحة جميع الرجال بالأيدى وانصرف إلى الشارع سائرا بخطوات قوية .

.. ..

كان المطر ينهال مدراراً فى الوقت الذى التقطوا فيه كيرتز إلى داخل السيارة مرة أخرى ثم انطلق ثلاثتهم بالسيارة بين المواقع والأماكن الكئيبة من أجل تضييع الوقت إلى أن يحين موعد الطائرة التى سيستقلها كيرتز. ويبدو أن الطقس الكئيب قد ترك تأثيره على الرجال الثلاثة . وكان أوديد هو الذى يقود السيارة وقد بدا على وجهه الملتحى المفعم بالشباب دلائل الغضب المشوب بالحزن والكآبة .

وتساء ل كيرتز رغم أنه كان يعرف الاجابة بكل تأكيد : «وما الذى حصل عليه الآن ؟ »

فأجاب أوديد «آخر شىء حصل عليه هى سيارة فاخرة وهى سيارة أتوماتيكية . ولم تقطع سوى خمسة آلاف كيلومتر وفقا لمؤشر تابلوه الكيلومترية . فالسيارة تمثل نقطة الضعف الموجودة لديه » .

فردّ الولد الثانى القابع فى المقعد الخلفى بالسيارة معلقا : «السيارات والنساء والحياة الناعمة المترفة ، ولذلك فإنى أسائل نفسى فى تعجب : تُرى ما هى مواطن القوة لديه ؟ » .

فوجه كيرتز سؤالاً لأوديد مرة أخرى «السيارة مستأجرة ؟ »

«نعم ، مستأجرة» .

فوجه كيرتز نصائحه لكل من الولدين : «عليكما بمراقبة تلك السيارة مراقبة دقيقة . فنحن نريد أن نعرف على الفور تلك اللحظة التى يقوم فيها بإرجاع سيارته المستأجرة إلى الشركة مع عدم استئجار سيارة أخرى بدلاً منها» وكانا قد سمعا تلك العبارة مراراً وتكراراً إلى أن أصبحا يشعران بالصمم بسببها . فهما قد سمعا نفس تلك العبارة قبل أن يغادرا اسرائيل . ومع ذلك ظل كيرتز يردّد

نفس هذه العبارة باستمرار : «أهم شيء هو أن نعرف الوقت الذى يقوم فيه يانوكا بتسليم سيارته »

وفجأة شعر أوديد بأنه يموج بالغيظ الشديد على نحو يجعله غير قادر على السيطرة على نفسه . فربما كان - من خلال شبابه ومزاجه الشخصى - واقعاً تحت ضغوط تزيد عن تلك التى توقعها أولئك الذين اختاروه . وربما كان ينبغى تكليفه بمهمة تتطلب قدْرا كبيرا من الصبر والانتظار . فأوقف السيارة فجأة عند الحاجز الحجرى المتواجد عند حافة الطريق وجذب فرامل اليد بشدة .

ثم تساءل فى غضب : - لماذا ندعه ينجز هذا الأمر ؟

ولماذا نقوم باللعب معه ومحاورته ومداورته ؟ وماذا سنفعل لو أنه عاد إلى وطنه ولم يخرج من وطنه مرة أخرى ؟ عندئذ ماذا ؟ »

عندئذ سنفقده

- اذن علينا أن نقتله الآن ! فى هذه الليلة ! اصدر لى الأوامر لكى أقتله .

وتركه كيرتز يتكلم فى حماس واهتياج وهذيان . واستطرد أوديد قائلا: نحن قد حصلنا على الشقة المقابلة التى تواجه شقته . أليس كذلك ؟ ولذلك ينبغى علينا أن نطلق صاروخا عبْر الشارع . ولقد سبق لنا أن فعلنا ذلك من قبل . واستمر كيرتز فى الالتزام بالصمت .

فقال أوديد مكررا بصوت مرتفع : اذن لماذا لا نقتله بالصاروخ ؟

ولم يفقد كيرتز صبره ، وقال له فى هدوء : لأنه لا يقودنا إلى أىّ مكان يا أوديد . وذلك هو السبب ، وربما أنت لم تسمع بنفسك الكلام الذى سبق أن قاله رئيسنا ميشا جافرون .

لقد قال عبارة مازالت تتردد فى رأسى مثل الصدى : إذا أردت أن تصطاد أسداً فعليك أولاً أن تربط المعزة فى حبل يُشدّ إلى وتد ويطول الحبل للمعزة لكى ترعى وهى مقيدة . وهل معنى كلامك هذا أنك تريد أن تخبرنى بأنك ترغب فى ضرب يانوكا ؟

إنه هو الذى نفذ عملية بادنسبرج وهو الذى قام بعملية فيينا . وربما هو الذى قام بعملية ليدن أيضاً إن اليهود يتعرضون للموت يا مارتى ! فهل اسرائيل

لم تعد تهتم بهذه الأمور فى هذه الأيام ؟ فكم من الناس سيتعرضون للموت بينما نحن نقوم بالمحاورة والمداورة واللعب ؟ »

فأمسك كيرتز بياقة جاكتة أوديد بيديه الكبيرتين وهزه مرتين . وفى المرة الثانية ارتطمت رأس أوديد بالنافذة ولكن كيرتز لم يعتذر له كما أن أوديد لم يظهر تبرما أو ضيقاً .

وقال كيرتز محذرا فى هذه المرة : إنهم هم يا أوديد إنهم هم وليس هو ياأوديد وأضاف : لقد نفذوا عملية بادنسبرج . ونفذوا عملية ليدن . ولذلك فنحن نهدف إلى استخراجهم والإمساك بهم . فنحن لا نهدف أساساً إلى الإمساك بستة من أرباب البيوت الألمان الأبرياء علاوة على الإمساك بولد واحد صغير سخيف » .

فقال أوديد وقد احمرّ وجهه بسبب الارتباك «وهو كذلك ، دعنى وشأنى» .

فقال كيرتز : يانوكا له أصدقاء وله أقارب . ونحن لم نعرف حتى الآن أصدقاءه وأقاربه . فهل أنت تريد أن تنفذ هذه العملية نيابة عنى ؟ »

– لقد سبق أن قلت : وهو كذلك .

رفع كيرتز قبضة يده عن أوديد . وقام أوديد بتشغيل موتور السيارة مرة أخرى . واقترح كيرتز أن يستأنفوا جولتهم الرامية إلى التعرف على أسلوب حياة يانوكا . لذلك اتجهوا إلى الشارع الذى يوجد به الملهى الليلى المفضل لدى يانوكا ، وإلى الحانوت الذى اشترى منه يانوكا قمصانه وأربطة عنقه وإلى الحلاق الذى قص له شعره وإلى المكتبات اليسارية التى اشترى منها الكتب . وأخيرا انتهت الجولة . ووقف كيرتز على الرصيف ثم راح يربت على كتف أوديد فى ودّ ومحبة كاملة . وجرى بيده بين شعره .

وقال : استمعا الىَّ أنتما الاثنان . لا تبخلا على نفسكما . وتناولا وجبة شهية فى احد المطاعم الفاخرة على حسابى الشخصى . أوكى ؟ »

وكانت نغمة صوته مثل نغمة صوت قائد يتكلم فى حبّ مع جنوده قبل الدخول فى معركة .

.. ..

وسافر كيرتز بالطائرة ليلاً من ميونيخ إلى برلين . جلس بجوار النافذة ، وراح يحملق فى ظلام الليل . فى مكان ما بين طيات هذا الظلام كان يوجد خط السكة الحديد الذى أحضر قطار البضائع فى رحلته البطيئة قادما من الشرق . وفى مكان ما بين طيات هذا الظلام توجد ألواح الجدران الخارجية لمبنى خشبى حيث توقف القطار على مدى خمس ليالٍ وستة أيام تحت جوّ الشتاء القاتل من أجل إفساح الطريق لنقل القوات العسكرية التى تحظى بالأهمية والأولوية بينما كيرتز ووالدته بالإضافة إلى ١٨٠ آخرين من اليهود كانوا محشورين ومكدّسين فى إحدى العربات بداخل قطار البضائع وكانوا يأكلون الثلج والصقيع إلى أن مات معظمهم . وراحت أمه تؤكد له : لسوف يكون المعسكر التالى أفضل حالاً بهدف رفع معنوياته . وفى مكان ما بين طيات هذا الظلام أصيبت والدته بالانهيار التام فى نهاية الأمر ولفظت أنفاسها الأخيرة . وفى مكان ما بين طيات هذا الظلام فإن الضباط السويدى الذى هو كيرتز نفسه قد تعرض للهلاك جوعا وتعرض للسرقة والقتل أثناء انتظاره لأن يعثر عليه عالم معادٍ آخر . وشاهد معسكر الاستقبال التابع للحلفاء وشاهد الزى العسكرى الرسمى غير المألوف وشاهد أوجه أطفال دبت فيها الشيخوخة مثل وجهه تماما . معطف جديد وحذاء جديد وأسلاك شائكة جديدة – وهروب جديد . وهو هروب فى هذه المرة من منقذيه . وشاهد نفسه فى الحقول مرة أخرى .متسللا فى اتجاه الجنوب من مزرعة إلى قرية على مدى أسابيع لا نهائية إلى أن أصبحت الليالى فى نهاية الأمر متسمة بالدفء ومليئة بعبير الأزهار ثم سمع لأول مرة فى حياته حفيف أشجار النخيل الذى تنقله رياح فوق البحر . وهمسوا فى أذنه قائلين : استمع الينا أيها الولد الصغير المتجمد بسبب البرد . هذا هو الوضع الذى نبدو عليه فى اســـرائيل . وهذه هى زرقة البحر التى تبدو هنـا فى كل مكان . وشاهد الباخرة المتهالكة وهى واقفة بجوار رصيف الميناء . إنها أكبر وأنبل باخرة شاهدها فى حياته . انها سوداء للغاية مع وجود رؤوس اليهود الذين صعدوا إلى ظهرها حتى أنه عندما صعد إلى ظهر تلك السفينة فإنه سرق قلنسوة طويلة مخروطية الشـــكل ووضعها على رأســـه إلى أن

تركت الباخرة الميناء . الاَّ أنهم كانوا بحاجة إليه سواء أكان شعره أشقر أو أسمر أو بدون شعر على الإطلاق . وعلى ظهر الباخرة تم تجميع الناس فى مجموعات صغيرة وراح القادة يعطون دروساً تتعلق بكيفية استخدام البنادق المسروقة التى هى ماركة «لى أنفيلد» . وكانت حيفا مازالت تقع على مسافة إبحار لمدة يومين . ومنذ ذلك الحين كانت الحرب بالنسبة لكيرتز قد بدأت توا .

وكانت الطائرة تحوم فى الجو وتدور من أجل أن تهبط . وشعر كيرتز بالطائرة وهى تميل على جانب كما شاهدها وهى تعبر فوق سور برلين . ولم يكن معه سوى حقيبة اليد الاَّ أن الامن كان مشدداً بسبب وجود الارهابيين ولذلك استغرقت الاجراءات بالمطار وقتاً أطول .

.. ..

وكان شيمون ليتفاك منتظراً فى داخل سيارة فورد متهالكة واقفة فى المكان المخصص لوقوف السيارات بالمطار . وكان قد جاء بالطائرة من هولندا بعد أن أمضى يومين هناك من أجل المأزق الذى حدث فى ليدن . وكان يشعر – شأنه فى ذلك شأن كيرتز أنه ليس لديه الحق فى أن ينام .

وقال بمجرد أن صعد كيرتز إلى داخل السيارة : لقد تم تسليم الكتاب الملغوم بمعرفة فتاة . هى فتاة جميلة سمراء اللون وترتدى بنطلوناً من نوع «الجينز» . وقد افترض بواب الفندق أنها تنتمى للجامعة . وأقنع نفسه أنها قد جاءت راكبة دراجة وغادرت بالدراجة أيضاً . ولكننى لا أصدق أقواله تماماً . وهناك شخص ما آخر يقول إنها قد أُحضرت إلى الفندق فوق دراجة بخارية . وإن الطرد كان مربوطاً بشريط . والشريط به بطاقة مكتوب عليها «عيد ميلاد سعيد يا مردخاى» اذن كانت هناك خطة ووسيلة للنقل وقنبلة وفتاة . فهل هناك معلومات جديدة ؟

– وما هو نوع القنبلة ؟

– من النوع البلاستيك الروسى . ولم يتخلف عنها سوى قطع صغيرة من الأغلفة والأربطة . ولا شئ يمكن اقتفاء أثره .

– ألا توجد أيّ علامة ؟

– قطعة اضافية من سلك أحمر خاص بدائرة مغلقة . وعلى شكل دمية .

فنظر إليه كيرتز في حدة .

فقال ليتفاك معترفاً : لا يوجد أيّ سلك اضافي . لا يوجد سوى أجزاء متفحمة . ولا يوجد أيّ سلك يمكن التعرف على نوعه .

فتساءل كيرتز : «ولا يوجد أيّ ملقط للغسيل ؟

– لقد فضّل في هذه المرة استخدام مصيدة الفئران . مصيدة فئران منزلية صغيرة » ثم أدار موتور السيارة .

قال كيرتز : إنه يستخدم أيضاً مصائد الفئران .

– لقد استخدم مصائد الفئران وملاقط الغسيل والبطانيات البدوية القديمة وأنواع المتفجرات التي يتعذر اقتفاء أثرها واستخدم الساعات الرخيصة ذات العقرب الواحد واستخدم الفتيات الرخيصات . وهو أحقر صانع للقنابل بدون استثناء .

واستطرد ليتفاك متسائلاً : ما هي الفترة التي منحها لك ؟

فتظاهر كيرتز بأنه لا يفهم معنى السؤال، وقال : منحها لي أنا ؟ مَنْ الذي منحني ؟

– أقصد ما هي مدة الترخيص الرسمي الممنوح لك لإنجاز هذه المهمة ؟ هل المدة شهر ؟ أم شهران ؟

– وما هي طبيعة الاتفاق ؟

إلاّ أن كيرتز لم يكن يميل دائماً إلى الالتزام بالدقة في إجاباته . فقال: إن الاتفاق هو أن عدداً كبيراً من الناس في اسرائيل يفضلون محاربة العدو الوهمي في لبنان على أن يقاتلوا العدوّ برء وسهم .

– وهل باستطاعة جافرون روك أن يصدهم ؟ وهل باستطاعتك أنت أن تصدّهم ؟

فالتزم كيرتز بالصمت والهدوء وفضل ليتفاك عدم اثارته . وفى وسط مدينة برلين الغربية لا يوجد ظلام أمَّا فى أطارف المدينة فلا توجد أضواء . وكانا آنئذ يتجهان نحو الضوء .

وقال ليتفاك فجأة : لقد قدمت لجادى مجاملات كبيرة . ثم نظر إلى استاذه نظرة جانبية . وأضاف : فها أنت تجيئ إلى مدينته على هذا النحو. فهذه الرحلة التى تقوم بها لكى تقابله هى شئ أقرب إلى الاجلال والتقدير

فقال كيرتز : إنها ليست مدينته . إنه قد استعار هذه المدينة . فهو أمامه حرفة يتعلمها وأمامه حياة جديدة يعيشها . وذلك هو السبب الوحيد فى وجود جادى فى برلين .

– وهل باستطاعته أن يتحمل العيش بين مثل هؤلاء الدهماء والغوغاء؟ وحتى لو كان ذلك من أجل بناء مستقبل جديد له ؟ وهل باستطاعته بعد أن عاش بالقدس أن يجيئ إلى هنا ؟

ولم يقدم كيرتز اجابة مباشرة على السؤال . كما أن ليتفاك لم يتوقع منه أن يجيب بإجابة مباشرة . وقال كيرتز : إن جادى قد قدم اسهاماته . يا شيمون . فلا أحد قدَّم اسهامات أفضل منه وفقاً لقدراته الخاصة فهو قد حارب فى استماتة فى الأماكن الصعبة التى كانت تقع خلف الخطوط . فلماذا لا ينبغى عليه أن يسعى لإعادة بناء نفسه من جديد ؟ إنه يستعد للعيش فى هدوء وسلام .

ولكن ليتفاك لم يكن مــــدرباً على أن يترك معاركه بدون نتيجة حاسمة . فقال : إذن لماذا تسبب الازعاج لحياته الجديدة ؟ لماذا تحيى من جديد الأمور التى انتهت ؟ واذا كان هو بصدد البدء فى حياة جديدة فإنه ينبغى عليك أن تتركه وشأنه لكى يبنى حياته الجديدة .

فقال كيرتز : لأنه بمثابة الوسيط أو الكوبرى .

فاستدار ليتفاك بسرعة نحوه من أجل الحصول على المزيد من التوضيحات ولكن الظلال كانت واقعة على وجه كيرتز . واستطرد كيرتز قائلاً : ولأنه يفكر ويتدبر الأمور .

ومرا بالسيارة بجوار الكنيسة التذكارية ثم عادا إلى السكون والصمت الذى تتسم به الأماكن المظلمة التى تقع عند مشارف المدينة .

وتساءل كيرتز مبتسماً : وما هو الاسم الذى يستخدمه هذه الأيام . قل لى ماذا يسمى نفسه ؟

فقال ليتفاك فى اقتضاب : بيكر . فظهرت دلائل الاحباط على وجه كيرتز وقال بيكر : ما هذا الاسم بحق الجحيم ؟ جادى بيكر

– وهو فى نفس الوقت من جماعة الصابرا ؟

فقال ليتفاك بدون مزاح . إن ذلك الاسم هو بمثابة الترجمة الألمانية للترجمــة العبرية لاسمه . فهو قد ارتدّ بناء على رغبة مستخدميه ورؤسائه فى العمل . فهو لم يعد اسرائيلى وإنما مجرد شخص يهودى .

وظل كيرتز محتفظاً بابتسامته وقال : هل لديه أية سيدات معه يا سيمون ؟ وماذا عن النساء بالنسبة له فى هذه الأيام ؟

– انه يقضى ليلة هنا وليلة هناك . ولا توجد فتاة يمكنه أن يقول عنها أنها صديقته الخاصة به .

فتراخى كيرتز فى جلسته فى مزيد من الارتياح وقال : – إذن ربما هو يكون بحاجة للارتباط . وبعدئذ يرجع إلى زوجته الجميلة فرانكى التى تقيم فى القدس .

وبعد أن دخلا بالسيارة فى شارع جانبى قذر وحقير فإنهما توقفا قبل أن يصلا إلى منزل متداعٍ مكون من ثلاثة طوابق . وكان لهذا المنزل مدخل من النوع الذى له أعمدة وقد تمكن على نحو ما من البقاء على قيد الحياة عقب انتهاء الحرب وعلى أحد جانبى المدخل يوجد حانوت للأقمشة مضاء بالنيون يعرض مجموعات متنوعة من فساتين النساء ذات الألوان الباهتة . وفوق الحانوت لافتة مكتوب عليها «لتجارة الجملة فقط» .

وراح ليتفاك يرقب كيرتز وهو يعبر الشارع بسرعة كما شاهده وهو يسير بسرعة على الرصيف ثم يتوقف عند المدخل المتهالك . كما رأى ذراعه النحيل وهو يرتفع إلى الجرس ، ثم ينفتح الباب بعد لحظة واحدة كأن هناك شخصاً ينتظر خلف الباب . ثم شاهد كيرتز وهو يثبت قدميه ويخفض من كتفيه لكى يعانق رجلاً أكثر نحالة وشاهد ذراعى المضيف وهما تلتفان حول كيرتز فى تحية رشيقة متسمة بالطابع العسكرى . ثم أغلق الباب وأصبح كيرتز فى داخل الشقة .

وبعدئذ قاد ليتفاك السيارة فى بطء عائداً إلى وسط المدينة وراح يحملق فى كل شئ يقابله فى طريقه مظهراً حقده وغيرته : فبرلين هى مكان للكراهية بالنسبة له . وهى عدو موروث فى جميع الأزمنة . برلين التى نشأ منها الرعب فى تلك الأزمنة وحتى الآن . لقد اتجه إلى «بنسيون» رخيص لا يمكن لأحد أن يتمكن فيه من خلود إلى النوم والراحة بما فى ذلك هو نفسه . وفى الساعة السابعة إلاّ خمس دقائق عاد إلى الشارع الجانبى الذى ترك فيه كيرتز، وضغط على الجرس وانتظر ثم سمع أصوات أقدام لشخص واحد يسير فى بطء . وفتح الباب وخرج كيرتز إلى هواء الصبـــاح وراح يتمطىّ . وكان غير حليق الذقن وكان غير مرتدٍ لرباط عنقه .

تساءل ليتفاك بمجرد أن أصبحا فى داخل السيارة : حسناً ؟

– حسناً ماذا ؟

– ما الذى قاله هو ؟ هل هو سيقوم بالعملية أم أنه يرغب فى الاقامة فى هدوء وسلام فى برلين ويتعلم صناعة الملابس من أجل حفنة من سكان المعسكرات البولنديين ؟

فقال كيرتز : يقوم بالعملية ؟ إنه ضابط إسرائيلى يا شيمون . ثم ابتسم فى بهجة شديدة واستطرد قائلاً : – أعترف لك أن جادى فى بادئ الأمر أشار إلى أنه يفضل أن يدرس تجارته وحرفته الجديدة من نواحيها العديدة . لذلك تحدثنا عن المهمة الناجحة التى قام بها عبر قناة السويس فى عام ١٩٦٣ . وبعدئذ

قال لى إن الخطة لن تنجح . لذلك ناقشنا بالتفصيل المتاعب التى تواجه العيش تحت غطاء فى طرابلس والإبقاء على شبكة من المرتزقة والعملاء الليبيين هناك – وهو أمر سبق أن قام به جادى لمدة ثلاث سنوات . وبعدئذ قال لى :

– يمكن لك أن تستعين برجل أصغر سناً . ثم استعدنا الذكريات عن الغارات الليلية العديدة التى شنها على الأردن والأعمال الحربية التى تمت ضد الفدائيين . وفى نهاية الأمر قمنا بمناقشـة الاسـتراتيجية .

وماذا أيضاً ؟ وماذا عن التشابه ؟ هل التشابه يكفى ؟ وماذا عن طوله ووجهه ؟

فقال كيرتز : التشابه بدرجة كافية . ونحن نعتمد على التشابه . التشابه موجود بدرجة كافية . والآن اتركه وشأنه يا شيمون . وإلاً فأنت ستجعلنى أحبه حباً جماً .

وبعدئذ تخلى عن الوقار والرزانة وانفجر فى ضحكات متواصلة إلى أن أصبحت دموع الارتياح والتعب تنهمر مدراراً على خديه . فضحك ليتفاك أيضاً، ومع الضحك أحس بمشاعر الحقد فى داخله وهى تتوارى وتختفى . وهذه التقلبات الفجائية المزاجية المجنونة كانت محفورة بعمق فى طبيعة ليتفاك، حيث كانت عوامل عديدة متناقضة تلعب دورها . إن اسمه يغنى أساساً : يهودى من ليتوانيا وهو كان ذات يوم شخصاً ازدرائياً يحط من قدر الآخرين . فكيف كان يرى نفسه؟ لقد كان ينظر إلى نفسه ذات يوم على أنه شاب كيبوتزى يتيم يبلغ من العمر ٢٤ عاماً وبدون أن يكون له أىّ شخص قريب له متبقٍ على قيد الحياة . وفى مرة أخرى كان يرى نفسه على أنه طفل بالتبنى لمؤسسة أمريكية أرثونوكسية وللقوات الخاصة الاسرائيلية . وفى مناسبة أخرى كان يرى فى نفسه أنه رجل الشرطة الذى بعثت به العناية الالهية لكى ينظف العالم من الأدران والجرائم .

.. ..

وكان يعزف على البيانو بمهارة فائقة .

فيما يتعلق بالاختطاف فإن الأمر لا يتطلب الكثير من الكلام والتوجيهات .

فالفريق الذى له تجارب سابقة ينجز مثل هذه الأمور التى تتعلق بالاختطاف بسرعة كبيرة فى هذه الأيام بل وبطريقة تكاد تكون طقوسية شعائرية . فالاختطاف لا يشتمل على إطلاق الرصاص أو غير ذلك من الأمور غير السارة . والأمر فى هذه المرة كان مجرد الاستيلاء السريع المباشر على سيارة واحدة مرسيدس لها لون أحمر نبيذى والاستيلاء على الشخص الموجود بها (سائقها) على مسافة حوالى (٣٠) ثلاثين كيلو متراً على الجانب اليونانى من الحدود التركية/اليونانية . وكان ليتفاك هو قائد الفريق الميدانى وهو دائماً ما كان متفوقاً وممتازاً فى إنجاز الأعمال الميدانية . وكان كيرتز قد عاد إلى لندن مرة أخرى من أجل إيجاد حلّ لأزمة طارئة كانت قد تفجرت فى لجنة شويلى للقراءة والكتابة . ولذلك فإنه جلس طوال الساعات الحرجة بجوار التليفون فى السفارة الاسرائيلية بلندن . فبعد أن قام الولدان اللذان هما من ميونخ بتقديم تقرير عن إعادة السيارة المستأجرة بدون استبدالها بسيارة أخرى فإنهما تتبعا يانوكا إلى المطار . ولذلك لم يسمع أىّ شخص أية معلومات عنه الاّ بعد مرور ثلاثة أيام عقب ظهوره فى بيروت وذلك عندما قام طاقم التصنت الذى يعمل من قَبْو تحت الأرض فى الحىّ الفلسطينى بالتقاط صوته المبتهج وهو يقول «مرحباً» لأخته فاطمة التى تعمل فى أحد المكاتب الثورية . أخبر أخته أنه سيوجد فى بيروت لمدة أسبوعين من أجل زيارة أصدقائه . وسألها عما اذا كان لديها وقت فراغ فى الفترة المسائية . وأشارت التقارير إلى أنه كان يبدو سعيداً للغاية . بدت فاطمة هادئة باردة . وجاء فى التقارير أنها ربما تكون غير راضية عمّا يقوم به من أعمال أو ربما أنها كانت تدرك أنه يتم التصنت على المكالمات التليفونية . وربما السببان معاً . وعلى كل حال فإن الأخ والأخت لم يتمكنا من اللقاء سوياً .

وتمت مشاهدته مرة أخرى عندما وصل بطريق الجو إلى استانبول ونزل فى فندق هيلتون بجواز سفر دبلوماسى قبرصى وأسلم نفسه للمباهج الدينية والعلمانية بالمدينة على مدى يومين . ووصفه الذين يرقبونه بأنه يحصل على جرعة كبيرة أخيرة من الاسلام قبل أن يعود إلى العادات المبتذلة المسيحية الموجودة فى

أوربا . إذ قام بزيارة مسجد سليمان المعظم حيث شوهد وهو يصلّى أكثر من ثلاث مرات .

وجلس فى حدائق ميدان السلطان أحمد على أريكة بين الأزهار البرتقالية والبنفسجية وراح يحملق فى سعادة وينظر إلى القباب والمآذن التى تحدد الاطار الخارجى للمكان . واشترى سلايدات وبطاقات سياحية ملونة من الباعة الجائلين بدون أن يهتم بالأسعار العالية للغاية . ونظر فى دهشة كبيرة إلى الأعمدة الهائلة التى نقلت على طول المسافة من بعلبك بلبنان .

ولم يخرج يانوكا من أجل السهر بالمدينة فى تلك الليلة - ولا حتى من أجل مشاهدة الرقص الشرقى الذى يعود عليه بالبهجة فى الليلة السابقة. ولم يشاهد بعد ذلك الاّ فى الصباح الباكر من اليوم التالى حيث انطلق فى اتجاه الغرب إلى الطريق الذى يؤدى إلى السهول فى اتجاه ادرين، وإبسالا وفى بداية النهار كان الجو بارداً ومليئاً بالضباب . فتوقف فى مدينة صغيرة لكى يتناول القهوة وقام بتصوير طائر اللقلاق الموجود فوق قبة أحد المساجد، وتسلق ربوة وراح يستمتع بمشاهدة البحر . وبدأ الدفء ينتشر فى الجو وتحولت التلال الكئيبة إلى اللون الأحمر والأصفر وجرى البحر بينهما فى اتجاه اليسار . وعلى طريق مثل هذا فإن أولئك الذين يقتفون أثره اضطروا لتتبعه من خلال انطلاق سيارة واحدة أمامه وانطلاق سيارة أخرى خلفه . وعندما وصل إلى إبسالا فإنه فضل اتخاذ الطريق الفرعى المؤدى إلى إبسالا بدلاً من الاستمرار فى الانطلاق نحو الحدود . فهل كان بصدد تسليم سيارته هناك ؟ وما الذى كان يريده من مدينة تركية صغيرة للغاية واقعة على الحدود ؟ .

لقد كان يرغب فى التقرب إلى الله . اذ دخل إلى مسجد غير مشهور موجود بالميدان الرئيسى بالمدينة . وراح يتقرب إلى الله فى صلوات عديدة متواصلة .

وبعد ذلك عاد إلى الطريق الرئيسى . ووصل إلى مكان يقع بين نقطة الحدود التركية ونقطة حرس الحدود اليونانية . وهو مكان لا يخص أحداً ويبلغ

طوله حوالى عشرين ياردة وهنا اشترى يانوكا لنفسه زجاجة من الفودكا وتناول آيس كريم فى المقهى بينما كان يرقبه الولد ذو الوجه الحالم والشعر الطويل والذى يسمى ريوفين والذى ظل يتناول الكعك المحلى بالسكر على مدى الساعات الثلاث الأخيرة . وكان آخر تفاخر تركى يتمثل فى التمثال النصفى الضخم البرونزى لمصطفى كمال أتاتورك الذى كان يطل على السهول اليونانية المعادية . وبمجرد أن تخطى يانوكا هذا التمثال النصفى حتى وثب ريوفين على الموتوسيكل الخاص به وبعث بإشارة لاسلكية للسيد/ليتفاك الذى كان ينتظر على مسافة ٣٠كيلو متراً فى داخل الأراضى اليونانية – ولكن خارج المنطقة العسكرية – عند نقطة تنخفض فيها سرعة السيارات بحيث تصبح مماثلة لسرعة الانسان الذى يمشى على قدميه وذلك بسـبب الأعمال الإنشـائية بالطريق . وبعدئذ أسرع لكى يلحق بهذا اللهو .

ولقد استخدموا فتاة تتمشى مع شهية يانوكا حيث اختاروا فتاة جميلة سمراء اللون ووضعوها عند نهاية الأشغال التى تتم على الطريق . وكانت أشغال الطريق هذه بمثابة صدفة سعيدة أو منحة من الله .

لقد كانت توجد أولاً المادة الأسفلتية ويليها قطع الزلط والحصباء وبعد ذلك يوجد السلم الخشبى الذى توجد به أضواء تفيد بأن السرعة لا ينبغى أن تزيد على عشرة كيلو مترات فى الساعة . وبعدئذ توجد الفتاة عند الجانب الآخر من السلم . الخشبى حيث تمشى فى تثاقل على الجزء المخصص للمشاة . وقالوا لها : استمرى فى السير على ذلك النحو وارفعى اصبع الابهام فى يدك اليسرى . وكان الفريق يضم سبعة أفراد بما فى ذلك شيمون ليتفاك والفتاة التى تستخدم لإيقاع يانوكا فى المصيدة . أمّا الخمسة الآخرون فكانوا أولاداً يرتدون ملابس صيفية خفيفة وأحذية سباق .

كان الوقت قد أصبح فى منتصف النهار حيث صارت الشمس عالية فى السماء وصار الهواء مليئاً بالتراب . وكانت باقى السيارات على الطريق تتألق من شاحنات رمادية محملة بالجير أو الصلصال .

وكانت السيارة المرسيدس الحمراء محصورة بين هذه الشاحنات وعندما تخطت السيارة المرسيدس الفتاة فإن كل شخص قد شاهد يانوكا وهو يستدير برأسه لكى يرى ما إذا كان وجه الفتاة ممتعاً مثل جسدها . وعندما تأكد له ذلك أوقف سيارته وأنزل زجاج نافذته ذاتياً وأطل برأسه من النافذة وشاهد الفتاة وهى تسير نحوه . ثم أنزلت الفتاة الجيتار وحقيبة الظهر وكانت تحملهما فوق ظهرها وألقت بهما فى ارتياح على الأرض . وذهب ليتفاك فى تقديراته أن هذه الحركة من شأنها أن ترغم يانوكا على عمل شيئين : إمَّاأن يفتح لها الباب الخلفى من الداخل آلياً وهذا يعنى فى نفس الوقت فتح جميع الأبواب الأخرى بالسيارة آلياً وإمَّا أن يخرج من السيارة ويفتح لها الباب من الخارج . وهو فى كلا الحالتين سيتعرض للهجوم .

وبدلاً من أن يفتح بابا واحداً بطريقة يدوية فإنه شغَّل جهاز الفتح الذاتى مما أدى إلى فتح جميع الأبواب الأربعة . وقامت الفتاة بفتح الباب الخلفى القريب منها وظلت واقفة بالخارج ثم راحت تدفع حقيبة سفرها والجيتار إلى المقعد الخلفى . وعندما أغلقت الباب الخلفى وبدأت تتجه إلى الأمام وكأنها تلف لكى تركب فى المقعد المجاور لمقعد السائق كان أحد الرجال قد صوب مسدساً إلى صدغ يانوكا بينما قام ليتفاك بالركوع فى داخل المقعد الخلفى والامساك برأس يانوكا من الخلف بقوة شديدة، ثم وضع المخدر على أنف يانوكا . وهو مخدر يتلاءم مع الحالة الصحية ليانوكا : إذ روعى ألاَّ يتعارض المخدر مع حالة الربو الذى كان يعانى منها يانوكا عندما كان فى سن المراهقة .

والشئ الذى أذهل كل شخص فيما بعد هو أن تلك العملية قد تمت بدون حدوث أية أصوات على الإطلاق . وبينما كان ليتفاك ينتظر لحين أن يبدأ سريان مفعول المخدر فإنه سمع صوت انكسار نظارة يانوكا، وفى اللحظات الأولى خشى أن يكون ذلك الصوت ناجماً عن انكسار رقبة يانوكا مما يؤدى إلى تدمير كل شئ. وفى بادئ الأمر اعتقدوا أن يانوكا ربما يكون قد تخلص من اللوحات ذات الأرقام والأوراق الزائفة الخاصة به وذلك تحت قمصانه الحريرية الأنيقة وأربطة عنقه

الباهرة . وقد استولوا على كل تلك الأوراق لاستخدامها لتحقيق الأغراض الخاصة بهم وكانت تلك الأوراق موجودة مع ساعته الذهبية الجميلة ومع التعويذة المغلفة بطبقة من الذهب والتى يحب يانوكا أن يرتديها باعتبارها هدية من أخته المحبوبة فاطمة .

وكان من السهل اختطاف السيارة والاتجاه بها غرباً ثم الاتجاه بها جنوباً بدون أية مشاكل على الإطلاق .

ومع إبعاد يانوكا مؤقتاً عن المجتمع فإنهم حرصوا على ألاَّ يلحظ أحد فى بيروت أو فى أىّ مكان آخر حدوث هذه الثغرة أو الانقطاع فى تسلسل الأحداث . وكانوا يدركون بالفعل أنه إنسان له طبيعته المستقلة وإنه يميل إلى إثارة الإعجاب به من خلال اتخاذ الإجراءات غير المنطقية حيث كان مشهوراً بتغيير خططه ما بين لحظة وأخرى وذلك بسبب نزواته أو بسبب اعتقاده بأن ذلك من شأنه أن يربك أية مجموعة من الناس تقوم بتتبعه ومراقبته .

الفصل الثالث

لقد تعرف كل من يوسف وتشارلى على بعضهما البغض رسميا فى جزيرة ميكونوس على بلاج يضم فندقين صغيرين خلال مأدبة غداء تمت فى النصف الثانى من شهر أغسطس وذلك أثناء الوقت الذى تصل فيه حرارة الشمس الإغريقية إلى أقصى شراستها وعنفوانها . أو تم ذلك – وفقا للتاريخ الواسع – بعد مرور أربعة أسابيع على قيام الطائرات النفاثة الإسرائيلية بإلقاء القنابل على الحى الفلسطينى المزدحم بالسكان ببيروت . وهو الهجوم الجوى الذى قالت عنه إسرائيل إنه بمثابة جهود مكثفة تهدف إلى تحطيم القيادة الفلسطينية رغم أنه لم يكن هناك أية قادة فلسطينيين بين مئات القتلى الذين لقوا حتفهم اللهم إلا إذا اعتبرنا أن القتلى هم قادة المستقبل حيث كان معظم القتلى من الأطفال .

وقال شخص ما فى اثارة : «ان تشارلى تقول مرحباً ليوسف» .

إلا أن كلا منهما قد تصرف وكأن اللقاء بينهما لم يتم ، اذ ظهر التجهم الثورى على وجهها كما أنه ألقى عليها نظرة تقييم هادئة تخلو من الطموح .

ولقد لاحظت تشارلى أنه معتاد على تلك الطريقة العسكرية الخاصة بزمّ شفتيه قبل أن يتكلم مباشرة . وكان صوته المتسم بلكنة أجنبية به شئ من البرود والاعتدال المثبط للهمة . وكانت مدركة للأمور التى يخفيها أكثر مما هى مدركة للأمور التى قالها . ومن ثم كان سلوكه نحوها هو أسلوب من يرقب النواحى العدوانية .

وكان اسمها الحقيقى شارميان الا أنها كانت معروفة لكل شخص باسم «تشارلى» . وغالبا ما كانت تعرف باسم «تشارلى الحمراء» وذلك مراعاة للون شعرها الأحمر ومواقفها الراديكالية المخبولة بعض الشئ والتى كانت تعبر عن

أسلوبها ازاء الاهتمام بالعالم وما يدور فيه من انتهاكات للعدالة . لقد كانت هى بمثابة الانسانة الدخيلة أو اللامنتمية ضمن مجموعة صاخبة محبة للهو والقصف من الممثلين الشبان البريطانيين الذين كانوا ينامون فى بيت ريفى متداع فى احدى المزارع التى تقع على مسافة نصف ميل إلى الداخل ويهبطون إلى الشاطئ على هيئة أسرة مترابطة شعثاء لا تنفك أواصرها أبداً . أما كيفية وصولهم إلى البيت الريفى فى بادئ الأمر - وكيفية وصولهم الى الجزيرة أساساً فكان ذلك بمثابة معجزة بالنسبة لهم جميعا رغم أنهم من حيث هم ممثلون لا يندهشون من حدوث المعجزات . وكانت هناك شركة غنية بالمدينة ترعاهم وتهتم بتمويل المسرح المتجول الخاص بهم . وبعد أن انتهت هذه الفرقة التى تتألف من ستة أعضاء من جولاتها في المحافظات والأقاليم فإن أعضاءها لم يندهشوا عندما اتخذت الشركة قراراً بمنحهم فترة استجمام وترويح عن النفس على حسابها . وقامت سفينة بنقلهم إلى هناك ووجدوا كل الترحيب فى المنزل الريفى .

ولم تكن تشارلى هى أجمل فتاة فى المجموعة بأى حال من الأحوال رغم أن جاذبيتها الجنسية كانت واضحة للغاية وكانت تشارلى تتميز أيضاً بالنوايا الطيبة التى لا تتوارى أبداً وراء موقفها العقلى أو المزاجى . أما لوسى فكانت باهرة ورائعة الجمال في حين كانت تشارلى تتسم بالبساطة بعض الشئ : ولها أنف طويل قوى ولها وجه طيفى يبدو فى احدى اللحظات طفولياً وفى اللحظة التالية يبدو عجوزا وحزينا للغاية . وهى فى بعض الأحيان كانت بمثابة اللقيطة الخاصة بهم وأحيانا أخرى بمثابة الأم أو الإنسانة التى تحصى النقود وتضع البلاستر على الأقدام المجروحة . وهى من وقت لآخر كانت بمثابة الضمير الخاص بهم حيث تقوم بتوجيه اللوم والتأنيب فيما يتعلق بالمغالاة فى الوطنية أو الشوفينية أو فيما يتعلق بالجنس أو اللامبالاة الغربية . وكانت الطبقة التى تنتمى إليها تشارلى هي التى أعطتها الحق فى القيام بهذه الأعمال : فهى قد تلقت تعليماً خاصاً وهى ابنة سمسار فى الأسهم المالية ولو أن والدها السمسار قد أنهى أيامه بالدخول فى السجن بسبب قيامه بنهب أموال الزبائن من خلال الغش والاحتيال .

وهى فى نهاية الأمر كانت زعيمتهم بدون منازع . وعندما يحل المساء وتعكف الأسرة على تمثيل بعض المسرحيات الدرامية الصغيرة أمام البعض فإن تشارلى هى التى كانت تؤدى الدور التمثيلى على نحو أفضل من الجميع . واذا قرروا أن يغنوا لبعضهم البعض فإن تشارلى كانت هى أفضل من يعزف لهم على الجيتار على نحو يتلاءم مع أصواتهم . كما أن تشارلى هى التى تعرف الأغانى الشعبية المليئة بالبكاء والأشجان والاحتجاجات وكانت تؤدى تلك الأغانى في أسلوب رجالي ملئ بمشاعر الغضب . وفى بعض الأوقات الأخرى كانوا ينهمكون سويا فى مشاورات ومناقشات متجهمة ويقومون بتدخين المرجوانا ويحتسون خمور الرتسينا التى تباع بسعر ٣٠ دراخمة لكل نصف لتر .

لقد كانوا يحبونها ما فى ذلك شك وكانت هى تبادلهم حبا بحب .

الا أن يوسف ـ وهو الاسم الذى اطلقوه عليه لم يكن أحد أفراد أسرتهم على الاطلاق . بل وحتى لم يكن – مثل تشارلى – بمثابة جماعة صغيرة منشقة تتألف من فرد واحد . كان لدى يوسف ما يسمى بالاكتفاء الذاتى وهو نوع من الشجاعة فى حد ذاته من وجهة نظر النفوس الضعيفة . فهو كان بدون أصدقاء ومع ذلك لا يشتكى ولا يتذمر . إنه الشخص الأجنبى الغريب الذى لا يحتاج لأى شخص . وكل ما يحتاجه هو مجرد فوطة وكتاب وزجاجة مياه معدنية والحفرة الصغيرة الخاصة به فى الرمال التى تشبه الحفرة التى يحتمى فيها الجندى من نيران العدو . وكانت تشارلى هى وحدها التى تدرك أنه شبح .

.. ..

وأول رؤية محلية شاهدته فيها قد تمت فى الصباح عقب شجارها الكبير مع ألاستير وهو الشجار الذى انهزمت فيه بالضربة القاضية . اذ كان يوجد فى مكان ما فى داخل كيان تشارلى نوع من الخنوع والخضوع الذى يجذبها على نحو تقديرى الى المتنمرين أو المستأسدين أو حماة العاهرات . وكان حامى العاهرة بالنسبة لها فى ذلك اليوم هو رجل اسكتلندى يبلغ طوله ستة أقدام

ويعرف للعائلة باسم «آل الطويل» الذى كان يلجأ للتهديدات ويقتبس اقتباسا غير سليم عن الفوضوى باكونين وهو – مثل تشارلى – كان له شعر أحمر وعينان زرقاوان . وعندما خرجا من الماء سويا فى جسديهما اللامعين كانا يشبهان شخصين من جنس بشرى آخر يختلف عن أى شخص آخر حولهما وعندما انطلق فجأة في اتجاه المنزل الريفى وقد تماسكت يداهما وبدون أن يتحدثا مع أى شخص أدرك الجميع أنهما يموجان بالرغبة الشبيهة بالألم . وبعد ذلك زحفت تشارلى إلى ركن بالدور العلوى لكى تعالج جراحها . وانطلقت فى الساعة السادسة تماما في الصباح لكى تأخذ حماما منفرداً وبعدئذٍ سارت إلى المدينة لكى تشترى جريدة صادرة باللغة الانجليزية وتتناول طعام الافطار وبينما كانت تشترى نسخة من جريدة «الهيرالد تريبيون» ظهر الشبح : حالة واضحة لظاهرة روحية خارقة للطبيعة .

إنه الرجل الذى يرتدى سترة فضفاضة حمراء . وكان واقفا خلفها مباشرة فى تلك اللحظة حيث يختار لنفسه كتابا ورقى الغلاف يحرص على تجاهلها . ولم يكن مرتديا السترة الفضفاضة الحمراء فى هذه المرة وإنما يرتدى قميصا وبنطالا قصيراً وصندلاً . إنه نفس الرجل بدون أى شك . نفس الشعر الأسود الذى تم قصه ليكون قصيراً مع وجود خصلة من الشعر عند منتصف الجبهة . ونفس العينين الدمثتين اللطيفتين البنيتين التى سبق أن حملقتا فيها مثل فانوس مظلم من الصف الأمامى بمسرح بارى فى نوتنجهام علي مدى نصف يوم : خلال حفلة الماتينيه أولاً وبعدئذٍ خلال الحفلة المسائية بحيث انصبت عيناه على تشارلى فقط مع تتبع كل حركة تقوم بها . وهو وجه – من وجهة نظر تشارلى – كان يعبر عن حقيقة واحدة قوية ودائمة وذلك على النقيض من الأقنعة العديدة التى يرتديها أى ممثل .

كانت تشارلى تمثل دور القديسة جان دارك وتكاد أن يجن جنونها بشأن دوفين ولذلك فهى لم تتنبه لوجوده وجلوسه بين أطفال المدارس إلا فى اللوحة الأخيرة . ولو لم تكن الإضاءة ضعيفة عليَّ لما تمكنت من مشاهدته . وكانت قد

ظننته فى بادئ الأمر أنه مدرس وبعد أن غادر الأطفال المسرح ظل جالساً فى مكانه يقرأ شيئا اعتقدت أنه نص المسرحية أو ربما المقدمة الخاصة بالمسرحية . وعندما رفع الستار مرة أخرى من أجل تقديم العرض المسائى كان لا يزال فى مكانه بينما نظراته الهادئة غير المتسمة بأية ردود للفعل منصبة عليها تماما مثلما كان الحال من قبل وعندما أُسدل الستار النهائى فانها استاءت من ذلك ، لأن هذا يعنى إبعاده عنها .

وبعد مرور أيام قليلة ، وبعد أن كانت قد نسيته فأنها كان بمقدورها أن تقسم أنها شاهدته فى «يورك» مرة أخرى ولكنها لم تكن متأكدة تماما حيث بدت الاضاءة على خشبة المسرح قوية للغاية ، مما جعلها لا تتمكن من اختراق السديم الضبابى . كما أنه لم يظل جالساً فى مكانه بين العرض الأول والعرض الثانى . ومع كل ذلك فإنها مستعدة أن تقسم بأن الوجه كان هو نفس الوجه . وكان الوجه سابحاً فى نشوة ومنصباً عليها هذا بالاضافة إلى ارتدائه نفس السترة الفضفاضة الحمراء اللون . أكان ناقدا ؟ أكان منتجاً ؟ أكان مندوبا ؟ أكان مخرجاً للأفلام السينمائية ؟ أكان هو مندوب عن شركة المدينة التى قامت بتقديم الرعاية للفرقة المسرحية نيابة عن مجلس الفنون ؟ وهي عندما شاهدته فى المرة الثالثة – أو ظنت انها شاهدته – قبل أن تقوم بأجازتها مباشرة وفى نفس الليلة الأخيرة من جولتهم حيث كان واقفا عند الباب الخاص بمسرح «الإيست إند» الصغير راودتها فكرة أن تسير نحوه مباشرة وتسأله صراحةً عن طبيعة وظيفته وعما اذا كان شخصا مولعا بالجنس أو مولعاً بالحصول على التوقيع في الأتوجراف الخاصة به . إلا أن مظهره المتسم بالاخلاق الحميدة منعها من الإقدام على هذه الخطوة .

ولذلك فإن مشاهدته الآن – واقفا على مسافة ياردة واحدة منها وقد بدا عليه وكأنه غير مدرك لوجودها حيث يتأمل فى الكتب بنفس الاهتمام الذى أبداه منذ أيام قليلة – جعلها تتعرض لحالة من الاهتياج العصبى غير العادية . فاستدارت نحوه . والتقت بنظراته غير المرتبكة . وراحت تحملق فيه فى مزيد من

التفرس . ومما ساعدها على ذلك أنها كانت ترتدى نظارتها السوداء حيث ارتدتها من أجل اخفاء الكدمة المحتقنة الموجودة في وجهها . وبعد أن شاهدته عن كثب شديد أدركت أنه أكبر سناً مما كانت تتخيل بل وأكثر نحافة وتميزا . وأعادت تشارلى جريدة «الهيرالد تريبيون» إلى مكانها وتقهقرت الى حانة تطل على مياه البحر .

وبينما كانت ترفع فنجان القهوة بيد مرتعشة إلى فمها قالت لنفسها :إننى مجنونة . إننى أقوم بتلفيق كل شئ . إنه بمثابة الدوبلير أو الشبيه الخاص به . وما كان ينبغى علىّ أن أبتلع ذلك القرص اللعين الذى يثير النشوة والسعادة والذى أعطته لوسى لى لرفع حالتى المعنوية عقب قيام يلونج آل أو آل الطويل بضربى . كانت قد قرأت فى مكان ما أن الإحساس بأنها قد رأت شيئا ما لتوه يكون نتيجة حدوث ثغرة فى الاتصالات ما بين الذهن والعين . ولكنها عندما حملقت على طول الطريق فى الاتجاه الذى جاءت منه ، فإنها رأته جالسا هنالك ، ومحسوسا للبصر وللذهن على حد سواء حيث يجلس فى الحانة التالية مرتديا طاقية جولف بيضاء اللون وكانت الطاقية منحدرة للأمام بشدة لكي تلقى بالظلال على عينيه بينما كان يقرأ كتابه الانجليزى الورقى الغلاف : «محادثات مع أليندى بقلم ديبراى» كانت قد فكرت فى شراء ذلك الكتاب بنفسها بالأمس فقط .

وقالت لنفسها وهى تمر فى مرح أمامه لكى تظهر أنها محصنة : انه قد جاء لكى يستعيد السيطرة على روحى . ولكن هل سبق لى أن وعدته أنه يمكن أن يحصل على روحى ومتى تم ذلك ؟

.. ..

وفى نفس فترة ما بعد الظهر ، اتخذ مكانا له على البلاج علي مسافة لا تزيد على ٦٠ ياردة من مخيم العائلة . وكان يرتدى بنطالا من النوع القصير الاسود المحتشم الذى يرتديه الرهبان ممسكا بزجاجة مياه معدنية يرتشف منها من وقت لآخر رشفات قليلة بطريقة اقتصادية وكأن الواحة التالية تقع على مسيرة

يوم . ولم يكن يرقب أحداً على الاطلاق ولا يعطى أدنى اهتمام بأى شئ . لا شئ سوى الانهماك فى قراءة كتابه الذى هو من تأليف ديبراى حيث يقرأ من تحت حافة الطاقية البيضاء التى يرتديها . ومع ذلك كانت تدرك أنه يتابع كل حركة تقوم بها . ورغم البلاجات العديدة الموجودة فى ميكونوص فإنه اختار البلاج الذى توجد به مجموعتهم . ومن بين كافة الأماكن الموجودة فى بلاجهم اختار ذلك الموقع المرتفع فوق الكثبان الرملية حيث يمكن له مشاهدتها بوضوح سواء أثناء قيامها بالسباحة أو إحضار زجاجة رتسينا أخرى من أجل «آل» . فهو من خندقه المرتفع يمكنه أن يسدد النيران إليها بكل حرية بينما لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئا إزاء ذلك . واذا أقدمت على إبلاغ لونج آل فإنها ستعرض نفسها للسخرية والاستهزاء، وهى لم يكن لديها النية لإعطـــائه الفرصة الذهبية لكى يصب احتقاره على خيالاتها .

لذلك فهى لم تقل أى كلام ولم تفعل أى شئ . وهو أيضاً لم يفعل أى شئ إلا أنها كانت تدرك أنه في حالة انتظار وكانت تحس أنه يحصى ويعد الساعات فى صبر . بل وحتى عندما كان يستلقى كالميت كان يحدث تغييرا غامضا يصدر كالوميض عن جسده اللون الرشيق البنى اللون ، وينتقل اليها عبر الشمس . وفى بعض الأحيان كان التوتر يتفجر فى داخل كيانه على ما يبدو ، وعندئذ كان يقفز ناهضا على قدميه فجأة ويخلع قبعته وينزل فى وقار من فوق ربوته متجها إلى الماء مثل أحد أفراد قبيلة يسير بدون أن يكون ممسكا برمح ، ثم يغوص فى الماء بدون احداث صوت ، بحيث لا يكاد يحدث أى تموج على سطح الماء . وعندئذ كانت تنتظر وتقول لنفسها : إنه قد غرق بكل تأكيد . ولكن بعد أن تيأس تماما من مشاهدته مرة أخرى ، يظهر مرة أخرى على سطح الماء على مسافة بعيدة عبر الخليج سابحا فى انطلاق ومثابرة كما لو كان الأمر يستلزم منه أن يقطع أميالاً عديدة بينما رأسه الأسود المقصوص الشعر يلمع مثل رأس عجل البحر . وكانت هناك زوارق بخارية تنطلق بسرعة هنا وهناك الا أنه كان يتجاهلها تماماً . وكانت هناك فتيات جميلات إلا أن رأسه لم يلتفت نحوهن على الإطلاق وبعد أن ينتهى من

السباحة يمارس تمرينات رياضية فى بطء قبل أن يرتدى طاقية الجولف مرة أخرى ويستعد لاستئناف القراءة فى كتاب «الليندى» بقلم ديبراى .

وساءلت نفسها في تعجب لترى من الذى يمتلكه ؟ ومن الذى يكتب له التوجيهات ويصدر له التعليمات ؟ لقد كان معتليا خشبة المسرح من أجلها مثلما كانت هى معتلية خشبة المسرح من أجله فى انجلترا . أنه عضو فى فرقة مسرحية مثلها تماما . ومع تلك الشمس الحارقة التى ترتعد ما بين السماء والرمال فإنه بمقدورها أن تشاهد جسده التواق الناضج على مدى دقائق متواصلة مستخدمةً جسده كهدف أمام تأملاتها المستفزة المثارة وراحت تفكر : أنت بالنسبة لى مثلما أنا بالنسبة لك وهؤلاء الأطفال لا يفهمون تلك الحقيقة . ولكن عندما حل موعد تناول وجبة الغداء وبدأوا يسيرون الواحد تلو الآخر مارين بجواره فى اتجاههم نحو الحانة شعرت تشارلى بالضيق والحنق عندما شاهدت لوسى تفصل ذراعها عن ذراع روبرت وتلوح فى اتجاهه بتلويحة مومسية وتطوح ردفيها إلى الوراء فى إثارة .

قالت لوسى بصوت مرتفع : أليس عجيباً وأسطوريا . أننى على استعداد لأن أتناول معه الطعام فى أى يوم .

فقالت ويلى بصوت مرتفع : وأنا أيضاً أليس كذلك يابولى

ولكنه تجاهلهم . وفى فترة ما بعد الظهر أقتادها «آل» إلى المنزل الريفى حيث مارسا حبا وحشيا غير متسم بالمحبة . وعندما عادا إلى البلاج فى الفترات الأولى من المساء اكتشفت أنه قد انصرف فشعرت بالتعاسة لأنها كانت غير وفية وغير مخلصة للرجل السرى الغامض الخاص بها . وساءلت نفسها فى تعجب عمّا اذا كان ينبغى عليها أن تمشط الأماكن الليلية بحثا عنه . ونظرا لأنها لم تتمكن من العثور عليه بالنهار فإنها اعتقدت أنه من النوع الذى يزداد نشاطه فى الليل .

.. ..

فى صباح اليوم التالى لم تذهب الى البلاج . ففى الليلة السابقة كانت قوة تركيزها على الرغبة الجنسية قد أدخلت عليها المتعة والتسلية فى بادئ الأمر ، ثم سببت لها المخاوف فقررت أن تحطم تلك الرغبة . فبينما هى راقدة بجوار الكتلة الضخمة لـ «آل» النائمة تخيلت نفسها فى حالة من الممارسة القوية للحب مع شخص ما لم يسبق لها التكلم معه والدخول معه فى كافة الأنواع الابتكارية ثم التخلص من «آل» نهائيا والهروب مع ذلك الشخص الجديد الي الأبد . وفى سن ١٦ سنة كان مثل هذا الجموح الماجن والاستهتار الجنونى أمراً مسموحاً به أما فى سن ٢٦ عاما فهو أمر غير لائق . ولكن فكرة التخلص من «آل» كانت شيئا آخر ، ينبغى أن يحدث ذلك عاجلاً وليس آجلاً كما أن مطاردة ذلك الشاب المرتدى لطاقية الجولف البيضاء كان أمراً حتى ولو تم التعقب خلال أجازة فى ميكونوس . لذلك كررت نفس الروتين الذى اتبعته بالأمس . ولكنه في هذه المرة لم يظهر خلفها فى حانوت بيع الكتب بل لم يتناول القهوة فى المقهى المجاورة للحانة التى تجلس فيها مما سبب لها الكثير من مشاعر الإحباط . بل إنها عندما ذهبت الى المحلات التى تقع بجوار المياه لم يظهر انعكاسه على الفاترينات الى جوار انعكاساتها على النحو الذى كانت تأمل فيه . وبعد أن لحقت بالأسرة فى الحانة لدى حلول موعد تناول الغداء ، علمت أنهم قد أطلقوا عليه – أثناء غيابها – اسم : يوسف .

ولم يكن فى ذلك شئ من الغرابة . فالأسرة قد أعطت أسماءً لكل شخص استرعى انتباها وهى أسماء عادة ما تكون مأخوذة عن المسرحيات أو الأفلام . وكانت الأخلاقيات تقضى باستخدام الاسم طالما أنه حظى بموافقة جماعية من الأسرة . حيث سبق لهم أن اطلقوا اسم أوفيليا على ربة بيت جبلية من فرانكفورت لأنها كانت ترتدى طاقية بها ورود حمراء . لقد أعطوه اسم يوسف فى هذه المرة لأسباب عديدة منها : ملامحه السامية والمعطف المخطط المتعدد الألوان الذى كان يرتديه على بنطاله الأسود أثناء سيره ، تركه للبلاج الخاص بهم . كما أطلقوا عليه اسم يوسف أيضاً بسبب تحفظه وفتوره ازاء زملائه الآدميين علاوة على ظهوره بمظهر الشخص المختار مما يلحق الضرر بالآخرين غير المفضلين . يوسف

المحتقر من جانب إخوته والذى اتخذ مكاناً بعيداً لكى ينفرد مع كتابه ومع زجاجة المياه المعدنية الخاصة به .

ونظرت تشارلى فى تجهم وهى جالسة فى مكانها عند المنضدة بسبب تزايد معرفتهم بالسر الخاص بها . وآلستير الذى كان يشعر بالأخطار والتهديدات بمجرد أن يتم امتداح أى شخص بدون الحصول على موافقة ومباركة شخصية منه على ذلك المديح بدأ يملأ كأسه من الأبريق الخاص بروبرت .

وقال فى وقاحة : ذلك الولد يوسف . إنه لوطى كريه الرائحة تماما مثل ويلى و بولى إنه يطوف بحثا عن الأعداء . وذلك هو ما يفعله ويقوم به . كم أود أن أسحق وجهه . ولسوف أسحقه .

ولكن تشارلى كانت قد بدأت اليوم وبدأت تشعر بالضيق الشديد من آلستير فى ذلك اليوم ، وبدأت تشعر بالسأم من كونها عبدة لجسده الفاشستى ، وكونها أما له فى نفس الوقت . وكان استياؤها المتزايد من آلستير يتصارع مع شعورها بعقدة الذنب إزاء يوسف .

وقالت تشارلى فى وحشية وهى تستدير نحوه فى غضب : إذا كان لوطيا، فلماذا يطوف بحثا عن الأعداء أيها الرجل المغفل العبيط ؟ وأضافت يوجد بلاجان لعينان . وهو يمكن له أن يلتقط نصف دستة من ملكات الجمال اليونانيات مثلما يمكن لك .

فقام آلستير بصفعها على وجهها فى عنف مما جعل وجهها يكتسب اللون الأبيض فى بادئ الأمر ثم اللون القرمزى .

واستمرت تخميناتهم فى فترة ما بعد الظهر . إن يوسف من النوع الذى يشبع رغبته الجنسية من خلال النظر الى الممارسات الجنسية . إنه من النوع الذى يطوف خلسة بحثاً عن فريسة . إنه لاعب رياضى لامع ومرموق . باهر ولافت للأنظار . سفاح أحمق . فنان . إنه عضو فى حزب المحافظين البريطانى . الا أنهم كالمعتاد تركو لألستير مهمة تحديد الصفات . فقال بصوت لعين : إنه إنسان أحمق وعبيط .

الا أن يوسف نفسه كان غافلاً عن هذه الإهانات وهو ما كانت ترغب فيه تشارلى . وفى منتصف فترة ما بعد الظهر توصلوا إلى رأى آخر – وذلك بدون أن تشاركهم تشارلى فى ذلك الرأى أيضا – وهو أنه إنسان فاتر وهادئ الأعصاب ، وكان ذلك هو أكبر قدر من المديح يمكن أن يتوصلوا اليه .

وقال آلستير فى تفكير «انه بارد وهادئ الاعصاب وأنا أشعر بالارتياح نحوه» وراح يملس على ظهر لوسى الناعم متجهاً بيده الي أسفل الى أن يصل الى شريط المايوه البكينى ثم يرتفع بيده الى أعلى مراراً وتكراراً وأضاف قائلاً :

– لو أنه كان امرأة لكنت قد عرفت على وجه الدقة ، ماذا ينبغى أن أفعل معه . أليس كذلك يالوسى ؟

وفى اللحظة التالية هبت لوسى واقفة . فأصبحت الانسانة الوحيدة التى تقف معتدلة القامة على ذلك البلاج المتلألئ بالحرارة والضياء ، قالت وهى تخلع رداء البحر : من الذى يقول اننى لا أستطيع أن اجتذبه ؟ »

والآن كانت لوسى شقراء وعريضة الردفين ومثيرة ومغرية مثل التفاحة بل متخصصة فى تمثيل دور الجرسونات اللاتى يعملن فى البارات، ودور المومسات ، الا أن التخصص الشديد الذى تمثله هو القيام بدور الفتيات تحت سن العشرين وما يعتمل فى داخلهن من الشبق المرضى الجنسى . وبذلك كان بمقدورها أن تجتذب أى شخص بمجرد أن تلقى عليه نظرة من رموش عينيها . وقامت بربط رداء البحر الخاص بها تحت ثدييها ثم التقطت ابريق خمور وكأسا من البلاستيك وراحت تتهادى فى تثاقل عبر سفح الربوة الرملية وهى ممسكة بالابريق فى يدها مثل الهة اغريقية متجسدة فى هوليود . ثم ركعت الى جواره على ركبة واحدة وراحت تصب الخمور من مسافة عالية جاعلة رداءها ينفتح أثناء قيامها بهذه الحركة . وبينما كانت تقدم له الكأس قررت أن تتكلم معه باللغة الفرنسية أو تتكلم معه بأكبر قدر تعرفه من اللغة الفرنسية ؟

وتساءلت لوسى بالفرنسية : هل تحب ؟

لم يبد يوسف أى اهتمام بوجودها الى جواره . ثم قلب صفحة فى الكتاب وبعدئذ شاهد ظلها ثم انقلب على جانبه وراح يتفحصها بعينيه السوداوين من تحت حافة طاقية الجولف الخاصة به وأخذ منها الكأس وشرب نخبها فى وقار بينما راح زملاؤها الموجودون على مسافة عشرين ياردة يصفقون بأيديهم ابتهاجا ويزمجرون مثل أعضاء مجلس العموم معبرين عن رضائهم وموافقاتهم السخيفة .

قال يوسف موجهاً كلامه للوسى وكأنما يقرأ خريطة : من المؤكد أنك هيرا وهنا فقط ظهر الاكتشاف الدرامى : لقد كان لديه هذه الندبات الغائرة !

لم تستطع لوسى أن تتمالك نفسها . وكان أشد الندبات ترويعا هو ثقب فى حجم قطعة النقود التى هى من فئة الخمسة بنسات وشبيه بذلك الورق اللاصق الشبيه بثقوب الرصاصات الذى يوجد لدى بولى وويلى . الا أن هذا الثقب كان موجودا فى الجانب الأيسر من المعدة . ولم يكن بمقدور المرء مشاهدة ذلك الثقب من على مسافة ولكنها عندما لمسته بيدها شعرت أنه ناعماً للغاية وصلباً

وردت لوسى فى غموض «وأنت يوسف» بدون أن تعـرف من تكون هيرا هذه .

ويتجدد التصفيق الحاد بينما ألستير يرفع كأسه عاليا ، ويقول : «فى صحتك يا يوسف ! يا مستر يوسف يا سيدى . ولينعم مرفقك بالقوة . ألق بالرمال على وجه اخوانك الحاقدين» .

ثم صاح روبرت قائلا : «تعال - الينا وانضم الينا يامستر يوسف !»، لكن تشارلى أمرته فى غضب أن يكف عن هذا الكلام .

لم ينضم يوسف إليهم . ورفع كأسه نحوهم وظنت تشارلى أنه يرفع كأسه تحية لها بصفة خاصة . وبعدئذٍ عاد إلى القراءة كالمعتاد . إنه لم يزجرهم ولم يوبخهم ولم يفعل أى شئ زائد عن الحد أو أقل من الحد وفقا لما قالته لوسى . ثم تدحرج على بطنه وعندئذ تأكد للوسى أن الثقب ناجم عن رصاصة حيث توجد ندبة الخروج على ظهره . وراحت لوسى تحملق فى مزيد من التفحص فأدركت

أنها لا تشاهد جرحاً واحدا وإنما ترى مجموعات من الجراح : فهناك جراح تركت ندبات غائرة على طول الأجزاء السفلية من المرفق علاوة على وجود جزر خالية من الشعر ولها بشرة غير طبيعية منتشرة على العضلات ذات الرأسين الموجودة فى مؤخر الفخذ . فقالت لنفسها ربما قام شخص ما بتعذيبه على ذلك النحو ؟ ومكثت معه لوسى لبعض الوقت متظاهرة بأنها تقرأ فى كتابه من فوق كتفه أثناء قيامه بقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى إلا أنها فى الحقيقة كانت ترغب فى التلميس على عموده الفقرى . لأنه - بغض النظر عن أنه ملئ بالندبات الغائرة - ملئ بالشعر المنحسر إلى الداخل بين شق العضلات وذلك هو النوع المفضل لديها من الأعمدة الفقرية . لم تفعل ذلك لأنها - كما أوضحت لتشارلى فيما بعد - اذا لمسته مرة واحدة لم تكن واثقة من أنه يمكن لمسه ثانية . قالت لوسى إنها ساءلت نفسها فى تعجب وفى موجة فجائية من التواضع عمّا اذا كان ينبغى عليها أن تطرق على بابه أولا على الأقل . وهذه عبارة قد استقرت فيما بعد فى ذهن تشارلى . وكانت لوسى قد فكرت فى إفراغ زجاجة الماء الخاصة به من أجل أن تملأها بالخمور ولكنه عندئذ لم يقم باحتساء الخمر على نحو حقيقى ولذلك فهو ربما كان يفضل الماء على الخمر؟ وفى نهاية الأمر وضعت لوسى الإبريق على رأسها . ودارت على قدم واحدة فى بطء مثل راقصة الباليه . واتجهت عائدة إلى العائلة حيث قامت بتقديم تقريرها وهى متقطعة الأنفاس ولاهثة قبل أن تستلقى نائمة فى حجر شخص ما . لقد نظر إلى يوسف على أنه أكثر بروداً وتحفظا مما كانوا يتصورون .

.. ..

وحدثت مفاجأة بعد ظهر اليوم التالى . لقد أصبح من المقرر أن يترك «لونج آل» العائلة . إذ أرسل وكيل أعماله برقية تعتبر معجزة فى حد ذاتها . وحتى ذلك الحين هناك افتراض عام بأن وكيله غير مدرك لهذه الوسيلة من الاتصال الباهظة التكاليف إذ جاءت البرقية إلى المنزل الريفى على موتوسيكل لامبريتا فى الساعة

العاشرة فى ذلك الصباح . ثم أحضرت البرقية إلى البلاج بمعرفة كل من : ويلى وبولى اللتين خلدتا الى النوم فى ساعة متأخرة من الليل . وجاء بالبرقية عبارة «هناك احتمال بإسناد البطولة إليك فى أحد الأفلام» وكان ذلك أمرا عظيما فى داخل نطاق العائلة ، لأن آلستير لم يكن لديه سوى طموح واحد هو القيام بدور البطولة فى الأفلام الضخمة التى يتكلف إنتاجها مبالغ باهظة . وفى كل مرة ترفضه فيها صناعة السينما يقول : «إننى قوى للغاية بحيث لا يمكنهم أن يتحملوا قوتى». ولذلك عندما وصلت البرقية ابتهجوا جميعا من أجل ألستير . ولكنهم فى السر كانوا يشعرون بسعادة أكثر من أجل أنفسهم وذلك لأن عنفه واستخدامه للعنف قد بدأ يثير ضيقهم واشمئزازهم منه . وكانوا يشعرون بالضيق منه بسبب استخدامه العنف مع تشارلى التى اصبحت مصابة بكدمات سوداء وزرقاء ناجمة عن هجومه عليها مما جعلهم يخافون من وجودهم على هذه الجزيرة. وكانت تشارلى هى الوحيدة التى شعرت بالانزعاج من احتمال رحيله وان كان حزنها كان موجها بصفة رئيسية إلى ذاتها . لقد ظلت على مدى أيام – شأنها فى ذلك شأن الآخرين – ترغب فى أن يخرج آلستير من حياتها الى الأبد . ولكن ما إن تمت الاستجابة لصلواتها عقب وصول البرقية حتى اجتاحتها مشاعر عقدة الذنب والخوف إزاء رؤيتها انتهاء مرحلة أخرى من مراحل حياتها .

واقتادت العائلة «لونج آل» إلى مكتب شرطة الطيران الأولمبية الموجود بالمدينة بمجرد أن فتح أبوابه مرة أخرى عقب انتهاء فترة القيلولة من أجل تسفيره فى أمان على الطائرة التى تغادر فى صباح اليوم التالى متجهة إلى أثينا . لقد ذهبت تشارلى أيضاً مع العائلة الا إنها كانت شاحبة اللون وممتقعة الوجه ومصابة بالدوار والدوخة وظلت تضم يديها إلى صدرها فى إحكام وكأنها تتجمد من البرد.

توقعت تشارلى عدم وجود مقاعد شاغرة . ولكنها كانت مخطئة فى توقعاتها ، إذ اتضح أنه يوجد مقعد من أجل لونج آل . وهو مقعد محجوز بالتلكس من لندن منذ ثلاثة أيـام وتم التأكيد على حجزه بالأمسى . ولقد أزال هذا الحجـز

كل ما كان متبقيا لديهم من شكوك . إن لونج آل كان ينطلق كالصاروخ نحو السعادة . إذ لم يحدث مثل هذا الأمر لأى واحد منهم من قبل على الإطلاق .

وقال آلستير لأفراد العائلة أثناء انتظارهم الأتوبيس لكى يعود بهم إلى البلاج : «إن هذا الوكيل يريد أن يحصل على السمسرة . ولكنى لن أسمح لأى إنسان طفيلى لعين بأن يحصل منى على نسبة ١٠٪ طوال الفترات المتبقية من حياتى» .

ثم جلسوا فى الحانة المطلة على البلاج حيث تصدر لونج آل المنضدة لكى يسيطر على انتباههم كانت تلك هى اللحظة التى أدركوا فيها أنه قد فقد جواز سفره ومحفظته وبطاقة بنك باركليز وتذكرة السفر بالطائرة الخاصة به .

.. ..

وحدثت مشادة بين آلستير وتشارلى . وقام آلستير بإمساكها من معصمها ولوى ذراعها فى اتجاه كتفها مع توجيه السباب واللعنات اليها . وصرخت تشارلى فى ألم وامتعاض . وقال لها :

– لقد قلت لك أن تضعى هذه الأشياء فى الحقيبة اللعينة . ألم أقل لك ذلك أيتها البقرة الصغيرة الغبية لقد كانت هذه الأشياء ملقاة عند مكتب التذاكر ، وأنا قلت لك :

التقطى هذه الأشياء وضعيها فى حقيبة الكتف الخاصة بك ياتشارلى لأن الأولاد هنا من أمثال ويلى وبولى لا يحملون حقائب يد يا عزيزتى . هل هم يحملون حقائب يد ياعزيزتى ؟

إذن الى أين ذهبت ووضعت هذه الأشياء . أين أخفيت هذه الأشياء أيتها الفتاة ؟ لا توجد هناك أية وسيلة لعينة لمنع رجل من الذهاب إلى قدره ومصيره ! صدقينى ! . لا توجد هناك وسيلة لإيقاف شوفينية رجل يغالى فى الإحساس بحب الوطن .

ومع ذروة احتدام الكلام والصراع جاء يوسف . ودخل فى هدوء من جهة

البلاج دون أن يشعر به أحد وأحسوا بوجوده ووقوفه فجأة عندهم . كان مرتديا معطفه المليئ بالألوان العديدة بينما طاقية الجولف الخاصة به مائلة إلى الأمام . وكان يحمل فى يده جواز سفر ومحفظة آلستير وتذكرة الطيران الخاصة بآلستير . وكان على ما يبدو قد التقط كل هذه الأشياء من الرمال عند سلالم الحانة . ثم راح يرقب المشهد الدائر بين الحبيبين المتقاتلين . وظل منتظرا للحظات لكى ينتبهوا إليه جميعا . ثم وضع كل هذه الأشياء التى عثر عليها على المنضدة الواحدة تلو الأخرى . وساد الصمت المطبق فى الحانة . ولا شئ سوى الصوت الخفيف الذى ينجم عن القاء الأشياء الواحدة تلو الأخرى على المنضدة . ثم تكلم أخيراً بصوت منخفض:

– معذرة . خطر بذهنى أن شخصا ما بصدد أن يفقد تلك الأشياء فى القريب العاجل أعتقد أن المرء ينبغي عليه أن يواجه الحياة بدون هذه الأشياء . ولكنى أخشى أن تكون مواجهة الحياة بدون هذه الأشياء صعبة بالفعل إلى حد ما .

وحتى تلك الآونة لم يكن أحد قد سمع صوته باستثناء لوسى . وظهرت الدهشة البالغة ثم انفجر الجميع فى ضحكات مدوية وانهالت عبارات الشكر والتقدير على يوسف . وتوسلوا إليه لكى يجلس معهم . وتردد بعض الشئ . وزاد اصرارهم . وراح يتفحصهم جميعا بنظراته . ووقع نظره على تشارلى . وابتعد خطوات قليلة . ولكنه عاد إلى تشارلى مرة أخرى . لقد وافق أن يجلس معهم . ظهرت على وجهه ابتسامة . قال : «حسنا . اذا كنتم تصرون على ذلك » . فأظهروا له حماسهم وإصرارهم . وقامت لوسى بمعانقته واحتضانه على أساس أنها صديقة قديمة له . وواجه كل شخص بالعائلة نظراته المسددة المباشرة إلى أن جاء الدور على عينى تشارلى الزرقاوين فأصبحتا فى مواجهة عينى يوسف البنيتين. وأصبح الارتباك الغاضب لدى تشارلى فى مواجهة رباطة الجأش والهدوء التام لدى يوسف . وان كانت هى وحدها التى كانت تدرك أن ذلك الهدوء بمثابة قناع مثبت فوق أفكار أخرى ودوافع أخرى .

وقال فى هدوء لتشارلى «حسنا . يا تشارلى . مرحبا . كيف حالك ؟» ثم قاما بمصافحة بعضهما البعض بالأيدى . ثم استطرد قائلا : كنت أعتقد أن تشارلى هو اسم ولد ؟

فقالت تشارلى «حسنا . إننى فتاة» وانفجر الجميع بما فى ذلك تشارلى فى الضحك .

.. ..

وعلى مدى الأيام القليلة المتبقية للعائلة أصبح يوسف بمثابة جالب الحظ للعائلة . وبعد أن شعرت العائلة بالارتياح إزاء رحيل آلستير فإنها تبنت يوسف من كل قلبها . بل وقامت لوسى بمراودة يوسف عن نفسها بمعنى أنها عرضت عليه أن يمارس معها الحب . الا أنه رفض ذلك فى أدب جم بل وفى أسف أيضا . وكان ذلك بمثابة برهان أكيد على أنه أقسم أن يلتزم العفة والطهارة . وأصبحت العائلة فى خلال الفترة المتبقية على رحيل آلستير تفكر فى تخفيف وإضعاف العلاقات السائدة بين بعضهم البعض . وبدأت تتحطم حالات الزواج البسيطة التى تربط بينهم ، ولم تكن التآلفات الجديدة تعمل على إنقاذهم واعتقدت لوسى أنها ربما تكون فى حالة حمل . كما أن المناقشات السياسية العميقة بدأت تتلاشى بسبب عدم وجود دوافع لها نظراً لأن كل ما يعرفونه هو أن النظام ضدهم وأنهم ضد النظام . وفى الليالى بالبيت الريفى وأثناء تناولهم للخبز والطماطم وزيت الزيتون والرتسينا بدأوا يتحدثون فى شوق وحنين للوطن عن الأيام المطرة الباردة فى لندن وعن الشوارع التى يمكنك أن تشم فيها رائحة طهو لحوم الخنزير لتناولها كطعام للإفطار فى صباح أيام الأحد . والآن لقد غادر آلستير فجأة وجاء يوسف لكى يعيد تنظيم الأمور من منظور جديد .فرحبوا به واحتضنوه فى شراهة. ولم يكتفوا بمرافقتهم له على الشاطئ والحانة وانما عقدوا أمسية من أجله فى البيت الريفى . وقامت لوسى الفتاة التى يتوقع لها أن تصبح أما بتقديم الأطباق الورقية والجبنة والفواكه . ونظرا لأن تشارلى شعرت أنها معروضة على يوسف عقب رحيل

الستير ونظراً لخوفها من المشاعر المختلطة غير المنتظمة الخاصة بها فإنها فضلت أن تكبح جماح نفسها وقالت لهم :

– : «إنه إنسان مخادع ودجال ويبلغ من العمر ٤٠ عاماً أيها الأغبياء والمغفلون. ألا يمكن لكم أن تدركوا ذلك ؟»

شعروا بالدهشة والحيرة من أمرها . فماذا حدث لها وهى التى تتسم بالكرم ؟ وكيف يمكن له أن يكون مخادعاً ودجالاً بينما هو نفسه لا يدعى أى شئ ؟ هيا ياتشارلى وقدمى له وقتا سعيداً ! إلا أنها رفضت ذلك . وفى الحانة حدث ترتيب طبيعى فى الجلوس إلى المنضدة الطويلة حيث جلس يوسف فى المنتصف من خلال رغبة جماعية راح يصغى بعينيه مع الاكتفاء بالقليل من الكلام على نحو ملحوظ . ولكن تشارلى إذا حضرت فإنها تموج بالقلق والاهتياج فى جلستها أو تستخف به ، وتجلس فى أبعد مكان بالنسبة له وتحتقره لأنه أصبح سهل المنال .

وأوضح بولى الأمور ليوسف قائلا إن تشارلى تعبر عن بعض اتجاهاتها نحو الرجال بصفة عامة وذلك من منطلق سياسى – فأمها اللعينة كانت ملتزمة بأعراف الكنيسة الانجليزية على نحو معتوه كما أن والدها كان لصاً ومحتالاً .

فقال يوسف . «والدها غير مستقيم وغير شريف ؟» فى ابتسامة توحى بأنه يعرف هذه الطبقة من الناس معرفة جيدة . وأضاف « يا له من شئ مثير . حدثنى عنه بمزيد من التفاصيل»

فقام بولى بتزويده بالمزيد من المعلومات وشعر بالمتعة لأنه يأتمن يوسف على الأسرار . وهو لم يكن الوحيد الذى فعل ذلك لأنه عقب الانتهاء من تناول طعام الغداء أو العشاء كان يتبقى شخصان أو ثلاثة أشخاص من أجل التناقش فى مواهبهم المسرحية مع صديقهم الجديد أو التناقش فى مغامرات الحب الخاصة بهم أو فى الكرب الذى يكتنف أوضاعهم الفنية . واذا اتضح لهم أن اعترافاتهم تنقصها التوابل المثيرة فإنهم يضيفون أمورا من خيالاتهم لكى لا يبدون سخفاء

أمام يوسف . الذى يصغى إليهم فى وقار ويومئ برأسه ويضحك فى رزانة بعض الشئ إلا أنه لم يقدم إليهم أية نصائح .

ظلت جنسية يوسف لغزا وأمرا محيراً . ولسبب ما أكد روبرت أنه برتغالى . وأصــر شخص آخر على أنه أمريكى ، وأنه إنسان تمكن من البقــاء على قيد الحياة عقب الإبادة الجماعيــة التى قـام بها الأتراك - حيث كان قد شاهـد فيلما تسجيليا عن هـذه الإبادة . أمــا بولى اليهودى فقد قال عن يوسف : «إنه واحـد منا» لكن بولى يردد مثل هذا الكـلام عن أى شخص ولذلك حكموا على يوسف على أنه عربى لمجرد إغاظة وتكدير بولى .

ولكنهم لم يسألوا يوسف عن مهنته . وعندما حاولوا تضييق الخناق عليه فيما يتعلق بطبيعة عمله ، اكتفى بأن قال إنه اعتاد على السفر والترحال كثيراً ، ولكنه استقر أخيراً . وجعل كلامه يوحى بأنه قد ترك العمل وأصبح على المعاش .

وتشجع بولى أكثر من الآخرين وتساءل : «وما هى الشركة الخاصة بك يا يوسف ؟ أو من هو الشخص الذى تعمل أنت لصالحه؟»

قال يوسف فى حرص وحذر إنه لم تكن لديه شركة فى حقيقة الأمر أو لم تعد لديه شركة وأشار إلى أنه يقوم ببعض القراءات وبقدر قليل من الأعمال التجاريــة حيث ورث أخـيرا قـدرا ضئيلا من الأمـوال ، ولذلك فهو يفترض من الناحية الفنيـة أنه ذو مهـنة حرة . واقتنــع الجميع بتعبير «مهنة حرة»

ولكن تشارلى هى الوحيدة التى عبرت عن استيائها وعدم رضاها . وتساءلت «نحن عالة وطفيليون أليس كذلك يايوسف ؟» وأضافت «نحن نقرأ ونتاجر وننفق أموالنا ومن وقت لآخر ننقل أموالنا إلى جزيرة يونانية مثيرة للغرائز الجنسية من أجل إدخال المتعة على أنفسنا ؟ أليس كذلك ؟ »

وفى ابتسامة هادئة وافقها يوسف على ذلك الوصف . إلا أن تشارلى لم توافق . لذا فقدت هدوءها ورباطة جأشها . وقالت :

«إذن ما الذى نقرأه بحق السيد المسيح ؟ ذلك هو كل ما أسأله . وما الذى نتاجر فيه ؟ يمكننى أن أسأل ذلك السؤال . أليس كذلك ؟» لكن صمته الذى يوحى بأنه يوافق على كلامها سبب لها المزيد من الغيظ فأضافات «هل أنت بائع كتب ؟ ما وظيفتك ؟»

ظل صامتا للحظات وبعدئذ قال متسائلا فى حيرة وارتباك «وظيفتى ؟ أقوم بإنجاز أشياء كثيرة ولكننى لست لصاً !» .

فانفجر الجميع فى الضحك ولكن تشارلى قالت لهم : «لا يمكن له أن يجلس هناك فى فراغ ويتاجر أيها المغفلون الأغبياء . ما الذى يفعله على وجه الدقة؟ ما هى مهنته ؟» . وارتمت علي الكرسى الخاص بها وقالت «يا الهى » وأضافت «أنتم مغفلون» . وبدا عليها الإعياء .

فجأة تحطم شئ ما فى داخلها تماما صاحت صيحة منخفضة . ثم ضربت بجماع يدها على المنضدة . إنها نفس المنضدة التى كانوا يجلسون إليها عندما جاء يوسف ووضع جواز السفر الخاص بـ «آل» على نحو إعجازى . فانزلق القماش البلاستيك وطارت زجاجة ليمون شاغرة واستقرت فى حجر بولى . وانفجرت فى وابل من الكلمات الفاحشة القذرة مما جعلهم يشعرون بالخجل والحيرة . واتهمت يوسف بأنه عراف سرى أو ساحر من نوع ما وأنه يجر نفسه إلى البلاج ويلعب ألعاب القوى مع أشخاص فى نصف عمره . ولم يكونوا واثقين من أنه فهم الكثير من الكلام الذى قالته وكان صوتها مخنوقا ومليئا بالغضب وهى تستخدم التعبيرات واللهجات السوقية . ولم يظهر على وجه يوسف سوى التفرس والتفحص الشديد لوجه تشارلى .

تساء ل يوسف عقب لحظات من التفكير كالمعتاد :

– ما الذى تريدين معرفته على وجه الدقة يا تشارلى ؟»

– من المؤكد أن لك إسم منذ البداية . أليس كذلك ؟»

لقد أطلقتم علىّ اسما .

– ما هو اسمك الحقيقى ؟

وساد الصمت فى جميع أرجاء المطعم

وأخيرا قال «رتشهوفين» كما لو كان يختار اسما من بين مجموعة كبيرة من الأسماء . وأضاف « وهل ذلك الاسم يجعل منى انسانا مختلفاً على نحو فجائى ؟ واذا كنت أنا انسانا وقحا كما تظنين فلماذا ينبغى عليك أن تصدقينى ؟»

– وما هو الاسم الذى يسبق رتشهوفين ؟ ما هو اسمك بالكامل ؟

مرت فترة صمت أخرى قبل أن يتخذ قراراً وقال :

– بيتر . ولكننى أفضل أن يكون اسمى : يوسف . أين أسكن ؟ أسكن فى فينا . ولكننى أسافر وأعشق الترحال والأسفار . أتريدين أن تعرفى عنوانى ؟ لسوف أعطيك عنوانى . ومما يؤسف له أنك لن تجدى اسمى فى دليل التليفونات

– اذن فأنت تمساوى .

– يا تشارلى . من فضلك . يمكن القول إننى خليط من أصول أوربية وشرقية . هل هذا يكفيك ويشبع رغبتك ؟

هنا كان الجميع قد وقف إلى جوار يوسف مع توجيه النداءات الهامة لتشارلى لكى تغير من اتجاهاتها .

ولكن تشارلى تمادت . ودفعت بذراعها عبر المنضدة ، ودفعت بأصابعها عاليا تحت أنف يوسف . مع التحدث فى حدة لدرجة أن كل الزبائن الموجودين بالحانة قد التفتوا لكى يشهدوا ما يجرى .

– أين جواز السفر الخاص بك . هيا . قدمه لى . لقد أحضرت جواز السفر الخاص بـ «آل» من تحت الأرض . والآن دعنى أشاهد جواز السفر الخاص بك . ودعنى أشاهد تاريخ الميلاد ولون العينين والجنسية . اعطنى جواز السفر الخاص بك .

ونظر فى بادئ الأمر إلى أسفل نحو أصابعها المنتشرة . ثم نظر لأعلى نحو وجهها المحتدم بالاحتقان واللون الأحمر كأنه يريد أن يتأكد من نواياها .

وأخيرا ابتسم . وكانت ابتسامته من وجهة نظر تشارلى شبيهة برقصة خفيفة غير متسرعة فوق سطح سر عميق .

وقال «آسف يا تشارلى . أخشى أن يكون لدينا نحن الهجين أى اعتراض متأصل ضارب بجذوره فى التاريخ ، أن يتم تحديد هويتنا عن طريق قصاصات من الأوراق . من المؤكد أنك من حيث إنك إنسانة تقدمية تتفقين معى على هذا الإحساس ؟»

وأمسك بيدها وقام فى حرص وتأنٍ بثنى أصابعها مستخدما يده الأخرى . وأعاد يدها إلى جانبها .

.. ..

وبدأ يوسف وتشارلى فى جولتهما فى بلاد اليونان فى الأسبوع التالى. ومثل الاقتراحات الأخرى الناجحة فإن هذا الاقتراح لم يتم تنفيذه أبداً بالمعنى الدقيق . فبعد أن فصلت تشارلى نفسها عن «الشلة» تماما، فإنها اعتادت على السير إلى المدينة فى الصباح الباكر بينما الجو لا يزال بارداً وتبديد اليوم فى الجلوس فى حانتين أو ثلاث حانات واحتساء القهوة اليونانية وحفظ السطور الخاصة بها من مسرحية «كما تحب » وهى المسرحية التى من المقرر أن تأخذها معها إلى غرب انجلترا فى ذلك الخريف . وبعد أن أدركت أن هناك من يحملق ويتفرس فيها فإنها نظرت لأعلى . وجدت يوسف فى مواجهتها عبر الشارع حيث كان خارجاً من «البنسيون» الذى اكتشفت أنه يقيم به : ريشتهوفين، بيتر / الغرفة رقم ١٨ بمفرده / إشغال فردى . وقالت لنفسها فيما بعد إنها صدفة بهيجة لأنها اختارت أن تجلس فى هذه الحانة فى نفس الساعة التى يغادر فيها البنسيون من أجل الذهاب إلى البلاج . جاء إليها وجلس إلى جوارها . فقالت «انصرف عنى»

فابتسم وطلب لنفسه قدحاً من القهوة . وحملق لكى يعرف ماذا تقرأ. الشىء الذى أدركته بعد ذلك أنهما راحا يتناقشان فى الجزء الذى يتعلق بروزاليند

مشهداً وراء مشهد . إلا أن يوسف كان يتكلم أكثر منها . «انها بمثابة أناس كثيرين تحت قبعة واحدة . وذلك من وجهة نظرى . فالمرء عندما يرقبها وهى تتكشف وتتجلى فى جميع أرجاء المسرحية يشعر إنها بمثابة انسانة تحتلها كتيبة كاملة من الشخصيات المتصارعة . فهى خيرة وحكيمة وعاقلة ، وهى ترى الكثير للغاية ، بل ولديها أيضاً الاحساس بالواجب الاجتماعى . ويمكننى القول إنهم احسنوا الاختيار عندما أسندوا إليك تمثيل هذا الدور يا تشارلى»

لم تستطع تشارلى أن تتمالك نفسها . فتســاءلت وهى تحملق فى وجهه ! « هل سبق لك أن ذهبت إلى نوتنجهام يا يوسف ؟ »

– نوتنجهام ؟ لا لم أذهب إليها . أكان ينبغى علىّ الذهاب إليها ؟ وهل هى مكان له أفضلية أو ميزة خاصة ؟»

فتصاعد فى شفتيها احساس شبيه بوخز الإبر . وقالت : كنت أمثل هناك فى الشهر الماضى .أتمنى أن تكون قد شاهدتنى .

– وما هو اسم المسرحية التى اشتركت فى تمثيلها ؟

– مسرحية بعنوان (القديسة جان دارك) من تأليف برنارد شو . وقد قمت أنا بتمثيل دور القديسة جان

– إنها من المسرحيات المفضلة لدى . وأنا متأكد من أنه لا تمضى أى سنة بدون قيامى بإعادة قراءة «المقدمة» الخاصة بمسرحية القديسة جان، وهل ستقومين بتمثيل نفس الدور مرة أخرى ؟ فلربما تتاح لى فرصة أخرى ؟ فقالت بينما عيناها مازالت متركزتين بشدة على عينيه : «قمنا بتمثيل نفس هذه المسرحية ايضا فى مدينة يورك أيضا .

أحقا ؟ إذن فقد قمتم بجولة لعــرض المسرحية فى أماكن مختلفة . يا له من شئ لطيف وظريف» .

– نعم . أليس كذلك ؟ وهل يورك من الأماكن التى زرتها أثناء أسفارك وتجوالك ؟

– وا أسفاه . فأنا لم أذهب أبدا إلى أى مكان فى الشمال أبعد من هامبستيد / لندن . قيل لى إن يورك جميلة للغاية .

أوه . إنها عظيمة وخاصة المنيستير

واستمرت فى الحملقة فى وجهه لأطول فترة ممكنة مع تذكر ذلك الوجه الذى كان موجودا فى الصف الأمامى من المقاعد . وراحت تفتش وتبحث فى عينيه الداكنتين وفى الجلد المشدود حولهما باحثة عن أدنى رجفة أو رعشة أو تواطؤ أو ضحكة ولكنها لم تشاهد شيئا من هذا القبيل . إنه لم يعترف بأى شئ .

قالت لنفسها : إنه فاقــد الذاكــرة أو أنا التى فقدت الذاكـرة . آه يا أمى !!

ولم يقدم لها طعام الإفطار وإلا لكانت قد رفضت بكل تأكيد اكتفى بالمناداة على الجرسون ، وقال باللغة اليونانية أنه يريد أن يعرف أى أنواع الأسماك التى تعتبر طازجة اليوم . ثم ألقى بذراعه فى الهواء حين أدرك أن السمك هو النوع الذى تفضله . ثم أطلق سراح الجرسون وراح يتحدث معها مرة أخرى عن المسرح، كما لو أنه من الأمور العادية تماما أن يتناول المرء الأسماك ويحتسى الخمور فى الساعة التاسعة صباحا فى الصيف – وإن كان قد طلب لنفسه كوكا كولا . وكان غزير المعرفة بشئون المسرح . وهو ربما لم يسبق له الذهاب إلى الشمال إلا أنه كانت لديه معرفة عميقة بمسارح لندن ، وهى معرفة لم يكشف عنها لأى فرد آخر من العائلة أو الشلة ، وبينما كان يتكلم معها كان لديها نفس ذلك الإحساس الذى سبق أن شعرت به نحوه منذ البداية : وهو أن طبيعته الخارجية الظاهرية مثل وجوده هنا كانت مجرد حجة أو ذريعة – وأن مهمته هى أن يحدث صدعاً يمكنه من خلاله أن ينشط طبيعته الأخرى المتسمة باللصوصية . وسألته عما إذا كان قد ذهب إلى لندن كثيرا . فأكد لها أن لندن هى المدينة الوحيدة فى العالم بعد فينا .

– ولقد قمنا بعرض مسرحية (القديسة جان دارك) فى لندن أيضاً منذ أسابيع قليلة .

- فى الوست إند ؟ ولكن هذه مصيبة كبيرة وكارثة عظمى يا تشارلى . لماذا لم أقرأ الإعلان عن ذلك ؟ ولماذا لم أذهب على الفور ؟

فصححت له المعلومة فى شئ من العبوس حيث قالت : فى الايست إند .

وفى اليوم التالى تقابلا فى حانة أخرى . وفى هذه المرة سألها بطريقة عرضية عن الوقت الذى تتوقع فيه أن تبدأ فى التدريب وعمل البروفات من أجل مسرحيته «كما تحبها» فقالت له إن ذلك لن يتم قبل أكتوبر.

تساء ل يوسف : «وإلى أن يحين موعد التدريب على البروفات كيف ستقضين وقتك ؟

قالت تشارلى انها ستعمل كجرسونة فى الحانات القريبة من المسارح علاوة على إعادة طلاء شقتها .

فقال يوسف فى هم وقلق : ولكن هذا العمل تافه للغاية يا تشارلى . من المؤكد أن مواهبك تتطلب أن تشغلى وظيفة أفضل من فتاة بار أو جرسونة تقدم المشروبات والمأكولات للناس . وماذا عن قيامك بأعمال التدريس أو الوظائف السياسية ؟ ألن يكون ذلك ممتعا أكثر بالنسبة لك ؟

ضحكت فى شئ من العصبية ساخرة من سذاجته. وقالت : فى انجلترا ؟ ورغم هذه البطالة المتفشية فى المجتمع ؟ يجب عليك أن تنسى هذه الفكرة . ومن هو الشخص الذى يكون على استعداد لأن يدفع لى خمسة آلاف جنيه سنويا من أجل تحطيم النظام القائم ؟ فأنا إنسانة هدامة ومخربة إكراما لوجه الله .

ابتسم . وظهرت عليه دلائل الدهشة وعدم الاقتناع . ثم ضحك في اعتراض مهذب وقال لها : والآن يا تشارلى . حدثينى بصراحة . ما معني قولك هذا ؟

- إننى أعنى ما أقول . فأنا إنسانة مزعجة .

فاعترض فى حماس قائلا : ولكن من هم الذين تقومين بهدمهم وتحطيمهم يا تشارلى ؟ فأنت تبدين لى كإنسانة أرثوذوكسية بالفعل .

ومهما كانت معتقداتها فى ذلك اليوم فإنها أحست بغريزتها أنه سوف يتفوق عليها فى المناقشة . ولكى تحمى نفسها ، فإنها فضلت أن تتظاهر بأنها تتعرض لحالة من الارهاق الفجائى .

ولذلك قالت له فى إعياء : ابتعد عنى واتركنى وشأنى أيمكن لك أن تتركنى يا يوسف ؟ فنحن فى جزيرة يونانية . أليس كذلك ؟ نحن فى أجازة أليس كذلك ؟ وإذا التزمت بالكف عن مناقشتى في اتجاهاتى السياسية فإننى سألتزم بالابتعاد عن موضوع جواز السفر الخاص بك .

وعندما أثار يوسف مسألة تذكرة العودة الخاصة بها إلى انجلترا ، بدأت تشك فى نواياه المستترة وراء حب الاستطلاع لديه . طلب منها يوسف أن تريه تذكرة السفر لكى يلقى نظرة عليها . فاستخرجت التذكرة من حقيبتها وهى تهز كتفيها فى لا مبالاة . فأخذ منها التذكرة وراح يتفحصها فى اهتمام كبير مع دراسة كافة التفاصيل الدقيقة بالتذكرة .

ثم قال لها فى نهاية الأمر : حسنا . باستطاعتك أن تستخدمى هذه التذكرة من تسالونيكا ولماذا لا أقوم بزيارة صديق لى يعمل فى شركة طيران وأطلب منه أن يعيد كتابة التذكرة مرة أخرى ؟ وذلك حتى يمكن لنا أن نسافر سويا .

قال تلك العبارة كما لو كان ذلك هو الحل الذى يسعيان إلى تحقيقه سويا لم ترد بأى كلام على الإطلاق . وبدا لها وكأن المكونات الداخلية فى كيانها قد دخلت فى صراع رهيب ضد بعضها البعض : الطفلة تقاتل الأم والمومس تقاتل الراهبة . وأحست بملابسها وكأنها أصبحت خشنة الملمس فوق بشرتها . كما شعرت بالسخونة تتصاعد فى ظهرها . ومع ذلك كانت لا تزال غير قادرة على أن تقول أى كلام .

أوضح يوسف الأمور قائلاً : من المقرر لى أن أكون موجوداً فى تسالونيكا بعد أسبوع ابتداء من الآن . ويمكن لنا أن نستأجر سيارة فى أثينا ونذهب بها

إلى معبد دلفى ثم نتجه شمالاً سويا لكى نمضى يومين هناك . ولم لا ؟ . ولم ينزعج من التزامها بالصمت . واستطرد قائلا «ومع شئ من التخطيط البسيط يمكن لنا تفادى ازدحام الجماهير اذا كان هذا الأمر يسبب لك القلق والانزعاج . وعندما نصل إلى تسالونيكا يمكن لك أن تستقلى الطائرة إلى لندن . ويمكن لنا أن نتبادل قيادة السيارة إذا رغبت فى ذلك . ولقد سمعت من الجميع أنك تجيدين قيادة السيارات . وبالطبع ستكونين ضيفة على حسابى .

فقالت : بالطبع .

- اذن لماذا لا نفكر فى تنفيذ ذلك ؟ .

وفكرت فى كل هذا الكلام الذى سمعته . وعندئذ تذكرت تلك العبارات البليغة ذات الصوت المنخفض التى عادة ما تسمعها فى مثل تلك المواقف من الرجال الأكبر سنا الذين يرغبون فى مغازلتها . وفكرت فى آلستير وفى الملل الذى يلازمها عندما تكون بصحبته باستثناء الفترات التى يقوم فيها بمضاجعتها . وفكرت فى تلك المرحلة الجديدة من حياتها التى وعدت نفسها بالدخول فيها . وفكرت في الروائح الموسمية التى ستنبعث منها بمجرد أن تعود إلى انجلترا عقب انتهاء مدخراتها .

ثم نظرت إلى يوسف نظرة جانبية فشاهدت على وجهه ومضة من الابتهال والتضرع : ولم لا ؟ مرة أخري . وعندئذ تذكرت لمسات يديه الرقيقة، وتذكرت ابتسامته المحببة للنفس .

فقالت متمتمة : لن أخبر الشلة بذلك بينما كان رأسها متجها لأسفل نحو مشروبها . وأضافت : ولسوف تضطر أنت لأن تقوم بالدور الرئيسى فى هذا الشأن على نحو ما .

فرد عليها فى همة ونشاط قائلا لها إنه سيرحل في صباح الغد من أجل اتخاذ الإجراءات وترتيب الأمور . واستطرد : وبالطبع إذا كنت ترغبين حقا أن تتركى أصدقاءك فى السر بدون إبلاغهم .

فقاطعته قائلة له إنها ترغب فى ذلك تماماً .

أشار يوسف أنه يتفق معها فى الرأى فى هذا الصدد . ولم تعرف تشارلى ما إذا كان يوسف وضع خطته هذه مقدما أم أن الفكرة خطرت على ذهنه أثناء التحدث معها . ولكنها شعرت بالامتنان على كل حال .

واستطرد يوسف قائلاً : «وعليك أن تذهبى مع أصدقائك بالزورق إلى بيروس . ولسوف يرسو القارب فى فترة متأخرة من بعض الظهر . ولكن فى خلال هذا الأسبوع من المحتمل أن يصل متأخرا بسبب وجود أعمال تتعلق بالصناعة . وبعد أن يصل الزورق إلى الميناء يجب عليك أن تقولى لهم إنك ترغبين فى التجول بمفردك فى الأراضى الداخلية على مدى أيام قليلة . وكأنك تتخذين قراراً طائشاً مثل تلك القرارات الطائشة الفجائية التى اشتهرت باتخاذها . ولا تقولى لهم ذلك القرار فى وقت مبكر للغاية وإلا فإنهم سيمضون الوقت أثناء الرحلة بالزورق فى محاولة اقناعك بعدم الذهاب بمفردك» كان يتكلم ذلك الكلام من منطلق السلطة التى يشعر بها رجل امتلك امرأة .

سألها «وهل أصدقاؤك يعرفون عنك أنك مفسلة ؟» فقالت : إنهم لا يعرفون ذلك بالطبع .

قال : اذن يمكننى القول إن قصة التغطية الخاصة بك ستكون سليمة تماماً وقوية . ثم قام بوضع تذكرة السفر الخاصة بها فى داخل سترتها وكأن هذه الحركة قد حسمت الأمر نهائياً .

استطرد قائلاً : «بمجرد أن تتخلصى من أصدقائك استقلى تاكسياً إلى ميدان كولوكوترونى . وستكون أجرة التاكسى حوالى مائتى دراخمة» ، وانتظر لكى يعرف منها ما إذا كان هذا المبلغ يشكل عقبةً بالنسبة لها ولكنه لم يكن بمثابة مشكلة . فهى قد كان متبقيا لديها ثمانمائة دراخمة ، لكنها لم تخبره بذلك وكرر لها اسم الميدان مرة أخرى وتأكد من أنها قد حفظته عن ظهر قلب . واستطرد : ويوجد بالقرب من الميدان مطعم ممتد فوق الرصيف وهذا المطعم يسمى

ديوجينس. وإلى جوار مطعم ديوجينس يوجد فندق باريس . واذا تأخرت أنا وفق أى ظرفٍ من الظروف فإننى سأترك لك رسالة مع بواب الفندق . وعليك أن تسألى عن المستر لاروكوس فهو صديق حميم لى . واذا كنت فى حاجة لأى شئ أو أية نقود عليك أن تعطيه هذه البطاقة وعندئذ سيقوم بإعطائك النقود التى تريدينها» . ثم ناولها البطاقة . وأضاف قائلاً : هل يمكن لك أن تتذكرى كل ذلك ؟ بالطبع يمكنك . فأنت ممثلة ويمكن لك بسهولة أن تتذكرى الكلمات والحركات والأرقام والألوان وكل شئ .

وقرأت البطاقة المكتوب عليها : مشروعات ريتشهوفين للتصدير بالإضافة إلى رقم مكتب البريد فى ڤيينا .

.. ..

ومرت على كشك وهى تشعر باليقظة والانتباه على نحو عجيب ومتسم بالاستهانة بالأخطار . فاشترت لأمها اللعينة مفرش مائدة من النوع المشغول بالكروشيه كما اشترت لابن اختها الخطير المؤذى الذى يسمى كيفين طاقية يونانية مزدانة بالشراشيب . وعندما انتهت من هذه المشتروات فإنها قامت باختيار اثنى عشر كارت بوستال وكتبت على معظمها عنوان نيد كويللى العجوز وهو الوكيل الخاص بها العديم الفائدة الموجود فى لندن وكتبت على البطاقات عبارات تتسم بالفكاهة والمزاح ، وتهدف إلى إرباكه أمام السيدات المتأنقات اللائى يعملن فى مكتبه . إذ كتبت على إحدى البطاقات : «نيد ! يا نيد ! احتفظ بكل جسمك من أجلى» وكتبت على بطاقة أخرى : «نيد ! يانيد ! هل يمكن لامرأة منحلة أخلاقيا وساقطة أن تغوص وتغرق وتغيب عن الأبصار ؟ » الا أنها اختارت أن تكتب على إحدى البطاقات كلاما متزنا ووقورا قائلة له أنها تفكر فى تأخير عودتها حتى تتاح لها الفرصة لمشاهدة شئ ما فى الأراضى الرئيسية وأوضحت له الأمور قائلة «حان الوقت لأن تعتلى تشاس الخاصة بنا ذروة مستوياتــها الثقافية يا نيد» متجاهلةً القيود التى فرضها عليها يوسف بعدم الأخبار عن الكثير من الأمور .

وبينما كانت تشارلى بصدد عبور الطريق ووضع البطاقات فى صندوق البريد هبط عليها إحساس بأن هناك شخصاً يرقبها ولكنها عندما استدارتِ متظاهرة أمام نفسها بأنها ذاهبة لمقابلة يوسف فإن كل ما شاهدته كان ذلك الولد الهيبى ذا الشعر الكستنائى اللون ، وهو نفس الولد الذى كان يلاحق فى خلمة العائلة والذى يشرف على رحيل آليستير . وكان يسير فى بلاهة على الرصيف خلفها بينما ذراعاه يتدليان مثل القرد . وبعد أن وقع بصره عليها ، رفع يده اليمنى فى بطء فى حركة شبيهة بيد المسيح . فلوحت له بيدها رداً على تحيته وهى تضحك . وبينما تسقط البطاقات فى صندوق البريد الواحدة تلو الأخرىٰ قالت لنفسها : إن ذلك الولد المخبول قد شهد رحلة سيئة ولا يستطيع المجيئ . ربما ينبغى على أن أفعل شيئا يتعلق به .

وكانت البطاقة الأخيرة المرسلة الى آلستير مليئة بالعواطف الزائفة . وفى بعض الأحيان وخاصة فى لحظات عدم اليقين أو التحول أو عندما تكون بصدد الإقدام على شئ متسم بالجرأة والتحدى فإنه كان من الملائم لها أن تعتقد أن حبيبها «نيد كويللى» الذى سيصل عمره إلى ١٤٠ عاما فى عيد ميلاده التالى هو الشخص الوحيد فى العالم الذى أحبته حبا صادقاً .

الفصل الرابع

قام كل من كيرتز وليتفاك بزيارة نيد كويللى فى مكاتب سوهو الخاصة به فى يوم جمعة ملىء بالضباب فى وقت الظهر وهى زيارة اجتماعية تهدف إلى إنجاز أعمال وذلك بمجرد أن سمعا أن مسألة يوسف وتشارلى تسير فى أمن وأمان ، وكانا فى حالة قريبة من اليأس .. فمنذ قنبلة ليدن وأنفاس جفرون المتذمرة المتشائمة تتردد على رقبتيهما فى كل ساعة من ساعات النهار، ولكن من الناحية الظاهرية كانا مجرد شخصين أمريكيين محترمين ينحدران أصلاً من أواسط أوروبا ويوجد بينهما تعارض واضح : اذ إن أحدهما قصير وممتلئ يبدو أنه قبطان بحرى أما الآخر فهو نشيط وصغير فى السن ومتحلق بعض الشئ وذو ابتسامة خاصة به. قدما نفسيهما على أنهما : جولد وكارمان التابعين لشركة GK للابتكارات وكانا قد حددا الموعد أثناء وجودهما بالسفارة ولكنهما تظاهرا بأنهما يتحدثان من نيويورك وذلك مع احدى السيدات اللاتى تعملن مع «نيد كويللى» .

وقال كيرتز لمدام لونجمور التى تعمل فى مكتب الاستقبال لدى كويللى فى تمام الساعة الثانية عشرة الأ دقيقتين «نحن جولد وكارمان . لدينا موعد لمقابلة المستر كويللى فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً » .

ثم صعدا السلم لمقابلة المستر كويللى . وقال كيرتز مرة أخرى «يا سيدى . نحن جولد وكارمان» بينما يفتح «نيد كويللى» الصغير الباب وأضاف «يا مـستر كويللى نتشرف بمقابلتك ، فأنت تتمتع بسمعة طيبة فى هذه المهنة» .

فقال نيد كويللى : بل أنا الذى تشرفت بكما ثم قادهما على الفور إلى النافذة ذات الإطار الطويل وهى النافذة الأسطورية الموجودة منذ عهد والده ، حيث جرت العادة أن يجلس المرء عند النافذة ويحملق لأسفل نحو أسواق سوهو ويعب

جرعات كبيرة من خمور الشيرى الأسبانية الخاصة بكويللى العجوز وذلك أثناء القيام بعقد الصفقات مع كويللى العجوز . ونيد كويللى الابن البالغ من العمر ٦٢ عاماً ، كان لايزال هو الابن وكان لا يرغب فى أى شئ سوى أن يشاهد أسلوب حياة والده مستمراً ، وكان «نيد كويللى» إنسانا لطيفا ضئيل الحجم أشيب الشعر .

وقام «نيد كويللى» باستخراج إبريق ملئ بخمور الشيرى من خزانة الكتب وتشمم السدادة ثم قام بملء ثلاثة كئوس من الكريستال حتى منتصفها بينما راحا هما يرقبانه وأحس بأنهما يرقبانه ويقومان بتقييمه وتثمين الأثاث والمكتب وخطرت على ذهنه فكرة رهيبة وهى فكرة كانت قد استقرت فى الجزء الخلفى من عقله منذ أن تلقى خطابهما .

فتساءل فى عصبية أعتقد أنكما لا تهدفان إلى شراء المكتب بأكمله أو عمل أى شئ رهيب من هذا القبيل ، أليس كذلك ؟

فأطلق كيرتز ضحكة عالية توحى ببث الاطمئنان وقال «يا نيد من المؤكد أننا لا نحاول شراء مكتبك» ثم ضحك ليتفاك أيضاً .

فقال نيد فى حماس : حسنا . شكراً لله على ذلك وشرع فى إعطائهما كأسيهما ، وأضاف : هل تعرفان أنه يتم شراء كل شخص وكل ما يمتلكه من بضائع فى هذه الأيام ؟ وأنا شخصيا تجيئ لدى أنواع من الزبائن لم أسمع عنهم من قبل على الإطلاق وكافة الشركات القديمة والصغيرة والمنازل اللطيفة يتم التهامها . إنه لشئ فظيع ومثير للاشمئزاز .

واستمر نيد فى طقوس المجاملة والترحيب بهما والتودد إليهما وتساءل عن المكان الذى يقيمان به فقال كيرتز إنهما يقيمان فى «كونوت» وإنهما يحبان هذا المكان ويشعران بالألفة به منذ اللحظة الأولى التى وصلا فيها إلى ذلك الفندق . وسألهما نيد عما إذا كان لديهما فرص لقضاء وقت الفراغ فرد عليه كيرتز مشيرا إلى أنهما يحبان كل دقيقة من وقتهما وأنهما سوف يغادران إلى ميونيخ فى صباح اليوم التالى .

فتساءل نيد فى دهشة «ميونيخ ؟ وما الذى ستفعلانه هناك ؟ فهذا يعنى أنكما لا تقومان برحلة قصيرة هنا» .

فقال كيرتز «نقود انتاجاً مشتركاً» كما لو كانت تلك العبارة قد أوضحت كل شئ .

قال ليتفاك بصوت هادئ مثل ابتسامته : نقود كثيرة . فالمجال فى ألمانيا كبير فى هذه الأيام يا مستر كويللى . قال نيد فى استياء «أوه أننى متأكد من ذلك سبق لى أن سمعت عن ذلك . أنهم بمثابة قوة عظمى ينبغى على المرء مواجهتها . فى كل مجال . فالحرب قد تم نسيانها تماما الآن» .

قام نيد بحركة توحى بأنه بصدد إعادة ملء كأسيهما بالشيرى متظاهرا بأنه لم يلحظ أن الكأسين لم يمسا ثم ضحك ووضع ابريق الشيرى على المنضدة .

قال كيرتز وهو يضع توقيتا للدخول فى الموضوع : يا نيد أريد أن أحدثك عن هويتنا بعض الشئ وعن السبب الذى دعانا لأن نكتب اليك ، وعن السبب فى أننا نضيع وقتك الثمين .

قال نيد يا عزيزى .. أدخل فى الموضوع ثم وضع ساقا على ساق ورسم على وجهه ابتسامة مليئة بالانتباه بينما تهيأ كيرتز للقيام بعملية الإقناع.

.. ..

وضمن نيد أن كيرتز ربما يكون من المجر وذلك نظرا لأن جبهة كيرتز عريضة ومنحدرة إلى الوراء ، لكنه قال لنفسه إنه ربما يكون تشيكيا أو من أى مكان من تلك الأماكن ، وكان لكيرتز صوت غنى جهورى بطبيعته ، يتحدث فى طلاقة وسرعة مثل إعلان تجارى يبث من الإذاعة ، وبدت عيناه الضيقتان اللامعتان وكأنهما تصغيان لكل شئ يقوله نيد . وأوضح كيرتز أنه – أى جولد– هو محامى العائلة ، أما كارمن فهو الذى يتولى النواحى الإبداعية علاوة على أن لديه خلفية فى مجال الكتابة والاتصالات والإنتاج لصالح كندا والغرب الأمريكى . وأشار إلى أنهما

قد حصلا أخيرا على مكاتب فى نيويورك حيث تنصب اهتماماتهما على الدخول فى اتفاقيات شاملة مستقلة لصالح التليفزيون .

– ودورنا الخلاق يا نيد مقصور بنسبة ٩٠ ٪ على العثور على صيغة تكون مقبولة للشبكات والنواحى المالية ونحن نبيع الصيغة المقبولة للممولين . أما الإنتاج فنحن نتركه للمنتجين .

وبعد أن انتهى من كلامه أصبح على نيد إن يقول شيئاً ، فتجهم نيد وقال : ولكن أيها الرجل العجوز إذا كنتم تقومون باتفاقيات شاملة فما الذى تريده منا نحن الوكلاء ؟

هنا انفجر كيرتز فى ضحكات مدوية مما أثار دهشة نيد ، وفى نفس الوقت اكتسب وجه كيرتز كافة التجاعيد المثيرة للقلق . وفى تقديرات نيد كان كيرتز قبل أن يضحك يبلغ من العمر حوالى ٤٥ عاماً ، إلا أنه أصبح فجأة أثناء الضحك فى نفس عمر نيد وأصبح حاجبه وخداه ورقبته هشة مثل الورق مع وجود شقوق شبيهة بالجراح الناجمة عن تعرضه للضرب بالسكين وهذا التحول جعل نيد يشعر بالقلق ، بل شعر أنه قد تعرض للغش والخداع على نحو ما ، قال لزوجته التى تسمى مارجورى فيما بعد : كان الأمر أشبه بحصان طروادة بشرى ؛ إذ كان فى بادئ الأمـــر يبدو رجلاً فى الأربعين من عمره ثم تحول إلى رجل يبلغ من العمر ستين عاماً .

ولكن ليتفاك فى هذه المرة هو الذى قدم الإجابة الحاسمة التى تدرب عليها كثيراً ، والتى يتوقف عليها كل شئ آخر . إذ قال : يا سيدى مستر كويللى إن ما يدور فى ذهننا هنا هو مشروع مبتكر تماماً مشروع لم يسبقنا إليه أحد ولم نقلد فيه أحداً . نحن نأخذ ١٦ ساعة من الوقت الممتاز للتليفزيون – فى خلال الخريف والشتاء على سبيل المثال نحن نكوّن فرقة ماتينيه مسرحية من ممثلين متجولين . مجموعة ممثلين موهوبين للغاية من البريطانيين والأمريكان وتضم نطاقا واسعاً من الأجناس والشخصيات والتفاعل الإنسانى ، ونقوم بنقل هذه الفرقة المسرحية من

مدينة لأخرى وبحيث يلعب كل ممثل مجموعة متنوعة من الأدوار بحيث يكون بعضها أدوارا رئيسية وبعضها أدوارا مساعدة ، ويقومون بتقديم قصص عن تاريخ حياتهم الواقعية الإنسانية وعن علاقاتهم مما يعطى بعداً جميلاً ويشد انتباه الجماهير ، ويتم تقديم عروض حية مثيرة للاهتمامات والمناقشات فى كل مدينة .

ثم نظر لأعلى فى ارتياب كما لو كان قد اعتقد أن كويللى قد تكلم ، إلا أن كويللى لم يكن قد تكلم على نحو أكيد .

واستطرد ليتفاك : يا مستر كويللى . نحن نسافر مع الفرقة المسرحية ، ونركب فى الأتوبيسات الخاصة بها ، ونساعد فى أعمال تغيير المناظر والمشاهد مع تلك الفرقة المسرحية ، ونحن المشاهدون نشاركهم فى مشكلاتهم ونشارك فى فنادقهم القذرة الحقيرة ونقوم بدراسة مشاجراتهم وممارساتهم للحب . بل نقوم بالتدريب على البروفات معهم وتتوتر أعصابنا مع توتراتهم فى الليالى الافتتاحية ، ونقرأ ملاحظاتهم فى اليوم التالى ونبتهج للنجاحات التى يحققونها ونحزن لحالات الفشل التى يتعرضون لها ، بل ونكتب الخطابات للجماهير الخاصة بهم . فنحن نريد أن نعيد للمسرح تجـاربه المثيرة وروحه الريادية ، ونريد أن نعيد العلاقات بين الجمهور والممثلين .

وللحظات ظن كويللى أن ليتفاك انتهى من كلامه . إلا أنه استطرد مرة أخرى قائلاً : ولسوف نقدم مسرحيات كلاسيكية يا مستر كويللى ، لأنها منخفضة التكاليف . ولسوف نطوف فى الأماكن الريفية لتقديم الحفلات المسرحية . ولسوف نستخدم ممثلين وممثلات جدد وغير معروفين بعض الشئ . ونستعين من وقت لآخر بممثل ضيف شرف ونعمل على تعويض نفقات السفر ولكننا نقوم أساساً بفتح الطريق أمام المواهب الجديدة لكى تظهر البراعات المتعددة على مدى فترة تصل إلى أربعة شهور كحد أدنى وهى فترة نأمل أن تمتد إلى أطول من ذلك . وهذه هى الأفكار التى لدينا يا مستر كويللى ، والممولون التابعون لنا يبدو عليهم أنهم يرحبون بذلك كثيراً .

وقبل أن يتهيأ كويللى لتقديم التهانى ، وهو دائما ما يقدم التهانى عندما يقول له شخص ما فكرة رائعة تكلم كيرتز بسرعة فقال : «يا نيد نحن نريد أن نوقع معك عقداً بشأن الاستعانة بتشارلى التابعة لك .

فشعر نيد بالإثارة وتهيأ للكلام الا أنه أدرك أن كيرتز استطرد قائلاً : يا نيد نحن نؤمن بأن تشارلى تتمتع ببراعة كبيرة وتنوع هائل ، فإذا استطعت أن تطمئننا على نقطتين هامتين لدينا ، فإنه يمكن لنا أن نقدم لها الفرصة لكى تشغل مكانا فى سماء المسرح الخاص بنا .

وحاول نيد أن يتكلم ، إلا أن ليتفاك سبقه إلى الكلام فى هذه المرة ، فقال بدأنا جميعا العمل فى همة ونشاط من أجلها يا مستر كويللى . ونريد أن تعطينا إجابتين على سؤالين ، وبعدئذ تصبح تشارلى هنالك مع كبار الشخصيات المسرحية.

وساد الصمت فجأة . وكل ما استطاع نيد سماعه هو الضربات الايقاعية لقلبه . حاول أن يبدو مثل رجال الأعمال فجذب بشدة كميه الأنيقين الواحد تلو الآخر . وثبت الوردة التى وضعتها زوجته مارجورى فى ثقب زرار جاكتته فى نفس صباح ذلك اليوم مع إصدار التعليمات الاعتيادية له بعدم تناول الكثير من الخمور مع الغداء ، ولكن زوجته لو كانت قد عرفت أنهما قد جاءا من أجل اعطاء تشارلى الحبيبة فرصة للانطلاق الذى طال انتظاره لرفعت كل القيود المفروضة على تناول الخمور .

.. ..

وفى مطعم أيفى أصر كيرتز وليتفاك أن يختار نيد لنفسه نصف زجاجة خمور من القائمة فاضطر لأن يختار كأسا كبيرا من خمور الشبلية الفرنسية لكى تتمشى مع طبق أسماك السلمون المدخنة التى طلبها وكان نيد قد بدأ يحكى لهما أثناء ركوبهم التاكسى هرباً من الأمطار القصة المسلية التى تدور عن كيفية تعرفه على تشارلى كزبونة . وفى مطعم أيفى استأنف كلامه .

– لقد أعجبت بأنفها المعقوف وأسلوبها في التفكير ولم يسبق لى أن فعلت أموراً كهذه من قبل . لقد كنت مغفلا عجوزاً في ذلك الوقت – ولكنى لم أكن عجوزا على النحو الذى أنا عليه الآن ، وإن كنت مازلت مغفلاً ، وكان العمل المسرحى يتألف من مزيج من الحوار والرقص والغناء ومن النوع الذى يهدف عادة إلى السخرية من الأحداث الجارية والأزياء السائدة ولكن العرض المسرحى كان انيقاً وله طابع مودرن حديث إلا أن تشارلى كانت رائعة للغاية. وكانت لها (تلك النعومة التى تدفعك للدفاع عنها) وتلك هى الخاصية التى أبحث عنها فى الفتيات . وكان هذا التعبير فى حقيقة الأمر من العبارات التراثية التى أخذها نيد عن والده ، «وما إن أسدل الستار حتى ذهبت على الفور إلى غرفة الملابس الخاصة بها .

– وهى لم تكن غرفة ملابس بالمعنى الحقيقى – ثم قمت بالتعاقد معها على الفور . وهى فى بادئ الأمر شكت فى أمرى وظنت أننى رجل عجوز قذر مما اضطـــرنى إلى العودة إلى زوجتى مارجـــورى والعودة بها لكى تقنع تشارلى . ها . ها ! » .

فقال كيرتز فى ابتهاج شديد وهو يناوله المزيد من الخبز البنى والزبد «وماذا حدث بعد ذلك ؟ هل الطريق كان مفروشا كلها بالورود ؟»

فقال نيد فى سذاجة : ليس على الإطلاق . فهى شبيهة بالكثير من الفتيات اللائى هن من نفس سنها واللائى يتخرجن فى معهد التمثيل وهن ممتلئات بالآمال العريضة ويحصلن على دورين فى مسرحيتين ويبدأن فى شراء شقة أو أى شئ متسم بالغباء وفجأة تتوقف أعمالهم تماماً . ويهبط عليهن ما يسمى بوقت الغسق . وبعضهن يجتاز هذه المرحلة الصعبة بسلام والبعض الآخر لا يستطيع ذلك .

قال ليتفاك فى هدوء وهو يرتشف الشاى ، ولكن تشارلى تمكنت من اجتياز المرحلة الصعبة .

– لقد واصلت التقدم فى كفاح وعرق . ولم يكن الأمر سهلاً . ولكن الأمور لا تكون أبداً سهلة على الإطلاق . وظلت هكذا لسنوات . سنوات عديدة، ودهش من

نفسه عندما اكتشف أنه متأثر للغاية ، كما أدرك من التعبيرات التى ظهرت على وجهيهما أنهما متأثران أيضا ، واستطرد قائلا : وها هى الآن تجنى ثمرة كفاحها . أليس كذلك ؟ إننى مســـرور من أجلها ! حقا إننى لمسرور من أجلها فى حقيقة الأمر .

واستطرد نيد قائلاً : لقد شهدت فترة طفولة رهيبة . وأنا ألاحظ أن الكثير من الفتيات يشهدن فترة طفولة قاسية ، وذلك هو ما يدفعهن إلى الخيال الجامح والنزوات فى بادئ الأمر . ويلجأن إلى إخفاء المشاعر والنفاق. وتقليد الناس الذين يبدون أسعد منهن . أو تقليد الناس الذين يبدون أتعس منهن .

فتساءل ليتفاك : على أى نحو كانت حياة تشارلى رهيبة يا مستر كويللى ؟ وعلى أى نحو كانت فترة طفولة تشارلى رهيبة يا سيدى ؟

فراح نيد يقص عليهما كل المعلومات التى اكتسبها عن تشارلى بطريق الصدفة اثناء تقديمه وجبات الغذاء لها مع الأخريات فى الدور العلوى فى مطعم بيانكى ، وقال لهما إن أمها انسانة ساذجة ومغفلة ، أما والدها فكان أفاقاً وغشاشاً عمل سمساراً فى بورصة وكان يخدع الناس مما أدى إلى إيداعه فى السجن الى أن مات هناك فى السجن .

قاطعه ليتفاك قائلاً : هل قلت يا سيدى إن والدها مات فى السجن ؟

بل ودفن فى السجن أيضا . إذ كانت أمها تشعر بالمرارة والغيظ لدرجة أنها لم ترغب فى تبذير الأموال اللازمة من أجل نقل جسمانه من السجن .

هل قالت لك تشارلى هذه المعلومة بنفسها يا سيدى ؟ .

فشعر كويللى بالحيرة والارتباك وقال : حسنا ومن هو الشخص الآخر الذى قال لى ذلك ؟

فقال ليتفاك : لا يوجد شخص آخر يمت لها بصلة القربى من بعيد ؟

وهنا تدخل كيرتز وهو يبتسم ابتسامة أبوية : يا نيد عليك بتجاهل هذا الولد ليتفاك . فهو لديه دائما مسحة من الشكوك الشديدة . أليس كذلك يا ليتفاك ؟

فأذعنى ليتفاك قائلاً فى صوت منخفض للغاية : ربما يكون الأمر كذلك .

وعندئذ فقط خطر على ذهن نيد أن يسألهما عما شاهداه من أعمالها التمثيلية المسرحية ، ودهش عندما اتضح له أنهما قد قاما بتحريات جدية فى هذا الشأن . بل إنهما لم يكتفيا بالحصول على قصاصات من كل فيلم تليفزيونى ظهرت فيه ، وإنما تكبدا المشاق أيضا وذهبا إلى نوتنجهام خلال زيارتهما السابقة من أجل أن يشاهدا مسرحيتها التى عرضت تحت اسم «القديسة جان دارك» .

وراح ليتفاك يربت فى رفق على شفتيه الرفيعتين . ثم تساءل : أتسمح لى أن أسألك عن شئ ما يا سيدى ؟

فقال نيد وقد شعر بالحيرة والارتباك : تفضل بتوجيه أية أسئلة يا عزيزى .

– هل يمكن لك أن تعطينا فكرة عن الكيفية التى تجرى بها تشارلى مقابلاتها مع الصحفيين ؟

فوضع نيد كأسه الملئ بخمور البوردو الفرنسية على المنضدة وقال : مقابلاتها مع الصحفيين ؟ إذا كان هذا الأمر يسبب لكما القلق فاننى أقول لكما بكل تأكيد إنها طبيعية للغاية ، وهى إنسانة ممتازة فى هذا الشأن ، فهى تعرف بغريزتها ما يريده رجال الصحافة وتعرف كيف تعالج الأمور إذا أتيحت لها الفرصة. إنها انسانة ذكية وحربابة ومتلونة وهى على ذلك النحو دائما . وهى بعيدة عن الممارسة العملية بعض الشئ فى الآونة الأخيرة ولكنها سوف تنطلق مرة أخرى مثل الصياد الماهر . ولا داعى لأن تشعر بالقلق إزاء ذلك . ثم تناول جرعة كبيرة من الخمور .

ولكن ليتفاك لم يشعر بالارتياح عقب سماع ذلك مثلما كان نيد يتوقع . إذ ضغط على شفتيه فى قلق وعدم ارتياح ، لذلك نكس نيد رأسه ثم رفع وجهه فى محاولة منه لإخراج ليتفاك من الكآبة والفتور اللذين هبطا عليه وقال : ولكن يا عزيزى لا ينبغى أن تشعر بالاكتئاب على هذا النحو ! فما هو الخطأ فى أنها تجيد التحدث مع الصحفيين ؟

لكن نيد لم يتمكن من كسب حماس وتأييد ليتفاك حيث إن كل ما فعله ليتفاك هو أنه رمق كيرتز بنظرة سريعة كما لو كان يقول : خذ دورك فى الكلام ، ثم نظر لأسفل إلى قماش المنضدة مرة أخرى ، ولقد قال نيد لزوجته مارجورى فيما بعد : إنهما مثل لاعبين فى الملاكمة يحل أحدهما محل الآخر الذى لحق به التعب ، إنهما يتبادلان الأدوار لدى سقوط القبعة .

وقال كيرتز : اذا قمنا بالتعاقد مع تشارلى الخاصة بك من أجل هذا المشروع فانها سوف تتعرض لقدر كبير من الكشف عن أسرارها وعن حياتها العاطفية وعائلتها وميلها للفنانين الشعبيين والشعر ، والأمر لن يقتصر فقط على قصة والدها وانما يشتمل أيضا على الديانة التى تؤمن بها علاوة على اتجاهاتها وآرائها .

وهنا همس ليتفاك قائلاً : واتجاهاتها السياسية ؟

وعندئذ شعر نيد بفقدان للشهية ووضع شوكته وسكينته على الطبق ، بينما استطرد كيرتز قائلاً : يا نيد . إن المولين لهذا المشروع من الغرب الأمريكى وهم أناس طيبون ، ويتسمون بكل الفضائل ، ولديهم أموال كثيرة ومساكن فى فلوريدا . وهم يركزون على القيم الصحية بصفة خاصة ويريدون لها أن تنعكس على انتاجهم الفنى على طول الخط حتى آخره ، وربما يجعلنا ذلك نسخر بعض الشئ الا أن هذه هى الحقائق وهذا هو التليفزيون وهذا هو المجال الذى تتجه اليه النقود ..

قال ليتفاك فى شئ من المغالاة فى الوطنية والشوفينية : هذه هى أمريكا .

وقال كيرتز : يا نيد . نحن سنلتزم بالصراحة معك . لسوف نكون صادقين معك ، فعندما قررنا أن نكتب خطاباً لك فى نهاية الأمر كنا جميعا على استعداد وكنا معرضين للحصول على موافقات أخرى ضرورية من أجل شراء الارتباطات الخاصة بتشارلى ووضعها على أول الطريق الكبير ، ولكننى لن أخفى عليك أن كارمان وأنا فى خلال اليومين الأخيرين سمعنا كلاما يتردد فى الأسواق الخيرية جعلنا نشعر بالفزع والخوف والبدء فى التعجب . ولا توجد مشكلة بالنسبة لمواهب

تشارلى الفنية . فتشارلى انسانة ممتازة وموهوبة وغير مستهلكة ومجتهدة . ولكننا نتساءل عما إذا كانت هى عرضة لأن تكشف أسرارها ، يا نيد نريد منك بعض التأكيدات بأن هذا الأمر ليس خطيراً ..

وكان ليتفاك هو الذى شن الهجوم الحاسم مرة أخرى إذ قال : لقد سمعنا أنها راديكالية إزاء الأحداث الجارية ، وأنها مهتمة للغاية بالقضايا السياسية الخاصة بها . إنها مناضلة ، متحالفة مع ولد ثورى مخبول بعض الشئ . نحن لا نريد أن نتهم وندين أى شخص بناء على الشائعات الباطلة المغرضة الا أن المعلومات التى وصلت الينا تفيد أنها تجمع ما بين شخصية أم فيدل كاسترو وأخت ياسر عرفات فى آن واحد .

وهبط هلع وذعر على نيد شبيه بهلع الناس العجائز أو هلع العجائز ، وأحس أنه لا يتلاءم جسمانيا مع هذه العملية وأنه ضعيف للغاية بحيث لا يمكنه مواجهتها وأنه فى غاية الارهاق والتعب إن جميع الأمريكان دائما ما كانوا يسببون له التشويش والقلق ، ومعظم الأمريكان يسببون له الذعر والخوف إما بسبب معلوماتهم وإما بسبب جهلهم أو كليهما ، إلا أن هذين الشخصين اللذين راحا يحملقان فى وجهه بينما هو يغوص باحثا عن إجابة كانا ينذران بشؤم أكبر من أى شئ كان مستعدا لمواجهته ، وتصاعدت مشاعر الغضب الشديد فى داخل كيان نيد . إنه كان يمقت ويكره النميمة والقيل والقال . كل أنواع النميمة . يعتقد أن النميمة هى الآفة الخاصة بمهنته وهو يعتقد أن النميمة هى التى تحطم مستقبل الناس . ولذلك فهو يمقتها إلى درجة أن وجهه يحمر ويكاد يكون وقحا عندما يسمع نميمة من أولئك الناس الذين لا يعرفون مشاعره ، وعندما كان نيد يتكلم عن أناس فإنه كان يتحدث على المكشوف وفى صراحة تامة وفى محبة تماما مثلما تحدث عن تشارلى منذ عشر دقائق . إنه قد أحب هذه الفتاة بالفعل ، بل وخطر على ذهنه أن يبوح بهذا السر لكيرتز ولكنه تصور أن هذه الخطوة الجريئة ستعجل ليتفاك يشعر بالمزيد من القلق مما يؤدى إلى استعداده للتراجع بعض الشئ . ولكن نيد من باب المجاملة كبح

جماح نفسه ، *فقد كان ضيفاً عليهما ، هذا بالإضافة إلى أنهما كانا شخصين* أجنبيين ولهما مستويات مختلفة تماماً كما أنه اضطر لأن يعترف لنفسه بأنهما قد جاءا لإنجاز مهمة معينة وأنهما مضطران لمسايرة المولين والتكيف معهم كما شعر نيد أنه إما أن يرد على استفساراتهم وإما أن يخاطر بتحطيم هذه الصفقة مما سيؤدى بالتالى إلى تحطيم كل الآمال التى يتمناها لتشارلى .

وطوال هذه اللحظات كان كيرتز مستمراً فى الكلام بدون إعاقة : نحن نريد منك النصح والارشاد يا نيد . قدم لنا يا نيد يد العون والمساعدة . فنحن نريد أن نعرف أن هذا الأمر لن ينفجر فى وجوهنا خلال اليوم الثانى من التصوير بالكاميرا . وأقول لك بكل صراحة. وامتد إصبع قوى مشيراً إلى نيد مثل ماسورة مسدس . «إنه لا يوجد أحد فى ولاية منيسوتا سيشاهد وهو يدفع ربع مليون دولار لعدو للديموقراطية له أسنان حمراء إذا كانت هى على ذلك النحو ، كما أنه لا يوجد أحد فى بريطانيا على استعداد لأن ينصحهم بأن ينتحروا على طريقة الهيراكيرى [1] .

.. ..

استجمع نيد قواه على نحو جيد بعض الشئ وذكرهما بأنه قد قدم وصفا لفترة الطفولة التى شهدتها تشارلى وأشار إلى أنها وفقا لأية مستويات طبيعية كان من المحتم لها أن تقوم بتمثيل أدوار الأحداث اليافعين الذين ينتهكون القوانين أو كان من المحتم عليها أن تنهى حياتها فى السجن مثل والدها ، وبالنسبة للنواحى السياسية الخاصة بتشارلى فإنه قال إنه وزوجته مارجورى قد عرفا تشارلى معرفة جيدة على مدى تسع سنوات وعرفا عنها أنها كانت تعارض بشدة سياسة التميز العنصرى . وأضاف قائلاً : حسنا ، ولا أحد يمكنه أن يقول إن سياسة التمييز العنصرى هى سياسية خاطئة . أيمكن لأحد أن يقول ذلك ؟

بدا عليها أنهما يعتقدان بأن التفرقة العنصرية ليست عملا شريرا وأشار نيد أن تشارلى تؤمن بالكفاح السلمى أو حل النزاع بين الدول بالطـرق السلمية

---

(١) الهيراكيرى : طريقة يابانية فى الانتحار ببقر البطن بخنجر تخلصا من العار .

فقط ، وأشار إلى أنها صوفية تشارك فى المسيرات المناهضة للأسلحة النووية وأنها مناهضة لإجراء التجارب العلمية على الحيوانات . وأنها قبل أن تعود إلى التدخين مرة أخرى كانت تقود الحملات الرامية إلى إلغاء تدخين السجاير فى المسارح وفى محطات وقطارات مترو الانفاق ، وهى عاطفية وتؤمن بتقديم الرعاية للفنانين وتشجيعهم ماديا .

فقال كيرتز فى إعجاب : لقد قدمت لها العون والمساندة ووقفت إلى جانبها طوال تلك السنوات وهذا شئ لطيف منك يا نيد .

قال نيد مبتهجا . مثلما يحتم الواجب علىّ أن أقف إلى جوار أى واحدة منهن ، وهل يحتاج الأمر إلى دليل أو برهان ! أوف إنها مجرد ممثلة !! ولا تأخذها مأخذ الجد أكثر من اللازم . والممثلون لا يكون لديهم آراء وأفكار سياسية عادة فما بالك بالممثلات فالممثلات لا يكون لديهن اهتمامات أقل من الممثلين إزاء مثل هذه الأمور . والممثلون والممثلات يمرون بحالات نفسية متقلبة . ولهم نزوات طائشة ، وهم يتكلفون فى السلوك ويتصنعون فى السلوك من أجل التأثير على الآخرين ، وهم يعيشون فى العواطف على مدى ٢٤ ساعة .

وهم على غير وفاق مع العالم إلى حد كبير . والممثلون يتميزون بالسذاجة المطلقة إزاء الحلول الدرامية . وأنا واثق تماما أن تشارلى سوف تولد من جديد وتصبح انسانة جديدة تماما لمجرد أن تأخذوها من هنا .

فقال ليتفاك فى رداءة متمتما : لكنها لن تصبح إنسانة جديدة من الناحية السياسية .

وعلى مدى دقائق قليلة أخرى وتحت تأثير خمرة بوردو الفرنسية الحمراء اللون ، استمر نيد فى هذه المحاضرة الجريئة واجتاحه نوع من الطيش والدوار . وكان يسمع الكلمات وهى تنفجر فى داخل رأسه فيقوم بتكرارها ، وشعر أنه أصبح شابا مرة أخرى . وأصبح منفصلا تماما عن الأعمال الخاصة به . وتحدث عن الممثلين بوجه عام . وكيف أنهم يتعرضون للمطاردة والملاحقة والإزعاج بمعرفة

الرعب المطلق للزيف والبهتان والبعد عن الحقائق . وكيف أنهم يعبرون عن كل هموم وكروب الإنسانية وهم على خشبة المسرح . وهم عندما يكونون فى خارج نطاق المسرح فهم يشبهون الأوانى الشاغرة التى تنتظر لكى يتم ملؤها وتحدث عن الخجل والارتباك الذى ينتابهم . وعن قابليتهم للإصابة بالجروح والسقوط تحت أيدى الأعداء . كما أشار إلى أنهم قد اعتادوا على إخفاء ضعفهم وعجزهم من خلال اللجوء إلى التعبيرات الخشنة العالية الصوت التى يستعيرونها من العالم المراهق . كما تحدث عن الهواجس التى تنتابهم وتمركزهم على الذات وكيف أنهم يشاهدون أنفسهم على المسرح على مدى ٢٤ ساعة يوميا – فى حالة من الولادة أو المخاض أو تحت التهديد بالسكين أو فى حالة حب . وبعدئذ توقف ذهنه فجأة ونضبت أفكاره وهو أمر يحدث له كثيراً فى هذه الأيام . لقد فقد خيط التفكير وتسلسل الأفكار . وفقد انطلاقاته الوثابة . وأحضر الجرسون المختص بالخمور عربة التروللى الصغيرة المليئة بأصناف الخمور ، فاختار نيد كويللى زجاجة مارك دى شمبانيا وترك الجرسون لكى يصب له فى كأس كبيرة ولم يشر للجرسون بيده لكى يتوقف عن الصب الا بعد أن كاد الكأس أن يمتلئ تماما وذلك رغم النظرات الرزينة الباردة التى أطلت من عينى مضيفيه .

وفى تلك الأثناء خطر على ذهن ليتفاك فكرة ، فدس أصابعه الطويلة فى سترته واستخرج مفكرة . ثم قال فى هدوء موجها كلامه لكيرتز أكثر من نيد : منذ متى . وأين . ومع من . وما هى الفترة الزمنية ثم أوضح أنه يركز على التواريخ واستطرد قائلا : اللقاءات الجماهيرية التى شاركت فيها . والمظاهرات . وتقديم الالتماسات . والمسيرات التى شاركت فيها . وأى شئ من شأنه أن يكون قد جذب انتباه الجماهير ، وعندما نضع كل هذه الأمور فى جدول فإنه يصبح بإمكاننا أن نتوصل إلى تقييم علمى دقيق .

وعلى هذا الأساس يصبح أمامنا إما أن نتخذ قراراً بالتعاقد عليها أو التراجع عن ذلك . قل لى يا نيد : منذ متى شاركت هى فى مثل هذه الأمور لأول مرة وفقا لما هو متوافر لديك من معلومات ؟

فقال كيرتز : إننى أحب هذه الطريقة . إننى أحب الالتزام بالمنهج والأسلوب العلمى . وأظن أن هذه الطريقة ستكون منصفة بالنسبة لتشارلى أيضا .

حاول أن يقول تلك العبارة كما لو أن الفكرة خطرت على ذهن ليتفاك فجأة ، ولم تكن نتيجة لمناقشات تحضيرية استمرت لساعات طويلة .

وقام نيد بالرد على أسئلتهما وفقا لما لديه من معلومات ولم يلجأ إلى الكذب الأبيض الا مرة واحدة أو مرتين ، ولكنه قال لهما كل ما يعرفه عنها ، وأشار إلى جمهور مسرح الإصلاح الراديكالى الذى كانت تنضم إليه من وقت لآخر من أجل أن يسببوا الإزعاج عند المسرح القومى والعمل على ايقاف العروض التى تقدم عليه ، كما أشار إلى أنها اتصلت به تليفونيا فى منتصف الليل من مركز شرطة دورهام منذ عامين وطلبت منه – أى من نيد – الحضور إلى مركز الشرطة للعمل على إطلاق سـراحها بكفالة لأنه تم القبض عليها خلال احتفال صاخب مخمور مناهض للنازية .

– وهذا هو الذى أدى إلى الدعاية والشهرة وجعل صورها تظهر فى الصحف والمجلات يا مستر كويللى ؟

فقال نيد : لا إن أحداث ريدينج هى التى جلبت لها الشهرة والدعاية . وكان ذلك فيما بعد عقب موضوع دورهام ، وهى على كل حال قد أصبحت معتدلة للغاية . لقد كانت فيما سبق مثل القذيفة الملتهبة أو الشهاب الوهاج . ولكنها أصبحت معتدلة الآن وهذا هو ما يمكننى أن أؤكده لكم ، لقد أصبحت أكثر نضجاً .

فقال ليتفاك : حدثنا عن موضوع ريدينج يا مستر كويللى ، قل لنا ماذا حدث هناك ؟

أوه ، نفس ذلك النوع من الأمور . اذ قام شخص ما بإشعال النيران فى أتوبيس . وتم توجيه الاتهام لهم جميعا . وهم كانوا أساساً يحتجون على تخفيض الخدمات بالنسبة للناس الكبار فى السن على ما أعتقد . أو كان السبب هو عدم تشغيل الزنوج فى مهنة المحصل .

كان الأتوبيس شاغراً بالطبع ثم أضاف على وجه السرعة .

– ولم يتعرض أى شخص لأية جراح.

فقال ليتفاك وهو يرمق كيرتز بنظرة سريعة «أيها السيد المسيح» .

وقال كيرتز : يا نيد . لقد أشرت منذ لحظات أن تشارلى تخفف من معتقداتها بعض الشئ فى هذه الأيام . فهل هذا هو ما قلته بالفعل ؟

– نعم أعتقد أنها خففت من معتقداتها . وهذا هو انطباعى .

وزوجتى مارجورى تؤمن بذلك أيضاً .

فقاطعه كيرتز فى حدة : هل قالت لك تشارلى سراً إنها أحدثت تغييرا فى مواقفها وآرائها يا نيد ؟

– أعتقد فقط أنهـــا بمجرد أن تحصل على فرصة حقيقية مثل هذه الفرصة .

قاطعة كيرتز قائلاً : هل يحتمل أن تكون تشارلى قد قالت لزوجتك فى السر إنها غيرت من مواقفها ؟

– حسنا . لا

– هل هناك شخص ما آخر ربما تكون قد وثقت فيه وقالت له كلاما مثل ذلك؟ شخص آخر مثل ذلك الولد الفوضوى الذى تتخذه صديقا لها ؟

– أوه. إنه آخر من يعلم

وبعدئذ تولى ليتفاك مهمة توجيه الأسئلة . واتخذ بهجة سريعة توحى بأنه يرغب فى الانتهاء ووضع خاتمة للموضوع :

– يا سيد كويللى . يا سيدى ، هل تحتفظ فى الوكالة الخاصة بك بأوراق رسمية تتعلق بجميع زبائنك ؟ أى ملفات رسمية ؟

فقال نيد : حسنا السيدة إليس لديها الملفات فى مكان ما ، وأنا متأكد من ذلك .

– هل كانت مدام إليس تقوم بهذا العمل منذ فترة طويلة يا سيدى ؟

– نعم . فهى تؤدى هذا العمل منذ عهد والدى «وما هى نوع المعلومات التى تخزنها فى الملفات ؟ الأجور ، النفقات ، العمولة التى تؤخذ وماشابه ذلك؟ هل هذه الملفات تضم مجرد أوراق جافة قاحلة غير ممتعة ؟

– يا الهى . لا . إنها تضع فى الملفات كل شئ تواريخ الميلاد ونوع الزهور المفضلة ، المطاعم المفضلة . بل وأسماء أولادهم وأسماء الكلاب الخاصة بهم ومقتطفات من تعليقات الصحف التى تتحدث عنهم . وأية مادة علمية تتعلق بالوصف؟

– وهل توجد خطابات شخصية ؟

– نعم . بالطبع .

– مكتـــوبة بخط يدها ؟ خطاباتها الخاصة بها على مدى سنوات ماضية ؟

قال كيرتز موجهاً كلامه لليتفاك فى حدة :

– يا كارمان . أعتقد أن السيد كويللى أعطانا قدراً من وقته وتجربته بالفعل واذا احتجنا إلى المزيد من المعلومات فإنه سيزودنا بها فيما بعد بكل تأكيد . ومن الأفضل إذا كانت تشارلى نفسها على استعداد لتوضيح ذلك لنا عن طريق المحادثة المباشرة معنا فإنه يمكن لنا أن نحصل على المعلومات منها مباشرة ، يا نيد . إن لقاءنا معك كان بمثابة فرصة عظيمة لا تنسى . شكراً لك يا سيدى .

الا أن ليتفاك لم يكن من النوع الذى يصد هكذا بسهولة .. إذ كان يوجد به عناد الشباب . فقال : السيد كويللى لا يخفى عنا أية أسرار فإذا كانت هناك أوراق خاصة بها أو خطابات تدل أنها تخفف من مواقفها وتغير من اتجاهاتها فلماذا لا نطلب منه أن يرينا مثل هذه الأوراق ؟ إذا كانت لديه الرغبة فى ذلك . وإذا لم يكن لديه الرغبة فى ذلك فتلك مسألة أخرى» .

ما هو رأيك يا كيرتز ؟

قال كيرتز فى وقار .. يا كارمان . إننى متأكد تماما أن نيد لديه الرغبة فى ذلك .

.. ..

كان المطر قد توقف اصطحبا كويللى الضئيل الحجم بينهما أثناء المسير مع الحرص على تخفيض سرعة خطواتهما المنطلقة لكى تتلاءم مع خطوات كويللى المترنحة . لقد كان كويللى مشوش الأفكار بسبب كثرة تناوله للخمور . وكان يشعر بالحزن والاكتئاب . تجتاحه هواجس كحولية منذرة بالشر . ترى بحق الجحيم ما الذى يريدانه ؟ فهما فى بعض الأحيان يتحدثان عن رفع تشارلى إلى المجد وإلى عنان السماء وفى اللحظة التالية يعترضان على اتجاهاتها السياسية السخيفة ؟ وها هما الآن يقترحان اللجوء إلى السجلات والملفات . وشاهدتهم السيدة لونجمور التى تعمل فى قسم الاستقبال ، وأدرك نيد عندما شاهد ملامح الاستياء على وجهها أنه تناول كميات هائلة من الخمور أثناء تناول الغداء . فلتذهب اذن إلى الجحيم وأصر كيرتز أن يسير نيد أمامهما أثناء الصعود على السلالم . وفى داخل مكتبه صوبا مسدساً إلى رأسه فاضطر إلى أن يتصل تليفونيا بالمدام إليس وطلب منها أن تحضر الملفـــات والأوراق الخاصة بتشارلى إلى غرفة الجلوس وترك تلك الأوراق هناك .

تساءل ليتفاك مثل شخص على وشك أن يطلق سراح طفل : هل ينبغى أن نطرق على بابك عندما ننتهى من قراءة الملفات ؟

وفى آخر مرة وقع بصره عليهما شاهدهما وهما جالسان فى غرفة الجلوس بين ستة صناديق قذرة بنية اللون خاصة بالسيدة أليس . وقد بدا على هذه الصناديق وكأنها أنقذت توا بعد غارة جوية خاطفة . وكانا يشبهان محصلى الضرائب وهما يحملقان فى الأوراق ويكتبان الملاحظات والبيانات ، ومن المؤكد أن كويللى قد غلبه النعاس بعد ذلك لفترة قصيرة . وارتج جسده فجأة فأفاق من النوم فى حوالى الساعة الخامسة ليجد أن غرفة الجلوس أصبحت شاغرة ، وعندما

اتصل تليفونيا بالسيدة لونجمور ردت عليه قائلة أن الضيفين لم يرغبا فى ازعاجه وإقلاقه أثناء نومه .

.. ..

ولم يقم نيد بإبلاغ زوجته مارجورى على الفور وعندما سألته فى نفس ذلك المساء قال لها : أوه هذان الشخصان ، إنهما مجرد اثنين من الفنانين المتجولين الكئيبين الموحشين . وهما الآن فى طريقهما إلى ميونيخ . ولا شئ يدعوك للقلق .

– هل هما ولدان يهوديان ؟

– نعم أعتقد أنهما يهوديان .

فأومات مارجورى برأسها كما لو كانت قد عرفت كل شئ . ولكن نيد أضاف قائلا فى شئ من اليأس : ولكنهما شخصان لطيفان .

وكان بيل لوكهايم هو مراسل نيد فى نيويورك . وكان هو الزميل الأمريكى الوحيد لنيد . فقام نيد بالاتصال به تليفونيا بعد ظهر اليوم التالى . فقال له لوكهايم العجوز إنه لم يسمع عنهما ولكنه قدم تقريرا وافيا بعد ذلك : ان شركة «ح . ك» هى شركة جديدة فى هذا الحقل وحصلت على بعض التأييد والمساندة ولكن الشركات المستقلة تعتبر سلعة كاسدة فى السوق فى هذه الأيام . ولم يعجب كويللى بنغمة صوت لوكهايم العجوز . إذ بدا صوته وكأنه يتعرض للغش والخداع على نحو ما من خلال الجهة التى لجأ إليها لأخذ رأيها . وفى أداء بارع متسم بالثقة بالنفس قام نيد كويللى بالاتصال تليفونيا برقم الشركة بنيويورك . ولكنهم رفضوا إعطاءه أية معلومات وأصبح ذهن كويللى مشغولا للغاية بهذين الزائرين . وتمنى لو كان قد قام بطردهما على الفور . ثم اتصل تليفونيا باسم الفندق الموجود فى ميونيخ والذى ذكرا اسمه من قبل فرد عليه مدير الفندق فى صوت غاضب متجهم قائلا له إن الهر جولد والهر كارمان قد أمضيا بالفندق ليلة واحدة فقط وغادرا فى الصباح الباكر فى اليوم التالى لإنجاز أعمال فجائية طلبت منهما . كما أن منتجا ألمانيا كان كيرتز قد ذكر اسمه قال لكويللى : إنهما شخصان طيبان ومحترمان للغاية

وممتازان للغاية . ولكن عندما سأله نيد عما إذا كانا قد وصلا إلى ميونيخ أخيرا وعن نوعية المشروعات التى تباحثا فيها مع المنتج ظهرت الروح العدائية على الفور ثم وضع سماعة التليفون قبل أن تنتهى المكالمة .

وبدأ نيد يجرى اتصالاته مع زملائه فى المهنة وتوسع فى استفساراته ، الا أن محاولاته باءت كلها بالفشل .

وأخيرا ذهب نيد إلى هيرب نولان صاحب شركة لوماكس ستارز وقال له : تقابلت مع شخصين أمريكيين رهيبين منذ أيام قليلة ، أحدهما يسمى جولد والآخر يسمى كارمان ولهما شركة تسمى «ج.ك» تعمل على إنتاج مسلسلات تليفزيونية . فهل جاء إليك هذان الشخصان ؟

فضحك نولان وقال : إننى الذى أرسلتهما إليك أيها الولد العجوز . لقد جاءا إلى وأرادا أن يعرفا كل المعلومات التى تتعلق بتشارلى . فقلت لهما أن يذهبا إلى نيد . فأنا الذى بعثت بهما اليك !

ولكن فى نفس تلك الليلة وبعد أن تمكنت مارجورى من استخلاص اعتراف كامل من زوجها نيد فإنه راح يفضى بمخاوفه وقلقه لها .

وقال لها : لقد كانا فى عجلة من أمرهما . وكانا يتمتعان بقدر هائل من الحيوية والنشاط على نحو يفوق ما لدى الأمريكان من نشاط . وكانا يقومان بالهجوم علىّ مثل رجلين لعينين من رجال الشرطة . الواحد تلو الآخر. كانا مثل كلبين صغيرين نشيطين ذكيين من كلاب الصيد ثم أضاف قائلا : مازلت أفكر فى اللجوء إلى السلطات المختصة .

فردت مارجورى قائلة فى نهاية الأمر : ولكن يا عزيزى يبدو لى أنهما تابعان للسلطة ذاتها .

فقال نيد فى تصميم شديد : لسوف أقوم بتحرير رسالة اليها ، ينبغى علىّ أن أكتب اليها وأحذرها لأنها من المحتمل أن تتعرض للمتاعب .

ولكن حتى لو كان قد قام بتحرير رسالة لها فإنه يكون بذلك قد تأخر أكثر من اللازم . لأن تشارلى كانت قد أبحرت – قبل انقضاء ٤٨ ساعة – إلى أثينا لكى تحافظ على موعد ومكان لقائها مع يوسف .

.. ..

سافر كيرتز فى صباح اليوم التالى إلى ميونيخ وفقا لما قاله لكويللى وبدا الغرض من زيارة ميونيخ أمراً مختلفاً عما قاله لكويللى . وقام بزيارة الشقتين الآمنتين التابعتين له . وبث روح التشجيع من جديد فى رجاله . وعلاوة على ذلك أوجد الوسيلة لعقد اجتماع مع الدكتور الكسيس الممتاز فى مأدبة غذاء ناقشا خلالها أموراً ليست لها أهمية كبيرة – ولكن ما الذى يحتاجه الأصدقاء القدامى أكثر من مجرد الاستمتاع بلقاء بعضهم البعض ؟

ومن ميونيخ سافر كيرتز بالطائرة إلى أثينا مستأنفا سيره فى اتجاه الجنوب .

الفصل الخامس

وصل القارب إلى بيروس متأخراً ساعتين عن موعده ولو لم يكن يوسف قد اتخذ الإجراءات الخاصة بتذكرة السفر الخاصة بتشارلى، لكانت تشارلى قد صمدت فى مواجهته وقاومته . لأنها عندما أعلنت خططها للمجموعة المسرحية الخاصة بها، فإنها وجدت معارضة شديدة منهم . بل إن لوسى انخرطت فى البكاء وعرضت أن تعطى تشارلى كل أموالها وقالت : «إن كل ما تبقى لدىّ من أموال وهى فى حدود ٥٠٠ درخمة سأعطيها كلها لك يا تشاس» . وقام كل من ويلى وبولى بالركوع أمامها أثناء وجود آلاف المشاهدين وقالا يا تشاس . يا تشاس . كيف أمكن لك أن تفعلى فينا كل هذا ؟» .

كان مطعم ديوجينيس ذا مظلة ممتدة أمامه لونها أزرق . ووجدت لافتة من الورق المقوى مرسوم عليها طباخ يشير إليها ويغريها بالدخول إلى المطعم .

شعرت بأنها فتاة قذرة وهى مرتدية البنطلون الجينز القديم البالى والحذاء القديم . وشقت طريقها فى ضجة بين المناضد المتراصة على الرصيف إلى أن وصلت إلى الباب الداخلى وبينما هى على وشك الدخول إلي المطعم انفجر رجلان يونانيان فى الضحك عندما شاهدا حقيبة الكتف المكسورة الخاصة بها . فاتجهت نحوهما .. ووجهت لهما السباب واللعنات فى غضب . ودفعت الباب فى رعشة بقدمها وخطت إلى داخل المطعم . أحست بالهواء بارداً ومنعشاً وتوقفت الثرثرة التى كانت تترامى من الرصيف بالشارع . ظلت واقفة للحظات بين الأضواء الخافتة . ثم لمحت يوسف جالساً مع فنجان من القهوة اليونانية وقد فتح أمامه كتاباً له غلاف ورقى .

قالت فى نفسها محذرة وهى تسير نحوه : لا تلمسنى ولا تعتقد أننى أصبحت مِلْك يديك . فأنا فى غاية الإرهاق وأشعر بالجوع الشديد وعلى استعداد لأن أعض كما أننى قد تخليتُ عن الجنس على مدى المائتى عام القادمة .

ولكنه لم يفعل شيئاً سوى القيام بأخذ الجيتار منها كما أخذ منها حقيبتها المكسورة، قام بمصافحتها باليد بطريقة متسِمة بالطابع العملى . ولذلك فإن كل ما قالته له هو : «أنت ترتدى قميصاً حريريا» . وكان قميصاً له أزرار ذهبية فى حجم غطـاء الزجاجة . صاحت وهى تشهد باقى الأشياء المعدنية الثمينة التى يتزين بها .. «وترتدى سواراً ذهبياً وساعة ذهبية . يبدو أنك فى هذه الفترة الزمنية القصيرة قد وجدت لنفسك أميرة ثرية !» قالت تلك العبارة فى مسحة من الهستيرية العدوانية ربما لكى تجعله يشعر بعدم الارتياح إزاء مظهره مثلما هى قد شعرت بعدم الارتياح إزاء مظهرها المتسخ وحقيبتها المكسورة.

الاَّ أن يوسف تجاوز هذا الكلام . وقال :

– مرحباً يا تشارلى .تأخر القارب عن موعده . لقد أشفقتُ عليك. المهم أنك قد وصلت بالفعل إلى هنا، أتريدين أن تغتسلى أولاً أم تحتسين الويسكى؟ فدورة مياه السيدات موجودة هنالك .

قالت : «أريد ويسكى أولاً» . ثم ألقت بنفسها فى استرخاء على كرسى فى مواجهته .

ثم راح يبحث خلفه وقال : أوه . قبل أن أنسى .ثم استخرج من تحت مقعد طويل حقيبة من الصوف اليونانى وقدمها لها كهدية . وقال : «نظراً لأننا نخطو إلى داخل العالم سوياً فها هى أدوات الهرب الخاصة بك .

ففى داخل الحقيبة ستجدين تذكرة السفر بالطائرة من تسالونيكا إلى لندن. ويمكنك إلغاء التذكرة إذا غيرت رأيك . هل كان من الصعب عليك التخلص من أصدقائك ؟ إننى متأكد من أنك وجدت صعوبة فى ذلك .إنني لا أحبّ خدا ع الناس . ولكن معظم الناس يمارسون الخدا ع .

راح يتحدث كأنه يعرف كل ما يتعلق بأساليب الخداع . وكأنه يتعرض للخدا ع فى كل يوم ويأسف لحدوث ذلك .

حملقت تشارلى فى داخل الحقيبة وقالت : «ولكن لا يوجد باراشوت بالحقيبة . ثم ضحكت وقالت : «أشكرك يا يوسف فالحقيبة جميلة ومن الطراز

الحديث . شكراً جزيلاً» . إلاّ أنه هبط عليها إحساس بأنها لم تعد تصدق نفسها ، وقالت لنفسها : ربما كان ذلك بسبب تعاطى الحبوب التى أعطتها لوسى لها .

– ماذا لو طلبتُ لك وجبة من سمك الكركند (جراد البحر) ؟ فأنت فى جزيرة ميكونوس أخبرتنى أن هذا النوع من السمك هو الطعام المفضل لك . أليس كذلك ؟

والطباخ يحتفظ بسمكة من ذلك النوع من أجلك . وهو سيقوم بقتلها على الفور إذا اصدرت أوامرك بذلك .

– قلْ لهم أن يتم قتل هذه السمكة بأقل قدْر ممكن من العنف .

ثم أمسكت باحدى يديه واعتصرتها بين يديها . فابتسم لها وترك يده لكى تعبث فيها . لقد كانت يده جميلة وبها أصابع جافة ورفيعة وذات عضلات قوية للغاية .

تساء ل يوســف : وأنت تفضلين خمور بوتاريس البيضاء المثلجة . أليس ذلك هو ما اعتدت أن تقولينه ؟»

– نعم .

– وبعد العشاء . وبصفتى شيطان المفستوفيليس الخاص بك . فإننى سوف اصطحبك إلى قمة تلّ لكى تشاهدى ثانى أعظم مكان فى العالم . هل توافقين ؟ ستكون رحلة بوليسية غامضة ؟

قالت وهى تحتسى الخمور : وهو كذلك .

– وماذا فعلت فى هذه الأيام الأخيرة يا يوسف ؟ بخلاف التحرّق شوقاً لأن تشاهدنى ؟

فلم يردّ على تساؤلها . وبدلاً من ذلك سألها عن رحلتها وزملائها فى العائلة المسرحية الخاصة بها . وبعد أن انتهت من تناول الخمور بدأت تشعر أنها ربما أصبحت جذابة بالنسبة ليوسف . وبينما كانت تتحدث معه عن «آل» فإنها

تأثرت لدى سـماعها لنفسـها وهى تفسح مكاناً فى حيـاتها لرجل جديد قـالت :

– وعلى كل حال آمل له أن يحقق النجاح فى حياته العملية، بما يعنى أن ذلك النجاح ربما يعوضه عن الإحباطات الأخرى .

ولكن حتى أثناء قيامها بتحقيق ذلك التقدم نحوه انتابتها الهواجس مرة أخرى من خلال إحساسها بالوقوع فى أخطاء . وكان هذا شعوراً ينتابها وهى على المسرح فى بعض الأحيان، عندما تحس أن مشهداً لا يشدّ الجماهير . ولكى تتخلص من الهواجس راحت تبحث في حقيبة الكتف الخاصة بها واستخرجت صندوقاً صغيراً مصنوعاً من خشب أشجار الزيتون . وسلمته له عبْر المنضدة . فأخذه لأنه قد قُدّم له . إلاّ أنه لم يدرك على الفور أن الصندوق قد قُدم له على أنه هدية .

إلاّ أنها أدركت للحظات أنه يشعر بالقلق وكأن عاملاً غير متوقع ربما يؤدى إلي تحطيم خططه .

وبعد قليل استخرج يوسف مجموعة من النشرات السياسية الملونة . فغيرت تشارلى من مكانها لكى تجلس إلى جواره وألقت بذراعها اليسرى على كتفه لكى يتمكنا سوياً من تفحّص هذه النشرات . وفجأة تساءلتْ :

– ألم يسبق لك أن ارتديت ثوباً فضفاضاً أحمر اللون ؟ له لون خمرى وله أزرار نحاسية ويشبه الموضة التى كانت سائدة فى العشرينات ؟

ارتفع رأسه فى بطء واستدار لينظر فى وجهها المتفرّس وقال : هل هذه نكتة ؟

– لا : هذا سؤال مباشر

– ثوب فضفاض أحمر ؟ ولكن لماذا بحق الجحيم ينبغى أن أرتدى مثل هذا الثوب ؟ هل تريدين منى أن أساند وأشجع فريق كرة القدم الخاص بك أو أىّ شئ من هذا القبيل ؟

فقالت محاولة الخروج من هذا المأزق : ستبدو وسيماً إذا ارتديت ثوباً من ذلك النوع . وذلك هو كل ما فى الأمر . وتلك فقط هى الطريقة التى أشاهد بها الناس فى بعض الأحيان . وهذه أمور تتعلق بالمسرح وموجودة فى داخل ذهنى . أنت لا تعرف الممثلات . أليس كذلك ؟ إننى أقوم بعمل المكياج للناس .. واللحيات وكافة أنواع تلك الأمور وأجعل الناس يرتدون كافة الأزياء مثل الزى الرسمى أو البنطلونات الرياضية القصيرة الواسعة المزمومة تحت الركبة . ويتم كل ذلك فى داخل خيالى . إنها عادة عندى .

– أتقصدين أنك تريدين لى أن أطلق لحيتى من أجلك ؟

– سأطلب منك ذلك إذا شعرت بهذه الرغبة .

وابتسم . فردتْ عليه بابتسامة .

.. ..

وبعد أن انتهيا من تناول الطعام، استخرج يوسف محفظة مصنوعة من جلد التمساح وسدّد فاتورة الحساب . وشاهدته وهو يأخذ إيصالا يفيد أنه سدّد الحساب ثم طوى الإيصال ووضعه فى جيبه . فقالت له مازحة : هل ستطالبنى بنصف قيمة النفقات ؟

لكنه لم يرد عليها . ثم قال لها على وجه السرعة :

– لو سمحت . أنظرى إلى الخارج بحثاً عن سيارة أوبيل خضراء يقودها صبى وسار بها بسرعة وقد حمل أمتعتها فى يديه .

فقالت : «ها هى ذى السيارة موجودة .»

كانت السيارة موجودة عند المدخل الجانبى . وأخذ السائق أمتعتها من يوسف ، ووضعها فى صندوق السيارة بسرعة وكان صبياً مليئاً بالنمش وأشقر اللون وموفور الصحة يبدو عليه أنه فى الخامسة عشرة من عمره على الأكثر . وكان الليل الساخن يسكب أمطاره البطيئة كالمعتاد .

وقال يوسف وهو يدخل تشارلى إلى المقعد الخلفى : «يا تشارلى . هذا هو ديمترى . سمحت أمه أن يظل بالخارج إلى فترة متأخرة فى هذه الليلة . ويا ديمترى اذهب بنا لو سمحت إلى ثانى أعظم مكان فى العالم» . وكان يوسف قد انزلق إلى المقعد الخلفى بجوارها وانطلقت السيارة على الفور . وقال يوسف : «نحن نمرّ الآن فى ميدان الدستور موطن الديموقراطية اليونانية الحديثة . والآن على اليسار توجد بوابة هارديان .

قالت تشارلى : هذا عظيم .

ثم قالت لنفسها : عودى إلى وعيك وامتلئى بالحيوية وغيّرى من حالتك النفسية . هذه جولة حرة . وهذا رجل في غاية الوسامة . وهذه هى اليونان القديمة . وبدأت السيارة تخفض من سرعتها . ولمحت وجود أطلال على يمينها . إلاَّ أن الشجيرات العالية أخفتها وراءها مرة أخرى . ثم صعدت السيارة فوق تلّ به طريق مرصوف . وتوقفت . وقفز يوسف خارجها من السيارة . وفتح لها الباب. وأمسك يدها واقتادها بسرعة وفى شئ من التآمر إلى سلالم حجرية ضيقة تقع بين الأشجار الشاهقة .

قال لها فى تمتمة مسرحية : «نحن لا نتحدث هنا إلاَّ همساً وبطريقة كودية مشفرة» . فردت عليه بكلام عديم المعنى أيضاً .

كانت قبضته مثل شحنة كهربائية . سارا فوق ممر خشبى . ثم وصلا إلى مساحة مرصوفة ثم إلى أخرى ترابية . إلاَّ أنهما كانا يصعدان لأعلى طوال الوقت .

كان القمر قد اختفى . فأصبح الجو حالك الظلام . إلاَّ أن يوسف كان يسير بسرعة أمامها على نحو خالٍ من الأخطاء كأنه يمشى تحت ضوء النهار . وعبرا على سلالم حجرية . ثم دخلا فى ممر أكثر اتساعاً . وانقشعت الأشجار . فشاهدت على يمينها أضواء المدينة متلألئة على مسافة بعيدة تحتها . وعلى يسارها وعلى مسافة عالية يوجد جرف جبلى شديد الانحدار متشامخ فى لون

أسود فى مواجهة قبة السماء البرتقالية . وسمعتْ وقع أقدام وضحكات مترامية وراءها وأدركت أنه لا يوجد سوى ولدين فقط يضحكان على نكتة .

تساءل يوسف دون أن يُهدئ من سرعته : «هل تتضايقين من المشى؟

فقالت : «المشى هنا شنيع»

– أتريدين منى أن أحملك ؟

– نعم

– ولكن للأسف توجد لدىّ عضلة ممزقة فى ظهرى .

قالت وهى تمسك بيده فى قوة وإحكام : لقد أدركت ذلك .

وبعدئذ وصلا إلى مكان ملئ بالأشجار مرة أخرى وزاخر بالقعقعة العالية الصادرة عن حشرات زيز الحصاد علاوة على روائح أشجار الصنوبر النفاذة التى جعلت عينيها تشعران بالوخز المؤلم .

وقالت تشارلى : إنك ذاهب إلى خيمة . أليس كذلك ؟

الجنس عند المضيق الجنوبى لسلسلة الجبال ؟ كيف أمكن لك أن تُخمن وتعرف شهيتى ورغباتى الخفية ؟

فلم يرد عليها وبدأ فى السير بخطوات واسعة أمامها . ووصلا إلى ممرّ متسع . وأمامهما كان يقف هيكلان رماديان يرتديان الزى الرسمى ويحرسان كوخاً حجرياً صغيراً يوجد بداخله مصباح كهربى واتجه يوسف نحوهما وسمعت تمتمة صادرة عنهما وهما يؤديان التحية له . وكان ذلك الكوخ موجوداً بين بوابتين مصنوعتين من الحديد . وخلف إحدى البوابتين توجد المدينة مرة أخرى على هيئة توهج من الأضواء المتلاطمة البعيدة . وخلف البوابة الأخرى لا يوجد سوى الظلام الحالك . وشعرت أنهما على وشك السماح لهما بالدخول إلى الظلام الحالك لأنها سمعت خشخشة المفاتيح وصرير البوابة الحديدية لدى فتحها فى بطء . فسرى الهلع فى كيانها للحظات . ما الذى أفعله أنا هنا ؟ أين أنا ؟ إنه لشئ مذهل . إنه

هجوم عليّ من جانب شخص أحمق مغفّل . لقد كان الرجلان من الموظفين أو من رجال الشرطة . ونظرا لأنهما كانا فى حالة ارتباك فقد خمنت أن يوسف قام بتقديم الرشوة لهما . وكانوا جميعاً ينظرون فى ساعاتهم . وطلب منها يوسف أن تواصل السير للأمام . فحملقتْ وراءها وشاهدت فتاتين واقفتين أسفلها على الممر مع النظر لأعلى نحوها . راح يوسف ينادى عليها . وبدأت تدخل وتعبر البوابة المفتوحة . وشعرت بعينى رجلىْ الشرطة تنزعان عنها ثيابها . وخطر على ذهنها أن يوسف لم ينظر إليها بتلك الطريقة وأنه لم يقدم أى دليل يثبت أنه يرغب فيها .

وأُغلقت البوابة مرة أخرى وراءها . وكانت هناك سلالم . أسفلها يوجد ممر صخرى زلق . ودت أن تلف ذراعها حوله، لكنه انطلق أمامها قائلاً إنه لا ينبغى أن يحجب جسده الضخم المنظر أمامها . تصورت أنها بصدد أن تشاهد منظراً رائعاً . ثانى أعظم منظر فى العالم . وربما كانت الصخرة من الرخام لأنها كانت تلمع فى الظلام . كما أن حذاء ها الجلدى ينزلق عليها فى خطورة شديدة . وبدأ الممر يتخذ اتجاهات متعرجة وبدأ الظلام يقلّ تدريجياً . وأسفلها بين الأشجار بدت المدينة بعيدة مثل كوكب راحل . وفوقها لم تشاهد سوى أبراج غارقة فى الظلام وسقالات . وتلاشت الدمدمة التى تترامى عن حركة المرور بالشوارع . ولم تعد تسمع سوى قعقعة حشرات زيز الحصاد .

– عليك بالسير فى بطء الآن . لوسمحتِ

وأدركتْ من صوته أنه لم يبق سوى القليل . وتعرّج الممر مرة أخرى . ووصلا إلى سلالم خشبية . راح يوسف يسير فى خفة فى هذه الأماكن . فقلدته فى طريقة المشى . ثم مرّا جنباً إلى جنب من بوابة هائلة . وعندئذ شاهدت قمراً غير متكامل ينزلق لأسفل من بين النجوم ويتخذ مكانه بين أعمدة هيكل البارثنون .

شعرت بالوحدة القاسية والاكتئاب . واستمرت فى السير للأمام فى بطء كشخص يتجه نحو سراب وينتظر تحوّل السراب إلى لا شئ . الاّ أنه ظل موجوداً . فسارت باحثة عن مكان يعينها على الصعود لأعلى . ولكن عند أول درجة سلّم

شاهدت لافتة مكتوب عليها «ممنوع الصعود» . وفجأة ولسبب غير واضح بدأتْ تجرى . بين الصخور الجلمودية متجهة نحو الطرف المظلم من هذه المدينة غير الدنيوية بينما كان يوسف فى قميصه الحريرى يجرى إلى جوارها فى سهولة وبدون أن يبذل أىّ مجهود . وكان يضحك ويتكلم فى نفس الوقت . وكانت هى تقول كلاماً قيل لها أن تقوله عندما تكون فى السرير . أحست بأنه بمقدورها أن تتخلص من جسدها وتطير نحو السماء بدون أن تسقط على الأرض . ثم وصلت إلى حاجز الجسر وارتمت عليه وحملقت لأسفل نحو الجزيرة المضاءة المحاطة بخضمّ الظلام لسهول أتيك . ونظرتْ وراءها وشاهدته وهو ينظر إليها على مسافة خطوات قليلة .

وقالت أخيراً : شكراً جزيلاً لك .

ثم اتجهت نحوه وأمسكت برأسه بين يديها وقبلته فى فمه قبلة طويلة.

ثم كررت قولها : شكراً لك يا يوسف . الاّ أنها أدركت أنه يتراجع مبتعداً عنها . فتصاعد الغضب فى داخلها ثم حملقت فى وجهه الجامد الذى يشبه وجه الحارس تحت ضوء القمر . وشاهدت فى مقلتىْ عينيه إحجاماً لم تشاهده من قبل . إذ كان إحجامه عنها ليس نابعاً من عدم الرغبة فيها . أدركت تماماً وهى تعانقه أنه يتأجج بالرغبة . فسيطرت على مشاعر الغضب بداخلها وقالت له : — هل لى أن أشكرك مرة أخرى ؟

ظلّ يحملق فيها فى صمت . ثم رفع يده لكى ينظر فى ساعته الذهبية تحت ضوء القمر . وقال : «نظراً لأنه لم يعد أمامنا سوى قدْر ضئيل من الوقت فعلىّ أن أريك بعض المعابد الموجودة هنا» وسار بها من معبد إلى معبد . يشرح لها وتصغى فى انتباه شديد .

ترامى إلى سمعها من على مسافة بعيدة أسفلهما بوق سيارة تطلق كلاكسات على ثلاث مرات متعمدة فأدركت أن يوسف هو المقصود لأنه رفع رأسه على الفور وراح يتأمل صوت الكلاكسات كحيوان يتشمم الرياح، قبل أن ينظر إلى

ساعته مرة أخرى . واتخذا طريقهما نحو العودة وقام رجل الشرطة بأداء التحية لهما وهما فى طريق الهبوط إلى الأرض .

كان الطريق شاغراً باستثناء وجود سيارة مرسيدس كانت تقف بمفردها. وعلى مقعد خشبى طويل ليس بعيداً عن السيارة المرسيدس جلس اثنان متعانقين كان لون السيارة داكناً ولكنه ليس أسود . كانت واقفة بجوار الحافة العشبية بينما أرقام اللوحة الأمامية غير مرئية .

أدركت أنها سيارة غير عادية حيث يوجد بها هوائيات وايريالات وأجهزة إضافية أخرى . وعندما وصلا بجوار باب السائق في هذه السيارة أدركت أنه بصدد أن يفتح بابها . شاهدته وهو يدفع بمفتاح فى ثقب باب السيارة وعندئذ ارتفعت جميع الأقفال الأربعة الخاصة بالأبواب الأربعة لأعلى على الفور . ثم اقتادها فى دوران إلى باب المقعد المجاور للسائق بينما هى تسأله : بحق الجحيم.. إلى أين أنت ذاهب ؟

فقال لها : ألا تعجبك هذه السيارة . هل لى أن أطلب سيارة أخرى مختلفة عن هذه ؟ لقد أعتقدتُ أنك مولعة بالسيارات الجميلة»

– هل تعنى أنك قد استأجرت هذه السيارة ؟

– ليـس الأمر هـكذا على وجه الدقة . ولكنها أُعيرت لنا من أجل رحلتنا .

أمسك بالباب المفتوح كى تدخل . لكنها لم تفعل تساءلت : ومَنْ أعارك هذه السيارة؟

– صديق كريم .

– ما اسمه ؟

– لا تكونى سخيفة يا تشارلى . هربرت . كارل .

ما هى الفوارق التى يضيفها الاسم ؟ هل تفضلين المساواة فى المتاعب التى تتميز بها سيارة فيات يونانية ؟

– وأين أمتعتى ؟

– إنها فى صندوق السيارة . إذ قام ديمترى بوضعها هناك بناء على تعليمات صادرة منى . هل تودين إلقاء نظرة لكى تعيدى الطمأنينة إلى نفسك ؟

ثم ركبت السيارة المرسيدس . وفى لحظات جلس يوسف إلى جوارها فى مقعد القيادة . وأدار على الفور مفتاح التشغيل . كان يرتدى فى يديه قفازاً من الجلد الأسود، وبه فتحات للتهوية على الظهر . من المؤكد أنه يحتفظ بهذا القفاز فى جيبه . ارتداه بمجرد أن دخل إلى السيارة . وانطلق بالسيارة فى سرعة ومهارة فائقة . ولم تشعر تشارلى بالارتياح لهذه السرعة فى القيادة ؛ اذ ينبغى على المرء أن يحافظ على السيارات التى يستعيرها من أصدقائه .

كان الباب بجوارها مغلقاً بالقفل أوتوماتيكيا .كان قد أعاد غلق جميع الأبواب من خلال مفتاح الغلق المركزى . قام بتشغيل الراديو فصدرت عنه موسيقى يونانية حزينة كئيبة .

فقالت : كيف يمكن لى أن أفتح هذه النافذة اللعينة ؟

فضغط على زرار . وعندئذ تدفق هواء الليل الدافئ على وجهها حاملاً معه رائحة الـــراتينج الصمغية ، الاَّ أنه فتح زجـــاج النافذة لمسافة بوصتيْن فقط .

تســاء لت بصـــوت مرتفـــع : هل يصحّ أن تأخذ فتاة إلى جهات غير معلومة وتنطلق بسرعة تبلغ ضعف سرعة الصوت ؟

لم يردّ عليها ؛ إذ كان يحملق أمامه فى انتباه شديد .وامتلأت السيارة بأضواء مترامية من الخلف . فنظرت خلفها . فشاهدتْ عبرْ النافذة الخلفية أضواء مصباحين أماميين لسيارة تنطلق وراءهما على مسافة مائتى ياردة مع الاحتفاظ بهذه المسافة بحيث لا تنقص ولا تزيد .

تساءلت : هل هذه السيارة الأخرى معنا ؟

ثم وقع بصرها على رداء أحمر فضفاض مُلقى على المقعد الخلفى للسيارة وبه أزرار من النحاس الأصفر مثل الأزرار النحاسية التى شاهدتها من قبل فى

يورك ونوتنجهام مع وجود نفس التفصيلة التى ترجع إلى العشرينات . فبدأت الشكوك تخامرها وتهجم عليها . وطلبت منه سيجارة .

قال بدون أن يلتفت نحوها : «لماذا لا تبحثى فى التابلوه الموجود أمامك» قامت بفتح التابلوه . فشاهدت علبة سجائر كما شاهدت كوفية حريرية ونظارة شمسية غالية الثمن . فاستخرجت الكوفية وراحت تشمها وأدركت أن بها الكولونيا التى يستخدمها الرجال . ثم أشعلت لنفسها سيجارة .

سألت : هل صديقك صاحب هذه السيارة يشتغل فى مهنة مساعدة الممثلين المسرحيين على ارتداء ملابسهم ؟

– نعم إنه يعمل فى هذه المهنة . لماذا تسألين ؟

فقالت : وهذا الرداء الأحمر الفضفاض الموجود على المقعد الخلفى للسيارة؟ هل هو رداؤك أو رداؤه ؟

نظر إليها بسرعة كما لو كان قد تأثّر من هذا السؤال ثم عاد ببصره إلى الطريق . قال فى هدوء مع تعمّد زيادة سرعة السيارة : «دعينا نقول إنه رداؤه هو ولكننى استعرته منه .

– وأنت قد استعرت منه نظارة الشمس الخاصة به أيضاً . أليس كذلك ؟ أعتقد أنك كنت فى مسيس الحاجة إلى هذه الأشياء لكى ترتديها، وتجلس عند أضواء خشبة المسرح السفلية على ذلك النحو . وأسمك هو : ريشتوفين ؟ أليس كذلك ؟ »

– نعم .

– واسمك الأول هو : بيتر . ولكنك تفضل اسم : يوسف . وأنت تعيش فى فينّا . وتقوم ببعض الأعمال التجارية أحياناً . وتقوم بالدراسة والاستذكار أحياناً أخرى .. ورقمك البريدى هو : ٧٦٢ مكتب البريد الرئيسى . أليس كذلك ؟

شاهدته يومئ برأسه بما يفيد أن ذاكرتها قوية . وهنا ازداد مؤشر عداد السرعة إلى ١٣٠ كيلو مترا فى الساعة .

استطردت تشارلى : «وجنسيتك غير معلنة . لأنك مجرد هجين . لك ثلاثة أطفال وزوجتان . والكل فى كوخ واحد» .

– لا زوجات ولا أطفال

– أبداً ؟

– أبداً .

– للفتيات فى هذه الأيام حبّ استطلاع .

كان الطريق مستقيماً، لكنه ضيق . ووصل مؤشر السرعة إلى ١٤٠كيلو مترا/ ساعة . بدأت تشعر بالهلع يتصاعد فى داخل كيانها ويتصارع مع هدوئها الاصطناعى الزائف .

فتساءلت : «أيمكنك أن تخبرنى ببعض الأخبار السارة ؟ أية أخبار تجعلنى أشعر بالارتياح والاطمئنان ؟»

فقال : «الأخبار السارة أننى كذبت عليك . وفى خلال فترة قصيرة من الآن سوف تدركين الأسباب الكثيرة التى دعت لأن تكونى موجودة معنا .

فقالت فى حدة : «ماذا تعنى بكلمة معنا ؟»

وكان متجهاً نحو طريق رئيسى . ولكنه لم يخفضّ من سرعته وفكرت فجأة فى الندبات الغائرة الموجودة فى جسده . فتساءلت :

«المسألة لا تتعلق بالبنادق والأسلحة ؟ . أليس كذلك ؟ وأنت لست بصدد الدخول فى حرب صغيرة فى مكان ما . أليس كذلك ؟ أننى لا أتحمل أصوات الأعيرة النارية وطلقات الرصاص . لأن طبلة أذنى حساسة للغاية» .

وأدركت أن نغمة صوتها أصبحت غريبة وغير مألوفة لها .

فقال لها : «لا شك يا تشارلى . العملية ليست تهريب للأسلحة والذخائر» .

فقالت : «أهى عملية احتجاز امرأة من أجل الاتجار فى جسدها ؟ .

– لا . ولا هى عملية التجارة فى جسد امرأة .

– إذن فالأمر يتعلق بالمخدرات . أليس كذلك ؟ . لأنك تتاجر فى شئ ما . أليس كذلك ؟ . ولكنه لم يردّ عليها . مدت يدها وأغلقت الراديو . ثم قالت : أريد منك أن توقف السيارة وتتركنى وشأنى ويمكنك أن تعود غداً إلى جزيرة ميكونوس إذا أردت .

– وأتركك هكذا فى منتصف الطريق ؟ لا تكونى سخيفة ؟

فصرخت : «أوقف السيارة الآن . أوقف هذه السيارة اللعينة» .

وتخطت السيارة مجموعة من أضواء شرطة المرور وانحرفت إلى اليسار فى عنف شديد لدرجة أن حزامها أُغلق على جسدها . ومدت يدها إلي عجلة القيادة . ولكنه كان أقوى منها بكثير . ثم انحرف إلى اليسار مرة أخرى وعبْر بوابة بيضاء ودخل فى ممر مرصوف خصوصى، على جانبيه نباتات الأزالية الصحراوية ونباتات الخبيزة . ثم توقفت السيارة في مساحة مليئة بالحصباء المطلية باللون الأبيض . توقفت السيارة الأخرى خلف السيارة المرسيدس مباشرة وبحيث تسدّ الطريق .

وسمعت تشارلى صوت وقع أقدام فوق الحصباء . وكان يوجد منزل على هيئة ڤيللا قديمة مغطاة بالورود الحمراء . حيث ينطلق ضوء شاحب فى الشرفة . وأطفأ يوسف موتور السيارة المرسيدس ووضع مفتاحها فى جيبه . وانحنى عبر تشارلى . وفتح لها الباب . وطلب منها الخروج . ثم خرج من السيارة . ولكن تشارلى ظلت جالسة فى مقعدها . بدا الجو مكتوماً، خالياً من النسيم تماماً . وكان الصمت سائداً . ولا شئ سوى وقع أقدام أناس يتجمعون حول السيارة . وشاهدت ديمترى السائق البالغ من العمر عشر سنوات . كما شاهدت فتاتين ترتديان الجينز والجاكتات . إنهما نفس الفتاتان اللتان سارتا وراءهما نحو جبل الأكروبوليس . ثم سمعت أصوات شخص ما وهو ينقل أمتعتها من صندوق السيارة . فقفزت فى غضب خارجة من السيارة . وصاحت «الجيتار الخاص بى . اتركوا هذا الجيتار . أنتم يا ....» .

الاَّ أن أحدهم . كان قد حمل الجيتار بالفعل تحت ذراعه . كما قام ديمترى بحمل حقيبة الكتف الخاصة بها . وكانت تشارلى على وشك أن تقفز للإمساك بالجيتار الخاص بها . ولكن الفتاتين أمسكتا بمعصمها ومرفقها وقامتا باقتيادها بدون أىّ مجهود نحو الفراندة الأمامية .

وصرخت «أين يوسف ابن الحرام ؟» .

ولكن ابن الحرام يوسف بعد أن استكمل مهمته كان قد بدأ يصعد السلالم بدون أن ينظـر وراء ه إليها مثل شخص ما يهرب من حادث . وتحت أضواء الفراندة تمكنت تشارلى من مشاهدة العلامات الموجودة على لوحة السيارة الخلفية. إنها لم تكن سيارة يونانية على الإطلاق . وإنما كانت سيارة عربية ولها أرقام مكتوبة بأسلوب هوليوود . وفوق غطاء صندوق السيارة الخلفى يُوجد حرفان : هـ.د أى هيئة دبلوماسية إلى اليسار مباشـرة من الشعار الرمزى لشركة مرسيدس .

الفصل السادس

قامت الفتاتان باصطحابها إلى دورة المياة وظلتا إلى جوارها فى غير خجل . وكانت إحداهما شقراء والأخرى سمراء . كلتاهما تتسمان بالحقارة والخسة والوضاعة . ولكن التعليمات صدرت إليهما لكى تعاملا الفتاة الجديدة فى شئ من الرفق .

قالت الفتاة السمراء: اسمى راشيل . وهذه الفتاة الشقراء تسمى : روز . هل فهمت ؟ فنحن اسمان من حروف «الراء» .

كانت راشيل هى الفتاة الجميلة لها لهجة الشمال الجميلة . عينان مرحتان. وذات مؤخرة لفتت أنظار يانوكا . أمَّا روز فطويلة ونحيلة وقوية وذات شعر أشقر مجعد . وتبدو مثل الفتاة الرياضية .

قالت روز فى لهجة قريبة من لهجة جنوب أفريقيا :

– لسوف تكونين على ما يرام يا تشارلى . ولا داعى لأن تشعرى بالقلق .

قامتا باقتيادها من المرحاض إلى غرفة نوم موجودة بالدور الأرضى . وقدمتا لها مشطاً وفرشاة شعر وكوباً من الشاى بدون لبن . فجلست تشارلى على السرير . وراحت ترتشف الشاى . وهى تتمتم : «احتجاز ممثلة مفلسة تماماً لا تمتلك أية نقود . ماهى الفدية أيتها الفتاتان ؟ المبلغ الذى سحبته من البنك والذى يزيد على الرصيد الفعلى الخاص بى ؟»

اكتفيتا بالابتسام لها والرفرفة عند جانبيها من أجل اصطحابها لكى تصعد على السلالم الرئيسية .

كان المنزل قديماً، مليئاً بروائح القطط ورائحة أمها . وبالأثاث اليونانى القديم وستائر القطيفة الباهتة ومجموعات الثريا والنجف . إلاَّ أنه كان نظيفاً مثل مستشفى سويسرى أو زلقا مثل ظهر المركب .

اقتربتا من باب مزدوج . دفعت راشيل الباب . ووقفتا على جانب ثم فتحتا الغرفة العلوية الشبيهة بالكهف أمام تشارلى . وفى وسط الغرفة يجلس هيكلان إلى منضدة . أحدهما عريض وضخم . والآخر منحنٍ ورفيع للغاية إلاَّ أن كليهما يرتديان ملابس بنية ورمادية سديمية . وعلى المنضدة توجد أوراق شبيهة بقصاصات الصحف فأدركت أنها قصاصات الصحف التى تتحدث عن نشاطها الفنى . قامت راشيل بضرب تشارلى بخفة على مؤخرتها وقالت لها «أدخلى إلي الغرفة الآن» . ووجدت تشارلى نفسها تقطع مسافة عشرين قدما بمفردها . فقفز الرجلان واقفين على الفور بينما وقف الرجل الرفيع بجوار المنضدة لكن الرجل الضخم مشى فى إقدام نحوها . ومدّ يده وسلَّم عليها قبل أن تتمكن من منعه من ذلك . قال كيرتز لها «يا تشارلى نحن سعداء لوصولك آمنة إلى هنا بيننا . اسمى مارتى . وهنالك يوجد المستر ريشتهوفن الذى أطلقتم عليه اسم : يوسف .»

من المؤكد أن يوسف دخل الغرفة دون أن تلحظ تشارلى . فراحت تحملق فيما حولها . فرأته يقوم بترتيب بعض الأوراق عند منضدة صغيرة منعزلة فى الغرفة عليها لمبة قراءة . أدركت أنه قد غيَّر ملابسه وأصبح مرتدياً «بلوفر» بنىّ اللون بدلاً من القميص الحريرى الذى له أزرار ذهبية عند الإسورة .

قال يوسف : نصيحتى إليك أن تؤجلى حكمك الآن علينا إلى أن تسمعى ما سيقوله لك هذان الرجلان . وأنت الآن مع أناس طيبين . لسوف تعرفين الكثير وإذا كنت سعيدة الحظ سيكون أمامك الكثير من الأعمال التى تؤدينها .

فقالت تشارلى مخاطبة ليتفاك معتقدة أنه أكثرهم تأثراً بالآخرين على أساس أنه طويل ونحيل : هل أنتم متأكدون أنكم حصلتم على الفتاة التى تريدونها بالفعل اذا كنتم تبحثون عن الرجال الثلاثة الملثمين الذين سطوا على البنك فى الشارع رقم ٥٢، فإنهم قد ذهبوا فى الطريق الآخر . أمَّا أنا فكنت أتفرج على الحادث».

فقال كيرتز فى ابتهاج : «يا تشارلى . نحن متأكدون أننا قد حصلنا على

الفتاة التى نريدها . وليس على الفتاة الخطأ» . ثم أضاف قائلاً «نحن أناس طيبون مثلما قال يوسف . ويمكنك أن تقولى عنا إننا غير متعصبين وغير منحازين ونهتم مثلك تماماً بالاتجاهات الخاطئة التى تجتاح العالم حالياً . وإذا أضفت لك قائلاً إننا مواطنون إسرائيليون آمل ألا تشعرين بالحنق على الفور أو تتقيئين أو تقفزين من النافذة اللهم الاً إذا كنت تعتقدين أنه ينبغى إلقاء اسرائيل فى البحر أو ضربها . وأضاف قائلاً «فهل هذا هو ما تعتقدينه ؟ ولماذا لا تقولى رأيك بكل صراحة ؟»

هبط على تشارلى هدوء شديد مما أخفى ما يعتمل فى داخلها من رعب ومشاعر متضاربة .

فتساءل كيرتز : «هل تشعرين أنك موجودة بين أعداء فى هذا المكان؟» .

فقالت فى تهكم : «أيها السيد المسيح . ما الذى جعلك تعتقد فى هذه الفكرة ؟ أعنى أن أى شخص يختطفنى فهو صديق لى مدى الحياة» . أنفجر الموجودون فى الضحك باستثناء يوسف الذى كان مشغولاً فى قراءة الأوراق الموجودة أمامه .

وقال كيرتز «دعينا ننسى أنك على نحو ما أسيرة هنا . هل ينبغى على اسرائيل أن تظل على قيد الحياة أو ينبغى على الاسرائيليين جميعاً أن يحزموا أمتعتهم ويذهبون إلى كافة الدول التى سـبق أن جاء وا منها ؟ أم تفضلين أنه ينبغى علينا أن نأخذ مساحة من الأرض فى أفريقيا الوسطى ؟ أو أروجواى ؟ ولا أقول مساحة من مصر لأننا سبق لنا أن حاولنا ذلك ولم نحرز النجاح ؟ أو هل ينبغى علينا أن نشتت أنفسنا مرة أخرى في الجيتو فى أوربا وآسيا وننتظر حدوث المذبحة الجماعية التالية ؟ ما رأيك فى هذا الكلام يا تشارلى ؟

– كل ما أريده هو أن تتركوا العرب المساكين وشأنهم .

– عظيم . وكيف لنا أن نفعل ذلك على وجه التحديد ؟

فقالت : بأن تتوقفوا عن إلقاء القنابل على معسكراتهم . وتتوقفوا عن

طردهم من أراضيهم . وتتوقفوا عن هدم قُراهم بالبلدوزرات . وتتوقفوا عن تعذيبهم .

فقال كيرتز : هل سبق لك أن ألقيت نظرة على خريطة الشرق الأوسط؟ .

– لقد ألقيتُ نظرة على خريطة الشرق الأوسط بالطبع .

فقال كيرتز : وعندما نظرت إلى الخريطة . هل تمنيت فى إحدى المرات أن يتركنا العرب وشأننا ؟

فقالت : إن كل ما أريده هو السلام .

وكان لا يوجد فى ذهنها سوى تصوّر عن إعادة الفلسطينيين إلى الأرض التى طردوا منها .

فقال : يا تشارلى . لسنا موجودين هنا من أجل أن ننتقد ونهاجم أفكارك السياسية . وأنت لن تصدقينى خلال هذه المرحلة المبكرة – ولكننا معجبون بهذه الأفكار . وبكل عبارة متناقضة ظاهرياً وبكل نوايا طيبة . فنحن نحترم سياساتك ونحن بحاجة إليها . لا نسخر منها على الإطلاق . وآمل فى وقت لاحق أن نناقشها فى وضوح وصراحة وعلى نحو خلاَّق . فنحن نهدف إلى مخاطبة الجانب الإنسانى داخلك وذلك هو كل ما فى الأمر. ونهدف إلي الوصول إلى قلبك الطيب الملئ بالانسانية . والوصول إلى مشاعرك وإلى إحساسك بالحق والعدل . وبناء على ذلك فســوف تجلسين بكل تأكيد معنا لفترة أطول لكى تسمعى منا كل ما نريد أن نقوله لك .

فأخفت تشارلى ردود الفعل لديها عن طريق اللجوء إلى الهجوم، حيث قالت : إذا كان يوسف اسرائيلياً فلماذا يقود هذه السيارة العربية العظيمة منطلقاً بها هنا وهناك ؟

فقال كيرتز : لقد سرقنا هذه السيارة يا تشارلى . والشئ التالى الذى تريدين أن تعرفينه يا تشارلى هو : ما الذى تفعلينه هنا بيننا ولماذا تم سحبك إلى

هنا بطريقة غير لطيفة . سأخبرك بالسبب . نحن يا تشارلى نريد أن نعرض عليك وظيفة . وظيفة تتعلق بالتمثيل .

.. ..

وأضاف قائلاً : ستقومين بتمثيل أكبر دور فى حياتك . وأكثر الأدوار إلحاحاً وأصعب الأدوار وبالتأكيد هو أخطر الأدوار وأهمّ الأدوار . وأنا أعنى هنا النقود . فأنت بمقدورك الحصول على أموال كثيرة ولا توجد مشكلة فى هذا الصدد . يمكنك أن تحددى المبلغ الذى تريدينه . إن الدور الذى سنحدده لك سوف يشتمل كافة مواهبك سواء أكانت إنسانية أو مهنية . سوف يشتمل على ذكائك ومهارتك وعلى ذاكرتك القوية معلوماتك وشجاعتك وإقدامك بل على الدفء الخاص بك . لقد وقع اختيارنا عليك يا تشارلى . قمنا بدراسة عدد كبير من المرشحين لهذا الدور من أقطار ودول عديدة . وانتهينا إلى اختيارك وذلك هو السبب فى إنك موجودة هنا معنا بين أناس معجبين بك . فكل فرد فى هذه الغرفة شاهد أعمالك الفنية وأبدى إعجابه بك . لذلك يجب أن نضع الموقف أو الجوّ فى إطاره الصحيح . فمن جانبنا لا توجد عداوات . وانما توجد المحبة والاعجاب والآمال . عليك أن تصغى إلينا . فنحن – كما قال صديقك يوسف – أناس طيبون . نحن نريدك . وبحاجة إليك . وهناك أناس بالخارج سيكونون بحاجة إليك أكثر منّا .

راحت تشارلى تفكر : «فى بادئ الأمر حصل «آل» على الدور الكبير الخاص به وها أنا الآن بصدد الحصول على دور كبير» . وكبتت فى داخلها ومضات الإثارة التى سرت فى كيانها والتى كانت توخزها فى خديها وتحاول الخروج إلى السطح . ثم قالت : «إذن فهذه هى الطريقة التى تختارون بها ممثلاً لكى يؤدى دوراً ؟ تقومون بضربه على الرأس وسحبه مكبلاً فى الأغلال ؟ هذه هى الطريقة المعتادة التى تلجأون إليها على ما أظن » .

فقال كيرتز : يا تشارلى من المؤكد أننا لا ندعى أن هذه دراما مألوفة أو عادية .

فقالت : إذن فهى مسرحية . ولماذا لا تقول ذلك ؟

فقال كيرتز : إنها مسرحية بمعنى ما .

– ومن الذى يكتبها ؟

– نحن نضع الحبكة الروائية . ويقوم يوسف بوضع الحوار مع الحصول على قدْر كبير من المساعدة منك .

فقامت بحركة مشيرة نحو الظلال وقالت : ومَنْ هم جماهير المشاهدين ؟ هؤلاء الفتيات الصغيرات الفاتنات ؟

قال كيرتز : يا تشارلى . هناك أناس بالخارج لن يتمكنوا أبداً من مشاهدة المسرحية بل ولن يعرفوا أبداً أن المسرحية تؤدى بالفعل . ولكنهم سيكونون مدينين لك طوال حياتهم . أناس أبرياء . الناس الذين أبديت دائماً اهتماماً بشئونهم وحاولت التحدث نيابة عنهم وقيادة المسيرات من أجلهم ومساعدتهم . وفى كل شىء ينساب من هذا فصاعداً سيكون عليك الاحتفاظ بتلك الفكرة فى رأسك وإلاَّ فانك سوف تفقديننا وتفقدين نفسك ما فى ذلك شك .

حاولت أن تشيح بوجهها بعيداً عنه . وكانت فصاحته عالية للغاية . وتمنت لو قام بتطبيق فصاحته على شخص آخر .

فتساءلت فى وقاحة محاولة الصمود أمام موجة الاقناع : ومَنْ تكون أنت بحق الجحيم بحيث تقرّر مَنْ هو البرئ ؟

فقال : أتقصدين نحن كإسرائيليين يا تشارلى ؟

فردت على نحو حاسم على الفور متجنبة الدخول فى أرض خطيرة : – إننى أقصدك أنت .

– أفضل أن أدخل تغييراً بسيطاً على سؤالك يا تشارلى وأقول إنه فى رأينا أن شخصاً ما ينبغى أن يكون مذنبا للغاية بالفعل قبل أن يكون بحاجة لأن يموت .

– مثل مَنْ ؟ مَنْ الذى يحتاج لأن يموت ؟ أولئك الناس المساكين الذين تطلقون عليهم الرصاص فى الضفة الغربية ؟ أم أولئك الناس الذين تلقون عليهم القنابل فى لبنان ؟

كيرتز فى ثبات : فقط أولئك الذين يحطمون الروابط الإنسانية تماماً يا تشارلى هم الذين يستحقون الموت .

فاستأنفت تشارلى الكلام فى تأكيد شديد : وهل هناك يهود على ذلك النحو؟

– نعم يوجد يهود على ذلك النحو . وبكل تأكيد يوجد أيضاً اسرائيليون ولكننا لسنا من بين هؤلاء الناس . وهؤلاء الناس ليسوا هم موضوع مشكلتنا هنا فى هذه الليلة .

لقد كان له سلطة التحدث على هذا النحو وكانت لديه الإجابات التى يتطلع إليها الأطفال . وكان لديه الخلفية . وكل من بالغرفة يدرك ذلك بما فيهم تشارلى : الكل يدرك أنه رجل لا يتعامل الاً فى الأمور التى عاش تجربتها . وهو عندما كان يسأل سؤالاً يدرك المرء أنه هو نفسه قد وجهت له الأسئلة . عندما يصدر الأوامر، يدرك المرء أنها الأوامر التى صدرت له . وهو عندما يتكلم عن الموت تحس أنه قد مرَّ إلى جواره وربما يأتى إليه فى أية لحظة أخرى، وهو عندما قرر أن يصدر إليها تحذيرات – مثلما فعل الآن – فإنه على بينّة بمدى الأخطار التى يتحدث عنها : لا تدخلى الملهاة على مسرحيتنا يا تشارلى لأن ذلك يحدث تشويشاً . وعندما تطفأ الأنوار على المسرح سيكون الوقت هو وقت الليل بالشارع . وعندما يضحك الممثلون سيكونون سعداء وعندما يبكون سيكونون مفجوعين ومحطمين . وإذا تعرضوا للجراح – وهم سوف يتعرضون بالفعل للجراح يا تشارلى فانهم بالتأكيد لن يكونوا – لدى إسدال الستار – فى وضع يسمح لهم بأن يقفزوا ويهربوا من أجل اللحاق بآخر أتوبيس بغية الذهاب إلى منازلهم . ولن يكون هناك تراجع عن أداء اللقطات الصعبة ولا أيام تمنح للاجازات المرضية . إنه أداء القمة على طول

الخط . فإذا كان ذلك هو ما تحبينه – ونحن نعتقد أنك تحبين ذلك – إذن ينبغى عليك أن تصغى الينا جيّداً . وإلاّ فإنه ينبغى علينا أن نلغى الاختبار الآن وعلى الفور .

هنا أبدى شيمون ليتفاك أولى ملاحظاته الاعتراضية أثناء الحديث حيث قال : تشارلى لم يسبق لها أبداً أن سارت مبتعدة عن قتال أو صراع طوال حياتها يا مارتى .. وكان لصوته طابع التلميذ الذى يؤيد وجهة نظر أستاذه . ثم أضاف قائلاً : نحن لا نؤمن فقط بذلك، وإنما نعـــرفه تمام المعرفة . فهذا وارد فى كل سجلاتها .»

.. ..

وأبلغ كيرتز رئيسه ميشا جافرون فيما بعد أنهم وصلوا إلى منتصف الطريق فى إجراءاتهم : فالمرأة التى توافق على الإصغاء إليهم هى امرأة تُذعن فى نهاية الأمر .

كان كيرتز بارعاً . فقد تمكن فى خلال دقائق من وصولها – رغم أنها لا تزال خائفة – من مدّ أواصر الصداقة إليها . وتمكن من مناشدة روح الممثلة فى داخل كيانها وروح الشهيد وروح الفدائية والمغامرة فى داخلها . وتمكن من تملق الابنة وتملق طموحها المُثار . وقدّم لها لمحة مبكرة عن العائلة الجديدة التى ربما تهتم بالانضمام إليها . والأهم من ذلك فإنه بتوفير مثل هذه الفوائد والمنافع لها جعلها غنية : وهو الأمر الذى قالت عنه تشارلى فيما بعد لكى تعظ أىّ انسان لديه الاستعداد لأن يستمع إليها إنه كان بداية لخضوعها الذليل وتبعيتها الذليلة .

وقال كيرتز بصوت خفيض : لذلك . يا تشارلى . فإننا نقترح تقديم اختبار مفتوح . سوف نقدّم لك مجموعة من الأسئلة وندعوك للإجابة عليها بكل صراحة وبكل ثقة .

وتوقف عن الكلام . ولكنها لم تتكلم . إلاّ أن صمتها كان يعنى إذعانا وموافقة ضمنية .

فقال كيرتز : سؤال . ما الذى يحدث لو قررّ أحدنا أن يقفز عن السلم الميكانيكى الذى يتحرك صعوداً وهبوطاً على نحو متواصل ؟ ودعيني أحاول الاجابة على هذا السؤال يا تشارلى .

فقالت : وهو كذلك . أجب عن هذا السؤال يا مارت .

– شكراً لكِ يا تشارلى . اذن استمعى إلىَّ فى انتباه لو سمحتِ . اعتمادا على درجة معرفتنا فى ذلك الوقت وعلى تقييمنا لك فإننا سنسير فى أحد اتجاهين . الاتجاه الأول : سنقوم بانتزاع وعْد منك ونعطيك نقوداً ونرسلك إلى انجلترا . ونتصافح باليد فى ثقة متبادلة لأصدقاء مخلصين لكى نتأكد من أنك تحافظين على الاتفاق أو الصفقة . هل تفهمين ما أقوله ؟

اتجهت بنظراتها إلى المنضدة لكى تهرب من نظراته الثاقبة المتفحصة ولكى تخفى الإثارة المتزايدة فى داخلها .

فاستطرد : والاتجاه الثانى يتسم بإنه أكثر خشونة ولكنه ليس رهيباً. وهو أن نضعك فى الحجر الصحى . لإنك تكشفين أسرار المشروع مما يتعذر علينا تقديمه فى أىّ مكان آخر بينما تقومين بالتحدث عنه إلى درجة كبيرة .

واستطرد قائلاً : إذن ما الذى يمكننا أن نفعله فى تلك الحالة . يا تشارلى. نحن نستأجر منزلاً ظريفاً فى مكان ما – وليكن على الشاطئ . فى مكان ما ملائم. ولا مشكلة فى ذلك . نزودك بمجموعة من الناس المألوفين للناس هنا . أناس ظرفاء يتسمون بالبراعة والمهارة والاقتدار ونشيع أسباباً زائفة عن غيابك بأن نقول مثلاً إنك ذهبت فى رحلة صوفية إلى الشرق .

وأمسكت تشارلى بقلم وبدأت تشخبط على كراسة موجودة أمامها . وأضاف كيرتز : وما إن يتم إخراجك من الحجر الصحى فإننا لا نتخلى عنك ونهجرك – فإننا لا نفعل ذلك ابداً . وإنما نقوم بتمهيد الأمور لك وتسهيلها . ونعطيك أموالاً ونظل على اتصال بك ونتأكد من إنك لا تتخلين عن الحرص والحذر بأية وسيلة . وبمجرد أن يصبح الموقف آمناً تماماً نساعدك على استئناف حياتك

ومستقبلك . واستئناف الاتصال بأصدقائك السابقين . وذلك هو أسوأ ما يمكن أن يحدث يا تشارلى أقول ذلك لأنه ربما تنتابك حالياً فكرة مجنونة فتقولين : «لا» لنا الآن أو فيما بعد ثم تتخيلين أن رفضك هذا سيؤدى إلى موتك غرقاً فى النهر . فنحن لا نتصرف على ذلك النحو وخاصة مع الأصدقاء .

وكانت تشارلى مازالت تعبث بالقلم . وبعد أن رسمت دائرة وضعت فوقها سهماً قطرياً لكى تجعلها مذكّراً . وكانت قد شاهدت من قبل دراسات سيكولوچية شعبية استخدمت ذلك الرمز . فجأة تكلم يوسف بضيق لأن شخصاً قاطعه فى الكلام . إلاّ أن صوته أحدث تأثيراً دافئاً عليها .

يا تشارلى لا يكفى بالنسبة لك أن تقومى بدور الشاهدة المتجهمة الوجه . فنحن نناقش الآن المستقبل الخطير الخاص بك . أتهدفين إلى الجلوس هنالك وتسمحين لهما بالتخلص من مستقبلك بطريقة عملية، بدون استشارتك ؟ أريد منك التزاماً يا تشارلى هل تفهميننى

فتساءلت تشارلى بصوت خال من الحيوية والحماس وكأن يوسف لم يتكلم على الاطلاق : إذن إلى متى سوف يمتد العرْض يا مارت ؟

فقال كيرتز : حسناً . أظن إنك تعنين : ما الذى سيحدث لك عندما تنتهى هذه المهمة ؟ أليس ذلك صحيحاً ؟»

فألقت بقلم الرصاص الموجود فى يدها وقالت «لا» أعنى إلى متى سيستمر العرض . وماذا عن الجولة المسرحية التي سأقوم بها لتقديم مسرحية : (كما تحبّها) فى فصل الخريف ؟

فقال كيرتز فى حماس واهتمام : لن تتأثر مسرحية (كما تحبها) بأىّ حال من الأحوال بسبب مشروعنا . ونحن نتوقع أن توفى بالتزاماتك . أمّا بالنسبة للفترة الزمنية الخاصة بمشروعنا فإن ارتباطك بمشروعنا يمكن أن يستغرق ستة أسابيع ويمكن أن يستغرق عامين . وما نريد أن نسمعه منك الآن هو ما إذا كنت ترغبين فى الدخول فى التدريبات معنا أو تفضلين أن تودعى كل شخص هنا

وتعودين إلى حياتك السابقة التى هى أكثر أمناً وأكثر سخافة . ما هو القرار الذى ستتخذينه ؟

أراد أن يعطيها إحساساً بالانتصار علاوة على إحساس بالخضوع وبحيث تختار بنفسها مختطفيها وآسريها . كان بمقدورها أن تشعر بأجسادهم وهى تمتد للأمام فى توتر . وباستطاعتها أن تشعر بقوة الهدف الذى يسعون إليه وبقوة النفوذ الخاص بها : هل تقبل ؟ هل ترفض ؟

وتساءلت تشارلى دون أن تدير رأسها : «يا يوسف» ؟

– نعم . يا تشارلى

– وماذا عن رحلتنا الرومانتيكية الكبرى فى اليونان ؟ والتى تغطى معبد دلفى وثانى أعظم أماكن فى العالم ؟

فقال يوسف : إن اتجاهنا إلى الشمال لن يتأثر بأىّ حال من الأحوال .

– ولن يتأجل ؟

– بل يمكننى القول إنه وشيك الوقوع فى حقيقة الأمر وانفصل زرار جاكتتها وسقط فى راحة يدها . فألقت به على المنضدة . وشاهدته وهو يلف ويدور كالنحلة ثم يهدأ ويستقر . وخطر على ذهنها أن تلعب معهم لعبة «ملك أم كتابة» وقالت لنفسها : دعْهم يعرفون بعض الشئ . وأخرجت زفيراً عالياً من رئتيها كأنها تريد أن تزيح خصلة الشعر الموجودة فى مقدمة رأسها .

ثم قالت لكيرتز فى غير اهتمام وهى تنظر إلى الزرار : إذن سأبقى هنا من أجل الاختبارات . أليس كذلك ؟

وبدأت إجراءات استجواب تشارلى بعد أن تمّ الحصول على موافقتها.

.. ..

وكانت الأسئلة الأولى التى وجهها كيرتز مبعثرة وخالية من الأضرار . بدا الأمر وكأن لديه استمارات جواز سفر خالية يرغب فى ملأ بياناتها من خلال

الردود التى تقولها تشارلى . الاسم الكامل لوالدتك يا تشارلى . تاريخ ميلاد ومكان ميلاد والدك . وظيفة جدك لأمك . آخر عنوان معروف لخالتك ثم أعقب ذلك أسئلة تتعلق بالتفاصيل الخفية عن مراحل التعليم الخاصة بوالدها . ولم تكن هذه الأسئلة الأولى تتعلق بشكل مباشر بتشارلى . وكأنها بمثابة الموضوع الذى يحرص كيرتز على تجنبه . ولم يكن الهدف من وراء هذه الأسئلة جمع واستنباط المعلومات والبيانات دائماً أن يتم غرس الطاعة الغريزية فى داخل كيانها وغرس طابع (نعم يا سيدى/ لا يا سيدى) الموجود فى الفصول المدرسية مما يؤدى إلى ترسيخ الاذعان .

ثم تساءل كيرتز : لماذا سُميت باسم : تشارميان ؟

ردت تشارلى : اتفقوا على تسميتى بذلك الاسم من أجل بنت عمتنا الغنية التى تحمل نفس الاسم .

تساءل كيرتز : وهل أدى ذلك إلى مكاسب مالية ؟

ردت تشارلى بطريقة مسرحية ساخرة : ليس بعد . وأضافت : أن والدى قد مات كما تعرفون وكان على ابنة العمة تشارميان أن تلحق به .

وتمتم كيرتز فى ارتياح وهو يقول : «أنت من برج الميزان» وهو يدوّن ملاحظاته بسرعة .

ثم انتقل بها بسرعة إلى حياة طفولتها المبكرة - المدارس الداخلية والمنازل وأسماء الأصدقاء والصديقات القدامى . فردت عليه تشارلى فى تجاوب ورغبة أكيدة . ثم انتقل كيرتز إلى التاريخ المؤلم للدمار الذى لحق بوالدها فردت تشارلى بالتفصيل ابتداء من تفشى هذه الأنباء إلى حدوث الصدمة الناجمة عن مثوله أمام المحاكم واصدار حكم عليه وايداعه فى السجن . ثم قالت فى ابتسامة مليئة باليأس : «لوكنا ننتمى للطبقة العمالية لكنا قد أصبحنا على ما يرام» فالإنسان المنتمى للطبقة الرأسمالية يتعرض للسلب والنهب ويصبح زائداً عن الحاجة

وتهاجمه القوى الرأسمالية ونحن لم نكن من الطبقة العمالية . وفجأة أصبحنا من الخاسرين .

فقال كيرتز فى وقار : هذه قسوة .

ثم رجع إلى الحقائق الثابتة : تاريخ ومكان المحاكمة يا تشارلى . وما هى مدة العقوبة بالسجن يا تشارلى وما هى أسماء المحامين اذا كنت تتذكرين . وحاولت تشارلى أن تردّ على كافة الاسئلة بقدر ما تسعفها الذاكرة . وكان ليتفاك يدوّن ويكتب إجاباتها لكى يتيح المجـال لكيرتز من أجل تركيز انتباهه على تشارلى .

وأعلن كيرتز عن فترة استراحة قصيرة . وقامت روز بإحضار كوب من الشاى المحلى بالسكر وبدون لبن من أجل تشارلى كما أحضرت راشيل بسكوتاً أخذت تشارلى واحدة منه، تساءلت راشيل : أتريدين الذهاب إلى المرحاض ؟

- لا . شكراً جزيلاً .

وراحت تشارلى ترتشف الشاى . ووضعت مرفقها على ظهر الكرسى الذى تجلس عليه لكى تتمكن من إلقاء نظرة بطريقة طبيعية عبْر كتفها . فاكتشفت أن يوسف اختفى وأخذ معه أوراقه .

الفصل السابع

استأنف كيرتز استجوابه لتشارلى بينما استخرج ليتفاك ملفا من حقيبته :
يا تشارلى . فيما يتعلق بوالديك مرة أخرى .

مدت يدها لتأخذ سيجارة . وصمت كيرتز للحظات قصيرة ، حيث راح يدرس بعض الوثائق التى وضعها ليتفاك فى يديه . ثم قال : نحن نبحث الآن فى المرحلة الأخيرة من حياة والدك ، تحطمه ، والعار المالى الذى لحق به وموته الخ . هل يمكن لنا أن نؤكد معك تتابع هذه الأحداث على وجه الدقة؟ لقد كنت ملتحقة بمدرسة داخلية انجليزية . ثم جاء تك هذه الأنباء الرهيبة . إبدئى من هذه النقطة لو سمحت .

ولم تكن متتبعة كلامه تماما فتساء لت : من أين ؟

– «من حيث جاءت الأنباء الرهيبة . إبدئى من هنا» فهزت كتفيها وقالت : لقد طردتنى المدرسة . فرجعت إلى منزلى . فشاهدت مندوبى المحكمة يحومون حول المنزل مثل الفئران . وكنا موجودين بالمنزل هناك .

فقال كيرتز : لقد قامت ناظرة المدرسة باستدعائك . فما الذى قالته لك على وجه الدقة ؟ لو سمحت ؟ .

– لقد طلبت من ماترون أن تحزم لك أمتعتك . فمع السلامة وحظا سعيداً وهذا هو ما أتذكره .

– ألم توضح لك السبب فى إصدارهم الأوامر بأن تتركى المدرسة ؟

لم تكن مصاريف المدرسة قد سددت على مدى فترتين دراسيتين – ألم يكن هذا سببا كافيا ؟ إنهم يهتمون بالنواحى المالية التجارية . ولا تنس أن هذه مدرسة خاصة؟

- إذن فقد ذهبت إلى منزلك بعد ذلك . هل ذهبت بالقطار ؟

- قطعت كل المسافات بالقطار . ومعى حقيبتى الصغيرة .

- وماذا شاهدت فى المنزل على وجه الدقة ؟

- الفوضى . وشاهدت عربة فان خاصة بالأثاث واقفة فى الممر الفرعى المؤدى إلى المنزل . وشاهدت رجالا يرتدون مرايل . وكانت أمى منخرطة فى البكاء أما غرفتى فقد أفرغت من نصف محتوياتها .

- وأين كانت أختك هايدى ؟

فقالت تشارلى فى عدم اهتمام وهى تنظر إلى يديها : اعتقد أنها كانت فى حالة «حمل» . فهى عادةً ما تكون حاملاً .

فقال كيرتز : ياتشارلى . لم تكن هايدى حاملا . فأول حالة حمل شهدتها هايدى حدثت فى السنة التالية .

- وهو كذلك . لم تكن حاملاً فى هذه المرة فقط ..

اذن لماذا لم تحضر هايدى وتقدم المساعدة لأسرتها ؟ .

- ربما هى لم تكن ترغب فى أن تعرف . وكل ما أذكره أنها ظلت بعيدة عن الأحداث . حدث ذلك منذ عشر سنوات وكنت فى ذلك الوقت فتاة صغيرة للغاية

«يا للعار . هايدى لم تستطع أن تتحمل العار . أقصد العار الذى يتعلق بإفلاس والدك» .

فقالت تشارلى فى حدة : وهل كان هناك عار آخر ؟ فقال كيرتز «على أية حال . لقد فضلت هايدى البقاء بعيداً ووقعت المسئولية كلها على أكتافك الصغيرة يا تشارلى حيث كان عمرك حوالى ١٦ عاماً» . ثم توقف عن الكلام تماما منتظراً أن تتكلم .

لكنها لم تتكلم . راحت تحملق فى وجهه فى تفرس على نحو مستمر، إنها تلجأ إلى هذه الطريقة منذ أن كانت طفلة صغيرة حيث تجعل وجهها يتجمد

ويصبح مثل صورة ثلجية ثم تنخرط فى التفكير فى أمور أخرى مستترة وراء تلك الصورة الجامدة . فكسبت الجولة والدليل على ذلك أن كيرتز اضطر إلى البدء فى الكلام .

يا تشارلى . نحن ندرك أن الأمر مؤلم للغاية بالنسبة لك . ولكننا نريد منك الاستمرار فى وصف ما حدث . لقد وصلت العربة الفان . وكان يتم نقل ممتلكاتك من المنزل . وما هى الممتلكات الأخرى الخاصة بك والتى يتم نقلها ؟

– الحصان الصغير الخاص بى .

– وأخذوا ذلك أيضاً ؟

– لقد سبق أن أخبرتك بذلك ؟

– مع نفس الأثاث ؟ وفى نفس السيارة الفان ؟

– لا . فى سيارة فان أخرى . لا تكن سخيفاً .

– إذن كانت هناك اثنتان من السيارات الفان . وكلتاهما فى وقت واحد ؟ أم الواحدة تلو الأخرى ؟

– لا أذكر .

– وأين كان والدك موجودا طوال هذا الوقت ؟ أكان موجوداً فى المكتبة ؟ أكان ينظر من النافذة ويشهد نقل الأشياء ؟ وكيف يمكن لرجل مثله أن يتحمل هذا العار؟

– كان موجودا فى الحديقة .

– وماذا كان يفعل فى الحديقة ؟

– كان ينظر إلى الزهور وظل يقول لو أخذوا الأزهار والورود الخاصة بى سأقتل نفسى .

– وأين كانت أمك ؟

– كانت أمى فى المطبخ وتقوم بأعمال الطهو . فالطهو هو الشئ الوحيد التى كانت تفكر فى القيام به .

– وهل كانت تستخدم الغاز أم الكهرباء ؟

– الكهرباء

– هل سبق لك إن قلت أن الشركة قد قطعت التيار الكهربائى ؟ أم أننى لم أسمعك جيدا ؟

– لقد قاموا بتوصيل الكهرباء مرة أخرى .

– وهم لم يأخذوا موقد الطهو ؟

– اضطروا لأن يتركوا موقد الطهو وذلك بحكم القانون . لقد تركوا موقد الطهو والمنضدة وكرسيًا واحدا لكل فرد بالمنزل .

– وماذا عن السكاكين والشوكات ؟

– لقد تركوا مجموعة واحدة لكل فرد .

– ولماذا لم يقوموا بمصادرة المنزل بأكمله وطردكم جميعا منه ؟

كان المنزل مسجلا باسم والدتى . لقد أصرت على ذلك منذ سنوات قبل حدوث هذه الكارثة .

– إنها امرأة حكيمة وعاقلة . وهل قرأت ناظرة المدرسة عن موضوع افلاس والدك فى الصحف ؟

فقالت تشارلى : قرأت عن ذلك فى (لندن جازيت) إنها مجلة متخصصة فى الإعلان عن كافة حالات الإفلاس .

– هل كانت ناظرة المدرسة مشتركة فى هذه الجريدة ؟

– من المحتمل .

فأومأ كيرتز برأسه قليلا والتقط قلما وكتب كلمة «من المحتمل» على نوتة أمامه على نحو يجعل هذه الكلمة مرئية أمام تشارلى . ثم قال وبعد إعلان الإفلاس

ظهرت الاتهامات بالنصب والاحتيال . أليس كذلك ؟ أتودين أن تصفى لنا ما دار فى المحكمة ؟

لقد سبق أن وضحت لك . أن والدى لم يسمح لنا بأن نذهب إلى هناك . وهو فى بادئ الامر اتجه للدفاع عن نفسه - ولكى يكون بطلاً . وكان علينا أن نجلس فى المقاعد الأمامية والعمل على تشجيعه . وعندما أظهروا له الأدلة والبراهين بدأ يغير رأيه .

- وما هى التهمة التى وجهت إليه ؟

- سرقة نقود الزبائن

- وهل قمت بزيارته فى السجن ؟

- لم يسمح لنا بزيارته فهو لم يكن يرغب لنا أن نشاهد العار الذى هبط عليه .

- ألم تذهبى أبداً إلى مكان قريب من السجن ولو مرة واحدة ؟ فقالت فى يأس «أيها السيد المسيح ! لماذا تستمر فى لوى السكين على هذا النحو ؟»

- ولا حتى بالقرب من السجن ؟

- لا

وكانت تحتجز دموعها فى شجاعة مثيرة للإعجاب . وكان الصمت شبيها بفترات التوقف ما بين الصرخات .

- قال عميلك كويللى لشخص ما من معارفنا إن والدك قد مات فى السجن . ولم يمت فى المنزل على الإطلاق . فهل كان يبالغ فى الأمر ؟

- ذلك هو كلام كويللى . وليس كلامى أنا

- وهو كذلك . اتفقنا .

أغلق الملف الموجود أمامه وهو مازال غير مقتنع .

لم تستطع تشارلى أن تتمالك نفسها . فاستدارت فى كرسيها وقالت

ليوسف وهى تتوسل إليه بطريقة غير مباشرة لكى ينقذها من هذا المطب . «كيف تسير الأمور يا يوسف - أكل شئ على ما يرام ؟»

فقال :كل شئ يتم بطريقة فعالة للغاية .

- على نحو أفضل من مسرحية سانت جان دارك ؟

- لكن كلماتك ياعزيزتى تشارلى ليست أفضل من كلمات برناردشو .

فقالت لنفسها فى حزن : إنه لا يهنئنى . إنه يواسينى . لماذا يعاملنى فى تحفظ هكذا بعد أن أحضرنى إلى هنا ؟ .

وأحضرت روز الافريقية الجنوبية صينية صينية مليئة بالسندوتشات . وأحضرت راشيل الكعك والقهوة المحلاة .

قالت تشارلى وهى تتناول الطعام : ألا ينام أى أحد فى هذا المكان ؟ إلا أن أحداً لم يسمع تساؤلها أو بالأحرى لم يرد أحد على تساؤلها طالما أنهم قد سمعوا السؤال فى وضوح شديد .

.. ..

انتهى الوقت اللطيف . وجاء الوقت الذي طال انتظاره والذى يشغل الساعات السابقة على حلول الفجر حيث يصبح ذهنها أكثر وضوحا ويصبح غضبها أشد حدة . جاء الوقت الذى سيتم فيه تناول الاتجاهات السياسية لتشارلى وهى الاتجاهات التى سبق أن قال عنها كيرتز إنها تنال احترامهم وتقديرهم جميعا . التأثيرات المبكرة والتاريخ والمكان والناس ، أذكرى لنا المبادئ الارشادية الخمس الخاصة بك وأول عشرة لقاءات لك مع الخيار العسكرى . إلا أن الحالة النفسية لتشارلى لم تعد تعينها على الالتزام بالموضوعية بدأ يتصاعد فى داخلها الاحساس بالتمرد والثورة . بدأت تشعر بالسأم والملل منهم ، والسأم من التعاون معهم من خلال هذا التحالف الإجبارى . وتصاعدت المشاعر العدوانية وأصبحت تتشوق للدخول فى صدام ومعركة معهم .

وكان كيرتز مازال مصرا على جرها من خلال كتالوج عن الجلوس احتجاجا والمسيرات وتمردات أيام السبت مع توجيه الأسئلة عن كل حالة فيما يتعلق بما أسماه «بالمناظرة والنقاش» الكامن وراء تصرفاتها .

فردت عليه في برود : بحق السيد المسيح توقف عن محاولة تقييمنا . هل هذا ممكن ؟ فنحن لسنا منطقيين ولسنا على علم ومعرفة دقيقة بالأوضاع. ولسنا منظمين .

فقال كيرتز في شفقة ملائكية : إذن فعلى أى نحو انتم ؟

– نحن مجرد أناس . مجموعة أناس . مجموعة من الآدميين المراهقين هل فهمت ؟ إذن توقف عن مضايقتي !

– يا تشــارلي . من المؤكد أننا لا نضايقك . ولا أحد هنا يحاول أن يضايقك .

نحن ندخل في حرب مختلفة . نخوض حرباً حقيقية . إن المسألة ليست بمثابة قوة ضد قوة أخرى . وليست كتلة شرقية في مواجهة كتلة غربية . وإنما الحرب هي حرب الجياع ضد الخنازير . وحرب العبيد ضد الطغاة . وأنت تعتقد انك حر . أليس كذلك . ان السبب في ذلك أن شخصا ما آخر مكبلا بالقيود والأغلال . وأنت تأكل ولكن شخصا ما آخر يتعرض للموت جوعاً .أنت تجرى ولكن شخصا ما آخر يضطر للوقوف في مكانه ينبغي علينا أن نغيِّر كل هذه الأوضاع الخاطئة .

كانت تؤمن بهذه الأفكار ذات يوم وربما ما زالت تؤمن بها .لقد عاشت التجربة . ومازالت التجربة واضحة في داخل ذهنها . لقد طرقت على أبواب الغرباء . وشاهدت العداوات تزول عن وجوههم . آمنت بهذه الأفكار . وشاركت في المسيرات من أجل هذه الأفكار ، فالناس لهم الحق في تحرير عقول الآخرين وتحرير بعضهم البعض من المستنقع الجارف للرأسمالية والعنصرية والتحول نحو بعضهم البعض في زمالة طبيعية غير اجبارية .

أضافت تشارلى : وليس من الملائم أن يكون هناك أناس لم نتقابل معهم على الإطلاق أو نسمع عنهم أو نمنحهم أصواتنا ومع ذلك يقومون بتدمير العالم من حولنا . ونحن ضد الديكتاتوريين سواء أكانوا جماعات من الناس أو دول أو مؤسسات . ونحن ضد سباق التسلح وضد الحرب الكيماوية وضد أى جانب من جوانب لعبة الكارثة .

لا نؤمن بضرورة أن تكون الدولة اليهودية بمثابة حامية أمريكية استعمارية. ولا نؤمن بأن العرب بمثابة أناس متوحشين وشيوخ بترول متفسخين . ولذلك فنحن نرفض كل هذه الأوضاع الخاطئة ونرفض التحيزات والتعصب والانحياز . والرفض هنا هو رفض ايجابى . أليس كذلك ؟

تساءل كيرتز : كيف يتم تدمير العالم ؟ ما هى الكيفية على وجه الدقة ياتشارلى ؟

– عن طريق تسميم وحرق العالم وإفساده بالأمور التافهة ، ومن خلال الاستعمار وتخريب عقول الطبقة العمالية ثم قالت لنفسها : ومن خلال أمور أخرى سوف أتذكرها حالاً . وأضافت : لا داعى لأن تسألنى عن أسماء وعناوين أكبر خمسة أساتذة لى . لأن هؤلاء المعلمين أو الأساتذة موجودون داخل صدرى . ولا داعى لأن تسخر منى عندما لا أستطيع تلاوة تعاليم شى جيفارا عليكم طوال هذه الليلة اللعينة . عليك فقط أن تسألنى عما إذا كنت أرغب للعالـــم أن يبقى على قيد الحياة ولأطفالى أن يبقوا علىّ ...

تساءل كيرتز فى اهتمـــام ! هل باستطاعتك تلاوة تعاليم جيفارا من الذاكرة ؟ يا تشارلى ؟

– بالطبع لا .

فترامى صوت يوسف من ورائها حيث قال : إذا كانت قد قرأت من قبل تعاليم جيفارا فباستطاعتها أن تتلوها . فهى ذات ذاكرة ممتازة . فبمجرد أن تسمع شيئا فإنه يرسخ فى داخل ذهنها . باستطاعتها أن تحفظ كل أقواله وكتاباته فى خلال أسبوع إذا رغبت فى ذلك .

لماذا تكلم يوسف ؟ أكان يحاول تلطيف وتهدئة الأمور ؟ أكان يحاول تحذيرها ؟ لم تكن تشارلى فى حالة نفسية تسمح لها بالانتباه لرقته والاهتمام بذكائه . هذا بالإضافة إلى أن كيرتز وليتفاك راحا يتشاوران باللغة العبرية . .

قالت تشارلى : لو سمحتما . أرجو أن تتحدثا باللغة الانجليزية أمامى . ممكن؟

فقال كيرتز «دقيقة من فضلك ياعزيزتى» ثم استأنف الكلام باللغة العبرية .

قال : لدينا فى هذا الملف ما يمكن أن يسمى بالمقدمة الأساسية للفوضوية (*) الكلاسيكية على النحو الذى ظهرت عليه فى القرن الثامن عشر إلى أن وصلت إلى الوقت الحالى .

ثم أضاف قائلا : وهى تتناول ردود الفعل القوية التى تظهر ضد الخضوع لنسق موحد . علاوة علي الاعتقاد الراسخ أن الحكومة بمثابة الشر، وبالتالى فإن الدولة التى تضم أمة هى شر أيضاً . بمعنى أن الحكومة والدولة يتعارضان سويا مع النمو الطبيعى والحرية الطبيعية للفرد . ويمكن لك أن تضيفى إلى هذا بعض الأوضاع الحديثة . مثل ردود الفعل القوية ضد الملل والسأم وضد الازدهار وضد ما يعرف باسم التعاسة المكيفة الهواء للرأسمالية الغربية . ويمكن لك أن تذكرى نفسك بالبؤس الحقيقى الذى يعيشه ثلاثة أرباع سكان الكرة الأرضية . هل تريدين أن تواجهى ذلك ؟

فتجاهلته ، وراحت تنظر فى ابتسام إلى أظافرها . راغبة فى أن تقول وما فائدة النظريات والمعتقدات بعد أن استولت الفئران على السفينة .

واستطرد كيرتز : ويمكننى القول أن عالم اليوم يتيح أمامك المزيد من الأسباب القوية التى تجعلك تتمسكين بوجهة النظر هذه لأن الدول فى هذه الأيام

---

* الفوضوية نظرية سياسية تقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها وتنادى بإقامة مجتمع يرتكز على التعاون الطوعى بين الأفراد والجماعات .

أصبحت أكثر قوة عن ذى قبل . ونفس الشئ ينطبق على المؤسسات وعلى فرص الخضوع لنسق موحد .

أدركت أنه يحاول أن يسحبها ويجرها ويقودها ولكنها لم تكن لديها وسيلة تعينها على إيقافه . كان يتوقف أثناء الكلام كى يتيح لها الفرصة لإبداء التعليقات. الا أنها اكتفت بالاشاحة بوجهها بعيداً عنه مع إخفاء عدم الأمان لآخذ فى االتزايد فى داخلها وراء قناع من السلبية الغاضبة .

استطرد كيرتز : «وأنت تعارضين الجموح والجنون التكنولوجى : حسناً . لقد سبقك إلى ذلك ألدوس هكسلى بالفعل . وأنت تهدفين إلى إطلاق الدوافع البشرية التى لا تتسم بالمنافسة أو الروح العدوانية . لكن لكى تفعلى هذا ينبغى عليك أولا أن تقضى على الاستغلال . ولكن كيف ؟»

ثم توقف عن الكلام . وأصبح توقفه عن الكلام أكثر تهديداً لها من كلماته . كانت بمثابة توقفات لوقع أقدام تتجه نحو المشنقة .

فقالت : كفّ عن التظاهر والادعاء بمناصرتى وتأييدى فى الرأى عليك بالتوقف !

فاستطرد كيرتز فى شىء من روح الفكاهة ان مسألة الاستغلال هذه جعلتنا نعتقد أنك تحولت من الفوضوية المراقبة إلى الفوضوية الممارسة إن صح هذا التعبير . ثم التفت نحو ليتفاك محاولاً اثارته ضدها حيث قال له : هل لك تعليق حول هذه النقطة يا مايك ؟

فقال ليتفاك يمكننى القول إن الاستغلال هو المسألة المسموعة الواضحة يا مارتى . وبالنسبة لموضوع الاستغلال يمكن لك أن تقرأ الجزء الذى يتعلق بالملكية . فالمستغل فى بادئ الأمر يضرب العبد الأجير على رأسه من خلال ثروته الهائلة . وبعدئذ يقوم بعمل غسيل مخ له بحيث يجعله يعتقد أن السعى للحصول على الملكية هو حافز قوى يؤدى إلى تحطيمه عند حجر الرحى . وبهذه الطريقة يطعنه مرتين .

فقال كيرتز فى ارتياح : هذا عظيم . اذن فالسعى للحصول على الملكية شر مستطير . وبالتالى فالملكية ذاتها شر . وأولئك الذين يحمون الملكية أناس أشرار ونظرا لأن الانسان يجاهر صراحة بأنه لا يصبر على العملية الديموقراطية التطورية فإنه يرغب فى نسف الملكية واغتيال الأغنياء . فهل تتمشى أفكارك مع ذلك يا تشارلى ؟

- لا تكن إنسانا سخيفا .

فظهرت مشاعرالإحباط على كيرتز ، وقال « هل تقصدين أنك ترفضين الاطاحة بالدولة السارقة يا تشارلى ؟ ماذا فى الأمر ؟ . هل تشعرين بالخجل فجأة ؟» . ثم التفت نحو ليتفاك وقال له ماذا يا مايك ؟

قال ليتفاك : إن الدولة تكون استبدادية وظالمة . هذا هو نص الكلام الذى قالته تشارلى على وجه الدقة .لقد أشارت إلى العنف الذى تمارسه الدولة وإلى الإرهاب الذى تقوم به والديكتاتورية التى تلتزم بها .

قالت تشارلى : ذلك لا يعنى أننى أقوم باغتيال الناس وسرقة البنوك اللعينة. ما هذا أيها السيد المسيح ؟

فقال كيرتز : يا تشارلى . لقد أوضحت لنا أن قوى القانون والنظام ليست سوى الحاكم الثانوى المستبد لسلطة زائفة .

قال ليتفاك مذكرا كيرتز : لقد سبق لها أن قالت أيضا إن العدالة الحقيقية غير متاحة لجماهير الناس من خلال المحاكم .

قالت تشارلى : العدالة غير متاحة ! والنظام بأكمله شبيه بلعبة القمار. وهو نظام فاسد .

تساءل كيرتز فى ابتهاج : اذن لماذا لا تقومين بتدمير النظام واطلاق الرصاص على كل رجل شرطة يحاول منعك ؟ بل وعلى كل رجل شرطة لا يحاول أن يمنعك ؟ ولماذا لا تقومين بنسف الاستعماريين والامبرياليين فى أى مكان تعثرين فيه عليهم ؟ أين هى أمانتك المتبجحة ؟

قالت فى إصرار : لا أريد نسف أى شئ . أريد السلام وأريد للناس أن يعيشوا أحراراً .

ويبدو أن كيرتز لم يستمع لكلامها حيث قال : «لقد خيبت ظنى فيك يا تشارلى . فها أنت فجأة لا يوجد لديك التوافق بين الفكر والعمل . لقد وضعت المفاهيم الذهنية . فلماذا لا تنطلقين وتعملين على تطبيقها عمليا ؟ لماذا لاتقومين بالنسف والاغتيال ؟ ونسف مراكز الشرطة على سبيل المثال لصالح أولئك الذين يرزحون تحت استعباد لوردات الرأسمالية ؟ أنت الروح المتحررة هنا . لا تقدمى لنا الأقوال والكلام . ولكن قدمى لنا الأعمال .

وصلت هذه الملاطفة الملوثة التى قام بها كيرتز إلى تعاظم جديد . أصبح باستطاعة تشارلى أن تقاتله بالكلام أيضاً مع محاولة التخلص منه والخروج إلى الحرية فقالت له «استمع الىّ . إننى انسانة سطحية وغير مطلعة . أتدرك ما أقول يا مارت ؟ إننى جاهلة وأمية . ولا أستطيع أن أضيف . أو أحلل أو أسوق الحجج والبراهين . لقد تعلمت فى مدارس خاصة ولكنى أتمنى لو كنت قد ولدت فى شارع خلفى فى ميدلاند . وتمنيت لو كان والدى قد عمل فى أعمال يدوية مستخدما يديه بدلاً من سرقة مدخرات السيدات الطاعنات فى السن ! لقد سئمت من غسيل المخ الذى يجرى علىّ . أريد الذهاب للنوم الآن !

– هل تقولين لى إنك تستنكرين وتشجبين آراءك المعلنة الصريحة يا تشارلى؟

– ليس لدى آراء معلنة وصريحة

– ليس لديك

– ليس لدى

– لا موقف معلن . ولا التزام باستخدام العنف من أجل تنفيذ الأهداف السياسية . ولا شئ سوى أنك غير منحازة .

- نعم

أضاف كيرتز : غير منحازة سلميا . إذن فأنت تنتمين إلى رجال السياسة المعتدلين الذين يحتلون مركزا متوسطا ما بين اليمين واليسار .

وراح كيرتز يفك أزرار جيب سترته فى بطء . ثم أدخل أصابعه وأخرج قصاصة مطوية مأخوذة من جريدة . ثم قال : يا تشارلى . لقد سبق لك أن قلت إنك بالاشتراك مع «آل» قد حضرتما مؤتمرا جماهيريا فى مكان ما في دورسيت . ولقد وصفت ذلك المؤتمر بأنه بمثابة حلقة دراسية فى مجال التفكير الراديكالى . هل يمكن لنا أن نتناول ذلك فى شئ من التفصيل؟

ثم راح كيرتز يقرأ فى صمت القصاصة الصحفية وهو يهز رأسه من وقت لآخر كأنه يقول «حسناً . حسناً» . يا له من مكان مهم لعقد الاجتماع والتدريب على الأسلحة باستخدام بنادق كاتمة للصوت . ووسائل التخريب . واستخدام المواد اللدائنية بدلاً من المواد الحقيقية .وكيفية العيش فى تنكر وتخفى . وكيفية البقاء على قيد الحياة . وفلسفة الفدائيين الذين يعملون بالمدن . هذا التحقيق الصحفى صحيح الى حد ما أم هل أننا نتعامل مع المبالغات التى تتسم بها الصحافة الصهيونية الرأسمالية هنا ؟ .

.. ..

لم تعد هى تؤمن بنواياه الطيبة لم يكن يرغب لها أن تؤمن بذلك . وكان كيرتز يهدف آنئذ أن يخيفها من تطرف آرائها ويرغمها على الهروب من مواقف لم تكن تدرك أنها اتخذتها هناك استجوابات تدار من أجل استخلاص الحقائق ولكن هناك استجوابات أخرى تتم من أجل استخلاص الأكاذيب .. وكان كيرتز يريد الأكاذيب . وتساءل نريد منك أن تعطينا صورة تتسم بالمزيد من الموضوعية . ممكن؟

فقالت تشارلى فى جرأة وتحدٍ متخذة أول انسحاب لها - كان ذلك المشهد خاصاً بـ «آل» وليس خاصا بى

- ولكنكما ذهبتما سويا

- لقد كان ذلك مجرد عطلة نهاية أسبوع رخيصة الثمن فى الريف فى وقت كنا فيه مفلسين ماديا هذا هو كل ما فى الأمر .

فتمتم كيرتز قائلاً كل ما فى الأمر وتركها مع صمت ثقيل للغاية .

قالت فى احتجاج : لم يكن الأمر يقتصـــر علىّ أنا وهـــو فقط وانما كان ...... يا إلهى . لقد كان عددنا عشرين فرداً شبابا وممثلين . وبعضهم كان لا يزال يدرس بمعهد التمثيل . وكانوا يستأجرون أتوبيساً ويأخذون معهم بعض الحشيش ويلعبون لعبة الأسرة الموسيقية حتى الصباح . فما هو الخطأ فى ذلك ؟

ولم يكن لدى كيرتز رأى آنئذ فيما يتعلق بما هو خاطئ ازاء أى شئ.

وأضاف .. وماذا كنت أنت شخصيا تفعلين ؟ هل كنت تقودين الأتوبيس ؟ سمعنا أنك تجيدين القيادة ؟

- كنت مع «آل» . كما قلت لك . وكان المشهد خاصا به وليس خاصا بى . كانت قد بدأت تفقد السيطرة على كيانها . وبدأت فى التخاذل والسقوط . لم تعرف كيف تعرضت للهبوط أو من الذى طرق على أصابعها ، وربما انها تعرضت فجأة لنوبة من الإرهاق .

- وكم عدد المرات التى انغمست فيها فى هذا الأسلوب يا تشارلى ؟ الانغماس فى المتعة البالغة وتدخين الحشيش والانغماس فى الحب المنطلق بينما آخرون منهمكون فى التدريب على ممارسة الارهاب ؟ تتكلمين كما لو أن ذلك كان أمرا اعتياديا . أهذا صحيح ؟

- لا . انه ليس أمرا مألوفا واعتياديا . فقد انتهى ذلك تماما . وأنا نفسى لم أنغمس وانهمك فيه !

- كم عدد المرات التى حدث فيها ذلك ؟

- مرتين وذلك كل ما فى الأمـــر ، وبعد ذلك اجتاحنى الخوف والرعب .

وبدأت تشارلى تشعر بالتهاوى والدوار . وأصبح الظلام أشد إظلاما . وكان الهواء موجوداً حولها من كل جانب ولكنه لا يلمسها .

أخرجنى من هذا الجحيم يا يوسف ! ولكن يوسف هو الذى أدخلها إلى ذلك الجحيم . راحت تصغى لكى تسمع كلاما صادراً عنه . وبعثت برسائل اليه صادرة عن الجزء الخلفى من رأسها . ولكنها لم تتلق رداً على رسائلها .

وكرر كيرتز فى تفكير : مرتان . أهذا صحيح يا مايك ؟

فرفع ليتفاك بصره عن أوراقه وقال وكأنه يردد صدى الصوت : مرتان .

فتساءل كيرتز : ولماذا شعرت بالخوف والرعب ؟ وبدون أن يرفع بصره عنها مد يده ليأخذ ملف الأوراق الموجود أمام ليتفاك .

فقالت وهى تخفض من صوتها بهدف إحداث تأثير : لقد كان مشهدا عاصفا .

فقال كيرتز وهو يفتح الملف : يبدو الأمر كذلك .

– لا أقصد من الناحية السياسية . وانما أعنى الجنس . لقد كان يفوق ما أردت أن أتناوله . ولا تكن أحمق .

لعق كيرتز إصبع إبهامه . وطوى صفحة من الملف ثم لعق ابهامه مرة أخرى . وطوى صفحة أخرى . وتحدث فى تمتمة ببعض الكلام مع ليتفاك الذى رد عليه ببعض الكلمات . ثم أغلق الملف ذا اللون الأصفر البرتقالى ووضعه فى الحقيبة . وقال مترنما فى تفكير مرتين . وذلك هو كل ما فى الأمر . وبعدئذ بدأت أشعر بالخوف والرعب أتريدين تعديل وتغيير هذه العبارة ؟

– ولماذا ينبغى علىّ أن أغيرها ؟

– (مرتان) . أهذا صحيح ؟

– ولماذا ينبغى ألا تكون هذه العبارة صحيحة ؟

– مرتان . أليس كذلك ؟

وتراقص الضوء فوقها . أو كان ذلك التراقص صادراً من داخل ذهنها ؟ تعمدت الاستدارة فى كرسيها . فشاهدت يوسف منحنيا على لمبة مكتبه مشغولاً للغاية لدرجة أنه لم ينظر لأعلي . فاعتدلت فى جلستها واكتشفت أن كيرتز لا يزال يحملق منتظراً اجابة منها .

فقالت : مرتين أو ثلاث مرات ما هذا الجحيم ؟ أوف !

– أربع مرات ؟ وهل كلمة «زوجان» تعنى أيضا أربعة ؟

– أوه . أصبحت أشعر بالتشويش والحيرة !

– أعتقد أن الأمر يتعلق باللغويات ، لقد زرت عمتى زوجين من المرات فى السنة الماضية حسنا . ذلك قد يعنى ثلاث مرات . أليس كذلك؟ وقد يعنى أربع مرات . وقد يعنى خمس مرات . وخمس مرات هى فى الحدود المعقولة. واستمر فى تفحص أوراقه ، ثم قال «أتريدين ادخال تغيير بحيث تجعلى عدد المرات نصف دستة يا تشارلى ؟»

– لقد قلت زوجين من المرات . وأنا أعنى ذلك على وجه الدقة

– مرتان فقط ؟

– نعم . مرتان

– إذن هما مرتان فقط . نعم لقد حضرت هذا الاجتماع الجماهيرى فى مناسبتين فقط . وربما انهمك آخرون فى ممارسات لها الطابع الحربى القتالى . إلا أن اهتماماتى كانت اهتمامات جنسية ترفيهية ترويحية اجتماعية . آمين توقيع : تشارلى . أتود تحديد تاريخ هاتين الزيارتين ؟

ثم ذكرت تاريخا فى السنة الماضية عقب توصلها إلى اتفاق بينها وبين «آل» مباشرة .

– وما هو تاريخ الزيارة الأخرى ؟

– نسيت . وما أهمية ذلك ؟

– إنها نسيت .

وكان صوته بطيئا . ولكنه لم يفقد أى قدر من قوته . تخيلت صوته وهو يتحرك فى تثاقل نحوها مثل حيوان أخرق بشع . وأضاف هل جاءت ، الزيارة الثانية بعد الزيارة الأولى بفترة قصيرة ، أم كانت هناك فترة زمنية طويلة بين الزيارتين؟

– لست أدرى

– إنها لا تدرى . وعطلة نهاية الأسبوع الأولى الخاصة بك كانت بمثابة محاضرات تمهيدية للمبتدئين والتعرف عليهم . هل هذا صحيح ؟

– نعم

– وعلى من تم تعريفك ؟

– لقد سبق أن قلت لك – مجموعة الجنس الجماعى .

– لا مناقشات . ولا أبحاث . ولا تثقيف وتعليم ؟

– نعم . لقد عقدنا مناقشات .

– وما هى الموضوعات التى نوقشت ؟

– المبادئ الأساسية .

– المبادئ الأساسية لأى شئ ؟

– المبادئ الأساسية للراديكالية .

– هل تذكرين الذين كانوا يحاضرون ويلقون الكلمات ؟

– امرأة مليئة بالمساحيق تكلمت عن تحرير المرأة . وتحدث رجل اسكتلندى عن كوبا . وقد أعجب آل بهذا الرجل

– وفى المناسبة الثانية والأخيرة والتى نسيت تاريخها من الذى ألقى المحاضرات والكلمات فى تلك المرة ؟

لا إجابة .

– نسيت هذا أيضاً ؟

– نعم .

– ذلك شئ غير طبيعى . أليس كذلك ؟ فهل من المعقول أن تتذكرى المناسبة الأولى بما فيها من جنس وموضوعات المناقشة والمدرسين والمحاضرين بينما المناسبة الثانية لا تذكرين أى شئ عنها على الإطلاق ؟

– بعد أن ظللت طوال الليل منخرطة فى الاجابة على أسئلتكم المجنونة لا يكون هذا أمراً غير عادى

تساءل كيرتز : إلى أين أنت ذاهبة ؟ أتريدين الذهاب الى الحمام ؟ يا راشيل اصطحبى تشارلى إلى الحمام .

وكانت تشارلى واقفة . ومن بين الظلال سمعت وقع أقدام خافتة تقترب منها :

– سأغادر هذا المكان . وأمارس اختياراتى . أريد الخروج الآن .

– اختياراتك سوف تمارس عند مراحل محدودة وعندما ندعوك إلى ذلك فقط . واذا كنت قد نسيت أسماء من توجهوا بالحديث اليكم فى حلقة البحث الثانية التى حضرتها فلربما تذكرين لى على الأقل طبيعة هذه الدروس والمحاضرات .

وكانت لا تزال واقفة . نظرت فيما حولها فشاهدت يوسف . وقد أسند رأسه . وكان وجهه مبتعداً عن ضوء المصباح . ثم وضعت يديها على المنضدة واستندت إلى الأمام . كانت موجودة فى كنيسة غريبة . دون أن يكون لديها أصدقاء يوجهون اليها النصح والارشاد دون أن تعرف ما إذا كان عليها أن تقف معتدلة أو تركع . إلا أن صوت كيرتز ظل موجودا فى كل مكان ولم يكن الأمر يهم سواء سجدت على الأرض أو طارت من خلال النافذة ذات الزجاج المتسخ ومنها

إلى مسافة مائة ميل . إذا لم يكن أى مكان فى مأمن من الاقتحام الذى يصم الاذان . ثم رفعت يديها عن المنضدة ووضعتهما خلف ظهرها مع الإمساك بهما فى إحكام لأنها تكاد تفقد السيطرة على حركاتها . الأيدى ذات أهمية فهى تتكلم وتمثل شعرت بيديها تهدئان من روع بعضهما البعض مثل الأطفال الخائفين . بينما كيرتز يسألها عن قرار .

– ألم توقعى على القرار يا تشارلى ؟

– لست أدرى .

– ولكن يا تشارلى يوجد هناك دائما قرار يتم اتخاذه عقب انتهاء الجلسة أو الاجتماع . اذ تكون هناك دائما مناقشات . ويعقب ذلك إصدار قرار . فما هو القرار الذى صدر ؟ وأنت تحاولين أن تقولى لى إنك لا تعرفين عن أى شئ كان يدور هذا القرار . بل أنت لا تعرفين عما إذا كنت قد وقعت على ذلك القرار أم لا ؟ ربما تكونى رفضت التوقيع عليه ؟

– لا .

– يا تشارلى . كونى إنسانة معقولة وحكيمة . كيف يمكن لإنسانة فى مثل ذكائك أن تنسى مثل هذا القرار الرسمى عقب حلقة بحث استمرت ثلاثة أيام؟ وهو قرار يتعلق بسلسلة من الأحداث المتسمة بالكد والاجتهاد لماذا تصبحين غامضة هكذا فجأة ؟

كانت مرهقة إلى درجة الإغماء . وأرادت أن تجلس مرة أخرى . إلا أنها التزمت بمواصلة الوقوف . ترغب فى الحصول على فترة من الراحة وبعض الوقت لإصلاح زينة وجهها . وكانت بحاجة لأن تنام خمس سنوات .

وأسفلها كان كيرتز قد استخرج لنفسه ورقة جديدة من حقيبته . وراح ينظر إلى الورقة فى قلق . ثم قرر أن يوجه كلامه إلى ليتفاك : لقد قالت إنهما مناسبتان فقط . أليس كذلك ؟

فقال ليتفاك كان الحد الأقصى هو اثنتان فقط . وقد أتحت لها كل الفرص لكى ترفع المزايدة . إلا أنها أصرت على اثنتين فقط .

– وما هو الرقم الذى نتخذه ؟

– خمسة

– إذن من أين جاء ت هى بالرقم : اثنان ؟ «فقال ليتفاك موضحا» إنها تدرك حقيقة الأمور بنسبة ٢٠٠٪ .

فقال كيرتز فى بطء إذن فهى تكذب علينا . فقال ليتفاك : انها تكذب بكل تأكيد .

فقالت تشارلى : لم أكذب . لقد نسيت فقط ! وكان الأمر يتعلق بـ «آل» فقد ذهبت من أجل آل . وذلك هو كل ما فى الأمر !

– أترغبين فى الجلوس ؟

– لا .

ظهرت مشاعر الحزن على وجهه عندما رفضت الجلوس ثم قال :

«يا تشارلى لم أعد أستطيع أن أفهمك . وبدأت ثقتى فيك تنحسر وتقل وتتدهور .

– فلتتدهور هذه الثقة اللعينة ! إبحث لنفسك عن شخص ما آخر لكى تعامله فى قسوة واستبداد ! ولماذا ينبغى علىّ أنا بالذات أن أدخل فى لعبات سخيفة مع مجموعة من السفاحين الإسرائيليين ؟ اذهبوا لتفجير المزيد من العرب من خلال السيارات الملغومة . أخرجوا من دماغى ولا تضايقوننى إننى أكرهكم . أكرهكم جميعاً !

«فقال كيرتز» إننى لا أفهم هذا التملص وتلك المراوغة التى تقومين بها . ولا أفهم ذلك التناقض والتعارض بين تشارلى الموجودة أمامنا الآن وبين تشارلى الموجودة فى داخل أوراقنا وسجلاتنا . إن زيارتك الأولى لهذه المدرسة الثورية قد

تمت فى ١٥ يوليو فى العام الماضى . وتم تقديم حلقة دراسية لمدة يومين من أجل المستجدين عن موضوع يتعلق بالاستعمار والثورة وتشير الأوراق إلى أنكم جميعا ذهبتم بالأتوبيس . وكنتم مجموعة من الناس المهتمين بالتمثيل وكان آلستير (آل) موجودا معكم . أما زيارتك الثانية فقد تمت بعد شهر . وكان معكم أيضا آلستير . وفى هذه المرة فانك ومعك زملاؤك وزميلاتك من الطلبة والطالبات قد استمعتم لمحاضرة ألقاها مغترب بوليفى رفض أن يذكر اسمه . كمااستمعتم أيضا لشخص آخر مجهول الاسم ادعى انه يتحدث نيابة عن الجناح المؤقت للجيش الجمهورى الأيرلندى . وأنت قد قمت بالتوقيع على شيكين شخصيين – وقيمة كل شيك منهما بمبلغ خمسة جنيهات كإعانة مالية لهاتين المنظمتين . ونحن لدينا هنا صورة منسوخة لهذين الشيكين .

– كان ذلك التبرع من أجل آل . لأنه كان مفلسا !

– ثم ذهبت للمرة الثالثة بعد مرور شهر حيث شاركت فى مناقشات مثيرة للحزن والشفقة للغاية تتعلق بكتب المفكر الأمريكى ثورو. وقد اتخذت المجموعة قراراً فى تلك المناسبة يفيد بأن ثورو يعتبر مفكرا مثاليا ولديه فهم عملى ضئيل بالمذاهب الفكرية التى تنادى باتخاذ اجراءات العنف وبالتالى فهو مفكر غير ملائم. قد وافقت على ذلك القرار . بل وبادرت باتخاذ قرار تكميلى يدعو إلى اتخاذ المزيد من الراديكالية من جانب جميع الرفاق والزملاء.

– فعلت ذلك من أجل «آل» . وكنت أريد منهم أن يقبلونى ! كنت أرغب فى إدخال السرور والبهجة على آل ! ثم نسيت كل ذلك فى اليوم التالى !

ثم جاء شهر أكتوبر . فذهبت أنت وآلستير إلى هناك . وفى هذه المرة كان الذهاب من أجل حضور جلسة حول موضوع : الفاشستية البرجوازية فى المجتمعات الغربية الرأسمالية . وقد قمت أنت بدور قيادى رئيسى فى المناقشات مع إدخال البهجة والسرور على الرفاق الحاضرين من خلال قيامك بسرد حكايات وهمية خرافية تتعلق بوالدك المجرم ووالدتك التافهة وتنشئتك وتربيتك المليئة بإجراءات القمع والكبت بوجه عام .

توقفت تشارلى عن الاحتجاج عن التفكير أو المشاهدة . ولكنها لم تستطع التوقف عن الإصغاء لأن صوت مارتى (كيرتز) لم يسمح لها بذلك .

وفى الاجتماع الأخير الذى تم فى شهر فبراير من هذا العام . قمت أنت وآلستير فى هذا الاجتماع بتوجيه الشتائم لدولة اسرائيل. وكانت المناقشات مقصورة فى هذه المرة على التوسع الذى تنتهجه الصهيونية العالمية وروابط الصهيونية العالمية بالاستعمار الأمريكى . وكانت الشخصية الرئيسية فى هذا الاجتماع هو جنتلمان يمثل الثورة الفلسطينية ولكنه رفض أن يذكر اسم الجناح الذى يمثله والذى هو جزء من تلك الحركة الثورية العظيمة الكبرى . بل ورفض أيضاً أن يكشف النقاب عن اسمه أو ملامحه حيث كان متخفياً وراء خوذة سوداء مما أعطاه طابعا متسما بالشر والشؤم . أمازلت غير قادرة على تذكر هذا المتحدث ؟ .

وتوقف عن الكلام للحظات لكى يتيح لها الفرصة للرد . ولكنه استطرد مرة أخرى : لقد كان الموضوع الذى تطرق إليه يتناول حياته الشخصية البطولية الخاصة به من حيث هو محارب عظيم وقاتل للصهاينة . ولقد قال ذلك الرجل (إن بندقيتى هى جواز سفرى إلى وطنى) كما قال (نحن لم نعد لاجئين ! وانما نحن الثوريون) . ولقد تسبب فى اثارة الذعر بين الحاضرين حتى أن بعض الحاضرين – وأنت لست منهم – شعروا أنه قد تمادى وتجاوز بعض الشئ .

وتوقف عن الكلام ولكنها لم تتكلم . فحرك ساعته لكى تكون قريبة منه . ثم ابتسم لها فى ضعف وقال : لماذا لا تقولى لنا كل هذه الأمور يا تشارلى ؟ ولماذا تنتقلين فجأة من موقع لآخر دون أن تعرفى الأكاذيب التى ستقولينها لنا فى المرة التالية ؟ ألم أؤكد لك أننا بحاجة إلى الماضى الخـــاص بك ؟ وأننا نحب ذلك الماضى إلى درجة كبيرة .

وانتظر فى صبر سماع رد منها . ولكن دون جدوى . فأضاف قائلاً : نحن نعرف أن والدك لم يدخل السجن على الإطلاق . ونعرف أن أحداً لم يأخذ الحصان،

الخاص بك . ونعرف أن والدك المسكين عانى من إفلاس ضئيل، ولم يتسبب فى أية متاعب لأحد باستثناء اثنين من مديرى البنوك المحليين . ونعرف أن والدتك ظلت زوجة فخورة بزوجها ومخلصة له . ونعرف أن افلاس والدك لم يكن هو السبب فى طردك من المدرسة ولكنك أنت التى تسببت فى طردك من المدرسة لأنك جعلت جسدك مطية للكثيرين من الأولاد الموجودين فى المدينة المحلية . فترامت الأخبار إلى هيئة التدريس . وبالتالى تم طردك بسرعة من المدرسة على أساس أنك عنصر فاسد ملئ بالفضائح، وأعادوك إلى والديك اللذين تجاوزا عن الانتهاكات التى قمت بها وبذلا كل الجهد لكى يصدقا كل شئ قلتيه لهما . وعلى مدى السنين قمت بتلفيق حكاية خيالية ساذجة عن هذا الحادث لكى تجعلى الأمر معقولاً ومحتملاً . ثم أصبحت تصدقين الأكاذيب التى قمت بترويجها .رغم أن ذاكرتك السرية مازالت تحفر وتقلب وتدفعك نحو العديد من الاتجاهات الغريبة .ثم قام بنقل ساعته إلى مكان آخر من فوق المنضدة . واستطرد قائلا : نحن أصدقاء لك يا تشارلى . وهل تظنى أننا سنوجه لك فى أى وقت من الأوقات اللوم على مثل هذه الأمور ؟ . وهل تظنى أننا لا ندرك أن سياساتك بمثابة تجسيد وتدبير للبحث عن أبعاد وردود فعل لم تقدم لك عندما كنت فى مسيس الحاجة إليها ؟ نحن أصدقاؤك يا تشارلى . ليس لنا مقدرة متوسطة أو براعة ضئيلة . ولسنا متسمين باللامبالاة . ولسنا ملتزمين بأعراف الكنيسة الانجليزية . نحن نريد أن نستفيد منك . فلماذا تجلسين هناك وتخدعيننا بينما نحن جميعا نرغب فى أن نسمع منك الحقيقة الموضوعية البحتة من البداية إلى النهاية ؟ ولماذا تسببين الإعاقة لنا نحن اصدقاؤك بدلا من أن تقدمى لنا ثقتك الكاملة ؟

وتصاعد الغضب في داخلها . فاتخذت خطوة الى الأمام . ورفعت جماع يدها لكى تضربه فى عنف . إلا أنه كان مخيفا ورهيبا للغاية بالإضافة إلى أنها كان يوجد وراءها عمل غير مستكمل .

صحيح أن كيرتز من خلال إغوائه المتعمد لها هو الذى أشعل عود الثقاب الذى أدى إلى انفجارها . الا أن مغازلة يوسف المخادعة وصوته الخفى هو الذى أدى إلى إذلالها الحقيقى . فاستدارت فيما حولها . واتخذت خطوتين فى اتجاهه

وانتظرت أن يتقدم أحد لإيقافها . ولكن أحداً لم يعترضها . فطوحت بقدمها لأعلى ورفست المنضدة . وشاهدت مصباح المكتب وهو يطير في الهواء ثم ينطفئ في فرقعة مثيرة للدهشة . وجذبت جماع يدها إلى الوراء وانتظرت أن يدافع يوسف عن نفسه . ولكنه لم يفعل لذلك قامت بالهجوم عليه فى المكان الذى يجلس فيه وأمسكته من عظمة خده بكل ما لديها من قوة . وكانت تصرخ فى وجهه بكل ما لديها من شتائم قذرة. كانت تتمنى لو أنه رفع يده و ضربها على ظهرها . ثم قامت بضربه مرة أخرى بيدها الأخرى محاولة ايذاء كل جسده . وانتظرت أن يقوم بالدفاع عن نفسه . إلا أن عينيه البنيتين المألوفتين استمرتا فى النظر إليها فى نفس ثبات أضواء الشاطئ أثناء هبوب عاصفة . فقامت بضربة ثانية بقبضة يديها شبه المغلقة . فشعرت بالألم الشديد يسرى فى مفاصل أصابعها . ولكنها شاهدت الدماء وهى تسيل أسفل ذقنه . وكانت تصرخ قائلة له «يا ابن الزنا يا فاشستى !» ظلت تكرر هذه العبارة مرات عديدة . إلى أن شعرت بتبدد قواها وتقطع أنفاسها . ثم شاهدت راؤول، الولد الهيبى، واقفاً فى المدخل . كما شاهدت روز تتخذ موقعاً لنفسها أمام النوافذ الفرنسية وقد نشرت ذراعيها لكى تكون على استعداد فى حالة قيام تشارلى بالقفز من الشرفة . ثم سمعت صوت كيرتز وهو يصدر أوامره باللغة الانجليزية لكل فرد بالالتزام بالبقاء ساكناً فى مكانه . وشاهدت يوسف يستدير . ثم يسحب منديلاً من جيبه ويربت به فى رفق على شفتيه . وكان غير مبالٍ بها وكأنها مجرد طفلة شقية فى الخامسة من عمرها . وصرخت في وجهه مرة أخرى قائلة «يا ابن الزنا» . وضربته على صدغه ضربة قوية أدت إلى لوى معصمها وتخدير يدها . ولكنها آنئذ كانت قد أصبحت مرهقة ومتعبة للغاية، وشاعرة بالوحدة والاكتئاب . وكل ما كانت تريده هو أن يقوم يوسف بالرد عليها وضربها .

قال كيرتز فى هدوء وهو جالس على كرسيه : «استمرى فى ذلك يا تشارلى. لقد سبق لك أن قرأت مؤلفات فرانتز فانون . العنف هو قوة مطهرة .

أتذكرين ذلك ؟ فالعنف يحررنا من عقد الشعور بالنقص الموجودة لدينا . والعنف يجعلنا غير هيابين وغير خائفين ويعيد لنا احترام الذات .

ولم يكن أمامها سوى مخرج واحد . ولذلك اتخذت ذلك المخرج . إذ قوست كتفيها ووضعت وجهها بين يديها على نحو درامى وبكت فى غير عزاء إلى أن أصدر كيرتز إيماءة لراشيل . فجاء ت من عند النافذة ووضعت ذراعها حول تشارلى . وعندما اتجهت راشيل وتشارلى نحو المدخل قال كيرتز :

يمكن لها الحصول على راحة لمدة ثلاث دقائق فقط . ولا أكثر من ذلك مع عدم قيامها بتغيير ملابسها أو اتخاذ أية هوية جديدة . وتعود إلى هنا مباشرة . فأنا أريد للماكينة أن تستمر فى حالة تشغيل . يا تشارلى . توقفى حيث أنت لمدة دقيقة . انتظرى . لقد قلت : توقفى .

فتوقفت تشارلى . لكنها لم تستدر برأسها . وقفت بدون حراك وهى تسائل نفسها فى تعجب : ترى هل يقوم يوسف بعمل أى شئ إزاء الجرح الذى لحق بوجهه ؟

قال كيرتز : تهانينا لك يا تشارلى . لقد تعرضت للسقوط . لكنك سرعان ما استعدت توازنك . فقدت طريقك وكذبت وعندما انقطع الخيط ألقيت بنفسك فى موجة غضب وجعلت العالم كله هو المسئول عن متاعبك . ولقد أعجبنا بك . وفى المرة التالية سوف نبتكر لك قصة أفضل لكى تحكيها لنا . سارعى بالعودة الآن . حسناً ؟ لم يعد أمامنا سوى القليل من الوقت .

.. ..

وفى غرفة الحمام وقفت مستندة برأسها على الحائط . وانخرطت فى البكاء بينما كانت راشيل تعد وتجهز طست الماء من أجلها . أما روز فكانت تقف بالخارج من أجل أعمال الحراسة .

قالت راشيل بعد أن جهزت الفوطة والصابون : « إننى لا أعرف كيف تتحملين انجلترا وتصبرين عليها لمدة دقيقة واحدة . لقد أمضيت بها خمسة عشر

عاماً قبل أن نغادرها. وكنت أعتقد أننى سأتعرض للهلاك لو داومت على البقاء بها. هل تعرفين ماكليسفيد ؟ إنها الجحيم أو الموت بعينيه وهى على كل حال تعتبر جحيما بالنسبة لليهود . فهى مليئة بالصراع الطبقى والبرود والنفاق . وأنا أعتقد أن ماكليسفيد هى أتعس مكان على وجه الأرض بالنسة لليهودى . ولقد أعتدت أن أحك بشرتى بعصير الليمون أثناء وجودى فى الحمام لأنهم كانوا يقولون لى إننى زلقة وزيتية الملمس . لا تقتربى من ذلك الباب دون أن أكون معك يا عزيزتى والا اضطررت إلى منعك»

قال كيرتز «ميشا جافرون يبعث بتحياته لنا . ويبعث الينا بثلاث رسائل أخرى . الرسالة الأولى تفيد بأن منشآت معينة فى داخل لبنان سيتم ضربها غداً إلا أن أولئك الذين سيقومون بالضرب والقصف سيتجنبون المنازل التى تتعلق بأهدافنا . أما الرسالة الثانية فهى بمثابة أوامر مماثلة فى نوعيتها ومضمونها للأوامر التى سبق أن تلقيناها فى وقت مبكر من هذه الليلة. وهى أوامر تشير الي أنه ينبغى علينا أن نقطع صلتنا بالدكتور ألكسيس الشجاع النبيل اعتباراً من الأمس . بحيث لا نجرى معه أية اتصالات أخرى. إذ قام ميشا جافرون بتسليم الملف الخاص به إلى عدد من علماء النفس الذين قرروا أنه انسان مخبول مثل بقة الفراش .

وبدأ ليتفاك يحتج . ربما التعب الشديد قد أحدث تأثيرا عليه . وربما حرارة الجو هي التى أثرت عليه لأن الليل كان قائظ الحرارة للغاية . إلا أن كيرتز تحدث معه فى رفق وهدوء وتهدئة ..

«هدئ من روعك يا شيمون فقائدنا يهتم بعض الشئ بالنواحي السياسية . وذلك هو كل ما في الأمر . فإذا قفز أليكسيس من فوق السور وأصبحت هناك فضيحة تؤثر على علاقات دولتنا مع حليف نحن فى أشد الحاجة إليه فإن مارتى «كيرتز» سيتحمل العقوبة . واذا ظل أليكسيس واقفا إلى جوارنا مع الإبقاء علي فمه مغلقاً علاوة على تنفيذ ما نصدره اليه من تعليمات فان ميشا جافرون سيصل إلى المجد . وأنت تعرف الكيفية التى يعاملنى بها ميشا . فأنا الرجل اليهودى الخاص به » .

- وما هى الرسالة الثالثة ؟

- ينبهنا قائدنا أنه لم يتبق سوى قدر ضئيل للغاية من الوقت . وهو يقول إن كلاب الصيد تنبح وراءه . مما يعنى بالطبع أن كلاب الصيد تنبح وراءنا .

وبناء على اقتراح من كيرتز انطلق ليتفاك لكى يعبئ فرشاة أسنانه . وبعد أن أصبح كيرتز منفردا مع بيكار اتجه إلى السرير المنخفض والتقط جواز سفر فرنسياً وفتحه وراح يدرس البيانات التفصيلية الموجودة به ويلصقها فى ذاكرته . ثم قال : أنت واهب النجاح لنا يا جادي واذا تعرضت لأية ثغرات أو احتجت لأية مطالب اخبرنى بذلك على الفور . هل تسمعنى ؟

رد : نعم .

فقال كيرتز : يقول الأولاد إنك كنت رائعاً هناك فوق الأكروبوليس مع تشارلى . وقالوا إنكما كنتما مثل نجمين من نجوم السينما .

- أشكرهم نيابة عنى .

ووقف كيرتز أمام المرآة ومعه فرشاة الشعر القديمة المسدودة . وبدأ يمشط بها لكى يعمل فرقاً بين الشعر . وقال : حالة مثل هذه تشتمل علي فتاة تتطلب التحفظ والحذر . والتحفظ ينفع فى بعض الأحيان . فى بعض الاحيان ثم ألقى بفرشاة الشعر فى حقيبة مفتوحة .

فتح الباب . ودخل ليتفاك الذى ارتدى الملابس من أجل الخروج إلى المدينة وحمل فى يده حقيبة صغيرة . وكان يبدو عليه أنه متلهف لاصطحاب أستاذه كيرتز . وقال وهو ينظر نظرة غير ودية إلى بيكار : لقد تأخرنا .

.. ..

ورغم المناورات فإن تشارلى لم تكن من النوع الذى يرغم على الطاعة وفقا لمستويات كيرتز .الذى ذهب فى تقديراته إلى أن الأخلاقيات أمر مهم بالنسبة لخطتهم . ولقد كان هناك فى المراحل الأولى كلام غير عادى عن ممارسة الضغوط

والسيطرة بل والاستعباد الجنسي وكلام عن إخضاع تشارلى لظروف محطمة على مدى ليالٍ قليلة قبل تقديم يد الصداقة لها . ولقد قام رجال علم النفس التابعون لجافرون عقب قراءتهم للملف الخاص بها بتقديم كافة أنواع الاقتراحات السخيفة بما فى ذلك اقتراحات تعتبر من النوع الوحشى . الا أن عقلية كيرتز هى التى كسبت المباراة ضد جيش الخبراء المتزايد . فالمتطوعون دائما ما يقاتلون ويجاهدون على نحو أكثر صلابة ولفترات أطول وذلك من وجهة نظر كيرتز والمتطوعون لهم وسائلهم الخاصة فى إقناع أنفسهم . هذا بالاضافة إلى أنك إذا كنت تعرض الزواج على سيدة فإنه من الحكمة ألا تغتصبها فى بادئ الأمر .

وكان آخرون ومن بينهم ليتفاك قد أبدوا رأيهم علناً مؤيدين فكرة الاستعانة بفتاة اسرائيلية تزود بالخلفية الخاصة بتشارلى . حيث عارض ليتفاك ومعه آخرون فكرة الاعتماد على إخلاص فتاة غير يهودية وخاصة اذا كانت انجليزية . الا أن كيرتز اعترض بشدة على ذلك . لأنه كان يحب الأداء الطبيعى المتاوفر لدى تشارلى. وفضل الاستعانة بالأصل وليس التقليد . ولم يثنيهِ عن رأيه اتجاهاتها الأيدلوجية . لقد وقع اختيار كيرتز على تشارلى منذ أن ظهرت شخصيتها على السطح لأول مرة فى جلسات نهاية الأسبوع التى عقدت في المؤتمر الجماهيرى . إذ وضع عينيه عليها وجمع التحريات عنها وأدخلها فى أعماق ذهنه .

ولكن لماذا تجرها إلى اليونان يا كيرتز ؟ وتجر معها جميع الاخرين ؟ هل نحن جمعية للبر والإحسان بحيث أصبحنا نبدد أموالنا السرية فجأة على ممثلين انجليز منتمين لليسار ؟

ظل كيرتز متمسكا برأيه . ولم يتزحزح عن موقفه . وذهب فى تقديراته إلى أنه طالما أن الأوديسا التى ستمثلها تشارلى ستبدأ بالتأكيد فى بلاد اليو فإنه ينبغى احضارها إلى اليونان قبل الموعد المحدد لها حيث يمكن فصلها بس عن علاقاتها المحلية وحيث الشمس الساطعة التى تذيب من صلابتها ونظراً لأن آلستير لن يدعها تذهب بمفردها فليتم السماح له بالمجئ أيضاً .

التخلص منه بعد ذلك فى خـــلال اللحظات السيكولوجية الملائمة مما سيؤدى إلى حرمان تشارلى من العون والمساندة .

.. ..

وبالنسبة لإزاحة آلستير فقد أسفر ذلك عن مشهد مسلٍ فى لندن بالمقر الذى يوجد فيه نيد كويللى بينما كانت تشارلى ما زالت مستغرقة فى نوم عميق . وكان نيد يتناول قدرا ضئيلا من المشروبات المنعشة فى داخل غرفته استعدادا لمواجهة طعام الغذاء القوى . وبينما راح ينزع سدادة زجاجة الخمور فزع فجأة لدى سماعة وابلا من الشتائم والألفاظ البذيئة الصادرة بلهجة سيئة والمترامية من الحجرة الصغيرة الخاصة بالمدام لونجمور بالدور الأرضى . وبعد أن فرغ ذلك الشخص من الشتائم طلبت من مدام لونجمور أن تنادى على ذلك الرجل الخليع المنغمس فى الملذات لكى يخرج من حظيرته قبل أن يصعد شخصيا إليه فى الدور العلوى ويجذبه بالقوة للخروج . وتعجب كويللى لدى سماعه هذا الكلام. ثم سارع بالسير على أصابع أقدامه نحو الباب ووضع أذنه على الألواح الخشبية للباب . إلا أنه لم يستطيع التعرف علي صاحب ذلك الصوت . وبعد لحظات ترامى هدير رعدى من وقع الأقدام على السلالم . وفتح الباب على مصراعيه فى عنف . وعندئذٍ شاهد أمامه الهيكل الطويل لـ «آل» . وهو هيكل معروف له تماما منذ الغارات الهجومية التى كان يشنها من وقت لآخر على غرفة ملابس تشارلى. وكان كريها ومخموراً وحاول كويللى معرفة الأسباب التى دعته إلى الانفجار فى هذا الغضب الشديد .

فقال آلستير وهو يمد إصبعه تحت أنف كويللى مباشرة : أيها الخسيس الـوضيع الحقـير العجوز . أنت تهـدف إلى تدبـير المكائد . لسوف أكسر رقبتك الغبية .

فقال كويللى : ياعزيزى . ما السبب ؟ فصرخت مدام لونجمور من الدور الأرضى .. يا مستر نيد ! إننى بصدد الاتصال بالشرطة . إننى سأتصل حاليا برقم الشرطة وهو : ٩٩٩ الآن !

فقال كويللى فى وقار وحزم : إما أن تجلس وتشرح لى الأمور على الفور وإلا سأصدر أوامرى للمدام لونجمور بالاتصال بالشرطة .

فجلس آلستير ، هنا قال كويللى : والآن مارأيك أن تتناول قليلاً من القهوة السوداء أثناء قيامك بإخبارى بالأمور التى فعلتها والتى تسببت فى الإساءة إليك؟

وكانت القائمة طويلة : إن كويللى قد قام بخداعه لصالح تشارلى . إن كويللى قد أقنع وكيله بإرسال برقيات إلى جزيرة ميكونوس . وانه تآمر مع أصدقاء أذكياء فى هوليود . ودفع مقدما ثمن التذاكر بالطائرة وكل ذلك من أجل أن يجعل منه مثارا للسخرية أمام (الشلة) وكل ذلك من أجل أن يبعده عن تشارلى .

وعلى نحو تدريجى تمكن كويللى من فك طلاسم القصة ، إذ قامت شركة انتاج أفلام بهوليوود تسمى نفسها بان تالينت كليستيال بالاتصال تليفونيا بوكيله من كاليفورنيا قائلة إن البطل الرئيسى الخاص بهم أصيب بالمرض وأنهم يحتاجون لآلستير من أجل اجراء اختبارات عاجلة عليه فى لندن . وانهم مستعدون لتسديد أية نقود من أجل حضوره وعندما سمعوا أنه موجود فى اليونان اتخذوا الترتيبات لاصدار شيك مضمون بمبلغ ألف دولار بحيث يسلم الشيك إلى مكتب الوكيل . فقطع آلستير أجازته بسرعة ثم أمضى أسبوعا بدون أن تجرى له أية اختبارات . وتوالت البرقيات : «كن جاهزاً وعلى أتم الاستعداد» . وبرقية أخرى .. «الترتيبات على وشك أن تتم». وفى اليوم التاسع وبينما آلستير فى حالة من الجنون والهوس صدرت له الأوامر بتقديم نفسه إلى استوديوهات شكسبير . وبحيث يسأل هناك عن بيتى فشينسكى .

لم يعثر على بيتى فشينسكى فى أى مكان . فقام وكيل آلستير بالاتصال تليفونيا بهوليوود . فأخبرته عاملة التليفون بأن تالينت كليستيال قد أغلقت أبوابها . فاتصل وكيل آلستير تليفونيا بوكلاء آخرين الا أن أحدا منهم لم يسمع عن «بان تالينت كليستيال ». وعندئذ قال آلستير لنفسه إن الشخص الوحيد الذى لديه المقدرة والدوافع لأن يلعب مثل هذه الخدعة السخيفة هو نيد كويللى الذى لم يخف

كراهيته دائما لآستير بالاضافة إلى أنه كان يعتقد أن آلستير هو الذى يدفع تشارلى إلى اتجاهات سياسية حمقاء . ولذلك فقد جاء آلستير شخصيا لكى يلوى رقبة كويللى . وبعد أن ارتشف آلستير عددا من فناجين القهوة هدأت أعصابه . ثم اتصل كويللى بالسيدة لونجمور لكى تحضر له سيارة أجرة .

وفى نفس المساء وبينما كويللى وزوجته جالسان فى الحديقة ليستمتعا بمنظر غروب الشمس قبل تناول طعام العشاء استمعت زوجته مارجورى فى وقار لهذه القصة . ثم انفجرت فى الضحك فى نهاية الأمر .

ثم قالت : يا لها من فتاة شقية للغاية . من المؤكد أنها عثرت على شخص غنى يحبها ويتخلص من آلستير بدفع الأموال له .

ثم شاهدت وجه كويللى . شركات انتاج أمريكية وهمية . وأرقام تليفونات لم تعد ترد . ومنتجو أفلام لا يمكن العثور عليهم . وكل ذلك الذى يحدث له علاقة بتشارلى . وله علاقة بنيد زوجها .

ثم قال نيد فى بؤس : بل هناك ما هو أسوأ من ذلك

– ما هو يا عزيزى ؟

– لقد سرقوا كل خطاباتها .

– سرقوا ماذا !!

فقال كويللى .. سرقوا كل خطاباتها المكتوبة بخط اليد . وهى الخطابات التى تتعلق بالسنوات الخمس الماضية أو لفترة أطول من ذلك . بل وسرقوا الرسومات التى كانت ترسمها عندما تشعر بالسعادة . انتزعوا كل ذلك من الملف الخاص بها . وقام بذلك هذان الشخصان الأمريكيان الرهيبان : كارمان وصديقه الرهيب . وقد تضايقت السيدة لونجمور من ذلك كثيراً بل وأصيبت السيدة إليس بالمرض بسبب ذلك .

فقالت زوجته مارجورى أكتب لهما خطابا شديد اللهجة فقال كويللى فى

بؤس وتعجب .. ولكن ما الفائدة من وراء ذلك ؟ وما هو العنوان الذى أبعث الخطاب عليه ؟

فقالت : اتصل بـ «بريان» كان «بريان» هو المحامى الخاص بكويللى . ولكن ما الذى يمكن أن يفعله بريان ؟

رجع كويللى إلى داخل منزله وصب لنفسه كأسا من الخمر القوية . ثم أدار زر التشغيل في التليفزيون فظهرت أمامه نشرة الأخبار المسائية والتى تضمنت فيلما عن أحدث التفجيرات الوحشية التى تمت فى مكان ما مع ظهور سيارات للاسعاف وقيام رجال بوليس أجانب بنقل الجرحى . ولكن كويللى لم يكن فى حالة نفسية تسمح له بمتابعة هذا الانفجار بالتفصيل . إذ كان ذهنه مشغولا بالملف الخاص بتشارلى . لقد قاما بالتفتيش بدقة فى هذا الملف وسرقة ونهب الكثير من الأوراق المحفوظة به وظل يكرر تلك العبارة لنفسه . ياللعنة . وفى داخل مكتبى . وابن كويللى العجوز يجلس بالقرب منهما ويستغرق فى النوم عقب الغداء بينما هما يقومان بسرقة أوراق الملف . انه لم يشعر بمثل هذا الضيق والانزعاج منذ سنوات طوال .

الفصل الثامن

إذا كانت قد استيقظت من حلمها فإنها لم يكن لديها معرفة به عندما استيقظت . أو ربما هى استيقظت – مثل آدم .. فوجدت الحلم صادقاً لأن أول شئ شاهدته كان كأساً مليئاً بعصير البرتقال الطازج عند سريرها ولأن ثانى شئ شاهدته هو يوسف الذى كان يخطو بخطوات واسعة عبر الغرفة ويقوم بفتح الدواليب وجذب الستائر لكى يسمح بدخول اشعة الشمس . تظاهرت تشارلى بأنها مازالت نائمة شاهدته من خلال عينيها شبه المغلقتين مثلما كانت ترقبه على الشاطئ . القميص الحريرى مرة أخرى ولوازمه الذهبية .

تساءلت : كم الساعة الآن ؟

فقال : الساعة الثالثة .

الثالثة بعد الظهر . لقد نمت بما فيه الكفاية . ينبغى أن ننطلق .

فتساءلت : كيف حال فمك ؟

فقال : يبدو أننى لن أتمكن من الغناء مرة أخرى .

ثم توجه إلى خزانة للثياب قديمة واستخرج منها قفطاناً قديماً ووضعه على الكرسى . ولم تشاهد أية علامات على وجهه . لا شئ سوى حلقات ثقيلة من التعب تحت عينيه .

وقالت لنفسها : لقد ظل ساهراً طوال الليل ومنكباً على أوراقه الموجودة فوق مكتبه . لقد كان ينجز واجباته المدرسية التى تحضر بالمنزل .

– هل تذكرين المحادثة التى دارت بيننا قبل أن تذهبى إلى الفراش فى هذا الصباح يا تشارلى ؟ : لقد قلت لك : عندما تستيقظين فإننى أريد منك ارتداء هذا

الفستان وارتداء الملابس الداخلية الجديدة التى ستجدينها فى الصندوق هنا . وأنا أفضل أن تكونى مرتدية الألوان الزرقاء اليوم وأن يكون شعرك منساباً على الجانبين . بدون أنشوطات وعقدات

- أى بدون ضفائر .

تجاهل التصحيح الذى أبدته، وأضاف : وهذه الملابس هى هديتى لك . يسعدنى أن أحدّد لك ما تلبسينه وأحدّد لك الشكل الذى تبدين عليه . أجلسى معتدلة من فضلك . ألقى نظرة شاملة متأنية على الغرفة .

وكانت عارية . فأمسكت بالملاية ورفعتها حتى رقبتها . ثم جلست معتدلة فى حرص وحذر .

قال : تذكرى كل شئ حولك . نحن حبيبان سرّيان . وهذه الغرفة هى المكان الذى أمضينا فيه الليل لقد اجتمع شملنا بعد فراق فى أثينا . وجئنا إلى هذا المنزل ووجدناه شاغراً . لا يوجد به مارتى مايك . لا أحد سوانا نحن الاثنان .

- إذن مَنْ أنت ؟

- لقد جرّشنا السيارة فى المكان الذى جرشناها فيه . وكان ضوء الشرفة متوهجاً لدى وصولنا . قمت بفتح قفل الباب الأمامى . ثم جرينا سوياً ونحن متماسكان باليد على السلالم العريضة .

- وماذا عن الأمتعة ؟

- الأمتعة قطعتان فقط : حقيبتى + حقيبة الكتف الخاصة بك . وأنا حملت الحقيبتين .

- إذن كيف أمسكت بيدى ؟

واعتقدت أنها تفوقه حيلة وذكاء . إلاّ أنه كان مسروراً من دقة ملاحظتها .

- حقيبة الكتف ذات الشريط المقطوع كانت تحت ذراعى الأيمن . وكانت حقيبتى فى يدى اليمنى . لقد جريت لكى أصبح على يمينك . كانت يدى اليسرى

شاغرة . ووجدنا الغرفة على ما هى عليه الآن على وجه الدقة . كل شئ فيها معدّ وجاهز . وما كدنا ندخل من الباب حتى اندفعنا فى عناق حار . اذ لم يكن بمقدورنا أن نتحكم فى رغباتنا لفترة أطول .

وقفز قفزتين فوصل إلى السرير وراح يفتش ويبحث بين الملاءات المبعثرة الملقاة على الأرضية إلى أن عثر على بلوزتها . فرفع البلوزة لأعلى أمام عينيها . لقد كانت ممزقة عند كل عروة من عروات الأزرار . بل وكان هناك زراران مفقودان.

قال موضحاً : نوبة جنون مؤقتة .

ثم ألقى بالبلوزة على جانب . وسمح لنفسه بالابتسام فى اقتضاب .

وتساءل : أتريدين قهوة ؟

– تناولى للقهوة سيكون أمراً عظيماً .

– أتريدين خبزاً ؟ لبن مُصفًّى ؟ زيتون ؟

– لا أريد سوى القهوة : . وما إن وصل إلى الباب حتى قالت بصوت مرتفع : آسفة يا يوسف لأننى ضربتك فى عنف . كان ينبغى عليك أن تشن هجوماً مضاداً مثل تلك الهجمات المضادة الإسرائيلية وتصرعنى بطريقة خاطفة .

وأغلق الباب . وسمعت وقع أقدامه تترامى من بعيد على الممرّ . فبدأت تنزل من السرير فى حذر شديد . وقالت لنفسها : إنه تمثيل صامت مثل جولديلوكس فى منزل الدب .

وكانت دلائل عربدتها متجلية فى كل مكان حولها : زجاجة فودكا مليئة حتى ثلثيها تطفو فى جردل من الثلج . وكأسان شاغران . وسلطانية مليئة بالفواكة. وطبقان مليئان بقشر التفاح وبذور العنب . والسترة الفضفاضة الحمراء ملقاة على كرسى . وثوب كيمونو يابانى مصنوع من الحرير الأسود الثقيل كان معلقاً على الباب . وفى داخل الحمّام توجد فوطتان . فاستخدمت الفوطة الجافة .

وعندما فحصت ثوبها الأزرق اتضح لها أنه جميل بعض الشئ ومصنوع من القطن السميك وله خط رقبة مرتفع ومحتشم وعليه علامة «محلات زليدة» بروما ولندن . والملابس الداخلية من النوع الفاخر للغاية الأسود اللون المتلائم مع حجمها. وعلى الأرضية توجد حقيبة كتف جديدة تماماً علاوة على صندل جلدى جميل بدون كعب . وجربت الصندل فجاء على مقاسها تماماً . وارتدت ملابسها . وبينما كانت تمشط شعرها بالفرشاة عاد يوسف إلى الغرفة حاملاً معه صينية القهوة .

وقال وهو يضع الصينية فوق المنضدة : تبدين ممتازة .

– ممتازة ؟

– جميلة وساحرة ومشرقة ومتوهجة . هل شاهدت النباتات السحلبية ؟

لم تكن قد شاهدتها . ولكنها شاهدتها آنئذ . فانقلبت معدتها بنفس الطريقة التى انقلبت بها فوق الأكروبوليس : غصن ذهبى وخمرى له كسوة بيضاء مستندة على الزهرية . فانتهت من تمشيط شعرها ثم التقطت المظروف الصغير وأخذته معها إلى الكرسى الطويل، حيث جلست عليه . وظل يوسف واقفاً . وبعد أن رفعت طرف المظروف جذبت منه بطاقة مكتوب عليها بخط انجليزى مائل ركيك عبارة «أنا أحبكِ» مع التوقيع المألوف «بحرف الميم» .

– حسناً ؟ بماذا يذكرك هذا ؟

فقالت : أنت تعرف جيداً بماذا يذكرنى هذا .

– إذن أخبرينى .

– هذا يذكرنى بنوتنجهام ومسرح بارى ويذكرنى بيورك ومسرحية العنقاء ويذكرنى بسترا تفورد إيست ومسرحية صراع الديكة . ويذكرنى بك وأنت جالس فى الصف الأمامى مع البحلقة فى وجهى باستمرار .

– هذا هو نفس خط اليد ؟

– نفس خط اليد ونفس الرسالة ونفس الأزهار .

– وأنت تعرفينني باسم ميشيل . وحرف الميم هو اختصار لميشيل . ثم فتح حقيبة السفر السوداء الأنيقة وراح يعبئ ملابسه بسرعة فى داخلها . وقال دون أن ينظر إليها .. إننى كل ما تمنيتيه دائماً . ولكى تقومى بالمهمة ينبغى عليك أن تتنكرى لذلك بل ويجب أن تصدقى ذلك وتشعرى وتحلمى به . فنحن نبنى سوياً حقيقة جديدة . حقيقة أفضل .

فوضعت البطاقة على جانب . وبدأت تصبّ لنفسها بعض القهوة متعمدة التباطؤ في مواجهة تسرّعه .

تساءلت ومن الذى يقول إنها حقيقة أفضل ؟

– لقد أمضيت أجازتك فى ميكونوس مع آلستير . ولكنك فى أعماق قلبك كنت فى انتظارى على أحرّ من الجمر وفى اشتياق شديد .. فى انتظارى أنا : ميشيل . ثم ذهب إلى الحمام وعاد ومعه حقيبته القماشية . وأضاف : ليس يوسف – ولكن ميشيل . وبمجرد أن أنتهت أجازتك أسرعت فى الذهاب إلى أثينا . وفى القارب أخبرت أصدقاءك أنك تريدين الانفراد بنفسك لمدة أيام قليلة . وهذه كذبة . لأنك كان لديك موعد لقاء مع ميشيل . ليس يوسف، ولكنه ميشيل ثم أخذت سيارة أجرة إلى المطعم . وتقابلت معى هناك . مع ميشيل . وكنت مرتدياً قميصى الحريرى وساعتى الذهبية . وطلبت السمك الذى تفضلينه . وأنا اشتريت النشرات السياحية لكي أطلعك عليها . وتناولنا الطعام سوياً وتحدثنا حديثاً عذباً مثل حبيبين يلتقيان بعد فراق . وأخذ ثوب الكيمونو الأسود الذى كان معلقاً على الباب ودفعت بقشيشاً فى سخاء واحتفظت بالفاتورة . ثم أخذتك إلى الأكروبوليس وهى رحلة ممنوعة وفريدة من نوعها . وكانت هناك سيارة أجرة فى حالة انتظار . إنها ملكى . وتحدثت مع السائق الذى يسمى ديمترى .

قاطعته قائلة : إذن كان ذلك هو السبب فى اصطحابى إلى الأكروبوليس.

– لم يكن أنا الذى اصطحبتك . بل كان ميشيل . وميشيل فخور بلغاته. وهو يحب الحركات الرومانسية والقفزات الفجائية . إنه الساحر الخاص بك.

- أنا لا أحب السحرة .

- وهو لديه أيضاً عشق شديد بالآثار القديمة مثلما لاحظت عليه .

- إذن مَنْ الذى قبلّنى ؟

فطوى ثوب الكيمونو فى حرص ووضعه فى حقيبة السفر . ثم قال : إن السبب العملى الذى دعا إلى اصطحابك لأعلى إلى الأكروبوليس هو إن يتمكن من الاستلام السرى للسيارة المرسيدس حيث لم يكن يرغب لأسباب خاصة فى أن يحضر السيارة المرسيدس إلى وسط العاصمة أثناء فترات الزحام وانصراف الناس من أعمالهم للذهاب إلى بيوتهم . إنت لم تسألى أسئلة عن المرسيدس وتقبلتينها كجزء من الوجود لك معى مثلما تتقبلين العالم السحرى الموجود فى كل شئ نفعله . إنت تقبلين كل شئ . أسرعى من فضلك . أمامنا فترة طويلة من القيادة بالسيارة والكثير من الكلام .

قالت : وماذا عنك ؟ هل تعشقنى ؟ أم إن الأمر كله لعبة ؟

قال : انت تحبين ميشيل . وتعتقدين إن ميشيل يحبك .

- لكن هل أنا على حق ؟

إنه يقول إنه يحبك . وهو يقدم لك الدليل على ذلك . وما هو الشئ الآخر الذي يمكن إن يفعله رجل لكى يقنعك طالما إنه لا يستطيع إن يعيش فى داخل رأسك ؟

وانطلق فى أرجاء الغرفة مرة أخرى . وراح يعبئ الأشياء . ثم توقف أمام البطاقة التى كانت موجودة مع الأزهار .

فتساءلت : منزل مَنْ هذا ؟

إننى لا أجيب أبداً على مثل هذه الأسئلة . وحياتى بمثابة لغز بالنسبة لك . وحياتى لطيفة للغاية منذ إن تقابلنا . وأود إن يظل الأمر على ذلك النحو . ثم التقط البطاقة وناولها لها . وقال لها : ضعى هذه البطاقة فى حقيبة اليد الجديدة

الخاصة بك . ومن الآن فصاعداً أتوقع لك ان تبتهجى بهذه الهدايا التذكارية التى أقدمها لك . أتدركين هذا ؟

ورفع زجاجة الفودكا من الإناء المليئ بالثلج وقال : انا بصفتى رجلا أتناول كميات من الخمور أكثر منك . وأنا شخصياً لست مدمناً للخمور . فالكحوليات تسبب لى الصداع بل وتسبب لى المرض من وقت لآخر . ولكننى أفضل الفودكا بالنسبة لكِ يمكن إن تحصلى على كأس واحد صغير لاننى متحرّر ولكنى أساساً لا أوافق على احتساء النساء للخمور إننى مولع بأكل الأشياء الحلوة المذاق . فإنا أحب الشيكولاتة والكعك والفواكه بصفة خاصة . مثل العنب . ولكن العنب ينبغى إن يكون أخضر اللون مثل العنب الموجود فى قريتى . ما الذى أكلته تشارلى فى الليلة الماضية ؟

– انا لا آكل . ليس عندما يكون الأمر على ذلك النحو . أكتفى بتدخين سيجارة ما بعد الاتصال الجنسى .

– إننى لا أسمح بالتدخين فى غرفة النوم . وفى مطعم أثينا تسامحت بشأن التدخين لإننى متحرّر . وحتى فى السيارة المرسيدس أسمح لك بالتدخين من وقت لآخر . ولكنى لا أسمح على الإطلاق بالتدخين فى غرفة النوم . وإذا شعرت بالعطش أثناء الليل يمكنك إن تشربى ماء من الحنفية . وبدأ يرتدى الرداء الأحمر الفضفاض . وقال : هل لاحظت كيف إن الحنفية تقرقر ؟

– لا .

– إذن فالحنفية لم تقرقر . فى بعض الأحيان تقرقر وأحياناً أخرى لا تقرقر .

قالت وهى مازالت ترقبه : إنه شخص عربى . أليس كذلك ؟ إنه الشوفينى العربى الأصيل الخاص بك . وهل هذه هى سيارته التى أخذتها .

حملق فيها للحظات قليلة ثم قال : أوه . يمكننى القول إنه أكثر من مجرد رجل عربى . وأكثر من مجرد شوفينى [1] . فلا شئ فيه عادى على الإطلاق . على

١– الشوفينى : هو الشخص الذى يتفانى فى حبه لوطنه وحمايته.المترجم

الأقل من وجهة نظرك . إذهبى إلى السرير لو سمحت . وانتظر إلى إن فعلت ذلك فأضاف .. تحسّسى تحت وسادتى . فى بطء وحذر. إننى أنـــام على الجانب الأيمن .

فانزلقت بيدها تحت الوسادة الباردة .

تساءل : هل عثرت عليه ؟ التزمى بالحرص والحذر .

– نعم يا يوسف . لقد عثرت عليه .

– ارفعيه فى حرص وحذر . فمزلاج الأمان مرفوع لأعلى . فميشيل ليس من عادته إن يعطى التحذيرات قبل إطلاق الرصاص . فالمسدس هو الطفل الخاص بنا . إنه موجود دائماً معنا فى كل سرير ننام عليه . نحن نسميه : طفلنا. وحتى عندما نمارس الحب والعاطفة فإننا لا نقلق تلك المخدة ولا ننسى أبداً المسدس الموجود تحت المخدة . وتلك هى الطريقة التى نعيش بها . هل تشعرين الآن إننى لست عادياً ؟

وراحت تتأمل المسدس وكيف إنه يستلقى فى إناقة فى راحة يدها . صغيراً وبنى اللون .

تساءل يوسف : هل سبق لك إن تعاملت مع مسدس كهذا ؟

– مرات كثيرة .

– أين وضد مَنْ ؟

– على المسرح . ليلة وراء ليلة وراء ليلة .

وناولته المسدس . وشاهدته يضعه فى داخل ردائه بسهولة وكانه يضع محفظة نقوده فى جيبه . ونزلت وراءه على السلالم . كان المنزل شاغراً وبارداً على نحو غير متوقع . وكانت السيارة المرسيدس تقف فى الفناء الأمامى . وفى بادئ الأمر كانت ترغب فى المغادرة : والذهاب إلى أىّ مكان وإلى الطريق المكشوف . ولكن المسدس سبب لها الخوف وقيّد حركة جسدها . وبينما راح يسير على المر

المؤدى إلى المنزل التفتت وراءها . ونظرت إلى الدهانات الصفراء والزهور الحمراء وشيش النوافذ المغلقة والقرميد الأحمر القديم . وأدركت فى وقت متأخر كيف ان كل شئ كان جميلاً ومُرحّباً أثناء مغادرتها .

.. ..

وعلى مدي عشرين دقيقة وفقاً للساعة الموجودة فى لوحة أجهزة القياس بالسيارة لم يتكلم يوسف . إلاّ إنها لم تشعر بأى استرخاء فى داخل كيانه . وإنما كان فى داخله ذلك الاستعداد الذى يسبق الهجوم .

قال فجأة : إنك يا تشارلى . هل انت مستعدة ؟

– إننى مستعدة يا يوسف .

– فى يوم الجمعة ٢٦من شهر يونيو كنت تؤدين دور چان دارك فى مسرح بارى/ نوتنجهام . لم تكوني مع الشلة المعتادة، دخلت إلى المسرح في آخر لحظة لكى تحلّى محل ممثلة تخلفت عن الحضـــور . وهذا المشهد واضح للغاية فى ذاكرتك .

– واضح .

وتحكم فى طيشه واندفاعه . وألقى نظرة تساؤلية عليها . إلاّ إنه لم يعثر على شئ يمكن الاعتراض عليه . وكان الوقت فى فترة مبكرة من المساء. والشفق الأحمر ينتشر بسرعة . إلاّ أن التركيز الذهنى لدى يوسف كان له فورية ضوء الشمس.

وقالت لنفسها : هذا هو العنصر الخاص به . وهذا هو الشئ الذى يفعله على أفضل وجه فى حياته . وهذه هى القوة الدافعة الوحشية . فى المسرح الذى كان مفقوداً حتى تلك الآونة .

– دقائق قبل رفع الستار ويتم تسليم غصن من نبات السحلبية الذهبى عند باب المسرح مع ورقة موجهة إلى چان مكتوب عليها :

يا جان إننى أحبك حباً خالداً أبدياً .

– لا يوجد باب للمسرح .

– يوجد مدخل خلفى من أجل تسليم الأشياء الخاصة بالمسرح . والمعجب بك دقّ الجرس . وضع أغصان نبات السحلبية بين ذراعى البواب . وهو رجل يسمى السيد ليمون . ومعها ورقة من فئة الخمسة جنيهات . وتأثر ليمون كثيراً بهذا البقشيش الكبير . ووعد بأن ينقل نبات السحلبية إليك على الفور – فهل فعل ذلك ؟

– إن أفضل شئ يفعله ليمون هو إقحام نفسه فى غرف ارتداء الملابس الخاصة بالسيدات بدون سابق انذار .

– إذن أخبرينى ماذا فعلت عندما تسلمت نبات السحلبية ؟

فأصابها التردد وقالت : التوقيع كان بـ «حرف الميم» .

– هذا صحيح . فما الذى فعلتيه ؟

– لاشئ .

– هذا كلام فارغ .

فشعرت بآلام حادة وما الذى كان ينبغى علىّ أن أفعله ؟ لقد كان أمامى حوالى عشر ثوانٍ قبل إن أصعد على المسرح .

ظهرت شاحنة محملة بالتراب متجهة نحوهما على الجانب الخاطئ من الطريق . فاتجه يوسف بالسيارة المرسيدس نحو الكتف الترابى وخرج بسرعة من المساحة الترابية . وقال : إذن فأنت قد ألقيت بأغصان السحلبية التى يبلغ ثمنها ثلاثين جنيهاً فى سلة المهملات الخاصة بك . وهززت كتفيك. ثم صعدت على المسرح . شئ عظيم . إننى اهنئك .

– لقد وضعت النباتات فى الماء .

– وفى أىّ شئ وضعت الماء ؟

وقد أدى هذا السؤال الفجائى إلى تقوية ذاكرتها . فقالت : فى برطمان خاص بالطلاء .

لقد عثرت على برطماناً وقمت بملئه بالماء ثم وضعت نبات السحلبية فى الماء . إذن ماذا كانت مشاعرك أثناء قيامك بكل ذلك ؟ هل كنت متأثرة ؟ هل كنت فى حالة من الإثارة ؟

وهذا السؤال قد جعلها على نحو ما تبدو وكأنها أخطأت . فقالت : لقد لحقت بالآخرين على المسرح . وانتظرت لأرى مَنْ يكون ذلك الشخص الذى أحضر النباتات .

كانا قد توقفا بسبب إشارة المرور . فبثّ الصمت والسكون تقارباً جديداً ودياً بينهما ثم تساءل وماذا عن عبارة (إنا أحبك) ؟

– هذه عبارة يتسم بها المسرح . فكل شخص يحب كل شخص . لبعض الوقت . ولكنى أعجبت بكلمة (حباً خالداً أبدياً) فهذا تعبير متميز .

وتغيرت إنوار إشارة المرور . وانطلقا بالسيارة مرة أخرى . ألم تفكرى فى النظر إلى جمهور الحاضرين على أمل إن تشاهدى شخصاً ما تعرفينه ؟

– لم يكن هناك وقت كاف يسمح بذلك .

– وفى خلال فترة الاستراحة ؟

– لقد رحت أبحلق أثناء الاستراحة . إلاّ إننى لم أشاهد أىّ شخص أعرفه من قبل .

– وبعد انتهاء العرض . ما الذى فعلتيه ؟

– عدت إلى غرفة الملابس الخاصة بى . وغيرت ملابسى . وتباطأت بعض الشئ . ثم ذهبت إلى منزلى .

– المنزل يعنى فندق استرال كوميرشيال هوتيل القريب من محطة السكة الحديد .

– نعم .

– وماذا عن النباتات السحلبية ؟

– ذهبت معى إلى الفندق .

– *ألم تسألى السيد ليمون عن أوصاف ذلك الشخص الذى أحضر هذه النباتات؟*

– لقد سألته فى اليوم التالى . وليس فى نفس الليلة .

« وماهى الإجابة التى حصلت عليها عندما سألتيه بالفعل ؟» .

لقد قال إنه جنتلمان أجنبى لكنه يبدو محترما . سألته عن عُمْر ذلك الرجل فقال إن عمره ملائم. حاولت أن أتذكر رجلا أجنبيا أعرفه يبدأ اسمه بحرف الميم ولكننى لم أتذكر .

ألم يصادفك فى أيام الطيش الخاصة بك أى رجل واحد أجنبى يبدأ اسمه بحرف الميم. لقد خيبت ظنى .

– ولا شخص واحد يبدأ اسمه بهذا الحرف ثم ابتسما معا . لكن الابتسامة لم تكن موجهة من أحدهما للآخر .

إذن ياتشارلى. لدينا الآن حفل صباحى ليوم السبت يعقبه الحفل المسائى كالمعتاد .

وأنت كنت هناك. أليس كذلك ؟ هنالك فى منتصف الصف الأول. وكنت مرتديا الرداء الأحمر الجميل. وكنت محاطا بأولاد المدارس اللزجين والذين يسعلون ويرغبون فى الذهاب كثيراً إلى دورات المياه .

شعر بالتوتر بسبب طيشها وتقلبها. فركَّز انتباهه على الطريق لبعض الوقت. ثم استأنف استجواباته أوَدّ أن توضحى لى مشاعرك على وجه الدقة ياتشارلى. إن الوقت هو منتصف فترة ما بعد الظهر. والصالة ينفذ إليها قدْر من ضوء النهار بسبب الستائر الرديئة. وأنا جالس فى الصف الأمامى. يبدو علىّ الطابع الأجنبى

والطريقة الأجنبية. كما أننى لافت للنظر بوجودى بين الأطفال. وأنت لديك أوصاف ليمون عنّى . والأكثر من ذلك أننى لا أرفع عينى عنك . فهل خطر على ذهنك أننى الشخص الذى قام بتقديم نباتات السحلبية وأننى لستُ سوى الشخص الغريب الذى وقّع بحرف الميم والذى يدّعى أنه يحبك حبا خالداً ؟

– بالطبع خطر على ذهنى كل ذلك . وكنت أدرك ذلك .

– كيف ؟ هل قمت بالمراجعة مع ليمون ؟

– لم أكن بحاجة لأن أفعل ذلك . لقد أدركت ذلك فقط . شاهدتك هنالك وأنت تنظر إلىّ حالماً ومستغرقاً . وقلت لنفسى إنه أنت الذى قدّم النباتات . وبعدئذ عندما أسدل الستار عقب انتهاء الحفل الصباحى ثم ظللت جالساً فى الكرسى الخاص بك وأبرزت التذكرة الخاصة بك من أجل مشاهدة العَرضْ التالى .

– كيف عرفت أننى فعلتُ ذلك ؟ مَنْ الذى أخبرك ؟

– قلت ذلك بنفســـك أكان الأمر مملا وثقيل الظلّ يا يوسف ؟ أكان العرضُ مملا ؟ بسبب مشاهدتك العرض مرتين متتاليتين على ذلك النحو ؟ أم أنك كنت فى حالة من الاستمتا ع ؟

فأجاب بدون أدنى تردّد : كان ذلك اليوم هو أكثر الأيام رتابةً فى حياتى ، وحقيقة الأمر أننى كنت أعتقد أنك ممتازة للغاية .

فقالت : هل ستقوم بتحطيم السيارة وإيقافها الآن فجأة يا يوسف ؟ فهذا سيشعرنى بالارتياح . سأموت هنا . وقبل أن يتمكن من إيقاف السيارة جذبتْ يده وقبّلته فى عنف فوق إصبع ابهامه .

.. ..

كان الطريق مستقيما لكنه ملئ بالحفر والمطبات . والتلال والأشجار على جانبى الطريق مليئة بالتراب الناعم الناجم عن مصنع للأسمنت . وكانا فى داخل الكبسولة

الخاصة بهما حيث إن الاقتراب من أية أشياء متحركة يزيد من خصوصية العالم الخاص بهما . بدت أشبه بمثابة مجندة تتعلم كيف تصبح جندية . قال : أخبريني لو سمحت . بغض النظر عن نباتات السحلبية هل تلقيت أية هدايا أخرى أثناء قيامك بالتمثيل على مسرح باري ؟

فقالت في ارتعاد على الفور : الصندوق .

– ما هو ذلك الصندوق لو سمحت ؟

وكانت قد توقعت السؤال . بدأت تتظاهر بأنها مستاءة منه معتقدةً أن ذلك هو ما يريده . فقالت : كان ذلك نوعاً من الخدعة . فهناك شخص ما بغيض وتافه أرسل إليَّ صندوقا على المسرح . في طرد مسجل . والتسليم خصوصي .

متى حدث ذلك ؟

– في يوم السبت . وهو نفس اليوم الذي حضرتَ فيه الحفل الصباحي .

– ماذا كان يوجد في الصندوق ؟

– لا شيء . صندوق جواهر شاغر . أُرسل على هيئة طرد مسجل . وشاغر .

– يا له من أمر عجيب للغاية . وماذا عن البطاقة الملصقة على الطرد ؟ هل قمت بفحص هذه البطاقة ؟

– لقد كان الكلام مكتوبا بقلم أزرق له سنّ على شكل كرة . والحروف كبيرة الحجم .

– ولكن إذا كان الطرد مسجلاً فمن المؤكد أنه كان هناك أيضاً اسم المرسل .

– كان الخط غير واضح وغير مقروء . وكان الاسم شبيها بكلمة ماردين . وربما كان هوردين اسم فندق ما محليّ .

– أين فتحت الطرد ؟

– فى غرفة الملابس الخاصة بى فى الفترة ما بين العرض الأول والعرض الثاني .

– بمفردك ؟

– نعم .

– وما هو الهدف من وراء ذلك من وجهة نظرك ؟

– اعتقدتُ أن هناك شخصا ما يحاول بذل محاولات معى بسبب اتجاهاتى السياسية . فقد حدث ذلك لى من قبل . خطابات بذيئة ودنيئة . ربما شخص شيوعى من أنصار الحلول السلمية .

– ألـم تـقومى بالربط بين الصـندوق الشـاغر ونباتات السحلبية على نحو ما ؟

– لقد أحببت نباتات السحلبية ، مثلما أحببتك وأوقف السيارة . راح يبحث فى داخل جيب باب السيارة الموجود إلى جواره ، ثم ناولها مظروفا مسجلاً مع وجود شمع أحمر على الغطاء علاوة على وجود هيكل مربع صلب فى داخله . عبارة عن صندوق طبق الأصل من ذلك الصندوق الذى تسلمته فى ذلك اليوم . وعلى المظروف توجد العلامة البريدية لنوتينجهام بتاريخ ٢٥ يونيو . وعلى وجه المظروف يوجد عنوانها وعنوان مسرح بارى وقد كُتبا بالحبر الأزرق بقلم له سن مثل الكرة . وعلى ظهر المظروف توجد تلك الشخبطة التى كتبها المرسل . قال يوسف فى هدوء : نحن الآن نعدّ الرواية . وسنجعل الرواية الجديدة مرتكزة على الحقائق القديمة .

ثم أضاف قائلاً : لقد كان اليوم حارا مثل ذلك اليوم . وأنت فى غرفة الملابس الخاصة بك فى الفترة ما بين الماتينيه والسواريه . والطرد مازال مغلقاً . وفى انتظارك لكى تفتحيه . ما هى الفترة التى تقضينها فى غرفة الملابس قبل أن تعودى إلى المسرح مرة أخرى ؟

– عشر دقائق . وربما أقل من ذلك .

– حسناً . الآن افتحى الطرد .

فرمقته بنظرة سريعة . إلا أنه كان يحملق أمامه نحو أفق العدوّ . فنظرت لأسفل نحو المظروف . ثم نظرت إليه مرة أخرى ودفعت بأصبعها فى داخل المظروف وفتحته . كان يوجد فى داخله نفس صندوق المجوهرات الأحمر اللون . إلا أنه كان أثقل وزناً . المظروف أبيض وصغير وغير مغلق بالشمع الأحمر . ويوجد بداخله بطاقة بيضاء اللون . قرأت هذه العبارة المكتوبة على البطاقة : إلى جان روح حريتى . أنتِ رائعة . اننى أحبك ! ولكن بدلاً من التوقيع بحرف الميم أصبح التوقيع بكلمة ميشيل التى كُتبت بخط كبير مع التواء حرف L إلى الخلف على هيئة ذيل للتأكيد على مدى أهمية الاسم . فقامت بهزّ الصندوق . وأحست بالصوت المكتوم المبهج متراميا من الداخل .

فقالت فى تفكه ومزاح «أسنانى» إلا أنها لم تنجح فى تحطيم التوتر الموجود فى داخلها أو فى داخله .

وأضافت : هل لى أن أفتحه ؟ ما هذا ؟

– كيف ينبغى لى أن أعرف ؟ . افتحيه .

فرفعتْ الغطـــاء . وكان يوجد فى القطيفة سوار ذهبى مرصّع بالأحجار الزرقاء .

فقالت فى صوت ناعم : أيها السيد المسيح . ثم أغلقت الصندوق فى حركة سريعة خاطفة . وتساءلت .. وما الذى ينبغى علىّ أن أفعله لكى أحصل على هذا السوار؟

فقال يوسف على الفور .. حسناً جداً . هذا هو أول ردّ فعل يصدر عنك . أنت تلقين نظرة . وتتمتمين بكلام ثم تغلقين الغطاء . أتذكرين ذلك . ذلك على وجه الدقة . لقد كان ذلك هو ردّ الفعل لديكِ .ابتداء من الآن فصاعداً ودائماً .

قامتْ بفتح الصندوق مرة أخرى . واستخرجت فى حرص وحذر السوار الذهبى، ووزنته فى راحة يدها . لم تكن لديها خبرة بالمجوهرات باستثناء الحلى الزائفة التى ترتديها فى بعض الأحيان على المسرح . تساءلت «هل هذا السوار حقيقى؟» .

– من سوء الحظ أنك ليس لديك خبراء حاليا لكى يقدموا لك وجهة نظرهم. يمكن لك أن تتخذى قراراتك بنفسك .

فقالت فى نهاية الأمر : إنه قديم .

– حسنا . انت تعتقدين أنه قديم .

– وثقيل .

– ثقيل وقديم . ليس من مجوهرات الأطفال الزائفة .

وراحت تدرس دمغة المصوغات . ولكنها لم يكن لديها فكرة عنها فأخذت تخربش بأظافرها فى المعدن فى رفق . إلا أنه كان ناعما .

– أنت أمامك وقت ضئيل للغاية يا تشارلى . ومن المقرر لك أن تدخلى المسرح مرة أخرى خلال دقيقة وثلاثين ثانية . فما الذى ستفعلينه ؟ هل تتركى هذا السوار فى غرفة الملابس الخاصة بك ؟

– يا إلهى . لا .

– إنهم ينادون عليك . وينبغى عليك أن تتحركى يا تشارلى . عليك أن تتخذى قراراً بسرعة .

– توقف عن ممارسة الضغط علىّ ! إننى أعطى السوار إلى ميللى لكى ترعاه نيابة عنى . إنها الممثلة البديلة لى . وهى تقوم بمهمة التلقين .

إلا أنه لم يشعر بالارتياح ازاء هذا الاقتراح على الإطلاق .

– أنت لا تثقين فيها .

وشعرت بشيء من اليأس . ثم قالت : أقوم بوضع السوار في المرحاض ، خلف الخزان .

– إنه يكون في مكان واضح للغاية .

– أضعه في سلة المهملات . وأغطى عليه .

– ربما شخص ما يدخل إلى الغرفة لكي يفرغ محتويات سلة المهملات . فكّرى جيدا .

– أضعه خلف مادة الطلاء فوق أحد الأرفف . إذ لم يقم أحد بنفض الغبار هناك منذ سنوات .

– عظيم ! تضعينه خلف الرَّف . وتسارعين لكي تتخذي وضعك . أنت متأخرة يا تشارلي . أين كنت ؟ ويرفع الستار . أليس كذلك ؟

فقالت : حسناً .

– فما هي مشاعرك ؟ الآن . فيما يتعلق بالسوار وفيما يتعلق بالشخص الذي منح السوار ؟

– حسناً إنني مُروَّعة . ألست مُروَّعة ؟

– ولماذا ينبغي أن تكوني مُروَّعة ؟

– حسنا . لا أستطيع أن أقبله أقصد أنه غالي الثمن للغاية .

– ولكنك ؛ قد قبلتيه بالفعل . وقمت الآن بإخفائه بالفعل .

– لقد أخفيته لحين الانتهاء من العرض المسرحي .

– وبعد ذلك ؟

– سأرده إلى صاحبه . ألن أفعل ذلك

فشعر بالارتياح بعض الشيء . ثم قال : وفي تلك الأثناء وإلى أن يحين الوقت الذي ترجعين فيه السوار ما هي المشاعر التي تشعرين بها ؟

- مشاعر الدهشة والحيرة والتخبط . ما الذى تريده لى أن أشعر به ؟

- إنه على مسافة أقدام قليلة منك يا تشارلى . وعينان مثبتتان على وجهك بطريقة عاطفية . وهو يحضر للمرة الثالثة على التوالى العرض الخاص بمسرحيتك. وهو أرسل لك نباتات السحلبية والمجوهرات وقال لك مرتين إنه يحبك . وهو شخص جميل ووسيم . وأكثر جمالاً منىّ .

فقالت : إذن أعمل وفق ما يمليه قلبى وهذا لا يعنى أنه قد كسب الجولة .

.. ..

وفى حرص ، وكأنه يحاول عدم إزعاجها قام يوسف بتشغيل موتور السيارة مرة أخرى ، وكانت حركة المرور قد أصبحت خفيفة . وكانا يتجهان نحو خليج كورنثة . وكانت هناك مجموعة من البواخر الضخمة تتجه نحو الغرب كما لو كانت تنجذب مغناطيسيا بمعرفة توهج الشمس الغاربة . وفوقهما كانت تتشكل سلسلة من التلال تحت ضوء الشفق الأحمر .

وتشعب الطريق وبدأ الاثنان فى الصعود الطويل . واتجها بعد ذلك نحو السماء الشاغرة .

قال يوسف : أتتذكرين كيف كنت أصفقّ من أجلك ؟ أتتذكرين كيف كنت أناصرك بالتصفيق الحاد مرات عديدة عقب إسدال كل ستار ؟

نعم يا يوسف أذكر ذلك . إلا أنها لم تشعر بالثقة فى نفسها بحيث تقول ذلك بصوت مرتفع .

- حسنا ، إذن والآن تذكرى السوار أيضاً . وفعلت ذلك . حركة من الخيال من أجله - هدية فى مقابل الشخص المحسن الجميل المجهول الذى أحسن إليها . فبعد أن انتهى الخطاب الذى يوجه للجمهور عقب انتهاء المسرحية وردت على تحية الجماهير سارعت إلى غرفة الملابس الخاصة بها . واستعادت السوار من المكان

السرى الموجود فيه . ثم أزالت المكياج عن وجهها بسرعة فائقة وارتدت ملابسها العادية لكى تذهب إليه بسرعة .

ولكن تشارلى بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة من الأحداث قالت ليوسف : انتظر لحظة ، ولماذا لا يجيئ هو إلىّ ؟ ولماذا لا ينبغى علىّ أن أظل موجودة فى غرفة ملابسى وأنتظر مجيئه بدلاً من الخروج والبحث عنه بين الأشجار والشجيرات ؟

– ربما لا تكون لديه الشجاعة التى تعينه على المجيئ إلى غرفتك . فهو يشعر بالرهبة الشديدة نحوك .

– ولماذا لا أجلس لفترة قصيرة وأشاهد ما ستسفر عنه الأمور ؟

– يا تشارلى : ما الذى تهدفين إليه ؟ ما هو الكلام الذى يدور فى ذهنك وترغبين أن تقولينه له ؟ فقالت أقول : استردّ هذا فلا أستطيع أن أقبله .

– ولكنه ربما يتسلل إلى ظلام الليل ولا يظهر فى الأفق مرة أخرى على الإطلاق ويتركك مع هذه الهدية الغالية الثمن والتى لا تريدين أن تقبليها ؟

فوافقت على أن تخرج وتبحث عنه .

– ولكن كيف . وأين ستعثرين عليه ؟ وأين ستبحثين عنه أولاً ؟

كان الطريق شاغرا . ولكنه يقود السيارة ببطء لكى يتمكن من إقحام نفسه على الماضى الذى يعاد تشييده من جديد .

قالت بسرعة بدون أن تفكر فى الأمر ملياً : سأجرى لأبحث عنه وأخرج من الباب الخلفى إلى الشارع وحول أركان المسرح وأمسك به وهو على الرصيف.

قال : إذن فأنت بحاجة لأن ترتدى المعطف الواقى من المطر .

وكان على حق . كانت قد نسيت أمطار نوتينجهام فى تلك الليلة . وبدأت مرة أخرى . فبعد أن غيرت ملابسها بسرعة خرافية ارتدت معطفها الجديد الواقى من المطر بها ثم ربطت الحزام واندفعت بين الأمطار المتدفقة إلى الشارع إلى واجهة المسرح .

فقاطعها يوسف قائلاً : فقط لتجدى نصف رواد المسرح محتشدين فى تزاحم تحت المظلة الناتئة منتظرين لحين توقف الأمطار . لماذا تبتسمين ؟

– أحتاج لأن أضع الوشاح الأصفر الخاص بى حول رأسى ، هل تتذكر هذا الوشاح ؟ – إنه الوشاح الذى حصلت عليه من البرنامج التجارى التلفزيونى الخاص بى .

– إذن تقوم تشارلى بارتداء معطف المطر ووشاح الرأس الأصفر وتندفع بين الأمطار بحثاً عن حبيبها المتقد ولعاً وحماساً . ثم تصل إلى البهو المزدحم بالجماهير وتنادى (ميشيل ! يا ميشيل !) . إلا أن نداءاتها غير مجدية . لأن ميشيل ليس هناك . إذن ما الذى ستفعلينه ؟

– هل قمت بكتابة هذا يا يوسف ؟

– هذا لا يهمّ .

– أرجع إلى غرفة الملابس الخاصة بى ؟

– ألا يخطر على ذهنك البحث فى صالة الجمهور بالمسرح ؟

– وهو كذلك . يمكن البحث فيها .

– وأىّ مدخل ستدخلين منه ؟

– المدخل الموجود عند المقاعد الأمامية بالمسرح . فأنت كنت تجلس فى المقعد الأمامى .

– المقعد الأمامى كان يجلس فيه ميشيل . أنت تختارين المدخل الموجود عند المقاعد الأمامية . ومن حسن الحظ أن ليمون لا يكون قد أغلق ذلك الباب. ثم تدخلين إلى الصالة الشاغرة وتسيرين ببطء فى المشى .

قالت فى رقة : وهــا هــو موجود هنالك أيها السيد المسيح . ذلك أمر مبتذل .

– ولكنه يصلح للتمثيل .

– نعم . إنه يصلح .

– إنه موجود هنالك . لايزال جالسا فى نفس المقعد فى منتصف الصف الأول. يحملق فى الستار كما لو كان بحملقته هذه سيجعل الستار يرتفع مرة أخرى وتظهر أمامه حبيبته «جـــان» التى هى روح الحرية الخاصة به والتى يحبها حبا أزليا خالداً .

قالت تشارلى فى تمتمة : هذا أمر ، مرعب وشنيع لكنه تجاهل كلامها .

– لقد ظل منتظـراً فى نفس المقعد وجالساً على مدى الســاعات السبع الأخيرة .

قالت لنفسها : أرغب فى الذهاب إلى المنزل . كم عدد الأقدار التى يمكن أن تواجهها فتاة فى يوم واحد ؟

– وأنت تشعرين بالتردّد وبعدئذ تنادين عليه باسمه (يا ميشيل ! إنه الاسم الوحيد الذى تعرفينه . يلتفت لكى ينظر إليك لكنه لا يتحرك من مكانه . وهو لا يبتسم. ولا يلقى عليك التحية . ولا يظهر بأىّ حـــال من الأحوال السحر والجمال الخاص به .

– ولكن ما الذى يفعله هذا الشخص التافه البغيض ؟

«لا شىء . إنه يحملق فيك بعينين عميقتين مليئتين بالعاطفة الجياشة . متحديا إياك لكى تتكلمى . وقد تظنينه متكبرا متغطرسا وقد تظنينه رومانتيكيا . ولكنه ليس شخصا عاديا أو خجولاً . لقد جاء ليطالب بك . إنه يتفجر بالشباب والحيوية . وهو كوزموبوليتانى وأنيق فى ملابسه . رجل حيوى ومزدهر ماليا . لا توجد به أية دلائل تدلّ على الخجل . لذلك» ثم تحوّل إلى صيغة المتكلم وأضاف قائلاً : «أنت تسيرين نحوى على الممرّ تدركين أن المشهد لا يتبلور على النحو الذى تتوقعينه . ويتضح

بذلك أنه أنت ولست أنا التى ينبغى عليك أن تقدمى التوضيحات . ثم تستخرجين السوار من جيبك . وتقدمينه لى . وأنا لا أقوم بأدنى حركة . والمطر يقطر من جسدك على نحو ملائم وجذاب .

راح الطريق يتصاعد لأعلى فوق تلّ يلف ويدور . وكان صوته المهيمن علاوة على إيقاعات السيارة قد أرغم ذهنها على الدخول فى المزيد من متاهات قصته .

تساءل : هل تقولين كلاما ما . ماذا تقولين ؟ وعندما لم يحصل على إجابة منها، قال : (أنا لا أعرفك . شكراً لك يا ميشيل . إننى أتعرض للمديح والإطراء أكثر من اللازم . ولكننى لا أعرفك ولا أستطيع تقبّل هذه الهدية) هل يمكنك أن تقولى ذلك ؟ نعم يمكنك . ولكن ربما على نحو أفضل .

لم تسمع كلامه إلا بصعوبة . إذ كانت واقفة أمامه فى صالة المسرح ، مدت يدها المسكة بالصندوق نحوه . وراحت تحملق فى عينيه السوداوين . وقالت لنفسها فى تفكير : وماذا عن حذائى الجديد ذى الرقبة . ذلك الحذاء البنى الذى اشتريته بنفسى من أجل الكريسماس . لقد تدمر بسبب الأمطار . ولكن مَنْ الذى يهتم ؟

وكان يوسف مستمرا فى سرد حكايته الملفقة التضليلية ، وأنا لا أزال ملتزما بالصمت وبدون أن أتكلم كلمة واحدة . وأنت سوف تدركين من خلال خبرتك المسرحية أن الصمت لا نظير له من حيث تدعيم وإقامة الاتصالات . فإذا لم يتكلم هذا الشخص اللعين فما الذى ستفعلينه ؟ سوف تضطرين للتكلم مرة أخرى . أخبرينى ما الذى ستقولينه لى فى هذه المرة .

انتابها ارتباك غير مألوف وتداخل فى صراع مع خيالها المتفتح ، وقالت «أسأله عمن يكون هو» .

– اسمى ميشيل .

– اننى أعرف هذه الجزئية . ميشيل ابن مَنْ ؟

– لا إجابة .

– أسألك عن ماذا تفعله فى نوتينجهام .

– إننى أهيم حباً بك . استمرى .

– أيها السيد المسيح يا يوسف .

– استمرى !

– إنه لا يستطيع أن يقول ذلك لى !

– إذن قولى له !

– أحاول معه وأحاول إقناعه . إننى أناشده .

– إذن دعينا نسمعك وأنت تفعلين ذلك – إنه ينتظرك يا تشارلى . تحدثى إليه !

– سأقول له .

– نعم ؟

– (استمع إلىّ يا ميشيل .. إنه لأمر لطيف منك أن .. إننى أتعرض للمديح والثناء أكثر من اللازم . ولكننى آسفة هذا أكثر مما أتحمّل) .

– شعر بالإحباط وخيبة الأمل . وأنبَّها بشدة قائلاً :

– يا تشارلى . يجب أن تؤدى على نحو أفضل من ذلك . إنه شاب عربى – وحتى لو لم تكونى على علم بذلك فإنه يمكن لك أن تشكّى فى هذا – وأنت ترفضين هديته . يجب أن تحاولى فى مزيد من الصلابة والقوة .

– (هذا ليس إنصافا لك يا ميشيل . فالناس غالبا ما يشعرون بالولع المرضى إزاء الممثلات .. وإزاء الممثلين .. وهذا يحدث فى كل يوم . وهذا ليس سبب يدعوك لأن تدمّر نفسك .. من أجل فقط نوع من .. الوهم .)

– عظيم . استمرى .

وأصبح الأمر أكثر سهولة بالنسبة لها . وكانت تكره لجوءه إلى إرهابها بالصياح أو العبوس تماما مثل كرهها للمنتجين والمخرجين . إلا أنها لم تستطع أن تنكر

التأثير الناجم عن ذلك . وأضافت قائلة : (وذلك هو كل ما يتناوله التمثيل باستمرار. يا ميشيل . إنه يتناول الوهم والخداع . إن جمهور المشاهدين يجلسون هنا على أمل أن يشعروا بالتسلية والافتتان والانبهار . ونحن قد نجحنا فى مهمتنا . ولكننى لا أستطيع تقبّل هذه الهدية . فهى هدية جميلة للغاية) . كانت تعنى السوّار .

واستطردت : (جميلة للغاية . لا أستطيع تقبّل أىّ شىء . فنحن خدعناك وضللناك . وذلك هو كل ما حدث . فالمسرح بمثابة خدعة يا ميشيل . هل تدرك معنى ذلك ؟ إنه بمثابة خدعة وأنت قد خُدعت وضُلّلت) .

«أنا لازلت ملتزما بالصمت وعدم الكلام» .

«حسنا . إجعله يتكلم !» .

ولماذا ؟ هل انتهت وسائل الإقناع لديك بالفعل ؟ ألا تشعرين بأنك مسئولة عنى ؟ ولد صغير مثل ذلك الولد - وجميل للغاية - وأبدّد أموالى على نباتات السحلبية والمجوهرات غالية الثمن ؟

- بالطبع أشعر بالمسئولية تجاهه ! فأصرّ فى نغمة مليئة بالصبر : إذن عليك أن تقدمى الحماية لى . انقذينى من الخَبَلْ والافتتان .

- أحاول .

- السوار كلفنى مئات الجنيهات - يمكنك أن تخمنى ذلك . وربما يكون ثمنه آلاف الجنيهات . وربما أكون قد سرقته من أجل أن أقدمه لك . وربما ارتكبت جريمة قتل من أجل الحصول على السوار . أو ربما رهنت ميراثى . كل هذا من أجلك . إننى مسلوب العقل والفؤاد يا تشارلى . عليك ممارسة نفوذك !

وفى داخل مُخيِّلتها «تشارلى» أجلست نفسها إلى جوار ميشيل فى المقعد المجاور له . وتشابكت يداها فى حجرها . تنحنى للأمام فى اهتمام لكى تجادل معه وتحاول إقناعه . كانت بمثابة ممرضة له وأمّ له وصديقة له .

- أقول له إنه سيشعر بالإحباط إذا عرفنى على حقيقتى .

– أريد سماع نصّ هذا الكلام على وجه الدقة لو سمحت ، أخذت تشارلى نفساً عميقاً ثم قالت فجأة (استمع إلىّ يا ميشيل . إننى مجرد فتاة عادية . ولدى أثواب ضيقة بالية وقديمة وممزقة . والمبلغ الذى سحبته من البنك أكبر من رصيدى الفعلى. وأنا بالتأكيد لست جان دارك . صدقنى . وأنا لست عذراء . ولست جندية مقاتلة . وأنا لم أتجاذب أطراف الحديث والكلام مع الله منذ أن طُردت من المدرسة بسبب) إننى لن أقول هذه الجزئية (اننى تشارلى . إننى إنسانة غير مبالية . إننى مومس من العالم الغربى) .

– عظيم . استمرى فى الكلام .

(يا ميشيل . أفعل ما بوسعى لكى أساعدك . حسنا ؟ لذلك . استردّ هذه الهدية واحتفظ بنقودك . واحتفظ بالأوهام . شكراً . أشكرك من كل قلبى . شكراً حقيقياً. انتهى حديثى معك !) .

اعترض يوسف فى حدة : ولكنك لا تريدين له أن يحتفظ بالأوهام . أو أتريدين ذلك؟

– وهو كذلك . يتوقف عن أوهامه اللعينة .

– إذن على أىّ نحو ينتهى الموقف ؟

– انتهى الموقف بالفعل . وضعتُ السوار على المقعد إلى جواره وسرتُ خارجة من الصالة . شكرا . باى باى . اسرعتُ إلى محطة الأتوبيس وأصل فى الوقت المحدّد من أجل تقديم عرض الدجاجة المطاطية على مسرح الأسترال .

وظهر الترويع على وجه يوسف . ورفع يده عن عجلة القيادة فى حركة توسّل نادرة:

كيف تفعلين ذلك يا تشارلى ؟ ألا تعرفين أنك تتركيننى لكى أرتكب جريمة الانتحار على ما يبدو . أو أجوب شوارع نوتنجهام التى اكتسحتها الأمطار طوال الليل ؟ وبمفردى ؟ بينما أنت تضطجعين إلى جوار نباتات السحلبية الخاصة بى

وبجوار البطاقة التى كتبتها لك ، تنعمين بالدفء الموجود فى الفندق الفاخر الذى تقيمين به .

– فندق فاخر ! يا إلهى . فالبـراغيث اللعينة الموجودة بالفندق تسبب الكآبة !

– ألا يوجد لديك إحساس بالمسئولية ؟ أنت من بين جميع الناس بمثابة البطلة أمام هذه الضحية – أمام هذا الولد الذى أوقعته فى الشراك بسبب جمالك الساحر ومواهبك وعاطفتك الثورية ؟

حاولت تشارلى أن تكبح جماحه . ولكنه لم يعطها الفرصة لتحقيق ذلك .

– لديك قلب دافئ يا تشارلى . الآخرون قد يظنون أن ميشيل فى تلك اللحظة ليس سوى شخص من النوع الذى يغوى الفتيات . ولكنك لست التى تؤمنين بذلك . فأنت تؤمنين بجماهير الناس . وأنت على ذلك النحو فى هذه الليلة مع ميشيل . وبدون أن تفكرى فى نفسك فأنت متأثرة به لدرجة كبيرة .

وعلى خط السماء أمامها كانت هناك قرية متداعية على هيئة ربوة عالية صغيرة يتجهان إليها فى صعودهما . وشاهدت تشارلى أضواء حانة ممتدة على جانب الطريق .

قال يوسف مستأنفا كلامه مع إلقاء نظرة سريعة على تشارلى : على أية حال فإن ردّ الفعل لديك فى هذه اللحظة يعتبر غير ملائم ؛ لأن ميشيل يقرر أخيراً أن يتكلم معك . وفى لهجة أجنبية رخيمة ممتزجة بالفرنسية يبدأ فى مخاطبتك دون أى خجل أو ارتباك أو كبتْ . يقول إنه غير شغوف بالجدل والمناقشات . إنك بمثابة كل شىء كان يحلم به وأنه يرغب فى أن يصبح حبيبك فى هذه الليلة يناديك باسم : جان رغم أنك تقولين له إن اسمك هو : تشارلى . فإذا كنت ستخرجين معه لتناول طعام العشاء . وإذا كنت – عقب العشاء – مازلت لا ترغبين فيه فإنه سوف يفكر فى استرداد السّوار . لا . تقولين أنه ينبغى عليه أن يستردّ السّوار الآن .. لديك بالفعل حبيب .

وعلاوة على ذلك تقولين : لا تكن سخيفاً إذ كيف يمكن أن يكون هناك عشاء فى نوتينجهام فى الساعة العاشرة والنصف فى ليلة ممطرة فى يوم السبت ؟ .. أيمكن لك أن تقولى هذا ؟ أهذا صحيح ؟

قالت بدون أن تنظر إليه : هذا خلاصى .

– وبالنسبة للعشاء يمكن لك أن تقولى علي وجه التحديد إن العشاء حلْم يتعذر تحقيقه ؟

– إنه صينى أو سمك مع شيبسى .

– ومع ذلك فقد قدمت تنازلا خطيرا له .

فقالت : كيف ؟

– لقد قدمت اعتراضا عمليا (لا نستطيع أن نتناول العشاء سويا لأنه لا يوجد هناك مطعم) ويمكن لك أيضاً أن تقولى إنه لا يمكن لكما أن تمارسا الجنس سويا لأنه ليس لديك سرير . ويحس ميشيل بهذا . فلا يبالى بالتردّد الذى ينتابك . فهو يعرف مكاناً وهو عمل الترتيبات اللازمة . لذلك . يمكن لنا أن نأكل . ولم لا ؟ .

وانحرف عن الطريق المرصوف وأوقف السيارة فى مكان أمام الحانة . وكانت تشارلى مشوشة بسبب قفزاته المتعمدة من الخيال الماضى إلى الزمن الحاضر كما كانت مبتهجة بسبب إرهاقه لها . شعرت بالارتياح لأن ميشيل لم يدعها تذهب . ولذلك ظلّت باقية فى مقعدها بالسيارة . ولذلك ظل يوسف باقيا بالسيارة أيضاً . ثم التفتت إليه وميّزت من خلال الأضواء الخافتة الموجودة بالخارج تجاه عينيه . كان يحملق فى يديها المترابطتين فى حجرها حيث يدها اليمنى فوق يدها اليسرى . وبدا وجهه من خلال الأضواء الخافتة المترامية من الخارج صارما وجامداً وخاليا من التعبيرات . مدّ يده وأمسك بمعصم يدها اليمنى فى حركة سريعة مليئة بالثقة . ورفع يدها لأعلى مما كشف عن معصم يدها . وحول معصم يدها يتلألأ السوار

الذهبى فى الظلام . وقال فى جمود يخلو من العاطفة : حسنا . حسنا . ينبغى أن أهنئك: . أنتم الفتيات الانجليزيات لا تضيعن الكثير من الوقت !

فجذبت يدها فى عنف وغضب . وقالت فى حدة : ماذا فى الأمر ؟ هل تشعر بالغيرة؟

إلا أنه لم يكن بمقدورها أن تؤذيه . لم يصفح وجهه عن شىء . مَنْ تكون أنت ؟ هكذا ساءلت نفسها فى تعجب عندما تبعته وسارت وراءه . هو ؟ أو أنت؟ أو أىّ شخص؟

الفصل التاسع

لم تكن تشارلى هى المركز الوحيد فى عالم يوسف فى تلك الليلة . ولا في عالم كيرتز . ولا فى عالم ميشيل بكل تأكيد .

فقبل أن تودع تشارلى وحبيبها المزعوم فيلا أثينا - بينما هما لايزالان في الرواية يرقدان بين ذراعى بعضهما البعض - كان كيرتز وليتفاك جالسين فى صفّين مختلفين فى طائرة تابعة لشركة لوفتهانزا ومتجهة إلى ميونيخ مسافرين حاملين جنسيات دول مختلفة ؛ إذ كان كيرتز مسافرا حاملا جنسية فرنسية بينما كان ليتفاك كنديا . وعقب هبوط الطائرة ذهب كيرتز على الفور إلى القرية الأوليمبية حيث ينتظره فى شغف المصورون المزعومون . بينما ذهب ليتفاك إلى فندق بياريخار هوف حيث قام بالترحيب به خبير فى الذخيرة معروف له باسم جاكوب فقط . وهو شخص مهتم بالأمور الغيبية والأمور الفكرية الخيالية ويرتدى سترة سويدية مبقعة . يحمل معه لفائف من الخرائط محفوظة فى ملفّ من البلاستيك .

وكان جاكوب الذى ادعى أمام الناس أنه مسّاح للأراضى قد أمضى الأيام الثلاثة الأخيرة فى القيام بأعمال مساحة الأراضى على طول الطريق السريع بين ميونيخ وسالزبورج . وكانت الأوامر الصادرة إليه هى أن يحسب التأثيرات المحتملة تحت ظروف مناخية مختلفة ناجمة عن تفجير شحنة ضخمة للغاية على جانب الطريق فى الساعات الأولى المبكرة فى صباح أىّ يوم من أيام الأسبوع فيما عدا يوم الأحد . وأثناء تناول العديد من فناجين القهوة الممتازة فى قاعة الانتظار بالفندق راح الرجلان يتناقشان فى الاقتراحات التى عرضها جاكوب . وبعدئذ استقلا سيارة أجرة وراحا يقطعان فى بطء مسافة الـ ١٤٠ كيلومتراً سويا مما

سبب المضايقات لحركة المرور السريعة حيث كان يتم التوقف بالسيارة الأجرة فى معظم النقاط المسموح بالتوقف فيها بل وفى بعض النقاط غير المسموح فيها بالتوقف .

ومن سالزبورج واصل ليتفاك مشواره بمفرده إلى فيّنا حيث ينتظره فريق جديد من المرافقين . وقام ليتفاك باعطائهم تعليمات نهائية في داخل غرفة المؤتمرات التى لا ينفذ منها الصوت والموجودة فى السفارة الإسرائيلية . وبعد أن نظر فى بعض المسائل الأخرى الصغيرة هناك بما فى ذلك قراءة أحدث النشرات الاخبارية الصادرة عن ميونيخ قادهم جنوبا فى قافلة نحو منطقة الحدود مع يوجوسلافيا حيث قاموا بالتعرف على أماكن جراجات السيارات ومحطات السكة الحديد وميادين الأسواق قبل أن يوزعوا أنفسهم على العديد من البنسيونات المتواضعة الموجودة فى منطقة فيلاخ . وبعد أن انتهى ليتفاك من نشر شبكته سارع بالعودة إلى ميونيخ لكى يضع الترتيبات النهائية الحاسمة الخاصة بالطُّعْم .

.. ..

كان استجواب يانوكا قد دخل فى يومه الرابع عندما وصل كيرتز ليتولى القيادة بنفسه . وكان الاستجواب قد سار حتى ذلك الحين فى شىء من السلاسة .

كان كيرتز قد حذّر الشخصين التابعين له بالقدس واللذين يقومان بالاستجواب قائلا : أمامكما ستة أيام معه كحدّ أقصى . لأنه بعد الستة أيام ستكون أخطاؤكما مستمرة وكذلك أخطاؤه .

لقد كانت هذه المهمة تروق لكيرتز . ولو كان بمقدوره أن يوجد فى ثلاثة أماكن فى وقت واحد بدلاً من مكانين لاحتفظ بهذه المهمة لنفسه . ولذلك فإنه اختار مندوبين عنه . وهما اخصائيان فى تناول الأمور بهدوء ، مشهوران بمواهبهما المسرحية وبالسحنة الطيبة الحزينة . ولم يكونا منتميين لعائلة واحدة بل ولم يكونا حبيبين مثلما كان يعتقد الناس . ولكنهما عملا فى توافق سويا لفترة طويلة حتى أن ملامح الصداقة بينهما أعطت إحساساً بأنهما نسخة طبق الأصل . وعندما استدعاهما

كيرتز لأول مرة إلى المنزل الموجود فى شارع دزرائيلى استقرت أيديهما الأربعة على حافة المنضدة مثل مخالب كلبين كبيرين . وهو عاملهما فى بادئ الأمر بخشونة لأنه شعر بالغيرة منهما ولأنه فى حالة نفسية تجعله يشعر أن التفويض بمثابة هزيمة. ولذلك اكتفى بتزويدهما بفكرة غامضة عن العملية وبعدئذ أصدر أوامره لهما بأن يدرسا الملف الخاص بيانوكا ويقدما تقريراً له مرة أخرى عقب دراسة كافة التفاصيل . وعندما عادا إليه بسرعة كبيرة راح يستجوبهما فى قسوة مع توجيه الأسئلة لهما عن فترة طفولة يانوكا وأسلوب حياته ونماذج تصرفاته وعن أىّ شىء من شأنه أن يكدرهما . وكانت اجاباتهما متقنة وسديدة . لذلك قام بشىء من الحقد والضغينة باستدعاء «لجنة القراءة والكتابة» والتى تتألف من مس باخ والكاتب ليون والعجوز شويللى الذى تمكن فى خلال الأسابيع المنصرمة إلى تحويلهم إلى فريق عمل متوافق . وكانت التعليمات النهائية التى أصدرها كيرتز بشأن هذا الموضوع نموذجاً كلاسيكيا لعدم الوضوح والإبهام .

وفى الاجتماع نوقشت الأمور التى تحتاج إلى المزيد من الخبرة والمهارة والدهاء ألا وهى : كيف يمكن اقناع يانوكا بالتوافق مع خططهم فى خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة ومرة أخرى تم استدعاء الخبراء السيكولوجيين التابعين لميشا جافرون . وتم الاستماع إلى آرائهم ثم تقرر طردهم . وأوفد كيرتز المستجوبين إلى ميونيخ قبل الموعد المحدّد لكى يشيدوا تأثيرات الصوت والضوء الخاصة بهم ويلقنوا الحراس الدور الخاص بهم . فوصلا على هيئة فرقة مكونة من قطعتين مع أمتعة ثقيلة وبدلتين تشبه بدل ساتشمو . وسافرت لجنة شويللى بعد يومين واستقرت بطريقة سرية فى الشقة السفلية وقدم أعضاء اللجنة أنفسهم على أنهم تجار مهنيون جاء وا من أجل حضور المزاد الكبير الذى يقام بالمدينة . وقد اقتنع الجيران بهذه القصة . وقالوا لبعضهم البعض : إنهم اليهود ولكن مَنْ الذى يهتم فى هذه الأيام ؟ إنهم بالطبع يمكن أن يكونوا تجارا وما هو الشىء الآخر الذى يمكن أن يتوقعه المرء ؟ وكان يوجد معهم - بالإضافة إلى جهاز تخزين المعلومات الذى يحمل فى اليد والخاص بـ «مس باخ» - أجهزة التسجيل على شرائط وسماعات الأذن وكراتين مليئة بالطعام المحفوظ فى معلبات علاوة على ولد نحيل يسمى : «صمويل

عازف البيانو» من أجل تشغيل «المبرقة الكاتبة» المتصلة مع جهاز القيادة الخاص بكيرتز . وكان صمويل يضع فى جيب سرى بمعطفه مسدسا كبيرا ماركة كولت . وعندما يقوم بالإرسال يسمعون صوت طرْق ناجم عن ارتطام مسدسه بالمكتب . إلاّ أنه لم يستخرج مسدسه من جيبه على الإطلاق . وكان هادئ الطباع مثل دافيد الموجود في بيت أثينا . بل وكان يبدو من حيث السلوك وكأنه توأم لدافيد .

كانت مس باخ هى المسئولة عن تخصيص الغرف . وقد خصصت غرفة الأطفال لكى يشغلها ليون نظراً لأنها غرفة هادئة للغاية . أما المطبخ المتصل بالفناء الخلفى فتم تخصيصه لصمويل حيث قام بتركيب الإيريال الخاص به وعلق عليه جوارب خاصة بالأطفال . ولكن عندما وقع نظر شويللى على غرفة النوم التى خصصت له لكى يستخدمها أطلق صيحة أسف على الفور ، وقال :

– الضوء الخاص بى ! يا إلهى أنظروا إلى الضوء الخاص بى ! لا يمكن لرجل أن يزوّر خطابا مرسلا لجدّته تحت مثل هذا الضوء !

ومع ترنح ليون أمام هذه العاصفة غير المتوقعة فإن مس باخ المتسمة بالطابع العملى أدركت وجود المشكلة على الفور : إن شويللى بحاجة للمزيد من الضوء من أجل أن يتمكن من إنجاز أعماله ولكن أيضا من أجل نفسه عقب سجنه الطويل . وفى لمح البصر اتصلت تليفونيا بالدور العلوى . وظهر الأولاد الأرجنتينيون . وتم نقل الأثاث بسرعة تحت توجيهاتها وبحيث تم وضع مكتب شويللى تحت نافذة غرفة الجلوس التى تطل على السماء والأوراق الخضراء .

وقبل أن يتلاشى ضوء المساء وضع شويللى أحباره الغالية وأقلامه وأدوات مكتبه وكل شىء فى المكان المخصص له كما لو كان الغد سيشهد امتحانه الكبير الهام . ثم فكّ . أزرار كُمّىّ قميصه . وراح يحك راحتى يديه فى بطء مع بعضهما البعض رغم أن الجو كان دافئا بما فيه الكفاية بالنسبة لسجين قديم . ثم خلع قبعته . وأخذ يجذب أصابعه الواحد تلو الآخر ويطرقعها . ثم لاذ بالانتظار مثلما كان ينتظر طوال فترة شبابه .

.. ..

جاء النجم الذى انتظروه بالطائرة إلى ميونيخ فى نفس تلك الليلة عن قبرص . ولم يتم الاحتفال بوصوله من خلال فلاشات الكاميرات لأنه جاء محمولا على نقالة تحت إشراف طبيب خاص . أما الطبيب فكان طبيبا حقيقيا رغم أن جواز سفره كان زائفاً . أما بالنسبة ليانوكا فهو كان بمثابة رجل أعمال بريطانى يعمل فى نيقوسيا ويتم إحضاره على وجه السرعة إلى ميونيخ لكى تُجرى له جراحة فى القلب. وقد أكد ذلك ملف ملئ بالتقارير والأوراق الطبية . إلا أن السلطات الألمانية بالمطار لم تلق نظرة على تلك التقارير ولم تبد أىّ اهتمام . ونقلت عربة اسعاف الرجل المريض ومرافقيه بسرعة فى اتجاه مستشفى المدينة . ولكن السيارة غيرت اتجاهها ودخلت فى شارع جانبى . وانزلقت إلى الفناء المغطى الخاص بحانوتى صديق . وبعد دقائق قاموا بوضعه فى حرص وحذر على الأرض حيث يتوقعون له أن يفيق من المخدر فى خلال نصف ساعة تقريباً . رغم أنه كان من المتوقع دائماً أن تؤدى القلنسوة التى وضعت على رأسه وقبته والتى لا ينفذ منها الضوء إلى تأخير عملية الاستيقاظ . وبعد ذلك بوقت قصير انصرف الطبيب . وهو رجل حىّ الضمير . كان يشعر بالقلق على مستقبل يانوكا وسعى للحصول على تأكيدات من كيرتز بأنه لن يطلب منه أن يُعرّض مبادئه الطبية للفضيحة أو الشبهات .

وفى أقل من أربعين دقيقة شاهدا يانوكا وهو يجذب قيوده التى تقيد معصميه أولا ثم القيود التى تربط ركبتيه . وبعدئذ راح يجذب كل القيود فى آن واحد وكأنه حشرة تحاول تفجير جلدها إلى أن أدرك أنه مقيد مع جذب وجهه إلى أسفل . حيث توقف عن الجذب وراح يقيّم الوضع . ثم أطلق زمجرة على سبيل التجربة . وبعد ذلك أطلق صرخات ملتاعة مدوية وتلوى وألقى بجسده بقوة فيما حوله . وبعد أن شاهد المستجوبون هذا الأداء انسحبوا . وتركوا الحراس فى الموقع إلى أن هدأت العاصفة . وربما كان ذهن يانوكا محشواً بقصص رهيبة عن وحشية الوسائل التى يلجأ إليها الإسرائيليون . كانت التعليمات قد صدرت للحراس بأن يقوموا بدور السجان الحزين وألا يسببوا له أية إصابات . فنفذوا التعليمات تنفيذا دقيقاً رغم

أن أوديد كان يشعر بالغيظ الشديد ويموج بالكراهية ضد يانوكا ولا يرغب فى أن يشاهد يانوكا على قيْد الحياة تحت سقفهم .

وأخيرا بدا على يانوكا كأنه يغفو فى نعاس مرة أخرى . وقرر المستجوبون أن الوقت حان لأن يبدأوا جولتهم . لذلك شغّلوا أصوات حركة المرور الصباحية وأضاءوا كميات كبيرة من الأنوار الكهربائية البيضاء اللون . وأحضروا له طعام الافطار - رغم أن الوقت كان فى منتصف الليل - مع إصدار الأوامر بصوت مرتفع للحراس لكى يفكوا قيوده ويدعونه يأكل مثل آدمى وليس مثل كلب . ثم قاموا بأنفسهم بفكّ غطاء الرأس والعنق الخاص به فى قلق وجزع . لأنهم أرادوا أن تكون أول معرفة له بهم متمثلة فى وجوههم الشفوقة غير اليهودية التى تنظر إليه فى اهتمام أبوى .

قال أحدهم موجها كلامه للحراس فى هدوء باللغة الانجليزية : لا تضعوا أبداً مثل هذه الأشياء عليه مرة أخرى ثم أصدر تنهيدة غاضبة وألقى بالسلاسل وغطاء الرأس والعنق فى ركن بالغرفة .

انسحب الحراس - وأوديد بصفة خاصة انسحب فى إحجام مسرحى - ثم وافق يانوكا على تناول قَدْر ضئيل من القهوة بينما صديقاه الجديدان ينظران إليه فى ارتياب . وكانا يدركان أنه يشعر بالعطش الشديد وبذلك ستكون القهوة رائعة المذاق بالنسبة له . كانا يدركان أيضاً أن ذهنه فى حالة من الانقسام والتحطيم الشبيه بالأحلام ولذلك يكون ذهنه هشاً فى مجالات معينة : مثال ذلك عندما يتعرض للحنان . وبعد أن قام المستجوبان بزيارات عديدة مماثلة فإنه تقرّر القيام بعمل حاسم وتعريف نفسيهما عليه . وكانت خطتهما من حيث الإطار الخارجى من أقدم الخطط المعروفة . إلاّ أنها كانت تحتوى على تنويعات صريحة .

إذ قالا باللغة الانجليزية إنهما من مراقبى الصليب الأحمر . وإنهما من الشعب السويسرى . ويقيمان هنا بالسجن . وأشارا إلى أنهما ليس لهما حرية الإفصاح عن اسم السجن . إلا أنهما أعطيا تلميحات واضحة تفيد بأن السجن موجود فى

اسرائيل . وأظهرا تصاريح لافتة للنظر خاصة بالسجن ومحفوظة فى أكياس من البلاستيك ومزودة بصورة فوتوغرافية لهما وبصلبان حمراء على هيئة خطوط متموجة مثل أوراق البنكنوت بهدف منع التزوير السهل . وأوضحا أن مهمتهما تنحصر فى التأكد من أن الاسرائيليين يراعون تطبيق القوانين التى تتعلق بالأسرى وسجناء الحرب والتى تم التوصل اليها فى مؤتمر جنيف. ولكنهما أوضحا أن ذلك ليس بالأمر السهل. وأوضحا أنهما يهدفان إلى ربط يانوكا بالعالم الخارجي بقدر ماتسمح به قوانين السجن. وأشارا إلى أنهما يمارسان ضغوطا من أجل اخراجه من الحبس الانفرادى وربطه بالكتلة العربية. إلا أنهما أدركا أن «استجوابا صارماً» بصدد البدء فى القريب العاجل. وبذلك فان الاسرائيليين يرغبون فى الإبقاء عليه فى حالة من العزلة. وأوضحا أن الاسرائيليين فى بعض الأحيان يفقدون أنفسهم بسبب تعرضهم لهواجس غير سوية وبالتالى ينسون صورتهم أمام العالم تماما. ونطقا كلمة «استجواب» فى شيء من الاستياء كما لو كانا يرغبان فى استخدام كلمة أخرى أفضل من ذلك. وعند هذه المرحلة دخل أوديد – وفقا للتعليمات الصادرة اليه – وتظاهر بالانشغال ببعض الأمور الصحية وعدم انتشار الأمراض. وعندئذ توقف المستجوبان عن الكلام على الفور إلى أن غادر أوديد المكان .

وبعد ذلك استخرجا استمارة مطبوعة كبيرة الحجم. وساعدا يانوكا على ملأ الاستمارة بخط يده : الاسم وتاريخ الميلاد وأسماء الأقارب والمهنة – وهى مهنة طالب. أليس كذلك ؟ والمؤهلات والديانة. نحن نأسف لكل ذلك ولكنها التعليمات والتنظيمات هى التى تنص على ذلك. استجاب يانوكا بالقدر الكافى. رغم أنه أحجم عن ذلك فى بداية الأمر. وهذه الدلائل الأولى التى تشير إلى تعاونه قد سجلتها «لجنة القراءة والكتابة» الموجودة بالدور الأول فى ارتياح هادىء. ولو أن خط يده كان يبدو صبيانيا تحت تأثير المخدرات .

ولدى استئذانهما قدم المستجوبان ليانوكا نشرة صغيرة مطبوعة تتضمن حقوقه. وغمزا له بالأعين. وربتا على كتفه وأعطياه قضيبين من الشيكولاته السويسرية . وخاطباه بالاسم الأول له: ألا وهو: سالم وعلى مدى ساعة ومن الغرفة

الملاصقة كانوا يرقبونه بواسطة الأشعة تحت الحمراء بينما كان هو مستلقيا فى الظلام الحالك ومنخرطا فى البكاء ومطوحا برأسه من وقت لآخر. وبعدئذ زادوا من الإضاءة وأقحموا أنفسهم فى ابتهاج. وقالوا بصوت مرتفع.. «أنظر لترى ما أحضرناه لك. انهض ياسالم. لقد حلّ الصباح» لقد كان خطاباً موجها اليه بالاسم. وكان عليه خاتم بريد بيروت. ومرسل إليه بمعرفة هيئة الصليب الأحمر. ومكتوب عليه عبارة.. «حصل على موافقة الرقابة الخاصة بالسجن» والخطاب مرسل من أخته الحبيبة فاطمة التى أعطته التعويذة ليرتديها حول عنقه. وكان شويللى قد قام بتزوير هذا الخطاب. وكان المس باخ هى التى ألفته. وكانت موهبة ليون هى التى قدمت النبض الحقيقى لمحبة فاطمة التى تميل الى النقد القاسى. وكانت النماذج التى استرشدوا بها هى الخطابات التى استلمها يانوكا من فاطمة أثناء فترة وضعه تحت المراقبة. لقد أبدت فاطمة رغبتها أن يظهر سالم الشجاعة عندما يجيىء الوقت العصيب الخاص به. وهى على مايبدو كانت تعنى بكلمة «الوقت» ذلك الاستجواب الرهيب الذى سيتم. وأشارت فى خطابها إلى أنها قررت أن تقطع علاقاتها مع صديقها الخاص بها. كما قررت ترك وظيفتها المكتبية واستئناف العمل فى مجال تقديم الرعاية والإنقاذ فى منطقة صيدا. لأنها لم تعد تستطيع أن تتحمل أن تكون بعيدة للغاية عن منطقة الحدود الخاصة بفلسطين الحبيبة بينما يانوكا يمّر بأوقات عصيبة مليئة باليأس. وأشارت فى خطابها إلى أنها معجبة به وأنها ستكون دائماً معجبة به. وقد أقسم ليون على ذلك. ولقد تقبل يانوكا هذا الخطاب فى شىء من عدم المبالاة. ولكنهم عندما تركوه بمفرده مرة أخرى ربض جاثما ومتضرعا وقد نشر ذراعيه لأعلى مثل شهيد ينتظر نزول السيف عليه بينما كان ممسكا بخطاب فاطمة ويضغط بكلماتها على خدّه .

وقال للحراس عندما عادوا بعد ساعة لكى ينظفوا زنزانته:

– إننى أطلب ورقا وأطلب مجيىء ممثلى الصليب الأحمر. أريد أن أكتب خطابا – وفقا لما تنص عليه اتفاقية جنيف – إلى أختى فاطمة! نعم! وتلك الكلمات أيضا

قد لاقت الترحيب فى الدور الأرضى نظرا لأنها برهنت أن أول عرض قدمته لجنة «القراءة والكتابة» قد حاز القبول من جانب يانوكا. وقد تم إرسال نشرة خاصة إلى أثينا. وتسلل الحارسان خارجين فى خلسة وعادا ومعهما كمية كبيرة من الأوراق والأدوات الكتابية الخاصة بهيئة الصليب الأحمر. كما قاما بإعطاء يانوكا نسخة من نشرة مطبوعة تحت عنوان «نصائح إلى السجناء» توضح أنه ينبغى الكتابة باللغة الانجليزية فقط وأنه «لن تُقبل الخطابات التى تتضمن رسالة مخبأة بين طيات الخطاب» واكتشف يانوكا عدم وجود قلم فطالب بإحضار قلم وتوسل لكى يتم تزويده بقلم. ثم صرخ فيهما وبكى. وتم كل ذلك بالحركة البطيئة. إلا أن الحارسين قالا على نحو حاسم وفى وضوح تام أن معاهدة جنيف لم تتعرض لمسألة الأقلام. وبعد مرور ساعة جاء المستجوبان مهرولين وقد اعتراهما الغضب. وقدما قلماً بمبادرة منهما. وكان القلم مكتوبا عليه عبارة «من أجل الإنسانية» واستمرت التمثيلية التحذيرية على مدى ساعات عديدة أخرى بينما يانوكا يكافح لكى يرفض اليْد الممدودة له بالصداقة ولكن دون جدوى. وكان ردّه الكتابى على فاطمة كلاسيكيا؛ إذ كتب خطاباً يتكون من ثلاث صفحات ويتسم بعدم ترابط الأفكار. وهو خطاب ملىء بالنصائح والإشفاق على الذات والرثاء والمواقف الشجاعة مقدما بذلك لشويللى أول عينة «نظيفة» من خط يد يانوكا الواقع تحت الضغوط العاطفية ومقدما لليون دلالة ممتازة عن أسلوبه النثرى باللغة الإنجليزية .

إذ كتب يانوكا مايلى «ياأختى الحبيبة. إننى الآن وعلى مدى أسبوع أواجه الاختبار المشئوم فى حياتى. وهو الاختبار الذى ستصاحبنى فيه روحك العظيمة». وهذه الأنباء أيضاً كانت موضوع نشرة خاصة: إذ كان كيرتز قد أبلغ مس باخ بتعليمات صريحة قائلاً لها «إرسلى لى أىّ شىء وكل شىء. فأنا لا أريد أىّ حالات من الصمت. وإذا لم يكن هناك شىء ما يحدث ينبغى عليك أن ترسلى اشارة لى تقولين فيها إن شيئا ما لا يحدث» . كما قال كيرتز لليون:

– ينبغى عليك أن تتأكد أنها ترسل اشارات لى كل ساعتين على الأقل. والأفضل كل ساعة .

وكان خطاب يانوكا المرسل إلى فاطمة هو أول خطاب من سلسلة خطابات عديدة. وفى بعض الأحيان كانت خطاباتهما تتلاقى فى الطريق: وفى بعض الأحيان كانت تجيب فاطمة على تساؤلاته بمجرد أن يوجه الأسئلة اليها. ثم توجه الأسئلة الخاصة بها رداً على أسئلته .

.. ..

وكان كيرتز قد أبلغهم بأن يبدأوا من النهاية. والنهاية فى هذه الحالة كانت بمثابة أميال من الدردشة التى تبدو غير وثيقة الصلة بالموضوع. وعلى مدى ساعات متلاحقة راح المستجوبان يدردشان مع يانوكا ويشجعانه من خلال الإخلاص السويسرى المتبلد الحسّ علاوة على تدعيم مقاومته ضد اليوم الذى قام فيه الإسرائيليون بجره إلى الاستجواب. وفى بادىء الأمر تمّ السعى للحصول على آرائه فيما يتعلق بكل شىء يرغب فى مناقشته علاوة على تملقه من خلال إبداء حب الاستطلاع والاحترام والتجاوب معه.

وقد اعترفا له فى نوع من الخجل والارتباك بأن السياسة لم تكن فى أىّ وقت من الأوقات مجال اهتمامهما : فهما يميلان دائما لأن يضعا الإنسان فوق الأفكار. بل وقام أحدهما بالاقتباس من أشعار روبرت بيرنز الذى اتضح أنه من الشعراء المفضلين لدى يانوكا أيضا. ووجها إليه أسئلة عن ردود فعله إزاء العالم الغربى طالما أنه أمضى بالعالم الغربى عاماً أو أكثر بحيث يعطى انطباعه فى بادىء الأمر بوجه عام ثم انطباعه إزاء الدول الواحدة تلو الأخرى. وكانا يصغيان فى انتباه شديد إلى التعميمات التى يبديها : أنانية الفرنسيين وحرصهم على تحقيق مصلحتهم الشخصية وشراهة الألمان وانحطاط وتفسّخ الايطاليين .

وتساءلا فى براءة : وماذا عن انجلترا ؟

فقال على نحو حاسم : «انجلترا هى أسوأ الدول جميعاً. وإنها متفسخة. ومفلسة. وعديمة الشخصية وإنها عميلة الاستعمار الأمريكى. وبمثابة كل شىء ردىء. لقد ارتكبت أكبر جريمة لأنها أعطت بلاده للصهاينة». وشن نقدا ساخرا

عنيفاً ضد إسرائيل فسمحا له بذلك. إذ لم يرغبا فى هذه المرحلة أن يثيرا أدنى شك في داخله من حيث أن أسفاره إلى انجلترا كانت لها طبيعة خاصة. وبدلاً من ذلك سألوه عن فترة طفولته .

– عن والديه وعن منزله فى فلسطين. ولقد لاحظا فى ارتياح هادىء أنه لم يذكر اسم أخيه الأكبر ولو مرة واحدة ، ولاحظا أن يانوكا سيظل يتحدث عن أمور تعتبر غير ضارة بقضيته .

وراحا يصغيان فى تعاطف إلى القصص التى أوردها والتى تتعلق بالأعمال الوحشية التى مارسها الصهاينة . والتى تتعلق بذكرياته عن أيامه عندما كان يلعب كحارس مرمى فى فريق كرة القدم المظفر الخاص به فى مدينة صيدا .

وقالا له : حدثنا عن أفضل مباراة لعبتها. وعن أفضل إنقاذ للكرة وعن الكأس الذى كسبته ومنْ الذى كان هناك عندما قام أبو عمار العظيم بوضع الكأس فى يديك ! وفى تلعثم وارتباك أجاب يانوكا على أسئلتهما. وفى الدور الأرضى دارت أجهزة التسجيل وأدخلت مس باخ الشرائط الواحد تلو الآخر ومرّرت النشرات إلى صمويل من أجل أن يبعث بها إلى القدس وإلى نظيره: دافيد الموجود فى أثينا. وفى تلك الأثناء كان ليون غارقا فى عالمه الخاص به. وكانت عيناه شبه مغلقتين وكان منهمكا فى دراسة لغة يانوكا الانجليزية المفرطة فى الحساسية: وفى أسلوبه فى الأداء والإلقاء وتدفقه نحو الازدهار الأدبى والإيقاع ومفردات لغته وتغييره لموضوع الكلام الذى كان يحدث فى منتصف العبارات. ولكن فى بعض الأحيان كان ليون يلاحظ أن يانوكا يتعرض لنوبات من اليأس. وبعد لحظات قليلة كان ليون يشاهده وهو يتمشى فى أرجاء غرفته ويقدّر أبعادها .

ولم يتحدثا معه عن المذكرات اليومية الخاصة به – وهو موضوع ينطوى على المخاطر – إلاّ فى اليوم الثالث. كان المراقبون قد عثروا على تلك المذكرات اليومية فى نفس اليوم الذى تمّ فيه اختطاف يانوكا. حيث قام ثلاثة منهم باقتحام شقته، وكانوا يرتدون أفرولات عليها بادجات تفيد بأنهم عمال يعملون فى شركة تجارية

متخصصة فى أعمال النظافة. وأخرجوا من العربة الفان أدوات النظافة وسُلماً من النوع الذى يُطوى ثم أغلقوا باب الشقة عليهم وجذبوا الستائر وانطلقوا يعملون فى داخل الشقة على مدى ثمانى ساعات مثل الجراد حيث قاموا بتفحص كل شىء ، وتصوير كل شىء . ثم أعادوا كل شىء إلى حالته .

ومن بين الأشياء التى عثروا عليها مفكرة الجيب اليومية التى أهديت له من خطوط طيران الشرق الأوسط . وكانوا يعرفون أنه لديه مذكرات يومية ولكنها لم تكن موجودة معه بالسيارة أثناء إلقاء القبض عليه. ولذلك ابتهجوا لدى العثور عليها فى شقته. وكان يوجد بالمذكرات بعض المداخل والأبواب المكتوبة باللغة العربية والبعض مكتوب بالفرنسية أو الانجليزية. أما البعض الآخر فلا يمكن فكّ رموزه بأية لغة. وكانت المذكرات الموجزة تتعلق بالمواعيد واللقاءات التى ستتم مستقبلا. الاّ أن البعض قد أضيف على سبيل تأمّل الأحداث الماضية. «تقابلتُ مع ج . واتصلتُ تليفونيا بـ ب. » اكتشفوا هدية أخرى كانوا يبحثون عنها. ظرف مانيلا ممتلئاً بلفائف من الإيصالات المرتبة وفق تواريخها من أجل أن يعدّ يانوكا الحسابات الخاصة بأعماله .

وقد صدرت التعليمات للفريق بأن يسرق هذه الإيصالات أيضاً ولكن كيف يمكن تفسير المداخل الحاسمة فى المذكرات اليومية ؟ وكيف يمكن حلّ الشفرة بدون مساعدة يانوكا ؟

وبالتالى كيف يمكن الحصول على العون والمساعدة من يانوكا ؟

وفكروا فى مسألة زيادة حجم المخدرات التى تُعطى له. إلاّ أنهم رفضوا هذه الفكرة ؛ إذ خشوا أن يُصاب بالتشويش التام. كما أن اللجوء إلى العنف يعنى التخلص من كافة النوايا الطيبة التى غرسوها. بالإضافة إلى أنهم كمهنيين استهجنوا نفس هذه الفكرة. وفضلوا الاعتماد على الأمور التى شيدوها بالفعل : الاعتماد على الخوف أن الاستجواب الاسرائيلى الرهيب على وشك الحدوث. لذلك

قاموا بإحضار خطاب عاجل إليه مرسل من فاطمة وهو من أحسن الخطابات التى صاغها ليون : «لقد سمعت أن الاستجواب سيحدث فى القريب العاجل وأتوسل اليك - وأدعو الله - أن تكون شجاعاً» أضاء وا له الأنوار لكى يتمكن من قراءة ذلك الخطاب ثم اطفأوا الأنوار مرة أخرى، ثم ظلوا بعيدين لفترة أطول مما هو معتاد. وتحت الظلام الحالك شغلوا شرائط مسجل عليها صرخات مكتومة ورنين أبواب الزنزانات البعيدة وأصوات جسد يتم جرّه فى السلاسل والقيود على طول دهليز حجرى. وبعدئذ شغلوا صوت المزمار البلدى الجنائزى الذى تعزفه فرقة عسكرية فلسطينية موسيقية. فاعتقد أنه قد مات . واستلقى صامتا لبعض الوقت. وأرسلوا له الحراس الذين جردوه من ملابسه. ووضعوا القيود فى يديه مع ربطها وراء ظهره. ثم وضعوا قيودا جديدة فى رسغيه وقدميه. وبعدئذ تركوه بمفرده مرة أخرى. كما لو كانوا سيتركونه للأبد. وسمعوه وهو ينتحب ويقول «لا. لا مستحيل» ويكرر تلك العبارة بصفة مستمرة .

وألبسوا صمويل سترة قصيرة بيضاء وأعطوه سماعة طبيب . وجعلوه ينصت لمعدلات دقات قلب يانوكا. وتمّ كل ذلك فى الظلام الحالك. ولكن ربما كان المعطف الأبيض مرئيا بالنسبة ليانوكا. ثم تركوه بمفرده مرة أخرى. ومن خلال الأشعة تحت الحمراء شاهدوه يتفصّد عرقا ويرتعد. وبدا عليه أنه يفكر فى الانتحار بأن يضرب رأسه فى الحائط وهى الحركة الوحيدة التى يمكنه القيام بها وهو مكبل بالأغلال. إلا أن الحائط كانت مبطنة باللباد والألياف. ولو راح يضرب رأسه فى الحائط طوال العام لما حدث له أية إصابات. وشغّلوا اسطوانات مليئة بالصراخ لكى يسمعها. ثم لانوا بالصمت المطبق. وبعدئذ أطلقوا رصاصة فى الظلام. فجفل لدى سماع طلقة الرصاص. وبعدئذ شرع فى العواء. ولكنه عواء هادىء وكأنه لم تعد لديه القوة التى تعينه على العواء بصوت مرتفع .

وبعدئذ قرروا التحرك .

سار الحارسان فى بادىء الأمر إلى داخل زنزانته ورفعاه لكى يقف على قدميه، كانا قد ارتديا ملابس خفيفة يستعدان للقيام بأنشطة شاقة وعنيفة. وما إن تمكنا من جرّ جسده المرتعش لمسافة تصل إلى باب الزنزانة حتى ظهر منقذا يانوكا السويسريان وسدّا الطريق وقد بدا على وجهيهما الشفوقين دلائل الاهتمام الشديد والغضب . وبعدئذ تفجر نقاش بين الحارسين والرجلين السويسريين باللغة العبرية. فلم يفهم يانوكا من الحوار سوى قَدْر ضئيل .

وقال الرجلان السويسريان إن استجواب يانوكا يجب أن يصدق عليه أولاً الحاكم: فالقانون رقم ٦ الفقرة رقم ٩ من معاهدة جنيف أوضحت بكل تأكيد أنه لا ينبغى احتجاز أحد لفترة طويلة بدون موافقة من الحاكم وبدون وجود طبيب. الاّ أن الحارسين لم يكترثا باتفاقية جنيف. واعترضا على كل ماقاله السويسريان. وقالا إنهما لا يعترفان باتفاقية جنيف . وكاد أن ينشب الشجار والعراك. إلاّ أن التجمل بالصبر السويسرى هو الذى منع حدوث الشجار. وتم الاتفاق على أن يذهبوا الأربعة إلى الحاكم من أجل الحصول على قرار فورى. لذلك خرجوا جميعا من الزنزانة تاركين يانوكا بمفرده فى الظلام مرة أخرى. وسرعان ما شوهد وهو ينحنى على الحائط ويصلى لله رغم أنه لم يكن لديه فكرة عن الجهة التى يوجد بها الشرق .

وبعدئذ عاد السويسريان بدون أن يكون معهما الحارسان وقد بدا عليهما الوقار والحزن الشديد. وأحضرا معهما المذكرات اليومية الخاصة بيانوكا. وكأن المذكرات قد غيرّت الأمور تغييرا جذريا .

وكان معهما أيضا جوازا سفره الإضافيان : أحدهما جواز سفر فرنسى والآخر جواز سفر قبرصى واللذان قد عثرا عليهما مخبأين تحت ألواح خشب الأرضية فى شقته علاوة على جواز السفر القبرصى الذى كان مسافرا به فى الوقت الذى تمّ فيه اختطافه .

وبعدئذ راحا يشرحان المشكلة التى تواجههما. فى كدّ وجهد. وأوضحا أنه بناء

على طلب الإسرائيليين فإن السلطات فى ألمانيا الغربية أجرت تفتيشا فى شقته الموجودة فى أواسط ميونيخ. وقالا إنهم وجدوا هذه المذكرات اليومية وجوازى السفر. كما عثروا على كميات من مفاتيح الألغاز الأخرى التى تتعلق بتحركاته على مدى الشهور القليلة الماضية وهم مصممون الآن على فحص تلك الأمور. وآثار السويسريان أنهما أوضحا للحاكم أن مثل هذا الاجراء غير قانونى ولا لزوم له.

واقترحا على الحاكم أن يقوم الصليب الأحمر بوضع هذه الوثائق أمام السجين والحصول منه على شرح وتوضيح للأمور الرئيسية الواردة فى هذه الوثائق. وليقم الصليب الأحمر بكل أدب واحتشام بتوجيه الدعوة للسجين بإعداد بيان، إذا وافق الحاكم، مكتوب بخط يد السجين عن الأماكن التى وُجِد فيها السجين خلال الشهور الستة الأخيرة مع ذكر التواريخ والأماكن وذكر أسماء الأشخاص الذين تقابل معهم علاوة على بيـــان بالأماكن التى أقام بها وبيان بالأوراق التى استخدمها فى أسفاره .

وهنا تجرآ وعرضا على يانوكا – أو سالم كما يسمونه الآن – نصيحة خاصة من جانبهما . إذ توسلا اليه أن يلتزم أولا وقبل كل شىء بالدقة الشديدة. ثم أجلساه إلى منضدة وزوداه ببطانية وقاما بفك قيود يديه وأوضحا له بألا يقول شيئا عن الأمور التى يرغب فى أن يجعلها فى طىّ الكتمان ولكن ينبغى عليه أن يكون متأكدا تماما من أنه يقول الصدق بالنسبة للأمور التى يتحدث عنها . وقالا له : «تذكر أننا لدينا سمعتنا الطيبة من حيث المحافظة على الأسرى. وفكر فى أمثالك والذين يجيئون بعدك. ولبذل كل مافى جهدك من أجلهم إن لم يكن من أجلنا» . أوحت الطريقة التى قالا بها هذا الكلام أن يانوكا فى سبيله إلى الاستشهاد من أجل مبادئه. وعندما أمسك يانوكا بالقلم المعروض عليه فانهما قرآ فى عينيه أنه يتوسل إليهما بأن يستمرا فى خداعه .

.. ..

وفى اليوم التالى الذى أعقب هذه المشاهد الدرامية وصل كيرتز قادما من أثينا *مباشرة. وكان وصوله فى وقت تناول طعام الغداء .*

ولقد جاء لكى يتفحص الأعمال اليدوية التى يقوم بها شويللى ولكى يعطى موافقته الشخصية على المذكرات اليومية وجوازات السفر والإيصالات وبحيث تعود كل هذه الأشياء الى أماكنها الأصلية .

وكان يقع على عاتق كيرتز أيضاً مهمة الرجوع إلى البداية. ولكنه جلس أولا فى شقة الدور الأرضى. وقام باستدعاء كل شخص باستثناء الحارسين وجعل كل شخص يعطيه فكرة مختصرة عن أسلوبه فى العمل ومدى التقدم الذى أحرزه. وكان كيرتز يرتدى القفاز القطنى الأبيض وبدا عليه وكأنه أكثر تشددا مما كان عليه أثناء الاستجواب الذى أجراه على تشارلى والذى استمر طوال الليل .

وراح يتفحص الأمور التى عرضوها عليه. وراح يصغى فى انتباه إلى التسجيلات التى سُجلت على شرائط عن اللحظات الحاسمة. كما راح يرقب فى إعجاب بينما الكومبيوتر الخاص بالمس باخ يطبع يوما وراء يوم الفترة الأخيرة من حياة يانوكا بخط أخضر على الشاشة التليفزيونية الخاصة بالكمبيوتر : التواريخ وأرقام رحلات الطيران ومواعيد الوصول بالطائرة وأسماء الفنادق. ثم راح يرقب مرة أخرى عندما قامت مس باخ بتركيب الرواية : «يكتب خطابا لتشارلى من فندق المدينة فى زيوريخ – الخطاب يصل إلى مطار دى جول الساعة ١٨٢٠ .... يتقابل مع *تشارلى فى فندق إكسلسيور* هيثرو... يتصل تليفونيا بتشارلى من محطة السكة الحديد بميونيخ ....» .

وبعد أن انتهى كيرتز من كل ذلك، وكانت الفترة المسائية قد حلت آنئذ خلع القفاز وارتدى الزى الرسمى للجيش الاسرائيلى الذى عليه بادج برتبة كولونيل علاوة على بعض الشرائط القليلة الموجودة على جيبه الأيسر. وغير من ملامحه الخارجية بحيث أصبح صورة طبق الأصل من رجل عسكرى يعمل ضابطا فى السجن. ثم صعد فوق أطراف أصابعه إلى الدور العلوى نحو نافذة المراقبة حيث

راح لبعض الوقت يرقب يانوكا عن كثب. ثم أرسل أوديد ورفيقه الى الدور الأرضى وأصدر لهما الأوامر المشددة بأنه ينبغى تركه على انفراد مع يانوكا فى خلوة تامة. وتكلم كيرتز باللغة العربية بصوت بيروقراطى رمادى مع يانوكا موجها إليه بعض الأسئلة القليلة البسيطة السخيفة التى تتعلق بأمور صغيرة : من أين جاء فتيل معين أو متفجرات معينة أو سيارة معينة. أو سؤال عن المكان على وجه الدقة مثل أين تقابل يانوكا مع الفتاة قبل أن تقوم الفتاة بزرع قنبلة . بادنسبرج. وكان كيرتز يستعرض معلوماته التفصيلية بطريقة عرضية للغاية مما تسبب فى شعور يانوكا بالرعب الشديد. بل إن يانوكا اضطر الى الصراخ فى وجه كيرتز لكى يجعله يلتزم بالهدوء والصمت لأسباب تتعلق بالأمن. وشعر بالحيرة والدهشة بسبب ردود الفعل هذه التى ظهرت على يانوكا .

فقال كيرتز محتجا وقد ظهر عليه الغباء الذى يلازم الناس عادة الذين يمضون فترة طويلة فى السجن سواء أكانوا حراساً أم نزلاء: ولكن لماذا ينبغى علىّ أن التزم بالصمت والهدوء ؟ وأضاف : إذا كان أخوك الأكبر لا يلتزم بالصمت فما هى الأسرار التى تبقت لى لكى أحافظ عليها ؟

ووجه ذلك التساؤل ليس من حيث هو إفصاح عن شىء ولكن من حيث هو نتيجة منطقية لمعلومة من المعلومات العامة المعروفة وبينما كان يانوكا مازال مستمرا فى الحملقة فيه فى وحشية قام كيرتز بإبلاغه ببعض الأمور الأخرى القليلة عن نفسه والتى لا يعرفها سوى أخيه الأكبر. ولم يكن هناك شىء متسم بالسحر والشعوذة فى ذلك . فبعد مرور أسابيع من التفحص الشديد فى الحياة اليومية ليانوكا ومراقبة مكالماته التليفونية ومراسلاته . ناهيك عن دراسة الملف الخاص به والموجود فى القدس منذ عامين - فإنه لم يكن هناك ما يدعو للدهشة إذ أصبح كيرتز وفريق العمل التابع له على معرفة دقيقة بكل شىء مثل يانوكا نفسه . وما كان يميز كيرتز عن السابقين عليه هو تلك اللامبالاة التى يظهرها عندما يتناول كافة تلك الأمور علاوة على عدم اللامبالاة إزاء ردود الفعل التى تنجم عن يانوكا .

وبدأ يانوكــا فى الصـــراخ قائلا أين هو ؟ ومـــاذا فعلتم به ؟ إن أخى لا يتكلم . إنه لايتكلم على الإطلاق !

كيف ألقيتم القبض عليه ؟

لقد تمت الصفقة فى لحظات. وفى الشقة الموجودة بالدور الأرضى وبينما كانوا يتجمهرون حول مكبرّ الصوت فإن نوعا من الرهبة سيطرت على الغرفة بأكملها عندما سمعوا كيرتز فى خلال ثلاث ساعات من وصوله وهو ينسف ويحطم الدفاعات الأخيرة الخاصة بيانوكا. وأوضح كيرتز اننى كحاكم تكون مهمتى مقصورة على الأمور الإدارية. وأخوك موجود حاليا فى زنزانة على هيئة مستشفى موجودة بالدور الأرضى وهو مرهق بعض الشىء. ونحن نأمل بالطبع أن يتمكن من البقاء على قيْد الحياة. ولكنه لن يتمكن من السير على قدميه إلاّ بعد مرور شهور قليلة. وإذا قمت بالإجابة على الأسئلة التالية فإننى سأصدر أوامرى بالسماح لك بالوجود الى جواره بالمستشفى لكي تقوم بتمريضه الى أن يتماثل للشفاء. وإذا رفضت الاجابة على الأسئلة ستبقى هنا فى هذا المكان. وبعدئذ استخرج كيرتز من جيبه صورة فوتوغرافية ملونة وعرضها على يانوكا . وهى صورة توضح وجه شقيق يانوكا الذى يطل من باطنية السجن الملوثة بالدماء بينما يقوم حارسان بحمله عقب استجوابه .

ولكن أسلوب كيرتز العبقرى لم يكن متسما بالجمود على الإطلاق. فعندماً بدأ يانوكا فى التكلم تحّول كيرتز على الفور إلى طابع العطف والحنان لكى يتمشى مع عاطفة الولد المسكين. وفجأة أصبح السجّان القديم بحاجة لأن يسمع كل شىء عن الأمور التى قالها المحارب العظيم لأخيه الأصغر. وعندما عاد كيرتز إلى شقة الدور الأرضى كان الفريق قد حصل بالفعل على كل مايمكن الحصول عليه من يانوكا . ولكن كيرتز أوضح لهم أن كل تلك المعلومات لاتهمه بقدر مايهمه الأماكن التى يوجد فيها أخوه الاكبر. ولقد أوضح لهم كيرتز أن العنف الفيزيقى مضاد لأخلاقيات وروح المهنة وإذا كان على المرء أن يستخدم العنف فإنه ينبغى ألاّ يوجه إلى الجسد وإنما إلى العقل. وقد سبق له أن أوضح هذه النقطة أيضا لجافرون .

ورغم هذا الإنجاز لم يهدأ له بال .

فمع حلول صباح اليوم التالى تم إرسال المعلومات عن يانوكا. ثم عاد كيرتز إلى قلب المدينة لكى يواسى فريق المراقبة الذى هبطت روحه المعنوية هبوطا عموديا مع اختفاء يانوكا. ثم انطلق كيرتز فى اتجاه الشمال من أجل عقد لقاء آخر مع أليكسيس حيث كان غير خائف من الحقيقة التى مفادها أن الطبيعة الشاذة الطبية للدكتور قد جعلت ميشا جافرون يضعه من بين الناس المحظور التعامل معهم .

وكان كيرتز يموج بالتفاؤل المشوب بالحذر. وقال موجها كلامه لليتفاك : إننا نتحرك. وميشا لا يضربنى إلاَّ إذا كنت جالساً فى صمت وهدوء .

الفصل العاشر

كانت الحانة أكثر خشونة من تلك الحانات الموجودة فى ميكونوس. بها تليفزيون أبيض وأسود يرفرف مثل علم لا يلقى تحية من أحد. وكان رجال التلال الطاعنون فى السن يعتزون بأنفسهم لدرجة كبيرة بحيث لا يبدون اهتماما بالسياح ولا حتى بالفتيات الانجليزيات الجميلات ذوات الشعر الأحمر اللائى يرتدين ثيابا زرقاء اللون وأسورة ذهبية . ولكن فى القصة التى حكاها يوسف الآن فإن تشارلى وميشيل هما اللذان كانا يتناولان الطعام بمفردهما فى مطعم الشواء التابع لنزل ريفى يقع على مشارف نوتنجهام حيث قام ميشيل بتقديم الرشوة من أجل أن يظل المطعم مفتوحاً. وكانت السيارة المثيرة للشفقة الخاصة بتشارلى كالمعتاد تقف بعيداً عن الطريق بالجراج الأخير المفضل لها فى كامدين. ولكن ميشيل كان لديه سيارة صالون مرسيدس، إنه لايحب ماركات السيارات الأخرى مثل حبه للمرسيدس. لقد وضع سيارته المرسيدس فى حالة انتظار عند المدخل الخلفى للمسرح على مدى عشر دقائق أثناء مطر نوتنجهام الأبدى. ولا توجد نوبة من نوبات تشارلى العارضة ولا توجد هناك شكوك سريعة يمكنها أن توقف جاذبية السرّد القصصى الذى يقوم به يوسف الذى قال : إنه يرتدى قفازا للقيادة. وهذا القفاز بمثابة بدعة أو موضة أو دلع يلجأ إليه. ونحن نلاحظ هذا. ولكننا لا نعلق عليه .

فقالت لنفسهـــا: والقفاز به ثقوب على الظهر. ثم تساءلت: كيف يقود هو السيارة؟

«إنه ليس سائقا طبيعيا. ولكن لايمكن لك أن تأخذى هذه الغلطة عليه. وأنت تسألينه عن المكان الذى يعيش فيه وهو يجيب قائلا إنه انطلق بالسيارة قادماً من لندن من أجل أن يشاهدك. تسألينه عن وظيفته فيقول: «طالب». تسألينه عن المكان الذى يدرس فيه فيردّ قائلا : «أوربا» مشيرا على نحو ما إلى أن أوربا هى كلمة

رديئة. وعندما تشكلين ضغوطا عليه فإنه يقول إنه يحصل على حلقات دراسية فى مدن مختلفة وأن ذلك يتوقف على حالته النفسية وعلى الشخص الذى يلقى المحاضرات. ويقول إن الانجليز لا يفهمون المنهج . وهو عندما ينطق كلمة «انجليز» فإن الكلمة تبدو معادية لك. وأنت لا تعرفين السبب. ولكنها متسمة بالروح العدائية. وما هو سؤالك التالى ؟»

– أين يعيش الآن ؟

إنه غامض ومراوغ. مثلى تماما. وهو يقول فى شىء من الغموض إنه فى بعض الأحيان يعيش فى روما وأحيانا فى ميونيخ ويمضى فترات قصيرة فى باريس أو ڤينا. لا يقول إنه يعيش فى كوخ ولكنه يوضح أنه غير متزوج وهو أمر لا يسبب لك الفزع والرعب الشديد تسألينه عن المدينة التى يفضلها ولكنه يرفض هذا السؤال ويستنكره على أساس أنه سؤال غير ملائم . تسألينه عن الموضوع الذى يدرسه فيردّ قائلا إنه يدرس موضوع «الحرية» وتسألينه عن مكان وطنه فيردّ أن وطنه يرزح حاليا تحت الاحتلال فما هو ردّ الفعل لديك إزاء هذا ؟

الاضطراب والتشويش .

– على كل حال فأنت من خلال الإلحاح الذى تعتادين عليه تشكلين ضغوطا عليه مرة أخرى. فيضطر لأن يذكر اسم وطنه قائلا إنه «فلسطين» . وينطق كلمة فلسطين فى عاطفة فياضة وتسمعين كلمة: فلسطين منطوقة بصوته وكأنها كلمة مرادفة لكلمة: التحدى وكلمة صيحة حرب – فلسطين .

وكانت عيناه متركزتين عليها بشدة مما جعلها تضطر لأن تبتسم ابتسامة مليئة بالتوتر وتشيح بوجهها بعيداً .

ولعلى أذكرك يانتشارلى أنه على الرغم من أنك متورطة بشدة مع آلستير فى هذه الفترة إلا أنه حاليا فى حالة من الأمن والأمان فى أرجيل حيث يقوم ببرنامج تجارى إعلانى لصالح منتجات استهلاكية عديمة القيمة تماما . وأنت تعرفين

بالصدفة أنه يتصادق مع الممثلة الأولى فى الفيلم . أهذا صحيح ؟

فقالت : هذا صحيح . واكتشفت لدهشتها أن وجهها يحمّر خجلاً وارتباكاً .

لذلك ينبغى عليك الآن أن تقولى لى – لو سمحت – مامعنى كلمة فلسطين التى ينطقها هذا الولد الشغوف بهذه الطريقة بالنسبة لك وأنت موجودة فى نُزُل ريفى فى نوتنجهام فى ليلة ممطرة. ودعينا نقول إنه يسألك هذا السؤال بنفسه. نعم. إنه يسألك هذا السؤال. ولم لا ؟

وراحت تفكر وقالت لنفسها إن قطعة من فئة البنسات الثلاث لها وجوه كثيرة. ثم قالت بصوت مرتفع «إننى معجبة بالفلسطينيين» .

فقال: نادينى باسم ميشيل لو سمحت .

– إننى معجبة بالفلسطينيين يا ميشيل .

– وما السبب فى ذلك ؟

– بسبب كفاحهم ومثابرتهم واستمرارهم فى النضال .

فقال : هذا كلام فارغ . فنحن بمثابة مجموعة من الإرهابيين غير المتعلمين الذى ينبغى عليهم أن يروضوا أنفسهم منذ فترة طويلة على فقدان وطنهم فنحن لم نكن فيما مضى سوى أولاد يعملون فى مهنة مسح الأحذية والتجول فى الشوارع لبيع الأشياء ولم نكن سوى أطفال ينتهكون القوانين ويحملون فى أيديهم البنادق والمدافع الرشاشة ولم نكن سوى رجال عجائز يرفضون نسيان الذكريات الأولى .

لذلك مَنْ نكون نحن إذن لو سمحت ؟ قولى لى رأيك وأنا سوف أقدّر وأقيّم رأيك. ولا تنس أننى مازلت أناديك باسم : جان دارك .

فأخذت نفساً عميقا. وقالت: وهو كذلك. ها هو رأيى . إن الفلسطينيين – أنتم – هم أناس مهذبون وهم فلاحون مهذبون لهم تراث عظيم وتقاليد عظيمة. ولقد طردوا من أراضيهم فى ظلم فادح اعتباراً من عام ١٩٤٨ بهدف استرضاء الصهيونية

العالمية ، وبهدف تمهيد الطريق أمام خلق موطىء قدم للغرب فى المنطقة العربية بالشرق الأوسط .

كلامك لا يسبب لى الإزعاج. استمرى لو سمحت .

ومن العجيب أن اكتشفت تدفق الكثير من المعلومات إلى ذهنها تحت إلحاحه العنيد على مواصلة كلامها. إذ تدفق الى ذهنها فقرات متفرقة وردت فى نشرات منسية ومحاضرات وخطب سبق أن ألقاها المدافعون عن الحرية علاوة على معلومات كانت قد قرأتها فى بعض الكتب. فاستطردت قائلة : أنتم بمثابة الابتكار الخاص بعقدة الذنب الأوربية إزاء اليهود ... وأنتم أرغمتم على أن تتحملوا العقاب على الهولوكست الذى لم تشاركوا فيه... وأنتم ضحايا سياسة الاستيلاء على أراضى العرب وطرد العرب من وطنهم وهى سياسة عنصرية امبريالية مناهضة للعرب .

فقال يوسف فى هدوء : وهى سياسة اغتيالات أيضاً فقالت فى تلعثم «وهى سياسة اغتيالات» وأحست بحملقة الرجل الأجنبى مثبتة عليها. ومثلما حدث فى ميكونوس أدركت فجأة أنها ليس لديها فكرة عما قرأته هناك . ثم قالت فى هدوء «على أية حال. هذا هو رأيى عن الفلسطينيين. طالما أنك تسأل عن رأيى» ثم اكتشفت أنه لاذ بالصمت .

استمرت فى النظر إليه منتظرة منه أن يبدأ فى الكلام .

فقال لها فى لهجة آمرة كما لو أنهما لم يبتسما لبعضها البعض طوال حياتهما: لاحظى أنه لايدردش فى الشئون التافهة. ولاحظى أنه توافق بسرعة مع الجانب الجاد فى داخلك. وهو أيضا من النوع الموسوس الذى يدقّق كثيراً ، مثال ذلك لقد أعدّ فى هذه الليلة كل شىء ، الطعام والخمور والشموع. بل وأعد المحادثة الخاصة به. ويمكن القول إنه استخدم أسلوب الكفاءة الإسرائيلية من أجل أن يشن حملة كاملة تهدف إلى الاستيلاء على جان دارك الخاصة به .

قالت فى وقار وهى تتفحص السوار الخاص بها «ياللشناعة» وهو فى تلك الأثناء يقول لك إنك أعظم ممثلة على وجه الكرة الأرضية. وهو أمر لن يسبب لك الرعب . يصرّ على الخلط بينك وبين جان دارك. ولكنك لم تعودى تتضايقين من أن الحياة والمسرح غير منفصلين لديه. ويقول لك إن القديسة جان دارك كانت ولازالت هى البطلة التى تشد إعجابه منذ أن قرأ عنها لأول مرة. كانت امرأة. ومع ذلك أثارت فى نجاح الوعى الطبقى الخاص بطبقة الفلاحين الفرنسيين وقادتهم فى معركة ضد الطغاة الاستعماريين البريطانيين . كانت إنسانة ثورية صادقة وتمكنت من إشعال لهيب الحرية بين جميع الشعوب المستغلة فى العالم كله. وحولت العبيد إلى أبطال. وهذه هى خلاصة تحليلاته النقدية. وصوت الله الذى يخاطبها ليس سوى الضمير الثورى الخاص بها والذى يحثها على مقاومة المستعمرين. لا يمكن أن يكون هو الصوت الحقيقى للاله. لأن ميشيل اعتقد أن الله خارج نطاق هذا الموضوع. وربما لا تدركى كافة التعقيدات عندما قمت بتمثيل دور جان دارك .

وكانت تشارلى لا تزال تعبث بالسوار الخاص بها. ثم قالت فى عدم اهتمام : ـ حسنا. ربما أغفلت بعض الأمور. ورفعت رأسها لأعلى لكى تواجه رفضه الجرانيتى. وأضافت : ياللسيد المسيح .

ياتشارلى . إننى انبهك بألا تضايقى ميشيل بدهائك وذكائك الغربى. إن روح الفكاهة لديه تتسم بتقلب الأهواء. وهو لا يحب أن توجه أية نكات ضده وخاصة إذا كانت النكات تتم بمعرفة السيدات .حسنا. الطعام شنيع للغاية. ولكنك غير مبالية بذلك تماما. لقد أصدر أوامره بإحضار شرائح من اللحوم . ولا يعرف أنك تمرين بمرحلة من المراحل النباتية الخاصة بك . وأنت تلوكين بعض اللحوم لكى لا تسيئى إليه . وفى خطاب لاحق تخبرينه أن شرائح اللحوم كانت أسوأ لحوم تناولتيها فى حياتك ولكنها مع ذلك أفضل لحوم. وكل ماتفكرين فيه أثناء حديثه هو صوته المفعم بالحيوية والعاطفة ووجهه العربى الجميل الذى يبدو عبْر الشمعة. نعم ؟

فترددت ثم ابتسمت وقالت : نعم .

– انه يحبك . يحب موهبتك . يحب القديسة جان دارك . يقول لك . (وهى كانت مجرمة من وجهة نظر المستعمرين البريطانيين). وهكذا كان ينظر إلى جميع المدافعين عن الحرية. وهكذا كان جورج واشنطن وهكذا كان المهاتما غاندى. وهكذا كان روبين هود. وهكذا كان الجنود السريون الذين يناضلون من أجل تحقيق الحرية لأيرلندا .

وهذه ليست على وجه الدقة أفكارا جديدة يعبر عنها ولكن هذه الأفكار تحدث تأثيرا مغناطيسيا عليك من خلال الحماس الشرقى الذى يتسم به صوته لأنه صوت ملىء بالسمات الطبيعية الحيوانية إن صحّ هذا التعبير. إن صوته يضفى حياة جديدة على الكليشيهات القديمة. إن صوته شبيه بإعادة اكتشاف الحب من جديد. وهو يقول لك . إن أىّ شخص يحارب الرعب الذى يبثه المستعمرون يعتبر إرهابيا من وجهة نظر البريطانيين. إن البريطانيين هم أعدائى. كلهم أعدائى باستثنائك أنت. لقد أعطى البريطانيون وطنى للصهاينة وشحنوا يهود أوربا إلى فلسطين مع إعطاء تعليمات للصهاينة بأن يحولوا الشرق إلى الطابع الغربى. انهبوا وروضوا الشرق من أجلنا. هذا هو ماقالوه للصهاينة . إن الفلسطينيين سيعملون عند اليهود فى الأعمال اليدوية غير البارعة. لقد كان المستعمرون البريطانيون القدامى مرهقين ومنهزمين لذلك قاموا بتسليمنا للمستعمرين الجدد الذين لديهم الحماس وعدم الرأفة التى تعينهم على فكّ العقدة. لقد قال البريطانيون للصهاينة : لا تقلقوا ولاتهتموا بالعرب. نعدكم بأن نتغاضى تماما عندما تتعاملون بقسوة مع العرب. هل تصغين الىّ فى انتباه ؟

– يا يوسف . متى لم أكن مصغية إليك ؟

– إن ميشيل هو القائد الملهم لك فى هذه الليلة لا أحد سبق له من قبل أن ركز

كل قوى التعصب لديه عليك بمفردك . إن قوة الاعتقاد لديه والتزامه وإخلاصه وتفانيه - كل هذه الأمور تتفجر من داخله عندما يتكلم. وهو بالطبع من الناحية النظرية يقوم بالوعظ بين الناس المتحولين إلى المذهب الجديد ولكنه فى حقيقة الأمر يقوم بزرع القلب الإنسانى فى مجموعة الأشياء المختلطة الخاصة بمبادئك اليسارية الغامضة. وأنت تريدين منه أن يلقى عليك الوعظ والمحاضرات. وهو يقوم بذلك. وأنت تريدين له أن يلعب على عقدة الذنب البريطانية الخاصة بك. إنه يفعل ذلك أيضا. ولذلك تصبحين إنسانة جديدة تماما. وهو بمعزل عن تحيزاتك إزاء الطبقة المتوسطة. وهو بمعزل عن تعاطفاتك الغربية التى تتكون فى بطء. أليس كذلك ؟ . وتساءل فى بطء وهدوء مستفسرا كما لو كانت هى قد وجهت سؤالاً. فهزت رأسها . فسرح بذهنه مرة أخرى كما لو كان قد امتــلأ بالحماس المســتعار الخاص بالبديل العربى له .

إنه يتجاهل تماما أنك من الناحية النظرية واقفة إلى جانبه وفى صفه بالفعل. يطالب باستغراقك الكامل فى قضيته أو يطالب بتحولك تماما إلى المذهب الجديد. يلقى بالبيانات الإحصائية فى وجهك. إن مايزيد على مليونى عربى من المسيحيين والمسلمين طردوا من وطنهم فلسطين وحرموا من حقوقهم الشرعية منذ عام ١٩٤٨ . وتم هدم منازلهم وقراهم بالبلدوزورات يقدم لك إحصاء عن عدد البيوت والقرى التى دُمرت ونُسفت - كما أن أراضيهم سُرقت وفقا لقوانين لم يشاركوا فى صياغتها - وهو يذكر لك عدد الدونومات الزراعية التى سُرقت . والدونم الواحد يساوى ألف متر مربع. أنت تسألينه يجيب عليك. وهم عندما يصلون إلى المنفى يقوم بعض العرب بذبحهم. كما يقوم الإسرائيليون بقصف معسكراتهم بالقنابل لأنهم يستمرون فى أعمال المقاومة. ولأن اليهود يعتقدون أن مَنْ يقاوم الاغتصاب والاحتلال يعتبر

إرهابيا كما يعتقدون أن استيلاءهم على أراضى الغير وقصفهم للاجئين وإهلاك الجزء الأكبر من الفلسطينيين يعتبر مجرد ضرورات سياسية تعيسة. لأن موت عشرة آلاف عربى لايعادل موت شخص يهودى واحد. انتبهى لما أقول لا يوجد شخص ليبرالى غربى يتردّد فى التكلم علناً وبصراحة ضد ممارسات الظلم التى تتم فى شيلى وجنوب افريقيا وبولندا والأرجنتين وكمبوديا وإيران وشمال أيرلندا وغيرها من الأماكن التى تشهد القلاقل ومع ذلك فمن هو الذى لديه الشجاعة لكى يتحدث بصراحة عن أكبر مهزلة تتم فى تاريخ البشرية وهى أن ثلاثين عاما على قيام اسرائيل قد حوّلت الفلسطينيين إلى مايمكن أن يُسمى باليهود الجدد على وجه الكرة الأرضية؟ هل تعرفين كيف وصف الصهاينة بلادى فلسطين قبل أن يستولوا عليها ؟ لقد قالوا عنها

(إنها أراضٍ بدون شعب من أجل شعب بدون أرض) .

نحن لم نكن موجودين ! عجبى !! لقد ارتكب اليهود مايمكن أن يسمى بالإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطينى. وأنتم أيها البريطانيون كنتم المهندسين الذين وضعوا هذه المؤامرات . هل تعرفين كيف وُلدت اسرائيل ؟

لقد قامت دولة أوربية عظمى بتقديم أرض فلسطين هدية للوبى اليهودى. ولم تقم باستشارة مواطن فلسطينى واحد بشأن هذه الأراضى الفلسطينية. وكانت هذه الدولة الأوربية العظمى هى بريطانيا . هل لى أن أصف لك كيف وُلدت اسرائيل ؟ ... هل الوقت متأخر أكثر من اللازم ؟ هل أنت مُرهقة ؟ أينبغى أن تعودى إلى الفندق الخاص بك ؟

وبينما راحت تقدم له الإجابات التى يريدها كانت لا يزال لديها الوقت لكى تتعجب فى داخل كيانها إزاء التناقضات .

الموجودة لدى رجل يستطيع أن يرقص مع العديد من الظلال المتصارعة الخاصة به ومع ذلك لا يزال يتمكن من الوقوف على قدميه . كانت هناك شمعة موجودة بينهما وآخذة فى الاحتراق .بينما راح يوسف يحيك قصته حولها وشاهدت وجهه وهو يتبادل مع وجه ميشيل كصورتين مطبوعتين فوق لوحة فوتوغرافية واحدة .

– استمعى إلىَّ . هل أنت مصغية إلىَّ ؟

– يايوسف إننى مصغية . يا ميشيل إننى مصغية .

لقد وُلدت فى عائلة يسيطر فيها الأب على مجريات الأمور ووُلدت فى قرية قريبة من مدينة الخليل التى يطلق عليها اليهود اسم «هبرون» .

«الخليل ... تذكرى هذا الاسم . إن هذا الاسم له أهمية عظمى بالنسبة لى وذلك لأسباب عديدة . عليك بتذكر اسم : الخليل . انطقي هذا الاسم»

فنطقتُ بهذا الاسم . الخليل .

« إن الخليل هى إحدى المراكز العظمى للديانة الإسلامية . وكلمة الخليل باللغة العربية تعنى : الصديق . وأهالى مدينة الخليل أو مدينة «هبرون» هم صفوة القوم بين الشعب الفلسطينى ، سأقول لك نكتة ظريفة ستجعلك تضحكين كثيراً . فهناك اعتقاد بأن المكان الوحيد الذى لم يطرد منه اليهود هو جبل «هبرون» الذى يقع جنوب مدينة الخليل . ولذلك من المحتمل جداً أن تكون الدماء اليهودية منسابة فى داخل عروقى وشراييني . ومع ذلك لست خجولاً من ذلك . فأنا لست مناهضا للسامية ولكنى مناهض للصهيونية . أتصدقيننى ؟ .

ولم ينتظر لكى تردَّ عليه مؤكدة له أنها تصدقه . إذ لم يكن بحاجة لذلك حيث استطرد قائلا : –

أسرتنا تتكون من أربعة إخوة واختين ، وأنا أصغرهم جميعا فى السن، وكان كل فرد فى العائلة يعمل فى فلاحة الأرض . وكان والدى هو (المختار) أو العمدة حيث تم اختياره بمعرفة الناس الكبار فى السن الحكماء العاقلين . وكانت

قريتنا شهيرة بإنتاجها الممتاز من التين والعنب . ومشهورة بالمقاتلين الأشداء وبنسائها الجميلات . فنساؤها جميلات ومطيعات مثلك تماما . ومعظم القرى تكون مشهورة بشيء واحد فقط . أما قريتنا فمشهورة بأمور كثيرة للغاية .

تمتمت تشارلى قائلة : على نحو طبيعى .

– كانت قريتى مشهورة للغاية بسبب الخطط والنصائح التى يسديها والدى . حيث يعتقد والدى أنه ينبغى على المسلمين أن يعيشوا فى مجتمع مشترك مع المسيحيين واليهود تماما مثلما عاش الأنبياء فى توافق سويا فى السماوات تحت إله واحد . إننى أتحدث إليك كثيراً عن والدى وعائلتى وقريتى. كان والدى معجبا باليهود . درس والدى الصهيونية . وكان يروق له أن يستدعى اليهود للمجيء إلى قريتنا لكى يتحاور ويتناقش معهم . ولقد أرغم والدى إخوتى الأكبر منى على دراسة اللغة العبرية . وعندما كنت ولدا صغيرا رحت أنصت فى الليل للرجال الذين يتغنون بأغنيات الحروب القديمة . وفى النهار أخذت حصان جدّى إلى منطقة المياه وسمعت قصص المسافرين والباعة الجائلين . وعندما أصف لك هذه الجنة التى هى قريتى سأبدو لك وكأننى أنطق بالشّعر الجميل أمامك . بمقدورى أن أتحدث بالشعر فأنا لدىّ موهبة قرْض الشّعر . كنا فى الميدان الرئيسى بقريتنا نرقص رقصة الدبكة ونصغى إلى عزف على العود بينما كان الرجال العجائز يلعبون النَّرد (الطاولة) ويدخنون النرجيلة .

لم تفهم تشارلى على وجه الدقة معانى بعض الكلمات مثل : الدبكة والعود والنرجيلة . ولكنها فضلت ألاّ تقاطعه أثناء كلامه .

وفى حقيقة الأمر ، لا أتذكر سوى القليل من مثل هذه الأمور . وحقيقة الأمر أننى أتناول ذكريات الناس الكبار فى السن الذين هم أكبر منى سنا لأن تلك هى الطريقة التى تعيش بها التقاليد الخاصة بنا وتظل على قيْد الحياة فى داخل معسكرات المنفى . ومع مرور الأجيال ينبغى علينا أن نعيش وطننا الحبيب فى مزيد من العمق من خلال ذاكرة آبائنا وأجدادنا . ولسوف يقول لك الصهاينة إننا لم تكن

لنا ثقافة ، ولم يكن لنا وجود . ولسوف يقولون لك إننا كنا متفسخين ومنحلين وكنا نعيش فى أكواخ مصنوعة من الطين وكنا نتجول ونحن نرتدى ثيابا بالية تنبعث منها الروائح الكريهة . ولسوف يقولون لك بالحرف الواحد نفس الكلام الذى كان يقال عن اليهود بمعرفة المناهضين للسامية بأوربا . والحقيقة فى كلا الحالتين لها معنى واحد : إننا كنا شعبا نبيلاً .

وأوحت إيماءة من رأسه الداكن أن الشخصيتين الخاصتين به قد وافقتا على هذا الجانب من الحقائق .

إننى أصف لك حياتنا الريفية وأصف لك الأنظمة العديدة المعقدة التى كانت توجد فى المجتمع بقريتنا . وأصف لك موسم حصاد العنب والكروم وكيف أن جميع سكان القرية كانوا يخرجون سويا إلى حقول العنب بناء على تعليمات صادرة إليهم من «المختار» الذى هو والدى . وأصف لك كيف أن إخوتى الكبار بدأوا تعليمهم فى مدرسة كانت قد أنشئت بمعرفة البريطانيين فى عهد الانتداب البريطانى على فلسطين . إنك سوف تضحكين على ذلك إلا أن والدى كان يؤمن بالبريطانيين أيضا . وأصف لك كيف أن القهوة فى بيت الضيافة بقريتنا كانت ساخنة دائما على مدى جميع أوقات اليوم لكى لا يقول أى «شخص عنا» : (هذه القرية فقيرة ومسكينة للغاية وسكانها ليسوا كرماء مع الأجانب) أتريدين أن تعرفى ماذا حدث للحصان الخاص بجدى ؟ لقد باع جدى حصانه واشترى بندقية لكى يتمكن من إطلاق الرصاص على الصهاينة عندما يهاجمون قريتنا . فكانت النتيجة أن الصهاينة تمكنوا من إطلاق الرصاص على جدنا . وأرغموا والدى على الوقوف إلى جوار جدى أثناء إطلاق الرصاص عليه .

– وهل حدث هذا بالفعل ؟ .

– بالطبع .

ولم تستطع أن تعرف ما إذا كان يوسف أم ميشيل هو الذى يردّ على تساؤلها . وأدركت أنه لم يكن يريد لها أن تعرف .

– فى رأيى أن حرب ١٩٤٨ هى بمثابة الكارثة . وأنا أطلق على هذه الحرب اسم : الكارثة . وأقول لك إنه خلال كارثة ١٩٤٨ ظهر الضعف المميت الذى يتسم به شعب مسالم هو الشعب الفلسطينى ؛ إذ لم يكن لدينا أىّ تنظيم وبالتالى لم نستطع أن ندافع عن أنفسنا ضد المعتدين المسلحين . وكانت ثقافتنا تلقى الرعاية والعناية فى داخل مجتمعات مغلقة صغيرة حيث كانت كل جماعة صغيرة متكاملة فى حدّ ذاتها ومنفصلة اقتصاديا عن الجماعات الصغيرة الأخرى . والأهم من ذلك كله أنه كانت تنقصنا الوحدة السياسية شأننا فى ذلك شأن اليهود فى خلال الفترة السابقة على الهولوكست . وعدم وجود وحدة سياسية بيننا هو الذى أدى إلى سقوطنا . بل وكثيراً ما دخلت مجتمعاتنا الصغيرة المغلقة فى قتال ضد بعضها البعض وهذه هى اللعنة التى منى بها العرب فى كل مكان . وربما هذه هى اللعنة التى منى بها اليهود أيضاً . هل تعرفين ما فعله هؤلاء الصهاينة بقريتنا ؟ بسبب أننا لم نهرب من قريتنا مثل باقى جيراننا ؟

كانت تدرك أنها لم تكن تعرف . ولكن هذا لم يهمه حيث لم يلتفت إليها ولم يبال بسماع ردّها .

« لقد ملأوا براميل بالبنزين والمتفجرات ودحرجوها على سفح التلّ مما أدى إلى اشعال النيران فى نسائنا وأطفالنا . إننى على استعداد لأن أستمر فى الكلام فى هذا الموضوع على مدى أسبوع لكى أوضح لك مدى التعذيب الذى لاقاه شعبنا . لقد قام الصهاينة بقطع الأيدى واغتصاب النساء وحرقهن وفقأ عيون الأطفال .

وراحت تشارلى تتفحصه محاولة اكتشاف ما إذا كان هو يصدقّ نفسه :

– اننى أهمس لك بكلمة (دير ياسين) . هل سبق لك أن سمعت عن كلمة: دير ياسين ؟ وهل تعرفين ما معنى كلمة دير ياسين ؟»

– لا يا ميشيل . لم يسبق لى أن سمعت عن هذه الكلمة . وبدا عليه أنه قد سُرَّ من ذلك . ثم قـال : إذن عليك أن توجهى إلىَّ هذا السؤال : (ما هى دير ياسين ؟) .

– لو سمحت ياسيدى . ما هى ياسين ؟

– مرة أخرى أجيب عليك كما لو أننى قد شاهدت تلك الأحداث بالأمس بعينى هذه المفتوحتين . فى القرية العربية الصغيرة التى تُسمى دير ياسين وفى يوم ٩ إبريل ١٩٤٨ تم ذبح ٢٥٤ من القرويين من الرجال والعجائز والنساء والأطفال على أيدى فرق الارهاب الصهيونية بينما الرجال والشباب التابعون لهذه القرية يعملون بعيداً فى حقولهم . وتم قتل الأطفال الموجودين فى داخل بطون النساء الحوامل . وتم إلقاء معظم الأطفال القتلى فى أحد الآبار . ونتيجة لهذه المذبحة هرب حوالى مليون فلسطينى من ديارهم خلال أيام قليلة . إلا أن أهالى قرية والدى لم يهربوا من قريتهم حيث قال والدى (لسوف نظل باقيين فى قريتنا لأننا إن ذهبنا كلاجئين إلى أىّ مكان آخر لن يسمح لنا الصهاينة بالعودة إلى ديارنا مرة أخرى) . أعتقد أن البريطانيين الذى غادروا فلسطين سيعودون مرة أخرى لكى ينقذونا من الصهاينة . فهو فى ذلك لم يدرك أن الطموحات الاستعمارية كانت تريد خلْق حليف غربى لها وزرعه فى قلب الوطن العربى بالشرق الأسط .

وأحست بالنظرة التى ألقاها عليها وساءلت نفسها فى تعجب عما إذا كان مدركا للانسحاب الداخلى الذى هبط عليها أو عما إذا كان مصمما على تجاهل ذلك الانسحاب الداخلى . ثم خطر على ذهنها فيما بعد أنه كان يتعمد تشجيعها على الابتعاد عن ذاتها وبحيث تدخل إلى المعسكر المعارض .

– وعلى مدى عشرين سنة تقريباً عقب الكارثة تشبث والدى بالأراضى المتبقية من قريتنا . ولقد وصفه البعض بأنه عنيد ووصفه آخرون بالغباء . وفى خارج فلسطين وصفه أبناء بلده الفلسطينيون بأنه إنسان متعاون مع العدوّ المحتل للبلاد . وكانوا لا يعرفون شيئا عن حقيقة الأوضاع ؛ إذ لم يكونوا يشعرون بالأحذية الصهيونية المسلطة على رقابهم . وفى جميع الأقاليم المحيطة بنا كان الناس يساقون ويطردون ويتم القاء القبض عليهم . وقام اليهود بمصادرة أراضيهم وتدمير بيوتهم وتسويتها بالأرض بالبلدوزورات . مع إنشاء مستوطنات جديدة لا

يُسمح للعرب بالسكنى فيها . ولكن والدى كان رجل سلام ويتسم بالعقل والحكمة . وتمكن لبعض الوقت من إبعاد الصهاينة عن أبوابنا .

ومرة أخرى أرادت أن تسأله : هل هذه الأمور قد حدثت بالفعل ؟ ولكنها لم تجد متسعا من الوقت .

وفى حرب عام ١٩٦٧ اقتربت الدبابات من قريتنا . فاضطررنا إلى الفرار أيضاً إلى الأردن . وملأت الدموع عينى والدى واستدعانا جميعا . وطلب منا أن نجمع ممتلكاتنا وحاجياتنا . وقال لنا (المذابح الجماعية على وشك أن تبدأ) . فسألت والدى وكنت أنا أصغر الموجودين سنا ولا أعرف شيئا عما يحدث (يا والدى . ما معنى المذابح الجماعية ؟) فردّ علىَّ قائلاً (إنها ما فعله الغربيون باليهود . وهذا هو ما يفعله الصهاينة فينا الآن . لقد تمكنوا من إحراز انتصار عظيم للغاية بحيث يمكن لهم أن يكونوا كرماء . إلا أن الفضيلة عندهم لا يمكن العثور عليها فى سياساتهم) . وإلى أن أموت لن أنسى أبداً والدى المعتزّ بنفسه وهو يدخل الكوخ البائس الذى كان آنئذ بمثابة منزلنا . لقد وقف لفترة طويلة عند عتبة الباب منتظرا مجيىء القوى الغاشمة. ولم يبك . ولكنه ظل لأيام جالساً على صندوق ملىء بكتبه مع عدم تناول أىّ طعام . وأعتقد أنه قد أصبح أكبر من سنه الحقيقى بعشرين عاما فى خلال هذه الأيام . وقال والدى (لقد دخلت إلى قبرى . وهذا الكوخ هو مقبرتى) ومنذ اللحظة التى وصلنا فيها إلى الأردن أصبحنا مواطنين بدون وطن وبدون أوراق رسمية وبدون حقوق وبدون مستقبل وبدون عمل . وماذا عن مدرستى ؟ إنها بمثابة زريبة أو حظيرة محشوة حتى السقف بالذباب السمين والأطفال الذين يعانون من النقص فى التغذية . إن منظمة «فتح» هى التى تعلمنى . وهناك الكثير الذى ينبغى أن أتعلمه . كيف أطلق الرصاص . وكيف أقاتل المعتدى الصهيونى .

وتوقف عن الكلام فظننت فى بادىء الأمر أنه يبتسم لها . إلا أن التعبيرات على وجهه كانت خالية من أىّ مرح أو طرب .

ثم أعلن فى هدوء : (إننى أقاتل . إذن فأنا موجود) . هل تعرفين مَنْ الذى

قال هذه العبارة يا تشارلى ؟ لقد قالها شخص صهيونى . شخص صهيونى محب للسلام ومثالى ومغالٍ فى الوطنية وقام بقتل العديد من البريطانيين والكثير من الفلسطينيين باستخدام الوسائل الإرهابية . ولكن نظرا لأنه شخص صهيونى فإنه لا يعتبر إرهابيا وإنما يعتبر بطلا ومتسما بالمغالاة فى الوطنية . هل تعرفين مَنْ هو ذلك الرجل الذى قال تلك العبارة والذى يعتبر صهيونيا متحضرا ومحبا للسلام ؟ لقد كان ذلك الشخص هو رئيس الوزراء فى دولة يسمونها إسرائيل . هل تعرفين من أين جاء رئيس الوزراء الصهيونى الإرهابى هذا ؟ جاء من بولندا . هل يمكنك أن تقولى لى - أنت المرأة الانجليزية المتعلمة وأنا الفلاح الفلسطينى البسيط الذى أصبح بدون وطن - كيف حـدث أن أصبح شخص بولندى حاكما على بلدى فلسطين .. شخص بولندى يعيش من أجل أن يحارب ؟ هل يمكن أن توضحى لى لو سمحت تحت أىّ مبدأ من مبادىء العدالة الانجليزية وعدم التحيز الانجليزى يمكن لهذا الرجل أن يتحكم فى بلادى ؟ وبعدئذٍ تقولون عنا أننا إرهابيون ؟ .

قالت : «حسنا . هل يمكن لك أنت أن توضح» . وكان لديها انطباع سريع بأنه يتوقع ذلك التساؤل من جانبها . فضحك فى غير ابتهاج . ومدّ يده إلى الكأس الخاص به ورفع الكأس فى اتجاهها . ثم قال : «إرفعى كأسك نحوى .. فى صحتك . التاريخ ينتمى إلى المنتصرين . هل نسيت هذه الحقيقة البسيطة ؟ . تناولى الخمور معى .

وفى نوع من الشك والارتياب رفعت كأسها فى اتجاهه . وقال : فى صحة إسرائيل الصغيرة . وفى صحة بقائها على قيد الحياة وذلك بفضل المعونات الأمريكية التى تصل إلى ٧ ملايين دولار يوميا وبفضل القوى الكاملة للبنتاجون التى ترقص على أنغام إسرائيل .

وأنت ياتشارلى . أنت تصغين . أنت مُروَّعة . أنت مندهشة . من رومانتيكيته ومن جماله ومن تعصبه إنه لايوجد لديه تكتم وتحفّظ . ولا موانع غربية . هل هذا يصلح وينفع - أم أن نسيج خيالك يرفض العضو المزروع فى غير تربته والذى يسبب الإزعاج ؟

فأمسكت تشارلى بيده وبدأت تجوب راحة يده باستخدام طرف إصبعها . ثم تساءلت بهدف كسب الوقت : ولغته الانجليزية تستطيع مواجهة كل هذا ؟

- إنه لديه لغة هجينية مبسطة ومخزون من العبارات الخطابية والأرقام الإحصائية والاقتباسات الملتوية . وعلى الرغم من هذا فإنه له عقلية شابة عاطفية مثيرة . بل وعقلية آخذة فى التوسع .

- وما الذى ستفعله تشارلى طوال هذا الوقت ؟ إننى واقفة فى تجّمد هناك. أتشبث بكل كلمة يقولها ؟ هل أقوم بتشجيعه ؟ وما الذى أفعله أنا ؟

- طبقا للنص المكتوب أو المخطوطة المسرحية فإن أداءك لا صلة له بالموضوع من الناحية العملية . وميشيل يقوم بتنويمك مغناطيسيا بعض الشىء عبْر الشمعة . وذلك هو ما تصفينه له فيما بعد فى إحدى خطاباتك (طوال حياتى لن أنسى أبداً وجهك الحبيب المتجلىّ عبْر ضوء الشمعة خلال تلك الليلة الأولى التى أمضيناها سويا) هل هذا الكلام يعتبر فظيعا للغاية بالنسبة لك أو يعتبر مادة فنية رديئة للغاية ؟

فردّت إليه يده وتساءلت : أية خطابات ؟ ومن أين نحصل نحن على الخطابات طوال الوقت ؟

بشكل مؤقت حاليا . فلنوافق فقط على أنك سوف تكتبين خطابات إليه فيما بعد . ودعينى أسألك مرة أخرى : هل هذا يصلح ويجيىء بالنتيجة المرجوّة ؟ أم أننا سنقوم بتصوير الكاتب ونعود للمنزل ؟

فتناولت تشارلى جرعة من الخمور . ثم تناولت جرعة أخرى . وقالت : إنه يصلح ويأتى بالنتيجة المرجوّة إلى حدّ بعيد .

- والخطاب ، هل يمكن لك أن تعيشى معه ؟

- إذا لم يكن باستطاعتك أن تجعله خطابا غراميا . فأين يمكن لك ؟

- عظيم : إذن فتلك هى الكيفية التى تكتبين بها إليه وتلك هى الطريقة التى

تسير عليها الرواية إلى حدّ بعيد . باستثناء نقطة واحدة صغيرة . وهى أن هذه ليست أول مرة تلتقين فيها مع ميشيل .

وعلى نحو غير مسرحى بالمرة وضعت الكأس فى عنف على المنضدة . فاستحوذتْ عليه إثارة جديدة . وانحنى للأمام وعندئذ هبط ضوء الشمعة على صدغه البرونزى مثل سقوط ضوء الشمس على خوذة . قال «استمعى إلىّ . هل أنت مصغيةً لى الآن ؟ »

ومرة أخرى لم يهتم بالانتظار لحين سما ع إجابتها :

– قال فيلسوف فرنسى (إن أكبر جريمة هى عدم اتخاذ أىّ اجراء لأننا نخشى ألا نستطيع أن نفعل سوى القليل) هل يتوافق هذا معك ؟

فقالت تشارلى فى نعومة «أوه . أيها السيد المسيح» ثم طوت ذراعيها عبْر صدرها فى نوع من حماية الذات .

– هل لى أن أستمرّ ؟

– ألا يذكرك هذا بشخص ما ؟ (لاتوجد سوى حرب واحدة تدور بين الطبقات الاجتماعية . إنها الحرب بين الاستعماريين والشعوب الرازحة تحت الاستعمار . أنها الحرب بين الرأسماليين والجماهير الواقعة تحت الاستغلال . مهمتنا أن نجعل الحرب ترتد إلى صدور وأوطان الذين أشعلوها . وترتد إلى المليونيرات العنصريين الذين ينظرون إلى العالم الثالث على أنه مزرعة خاصة بهم) .

وتوقف عن الكلام وهو يلاحظ كيف أن رأسها قد انزلق بين يديه .

قالت فى تمتمة «توقف عن الكلام يا يوسف هذا فوق ما أحتمل . انصرف إلى منزلك» .

قال هامساً ولكن صوته كان يتغلغل ويخترق : (وفيما يتعلق بمثيرى الحروب الامبرياليين الذين يسلّحون المعتدين الصهاينة وفيما يتعلق بالبرجوازية الغربية المعتوهة الذين هم أنفسهم بمثابة عبيد مناصرين للنظام الخاص بهم أودّ أن أوضح لهم أن العالم يقول لنا إنه لا ينبغى علينا أن نهاجم النساء والأطفال الأبرياء بعد

اليوم . وفى مواجهة كل طفل يموت جوعا فى العالم الثالث يوجد طفل فى الغرب قد سرق طعامه .

قالت مرة أخرى من خلال أصابعها : توقف عن هذا الكلام . هذا فوق ما أحتمل . إننى أُسلِّم بوجهة نظرك .

إلاَّ أنه استمر فى الترتيل : (عندما كنت فى السادسة من عمرى طُردتُ من أراضينا . وعندما أصبحت فى الثامنة من عمرى التحقت بالأشبال. وما هى الأشبال لو سمحت ؟) هيّا ياتشارلى . هذا هو السؤال الذى قمت بتوجيهه . ألم يكن أنت التى وجهت لى هذا السؤال - إذا رفعت يدك وقلت (ما معنى الأشبال لو سمحت؟) فعلى أىّ نحو أجبتك ؟

قالت وهى تضع رأسها بين يديها : «ميلشيا الأطفال . إننى بصدد التعرّض للدوار والدوخة يايوسف الآن .

(وعندما أصبحت فى سن العاشرة جثمتُ رابضاً فى مأوى ريفى مصنوع بالأيدى بينما راح السوريون يصبون صواريخهم على معسكرنا . وعندما صرت فى الخامسة عشرة من عمرى قُتل أخى وأختى أثناء غارة جوية صهيونية) استطردى ياتشارلى لو سمحت وأكملى لى قصة حياتى نيابة عنى .

كانت قد أمسكت بيده مرة أخرى . وفى هذه المرة أمسكتها بكلتا يديها وراحت تدقّها فى رفق على المنضدة فى شىء من التأنيب . فقال مذكرا إياها : (وإذا كان الأطفال يتعرضون للقصف بالقنابل فإنه يمكنهم أن يحاربوا أيضا) وإذا استعمروا ؟ ماذا إذن ؟ استمرى !

قالت تشارلى فى تمتمة على الرغم منها : يجب أن يقتلوا وإذا قامت أمهاتهم بإطعامهم وتعليمهم كيف يسرقون بيوتنا ومنازلنا ويقصفون شعبنا الموجود فى المنفى بالقنابل ؟

- عندئذ تكون أمهاتهم موجودات فى الخط الأمــامى مع أزواجهن . يايوسف .

إذن ما الذى نفعله حيالهن ؟

يجب أن يتعرضن للقتل أيضاً . ولكننى لم أصدقه آنئذ . ولا أصدقه الآن .

فتجاهل احتجاجاتها . واستطرد قائلا : استمعى إلىّ ! إننى من خلال فتحتى العينين الموجودتين فى خوذتى السوداء وبينما أبلغك برسالتى فى المنتدى الجماهيرى العام فإننى لاحظت أن وجهك المبتهج يتركز علىّ . ولفت نظرى شعرك الأحمر وملامحك الثورية القوية . أليس من قبيل السخرية أثناء أول لقاء يتم بيننا أن أكون موجودا على المسرح بينما أنت بين جماهير الناس المشاهدين ؟

لم أكن مبتهجة إلى أقصى حدّ . اعتقدت أنك كنت بعيداً فوق القمة . وكان لدىّ من التفكير السليم ، ما يجعلنى أقول لك ذلك .

ولم يكن شاعرا بالندم أو الأسف : مهما كانت مشاعرك فى ذلك الوقت فإنك هنا فى فندق نوتنجهام وتحت التأثير المغناطيسى لى تراجعين على الفور ذاكرتك . وعلى الرغم من أنه لم يكن بمقدورك مشاهدة وجهى فإنك تقولين لى إن كلماتى ظلت محفورة فى داخل ذاكرتك منذ ذلك الوقت . فلم لا ؟ ... هيا ياتشارلى ! لقد جاء ذلك فى الخطاب الذى أرسلتهِ إلىّ !

ولم تكن من النوع الذى يُجر ويسحب . ليس بعد . وفجأة ولأول مرة منذ بدأت قصة يوسف . أصبح ميشيل مخلوقا حيّا منفصلاً بالنسبة لها . وحتى هذه اللحظة أدركتْ تشارلى أنها استخدمت لاشعوريا ملامح يوسف لكى تصف محبوبها الخيالى واستخدمت صوت يوسف لكى تحدّد الملامح المميزة لخطبه الرنانة . والآن ومثل خلية تُقسِّم نفسها أصبح الرجلان مستقلين وصارا كيانين متصارعين مما جعل ميشيل يكتب البُعْد الخاص به فى الواقع الملموس . وشاهدتْ مرة أخرى غرفة المحاضرات المليئة بالصور الفوتوغرافية للزعيم ماو والمليئة بالمقاعد الطويلة المدرسية المليئة بالخربشات . وشاهدت صفوف الرءوس غير المتساوية ابتداء من أفرو إلى المسيح وبالعكس وشاهدت لونج آل متكوراً إلى جوارها فى حالة من السأم الناجم عن الإكثار من تناول الكحوليات . كما شاهدت على المنصة الهيكل المنعزل

غير الواضح المعالم لمندوب فلسطين - وهو أقصر من يوسف وربما يكون أكثر امتلاء أيضاً - رغم أنه كان من الصعب معرفة ذلك لأنه كان ملفوفا فى قناعه الأسود وردائه الكاكى الذى لا شكل له علاوة على اتشاحه بكوفيته السوداء / البيضاء . إلا أنه كان أصغر سنا - بكل تأكيد - وأشدّ تعصُّباً . وتذكرت شفتيه الشبيهتين بالسمكة . وتذكرت خلوه من التعبيرات وهو فى داخل القفص . وتذكرت منديله الأحمر المربوط فى تحدٍّ حول رقبته وتذكرت يديه المرتديتين للقفاز واللتين تومئان أثناء الكلام . بل وتذكرت صوته : لم يكن صوته حلقيا بلعوميا وفقا لما كانت تتوقع وإنما كان صوتا متسما بالبساطة وعدم الزخرفة ومراعاة شعور الآخرين وذلك على النقيض تماما من رسالته المتعطشة للدماء . ولكن صوته لم يكن مثل صوت يوسف أيضاً . وتذكرت كيف أن صوته . توقف لكى يعيد صياغة عبارة ، سعيا وراء الالتزام بالدقة فى قواعد اللغة : البندقية والعودة هما شىء واحد بالنسبة لنا ... الشخص الاستعمارى هو الشخص الذى لا يساعدنا فى الثورة التى نخوضها ... عدم فعل أىّ شىء معناه إقرار الظلم والموافقة عليه ..

قال يوسف متأملا فى الأحداث الماضية : لقد أحببتك على الفور . أو هكذا أقول لك الآن . وبمجرد أن انتهت المحاضرة تساءلتُ عَمَّن تكونين أنت . إلاَّ أننى شعرت أننى غير قادر على الاقتراب منك والتحدث إليك أمام هؤلاء الناس . كنت أدرك أننى غير قادر أن أريك وجهى الذى يعتبر من أعظم مصادر القوة لدّى لذا قررت أن أسعى لمقابلتك فى المسرح . وقمت ببعض التحريات والاستفسارات ، وتعقبتك إلى نوتنجهــام . وها أنا موجود . أحبك حبا أبديا خالداً . توقيع : ميشيل .

وكما لو كان يدخل تعديلات وتنقيحات أظهر يوسف قدرا أكبر من الاهتمام فيما يتعلق برفاهيتها ورعايتها حيث ملأ لها كأسها مرة أخرى وطلب لها قهوة مضبوطة بالطريقة التى تحبها . أتريدين الاغتسال ؟

- لا شكرا جزيلاً . إننى على ما يرام . وكان التليفزيون يعرض جانبا من

نشرة الأخبار المصورة حيث ظهر أحد رجال السياسة وهو ينزل من طائرة مبتسما . ونزل إلى آخر سلّمة بدون وقوع حادث أو حظ عاثر .

بعد أن استكمل يوسف تقديم خدماته نظر فى اهتمام حول الحانة ، ثم نظر إلى تشارلى وأصبح صوته متخذا الطابع العملى :

– إذن أنت ياتشارلى بمثابة جان دارك الخاصة به . أنت بمثابة حبه ، أو الاستحواذ الذى يسيطر تماما على مشاعره . انصرفت هيئة العاملين إلى منازلهم . وأصبحنا بمفردنا فى صالة الطعام . المعجب بك غير المقنع ، وأنت . والوقت هو ما بعد منتصف الليل وأنا قد ظللت أتحدث لفترة طويلة للغاية ورغم ذلك لم أكن بدأت بالفعل فى الإفضاء لك بما يجيش فى قلبى من حب عميق . بل ولم أسألك عن نفسك رغم أننى أحبك حباً يفوق الوصف . فمثل هذه التجربة تعتبر جديدة تماما علىَّ . ... إلخ إلخ غداً هو يوم الأحد . ولذلك ليس لديك ارتباطات . لقد استأجرت غرفة فى الفندق . ثم لا أبذل محاولة لكى أقنعك . فهذا ليس أسلوبى . وهذه ليست طريقتى . لعلى أشعر بالاحترام والتبجيل الشديد نحو الوقار الذى تتميزين به . أو ربما أنا معتز بنفسى للغاية بحيث لا أعتقد أنك تحتاجين للإقناع . إما أنك ستجيئين إلىَّ كرفيقة فى السلاح أو عشيقة صادقة وإما أنك لن تجيئى . فعلى أى نحو يكون ردّ الفعل لديك ؟

فراحت تحملق فى وجهه . ثم أشاحت بوجهها بعيداً عنه . لقد كان لديها نصف دستة من الإجابات الظريفة . إلا أنها كبحت جماح تلك الاجابات. فالشخص المغمى بالقلنسوة الموجود على المنصة أصبح مرة أخرى بمثابة تجريد . لقد كان يوسف – وليس ذلك الرجل الأجنبى – هو الذى وجَّه التساؤل. وما الذى كان هناك لكى تقوله عندما كانا – فى داخل خيالها – مضطجعين بالفعل فى السرير سويا حيث كان يوسف مستلقيا على كتفها وكان جسده الملىء بالجراح متمدداً مع جسدها بينما هى تستخرج طبيعته الحقيقية من داخل كيانه ؟

على كل حال ياتشارلى – ومثلما قلت لنا بنفسك – فقد نمت فى السرير مع العديد من الرجال فى مقابل أمور أقل .

فقالت موافقة على رأيه : أوه !! فى مقابل أمور أقلّ بكثير .

– فأنت ترتدين الحلىّ الغالية الخاصة به . وأنت وحيدة فى مدينة موحشة وكئيبة . والمطر ينهمر مدراراً . وهو قد جذب انتباهك وسحرك – وتملّق الممثلة وألهم الإنسانة الثورية فكيف يمكن لك أن ترفضيه ؟

فأضافت مُذكِّرة اياه : وهو قد أطعمنى أيضاً حتى ولو كنت فاقدة الشهية للحوم .

« يمكننى القول إنه بمثابة كل شىء تحلم به فتاة غربية تعانى من الملل والسأم» .

فتمتمت تشارلى وهى غير قادرة على النظر إليه «يا يوسف إكراما للسيد المسيح» .

فقال فى انتعاش ونشاط وهو يشير إلى الفاتورة «إذن . إليك التهانى. لقد تقابلت مع خليلك وحبيبك أخيراً» .

وظهرت وحشية غامضة على أسلوبه . هبط عليها إحساس بأن رضوخها أغضبه . شاهدته وهو يسدّد الفاتورة كما شاهدته وهو يضع الإيصال فى جيبه . واتخذت خطوات خلفه خارجة إلى هواء الليل . وقالت لنفسها فى تفكير : إننى الفتاة الموعودة بشخصين . إذا كنت تحبين يوسف تزوجى ميشيل فقد اقتادنى إلى الوهم الخاص به والموجود على مسرح الواقع الحقيقى .

قال يوسف بطريقة عرضية لدى دخولهما إلى السيارة : «وفى السرير يقول هو لك إن اسمه الحقيقى هو : سالم إلاّ أن ذلك الاسم يعتبر سراً هائلاً. فهو يفضل استخدام اسم : ميشيل وذلك لأسباب تتعلق بالأمن وأيضاً لسبب آخر وهو أنه حاليا يعتبر معجبا بعض الشىء بالتفسخ والانحطاط الأوربى .

- أحب سالم أكثر .

- ولكنك تستخدمين ميشيل .

وقالت لنفسها : هذا هو ما تقولونه جميعا . إلاَّ أن سلبيتها كانت بمثابة خداع حتى بالنسبة لنفسها . وكان باستطاعتها أن تشعر بالغضب وهو يتحرك فى أسفل كيانها ويتصاعد تدريجيا لأعلى .

.. ..

كان الفندق عبارة عن كتلة من المبانى المنخفضة . وفى بادىء الأمر لم يكن يوجد مكان لركن السيارة . وبعدئذ تحركت فى تثاقل عربة أتوبيس صغيرة فولكس فاجن للأمام من أجل أن تفسح لهما مكاناً . فلمحتْ هيكل ديمترى جالساً عند عجلة القيادة . ثم أمسكت بنباتات السحلبية على النحو الذى أوضحه لها يوسف وظلت تنتظر لحين أن فرغ من جذب الرداء الأحمر الخاص به على جسده ثم سارت وراءه عبْر المساحة المرصوفة نحو الفراندة الأمامية إلاَّ أنها كانت تحرص - على الرغم منها - أن توجد مسافة بينهما . وكان يوسف يحمل حقيبة الكتف الخاصة بها علاوة على حمل حقيبته السوداء الأنيقة . اعطنى تلك الحقيبة فهى حقيبتى . وفى البهو ومن خلال زاوية عينها شاهدت راعول وراشيل واقفين تحت الإضاءة المنخفضة الضعيفة يقرآن الملاحظات التى تتعلق بجولات الغدّ . راحت تحملق فيهما . اتجه يوسف إلى المكتب فاقتربت منه وشاهدته يوقع فى السِّجل رغم أنه كان قد نبهها إلى عدم الاقتراب الشديد منه . الجنسية لبنانى والاسم عربى والعنوان : شقة فى بيروت . وأسلوبه ازدرائى : رجل له مركز اجتماعى رفيع ومستعدّ لأن يغضب فى أىّ وقت . راحت تفكر فى حزن واكتئاب : أنت على مايرام . كانت تحاول أن تكرهه. وألقى عليها المدير الليلى الثقيل الظل نظرة مليئة بالشبق الاَّ أنه لم يظهر أىّ شىء من عدم الاحترام الذى اعتادت عليه . وكان البواب يحمل أمتعتهما على عربة يد ترولى ضخمة من النوع الذى يوجد فى المستشفيات . إننى مرتدية قفطانا أزرق اللون وسوارا جميلا ذهبيا وملابس داخلية فاخرة مشتراه من محلات بيرسفون

ميونيخ . ولسوف أقوم بعضّ أول قروى يقول عنى إننى مومس . أمسك يوسف بذراعها . فحرقتْ يده بشرتها. فحررت نفسها منه . وسارا وراء أمتعتهما فى نفق رمادى به أبواب مطلية بالباستيل بينما كانت أغنية جريجورية تنساب من شريط تسجيل . وكانت غرفة النوم الخاصة بهما مزودة بسريرين وفاخرة ولوكس ومعقمة مثل مسرح فى حالة تشغيل .

انفجرت قائلة «ياالهى !» وهى تحملق حولها فى عداء أسود .

التفت البواب إليها فى دهشة . إلاّ أنها تجاهلته . وشاهدت سلطانية مليئة بالفواكه وجردلاً مليئا بالثلج علاوة على وجود كأسين وزجاجة فودكا إلى جوار السرير . وزهرية من أجل نباتات السحلبية ، فوضعت نباتات السحلبية فى الزهرية، وأعطى يوسف بقشيشاً للبواب وصدر صراخ عن الترولى أثناء الرحيل . وفجأة أصبحا بمفردهما مع السرير الذى له حجم ملعب كرة القدم ومع إطارين للوحتين عن ثيران مرسومة بالفحم تعبران عن جو ملئ بالأمور الجنسية ومع شرفة تطل على جراج السيارات . فأمسكت تشارلى بزجاجة الفودكا وأخرجتها من الجردل وصبت لنفسها كأساً . ثم ألقت بنفسها على حافة السرير .

وقالت : «فى صحتك أيها الرجل العجوز»

كان يوسف مازال واقفاً حيث راح يرقبها بدون أن تظهر على وجهه أية تعبيرات معينة . ثم قال «فى صحتك يا تشارلى» ، رغم أنه لم يكن ممسكا بالكأس .

تصاعد صوتها قائلة : إذن ما الذى نفعله الآن ؟ هل نلعب لعبة الاحتكار ؟ أم أن هذا هو المشهد الكبير الذى اشترينا التذاكر من أجله ؟ أعنى مَنْ نكون نحن بالنسبة لهذا ؟ لمجرد المعرفة والمعلومات . مَنْ نكون نحن ؟

ـ أنت تعرفين جيدا يا تشارلى مَنْ نحن . نحن عشيقان يستمتعان بشهر العسل اليونانى الخاص بهما .

– لقد ظننت أننا موجودان فى فندق .

– نحن نلعب كلا الدورين فى آن واحد . كنت أعتقد أنك تدركين ذلك . نحن نرسخ حاليا الماضى والحاضر .

– لأننا نعانى من النقص فى الزمن .

– دعينا نقول إن حياة الآدميين عرضة للأخطار .

قامت تشارلى بجذب زجاجة الفودكا مرة أخرى . ويدها راسخة وثابتة مثل الصخرة فهكذا تكون يدها عندما تتصاعد الحالة النفسية السوداء فى داخل كيانها ثم صححت له عبارته بأن قالت «لأن حياة الآدميين اليهود فى خطر » .

– وهل حياة اليهود مختلفة عن حياة الآخرين ؟

– إننى أقول إنها مختلفة ! يا الهى !! أعنى أن كيسنجر باستطاعته أن يقصف الكمبوديين المساكين إلى أن تعود الأبقار إلى موطنها . ولا أحد يرفع إصبعاً . والاسرائيليون باستطاعتهم تقطيع أجساد الفلسطينيين إرباً إرباً فى أىّ وقت يشاءون . ولكن اذا قُتل اثنان من حاخامات اليهود فى فرانكفورت أو فى أىّ مكان آخر فإن ذلك يعتبر بمثابة كارثة دولية من الدرجة الأولى . أليس كذلك ؟

وكانت تحملق أمامها إلى ما وراءه نحو عدوّ خيالى .

ولكنها شاهدته من زاوية عينها يتخذ خطوة فى اتجاهها . ثم يتخطاها سائرا نحو النافذة . وبعدئذ فتح النافذة وربما كان يرغب فى أن يجعل صوت حركة المرور بالشارع تغطى على صوتها المرتفع .

وردّ فى صوت يخلو من العاطفة وهو ينظر إلى الخارج من النافذة : إنها كلها بمثابة كوارث . أسألينى عن المشاعر التى يحس بها سكان كيريات شمونه عندما تتساقط قذائف الفلسطينيين عليهم . إسألى السكان فى الكيبوتز لكى يحكوا لك عن صرير وأصوات صواريخ الكاتيوشا حيث يتساقط ٤٠ صاروخا فى كل مرة ـ بينما هم يخبئون أطفالهم فى الملاجئ متظاهرين بأن المسألة ليست سوى لعبة يلعبونها . وعلى كل حال فى المرة التالية التى تسوقين فيها تلك المجادلة والحجة

فإننى أقترح عليك أن تتذكرى أن كيسنجر نفسه رجل يهودى . وذلك أيضا له مكان فى المفردات السياسية اللغوية الأساسية لدى ميشيل إلى حدّ ما .

ووضعتْ عقلات أصابعها فى فمها واكتشفت أنها تبكى . فجاء إليها وجلس إلى جوارها على السرير . وانتظرتْ منه أن يلف ذراعه حولها أو يعرض عليها مناقشات تتسم بالمزيد من الحكمة أو يستحوذ عليها بكل بساطة وهو الإجراء الذى تفضله أكثر . إلاَّ أنه لم يفعل أىّ شئ من هذا القبيل . إذ كان مقتنعا بأن يدعها تحزن وتتفجع إلى أن يتكون لديها تدريجيا التخيّل بأنه قد لحق بها فى أحزانها على نحو ما وأنهما أصبحا يتفجعان سويا . وبدا على صمته وكأنه يلطف مما كان ينبغى عليهما أن يفعلاه . وظلا على ذلك النحو لفترات طويلة للغاية جالسين إلى جوار بعضهما إلى أن سمحت لبكائها أن يتحول إلى تنهيدة عميقة مليئة بالإرهاق . ولكنه كان لايزال ملتزما بعدم التحرك - سواء فى اتجاهها أو بعيداً عنها .

همستْ فى يأس وهى تمسك بيده مرة أخرى : مَنْ تكون أنت بحقّ الجحيم يا يوسف ؟ وما الذى تشعر به فى داخل كافة تلك الشراك والورطات المحاطة بالأسلاك الشائكة ؟ .

رفعت رأسها وبدأت تصغى لأصوات الحيوات الأخرى المنبعثة من الغرف المجاورة . البقبقة المليئة بالتبرم الصادرة عن طفل يعانى من الأرق . ومناقشات حادة بين زوج وزوجته . ثم سمعت وقع أقدام فى الشرفة فحملقت حولها فى الوقت المناسب فشاهدت راشيل . ترتدى بدلة مصنوعة من قماش المناشف . وتحمل فى يدها حقيبة اسفنج وبورق ترموس . وخطت من العتبة إلى داخل الغرفة .

.. ..

وكانت راقدة ومستيقظة ، إذ كانت تشعر بالإرهاق الشديد مما أطار النوم من عينيها . لم تكن نوتنجهام على هذا النحو على الإطلاق . ومن الباب المجاور ترامى صوت مكتوم لشخص يتكلم فى التليفون . واعتقدت أنها تعرفت على صوت الشخص الذى يتكلم . إنها كانت مستلقية بين ذراعى ميشيل وإنها مستلقية بين

ذراعى يوسف . وشعرت بالاشتياق إلى «آل» لقد كانت فى نوتنجهام مع الحبّ الخاص بحياته وكانت آمنة فى السرير الخاص بها فى كامدين وموجودة فى الغرفة التى كانت أمها اللعينة مازالت تسميها غرفة الحضانة ترقد كطفلة عقب قيام حصانها بإلقائها بعيداً وتشاهد عرضا لحياتها وتتجول فى داخل ذهنها تستكشف جسدها على نحو تجريبى وتتفحص كل جزء لمعرفة مدى الدمار الذى لحق به . وعلى مسافة ميل عند الجانب الآخر من السرير كانت راشيل تقرأ كتابا لتوماس هاردى تحت ضوء مصباح صغير .

تساءلت تشارلى: مَنْ هى الإنسانة التى حصل عليها يا راشيل ؟ ومَنْ هى التى تحيك له جواربه وتنظف له الغليون الخاص به ؟

- أليس من الأفضل أن توجهى له هذا التساؤل يا عزيزتى ؟

– ألست أنت التى تقومين بذلك ؟

– هذا لن يأتى بالنتيجة المرجوة ..ليس على المدى البعيد .

وانغمست تشارلى فى نعاس خفيف وهى مازالت تحاول فهْم جوانب شخصيته . ثم قالت : لقد كان مقاتلاً .

قالت راشيل فى تأكيد : أفضل المقاتلين . ومازال .

– كيف كان يختار مشاجراته ومعاركه إذن ؟

فقالت راشيل وهى مازالت غارقة فى كتابها : كانت المعارك تُختار له لكى يخوضها . أليس كذلك ؟

قالت تشارلى : لقد كان له زوجة ذات يوم ؟ فما الذى حدث لها ؟

ردت راشيل : آسفة . يا عزيزتى .

علقت تشارلى فى تأمل : إن المرء ليسأل نفسه .

هل هى قفزت أم أنها دُفعت ؟ أقول أن انسانا لعيناً دفعها . يا لها من انسانة مسكينة . لقد كان ينبغى عليها أن تكون متلونة كالحرباء من أجل أن تستقل أتوبيساً معه .

ولاذت بالصمت والسكون لبعض الوقت .

ثم تساءلت «يا راشيل ..كيف دخلت فى هذا القَدَرْ أو القسمة ؟ » ولدهشتها وضعت راشيل الكتاب وتحدثت معها . لقد كان والدها من اليهود الأرثوذكس فى بوميرانيا . ثم استقرا فى ماسليفيلد عقب انتهاء الحرب . وأصبحا من الأثرياء فى صناعة النسيج . وكان لهما فروع تجارية فى أوروبا. كما كان لهما شقة فوق سطح عمارة فى القدس . وكانا يريدان لراشيل أن تلتحق بجامعة أكسفورد ثم تعمل فى الشركة التجارية الخاصة بالعائلة الاّ أنها فضلت القيام بدراسة التوراة والإنجيل والتاريخ اليهودى بالجامعة العبرية .

عندما سألتها تشارلى عن الخطوات التى حدثت بعد ذلك قالت راشيل ثم حدث ما حدث .

أصرت تشارلى : ولكن كيف ؟ ولماذا ؟ ومن الذى اختارك يا راشيل ؟ وما الذى قالوه لك ؟

لم تتحدث راشيل عن كيف أو مَنْ . ولكنها راحت تتحدث عن الأسباب. وقالت إنها كانت تعرف أوروبا معرفة جيدة. وكانت تدرك مدى العداء الموجود ضد السامية وأرادت أن تبيّن لأبطال حرب الصابرا بالجامعة أنها باستطاعتها أن تقاتل أيضا مثل أى ولد لصالح اسرائيل .

فتساءلت تشارلى : وماهى حكاية روز ؟

قالت راشيل إن روز انسانة معقدة كما لو كانت راشيل نفسها ليست معقدة. وقالت إن روز أنشأت حركة الشباب الصهيونى فى جنوب افريقيا . ثم جاءت إلى اسرائيل وهى لاتدرى عمّاً إذا كان ينبغى عليها البقاء فى جنوب افريقيا من أجل أن تحارب التفرقة العنصرية .

وأضافت راشيل فى توضيح : إنها تبذل جهوداً مضنية لأنها لاتعرف أىّ الأمور التى ينبغى عليها أن تفعلها ولكى تضع حداً نهائيا للحوار والمناقشات فإنها عادت إلى كتابها «عمدة كاستر بردج» بقلم توماس هاردى.

راحت تشارلى تفكر : هذا قدْر كبير من المثل العليا . منذ يومين فقط، لم يكن لدى مثل هذا الإفراط والقدر الكبير من المثل . وساءلت نفسها فى تعجب : هل لدىّ أىّ منها الآن ؟ هذه الأسئلة ينبغى أن توجهها إلى نفسها فى الصباح . ولبعض الوقت انغمست فى المانشتات والعناوين الرئيسية بينما النعاس يغلبها «أنثى شهيرة خيالية تواجه الحقيقة الواقعة» . «جان دارك تحرق شابا فلسطينيا نشطا» . حسنا يا تشارلى حسنا . تصبحين على خير. طابت ليلتك .

.. ..

كانت غرفة بيكار تقع على مسافة ياردات قليلة فى الطرقة وكان يوجد بالغرفة سريران . وكان مستلقيا على سرير ومحملقا فى السرير الآخر . بينما التليفون موجود على المنضدة التى تقع بين السريرين . بعد عشر دقائق ستصبح الساعة الواحدة والنصف . وكان الوقت المحدّد هو الواحدة والنصف. وكان البواب فى نوبته الليلية قد حصل على البقشيش الخاص به . ولذلك وعد بأن يقوم بتوصيل المكالمة التليفونية على الفور . وكان بيكار شديد التيقظ كعادته دائما فى مثل هذا الوقت من الليل . ودقّ جرس التليفون فى الموعد المحدّد وحياه صوت كيرتز على الفور . أين يوجد هذا الرجل ؟ هكذا ساءل بيكار نفسه فى تعجب . وسمع بيكار صوت موسيقى مسجلة مترامية وراء صوت كيرتز فخطر على ذهنه أن كيرتز موجود فى فندق . وكان مصيبا فى توقعه . وتذكر أنه يتحدث من ألمانيا . فندق فى ألمانيا يتحدث مع فندق فى دلفى . كان كيرتز يتحدث باللغة الانجليزية لأنها لغة أقل وضوحا بالنسبة للآخرين . وكان يتحدث بطريقة عرضية هادئة وعلى نحو لايثير انتباه أىّ شخص يسترقّ السمع . وقال بيكار مؤكدا له : «نعم كل شئ يسير على ما يرام . فالصفقة تسير على نحو جيّد ، ولا توجد عقبات فى الطريق ثم تساءل بيكار : وماذا عن الإنتاج الأخير ؟ »

رد كيرتز فى تأكيد نحن نحصل على قدْر كبير من التعاون من الدرجة الأولى . عليك بالذهاب مباشرة إلى المستودع وفقا لما يتراءى لك ومن المؤكد أنك لن تصاب بالاحباط فيما يتعلق بالانتاج . وهناك شئ آخر .

ونادرا ما كان بيكار يستكمل محادثاته التليفونية مع كيرتز بوجه عام. لقد كان ذلك شيئا قديما بينهما . حيث يتنافس كل منهما لكى يكون هو أول من ينهى المكالمة مع رفيقه . إلاّ أن كيرتز فى هذه المرة راح يصغى حتى النهاية وكذلك فعل بيكار . ولكن عندما وضع بيكار سماعة التليفون شاهد ملامح وجهه الجذابة فى المرآة . وراح يحملق فى تلك الملامح فى كراهية شديدة . واجتاحته رغبة كئيبة وساحقة فى تحطيم تلك الملامح تحطيما نهائيا : مَنْ تكون أنت بحق الجحيم ؟ .. وما الذى تشعر به ؟ واقترب أكثر من المرآة . إننى أشعر كأننى أنظر إلى صديق ميّت آملا أن تدب فيه الحياة من جديد أشعر وكأننى أبحث عن آمالى القديمة فى شخص ما آخر دون جدوى . أشعر أننى ممثل ـ مثلما أنك ممثل ـ وأحيط نفسى بنسخ معدّله من هويتى لأن النسخة الأصلية تعرضت على نحو ما للفقدان فى الطريق . ولكننى فى حقيقة الأمر لا أشعر بأىّ شئ لأن الشعور الحقيقى هو شعور مدّمر ومخرّب ومتعارض مع أسـلوب النظام العسكرى . ولذلك أشعر وأنا أحارب إننى مـــــوجود .

وفى المدينة سار فى تلهف ونفاد صبر بخطوات واسعة وهو ينظر فى جمود أمامه كأنما المشى يسبب له الضيق والتبرّم . لقد كانت مدينة تنتظر الهجوم عليها . وعلى مدى عشرين عاما أو أكثر فإنه عرف مدنا كثيرة للغاية تمرّ بتلك الحالة . حيث لم يكن هناك طفل يمكن سماع صوته بعد أن هرب الناس من الشوارع . إهدموا البيوت والمنازل . واطلقوا النيران على أىّ شئ يتحرك . وكانت عربات وأتوبيسات السياح قد وقفت فى إهمال بعد أن تركها أصحابها . والله وحده هو الذى يعرف متى سيراها أصحابها فى المرة القادمة . ومن وقت لآخر كانت نظراته السريعة تنزلق نحو مدخل مفتوح أو نحو مدخل يؤدى إلى طرقة غير مضاءة ولكن ملاحظة الأمور كانت من الخصال التى اعتاد عليها . ولم تضعف خطـواته الواسـعة السريعة . ثم وصل إلى شارع جانبى ورفع رأسه لكى يقرأ الاسم ولكنه تجاوزه مرة أخرى قبل أن يتجه بسرعة إلى مكان يشغله مبنى . وكان هناك أتوبيس صغير واقفاً بين كومات عالية من الطـوب . وهناك موسـيقى خافتة تترامى من داخل

المبنى ، فُتح الباب . وعندئذ شاهد ماسورة مسدس موجهة نحو وجهه مثل عينْ واحدة تتفحصه . ثم اختفت الماسورة . وقال صوت متسم بالرزانة والاحترام «شالوم» فاتخذ خطوات إلى داخل المبنى . ثم أغلق الباب وراءه . ولم تغطِّ الموسيقى تماما على صوت الآلة الكاتبة الصغيرة . لقد كان دافيد وهو العامل التابع لبيت أثينا منحنيا على الآلة الكاتبة . واصطحبه ولدان من أتباع ليتفاك . وأومأ بيكار برأسه للتحية . ثم جلس على المقعد الخشبى الطويل المبطَّن وشرع فى قراءة لفة كبيرة من مقتطفات الصحف التى وضعت على جانب لعرضها عليه عقب وصوله .

كان الولدان ينظران إليه فى احترام وتبجيل ، وأحس بهما وهما يحصيان شرائطه وميدالياته فى داخل عقليهما الجائعين . وربما كانا يعرفان أعماله البطولية على نحو يفوق معرفته شخصيا بها .

قال الولد الأكثر جرأة من زميله «إنها جميلة الشكل يا جادى» .

تجاهله بيكار . وكان فى بعض الأحيان يضع خطا تحت فقرة معينة وأحيانا أخرى يضع خطا تحت تاريخ معين . وبعد أن فرغ من القراءة أعطى الأوراق للولدين وجعلهما يختبرانه إلى أن أصبح مقتنعا بأنه يعرف جيدا كل شئ .

وعندما خرج ومرَّ بجوار النافذة سمع على الرغم منه أصواتهما المليئة بالبهجة حيث يتناقشان بشأن شخصيته .

قال الولد الجرئ «إن الروك قد منحه سلطات واسعة للغاية فى إدارة مصنع جديد ضخم للمنسوجات بالقرب من حيفا» .

فقال الولد الآخر «عظيم ، إذن هيا بنا نقدم استقالتنا ونجعل الروك جافرون يحولنا إلى مليونيرات» .

الفصل الحادي عشر

ومن أجل تدعيم الصداقة من جديد مع الدكتور أليكسيس الطيب فى نفس تلك الليلة - وهو أمر ممنوع ولكنه حيوى - اتخذ كيرتز اتجاها يتسم بالألفة والزمالة بين المهنيين علاوة على الاتسام بالصداقة القديمة . لقد تقابلا - بناء على اقتراح من كيرتز - ليس فى فيز بادن ولكن فى قلب مدينة فرانكفورت حيث الجماهير أكثر ثقافة . وتجوُّلا . تم اللقاء فى فندق كبير كان يستضيف فى خلال ذلك الأسبوع مؤتمرا يضم رجال الصناعات الخفيفة . وكان أليكسيس قد اقترح عقد اللقاء فى منزله الخاص به ولكن كيرتز رفض هذه الفكرة فى تلميح أدرك أليكسيس كنهه على الفور .

كانت الساعة تدق العاشرة ليلاً عندما تقابلا وحيث كانت معظم الوفود بالمؤتمر قد انتشرت فى المدينة بحثا عن تشكيلات أخرى من الصناعات الخفيفة . وكانت ثلاثة ارباع الأماكن فى البار شاغرة وكانت الموسيقى الخفيفة تنبعث من جهاز ستيريو . ولكن الرجل المسئول عن البار جلس يستمع إلى موسيقى من العزف المنفرد للموسيقار باخ من جهاز الراديو الترانزستور الخاص به .

وفى خلال الوقت الذى انقضى منذ أن تقابلا لأول مرة كان العفريت الموجود فى داخل كيان أليكسيس قد خلد إلى النوم على مايبدو فى نهاية الأمر . وكانت الظلال الخفيفة الأولى للفشل تخيِّم عليه مثل البوادر الأولى للمرض وبحيث اتخذت ابتسامته التليفزيونية تواضعاً جديداً غير لائق . أحضر كيرتز معه تذكارا حقيقيا من القدس ، أحضر زجاجة مليئة بالمياه العكرة بها بطاقة تفيد بأنها مأخوذة من نهر الأردن . وكان كيرتز قد سمع أن الزوجة الجديدة السيدة أليكسيس تنتظر مولوداً . وبالتالى عمل الترتيبات لإحضار هذه المياه لها . وكانت هذه لفتة كريمة جعلت أليكسيس يشعر بالامتنان .

قال أليكسيس عندما حملق فى الزجاجة فى دهشة :

- لكنك علمت بهذا الأمر قبل أن أعرف . بل إننى لم أبلغ هيئة العاملين بمكتبى حتى الآن بذلك .

فقال كيرتز : «أخبرهم عندما تتم الولادة» ثم شربا نخب ابن الدكتور أليكسيس الذى لم يولد بعد مع التمنيات له بمستقبل باهر .

قال كيرتز «يقولون إنك تقوم فى هذه الأيام بدور المنسق العام» .

فردّ أليكسيس فى وقار : «إننى أشرف على المنسقين» .

وارتشف كل منهما رشفة تذكارية من الخمور مرة أخرى . واتفقا أن يخاطب كل منهما الآخر باسمه الأول . إلاّ أن كيرتز احتفظ بالأسلوب الرسمى إذ لم يكن يرغب فى تقويض سطوته وهيمنته على أليكسيس .

تساءل كيرتز «هل لى أن أسألك عن الأمور التى تقوم بتنسيقها يا بول؟

يا سيد شولمان ينبغى أن أقول لك إن العلاقة مع الخدمات الودية لم تعد واردة ضمن واجباتى الرسمية .

ولكن بدلاً من ذلك راح كيرتز يخمن إلاّ أنه لم يكن تخمينا على الإطلاق «ان المنسق تكون له مسئوليات إدارية بالنسبة لأمور حيوية كالنقل والمواصلات والتدريب والتجنيد علاوة على المسئوليات المالية لقطاعات التشغيل وأيضا بالنسبة لتبادل المعلومات بين الوكالة الفيدرالية ووكالة الدولة» .

ودُهش أليكسيس من نوعية المعلومات الموجودة لدى كيرتز الذى يستمع لوجهة نظر أليكسيس فى تعاطف ملئ بالاحترام وبعد أن تبادلا أطراف الحديث على نحو مستحب قال كيرتز «هل تعرف يا بول إننى كنت أعمل منسقا ذات يوم . وكان رئيسى فى العمل يعتقد أننى ولد مشاغب ومتسم بالشقاوة ولذلك جعلنى منسقا وبعد ذلك شعرت بالملل الشديد وبعد شهر كتبت خطابا للجنرال جافرون أخبرته رسميا أنه شخص ردىء .

يا جنرال أقول لك هذا الكلام بصفة رسمية . إن مارتى شولمان يقول إنك انسان ردئ وصاخب ومعربد . فاستدعانى . هل سبق لك أن تقابلت مع جافرون هذا ؟ لا ؟ إنه شخص ضئيل الحجم خارج على جماعته . وله كتلة شعر كثيفة . ولا يوجد هدوء أو سلام فى داخل كيانه . إنه يموج بالقلق دائما . ويصرخ فى وجهى (يا شولمان ماذا تقول بحق الجحيم ؟ بعد مرور شهر واحد تصفنى بأننى انسان ردىء؟ كيف اكتشفت هذا السرّ المظلم الخاص بى ؟) وكان صوته معطوبا ومشروخاً . وكأن شخصا ما رماه فى عنف على الأرض عندما كان صغيرا . فقلت له :

يا سيدى الجنرال . لو كان لديك قدْر ضئيل من احترام الذات لبادرت إلى تخفيض رتبتى وإعادتى إلى الوحدة القديمة التى كنت فيها حيث لا أستطيع أن أسبك علنا مرة أخرى هل تعرف ما الذى فعله ميشا ؟ لقد طردنى . وبعد ذلك قام بترقيتى . وبذلك رجعت إلى الوحدة السابقة الخاصة بى .

وكانت هذه قصة مسلية للغاية حيث إنها ذكرًت أليكسيس بالأيام الماضية الخاصة به عندما كان شخصا خارجا على الجماعة بين المسئولين عن النظام الإدارى فى بون . وكان من الطبيعى أن ينتقل الحديث بينهما إلى الاعتداء الشنيع الذى حدث فى بادنسبرج والذى كان سببا فى تعرفهما على بعضهما البعض .

قال كيرتز معلقا َ: سمعت أنهم يحرزون بعض التقدم فى نهاية الأمر . وتمكنوا من معرفة أن الفتاة قد ذهبت إلى مطار أورلى بباريس . وهذا فى حدّ ذاته يعتبر اختراقا حتى وإن كانوا لايعرفون حتى الآن مَنْ تكون الفتاة .

لم يكن أليكسيس متوترا قليلاً لدى سماعه هذا المديح المتسم بالاستهتار الصادر عن شفتى شخص ما يكّن له قدراً كبيرا من الإعجاب والتقدير . وقال «أتسمى ذلك اختراقا ؟ لقد حصلت بالأمس على أحدث تحليل صدر عنهم . فتاة ما تطير من مطار أورلى إلى مطار كولونيا فى نفس يوم تفجير القنبلة . ويعتقدون أنها كانت ترتدى «بنطلون جينز» . ويظنون أنها كانت تضع «إيشارب» حريمى على رأسها . ولها قوام جميل . وربما تكون شقراء . الاَّ أن الفرنسيين لايستطيعون التأكيد بأنها أقلعت على متن الطائرة . أو يقولون إنهم لايستطيعون ذلك .

قال كيرتز «ربما السبب فى ذلك هو أنها لم تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى كولونيا . يا بول» .

رد أليكسيس معترضاً : «كيف تطير هى إلى كولونيا بينما لم تصعد إلى الطائرة المتجهة إلى كولونيا ؟ إن أولئك المعتوهين لم يكن بمقدورهم اقتفاء أثر فيل بين كومة من نبات الكاكاو .

كانت المناضد المجاورة مازالت شاغرة . وما كان ينبعث من موسيقى باخ من الراديو الترانزيستور علاوة على موسيقى أوكلا هوما عبْر مكبرات الصوت كان كافيا للتغطية على العديد من أصوات المناقشات بين الناس ، قال كيرتز فى نفاد صبر : فلنفترض أنها تأخذ تذكرة للذهاب إلى مكان ما آخر . من أجل الذهاب إلى مدريد على سبيل المثال . إنها تصعد على متن الطائرة فى أورلى ولكنها تأخذ تذكرة إلى مدريد .

فتقبل أليكسيس هذا الافتراض الجدلى .

إنها تحصل على تذكرة أورلى / مدريد وعندما تصل إلى أورلى فإنها تسجل اسمها من أجل الذهاب إلى مدريد . ثم تذهب إلى صالة المغادرة ومعها بطاقة الركوب لمدريد . ثم تختار مكانا معينا تنتظر فيه وربما تختار مكانا قريباً من بوابة مغادرة معينة . ولم لا ؟ ولنفترض أنها انتظرت عند بوابة المغادرة رقم ١٨ . ثم تقترب منها فتاة وتتحدث معها بالكلمات المتفق عليها . وبعدئذ تذهب الفتاتان إلى غرفة التواليت الخاصة بالسيدات وتقومان باستبدال التذاكر على نحو مُنظم تماماً . تنظيما لطيفا بالفعل . وتتبادلان جوازىْ السفر أيضاً . اذ لاتوجد مشكلة فى هذا الشأن بالنسبة للفتيات . فالمكياج والباروكة - يا بول - يجعل جميع الفتيات الجميلات متشابهات تماماً أمام مناظيرك حتى ولو قمت بتدقيق النظر .

وشعر أليكسيس بالغبطة لدى سماعه هذه الحكمة أو القول المأثور نظرا لأنه قد توصل أخيرا إلى نفس هذا الرأى الكئيب فيما يتعلق بزواجه الثانى . إلا أنه لم يمعن النظر فى هذا الأمر لأنه أحس بالفعل بأنه على وشك أن يسمع بعض

المعلومات المهمة الخطيرة . فتيقظ رجل الشرطة الموجود فى داخل كيانه مرة أخرى. وتساءل « وماذا بعد أن تصل هى إلى بون ؟» . ثم أشعل سيجارة لنفسه .

– إنها تصل حاملة معها جواز سفر بلجيكيا . جواز سفر مزورا . وهو واحد من جوازات السفر الكثيرة التى زيفت فى ألمانيا الشرقية . ويقابلها فى المطار ولد مُلتحٍ يركب دراجة بخارية مسروقة ولها لوحات مزيفة . إنه شاب طويل ذو لحية : وذلك هو كل ما تعرفه الفتاة . وذلك هو كل ما يعرفه أىّ شخص . لأن هؤلاء الناس ممتازون فى الأمور السرية والأمن . وهو أيضا لم يخلع خوذته على الإطلاق. هؤلاء الناس ممتازون من حيث الالتزام بالنواحى السرية . ويمكننى القول إنهم مشهورون فى هذا الشأن .

قال أليكسيس إنه سبق له أن لاحظ ذلك بالفعل . واستطرد كيرتز «إن مهمة الولد فى هذه العملية أن يخرج فجأة عن الطريق الذى كان يسير فيه .. وذلك هو كل ما عليه أن يفعله . إنه يكسر الدائرة . ويتقابل مع الفتاة ويتأكد أن أحدا لايتبعها . ويقتفى أثرها . ويضعها على دراجته البخارية وينطلق بها لبعض الوقت . ويأخذها إلى المنزل الآمن من أجل تزويدها بالتعليمات وتوجد مزرعة بالقرب من مهليم بمثابة حظيرة تقع عند نهاية الممر الجنوبى . وهذا الممر يتجه فى خط مستقيم إلى أن يلتحم مع الطريق السريع . وتحت غرف المبيت يوجد جراج به سيارة أوبل فى حالة انتظار . واللوحات مسجلة فى سالزبورج وبداخلها سائق فى حالة استعداد وممسك بعجلة القيادة .

وفى هذه المرة أصيب أليكسيس بالبهجة المشوبة بالذهول وقال بصوت منخفض : «إنه أخمان انه ذلك الرجل الذى يسمى أخمان وهو من أهالى دوسلدروف وهو خبير فى الشئون العامة ! هل نحن مجانين ؟ لماذا لم يفكر أىّ شخص فى هذا الرجل ؟

فقال كيرتز موافقا على رأى تلميذه «نعم هو أخمان والمزرعة من ممتلكات الدكتور أخمان الذى هو من أهالى دوسلدروف والذى تمتلك أسرته المشهورة شركة

مزدهرة تعمل فى مجال تجارة الأخشاب ، كما تمتلك بعض دور الصحف والمحلات ، علاوة على سلسلة من المحلات المتخصصة فى بيع الكتب الأدبية الإباحية . وكنشاط إضافى فإنه يصدر وينشر أيضا تقاويم رومانتيكية عن المناظر الطبيعية الألمانية . وهذه الحظيرة من ممتلكات ابنة الدكتور أخمان والتى تسمى أنجى . ولقد شهدت هذه الحظيرة العديد من المؤتمرات التى تتناول الأمور المتطرفة والتى يحضرها أثرياء متحررون من الأوهام ، يبحثون بعمق فى طبيعة النفس البشرية . وفى خلال الفترة التى تخصنا أجَّرت إنجى هذا المنزل لصديق فى مسيس الحاجة إلى المنزل.. فهو ولد له عشيقة .

فاستكمل أليكسيس العبارة له فى إعجاب قائلا : إلى ما لانهاية .

ردد أليكسيس : هل لى أن أتساءل عن الأساس الذى وضعته لهذه النظريات المثيرة ؟

تظاهر كيرتز بالانغماس فى التفكير رغم أن المعلومات التى حصل عليها من يانوكا كانت واضحة فى ذهنه تماما كما لو كان لا يزال جالساً مع يانوكا فى ميونيخ فى زنزانته المبطنة الحوائط وقد أمسك برأسه أثناء انخراطه فى السعال والبكاء . ثم قال : حسنا يا بول لدينا رقم الرخصة الخاصة بالسيارة الأوبل ولدينا صورة من عقد استئجار السيارة ، ولدينا شهادة خطية موقع عليها من أحد المشاركين .

– والولد الملتحى يترك الفتاة عند حظيرة السيارات ويرحل ولا يُشاهد مرة أخرى على الإطلاق . وتقوم الفتاة بتغيير ملابسها وترتدى ثوبها الأزرق الجميل وتضع على رأسها الباروكة الخاصة بها وتجعل من نفسها فتاة جميلة للغاية وبطريقة محسوبة بحيث تدخل السرور على الملحق العمالى الساذج سهل الانقياد . وتدخل إلى السيارة الأوبل . ويقوم شاب آخر بقيادة السيارة الأوبل إلى المنزل المراد أو الهدف . وفى أثناء الطريق يتوقفان بالسيارة من أجل تطعيم القنبلة بالفتيلة . عظيم ؟

فتساءل أليكسيس فى شغف : وهل تعرف هذا الولد أم هو شخص غامض بالنسبة لها ؟

ونظرا لأن كيرتز يرفض التوسع فى الدور الذى قام به يانوكا فإنه شعر أن السؤال معلقا بدون إجابة . فاكتفى بالابتسام . ومع ذلك فإن تملصه من الإجابة لم يسبب الإساءة لأليكسيس لأنه آنئذ كان يتحرق شوقا لسماع كافة التفاصيل ولم يكن يتوقع لأن تُلَبِّى رغبته فى كل مرة .

استطرد كيرتز قائلا «وتم استكمال المهمة . ويقوم نفس السائق بتغيير أرقام اللوحات والأوراق ويذهب بالفتاة إلى منتجع راينلاد للمياه المعدنية الموجودة فى باد نيوناهر حيث يُنزلها هناك .

– وماذا بعدئذ ؟

وبدأ كيرتز يتحدث فى بطء شديد كأن كل كلمة صارت تشكل خطرا جسيما على خطته المعقدة : وهناك يمكننى القول ـ من خلال التخمين ـ إن الفتاة يتم تعريفها على شخص سرى معين معجب بها ـ شخص ما ربما يتم تدريبه على دورها بعض الشئ فى ذلك اليوم . فمثلا من حيث القيام بتسليح القنبلة . وكيفية تشغيل جهاز التوقيت . وتجهيز قنبلة من طراز «شرك الغفلة» ومن باب التخمين يمكننى القول إن نفس ذلك الشخص المعجب بها استأجر بالفعل غرفة فى فندق فى مكان ما . وإنهما تحت حافز من الإنجاز المشترك الخاص بهما قد انهمكا فى الكثير من ممارسات الحب العاطفية بينهما . وفى صباح اليوم التالى وبينما كانا مستغرقين فى النوم عقب الانغماس فى ملذاتهما انفجرت القنبلة فى موعد متأخر عن الوقت المفترض لها ولكن مَنْ يهتم ؟

فانحنى أليكسيس بسرعة للأمام وقال «والأخ يا مارتى / ذلك المحارب العظيم الذى سبق له أن قتل الكثيرين من الإسرائيليين بالفعل ؟ أين كان هو أثناء كل ذلك ؟ أظن أنه كان فى باد نيوناهز يقضى وقتا ممتعا ومسليا مع الفتاة الصغيرة التى أعدت القنبلة ؟ أليس كذلك ؟

اتخذت ملامح كيرتز طابعا من السلبية الصارمة وقال : بغض النظر عن المكان الذى توجد فيه فإنه أدار عملية فعالة ومقسمة إلى مراحل وفقا لخطة موضوعة مع تفحص كل شئ بدقة فالولد الملتحى لديه أوصاف الفتاة وليس أكثر بل وليس له علم بالهدف على الإطلاق . والفتاة كانت تعرف رقم لوحة دراجته البخارية وسائق السيارة كان يعرف الهدف ولكنه لايعرف الولد الملتحى . والعملية كانت مخططة بأسلوب دقيق .

وبعد ذلك بدا على كيرتز وكأنه أصيب بصمم فى أذنيه وهو يواجه المزيد من الأسئلة العقيمة . وشعر أن الأمر يستلزم المزيد من الويسكى وحقيقة الأمر أن الدكتور الطبيب كان يعانى من نقص فى الأوكسجين . وبدا الأمر وكأن حياته قد أمضاها فى الحضيض وخاصة فى الفترة الأخيرة . ولكن الآن وعلى نحو فجائى كان شولمان يدفعه ويسوقه نحو مرتفعات لم يكن يحلم بها على الاطلاق .

قال أليكسيس فى شئ من الاستفزاز : أنت موجود هنا فى ألمانيا لكى تنقل هذه المعلومات إلى زملائك الألمان الرسميين على ما أظن .

لكن كيرتز لم يردّ . ولاذ بصمت طويل ملئ بالتفكير وبدا وكأنه فى خلال ذلك الصمت يختبر أليكسيس بعينيه وأفكاره وبعدئذ قام بتلك الحركة التى كثيرا ما أثارت إعجاب أليكسيس حيث شمَّر عن كُمه. ورفع معصمه لأعلى لكى يتأمل فى ساعته . وهذه الحركة جعلت أليكسيس يدرك أنه فى حين أن وقته أخذ فى الانحسار بعيداً أمام عينيه الاَّ أنه لايوجد هناك أبدا وقت كاف بالنسبة لكيرتز .

قال ألكسيس «أؤكد لك أن كولونيا ستكون ممتنة وشاكرة لك . وخليفتى فى الوظيفة ممتاز ، هل تتذكره يا مارتى ؟ سوف يحرز نصرا شخصيا هائلا . فهو من خلال مساعدة وسائل الإعلام الكبرى سيصبح أشهر رجل شرطة فى ألمانيا الغربية . أليس كذلك ؟ والفضل كله يرجع اليك .

وابتسم كيرتز ابتسامة عريضة تُسلّم بأن الأمر هكذا . ثم أخذ رشفة صغيرة من كأس الويسكى ومسح شفتيه بمنديله الكاكى الخاص به ثم وضع ذقنه

فى راحة يده . وأطلق تنهيدة تفيد ضمناً أنه لم يكن يقصد أن يقول هذا ولكن طالما أن أليكسيس أثار هذه النقطة فإنه ليس لديه مانع من التحدث بشأنها قال معترفا : قد أعطت إسرائيل قدرا كبيرا من التفكير لهذه المسألة يا بول . ولسنا متأكدين تماما من أن خليفتك من النوع الذى يحظى بحماسنا ورغبتنا فى دفعه نحو التقدم للأمام اذن ما الذى يمكن أن يفعله المرء إزاء ذلك ؟ وبدا تجهمه وكأنه يوجه هذا التساؤل . وعلى كل حال خطر على عقولنا أن هناك بديلا متاحاً أمامنا . ولربما ينبغى علينا أن نبحث هذا معك ونختبر ردود فعلك على ذلك . ولقد قلنا لأنفسنا ربما توجد هناك وسائل يمكن من خلالها للدكتور أليكسيس الطيب أن ينقل معلوماتنا إلى كولونيا نيابة عنا ؟ بطريقة خاصة وسرية . أو بطريقة غير رسمية ولكنها طريقة رسمية إذا كنت تدرك ما أهدف اليه . على أساس من حبه الشخصى للمغامرة واشرافه وادارته الحكيمة العاقلة . وهذا تساؤل ظللنا نوجهه لأنفسنا مرارا وتكراراً. ربما كان بمقدورنا أن نذهب إلى بول وكثيرا ما كنا نسائل أنفسنا لماذا دائما ما نرقى الرجل غير المناسب فى هذه الأمور ؟ ولماذا لا تتم ترقية الرجل المناسب فى هذه المرة فقط . ولماذا لا نتعامل مع الأصدقاء بما يتمشى مع مبادئنا ؟ ولماذا لانرقى أصدقاءنا ؟ ونكافئهم على إخلاصهم لنا .

وتظاهر أليكسيس بأنه لايفهم . وتصاعدت الدماء الحمراء إلى وجهه بعض الشئ . وظهرت إشارة خفيفة هستيرية نحو الرفض . وقال : اسمعنى يا مارتى . إننى ليس لدى مصادر ! أنا رجل بيروقراطى . هل سأقوم برفع سماعة التليفون وأقول : هنا كولونيا . وأنا أليكسيس الذى يتكلم . إننى أصدر أوامرى لكم بالذهاب على الفور إلى مزرعة سومر لكى تلقوا القبض على ابنة أخمان وعلى جميع أصدقائها وصديقاتها من أجل استجوابهم ؟ هل أنا ساحر أو مشعوذ أو مشتغل بالكيمياء القديمة بحيث أستخرج مثل هذه المعلومات العجيبة من الحجارة ؟ وما الذى يفكرون فيه هناك فى إسرائيل - هل يعتقدون أن المنسق العام يمكن أن يتحول فجأة إلى رجل يشتغل بالسحر والشعوذة ؟ وأصبح احتقاره لنفسه متسما بالإزعاج ومتخذا على نحو متزايد طابعا غير حقيقى هل لى أن أطلب إلقاء القبض على كافة

الشبان الملتحين الذين يركبون دراجات بخـــارية والذين من الممكن أن يكونوا إيطاليين ؟ سوف يسخرون منى !!

لا أحد يتطلع إلى إلقاء القبض على الناس يا بول . ليس بعد . ليس الآن . ولا أحد يتطلع إلى أىّ شئ مكشوف وعلنى على الإطلاق .

فقال أليكسيس فى حدة فجائية إذن ما الذى تريدونه ؟

فقال كيرتز فى عطف وحنان : نريد العدالة . الاَّ أن ابتسامته المباشرة غير المتسمة بالإحجام كانت تنقل رسالة من نوع آخر للعدالة . وشئ من الصبر وشئ من الأعصاب . وقدر كبير من الروح الخلاقة وقدر كبير من الابتكارية من أىّ شخص يلعب اللعبة الخاصة بنا نيابة عنا . ودعنى أسألك شيئا ما يا بول ولنفرض أن مخبرا سريا مجهول الاسم - وأنا أشاهد هنا شخصية عربية يا بول . شخصية عربية من الوسط المعتدل وهو رجل يحب ألمانيا ومعجب بألمانيا ويمتلك معلومات تتعلق ببعض العمليات المعينة الإرهابية التى لا يوافق عليها - ولنفرض أن رجلا كهذا شاهد أليكسيس العظيم على شاشات التليفزيون منذ فترات قصيرة . ولنفرض على سبيل المثال أنه كان جالسا فى غرفته بالفندق الذى يقيم فيه ذات ليلة فى بون ،. ولنقل فى دوسلدروف حيث يحب دائما أن يقيم ثم تصادف أن أدار مفتاح التشغيل فى جهاز التليفزيون الخاص به من أجل الاستمتاع بالتسلية وعندئذ شاهد الدكتور أليكسيس الذى هو محامى ورجل شرطة على نحو أكيد ولكنه أيضا رجل يتسم بخفة الظل والمرونة والطابع البراجماتى العملى علاوة على اتسامه بالطابع الإنسانى بكل ما فى كلمة الإنسانية من معنى - قصارى القول أنه رجل بكل المقاييس ، أليس كذلك ؟

فقال أليكسيس وقد تشوش ذهنه «لنفرض ذلك» .

استطرد كيرتز قائلا : وهذا الرجل العربى - يا بول - قد انبهر بك وقرّر أن يجرى اتصالات معك . ولم يكن على استعداد لأن يتكلم مع أىّ شخص سواك . فهو قد وضع ثقته فيك . ورفض عقد لقاءات مع أىّ مندوب ألمانى آخر وقرر أن يتخطى

الوزارات والشرطة وكافة العاملين فى أجهزة الاستخبارات . ثم راح يبحث عن رقم تليفونك فى دليل التليفونات . واتصل بك تليفونيا فى منزلك . أو فى مكتبك . على النحو الذى يروق لك ـ فالقصة قصتك . ثم تقابل معك هنا فى هذا الفندق . فى هذه الليلة . وأثناء تناول الكئوس قدَّم لك معلومات وحقائق معينة . فهل يمكن لأليكسيس العظيم أن يشاهد فى هذا الموقف خطا من المزايا والفوائد التى تعود عليه من حيث هو رجل حُرم من تحقيق الازدهار الصحيح لمستقبله ؟

ومع العيش فى هذا المشهد فيما بعد . وهو أمرٌ كثيرا ما كان يفعله أليكسيس فى ضوء العديد من الحالات النفسية المتصارعة التى تتعلق بالدهشة والفخر والرعب الفوضوى الشامل فإنه بدأ ينظر بعين الاعتبار للخطبة التى أعقبت ذلك على أنها بمثابة التبرير المنحرف الذى ساقه كيرتز مقدما لما كان موجودا فى ذهنه .

قال كيرتز متبرما فى اكتئاب : إن الارهابيين يحرزون المزيد من التقدم فى هذه الأيام . ويصرخ ميشا جافرون فى وجهى من منتصف المسافة فى داخل مكتبه (وازرع عميلا يا شولمان) وأنا أقول له (بكل تأكيد يا جنرال . لسوف أعثر على عميل . ولسوف أدرِّبه وأساعده أن يكون متيقظا وقوى الملاحظة فى الأماكن المهمة . ولسوف أنفذ كل التعليمات التى تصدرها . وأنت تعرف أول شئ سيفعلونه ؟ إنهم سيدعونه لكى يثبت لنفسه أنه أصيل . سيدعونه لكى يطلق الرصاص على حارس أحد البنوك أو على جندى أمريكى. أو إلقاء قنبلة على مطعم أو تسليم حقيبة جميلة إلى شخص ما . هل هذا هو ما تريده ؟ هل هذا هو ما تدعونى لأن أعمله يا جنرال تدعونى لأن أزرع عميلا ثم أجلس وأشاهده وهو يقتل شعبنا لصالح العدوّ ؟ إن المنظمات الإرهابية لاتحمل معها مسافرين يا بول . وهذا هو ما قلته لميشا . فهم ليس لديهم سكرتارية أو كتبة على الآلة الكاتبة أو كتبة يعملون فى مجال حلّ الشفرة أو أىّ أناس لاينخرطون فى خط المواجهة الأمامى . إنهم بحاجة إلى نوع معين من الاختراق والتغلغل ولقد اخبرته أنه إذا كان يريد أن يقتحم هدفا إرهابيا فى هذه

الأيام فسيكون بحاجة من الناحية العملية لأن يُنشئ لنفسه الإرهابي الخاص به فهل هو يصغى لكلامى ؟

ولم يستطع أليكسيس أن يكبح جماح انبهاره وإعجابه ثم قال مستندا للأمام وقد لمعت عيناه مع سحر وبريق سؤاله . وأنت قد فعلت ذلك يا مارتى ؟ هنا فى ألمانيا ؟

وكالعادة لم يقدم كيرتز إجابة مباشرة . وبدا على عينيه أنهما تنظران بالفعل إلى ما وراء أليكسيس نحو الهدف الثانى الذى يقع على طريقه الموحش الملتوى . قال كيرتز على سبيل الافتراض بلهجة شخص ينتقى اختياراً بعيدا من بين العديد من الاختيارات التى تبلورت فى عقله الواسع الحيلة والدهاء . ولنفرض أن الأمر يستلزم أن أقدم تقريرا لك عن حادثة . حادثة على وشك أن تحدث فى خلال حوالى أربعة أيام ـ على سبيل المثال .

وكان العزف المنفرد لموسيقى باخ والذى يستمع اليه الرجل المسئول عن البار قد انتهى . ثم أخذ هذا الرجل يغلق فاترينات البار كدليل على أنه بصدد الانصراف والذهاب للنوم . وبناء على اقتراح من كيرتز ذهبا سويا إلى صالون الفندق وجلسا وقد اقترب رأساهما من بعضهما البعض مثل مسافرين فوق ظهر مركب تجتاحه الرياح الشديدة . وأثناء المناقشات ألقى كيرتز نظرتين خاطفتين على ساعة يده القديمة واستأذن لكى يجرى مكالمة تليفونية . وعندما سأل أليكسيس فيما بعد عن المكالمتين بدافع من مجرد حبّ الاستطلاع أشار كيرتز أنه قد تحدث مع فندق فى دلفى باليونان على مدى اثنتى عشرة دقيقة ودفع الثمن نقدا . ثم تحدث إلى رقم تليفون بالقدس وهو رقم يتعذر معرفته واكتشافه . وفى حوالى الساعة الثالثة أو ما يزيد على ذلك ظهر عمال من النزلاء بالفندق لهم شكل شرقى مرتدين أفرولات بالية قديمة وراحوا يجرون آلة تنظيف ضخمة شبيهة بمدفع تابع لشركة كروب . إلاّ أن كيرتز وأليكسيس ظلا يتكلمان بصوت يعلو على ضجيج الآلة . ولم يتوقف الرجلان عن الكلام الاّ بعد الفجر حيث خرجا وتصافحا بالأيدى فى تهنئة

على الاتفاق الذى توصلا اليه . كان كيرتز حريصا على عدم الإسرف فى توجيه الشكر لأليكسيس الذى يعتبر أحدث شخص تمكن من تجنيده لصالحه . وذلك لأنه يدرك جيدا أن أليكسيس لم يكن من النوع الذى ينفر فى ابتعاد إذا وجه اليه الشكر والامتنان أكثر من اللازم .

.. ..

وسارع أليكسيس الذى ولد من جديد إلى منزله . وقام بحلق ذقنه وتغيير ملابسه وتعمد أن يترك انطباعا فى ذهن زوجته عن مدى سرية وأهمية المهمة التى يقوم بها . ثم وصل إلى مكتبه الزجاجى وعلى وجهه ارتياح غامض . ارتياح لم يظهر منذ فترة طويلة للغاية . لاحظ الموظفون العاملون تحت رئاسته أنه مبتهج ومنخرط فى بعض النكات المرحة بل ويعلق تعليقات غير محتشمة على زملائه . وطلب تزويده بأوراق شاغرة لكى يكتب عليها . ومنع الناس من الدخول إلى مكتبه بما فى ذلك السكرتارية الخاصة به وشرع يكتب تقريرا مطولا مرفوعا إلى رؤسائه عن عرض تلقاه من «مصدر شرقى على مستوى رفيع معروف لى منذ أن كنت أشغل وظيفتى السابقة» وتضمن التقرير كميات هائلة من المعلومات الجديدة تماما والتى تتعلق بمسألة الاعتداء الوحشى الذى تم فى بادنسبرج . وطلب فى التقرير تزويده بسلطات معينة وتسهيلات خاصة وتخصيص ميزانية مفتوحة لا تخضع لديوان المحاسبة أو الرقابة فى سويسرا وبحيث يتم الصرف من هذه الميزانية وفقا لما يراه وبدون قيد أو شرط . وهو لم يكن رجلا متسما بالجشع والطمع رغم أن زواجه الجديد للمرة الثانية كان باهظ التكاليف بالإضافة أن طلاقه من زوجته الأولى كان متسما بالخراب والدمار .

وأخيرا أشار فى تقريره لتنبؤ أملاه كيرتز بالحرف الواحد وجعله يقرأه أمامه لكى يصغى اليه . وكان تنبؤا يتسم بالغموض وعدم الدقة بحيث يبدو عديم الجدوى ، ولكنه فى نفس الوقت يتسم بالدقة التى تكفى لاحداث تأثير كبير فى حالة تحقيقه وحدوثه بالفعل . إذ أشارت تقارير غير مؤكدة أن كميات كبيرة من

المتفجرات قد قُدّمت اخيرا بمعرفة متطرفين من الأتراك الاسلاميين فى استانبول بهدف القيام بأعمال مناهضة للصهيونية فى أوروبا الغربية . وبالتالى ينبغى توقع حدوث موجات من الغضب والحنق الجديد فى خلال الأيام القليلة القادمة . وقد أشارت الشائعات أن التفجير سيتم فى جنوب ألمانيا . ومن تمّ ينبغى تنبيه وتحذير كافة نقاط الحدود وقوات الشرطة المحلية . ولم يتم التمكن من الحصول على المزيد من التفاصيل . وفى فترة مابعد الظهر من ذلك اليوم قام رؤساء أليكسيس باستدعائه . وفى نفس تلك الليلة أجرى ألكسيس اتصالا هاتفيا سريًا مطولا مع صديقه العظيم شـولمان لكى يتلقى تشجيعه علاوة على تلقى المـــزيد من التعليمات منه .

وصاح فى اثارة باللغة الانجليزية : انهم غاضبون وحانقون يا مارتى! انهم واقعون تحت سيطرتنا تماما !

وقال كيرتز لليتفاك الموجود فى ميونيخ إن أليكسيس يعمل بفاعلية إلاّ أنه سوف يكون بحاجة إلى قدْر كبير من الرعاية والتوجيه . وأضاف فى تمتمة : لماذا لايقوم جازى باستعمال تلك الفتاة وحثها على الإسراع ؟ بينما كان يحملق فى ساعته فى شئ من الاضطراب النفسى .

فصاح ليتفاك فى ابتهاج لم يستطع السيطرة عليه . لأنه لم يعد يميل إلى القتْل ! أتظن أننى لا أستطيع أن أشعر بذلك ؟ أتظن أنك لاتستطيع ؟

فقال له كيرتز : التزم بالهدوء .

الفصل الثانى عشر

انبعثت رائحة نبات الزعتر فى قمة التل . وكانت مكانا خاصا ومفضلا لدى يوسف . وكان قد بحث عن ذلك المكان على الخريطة ، وقاد تشارلى إليه فى عزم وتصميم من خلال استخدام السيارة أولا وبعدئذ من خلال السير على الأقدام واللجوء إلى التسلق وتجاوز صفوف من خلايا النحل المتشابكة فى ضفائر والعبور بين أرض فضاء تتخللها أشجار السَّرْو والحقول الحجرية المليئة بالأزهار الصفراء اللون . ولم تكن الشمس قد وصلت إلى أقصى ارتفاعها . وفى الداخل تترامى سلاسل الجبال البنية اللون وإلى جهة الشرق لمحت تشارلى السهول الفضية لبحر ايجه إلى أن حوَّلها السديم والضباب إلى الالتحام بالسماوات . وكان الهواء مليئا برائحة مادة الراتينج وعسل النحل بضجيج أجراس الماعز . وحرقت لفحة من النسيم الجديد جانبا من وجهها وجعلت ثوبها الخفيف يلتصق بجسدها . وأمسكت بذراع يوسف الغارق فى تفكير عميق . خُيل إليها أنها لمحت ديمترى جالسا فوق بوابة ولكنها عندما صاحت حذَّرها يوسف فى حدة وطلب منها عدم إلقاء التحية عليه . ومرة أخرى كان بمقدورها أن تحلف مؤكدة أنها شاهدت الصورة الظِّلية لروز حيث كانت موجودة فوقهما على خط السماء . ولكنها عندما أمعنت النظر مرة أخرى لم تشاهد شيئاً .

وكان يومهما حتى آنئذ له اللحن الخاص به والرقص الخاص به لقد تركته لكى يقودها ويوجهها عبْر ذلك اليوم من خلال قلقه وضجره الاعتيادى استيقظت فى الصباح الباكر لتجد راشيل تراقبها فى انتباه وتقول لها أنه ينبغى عليها أن ترتدى الفستان الأزرق فأخذت حماما سريعاً وسارت بسرعة عائدة إلى غرفة النوم وهى عارية تماما ، ولكن راشيل كانت انصرفت وظهر أمامها يوسف حيث يجلس رابضا

أمام صينية عليها وجبة إفطار لشخصين وكان يستمع إلى نشرة الأخبار اليونانية التى تنبعث من الراديو الصغير الخاص به . فعادت بسرعة إلى الحمام وناولها يوسف فستانها من خلال فتحة صغيرة بالباب . ثم تناولا طعام الإفطار على وجه السرعة فى صمت . وفى البهو سدَّد الثمن نقدا ووضع الإيصال فى جيبه . وعندما نقلا أمتعتهما إلى السيارة المرسيدس رأت الصبى راؤول الهيبىّ مستلقيا على مسافة ستة أقدام من المصدّ الخلفى للسيارة حيث كان يعبث بموتور دراجة بخارية محملة بأمتعة . كما شاهدت روز مضطجعة على العشب وقد رفعت مؤخرتها لأعلى أثناء مضغها رغيف خبز بصوت مرتفع . سألت تشارلى نفسها فى تعجب : تُرى منذ متى ظلا موجودين هنا ؟ ولماذا عليهما أن يحرسا السيارة ؟ وقاد يوسف السيارة لمسافة ميل على الطريق إلى المواقع الأثرية القديمة . ثم أوقفت السيارة مرة أخرى . وقبل أن يبدأ آدميون آخرون فى الوقوف فى طوابير والتصبب عرقا فإنه عبر بها من بوابة جانبية ودعاها إلى رحلة أخرى خاصة نحو وسط الكون . وأراها معبد أبوللو وحائط دوريك المليئة بنقوش التراتيل كما أراها الحجر الذى يعتبر سُرَّة العالم وجعلها تشاهد الكنوز وممرّ الجرى . وانخرط فى شرح وتعليق مستفيض عن الحروب العديدة التى شُنَّت من أجل الحصول على معبد التنبؤات . ولكنه لم يكن متسما بذلك المرح وتلك الرشاقة اللتين ظهرتا عليه عندما كان فى الأكروبوليس . عندما عادا إلى السيارة ناولها المفتاح .

فقالت : لى أنا ؟

– ولم لا ؟ ظننت أن السيارات الجميلة هى نقطة الضعف لديك .

اتجها شمالاً على الطرق الشاغرة الملتوية وهو فى بادئ الأمر لم يفعل شيئا سوى مراقبة وتقييم طريقتها فى قيادة السيارة وكأنه يُجرى لها اختبارا متقدّما على قيادة السيارات مرة أخرى . ولكنه لم يسبب لها الشعور بالتوتر لأنه سرعان ما نشر الخريطة على ركبتيه وتجاهل قيادتها للسيارة انطلقت السيارة كالحلم . وبدأ الطريق يتحول من مساحات مرصوصة إلى مساحات مليئة بالحصى . ومع كل

منعرج تتصاعد سحابة من التراب يتخللها ضوء الشمس الساطع ثم ينجرف التراب نحو المناظر الطبيعية الرائعة المدهشة . وفجأة طوى الخريطة وأعادها إلى الجيب الموجود إلى جواره .

وتساءل كما لو كانت جعلته فى حالة من الانتظار أكثر من اللازم : اذن يا تشارلى ؟ هل أنت جاهزة ؟ ثم استأنف سرْد حكايته .

فقال : فى بادئ الأمر كانا لا يزالان فى نوتنجهام وكان جنونهما المؤقت قد وصل إلى الذروة . لقد أمضيا ليلتين ويوما واحداً فى الفندق . ودفتر السجلات بالفندق يؤيد ذلك . والعاملون بالفندق سوف يتذكرون وجود فتاة وشاب فى حالة حبّ وهيام تنطبق عليهما أوصافنا . وكانت حجرة النوم الخاصة بنا تقع عند الطرف الغربى من المبنى وتطل على الحديقة الخاصة بالمبنى . وبعد برهة قصيرة سيتم اصطحابك إلى هناك لكى تشاهدى بنفسك الشكل الذى كانت تبدو عليه . وقال إنهما أمضيا معظم وقتهما فى السرير يتحدثان فى الشئون السياسية ويحكيان لقطات من حياتهما ويمارسان الحبّ . والشئ الوحيد الذى قطع هذا الروتين هو قيامهما برحلتين قصيرتين إلى الريف فى نوتنجهام . إلاَّ أن رغبة العشق لديهما جعلتهما يسارعان إلى العودة إلى الفندق .

تساء لت وهى تبذل مجهوداً لكى تخرجه من الحالة النفسية القاتمة التى أحدقت به لماذا لم نحسم الأمر ونمارس الحبّ في السيارة ؟ فأنا أحبّ تلك الحالات التى لا يحدّد لها موعد سابق .

– إننى أحترم ذوقك . ولكن من سوء الحظ أن ميشيل إنسان خجول فى مثل هذه الأمور فهو يفضل توفر السرية التامة فى غرفة النوم .

ثم استأنف كلامه : وفى وقت مبكر من صباح يوم الاثنين عاد ميشيل إلى لندن ولكن تشارلى التى لم تقم بأية بروفات حتى فترة مابعد الظهر قد ظلت باقية فى الفندق وقد اجتاحتها نوبة من الاكتئاب الشديد . وراح فى نشاط يصف حزنها واكتئابها ، اليوم قاتم وكئيب مثل الجنازة . والمطر مازال ينهمر . تذكرى الطقس .

فى بادئ الأمر ظللت تبكين باستمرار حتى أنك لم تعودى تطيقين ذلك . ثم تستلقين
ى السرير الذى مازال دافئا بفعل استلقاء جسده عليه لقد أخبرك أنه سيحاول
لمجيئ إلى يورك فى خلال الأسبوع التالى . ولكنك متأكدة من أنك لن تشاهديه مرة
خرى على الإطلاق فى حياتك ، ولذلك فماذا ستفعلين

أعطاها الاختيار لكى تجيب . واستطرد : «أنت تجلسين نفسك إلى المزينة (السَّراحة) الضيقة أمام المرآة وتحملقين فى انطباعات يديه على جسدك وتحملقين فى دموعك لدى استمرارها فى الانسياب ثم تفتحين درجاً . وتستخرجين المطويّة الخاصة بالفندق وتستخرجين منها الأدوات الكتابية والقلم الذى له سنّ على شكل كرة . وتكتبين له خطابا وأنت جالسة هناك . تصفين فيه نفسك وأحوالك وتعبرين فيه عن أفكارك الداخلية . وتكتبين خمس صفحات . وهو أول خطاب من بين العديد من الخطابات التى ترسلينها إليه . أيمكنك أن تفعلى هذا ؟ وأنت فى حالة من اليأس وعلى كل حال فأنت إنسانة مندفعة ومتهورة بالنسبة لتحرير وكتابة الخطابات .

– اننى أكتب الخطابات إذا كان لدىّ عنوانه

– لقد أعطاك عنوانا فى باريس . وهو عنوان تاجر تبغ فى مونبارناس . ومنه يصل ويُسلم إلى ميشيل . ولا يوجد اسم اللقب أو اسم الأسرة بعد كلمة ميشيل فالأمر لايستلزم ذلك . وفى نفس الليلة وبدافع من البؤس المهيمن على استرال كوميرشيال وعلى الفندق ، تكتبين له مرة أخرى . وبمجرد أن تستيقظى فى الصباح تكتبين مرة أخرى . وأثناء فترات الاستراحة التى تتخلل البروفات تكتبين فى عاطفة جياشة وفى غير تدبرّ وفى صراحة تامة ستفعلين ذلك ؟ هل يمكنك أن تكتبى مثل هذه الرسائل ؟

وساءلت نفسها فى تعجب : إلى أى حد يحتاج الرجل إلى التوكيد وإعادة الطمأنينة ؟ وعلى الرغم من تكهناتها المتسمة بالتشاؤم فإن ميشيل لم يجىء فقط إلى يورك وإنما جاء أيضاً إلى برستول ثم إلى لندن حيث أمضى ليلة كـــاملة رائعة

فى شقة تشارلى بكامدين حيث انتابته موجة من البهجة والغبطة . وقال يوسف فى امتنان وكأنه يختتم مقدمة منطقية رياضية معقدة : وهنالك فى السرير الخاص بك وفى شقتك وبين تأكيدات الحب الخالد قمنا بوضع خطة من أجل نفس هذه الأجازة اليونانية التى نستمتع بها هنا الآن .

وسادت فترة طويلة من الصمت انخرطت أثناءها فى قيادة السيارة والتفكير. نحن هنا أخيرا . من نوتنجهام إلى اليونان فى خلال ساعة من الانطلاق بالسيارة.

وقالت فى تردد : للحاق بميشيل عقب ميكونوس .

– ولم لا ؟

– ميكونوس مع آل والعائلة . وأغادر السفينة . وأقابل بميشيل فى مطعم أثينا وننطلق بعيدا ؟

– صحيح . تمام

ثم قالت أخيراً : ولا «آل» ولو كنت قد استحوذت عليك لما أخذت آل إلى ميكونوس . ولكنت قد طردته . ولم يكن قد تلقى دعوة من المتكلفين .

رفض اعتراضها على الفور قائلا : إن ميشيل لا يسعى للحصول على هذا النوع من الإخلاص والولاء إنه جندى مقاتل . وهو عدوّ لمجتمعك الخاص بك . وهو عرضة لأن يلقى القبض عليه فى أى وقت . وربما ينقضى أسبوع أو ستة شهور قبل أن تشاهديه . أتظنين أنه يريد أن تعيشى كراهبة فجأة ؟ بحيث تجلسين فى تحرق وشوق وتتعرضين لنوبات من التوتر والغضب، وتحكين أسرارك لصديقاتك من الفتيات ؟ هذا كلام فارغ . إنك على استعداد لأن تنامى مع جيش كامل إذا طلب أن تفعلى ذلك .

ومرا بجوار كنيسة صغيرة فأصدر أوامره لها قائلا «هدئى من السرعة» . ثم راح يدرس الخريطة مرة أخرى .

هدئى من السرعة . أوقفى السيارة هنا . سيرى على الأقدام .

.. .. -

زاد من سرعة خطواته . كان الممر الذى يسيران فيه يؤدى إلى مجموعة من الحظائر القديمة المهجورة . وتجاوزا تلك الحظائر ووصلا إلى محجر غير مستخدم ومقطع إرباً إرباً مثل فوهة بركان عند قمة التل . وعند سفح الوجه المشقوق توجد علبة زيت قديمة . ودون أن يتكلم راح يوسف يضع فى العلبة كميات من الحصى الصغير بينما راحت تشارلى تنظر فى ارتياب وقد اعترتها الحيرة . ثم خلع يوسف رداءه الأحمر وطواه ، ووضعه فى حرص على الأرض . وكانت البندقية موجودة عند خصره وهابطة فى عروة جلدية مربوطة فى حزامه . ولكن عقب البندقية كان يميل ميلا خفيفاً للأمام على خط أسفل إبطه الأيمن ،كان يرتدى جرابا جلديا آخر فوق كتفه الأيسر . إلا أن ذلك الجراب كان شاغراً وأمسكها من معصمها وجذبها لكى تجلس القرفصاء على الأرض إلى جواره بالأسلوب العربى .

والآن أقول إن نوتنجهام موجودة فى الماضى وكذلك الحال بالنسبة ليورك ولبريستول وللندن اليوم هو اليوم . إنه اليوم الثالث فى شهر العسل اليونانى العظيم الخاص بنا . نحن فى المكان الذى نوجد فيه الآن لقد مارسنا الحب طوال الليل فى الفندق ونهضنا مبكرين . وقام ميشيل بتزويدك بتبصر جديد بأن يذكر يتعلق بمهد الحضارة الخاصة بك . وأنت قمت بقيادة السيارة . قلت لك إنك تحبين القيادة من حيث إنك امرأة لقد أحضرتك إلى هنا ، إلى قمة هذا التل . لكنك لا تعرفين السبب فى ذلك . وربما لاحظت أن حالتى النفسية منسحبة إلى الداخل وأننى غارق فى التفكير العميق ، وربما أتصارع مع قرار كبير . والجهود التى تبذلينها لإخراجى من أفكارى تسبب لى الضيق . وأنت تسألين نفسك فى تعجب : ترى ماذا يحدث ؟ هل حبنا يشق طريقه نحو التقدم والتزايد ؟ أم أنك قد فعلت شيئا ما من شأنه عدم إدخال السرور علىّ ؟ واذا كان الحب يحرز تقدما . فعلى أىّ نحو وبأية كيفية ؟ إننى أجلسك هنا إلى جوارى – على هذا النحو وأسحب البندقية .

راحت ترقبه فى انبهار واعجاب وهو يخرج البندقية فى انزلاق ورشاقة من الكيس الجلدى وجعلها فى وضع امتداد طبيعى ليده:

– كامتياز عظيم وفريد من نوعه سأدخلك فى تاريخ هذه البندقية . ولأول مرة سأحدثك عن أخى العظيم الذى يعتبر وجوده فى حد ذاته بمثابة سرّ عسكرى لا يعرفه إلاّ عدد قليل للغاية من المخلصين تماماً . أفعل هذا لأننى أحبك . ولأننى ...

أصابه شئ من التردد فقالت لنفسها فى السرّ : ولأن ميشيل يحب أن يحكى عن الأسرار.

أضاف : ولأننى اليوم أنوى أن اتخذ الخطوة الأولى نحو اعطائك العهد وادخالك معنا كرفيقة مقاتلة فى جيشنا السرى . كم عدد المرات التى توسلت فيها لكى أمنحك الفرصة من أجل أن تبرهنى على ولائك وإخلاصك برهنة عملية ؟ واليوم نحن نتخذ الخطوة الأولى على هذا الطريق .

ومرة أخرى أدركت أن لديه مقدرة فائقة على ارتداء الملابس العربية والظهور بالطابع العربى . وراحت تصغى إليه فى انبهار وبهجة وهو يتخذ الأسلوب العربى المزخرف الذى يتسم به سرد القصص والحكايات .

– طوال حياتى البدوية من حيث إننى ضحية للمغتصبين الصهاينة ، كان أخى الأكبر يشرق ويسطع أمامى مثل نجم . فى الأردن وفى أول معسكر لنا عندما كانت المدرسة بمثابة كوخ من الصفيح ملىء بالبراغيث . وفى سوريا حيث هربنا إليها عقب اقتحام القوات الأردنية لمعسكرنا بالدبابات وإرغامنا على الفرار . وفى لبنان حيث راح الصهاينة يمطروننا بالقذائف من جهة البحر ويلقون القنابل علينا من الجو ووسط هذا الخضم من حالات الحرمان والاضطهاد مازلت أذكر نفسى بالبطل الغائب العظيم : ألا وهو أخى. حيث كانت أختى العظيمة فاطمة تهمس لى بالتقارير عن الأعمال البطولية الفذة التى يقوم أخى مما يجعلنى أشتاق دائما أن أحذو حذوه وأقلده وأنافسه .

ولم يعد يسألها عمّا إذا كانت هى مصغية إليه فى انتباه .

إننى نادراً ما أشاهده . وإذا شاهدته فإن ذلك يتم فى سرية تامة . أحيانا أشاهده فى دمشق . وأحيانا أخرى فى عمان . ثم صدر استدعاء لى.. إحضر فوراً . وبعدئذ وعلى مدى ليلة كاملة جلست إلى جواره . ورحت أتشرب كلماته ونبل قلبه وذهنه القيادى الصافى وشجاعته . وفى إحدى الليالى أصدر لى الأوامر بالذهاب إلى بيروت . كان قد عاد لتوه من مهمة بالغة الأهمية والجرأة . مهمة لا أعرف عنها شيئا سوى أنها كانت بمثابة نصر كامل وعظيم ضد الفاشيست . وتقرر أن أذهب معه لكى نستمع إلى خطيب سياسى عظيم ليبى له قدرات عظيمة من حيث الإقناع . وكانت أعظم خطبة سمعتها فى حياتى . وحتى يومنا هذا باستطاعتى أن أقتبس عبارات من تلك الخطبة . وفى رأيى أن جميع الشعوب المطحونة المظلومة فى العالم كله كان ينبغى عليها سماع تلك الخطبة التى ألقاها هذا الليبى العظيم . وكانت البندقية مستلقية فى مستوى فى راحة يده . وكان يرغب لها فى أن تحب البندقية وتتطلع إلى امتلاكها . واستطرد (ومع قلوبنا التى تدق فى عنف بسبب الإثارة نخرج من مكان المحاضرة السرية ونسير عائدين خلال فجر بيروت . ذراعا فى ذراع . على الطريقة العربية ، الدموع تملأ عينى ، ثم يتوقف أخى عن السير ويعانقنى . ونقف هنالك على الرصيف بالشارع . باستطاعى الآن أن أشعر بوجهه الحكيم وهو ينضغط على وجهى . ويستخرج مسدسه من جيبه ويضعه فى يدى . هكذا) ، ثم أمسك بيد تشارلى ووضع البندقية فى يدها . ولكنه ظل واضعا يده على يدها بينما كان يوجه الماسورة نحو حائط المحجر . ويقول لى «هذه هدية . لكى تنتقم . لكى تحررّ شعبنا وأهالينا .هدية من محارب إلى محارب ، ومع هذه البندقية ألقيت القسم فوق قبر والدى .

وأشعر أننى صامت ومعقود اللسان .

كانت يده الباردة مازالت مستقرة على يدها وممسكة بالبندقية نيابة عنها . وكان باستطاعتها أن تحس بيدها وهى ترتعش فى داخل يده وكأنها مخلوق منفصل عنها .

– يا تشارلى هذه البندقية شئ مقدس بالنسبة لى . أقول لك هذا لأننى أحب أخى ولأننى أحببت أبى ولأننى أحبك ، وفى خلال دقائق سوف أعلمك كيف تستخدمين هذه البندقية وتطلقين منها النيران . ولكننى أطلب منك أولاً وقبل كل شيء أن تقبلى هذه البندقية .

فحملقت فى وجهه ، ثم فى البندقية . إلا أن تعبيرات الإثارة على وجهه كانت تدل أنه لا يرغب فى التأجيل . ثم وضع يده الأخرى حول ذراعها وجذبها لكى تقف على قدميها .

– نحن عشيقان . ألا تتذكرين ذلك ؟ نحن رفيقان فى السلاح . نحن خادمان للثورة . أنا شخص عربى عاطفى ولذلك فأنا أحب الكلمات والحركات. وأطلب منك الآن أن تقبلى البندقية .

– يا يوسف لا أستطيع أن أفعل ذلك . خاطبته باسم يوسف وبهذا الاسم رد عليها .

– أتظنين أن هذا حفل شاى يا تشارلى ؟ وتعتقدين ذلك لأن ميشيل ولد جميل وبالتالى ينبغى أن يلعب الألعاب ؟ أين كان ينبغى عليه أن يتعلم الألعاب بينما البندقية هى الشئ الوحيد الذى يعطى قيمة له كرجل ؟ .

هزت رأسها وهى مازالت تحملق فى البندقية . إلا أن المقاومة التى أبدتها لم تسبب له الشعور بالغضب : قال استمعى إلىّ يا تشارلى . فى الليلة الماضية وأثناء ممارستنا للحب سألتنى يا ميشيل . أين ميدان المعركة ؟ أتعرفين ما الذى فعلته ؟ لقد وضعت يدى على قلبك وقلت لك : نحن نقاتل فى حرب تسمى الجهاد ، وميدان المعركة موجود هنا وأنت تلميذتى . وإحساسك بالرسالة المقدسة لم يسبق له أن كان قويا على النحو الذى هو عليه الآن . هل تعرفين معنى كلمة «الجهاد» ؟

فهزت رأسها :

– الجهاد هو ما كنت تبحثين عنه إلى أن تقابلت معى .

الجهاد هو حرب مقدسة . وأنت على وشك أن تطلقى أول رصاصة لك فى الجهاد الخاص بنا . قبلى البندقية .

فأصابها التردد بعض الشئ . وبعدئذ ضغطت بشفتيها على المعدن الأزرق اللون الخاص بالماسورة وقال وهو يبتعد فى رشاقة عنها : إذن ، من الآن فصاعداً فهذه البندقية هى جزء من الكيان الذى يجمعنا سويّا . وهذه البندقية هى الشرف الخاص بنا وهى العلم الخاص بنا . هل تؤمنين بهذا ؟

نعم يا يوسف أنا أؤمن بهذا . نعم يا ميشيل أؤمن بهذا . ولا تجعلنى بعد ذلك أفعل هذا مرة أخرى ، ثم مسحت شفتيها بمعصمها كما لو كانت هناك دماء موجودة فى شفتيها . وشعرت أنها تكره نفسها وتكرهه فى آن واحد . بل وشعرت أنها مصابة بمس من الجنون .

وقال يوسف موضحا : هذه البندقية ماركة وولتر . وهى ليست ثقيلة ولكن تذكرى أن كل بندقية صغيرة تجمع بين خصائص الإخفاء وسهولة الحمل والكفاءة وهذه هى الطريقة التى يتحدث بها ميشيل معك عن البنادق . هذه هى الطريقة التى تحدث بها أخوه معه عن البنادق .

وقف خلفها ، ثم أدار ردفيها إلى أن أصبحت على زواية قائمة مع الهدف مع انفراج قدميها . ثم وضع جماع يده على يدها مع خلط أصابعه مع أصابعها ومع الإبقاء على ذراعها ممتدا امتداداً كاملاً ومع جعل ماسورة البندقية متجهة نحو الأرض فى منتصف المسافة بين قدميها .

الذراع اليسرى تكون متحررة ومستريحة . وهكذا ، وحرر لها ذراعها الأيسر بحيث يكون مسترخيا . واستطرد وتكون العينان مفتوحتين . ثم ترفعين البندقية فى بطء إلى أن تصبح فى خط طبيعى مع الهدف . مع جعل ذراع البندقية فى خط مستقيم . على هذا النحو . وعندما أقول لك : أطلقى النيران . ينبغى عليك أن تطلقى مرتين . انزلى ماسورة البندقية لأسفل مرة أخرى . انتظرى .

وفى طاعة أنزلت ماسورة البندقية إلى أن أصبحت مصوبة نحو الأرض مرة

أخرى . ثم أصدر لها الأمر . فرفعت ذراعها بسرعة على النحو الذى بينه لها ، ثم جذبت الزناد . إلا أنه لم يحدث أى شيء .

فتح صمام الأمان . وكررت نفس الحركة ، وجذبت الزناد مرة أخرى . فوثبت البندقية فى يدها فى عنف كأن يدها ذاتها أصيبت برصاصة ، ثم أطلقت رصاصة ثانية ، فامتلأ قلبها بنفس الإثارة المحفوفة بالمخاطر والتى أحست بها عندما قفزت لأول مرة على حصان أو سبحت عارية تماما فى مياه البحر وأنزلت ماسورة البندقية فى اتجاه الأرض مرة أخرى ثم أصدر لها يوسف أمرا جديداً . فطوحت البندقية لأعلى فى سرعة أكبر وأطلقت النيران مرتين فى تتابع سريع . وبعدئذ ثلاث مرات من أجل جلب الحظ ، ثم راحت تكرر نفس الحركة دون أن تصدر الأوامر لها حيث راحت تطلق النيران كما يحلو لها بينما قعقعة الطلقات تملأ الجو فى جميع الأركان المحيطة بها مما جعل ارتداد صوت الطلقات عقب اصابتها سطحا مستويا يحدث صوتا كالعواء أو الأنين ، وراحت تطلق النيران فى تتابع مستمر إلى أن أصبح مخزن الطلقات بالبندقية شاغراً ثم وقفت منتصبة بينما البندقية واقفة إلى جوارها . وكان قلبها آنئذ يدق فى عنف بينما تتنفس روائح نبات الزعتر .

تساءلت وهى تستدير نحوه : كيف كان أدائى ؟

– ابحثى بنفسك .

فتركته وجرت إلى الأمام نحو علبة الزيت ، ثم حملقت فى تلك العلبة وهى لا تصدق عينيها . حيث لم يكن بها أية آثار تدل على إصابتها بطلقات الرصاص صاحت فى استياء : ولكن ما الأخطاء التى حدثت ؟ فقال يوسف وهو يأخذ البندقية منها : «لقد أخطأت فى إصابة الهدف » .

– لقد كانت خرطوشات تحتوى على بارود فقط بدون رصاصة .

– لا . لم تكن خرطوشات من هذا القبيل .

– لقد نفذت كل التوجيهات التى أصدرتها لى !

– أنت كإنسانة مبتدئة . ما كان ينبغى عليك أن تطلقى الرصاص وأنت ممسكة بالبندقية بيد واحدة . وبالنسبة لفتاة يبلغ وزنها ١١٠ أرطال ولها معصما يدين مثل نبات الزنبقية فإن الأمر يدعو للسخرية .

– إذن لماذا بحق الجحيم قلت إن هذه هى الطريقة التى ينبغى إطلاق الرصاص بها ؟

وبدأ يسير متجها نحو السيارة وهو يوجهها من خلال الإمساك بذراعها . إذا كنت تتلقين التدريب والتعليم على أيدى ميشيل عندئذ ينبغى أن تطلقى الرصاص وفقا لأسلوبه ، فهو لا يعرف شيئا عن الإمساك بالبندقية بكلتا يديه . وميشيل نفسه قد اقتدى بأسلوب أخيه فى إطلاق الرصاص أتريدين منى أن أطبع على كل أنحاء جسدك عبارة «صنعت فى اسرائيل » ؟

فقالت فى غضب وهى تمسك بذراعه : ولماذا لا يستخدم هو كلتا يديه؟ ولماذا لا يعرف هو كيف يطلق الرصاص بالأسلوب السليم ؟ ولماذا لم يتم تعليمه ؟

أخبرتك أنه تعلم على يدى أخيه .

إذن لماذا لم يقم أخوه بتعليمه على النحو الصحيح ؟

وكانت متلهفة بالفعل للحصول على إجابة شافية على تساؤلها ، إذ كانت تشعر بشئ من الخزى . وأصبحت على استعداد للانفجار فى ثورة من الغضب ، ويبدو أنه أدرك ذلك لأنه ابتسم وأذعن بالطريقة الخاصة به .

وقال : «إنها إرادة الله التى تجعل خليل يطلق الرصاص وهو ممسك بالبندقية بيد واحدة» .

– لماذا ؟

فهزّ رأسه وطرد سؤالها من ذهنه ، وعادا إلى السيارة .

– هل أخوه الأكبر يسمى خليل ؟

– نعم .

– لقد سبق لك أن قلت لى إن هذا هو الاسم العربى لكلمة هيبرون .

فشعر بالسرور ، وإن كان ذهنه مشتتا على نحو عجيب . وقال «الكلمتان» : كلمة خليل هى اسم مدينتنا ، وكلمة خليل هى اسم أخى ، وكلمة خليل بمعنى صديق الله وكلمة خليل هى اسم النبى ابراهيم الذى ينال كل تبجيل واحترام من الدين الاسلامى والذى يوجد جسده فى الجامع القديم الخاص بنا .

فقالت فى ترنّم : خليل

رد : «خليل تذكرى هذا الاسم تماماً ، وتذكرى الظروف التى قال لك فيها هذا الاسم . لأنه يحبك ، ولأنه يحب أخاه . ولأنك قد قمت بتقبيل بندقية أخيه وأصبحت منتمية لدمائه » وانطلقا هابطين بالسيارة على سطح التل . وكان يوسف هو الذى يقود السيارة . ولم تعد تعرف ذاتها إذا كانت قد عرفت ذاتها فى أى وقت من الأوقات ، وكان صوت النيران التى أطلقتها مازال يدوى فى أذنيها . وكان مذاق ماسورة البندقية مازال ملتصقا على شفتيها . وعندما أشار لها بيده نحو أوليمبوس فان كل ما شاهدته بمثابة ركام من البياض والسواد الشبيه بسحابة ذرية . وكان ذهن يوسف مشغولا تماماً مثل ذهنها . إلا أن هدفه كان يكمن على مسافة أبعد أمامهما ، وأثناء قيادته للسيارة استأنف روايته داخلاً فى تفاصيل وراء تفاصيل خليل مرة أخرى الأوقات التى أمضياها سويا قبل أن يرحل من أجل الانخراط فى القتال . ونوتنجهام التى هى بمثابة اللقاء العظيم لروحيهما ، وأخته فاطمة وحبه العميق لها . وتحدث عن إخوته الآخرين الذين لاقوا حتفهم جميعا واستشهدوا . ووصلا إلى الطريق الساحلى ، وأصبحت حركة المرور مدوية مثل الرعد وسريعة للغاية ، وكانت البلاجات الملطخة بالبقع مليئة بالأكواخ المتداعية المتهدمة . وكانت أبراج المصنع مثــل السجون التى تطل عليها من أماكن علوية .

وحاولت الإبقاء على نفسها فى حالة من الاستيقاظ من أجله . إلا أن المجهود فى نهاية الأمر كان أكثر مما تحتمل . فوضعت رأسها على كتفه . وهربت لبعض الوقت .

.. ..

كان الفندق الموجود فى سالونيكا مبنى كبيرا قديما من الطراز الادواردى . كانت له قباب مضاءة بنور باهر هناك ما يدل على وجود مناسبة معينة بالفندق . أما الجناح الخاص بهما بالفندق فيوجد فى الطابق العلوى الأخير علاوة على وجود فجوة فى جدار الغرفة خاصة بالأطفال . وكان يوجد بالجناح حمام تبلغ مساحته عشرين قدما علاوة على وجود أثاث يرجع إلى طراز العشرينات . وقامت تشارلى بإضاءة اللمبات ، ولكنه أمرها بإطفائها . وكانت توجد مشربية أو نافذة ناتئة .

فوقف فيها وقد أعطى ظهره إليها . وراح يحملق فى الميدان الملىء بالخضرة وفى الواجهة المائية التى تقع إلى ما وراء الميدان .

جلست تشارلى على السرير . وكانت الحجرة مليئة بموسيقى يونانية شاردة مترامية من الشارع .

– اذن . يا تشارلى .

فرددت نفس كلامه فى هدوء : إذن . يا تشارلى .

– اذن فأنت قد أخذت على نفسك عهدا بالالتزام بمعركتى . ولكن ما هى طبيعة المعركة ؟ وكيف تخاض ؟ وأين ؟ لقد تحدثت عن السبب تكلمت عن العمل : نحن نؤمن ومن ثم فنحن نعمل قلت لك إن الرعب هو مسرح الأحداث. وأن العالم فى بعض الأحيان ينبغى أن يرتج لكى نرغمه على الإصغاء للعدالة.

فتحركت فى جلستها فى شىء من القلق .

– أخبرتك مرارا وتكرارا فى خطاباتى وخلال مناقشاتنا المطولة أننى أعدك بأن أوصلك إلى نقطة الانطلاق والعمل . ولكننى راوغت وأبطأت وأجلت . حتى حلول هذه الليلة . ربما أننى لا أثق فيك ، أو أننى تعلمت كيف أحبك حبا جماً وبالتالى أصبحت لا أرغب فى أن أضعك فى الخطوط الأمامية . أنت لا تعرفين أى الاحتمالين هو الصحيح ولكنك فى بعض الأحيان شعرت بأن مشاعرك قد أوذيت بسبب التزامى بالسرية . وذلك وفقا لما يتضح من خطاباتك .

وراحت تفكر مرة أخرى : الخطابات ، والخطابات دائما .

إذن كيف يمكن من خلال الأسلوب العملى أن تصبحى مقاتلتى أو جنديتى الصغيرة ؟ وذلك هو ما سنقوم بمناقشته فى هذه الليلة . هنا . فى ذلك السرير الذى تجلسين عليه ، وفى الليلة الأخيرة من شهر العسل اليونانى الخاص بنا . وربما تكون هذه هى آخر ليلة لنا وإلى الأبد . لأنه لن يكون بمقدورك أبداً التأكد من أنك سوف تشاهديننى مرة أخرى .

استدار لكى يواجهها . وقال معلقا : أنت من النوع الذى يبكى كثيراً . وأظن أنك تبكين فى هذه الليلة . بينما تمسكين بى ، وتقسمين بأنك ستحبيننى للأبد . نعم ؟ أنت تبكين وأثناء انخراطك فى البكاء أقول لك لقد حان الوقت غداً سوف تحصلين على فرصتك . غداً سوف ترددين القسم الذى حلفتِه أمامى على بندقية خليل العظيم . إننى آمرك بل أطلب منك أن تقودى السيارة المرسيدس عبر الحدود اليوغوسلافية والاتجاه شمالاً والدخول إلى النمسا . وهناك فى النمسا سيتم أخذ السيارة منك . ولسوف تكونين بمفردك . هل يمكن لك أن تفعلى ذلك ؟ ما رأيك ؟

فراحت تحملق فيه فى تمعُّن وهى معقودة اللسان وبنفس الطريقة التى تحملق بها فى الناس عندما تريد أن تكذب عليهم .

ثم سألها فى ملاطفة ومزاح بعض الشئ : حسنا ما هى ردود فعلك وما هو ردك عليه ؟ ولسوف تكونين بمفردك . وأنت تعرفين أن المسافة طويلة . وتبلغ حوالى ٨٠٠ ميل عبر أراضى يوغوسلافيا – وهذا مشوار طويل بالنسبة للمهمة الأولى التى تقومين بها . فما قولك ؟

فتساءلت : وما هى الأشياء التى ستكون موجودة بالسيارة ؟

واختار أن يسيىء فهمها . ولم تعرف ما إذا كان قد تعمد ذلك أم لا . حيث قال : نقود . الظهور الأولى لك على المسرح الواقعى الحقيقى . وكل شىء وعدك به مارتى وبدا عقله مغلقا بالنسبة لها مثلما هو ربما مغلق بالنسبة لنفسه . وكانت نغمة صوته مطوقة ومثيرة للاستنكار .

فقالت : إننى أعنى : ما هى الأشياء الموجودة بالسيارة ؟

ومرت ثلاث دقـــائق . وبعدها أصـــبح صـــوته مليئا بالغطرسة والوعيد والضغوط . «وما هى الأهمية بالنسبة للأشياء الموجودة بالسيارة ؟ ربما تكون رسالة عسكرية . ربما تكون أوراقاً مهمة ، هل تعتقدين أن باستطاعتك أن تــعرفى كل سر من أسرار الحركة العظيمة الخاصة بنا فى اليوم الأول لك معنا ؟

– هل ستقودين السيارة أم لا ؟ وذلك هو الشىء المهم فى هذا الموضوع .

لم تكن تريد الرد من جانب ميشيل وانما تريد رده هو .

وقالت :لماذا لا يقوم هو بقيادة السيارة بنفسه ؟

– يا تشارلى . أن هذه هى المهمة التى ألقيت على عاتقك . ومن حيث إنك مجندة جديدة فلا ينبغى عليك أن تشكى وترتابى فى الأوامر التى تصدر إليك . وبالطبع اذا صدمت ، اذا ساورتك الشكوك فجأة – فى داخل نطاق الرواية – أنك قد تعرضت للتلاعب والمناورات على أيدى هذا الرجل وأن كل عبادته لك وكل سحره وفتنته وجماله وكل تأكيداته عن الحب الخالد .

ومرة أخرى بدا عليه كأنه يفقد الأرض الصلبة الراسخة التى يقف عليها وكان ذلك بمثابة التفكير الخاص بها القائم على الرغبة وليس على الحقائق أم أنها تفترض أن قدرا من العاطفة زحفت عليه تحت جنح الظلام غير المكتمل فى تسلل غير ملحوظ وهو أمر كان يفضل أن يمنعه ويوقفه ؟

واستعاد صوته قوته : أننى أعنى فقط أنه فى هذه المرحلة إذا زالت الغشاوة عن عينيك وأصبحت تشاهدين الأمور على حقيقتها أو إذا خانتك شجاعتك فمن الطبيعى أن تقولى : لا بكل تأكيد .

– كنت أوجه لك سؤالاً ، لماذا لا تقوم بنفسك – أنت يا ميشيل – بقيادة السيارة؟

فتحرك بسرعة عائدا إلى النافذة ، وبدا لتشارلى أن لديه الكثير من الأمور التى يريد أن يخمدها قبل أن يجيب على سؤالها . وقال فى تجلد وصبر «إن ميشيل

يقول لك هذا . ولا شيء أكثر من ذلك ، ومهما كانت نوعية الأشياء الموجودة بالسيارة فأنها أشياء حيوية ومهمة للغاية بالنسبة لكفاحنا ونضالنا ولكنها أيضاً أشياء خطيرة للغاية . فأى شخص يقبض عليه متلبسا بقيادة تلك السيارة فى أى نقطة تفتيش على مدى الـ ٨٠٠ ميل – وسواء أكانت السيارة تحتوى على منشورات هدامة أو أى مواد من نوع آخر ربما مثل الرسائل – فانه سيقع فى ورطة كبيرة . وليس بمقدور الضغوط الدبلوماسية أو المحامين الممتازين أن ينقذوا ذلك الشخص من التعرض للأوقات العصيبة للغاية . فإذا كنت تنظرين بعين الاعتبار إلى تجنب الأذى وذلك هو ما ينبغى عليك أن تفكرى فيه فأنت على كل حال لك الحياة الخاصة بك . فأنت لست واحدة واحدة .

إلا أن تلعثمه – مهما كان خفيفا – أعطى لها ثقة بالنفس لم يسبق أن شعرت بها أثناء مرافقتها له من قبل . وقالت : سألت عن السبب فى عدم قيادته للسيارة بنفسه . وأنا مازلت فى انتظار سماع إجابته .

ومرة أخرى استجمع قواه ، وقال يا تشارلى ! إننى رجل فلسطينى نشيط مشهور بأننى مقاتل من أجل القضية . أنا أسافر بجواز سفر زائف مما قد يثير الشكوك فى أى وقت . أما أنت .. فإنك فتاة انجليزية جميلة وجذابة ذات مظهر حسن ومتسمة بالذكاء والسحر والجاذبية ولذلك فمن الطبيعى ألا يكون هناك خطر بالنسبة لك .

– لقد سبق لك أن قلت توا إنه توجد أخطار .

– هذا كلام فارغ . فميشيل يؤكد لك أنه لا توجد أخطار . توجد أخطار عليه أما بالنسبة لك أنت فلا توجد . وأنا أقول لك أفعلى ذلك من أجلى. أفعلى ذلك وكونى فخورة . من أجل حبنا من أجل الثورة . من أجل الأمور التى أقسمنا عليها لبعضنا البعض . إفعلى ذلك من أجل أخى العظيم. أكان كل القسم الذى نطقت به خاويا من المعنى ؟ أكنت تتشدقين بحالات من النفاق الغربى عندما تظاهرت بأنك إنسانة ثورية ؟ وتوقف عن الكلام مرة أخرى ، ثم أضاف قائلا «افعلى ذلك لأنك إذا

لم تفعلى ذلك ستكون حياتك أكثر خواء وتفاهة عمّاً كانت عليه عندما قمت بالتقاطك عند الشاطىء» .

فصححت له عبارته قائلة : تقصد فى المسرح ولم يهتم بالتصحيح الذى أبدته . وظل واقفا معطيا ظهره لها بينما نظراته مازالت متركزة على السيارة المرسيدس . لقد اتخذ طابع يوسف مرة أخرى ، يوسف الذى يضغط على الحروف اللينة أثناء النطق بالكلام والذى يختار عباراته فى حرص وحذر والذى يتحدث عن المهمة التى ستنقذ أرواح الناس الأبرياء .

اذن ها أنت . وهذه هى الروبيكون (★) الخاصة بك . هل تعرفين معنى الروبيكون ؟ يمكن لك أن تنفضى يديك من هذا الموضوع الآن وتعودى إلى وطنك - ويمكن أن تأخذى بعض النقود وتنسى الثورة وتنسى فلسطين وتنسى ميشيل وتنسى كل شىء .

- أو ؟

- أو تقودى السيارة . وتشنى أول هجوم تقومين به من أجل القضية . وبمفردك ، وتقطعين مسافة ٨٠٠ ميل ما هو رأيك ؟

- وأين ستكون أنت ؟

وأصبح هدوؤه أكثر رسوخاً مرة أخرى ثم اتخذ من ميشيل ملاذا وملجأ: من الناحية الروحية سأكون قريبا منك . لكننى لا أستطيع تقديم يد العون لك . فلسوف تكونين بمفردك وتؤدين عملا إجراميا يوحى للعالم بأن الذين قاموا به هم عصابة كاملة من الإرهابيين ، ثم استطرد مرة أخرى ولكنه يوسف فى هذه المرة ولسوف يقوم بعض الأولاد بتتبعك كمرافقين ، ولكنهم لا يستطيعون عمل أى شىء إذا سارت

(★) الروبيكون : نهر فى شمال إيطاليا كان يشكل جزءاً من الحدود بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لها . وقد اجتازه يوليوس قيصر فى عام ٤٩ ق . م مشعلا بذلك نار الحرب الأهلية التى جعلته سيد روما .

الأمور على غير ما يرام - باستثناء أنهم سيقدمون تقريرا عما حدث لمارتى ولى شخصيا . فيوجوسلافيا ليست صديقة حميمة لإسرائيل .

ورفضت تشارلى التخلى عن موقفها . فكل الغرائز المتعلقة بالبقاء على قيد الحياة والموجودة لديها أشارت عليها بأن ترفض ، وأدركت أنه استدار لكى ينظر إليها مرة أخرى . والتقت عيناها مع حملقته السوداء وهى تدرك أن وجهها كان مرئيا بينما وجهه غير ذلك . وراحت تفكر : من الذى تحاربه ؟ هل تحارب نفسك أم تحاربنى ؟ ولماذا أنت بمثابة العدو فى كلا المعسكرين ؟

قالت مذكرة إياه : لم نستكمل المشهد .

أسألك - أسأل كلتا الشخصيتين الموجودتين فى كيانك - ما الذى يوجد فى داخل السيارة ؟ تريد منى أن أقود السيارة . وأنا أريد أن أعرف الأشياء الموجودة بالسيارة على وجه الدقة . الآن .

قال فى صوت متحرر : متفجرات مائتى رطل من المتفجرات البلاستيكية الروسية مقسمة إلى مجموعات من الأصابع يبلغ وزن كل منها نصف رطل . متفجرات من نوع جديد قادر على تحمل أقسى درجات الحرارة والبرودة . إنها لدائنية تحت كافة درجات الحرارة .

فقالت تشارلى : وما هى الأماكن التى خبئت فيها فى داخل السيارة ؟

- فى الستار الموجود أعلى النافذة ، وفى القضبان المتقاطعة . وفى بطانة السقف . وفى المقاعد .

- وفى أى شئ سيتم استخدام هذه المتفجرات ؟

- سوف تستخدم من أجل الكفاح الخاص بنا .

- ولكن لماذا يتم نقل هذه المتفجرات على طول هذه المسافة الرهيبة ؟ ولماذا لا يتم الحصول على المتفجرات فى أوروبا ؟

- إن لأخى مبادئه الخاصة به والتى تتعلق بالالتزام بالسرية التامة .

ويرغمنى على الالتزام بتلك المبادئ بكل دقة . والدائرة التى يثق فيها ضئيلة ومحدودة للغاية . وهو لن يتوسع فى هذه الدائرة ، حقيقة الأمر إنه لا يثق فى العرب أو الأوروبيين .

تساءلت تشارلى فى هدوء . وفى هذه الحالة ما هو الشكل الذى يمكن أن يتخذه كفاحنا على وجه الدقة ؟

فقال على الفور : قتل يهود الشتات . نظرا لأنهم قد شتتوا الشعب الفلسطينى فإننا نقوم بمعاقبتهم فى شتاتهم . ونعلن عن كفاحنا لكى يصل إلى أسماع العالم كله . وبهذه الطريقة أيضاً يمكن لنا إيقاظ الضمير النائم للطبقات العاملة .

– حسنا ، هذا الكلام يبدو معقولا بما فيه الكفاية .

– شكرا جزيلاً .

– وأنت ومارتى – اعتقدتما أنه من الملائم أن أقوم بقيادة السيارة إلى أن أصل إلى النمسا ، وذلك نيابة عنهم . ولكى أسدى لهم معروفا .

– لو سمحت يا يوسف أرجو أن تلف ذراعيك حولى ممكن ؟ إننى لست منغمسة فى الملذات . كل ما هناك أننى أحسست بمشاعر الوحدة والاكتئاب بعض الشئ .

فمد ذراعا واحدة حول كتفها . وعندئذ ارتعدت تشارلى فى عنف ، ثم أمالت جسدها ولفت ذراعيها حوله واحتضنته وعانقته . وابتهجت عندما أدركت أنه تجاوب بشدة معها ، وراح ذهنها يعمل فى كل مكان فى وقت واحد على الفور مثل عين تشاهد بانوراما شاسعة وغير متوقعة . لكنها بدأت تشاهد فى وضوح شديد فى نهاية الأمر تلك الرحلة الطويلة التى تمتد أمامها على طول الطريق وتشاهد الرفقاء عديمى الوجوه للجيش الآخر الذى هى بصدد الانضمام إليه . سألت نفسها فى تعجب : ترى هل يرسلنى أم يكبح جماحى ؟ انه يستيقظ ويخلد إلى النوم فى نفس الوقت . وكانت ذراعاه مازالت تطوقها . فأعطاها ذلك شجاعة

جديدة . وحتى الآن وتحت الطهارة والعفة التى يصر على الالتزام بها فإنها اعتقدت أن جسدها الذى لم تخصصه لرجل واحد أصبح غير ملائم بالنسبة له . والآن ولأسباب لم تعرفها بعد فإن ذلك كراهية النفس قد تلاشت عنها قالت وهى مازالت ممسكة به : استمر فى اقناعى والتزم بتأدية المهمة الخاصة بك .

– ألا يكفى أن ميشيل يرسلك رغم أنه لا يريد لك أن تذهبى ؟

لم ترد .

– أينبغى على أن أورد اقتباسا من شيلى الجمال العاصف للرعب ؟ أينبغى على أن أذكرك بوعودنا العديدة بأننا على استعداد أن نقتل لأننا مستعدون لأن نموت؟

دفنت وجهها فى صدره ، وقالت مذكرة إياه :

– وعدتنى بأن تبق قريبا منى ، ثم شعرت بقبضته تتراخى مع تزايد الحدة فى صوته .

وقال فى لهجة محسوبة بحيث تصدها أكثر مما تقنعها :

– لسوف أكون فى انتظارك فى النمسا ، وذلك هو وعد ميشيل لك ، وهو أيضاً الوعد الخاص بى .

فتراجعت عنه بعض الشئ وأمسكت بيده بين يديها بنفس الطريقة التى أمسكت بها يده عندما كانا فى الأكروبوليس . وراحت تتفحص يده فى تمعن تحت الأضواء المترامية من الميدان وأحست بأن يده أوصدت فى وجهها مثل باب لايجعلها تدخل أو تخرج ، وشعرت بالبرد والإثارة فى نفس الوقت . فسارت عائدة إلى السرير ، وجلست عليه مرة أخرى ، وظهر فى صوتها أيضا ثقة جديدة أحدثت تأثيرا عليها وكانت عيناها واقعة على سوارها حيث راحت تدير السوار وهى تفكر فى الجو المشوب بالظلام الخفيف .

تساءلت : اذن ما هو الطريق الذى تريده . هل تبقى تشارلى وتنجز هذه المهمة ؟ أم تأخذ تشارلى النقود وتهرب ؟ ما هو السيناريو الشخصى الخاص بك ؟

– تعرفين المخاطر والأخطار . وعليك أن تقررى .

– وأنت تعرف المخاطر . وعلى نحو أفضل منى ، فأنت قد عرفت تلك المخاطر منذ البداية .

– وأنت سمعت كافة المناقشات . من مارتى ومنى أيضاً .

وقامت تشارلى بفك السوار . وجعلته ينزلق فى راحة يدها ، وقالت : نحن ننقذ حياة الأبرياء . هذا على فرض أننى سأقوم بتسليم المتفجرات . وبالطبع يوجد أولئك الناس السذج المغفلون الذين يفترض أن المرء يمكنه أن ينقذ المزيد من الأرواح فى حالة عدم قيامه بتسليم المتفجرات. ولكنهم سيكونون مخطئين فى رأيهم أليس كذلك ؟

– على المدى البعيد . وإذا سارت كل الأمور على ما يرام فإنهم سيكونون مخطئين فى رأيهم .

أولاها ظهره ثم راح يتفحص المنظر المترامى أمامه من النافذة استطردت فى الكلام وهى تضع الإسورة فى معصمها مرة أخرى : لو كنت أنت ميشيل الذى يتحدث إلىّ فهذا أمر سهل لقد فاجأتنى وأذهلتنى وقمت بتقبيل البندقية وأنا لا أستطيع الانتظار من أجل الوصول إلى الحواجز والمتاريس . واذا كنت لاتؤمن بذلك فإن أفضل مساعيك ومحاولاتك خلال الأيام القليلة الماضية تكون قد فشلت ولكن المساعى لم تفشل . فتلك هى الطريقة التى تختارنى بها للقيام بهذا الدور ، وتلك الطريقة التى حصلت بها علىّ وخلاصة الكلام : لسوف أذهب .

شاهدته يومىء برأسه بعض الشئ متقبلاً كلامها : واذا كنت أنت يوسف الذى يتكلم . فما هو الفارق ؟ ماذا قلت : لا فإننى لن أتمكن من رؤيتك مرة أخرى على الإطلاق ، حيث سأرجع إلى نوهير سفيل بعد مصافحة ذهبية باليد .

ولدهشتها أدركت أنه فقد الاهتمام بها . وارتفعت كتفاه وهو يطلق نفسا طويلاً . ظل رأسه ملتفتا نحو النافذة ، وظلت نظراته مثبتة على الأفق . واستأنف كلامه ، فاعتقدت فى بادئ الأمر أنه كان يتجنب النتائج المترتبة على الكلام الذى

تقوله . ولكنها لدى استمرارها فى الإصغاء أدركت أنه كان يوضح السبب فى أنه لم يكن هناك أى اختيار حقيقى بالنسبة له وبالنسبة لها فى آن واحد .

وأعتقد أن ميشيل كان مسرورا من هذه المدينة وإلى أن بدأ الألمان يحتلون هذا المكان فإنه كان يعيش ستون ألف يهودى فى سعادة على سفح ذلك التل . عمال وتجار وأصحاب بنوك ، وسافارديم . جاءوا إلى هنا قادمين من أسبانيا عبر البلقان . ومع حلول الوقت الذى غادر فيه الألمان هذا المكان لم يكن قد تبقى أى يهود . فأولئك الذين لم يتعرضوا للإبادة شقوا طريقهم إلى إسرائيل .

كانت مستلقية فى السرير . اما يوسف فما زال موجودا عند النافذة حيث يرقب تلاشى الضجيج والتأجج فى الشارع وساءلت نفسها فى تعجب عما اذا كان سيترك النافذة ويجيئ اليها رغم أنها تعرف أنه لن يفعل ذلك ، ثم سمعت صريراً عندما مدد جسده على الأريكة وحيث أصبح جسده موازيا لجسدها ولم يعد يفصل بينهما سوى المسافة الطويلة التى تشغلها يوجوسلافيا . كانت تشعر بالرغبة فيه أكثر من شعورها بالرغبة فى أى شخص آخر على مدى حياتها السابقة ، وكان خوفها من المستقبل هو الذى عمق من رغبتها وتساءلت : هل لك إخوة وأخوات يا يوسف ؟

– أخ واحد .

– ماذا يعمل ؟

– مات فى حرب عام ١٩٦٧ .

فقالت «إنها الحرب التى طردت ميشيل عبر الأردن » لم تتوقع أبداً أن يعطيها إجابة صادقة . ولكنها تدرك أنه لديه الإجابة الحقيقية . سألته : هل اشتركت فى تلك الحرب أيضاً ؟

– كنت أتوقع ذلك .

– وهل اشتركت فى الحرب السابقة على حرب عام ١٩٦٧ . وهى تلك الحرب التى لا أذكر تاريخها ؟

– تقصدين حرب عام ١٩٥٦

– نعم ؟

– نعم

– وهل اشتركت فى الحرب التى حدثت بعد عام ١٩٦٧ . أعنى حرب عام ١٩٧٣؟

– من المحتمل

– وما هى الأسباب التى دعتك للمشاركة فى هذه الحروب؟

– اشتركت فى حرب عام ١٩٥٦ لأننى كنت أريد أن أصبح بطلاً ، واشتركت فى حرب ١٩٦٧ سعيا وراء تحقيق السلام ، واشتركت فى حرب عام ١٩٧٣ من أجل إنقاذ اسرائيل .

– وماذا عن الآن ؟ ما الذى تقاتل من أجله هذه المرة ؟

راحت تفكر : لأن الحرب موجودة هناك . من أجل إنقاذ حياة الناس ، لأنهم طلبوا منى أن أحارب ، حتى يمكن للأهالى والقرويين أن يرقصوا رقصة الدبكة ويستمعوا إلى قصص المسافرين عند البئر .

– يوسف ؟

– نعم . يا تشارلى

– كيف أصبت بتلك الندبات الغائرة المقعرة ؟

وتحت جنح الظلام اكتسبت فترات صمته الطويلة الإثارة التى تكتنف نيران التخييم وحفلات السمر الخاصة بالجنود والكشافة .

– آثار الحروق حدثت لى أثناء جلوسى فى داخل الدبابة . والندبات الناجمة عن طلقات الرصاص حدثت لى أثناء خروجى من الدبابة .

– كم كان عمرك آنئذ؟

– عشر . واحد وعشرون عاماً

وتساءلت وهــى مصممة على الابقـاء على القوة الدافعة : ومن هو والدك ؟

– كان من الرواد الأوائل . من أوائل المستوطنين .

– ومن أين جاء والدك ؟

– من بولندا .

– متى ؟

– فى العشرينات . فى خلال الهجرة الثالثة .

– ماذا كانت حرفته ؟

– كان يشتغل فى أعمال البناء . كان بناء يعمل مستخدما يديه . ولقد تمكن من تحويل الكثبان الرملية إلى مدينة تسمى حاليا تل أبيب . يؤمن بالمذهب الاشتراكى من النوع الذى يهتم بالطابع العملى البراجماتى ، لم يشغل ذهنه كثيراً بالأمور الألهية . لم يشرب الخمور فى حياته . ولم يمتلك أبداً أى شىء تزيد قيمته على دولارات قليلة .

تساءلت : وهل ترغب فى أن تكون على شاكلته ؟

راحت تفكر : إنه لن يجيب أبداً على هذا التساؤل ، لقد غالبه النعاس. لا تكونى وقحة . ولا تدخلى فى تفاصيل غير مرتبطة بالموضوع الرئيسى .

رد بطريقة جافة : إننى اختار المهنة الأعلى ، وراحت تفكر أو المهنة الأعلى هى التى اختارتك ، اذ لا مجال لأن تختار لأنك ولدت فى جو من العبودية والأسر وعلى نحو ما وبسرعة كبيرة استغرقت فى النوم فجأة .

.. ..

الا أن جادى بيكار الجندى المقاتل المتمرس ظل مستيقظا فى صبر وجلد حيث كان يحملق فى الظلام ويصغى للتنفس غير المنتظم الصادر عن المجندة الشابة الخاصة به .لماذا تكلم معها على ذلك النحو ؟ لماذا كشف عن نفسه أمامها فى نفس اللحظة التى كان يوفدها فيها فى أول مهمة تكلف بها؟ لم يعد يثق فى

نفسه فى بعض الأحيان . وساءل نفسه فى تعجب : ترى ما الذى أحلم أنا به : هل أتطلع إلى الحرب أم إلى السلام ؟ وحس أنه كبير فى السن للغاية سواء بالنسبة للحرب أو السلام . إنه عجوز بحيث إنه لا يستطيع مواصلة المشوار . ومع ذلك فهو غير قادر أن يكبح جماح نفسه . وهو عجوز بحيث أنه يعرف رائحة الموت قبل أن يمارس عملية القتل .

راح يصغى مرة أخرى لدى استقرار إيقاع تنفسها حيث صار تنفسها أكثر هدوءا لدى استغراقها فى نوم عميق . ورفع معصمه فى الظلام على طريقة كيرتز فشاهد القرص المضيئ فى ساعته . وعلى وجه السرعة ارتدى رداءه الأحمر اللون وتسلل خارجا من الغرفة فى هدوء .

وكان حارس نوبة الليل يتسم بالذكاء والتيقظ وما إن شاهد الجنتلمان المرتدى للثياب الأنيقة يقترب نحوه حتى أحس على الفور أنه على وشك أن يحصل على بقشيش كبير .

وقال بيكار فى لهجة آمرة : هل لديك الاستمارات الشاغرة التى تحرر من أجل إرسال البرقيات ؟

وشرع بيكار فى الكتابة . بحروف كبيرة وواضحة مستخدما الحبر الأسود . كان العنوان محفورا فى داخل ذهنه - وهو عنوان محامى فى جنيف . اذ كان كيرتز قد أبلغه بذلك العنوان من خلال إشارة بعث بها إليه من ميونيخ بعد التأكد من خلال يانوكا أن ذلك العنوان مازال مستخدما وسارى المفعول . وكان نص الكلام الذى يكتبه محفوراً فى داخل ذهنه أيضا . اذ بدأ النص كالآتى : «أرجو أن تبلغ الزبون الخاص بك» وأشار إلى الروابط القوية التى تتمشى مع التعاقد القياسى الخاص بنا . وتضمنت الصيغة ٤٥ كلمة . وبعد أن قام بمراجعتها أضاف التوقيع الذى مرنه عليه شـويللى فى صبر . ثم ناول الحارس الصيغة وأعطاه ٥٠٠ دراخمة كبقشيش :

- أريد أن ترسل هذه الصيغة مرتين هل تفهمنى . نفس الرسالة تبعث بها

مرتين . تبعث بها الآن تليفونيا ، ومرة أخرى ترسلها فى الصباح من مكتب البريد ولا تكلف أى ولد من الأولاد لكى يقوم بهذه المهمة . يجب أن تقوم بهذا الإنجاز بنفسك . وبعد ذلك ترسل لى نسخة الضمان إلى غرفتى .

كان الحارس على استعداد تام لأن ينفذ كل التعليمات التى أصدرها له ذلك الجنتلمان بكل دقة . فقد سمع عن البقشيشات الخيالية التى يدفعها العرب وكان يحلم دائماً بهذه البقشيشات . وفى هذه الليلة وعلى نحو فجائى وغير متوقع قد اصطاد بقشيشا عظيما فى نهاية الأمر وكانت هناك خدمات أخرى عديدة يرغب فى تقديمها لذلك الجنتلمان . إلا أنه كان غير مستعد لتقبل اقتراحاته ، ثم شاهد البواب الغنيمة الخاصة به وهى تسير بخطوات واسعة فى الشارع ، ثم الاتجاه نحو الواجهة المائية . وكانت السيارة الفان الخاصة بالاتصالات واقفة فى مكان الانتظار، لقد حان الوقت لكى يقوم جادى بيكار بإرسال تقريره مع التأكد بأن كل شئ يسير على ما يرام من أجل القيام بالهجوم الكبير .

الفصل الثالث عشر

كان الدير يقع على مسافة كيلومترين من الحدود فى وادٍ مليء بالصخور الجلمودية ونباتات البردى الصفراء اللون.. لقد كان مكانا حزينا كئيبا منتهك القدسية وله أسقف ساقطة ومنهارة، وبه فناء يضم صومعات متهدمة مع وجود رسومات عن فتيات ترقصن رقصة الهولا الوطنية الخاصة بجزر هاواى على الجدران الحجرية. لقد قام أحد الأشخاص خلال الفترة التى أعقبت ظهور المسيحية بإنشاء حانة للرقص فى هذا المكان. ولكنه اضطر للهرب من ذلك المكان شأنه فى ذلك شأن الرهبان. وعلى الوسادة الخرسانية التى كانت تستغل كأرضية للرقص وقفت المرسيدس الحمراء مثل جواد حربى يلقى الرعاية ويستعد لدخول معركة. وإلى جوار السيارة توجد البطلة التى سوف تستقلها. كان يوسف واقفا بالقرب من البطلة من أجل الإشراف على كافة التفاصيل. ياتشارلى: هذا هو المكان الذى أحضرك إليه ميشيل من أجل تغيير لوحات أرقام السيارة ومن أجل توديعك. وهذا هو المكان الذى قام فيه بتسليمك الأوراق المزيفة والمفاتيح. ياروز إمسحى لوحة الباب تلك مرة أخرى لو سمحت. ويا راشيل ما هى قطعة الورق الملقاة على الأرض؟ لقد أصبح يوسف الذى ينشد الكمال فى عمله مرة أخرى. حيث راح يلقى الأوامر التى تتعلق بكافة التفاصيل. وكانت العربة «الفان» الخاصة بالاتصالات واقفة فى مواجهة السور الخارجى بينما يهتز الهوائى بها فى رفق فى النسيم الساخن.

وكانت لوحات أرقام ميونيخ قد تم تثبيتها بالفعل فى أماكنها. وتم وضع اللوحة الألمانية المليئة بالتراب لكى تحل محل الورقة المصمغة الدبلوماسية الملتصقة. وتم التخلص من النفايات التى لا لزوم لها. ثم بدأ بيكار يدخل الهدايا التذكارية لكى تحل محلها: كتاب للإرشاد السياحى إلى الاكروبوليس قد دفع به فى جيب أحد

الأبواب ونسى هناك، وبذور العنب وضعت فى طفاية السجاير، وقشر برتقال ألقى على الأرضية، واثنتان من عصى الأيس كريم اليونانى وقطع من ورق الشيكولاتة، وتذكرتان ملغيتان من أجل زيارة الأماكن الأثرية لمعبد دلفى، علاوة على خريطة لبلاد اليونان صادرة عن شركة «إسو» وقد أشّر على الطريق الواقع ما بين دلفى وتيسالونيكا بقلم فلوماستر علاوة على تعليقين هامشيين بمعرفة ميشيل باللغة العربية قريبين من تلك النقطة الموجودة فى التلال حيث قامت تشارلى بإطلاق البندقية باستخدام يد واحدة مع عدم التمكن من إصابة الهدف، ومشط به قليل من الشعر الأسود اللون بينما أسنان المشط ملطخة بدهان الشعر الألمانى اللاذع الخاص بميشيل، وقفاز جلدى للقيادة به قليل من الاسبراى الذى يستخدمه ميشيل، وعلبة نظارة تتناسق مع نظارة الشمس التى تهشمت نتيجة خطأ ناجم عن الإهمال وذلك عندما حاول صاحب هذه النظارة أن يلتقط راشيل عند نقطة الحدود.

وأخيرا أخضع تشارلى نفسها لتفحص دقيق يشمل كل جسدها المغطى بالملابس ابتداء من حذائها حتى رأسها علاوة على تفحص كافة محتويات حقيبة يدها التى أفرغت محتوياتها فوق منضدة صغيرة.

أخيرا قال: عليك الآن ـ أن تعيدى كافة الأشياء إلى حقيبة اليد، ثم راح يرقبها وهى تعيد كل شئ بنفسها ـ المنديل وأحمر الشفاه ورخصة القيادة والعملات المعدنية والمحفظة والهدايا التذكارية والمفاتيح وكل الأشياء التى إذا فحصت فإنها تؤكد الرواية المعقدة الخاصة بمراحل حياتها العديدة.

تساءلت: وماذا عن خطاباته؟ فهو إذا كان قد كتب كل تلك الخطابات المتأججة من أجلى فانه من الطبيعى أن أحمل معى تلك الخطابات إلى كل مكان أذهب إليه، أليس كذلك؟ فلاذ يوسف بالصمت، ثم قال أخيرا: إن ميشيل لا يسمح بذلك، وأنت لديك تعليمات مشددة بأن تحتفظى بهذه الخطابات فى مكان آمن فى شقتك وعدم عبور نقاط الحدود بينما هذه الخطابات معك على الإطلاق، واستخرج من الجيب الجانبى لسترته مفكرة يومية صغيرة ملفوفة فى ورق السيلوفان الوقائى، وكانت مجلدة بالقماش ومزودة بقلم رصاص صغير عند الظهر، واستطرد: «نظرا

لأنك لا تحتفظين معك بمفكرة يومية فإننا قررنا أن نجهز واحدة من أجلك». فتقبلت هذه المفكرة فى انتعاش. ونزعت ورق السيلوفان. واستخرجت القلم الرصاص. واكتشفت أن به آثار عضات الأسنان وهى العادة التى مازالت تفعلها مع أقلام الرصاص: حيث اعتادت أن تقضم بأسنانها أقلام الرصاص. وراحت تتصفح ست صفحات من المفكرة. ووجدت المقدمات التى كتبها شويللى متطابقة معها تماما وذلك من خلال دقة ليون ومن خلال الذاكرة الالكترونية الخاصة بالمس باخ. ولا يوجد كلام عن الفترة الخاصة بنوتنجهام: اذ هبط عليها ميشيل فجأة وبدون سابق انذار. وبالنسبة لفترة يورك يوجد حرف الميم كبيرا وبجواره علامة استفهام مع وجود دائرة حول علامة الاستفهام. وفى ركن من نفس اليوم يوجد رسم عابث طويل ملـىء بالتأمل. وهو الرسم الذى تمارسه عندما كانت تستسلم لأحلام اليقظة. وورد وصف عن سيارتها الفيات فى الساعة التاسعة صباحا. وورد كلام عن والدتها أيضا: لم يتبق سوى أسبوع على عيد ميلاد والدتى. إننى أشترى هدية الآن. كما ورد كلام عن آلستير: «آل» يذهب إلى جزيرة وايت . وبالنسبة لفترات العادة الشهرية الخاصة بها كانت توجد خطوط متموجة. وتصفحت المزيد من الصفحات. ووصلت إلى الأجازة اليونانية فوجدت اسم «ميكونوس» مكتوبا بحروف كبيرة كئيبة. وإلى جواره جدول مواعيد المغادرة والوصول للسفينة التشارتر، ولكنها عندما وصلت إلى اليوم الذى شهد وصولها إلى أثينا فإن الصفحتين كلتيهما أصبحتا مضاء تين بسرب من الطيور المحلقة فى الجو... المرسومة بقلم ذى سن كروى باللونين الأزرق والأحمر. فأسقطت المفكرة اليومية فى حقيبة اليد الخاصة بها وأغلقتها فى حدة وبصوت مسموع. وأحست أنها قذرة ومنتهكة ومعتدى عليها. كانت تريد أناسا جددا بحيث يكون بمقدورها أن تفاجئهم ـ أناسا لا يستطيعون تزييف مشاعرها وتقليد خطها فى الكتابة على نحو دقيق بحيث لا يمكنها التمييز بين الخط الحقيقى والخط الزائف. ربما كان يوسف يدرك ذلك. وربما قرأ ذلك فى سلوكها الجاف. كانت تأمل فى ذلك. راح يفتح باب السيارة لها بيده المرتدية للقفاز. فدخلت إلى السيارة على وجه السرعة .

وقال فى لهجة آمرة: أنظرى إلى الأوراق مرة أخرى فقالت وهى تنظر فى خط مستقيم أمامها: لست بحاجة لأن أفعل ذلك.

ما هو رقم السيارة؟

فذكرت له رقم السيارة.

ما هو تاريخ التسجيل؟

فذكرت له تاريخ التسجيل: قصة فى داخل القصة فى داخل القصة. وكانت السيارة من الممتلكات الخاصة لطبيب من ميونيخ ينتمى للطبقة الاجتماعية العليا وهو الحبيب الحالى لها. وهى قد زودت باسمه. والسيارة مؤمن عليها ومسجلة باسمه وكل ذلك وارد فى الأوراق الزائفة.

ـ وهذا الطبيب النشط لماذا لا يوجد معك؟ انه ميشيل الذى يسألك هذا السؤال. هل تفهمين؟

وفهمت: لقد اضطر لأن يعود بالطائرة من سالونيكا فى هذا الصباح من أجل حالة مرضية عاجلة. ولقد وافقت أن أقود له السيارة نيابة عنه. كان موجوداً فى أثينا من أجل إلقاء محاضرة. ولقد قمنا ببعض الجولات السياحية سويا.

ـ وكيف تقابلت معه لأول مرة فى بادئ الأمر؟

ـ تقابلت معه فى انجلترا. فهو الطبيب الذى يعالج والدىَّ ـ فهو يعالجهما من الاثار التى تترتب على الإفراط فى تناول الخمور والكحوليات. ووالدايَّ يعيشان فى ثراء فاحش.

ـ وبالنسبة للطوارئ فأنت لديك مبلغ الألف دولار الخاصة بميشيل فى حقيبة يدك. وهو المبلغ الذى أقرضك إياه من أجل الرحلة. وفى مقابل ساعات العمل الإضافية وفى مقابل الازعاج الذى سببته لهؤلاء الناس فإنهم قد يفكرون فى صرف اعانة مالية صغيرة. ما هو اسم زوجته؟

ـ رينات كم أكره هذه المرأة العاهرة.

ـ وما هي أسماء الأطفال؟

ـ كريستوف ودوروثيا. وأنا على استعداد لأن أكون أما ممتازة لهذين الطفلين اذا ما تنحت رينات ووقفت بعيدا على جانب. أريد أن أنطلق الآن. أتريد أى شئ آخر؟

ـ نعم.

فأوحت له فى داخل ذهنها: يبدو عليك وكأنك تحبنى وتريد أن تقبلنى. يبدو عليك أنك تشعر بالأسف بعض الشئ لأنك تطلقنى عبر أوربا مع شحنة من المتفجرات البلاستيكية الروسية.

فقال موجها النصح لها فى مشاعر عادية وكأنه يقوم فقط بتفحص رخصة القيادة الخاصة به: لا تكونى واثقة من نفسك أكثر من اللازم. فليس كل جندى من حرس الحدود مهووسا بالأمور الجنسية.

كانت قد وعدت نفسها بعدم الدخول فى مراسم التوديع. وربما كان يوسف قد وعد نفسه بنفس الشيء.

قال: هيا يا تشارلى ثم أدارت موتور السيارة. ولم يلوح لها بيده. بل ولم يبتسم لها. وربما رد عليها قائلا: «هيا يا تشارلى» لم تسمعه. ووصلت إلى الطريق الرئيسى واختفى الدير. واختفى سكانه المؤقتون من مرآة سيارتها. وانطلقت بسرعة كبيرة لمسافة كيلومترين ووصلت إلى سهم إرشادى قديم مكتوب عليه: «يوجسلافيا» فواصلت الانطلاق فى بطء بدون أن تتخطى السيارات المنطلقة أمامها. ثم أصبح الطريق عريضا ومتسعا وشبيها بجراج للسيارات. وبعدئذ شاهدت طابورا من الأتوبيسات السياحية علاوة على طابور من السيارات والأعلام التابعة لكافة الدول وقد اتخذت كلها لونا فاتحا بسبب سقوط ضوء الشمس الباهر عليها. إننى انجليزية وألمانية واسرائيلية وعربية. واتخذت مكانا لها خلف سيارة رياضية مكشوفة ومنخفضة وسريعة. يجلس بها صبيان فى المقعدين الأماميين وفتاتان فى المقعدين الخلفيين. وساءلت نفسها فى تعجب: ترى هل هم تابعون

ليوسف؟ أم تابعون لميشيل؟ أم هل هم من نوع ما من الشرطة؟ كانت قد بدأت تتعلم أن تشاهد العالم على ذلك النحو: كل فرد ينتمى إلى شخص آخر.

ولوح لها شخص يرتدى زيا رسميا رمادى اللون بأن تتقدم للأمام فى غير صبر. كان كل شئ جاهزا معها. الأوراق الزائفة والمبررات الزائفة. ولم يظهر أحد رغبة فى الاطلاع على الأوراق.

.. ..

كان يوسف واقفا على قمة التل فوق الدير. ثم أنزل منظاره ثنائى العينين. وعاد إلى السيارة الفان الواقفة فى انتظاره.

قال فى اقتضاب للفتى دافيد: «لقد تم ارسال الطرد» فقام دافيد بكتابة هذه الكلمات على الآلة الكاتبة فى طاعة وامتثال. وهو كان على استعداد لأن يكتب أى شئ من أجل إرضاء بيكار. بل وكان على استعداد لأن يخاطر بأى عمل من أجله. ولأن يطلق الرصاص على أى شخص اذا رغب بيكار فى ذلك. اذ كان بيكار بمثابة أسطورة حية من وجهة نظر دافيد. بل كان انسانا كاملا فى قدراته. فهو المثل الأعلى الذى يحتذى به من وجهة نظر دافيد.

وقال الفتى دافيد فى وقار وتبجيل «مارتى يرد باعثا بالتهنئة».

إلا أن بيكار العظيم بدا عليه وكأنه لم يسمع كلام دافيد.

.. ..

وظلت تقود السيارة بلا نهاية. وكانت ذراعاها تؤلمانها بسبب إمساكها بعجلة القيادة فى إحكام شديد. ورقبتها تؤلمها بسبب الإبقاء على ساقيها فى حالة من التصلب والتخشب. وتشعر ببعض الغثيان فى بطنها لأنها كانت فى حالة من الاسترخاء الشديد. أحست بالغثيان بسبب شعورها بالخوف. وراحت تفكر: ترى ماذا لو تعطل موتور السيارة؟ لقد سبق أن قال لها يوسف: اذا حدث عطل فى السيارة، ينبغى عليك أن تتخلصى منها. وأوقفيها فى ممر جانبى. ثم وجهى

إشارات من إصبعك للسيارات المارة على الطريق لكى تقف إحداها وتلتقطك وتوصلك إلى مكان ملائم. وتخلصى من الأوراق الموجودة معك. حاولى أن تستقلى قطارا بعد ذلك. وأهم شئ أن تبتعدى عن السيارة الخاصة بك بأكبر قدر من المسافات. وشعرت بالصمم بسبب كثرة ما تسمعه من الموسيقى. فأغلقت الراديو. ولكنها شعرت بالصمم مرة أخرى بسبب الضوضاء المترامية من اللوريات والشاحنات الضخمة. وأصبحت غارقة فى الحمام البخارى. وبدأت تشعر بأنها تتجمد حتى الموت. ولكنها انخرطت فى الغناء لكى تسلى نفسها. الطريق لانهائى. وشعرت أنها لاتحرز تقدما ولا شئ سوى حركة مستمرة. وراحت تثرثر وتتحدث فى غير كلفة مع أبيها الميت ومع أمها اللعينة: حسنا. لقد تقابلت مع هذا الشاب العربى الجميل يا أمى. إنه متعلم ومثقف على نحو رائع للغاية يا أمى. إنه غنى ومتحضر تماما يا أمى.

وأرغمت نفسها أن تظل فى خارج نطاق التجربة:

أوه أنظرى. ها هى قرية. أوه أنظرى. ها هى بحيرة. ولم تسمح لنفسها بأن تنفذ إلى الفوضى الموجودة تحتها. إننى متمتعة بالحرية والانطلاق. إننى أشعر بالاسترخاء. إننى أقضى وقتا رائعا. وعندما حل وقت الغداء فإنها تناولت بعض الخبز والفاكهة التى اشترتها من أحـــد الأكشاك. وأحست بالرغبة الشديدة فى تناول الآيس كريم على نحو فجائى مثل الرغبة التى تجيء فجأة للمرأة الحامل. آيس كريم يوجوسلافى أصفر اللون ملفوف فى ورقة مرسوم عليها حلمات لثدى كبيرة. ثم شاهدت صبيا واقفا على الطريق ويشير بإصبعه لها لكى توصله بسيارتها لمسافة معينة. فشعرت برغبة عارمة فى أن تتجاهل أوامر يوسف وتقوم بتوصيله. إذ كانت قد تعرضت فجأة لمشاعر الوحدة الطاغية وأصبحت على استعداد لأن تفعل أى شئ من أجل أن تصطحبه معها: مثل أن تتزوجه فى إحدى الكنائس الصغيرة المبعثرة فوق قمم التلال الخالية من الأشجار أو تغتصبه فوق العشب الأخضر الموجودة إلى جوار الطريق الرئيسى. إلا أنها لم تعترف لنفسها ولو

مرة واحدة أنها كانت تنقل مائتى رطل من المتفجرات الروسية البلاستيكية المقسمة إلي مجموعات من الأصابع تزن كل مجموعة منها نصف رطل والمخبأة فى أماكن مختلفةبالسيارة.

قالت لنفسها فى تصميم: «استمرى فى الانطلاق أيتها الفتاة. إنه يوم مشمس. أنت مومس غنية تقودين السيارة المرسيدس الخاصة بعشيقك. ثم راحت تتلو النص المسرحى الخاص بها فى مسرحية «كما تحبها». وبعدئذ أخذت تتلو أبياتا من مسرحية «جان دارك».

وفى الساعة السادسة مساء وعلى الرغم من أنها كانت تفضل الاستمرار فى القيادة طوال الليل شاهدت لافتة مدهونة لم يكن أحد قد طلب منها أن تلتفت إليها. فقالت لنفسها: «أوه. حسنا. إن ذلك المكان يبدو جميلا. لسوف أجربه» فاتجهت نحو التلال لمسافة ميل تقريبا. وهنالك وجدت فندقا مشيدا فى داخل خرابة وبه حمام سباحة علاوة على ملعب مصغر للجولف. وما إن دخلت إلى البهو حتى شاهدت ديمترى وروز وهما اللذان شاهدتهما لأول مرة فى ميكونوس وقالت روز: أوه. ها هى تشارلى. يا لها من مصادفة!! لماذا لا نتناول جميعا طعام العشاء سويا؟ ثم تناولوا جميعا اللحوم المشوية بجوار حمام السباحة ثم قاموا بالاستمتاع بالسباحة فى حمام السباحة. الذى عندما أغلق أبوابه لم تشعر تشارلى بالرغبة فى الخلود إلى النوم، بل راحوا جميعا يلعبون لعبة «سكرابيل» معها فى غرفة نومها. وكانا مثل سجانين موجودين فى الليلة التى سيتم فيها تنفيذ حكم الإعدام فيها. ثم استسلمت للنعاس لساعات قليلة. لكنها استأنفت القيادة على الطريق فى تمام الساعة السادسة صباحا. وفى منتصف فترة ما بعد الظهر وصلت إلى الطابور عند الحدودالنمساوية.

كانت تشارلى ترتدى بلوزة بدون أكمام مأخوذة من جهاز العرس الخاص بميشيل. وقد مشطت شعرها فبدت رائعة فى كل مرآة من المرايات الثلاثة. وكان يتم التلويح لمعظم السيارات بمواصلة المسير. ولكنها لم تكن تعتمد على ذلك. حيث كانت

باقى السيارات تظهر الأوراق التى لديها بينما سيارات قليلة كانت تسحب على جانب من أجل القيام بفحصها فى مزيد من الدقة. وساءلت نفسها فى تعجب: ترى هل يتم ذلك على نحو عشوائى أم لديهم إنذار مبكر؟ أم أنهم يعتمدون على بعض الدلائل المعينة غير القانونية؟ وكان هناك رجلان مرتديان الزى الرسمى ويسيران فى بطء بين طابور السيارات. حيث يتوقفان عند نافذة كل سيارة. وكان أحدهما يرتدى بدلة خضراء بينما الآخر يرتدى بدلة زرقاء. وقد أحنى قبعته المستدقة الرأس لكى يجعل نفسه شبيها بالطيار. تطلعا إليها. ثم سارا فى بطء حول السيارة. وسمعت أحدهما وهو يركل بقدمه الإطار الخلفى لسيارتها. فشعرت بالرغبة فى أن تقول : «هذا أمر مثير للاستياء» ولكنها كبحت جماح نفسها. لأن يوسف سبق له أن قال لها «لا تتبسطى معهم. وكونى متعالية عليهم. وقررى ماهو ضرورى بالنسبة لك ثم خفضيه إلى النصف». وسأل الرجل المرتدى للحلة الخضراء عن شىء ما باللغة الالمانية فردّت عليه باللغة الإنجليزية قائلة: «آسفة»؟ وأمسكت بجواز السفر الانجليزى الخاص بها لأعلى أمام عينيه والذى يشير الى أنها تعمل ممثلة .فأمسك بجواز سفرها وراح يقارنها مع الصورة الفوتوغرافية الموجودة فى جواز السفر ثم ناوله لزميله.

كانا شابين جميلين ووسيمين ولم تكن قد أدركت أنهما صغيران فى السن للغاية وأشقران ومليئان بالحيوية ولهما بشرة برونزية بسبب التعرض باستمرار لأشعة الشمس مثل سكان الجبال، وفى نزوع رهيب نحو تحطيم الذات أرادت أن تقول لهما: إننى تشارلى فكروا مليا فى أمرىَ.

واستقرت عيونهما الأربعة علي وجهها أثناء قيامهما بتوجيه الأسئلة إليها ـ هذا دورك وذاك دورى. وقالت : لا حسنا مجرد مائة سيجارة يونانية وزجاجة أوزو، ثم قالت : لا بكل صدق وأمانة لاتوجد معى أية هدايا . وأشاحت بوجهها بعيدا عنهما وهى تقاوم الرغبة الجامحة فى مغازلتهما . حسنا. لايوجد سوى شىء تافه قديم من أجل والدتها ولكنه شىء لا قيمه له بل ولا تزيد قيمته على عشرة دولارات

وقاما بفتح باب سيارتها وطلبا مشاهدة زجاجة الأوزو إلا أنها خامرتها الشكوك العميقة فى أنهما بعد أن شاهدا الجزء الأسفل من بلوزتها أصبحا يرغبان فى مشاهدة ساقيها. وكانت زجاجة الأوزو موجودة فى دلو على الأرضية بجوارها فانحنت تشارلى عبر الكرسى المجاور لها واستخرجت زجاجة الأوزو من الدلو. وأثناء قيامها بهذه الحركة انفتحت جونلتها بطريق الصدفة فانكشف فخذها الأيسر على طول المسافة شمالا حتى مفصل الورك. ثم رفعت الزجاجة لأعلى لكى يلقيا نظرة عليها وفى نفس هذه اللحظة أحست بشىء ما رطب وبارد يرتطم ببشرتها العارية. «أيها السيد المسيح! لقد قاما بتوجيه طعنة إلىَّ! » وصدرت عنها صيحة ووضعت يدها فوق بشرتها وأصابتها الدهشة عندما أدركت أن فخذها خُتم بخاتم الدخول ذى الحبر الأزرق والذى يسجل وصولها إلى جمهورية النمسا فتصاعد الغضب الشديد فى داخلها وأصبحت على وشك أن تهاجمهما فى عنف ولكنها شعرت بالامتنان الشديد عندما وجدت نفسها تنفجر فى ضحكات هستيرية ولولا التنبيهات والتحذيرات التى قالها يوسف لها لكانت قد عانقتهما واحتضنتهما كرد على كرمهما وحبهما البرىء. لقد تمكنت من اجتياز الحدود بنجاح وأحست أنها رائعة للغاية ونظرت فى المرآة فشاهدت هذين الشخصين الحبيبين وهما يلوحان لها فى خجل بأيديهما بتحية التوديع بشكل مستمر وقد أغفلا كافة العربات الأخرى القادمة . أحست أنها لم يسبق لها أن أحبت السلطات الحكومية حبا جما على هذا النحو من قبل .

.. ..

إن المراقبة الطويلة التى قام بها شيمون ليتفاك قد بدأت فى الصباح المبكر وقبل ثمانى ساعات من وصول التقرير الذى أشار إلى عبور تشارلى للحدود بنجاح وأيضا قبل ليلتين ويوم واحد منذ أن قام يوسف الذى يتصرف نيابة عن ميشيل بإرسال البرقيتين اللتين هما نسخة طبق الأصل إلى المحامى الموجود فى جنيف من أجل استئناف إرسالهما إلى العميل الخاص به وكان الوقت آنئذٍ قد أصبح فى

منتصف فترة مابعد الظهر وكان ليتفاك قد غير الحراسة ثلاث مرات. إلا إن أحدا لم يشعر بالملل وكان الجميع فى غاية اليقظة والحذر وكانت مشكلته لاتكمن في جعل الفريق فى حالة من التيقظ وانما فى إقناعهم بالخلود إلى الراحة التامة أثناء ساعات الاستراحة من العمل.

ومن موقع القيادة الخاصة به عند النافذة بالجناح العرسى بفندق قديم راح ليتفاك ينظر لأسفل إلى ميدان سوق «كارينثه» حيث تتمثل المعالم الرئيسية فى هذا الميدان فى فندقين صغيرين تقليديين لهما مناضد خارج الباب الرئيسى ومكان لجراج السيارات ومحطة سكة حديد قديمة لها قبة شبيهة بالبصلة موجودة فوق مكتب ناظر المحطة وكان الفندق القريب منه يسمى بلاك سوان يوجد به عازف أكورديون. وهو ولد شاحب اللون يقوم بتفحص رغبات الآخرين ويقوم بالعزف على نحو جيد أما الفندق الاخر فيسمى كاربنتار آرمز له لافتة ذهبية جميلة تتألف من الأدوات اليدوية وبه مفارش للمناضد بيضاء اللون وكان هناك عدد قليل من الناس الذين يسيرون على الأقدام فى هذا الوقت من النهار. وكانت هناك حرارة ثقيلة تضفى نعاسا لذيذا على المنظر . وخارج فندق سوان توجد فتاتان تحتسيان الشاى وتضحكان وهما تشاركان فى كتابة خطاب. وكانت مهمتهما هى كتابة أرقام السيارات التى تدخل إلى الميدان أو تغادره وخارج فندق كاربنتار آرمز يوجد قسيس شاب متحمس يرتشف الخمور ويقرأ فى كتاب الصلوات اليومية الخاص به. وفى المناطق الجنوبية بالنمسا لا أحد يطلب من قسيس أن ينصرف وكان الاسم الحقيقى للقسيس هو : يودى وهو اختصار لاسم «إيهود» القاتل الأشول للك الشعب الموابى وهو من الشعوب السامية القديمة وهو مثل الشخص الذى سمى على اسمه كان مسلحا تماما وأشولا وكان موجوداً هنالك من أجل مواجهة الموقف اذا تطلب الأمر الدخول فى قتال وكان يلقى المساندة من جانب شخصين من الانجليز متوسطى العمر يجلسان فى السيارة اللاندروفر والموجودة فى المساحة المخصصة لوقوف السيارات وكان لديهما أسلحة نارية محشورة عند أقدامهما بين تشكيلة من الأدوات المعدنية الأخرى القريبة من متناول اليد وكان جهاز اللاسلكى الخاص بهما

محولا على السيارة «الفان» الخاصة بالاتصالات والواقفة على مسافة مائتى متر على الطريق المتجه إلى سالزبورج.

كان الفريق الذى يعمل مع ليتفاك يتألف من تسعة من الرجال وأربع فتيات. وهو كان بحاجة لفريق يتألف من ستة عشر فردا ولكنه لم يعترض ولم يبث بشكواه وكان التوتر يجعله يشعر بأنه على مايرام. وكان دائما مايقول لنفسه فى تفكير : إننى ولدت من أجل القيام بمثل هذه الأعمال وكان يشعر بالهدوء أنئذ وكان ذهنه وجسده في حالة من الهدوء العميق وكانت العصابة المسلحة الخاصة به مستلقية على ظهر السفينة وغارقة فى أحلام اليقظة عن الاصدقاء والصديقات والتجول بدون هدف فى منطقة الجليد. ومع ذلك فإنه مع ظهور أى همس للنسيم فإن كل واحد منهم يبادر إلى اتخاذ موقعه قبل أن تمتلىء الأشرعة بالنسائم الأولى.

وتمتم ليتفاك بكلمة روتينية من أجل المراجعة عبر جهاز الرأس الخاص به وتلقى كلمة روتينية كرد على كلمته كانا يتكلمان باللغة الألمانية لكى لايثيرا المزيد من الانتباه . وكان الغطاء الخاص بهما آنئذ عبارة عن شركة للتاكسيات باللاسلكى موجودة فى «جراز» والتى أصبحت الآن بمثابة خدمة للانقاذ بالهليوكبتر متمركزة فى إنسبروك وكثيرا ما كانوا يتبادلون الموجات اللاسلكية علاوة على استخدام تشكيلة متنوعة من النداءات المثيرة للارتباك والحيرة.

وفى تمام الساعة الرابعة دخلت تشارلى فى هدوء إلى الميدان بالسيارة المرسيدس فقام أحد المراقبين الموجودين فى موقف السيارات بالنفخ فى البوق ثلاث نفخات عبر جهاز الرأس الخاص به وواجهتهما مشكلة عدم وجود مكان شاغر بالميدان لكى توقف فيه السيارة المرسيدس ولكن ليتفاك قرر عدم تقديم المساعدة لها فى هذا الشأن. دعوها تتصرف بمفردها ولا تقدموا أية مساعدات ، وبعد لحظات ظهر لها مكان شاغر . فأوقفت السيارة ثم خرجت وراحت تتمطى وتدعك مؤخرتها ثم استخرجت حقيبة الكتف والجيتار من شنطة السيارة الخلفية وقال ليتفاك الذى كان يرقبها من خلال نظارته أنها على مايرام وتبدو طبيعية والآن

أغلقى السيارة فأغلقت السيارة ثم أغلقت الحقيبة الخلفية للسيارة كآخر عمل تقوم به والآن ضعى المفتاح فى أنبوبة العادم. ففعلت ذلك أيضا فى حركة رشيقة وذلك لدى انحنائها لكى تلتقط متاعها ثم اتجهت فى إرهاق وإعياء إلى محطة السكة الحديد بدون أن تنظر على يمينها أو يسارها وهدأ ليتفاك وعكف على الانتظار مرة أخرى . وقال لنفسه: المعزة قد ربطت فى حبل طويل بحيث يسمح لها بحرية الحركة. متذكرا تلك العبارة المفضلة لدى كيرتز والتى كثيرا ما كان يستخدمها والآن فان كل مانحتاجه هو: الأسد وتحدث بكلمة فى جهاز الرأس الخاص به وسمع مايؤكد الأوامر التى أصدرها وتخيل كيرتز الموجود فى شقة ميونيخ وقد انحنى على جهاز الارسال بينما السيارة الفان الخاصة بالاتصالات تبلغ الإشارة وقال ليتفاك وهو يرقب الشفق الأحمر المبكر الذى يزحف على المكان : ها نحن ندخل فى طيات الظلام أخيرا فالظلام هو كل ماكنا نتطلع إليه على مدى تلك الأشهر .

ومرت ساعة وقام القسيس الطيب أودى بتسديد ثمن الفاتورة المتواضعة الخاصة به واختفى فى شارع جانبى من أجل الخلود إلى الراحة علاوة علي تغيير ملامحه فى الشقة الآمنة. وكانت الفتاتان قد انتهيتا من كتابة خطابهما وأصبحتا فى حاجة إلي طابع بريد وعندما حصلتا على طابع رحلتا لنفس الغرض وراح ليتفاك يرقب فى ارتياح عندما حل الآخرون محلهما: عربة غسيل ملابس معطوبة وشخصين قاما بنزهة طويلة سيرا على الأقدام يحتاجان لوجبة غذاء فى وقت متأخر وشخصا إيطاليا فى حاجة إلى القهوة وصحف ميلانو. ودخلت سيارة شرطة إلى الميدان وقامت بثلاث دورات من أجل التفتيش . إلا إن سائق السيارة وزميله لم يظهر أدنى اهتمام بالسيارة المرسيدس الحمراء التى خبىء مفتاح التشغيل الخاص بها فى أنبوبة العادم. وفي تمام الساعة ٧,٤٠ ووسط إنارة صادرة عن المراقبين سارت إمرأة ممتلئة إلى الباب الخاص بالقيادة بالسيارة ودفعت بمفتاح في القفل ثم صدر رد فعل متأخر وانطلقت فى سيارة أودى حمراء بدلا من السيارة المرسيدس إذ كان الأمر قد اختلط عليها فيما يتعلق بماركات السيارات وفى الساعة الثامنة مرت دراجة بخارية قوية بسرعة داخلة إلى الميدان قبل أن يتمكن أى شخص

من قراءة رقمها ثم زأرت خارجة من الميدان. وكان يوجد بها مسافر آخر له شعر طويل وربما كان فتاة وبدا الاثنان فوق الدراجة كمثل شخصين صغيرين فى السن منخرطين في مرح صاخب.

تساءل ليتفاك عبرْ جهاز الرأس الخاص به هل تجرى الاتصالات ؟

وانقسمت الآراء وجاء أحد الآراء : لماذا نغامر ونتعرض لاحتمال قيام الشرطة باعتراضنا؟ وكان لليتفاك رأي مختلف اذا كان واثقا من أن ذلك بمثابة استطلاع أولى إلا أنه لم يقل ذلك لكى لا يحدث تأثيرا على رأيهم وآثر الخلود الى الصمت والانتظار مرة أخرى وقال لنفسه: لقد بدأ الأسد فى التشمم فهل سيعود مرة أخرى؟

.. ..

كانت الساعة قد بلغت العاشرة وبدأت المطاعم تخلو من الزبائن وبدأ هدوء ريفى عميق يهبط على المدينة الصغيرة إلا أن السيارة المرسيدس ظلت فى مكانها بدون أن تمس كما أن الدراجة البخارية لم ترجع بعد.

لو قدر لك أن ترقب سيارة فإنك ستدرك أن الحملقة فى أية سيارة شاغرة يعتبر أمرا سخيفا للغاية. لقد سبق لليتفاك أن قام بمراقبة العديد من السيارات الشاغرة فمع مرور الوقت ومع تركيز البصر على سيارة شاغرة فإنك تجد نفسك تتذكر أن السيارة تكون شيئا سخيفا للغاية بدون أن يكون بها رجل لأن وجود رجل فى داخلها يعطى للسيارة معنى. ومن حيث المبدأ فإن اختراع السيارات يعتبر أمرا سخيفا للغاية. فبعد مرور ساعتين تبدو السيارة وكأنها أسوأ حديد خردة وقع عليه بصرك فى حياتك وعندئذ تنخرط فى أحلام عن الخيول أو عن عالم من المشاة الذين يعتمدون فى حياتهم علي السير على الاقدام تحلم بالابتعاد عن الحديد الخردة الذى طغى على أسلوب الحياة والعودة إلي كل ماهو نابض بالحياة، وتبدأ فى التفكير فى الكيبوتز الخاص بك ومايضمه من بساتين البرتقال . تحلم باليوم الذى سيدرك فيه العالم كله فى نهاية الأمر مدى الأخطار التى تكتنف سفك الدماء اليهودية.

انك ترغب فى نسف جميع سيارات العدو فى العالم وتمزيقها إربا إربا وإطلاق سراح اسرائيل للأبد .أو أنك تتذكر أن اليوم هو يوم السبت وأن القانون ينص أنه من الأفضل أن تنقذ روحا من خلال العمل على أن تراعى تقاليد يوم السبت وتمتنع عن إنقاذ الروح أو أنك يتوقع لك أن تتزوج فتاة تتسم بالبساطة والورع والتقوى لاتشعر نحوها بالاهتمام وتستقر فى حياة عائلية وتدخل فى مصيدة الأطفال بدون أن تبدى كلمة احتجاج واحدة. أو أنك تنخرط فى التأمل فى الاله اليهودى وفى نظائر انجيليه معينة للموقف الحالى الخاص بك.

لكنك اذا كنت مدربا على النحو الذى تدرب عليه ليتفاك واذا كنت فى موقع القيادة مثله فإنه لن يخطر على بالك أبدا ولو لثانية واحدة أن ترفع عينيك عن تلك السيارة.

.. ..

وعادت الدراجة البخارية .

ظلت موجودة فى ميدان المحطة على مدى ٥,٥ دقيقة وفقا لساعة ليتفاك المضيئة فمن مكانه عند نافذة الفندق المظلمة كان يرقب الدراجة طوال ذلك الوقت. إنها دراجة بخارية من أحدث طراز .. دراجة يابانية مسجلة فى فينا والمقودات الممتازة الخاصة بها من النوع المصنوع خصيصا بناء على طلب الزبون وكانت الدراجة قد دخلت إلى الميدان بفعل الجاذبية وبدون تشغيل الموتور يقودها سائق يرتدى خوذة على رأسه ولم يكن من الواضح ما اذا كان هذا السائق ذكرا أم أنثى كما كان يوجد على الدراجة أيضا شخص عريض الكتفين وله شعر طويل ويرتدى «بنطلون جينز» وكوفيه منقطة عند مؤخرة العنق. وكانت الدراجة قد توقفت فى مكان قريب من السيارة المرسيدس ولكنها لم تكن قريبة للغاية على نحو يوحى بأنهما لديهما خطط تتعلق بالسيارة المرسيدس .

وقال ليتفاك فى هدوء عبر جهاز الرأس: « مجموعة .... انتبـاه» فتلقى على

الفور أربعة إشعارات بالاستلام وكان ليتفاك واثقا من موقفه من حيث أنه إذا فر هذان الشخصان طلبا للنجاة فى تلك اللحظة فإنه يبادر إلى اعطاء الأوامر على الفور بدون أى تردد ولو أن هذا كان يعنى انتهاء العملية. حيث كان سيقف هارون القابع فى الجزء المغطى من السيارة «الفان» لكى يطلق الرصاص عليهما ويمزقهما فى الميدان إلا أنهما لم يفرا طلبا للنجاة وهو وضع أفضل بكثير اذ ظل موجودين على الدراجة البخارية. وراحا يتفحصان المكان على وجه الدقة والنواصى الجانبية والسيارات المتوقفة فى أماكن وقوف السيارات بالميدان مع تفحص النوافذ العلوية التى تشبه النافذة التى يطل منها ليتفاك رغم أن الفريق حرص منذ فترة طويلة ألا يظهر أى شىء على الاطلاق.

وبعد أن انتهت فترة التأمل والتفحص نزل الشخص ذو الشعر الطويل من فوق مقعده بالدراجة البخارية فى بطء وتثاقل ثم سار الهوينى متخطيا السيارة المرسيدس ومالت رأسه فى براءة وهو يتفحص تأرجح مفتاح التشغيل الذاتى من ثقب فتحة العادم، ولكنه لم يندفع نحو ذلك المفتاح وهو أمر استحسنه ليتفاك ثم سار الهوينى متخطيا السيارة واتجه نحو ميدان محطة السكة الحديد من أجل الدخول الى المرحاض العمومى ثم خرج على الفور بهدف تضليل أى شخص أحمق يحاول أن يتعقبه ولم يكن هناك أحد يتعقبه فالفتيات لم يكن باستطاعتهن تعقبه والأولاد كانوا ملتزمين بالحرص والحذر الشديدين ومر لونج هير (ذو الشعر الطويل) بجوار السيارة للمرة الثانية. وراح ليتفاك يتوسل إليه بشدة لكى ينحنى ويأخذ المفتاح لأنه يريد أن يشاهد حركة حاسمة ونهائية. إلا أن لونج هير رفض أن يؤدى هذه الخدمة. اذ استدار نحو الدراجة البخارية ونحو زميله الذى ظل موجودا فوق سرج الدراجة البخارية وذلك لكى يكون قادرا على أن ينسل هاربا فى هدوء اذا تطلب الموقف اللجوء إلى الفرار والهرب. وقال لونج هير بعض الكلمات لزميله ثم رفع خوذته وأدار وجهه فى غير اكتراث نحو الضوء .

قال ليتفاك فى جهاز الرأس الخاص به : «لويجى» معطيا بذلك الاسم السرى المتفق عليه، وعندما فعل ذلك شعر بالرضا التام. وراح يفكر فى هدوء : أنه أنت روسينو رسول الحلول السلمية لقد كان ليتفاك يعرفه جيدا فى حقيقة الأمر. بل وكان يعرف أسماء وعناوين صديقاته من الفتيات وأصدقائه ويعرف والديه المنتميين للجناح الأيمن فى روما بل يعرف أستاذه ومعلمه المنتمى للجناح الأيسر والذى يعمل بالأكاديمية الموسيقية فى ميلانو وكان يعرف جريدة نيبوليتان التى تنشر له مقالاته التبشيرية التى تنادى بأن عدم استخدام العنف هو الوسيلة المقبولة وكان يعرف الشكوك القوية التى تحوم حوله منذ فترة طويلة لدى المسئولين بالقدس ويعرف القصة الكاملة للجهود المتكررة عديمة الجدوى من أجل الحصول على الدليل القاطع والبرهان الساطع وكان يعرف الرائحة المميزة الخاصة به ويعرف مقاس الحذاء الذى يرتديه وكان قد بدأ يخمن الدور الذى لعبه فى عملية بادنسبرج وفى عمليات أخرى عديدة بأماكن أخرى. ولذلك كانت لديه أفكار واضحة للغاية عن أفضل الاجراءات التى ينبغى اتخاذها حياله ولكن ليس بعد . ليس بعد على مدى فترة طويلة.

وراح يفكر فى ابتهاج : انها تجنبت الدين . إنها مع هذه الهوية الواحدة قد أنجزت رحلتها الكاملة الطويلة الى إن وصلت هنا . إنها من سلالة صالحة غير يهودية بل وهى من سلالة نادرة من وجهة نظر ليتفاك.

والان وأخيرا بدأ السائق نفسه ينزل من فوق الدراجة كان ينزل ويتمطى ويفك أزرار الذقن الخاصة به وبدأ روسينو يحل محله عند مقود الدراجة .

وهنا ظهر أن السائق فتاة.

إنها فتاة رشيقة شقراء وفقا لنظارة ليتفاك التى تقوى الضوء فتاة لها ملامح نحيلة عظمية علاوة على إتسامها بالرقة الشديدة على الرغم من سيطرتها الكاملة على الدراجة البخارية. وعند هذه المرحلة الحرجة رفض ليتفاك تماما أن يشغل ذهنه بما اذا كانت أسفارها قد أخذتها من مطار أورلى بباريس إلى مدريد

أو بما اعتادت على تسليم حقائب تضم اسطوانات جراموفون إلى صديقات سويديات لأنه لو كان قد ركز ذهنه على هذا الاتجاه لكانت الكراهية المتراكمة لدى الفريق التابع له قد تغلبت على الشعور بالنظام والالتزام بالنظام الموجود لديهم حيث أن معظمهم سبق لهم أن أطلقوا النيران على أناس أثناء فترة خدمتهم العسكرية وهم فى مواقف وحالات مثل هذه لم يكن لديهم أى وخز للضمير أو الندم . لذلك لم يقل أى شيء على الاطلاق فى جهاز الرأس الخاص به.

جاء الدور على الفتاة لكى تذهب إلى دورة المياه وبعد أن استخرجت حقيبة صغيرة من شبكة الأمتعة وبعد أن ناولت روسينو خوذتها لكى يعتنى بها سارت عارية الرأس عبر الميدان ومنه مباشرة إلى حشود الناس حيث ظلت هناك. ومرة أخرى انتظر ليتفاك متوقعا منها أن تغطس من أجل الحصول على مفتاح التشغيل إلا أنها لم تفعل ذلك وكانت مشيتها متسمة بالرشاقة وعدم بذل الجهد تماما مثل مشية روسينو ولم تترنح فى مشيتها على الاطلاق كانت فتاة بالغة الجاذبية والجمال ولاعجب أن ذلك الملحق العمالى التعيس قد وقع فى حبها وغرامها . وعادت نظارته إلى روسينو وكان قد ارتفع بجسده قليلا فوق السرج الأمامى ورفع رأسه لأعلى كما لو كان يصغى فى انتباه لكى يسمع شيئا ما . واعتقد ليتفاك أنه كان يرهف السمع من أجل أن يسمع تلك الدمدمة الخفيفة: دمدمة قطار الساعة ١٠,٢٤ القادم من كلاجنفورت المتوقع وصوله فى أية لحظة وفى ارتعادة خفيفة طويلة توقف القطار عند الرصيف، وظهر بين حشود جماهير الناس الطلائع الأولى من المسافرين الذين لهم عيون غائمة بسبب الارهاق واتجه اثنان من التاكسيان فى تثاقل إلى الأمام ثم توقفا مرة أخرى وانطلقت سيارتان من السيارات الخاصة فى ابتعاد وظهرت مجموعة من الأشخاص المرهقين المنتظمين فى رحلة واحدة وعددهم يكفى لملء عربة حيث كانت أمتعة كل فرد منهم تحمل نفس البطاقة الموحدة .

وناشد ليتفاك: نفذ العملية الآن. اختطف السيارة. واخرج مع زحام حركة المرور . تذكر الهدف الذى أنت موجود هنا من أجله.

وكان لايزال غير مستعد لمواجهة ماأقدموا عليه بالفعل وكان هناك شخصان متقدمان فى السن يقفان عند صف السيارات وخلفهما توجد فتاة محتشمة رزينة تبدو وكأنها مربية لطفل صغير أو وصيفة. ترتدى بدلة بنية اللون ذات صدر ناتىء وترتدى قبعة بنية صغيرة لها حافة متجهة لأسفل راح ليتفاك يرقبها علاوة على مراقبة أناس عديدين آخرين بعين صافية مدربة متيقظة من خال التوتر. فتاة جميلة تحمل معها حقيبة سفر صغيرة والشخصان المتقدمان فى السن قاما بالمناداة على تاكسى سويا فى آن واحد وظلت الفتاة موجودة فى مكان قريب خلفهما وراحت ترقب التاكسى لدى وصوله .

ودخل الشخصان المتقدمانُ فى السن بصعوبة فى السيارة الاجرة وقامت الفتاة بمساعدتهما على الركوب وناولتهما حاجياتهما وأمتعتهما الشخصية ـ وكان من الواضح أنها ابنتهما وتحول ليتفاك ببصره إلى السيارة المرسيدس ثم إلى الدراجة البخارية واذا كان قد فكر فى أى شىء يتعلق بهذه الفتاة المرتدية ثوبا بنيا فانه افترض أنها استقلت التاكسى وانطلقت مع والديها وهذا أمر طبيعى ثم وجه انتباهه إلى مجموعة السياح المرهقين الذين يسيرون على الرصيف فى اتجاه عربتين واقفتين فى حالة انتظار فأدرك أن الفتاة هى الفتاة المنشودة .. الفتاة التى كانت تستقل الدراجة البخارية فهى كانت قد غيرت ملابسها بسرعة فى دورة المياه وخدعته وبعد أن فعلت ذلك انضمت إلى المجموعة السياحية لكى تعبر الميدان فى داخل العربة السياحية .

وبدأ ليتفاك يشعر بالابتهاج عندما شاهدها تفتح باب السيارة المرسيدس بالمفتاح الخاص بها ثم تلقى بحقيبة السفر فى داخل السيارة وتجلس فى مقعد القيادة فى احتشام ووقار وطهارة وكأنها متجهة بالسيارة إلى الكنيسة. وبعدئذ تحركت السيارة بينما ذيل السمكة مازال تلمع فى داخل أنبوبة العادم ادخلت عليه هذه اللمسة السرور ياله من أمر واضح نسخة ثانية من البرقيات ونسخة ثانية من المفاتيح إن قائدنا يؤمن مضاعفة الفرص الخاصة به.

وأعطى الأمر الذى يتكون من كلمة واحدة وشاهد الأتباع ينسلخون بعيدا فى حرص وحذر : الفتاتان فى سيارتهما البورش وأودى فى سيارته الأوبل الكبيرة ثم شريك أودى الذى استقل دراجة بخارية أقل جمالا من دراجة روسينو وظل ليتفاك قابعا عند النافذة الخاصة به وراح يرقب الميدان وهو يخلو من الناس فى بطء تدريجى اذ رحلت السيارات كما رحل المترجلون السائرون على الاقدام كما حفت الأضواء حول ميدان المحطة ثم سمع رنينا معدنيا كأن شخصا ما قد قام بغلق بوابة حديدية بسبب حلول الليل والظلام ولم يبق أى شىء فى حالة استيقاظ سوى الفندقين الصغيرين.

وأخيرا فان الكلمة الشفرية التى كان ينتظرها طقطقت وخشخشت فوق جهاز الرأس الخاص به . «أو سيان» : السيارة تتجه نحو الشمال.

فتساءل : إذن إلى أين تتجه لويجى؟

ـ إلى فيينا.

فقال ليتفاك: «انتظر» ثم قام بخلع جهاز الرأس الخاص به حتى يتمكن من التفكير فى مزيد من الوضوح.

كان عليه أن يتخذ اختيارا على الفور ولقد كانت التدريبات تتعلق بالاختيارات الفورية اذ كان من المتعذر عليه أن يتابع كلا من روسينو والفتاة فى آن واحد. حيث تنقصه الوسائل التى تعينه على ذلك. ينبغى عليه من الناحية النظرية أن يتتبع المتفجرات وبالتالى يتتبع الفتاة ـ إلا أنه مع ذلك ظل مترددا لأن روسينو كان مراوغا فى حين أن السيارة المرسيدس واضحة المعالم وبارزة علاوة على أن المكان الذى ستصل إليه كان معروفا على وجه التحديد . واجتاحه التردد لفترة أطول وخشخش جهاز الرأس الخاص به ولكنه تجاهله وراح يقلب الأمور فى داخل ذهنه. لم يكن يرغب فى أن يدع روسينو يفلت من قبضته فهذا أمر لايطاق من وجهة نظره ومن المؤكد أن روسينو كان بمثابة حلقة مهمة فى سلسلة المعارضة : ومثلما قال كيرتز مرارا وتكرارا فان السلسلة اذا لم تصمد فكيف يمكن لها أن تجذب تشارلى

إلى الشـــباك والشراك الخاصــة بها ؟ وروسينو يمكن له أن يعود إلى فيينـا وهو مقتنع بأنه لم يتم تسوية أى شئ فهو بمثابة حلقة حاسمة، وكان أيضا بمثابة شاهد حاسم فى حين أن الفتاة كانت بمثابة موظفة وسـائقة للسيارات وواضعة للقنابل أو بمثابة كتيبة المشاة القابلة للاستهلاك وعلاوة على ذلك فان كيرتز كانت لديه خطط حيوية بالنسبة لمستقبلها فى حين أن مستقبل روسينو يمكن أن يوضع فى قائمة الانتظار .

ارتدى ليتفاك جهاز الرأس مرة أخرى ثم قال تتبعوا السيارة ودعوا لويجى يذهب وبعد أن انتهى ليتفاك من اتخاذ هذا القرار سمح لنفسه بان يبتسم ابتسامة مليئة بالارتياح وكان يعرف تشكيل الموكب على وجه الدقة أودى يتصدر الموكب على الدراجة البخارية الخاصة به ثم الفتاة الشقراء فى السيارة المرسيدس الحمراء وخلفها توجد السيارة الأوبل وبعد السيارة الأوبل وعلى مسافة بعيدة توجد الفتاتان فى السيارة البورش الاحتياطية من أجل استبدال الأماكن مع أى فرد بمجرد صدور الأوامر لهما بذلك ، واستعاد ليتفاك لنفسه النقاط الثابتة التى تقوم بمراقبة السيارة المرسيدس الى أن تصل إلى الحدود الألمانية وتخيل نوع تلك الحكاية غير القابلة للتصديق التى لفقها إليكسيس لكى يتأكد من عبورها للحدود بدون أية تعقيدات .

تساءل ليتفاك وهو يلقى نظرة خاطفة على ساعته : كم تبلغ السرعة ؟

وجاء الرد بما يفيد أن أودى يشير إلى أن سرعتها معتدلة للغاية فهذه الفتاة لاتريد الدخول فى متاعب مع القوانين وهى تشعر بالقلق بسبب الحمولة التى تنقلها .

وازاح ليتفاك الجهاز عن رأسه وقال لنفسه : من المؤكد أنها تشعر بالقلق والتوتر ولو كنت أنا الذى يقود هذه السيارة بدلا من هذه الفتاة لكنت قد شعرت بالذعر الشديد .

وسار فى الدور الأرضى حاملا حقيبته فى يده كان قد سدد قيمة الفاتورة الخاصة به بالفعل .

وكانت سيارة القيادة الخاصة به منتظرة اياه فى المساحة المخصصة لوقوف السيارات بجوار الفندق وفى اتزان شديد ناجم عن الخبرة الطويلة انطلق ليتفاك لكى يلحق بالقافلة وانصب ذهنه على كيرتز وتخيل البهجة الشديدة التى ستجتاح كيرتز وتخيل صوته الجهورى وهو يمتدحه بلغته العبرية وشعر ليتفاك بالسعادة لأنه يحضر لكيرتز ضحية أو ذبيحة ممتلئة ورائعة للغاية .

.. ..

بدت اجواء الصيف مازالت موجودة فى سالزبورج وهبت نسمة ربيعية مترامية من الجبال وكان لنهر سلزاخ نفس رائحة البحر وكان وصولهم إلى هناك مازال سرا غامضا بالنسبة لها لأنها استغرقت فى النوم مرات عديدة طوال الرحلة وهم قد سافروا بالطائرة من جراز إلى فيينا الاَّ أن الرحلة قد استغرقت حوالى خمس ثوان ومن ثم فمن المؤكد أنها استغرقت فى النوم أثناء وجودها فى الطائرة وفى فيينا هناك سيارة مستأجرة فى حالة انتظار وهى سيارة أنيقة ماركة B.M.W واستغرقت فى النوم مرة أخرى ولدى دخولهم إلى المدينة اعتقدت للحظات أن السيارة اشتعلت فيها النيران ولكن الأمر لم يكن سوى سقوط أشعة شمس المساء على الطلاء القرمزى فى اللحظة التى فتحت فيها عينيها .

عندما سألته : ولماذا سالزبورج؟

رد : لأنها على الطريق.

فتساءلت الطريق إلى أين ؟ ولكنه فضل التحفظ وعدم الرد على ذلك التساؤل.

وكان الفندق الخاص بهما له فناء داخلى مسقوف وله داربزينات قديمة وبه نباتات موضوعة فى أوعية رخامية وكان الجناح الخاص بهما يطل على النهر البنى اللون السريع وخلف النهر توجد قباب تزيد على عدد القباب الموجودة فى السماوات وخلف القباب توجد قلعة. وقالت إننى بحاجة للتريض سيرا على الأقدام.

وأخذت حماما وغلبها النوم وهى فى داخل الحمام فاضطر لأن يطرق بشدة على الباب لكى يوقظها من النوم ثم ارتدت ملابسها ومرة أخرى كان يعرف الأماكن التى يريها لها ويعرف الأشياء التى تدخل السرور عليها.

وقالت هذه هى آخر ليلة لنا ، هذه ليلتنا الأخيرة أليس كذلك؟ وهو فى هذه المرة لم يلتزم بالتخفى وراء اسم ميشيل.

وقال نعم انها ليلتنا الأخيرة ياتشارلى وغدا سنقوم بزيارة وبعد ذلك تعودين الى لندن وراحت تتجول معه، وهى ممسكة بذراعه بكلتا يديها، فى الشوارع الضيقة وفى الميادين التى تتداخل مع بعضها البعض مثل قاعات الاستقبال ووقفا أمام المنزل الذى ولد فيه الموسيقار موزار وكان السياح يبدون لها وكأنهم جمهور المشاهدين فى حفلة ماتينيه مسرحية حيث كانوا غافلين ومنخرطين فى البهجة والانشراح.

لقد أديت المهمة على نحو جيد. أليس كذلك يايوسف؟

فقال : لقد كان أداؤك رائعا وممتازا ولكن على نحو ما كان يهمها ملاحظاته أكثر مما يهمها مديحة .

وكانت الكنائس أجمل من أى شىء كانت تتخيله بما فيها من منابر ذهبية وملائكة وقبور تضم موتى مازلوا على مايبدو يحلمون بالمتعة .

وراحت تفكر :

شخص يهودى يزعم أنه مسلم يرينى التراث المسيحى الخاص بى.. ولكنها عندما طلبت منه تزويدها بالمعلومات عن هذه الكنائس سارع إلى شراء كتيب سياحى جميل ووضع الايصال فى محفظته.

وقال موضحا «أخشى أن ميشيل لم يكن لديه بعض الوقت لكى يدخل فى عصر الباروك بطريقة جافة بعض الشىء» .

ثم تساءل هل نرجع الآن ؟

فهزت رأسها بالنفى وبدأ الظلام يتزايد وبدأت جماهير الناس تختفى

تدريجيا وجلسا عند النهر لبعض الوقت ثم شرعا فى السير مرة أخرى وفجأة أصيبت بالترنح والتخبط الشديد مما جعلها بحاجة لأن يلف ذراعه حول خصرها لكى تتمكن من الوقوف فى اعتدال.

ولدى مساعدتها على الدخول إلى المصعد الكهربائى أصدرت أوامرها: أريد طعاما وشمبانيا وموسيقى.

وبحلول الوقت الذى اتصل فيه تليفونيا بخدمة الأدوار استغرقت فى نوم عميق على السرير ولم يكن هناك شىء ما فى أرض الله ولا حتى يوسف بمقدوره أن يوقظها من نومها.

.. ..

كانت مستلقية مثلما استلقت على الرمال فى شاطىء ميكونوس اذ كان ذراعها الأيسر معقوفا وملتويا ووجهها مضغوطا على ذراعها ظل بيكار جالسا فى الكرسى يرقبها أثناء نومها وبدأت تباشير الفجر تتضح من خلال الستائر كان بمقدوره أن يشم الرائحة الطازجة لأوراق الأشجار والغابات ولقد شهد الليل عاصفة ممطرة فجائية للغاية حتى أنها كانت شبيهة بقطار سريع يجتاز الوادى فى صخب ومن خلال النافذة شاهد المدينة وهى تهتز تحت وطأة الهجوم الضارى البطىء الطويل الناجم عن البرق والرعد علاوة على الأمطار التى تتراقص فوق القباب اللامعة الاً أن تشارلى كانت استلقت فى سكون تام يخلو من أى حركة مما اضطره إلى الانحناء على جسدها ووضع أذنه عند فمها لكى يتأكد من أنها تتنفس بالفعل.

ألقى نظرة خاطفة على ساعته وكانت منضدة العشاء المليئة بالطعام الذى لم يتناوله أحد واقفة فى المشربية أو النافذة الناتئة كما يوجد جردل الثلج الذى يضم زجاجة شمبانيا مغلقة. وبدأ يجرف لحوم سمك جراد البحر من الغلاف الصدفى الخاص بها مستخدما الشوكة وراح يخلط أنواع السلطات مع بعضها البعض علاوة على اتلاف الفراولة. ثم أخذ زجاجة الشمبانيا إلى الحمام وأغلق الباب وراءه لكى لا يتسبب الصوت الذى ينجم عن فتح فلينة الزجاجة فى إيقاظ تشارلى ثم صب

الشمبانيا فى الحوض وفتح صنبور المياه عليها. ووضع لحوم السمك والفراولة والسلطة فى المرحاض وشد السيفون عليها مرتين لكى تختفى تماما. وترك قدرا ضئيلاً من الشمبانيا فى الزجاجة لكى يصب لنفسه كأسا وبالنسبة لكأس تشارلى فانه استخرج أحمر الشفايف من حقيبتها ورسم به آثاراعلى حافة الكأس قبل أن يضيف بعض البقايا من الزجاجة ثم أتجه إلى النافذة مرة أخرى حيث أمضى معظم فترات الليل وراح يحملق فى التلال الزرقاء التى تشربت مياه الامطار.

وقال لنفسه : اننى متسلق للجبال قد أصبحت اشعر بالسأم والملل من التسلق.

حلق ذقنه وارتدى رداءه الأحمر الفضفاض وذهب إلى السرير ومد يده لكى يوقظها ثم سحب يده مرة أخرى اذ هبط عليه أحجام شبيه بالتعب الشديد جلس فوق الكرسى مرة أخرى وأغلق عينيه ولكنه أرغم نفسه على فتحهما ثانية أحس بنفسه وهو يستيقظ فجأة فى اهتزاز مع الشعور بثقل الندى الصحراوى الذى إلتصق بملابس القتال الخاصة به علاوة على شم رائحة الرمال الرطبة قبل أن تسقط عليها أشعة الشمس وتجففها.

ومد يده مرة أخرى قائلا: تشارلى؟ لكى يلمس خدها لكنه لمس ذراعها بدلا من خدها ياتشارلى إنه لنصر عظيم يقول عنك مارتى أنك نجمة ساطعة وأنك مثلت مجموعة من الأدوار الجديدة تماما. لقد اتصل تليفونيا بجادى فى الليل ولكنك لم تستيقظى يقول أنك أفضل من جريتا جاربو إنه لايوجد هناك شىء ما لايمكن لنا انجازه سويا استيقظى ياتشارلى فنحن أمامنا عمل يتطلب الانجاز.

نطق باسمها بصوت مرتفع مرة أخرى وبعد اذن تركها ونزل السلالم وسدد فاتورة الحساب ووضع الايصال الأخير فى جيبه وخرج من الباب الخلفى للفندق لكى يأخذ السيارة المستأجرة B.M.W وكان الفجر منعشا مثلما كان الجو منعشا عند غروب الشمس.

وقال لها «عليك أن تلوحى لى بيديك وبعدئذ تقومين بالتريض والتنزه سيرا على الأقدام ولسوف يقوم دميترى باحضارك بمفردك إلى ميونيخ.

الفصـل الرابع عشر

ودخلت إلى المصعد الكهربائى دون أن تتكلم وكان المصعد مليئا برائحة المبيدات الحشرية وكانت قد دفعت الخشونة الموجودة فى داخل كيانها لأعلى لكى تظهر على السطح على النحو الذى تفعله عند الاختلاط مع جماهير الناس ولدى القيام بكافة أنواع الرحلات تشعر بالاثارة أن هناك أشياء على وشك أن تحدث ضغط ديمترى على الجرس ففتح كيرتز الباب بنفسه ووراءه يوسف الذى تدلى خلفه درع مصنوع من النحاس الأصفر وعليه صورة معدنية مطروقة للقديس كرستوفر وهو يدلل طفلا.

قال كيرتز فى رقة ياتشارلى هذا أمر عظيم حقا أنت إنسانة عظيمة ثم ضمها بشدة إلى صدره وأضاف ياتشارلى هذا أمر رائع وهائل ولا يمكن أن يصدقه العقل.

قالت تشارلى وهى تنظر إلى ما وراء يوسف نحو الباب المغلق «أين هو؟» ولم يكن ديمترى قد دخل فبعد أن قام بتسليم تشارلى دخل إلى المصعد وهبط به لأسفل مرة أخرى.

وظل كيرتز يتحدث كما لو كانوا موجودين فى كنيسة سويا وآثر أن يرد على سؤالها: ياتشارلى إنه على مايرام صحيح إنه مرهق بعض الشئ، بسبب الأسفار التى قام بها ولكنه على مايرام، النظارة السوداء يايوسف إعطها نظارة سوداء هل لديك نظارة سوداء ياعزيزتى؟ وهاهى كوفية للرأس لكى تخفى تحتها ذلك الشعر الجميل. احتفظى بهذه الكوفية .

لقد كانت كوفية مصنوعة من الحرير الأخضر اللون وهى كوفية جميلة بعض الشيء وكان كيرتز قد جهزها ووضعها فى جيبه وراح الرجلان يرقبانها بينما هى تشـكل الكوفية لتكون غطاء للرأس شبيها بالغطاء الخـاص بالممرضات.

قال كيرتز موضحا: مجرد نوع من الحذر والتدابير الوقائية ففى هذه المهمة لايمكن لنا أن نكون حريصين للغاية أهذا كلام سليم يايوسف؟

كانت تشارلى قد استخرجت من حقيبة اليد الخاصة بها علبة المساحيق الجديدة وراحت تضع المكياج لنفسها وقال كيرتز : محذرا ياتشارلى هذا يمكن أن يكون مثيرا للعاطفة بعض الشىء.

ووضعت تشارلى علبة المساحيق على جانب ثم استخرجت أحمر شفاة فقال كيرتز موجها لها النصائح «اذ أصبت بالغثيان الذى يشبه دوار البحر عليك أن تتذكرى أنه قد قتل عددا كبيرا من الناس الأبرياء فلكل شخص وجه آدمى وهذا الولد ليس استثناء فى هذا الشئ فهو وسيم وجميل الطلعة ويتمتع بقدر كبير من الموهبة والذكاء والقدرات غير المستخدمة الاَّ انه بدد كل هذه القدرات وليس من الطريف مشاهدة ذلك على الأطلاق وما أن نصل إلى هناك فاننى لاأريد منك ان تتكلمى وتذكرى جيدا . عليك أن تتركى الكلام لى ثم فتح الباب لهم وأضاف قائلا ولسوف تجدينه مطيعا وسهل الانقياد فقد حرصنا على ترويضه وجعله مطيعا أثناء شحننا له وعلينا أن نجعله كذلك أثناء وجوده معنا هنا ومن حيث النواحى الأخرى فهو فى حالة طيبة ولاتوجد مشكلات كل ماهنالك أنه يجب عليك عدم التكلم معه . لاحظت تشارلى بسطة السلم المتسمة بالذوق الحسن وصالة العرض المبسطة والدرابزين الحديدى المصنع يدويا وشاهدت مستوقدا من الطراز الانجليزى ورأت مصابيح فوق حوامل للكاميرات ثلاثية القوائم كما كان يوجد جهاز تسجيل يعمل بالشرائط علاوة على اريكة استوديو من طراز ماربيلا جلست تشارلى على الاريكة ثم جلس يوسف إلى جوارها فقالت تشارلى لنفسها فى تفكير :

ينبغى علينا أن نتماسك بالايدى . كان كيرتز قد التقط سماعة تليفون رمادى اللون وراح يضغط على زرار التليفون الامتدادى الموصل بالخط الأصلى ثم قال كلاما باللغة العبرية ووضع سماعة التليفون وابتسم لتشارلى التى شمت رائحة أجساد بشرية مذكَّرة ورائحة غبار وقهوة وسجق محشو بالكبدة علاوة على رائحة

ملايين من أعقاب السجاير كما تعرفت على رائحة أخرى، الا أنها لم تستطع معرفة كنهها لأنه كانت هناك احتمالات عديدة فى داخل ذهنها إبتداء من رائحة الفرش الصغير الخاص بها إلى رائحة عرق أول عشاقها.

وغير ذهنها من سرعته، كادت تغفو مستغرقة فى النوم وقالت لنفسها: إننى مريضة وانتظر نتائج التحاليل والاختبارات يادكتور أفصح لى عن تشخيص حالتى بكل صراحة ولاحظت وجود كومة من مجلات غرفة الانتظار وتمنت لو استطاعت أن تحصل على احداها وتضعها فى حجرها وفتح باب الشرفة وظهر شاب ملتح وله مشية منكفئة مثل عامل فى المسرح ، وكان يوحى بأن شيئا ما سيظهر وراءه.

وللحظات لم يظهر شيئا.. وبعدئذ ظهرت حزمة قرمزية منخفضة ثم ظهر شاب حليق الذقن.

أخيرا أدركت جوانب الموقف لقد ظهر ثلاثة من الشباب وليس شابان فقط إلا أن الشاب الموجود فى الوسط كان يترنح فى ضعف بينهما مرتديا رداءه الأحمر اللون الفضفاض الفتى العربى النحيل .. حبيبها.. الفتى الدمية المصاب بالانهيار والذى سقط من مسرح الحياة الواقعية.

.. ..

راحت تشارلى تفكر : التشابه ليس رديئا على الاطلاق اذا وضعنا فى الاعتبار السنوات القليلة التى هى الفارق فى السن واذا وضعنا فى الاعتبار النضج الخاص بيوسف الذى يتعذر تحديده. وهى فى بعض الاحيان استخدمت فى خيالاتها ملامح وجه يوسف مع جعله يحل محل حبيب أحلامها وفى مرات أخرى تكون هيكل مختلف مرتكز على ذاكرتها غير السليمة عن الشخص الفلسطينى المرتدى للقناع والذى ظهر فى المؤتمر الجماهيرى الشعبى شعرت بالتأثر لأنه صار الآن قريبا من الحقيقة الواقعة وساءلت نفسها: ألا تعتقدين أن الفم يعتبر طويلا بعض الشىء الا يبالغ هو فى الأمور الحسية بعض الشىء؟ هل فتحتا الأنف متسعتان قليلا نحو الخارج ؟ ألا يوجد الكثير من العض عند الخصر؟ وخطر على

ذهنها أن تنهض على الفور وأن تعسى توفير الحماية له الا أن المرء لايستطيع أن يفعل ذلك على المسرح اللهم الا اذا كان ذلك واردا فى النص المكتوب وعلاوة على ذلك فانها تدرك أنه من المتعذر عليها أن تتحرر من يوسف.

على كل حال فانها على مدى ثانية فقدت السيطرة على نفسها وفى خلال تلك اللحظة كانت بمثابة كل شىء قاله يوسف عنها.. فهى المنقذة لميشيل والمحررة له وهى القديسة جان دارك الخاصة به وعابدة جسده ونجمته الخاصة لقد أدت دورها على المسرح فى اتقان شديد من أجله وتناولت معه طعام العشاء فى فندق حقير مضاء بالشموع شاركته سريره واضطجعا فوقه وانضمت إلى ثورته الخاصة وارتدت سواره واحتست فودكاه ومزقت جسده اربا اربا وجعلته يمزق بدوره جسدها اربا اربا ، قادت سيادته المرسيدس نيابة عنه ثم قبلت بندقيته ونقلت مادة الـ TNT الروسية الجيدة الخاصة به إلى جيوش الحرية الواقعة فى الأسر احتفلت بالانتصار معه فى فندق يطل على شاطىء النهر فى سالزبورج رقصت معه عند الاكروبوليس ليلا وأحست بعقدة الذنب الشديدة عندما كانت تفكر فى الدخول فى مغامرة أخرى عاطفية.

كان جميلا ووسيما للغاية ـ وعلى النحو الذى سبق أن قاله يوسف من قبل بل وكان أكثر جمالا من الاوصاف التى قالها يوسف كان يتمتع بجاذبية مطلقة حتى أن تشارلى وأمثالها من الفتيات تعترف فى حتمية حزينة :أنه ينتمى لتلك الملكية ويدرك تلك الحقيقة كان نحيلا لاتشوبه شائبة وله كتفان يتشكلان على نحو رائع وله ردفان نحيلان للغاية. له جبين مثل جبين الملاكم وجه طفل برىء وشعر أسود فاحم لاشىء مما فعلوه من أجل ترويضه قد استطاع ان يخفى عنها العاطفة الغنية التى تتسم بها طبيعته أو أن يطفىء ضوء التمرد والثورة الموجود فى عينيه السوداوين مثل سواد الفحم.

كان شخصا عاديا للغاية ـ ولد فلاحا صغيرا كأنه سقط من فوق شجرة زيتون ومعه ذخيرة من العبارات التى درسها وحفظها وله عين غراب تشتاق للعب

الجميلة والفتيات والسيدات الجميلات والسيارات الجميلة وهو فلاح يموج بالسخط والاستياء ازاء أولئك الذين طردوه من مزرعته . تعال إلى سريرى أيها الفتى الصغير ودع أمك تعلمك بعض الكلمات الطويلة الخاصة بالحياة.

كانوا يساندونه ويمسكون به من تحت إبطه وبينما كان يسير على السلالم ظل حذاؤه يخطىء المواقع مما سبب له الكثير من الخجل والحرج حيث هبطت ابتسامة خفيفة على وجهه وهو ينظر فى خجل إلى قدميه الواقعتين فى الأخطاء.

أوقفوه فى اتجاهها ولم تكن واثقة من أنه يمكنها أن تتحمل ذلك. استدارت نحو يوسف لكى تخبره بذلك فشاهدت عينيه تنظران مباشرة إليها سمعته يقول كلاما ما ولكن فى نفس اللحظة فان جهاز التسجيل الضخم بدأ فى التكلم بصوت مرتفع للغاية ولدى الدوران حول نفسها شاهدت مارتى مرتديا سترة من صوف محبوك منحنيا فوق الأرضية فى محاولة لإدارة المقابض وتخفيض حدة الصوت.

وكان الصوت الآدمى المسجل رخيما وهادئا ومطابقا للصوت الذى سبق أن استمعت إليه فى المؤتمر الجماهيرى الشعبى وكانت الكلمات فى صيغة شعارات من التحدى التى تقرأ فى حماس.

نحن الرازحون تحت الاستعمار نعبر عن آراء ومشاعر المواطن الذى يواجه سكان المستعمرات نتحدث نيابة عن الأخرس والابكم ونحن نطعم ونغذى الأفواه الكفيفة ونشجع الآذان الخرساء البكماء نحن الحيوانات ذوات الحوافر الصابرة والتى نفد صبرها فى نهاية الأمر!.. نعيش تحت ظل القانون الذى يولد فى كل يوم تحت وابل من النيران !.. إن العالم كله باستثنائنا لديه شىء مايفقده !.. ولسوف نحارب أى شخص يجعل من نفسه مشرفا على شئون أرضنا نيابة عنا !

وكان الفتيان قد ساعدوه لكى يجلس على الأريكة بحيث يكون فى مواجهة تشارلى بدا توازنه غير سليم على الاطلاق وكان منحنيا بشدة للأمام مستخدما ساعديه لكى يكونا بمثابة دعامتين له وكانت يـــداه فى حالة اســـتلقاء فوق بعضها

البعض كما لو كانا مكبلين بالاغلال ووقف الفتى الملتحى عابسا ومتجهما خلفه بينما زميله الحليق الذقن جالسا فى خشوع الى جواره وبينما كان صوت المسجل مستمراً فى الانطلاق فانها شاهدت شفتى ميشيل يتحركان فى بطء حيث يحاول أن يتطابق مع الكلمات المسجلة الا أن الصوت المسجل كان أسرع بكثير من صاحبه وكان أقوى من صوت صاحبه . وتدريجيا كف عن محاولة اللحاق بكلماته المسجلة ثم ظهرت على وجهه ابتسامة اعتذار واهنة سخيفة مما جعلها تتذكر والدها عقب الضربة التى تلقاها .

«إن أعمال العنف لاتعتبر أعمالا اجرامية عندما تمارس فى مواجهة البطش والظلم والاكراه الذى تستخدمه الدولة ..» وظهر حفيف الأوراق عندما قلب صفحة جديدة ثم صار صوته متمسا بالحيرة «اننى أحبك .. أنت حريتى .. وانت الان واحدة منا.. فأجسادنا ودماؤنا صارت مختلطة وجسدى ودمى قد أصبح مختلطا بجسدك ودمائك ياجنديتى الخاصة بى.. لماذا أقول هذا الكلام؟ لأننا نحن سويا سوف نشعل الفتيل باستخدام عود كبريت» ران صمت ملىء بالحيرة «لو سمحت ياوالدى ماهذا لو سمحت اننى أسالك ».

قام كيرتز باغلاق جهاز التسجيل وأصدر أوامره قائلا : أريها يديه.

فسارع الفتى حليق الذقن بالتقاط إحدى يدى ميشيل ونشرها وعرضها عليها وكأنه يعرض عينة تجارية.

وقال كيرتز موضحا فى خلال فترة وجوده فى المخيمات كانت يداه جافتين نتيجة لممارسته العمل اليدوى أما الآن فهو أصبح من كبار المثقفين وأصبحت لديه أموال كثيرة وفتيات كثيرات وطعام جيد وأوقات سلسلة سعيدة أليس كذلك أيها الزميل؟» ثم اقترب كيرتز من الأريكة من الجهة الخلفية ووضع يده السميكة على رأس ميشيل وأدار رأسه لكى يواجهه وقال : «أنت مثقف عظيم أليس كذلك ؟» لم يكن صوته متسما بالقسوة أو التشفى أو الاغاظة اذ كان يبدو عليه وكأنه يتحدث الى ابنه العاق المخطىء بل وظهر على وجه كيرتز نوع من الاعجاب المشوب بالحزن

وأضاف قائلا: « انت تدفع الفتيات لكى ينجزن الأعمال نيابة عنك أليس كذلك أيها الزميل الصغير؟»

تعرفت على نوع الرائحة التى لم تكن قادرة على تحديد نوعيتها انها رائحة لوسيون بعد الحلاقة الذى يضعه يوسف فى كل حمام لم يشاركها فيه ابدا وربما يكونوا قد نثروا عليه قدرا من هذا اللوسيون من أجل هذه المناسبة.

تساءل كيرتز ألا تريد التحدث مع هذه السيدة ؟ ألا تريد أن ترحب بها فى هذه الفيللا الخاصة بنا هنا ؟ لقد بدأت أسائل نفسى فى تعجب عن السبب الذى جعلك تكف عن التعاون معنا ! وتدريجيا وتحت اصراره والحاحه استيقظت عينا ميشيل وانتصب جسده فى تماسك بعض الشىء فى طاعة واذعان «أتريد أن تلقى التحية على هذه السيدة الجميلة فى أدب؟ أترغب فى أن تتمنى لها يوما سعيدا؟ أتريد أن تقول لها طاب يومك أيها الزميل الصغير؟

وبالطبع فعل ذلك اذ قال ميشيل «يوم سعيد» فى صوت فاتر وبطىء ومختلف بعض الشىء عن صوته الوارد فى التسجيلات .

وقال يوسف محذرا تشارلى لا تردى عليه وكان يوسف موجودا بجوار تشارلى.

قال كيرتز فى إصرار بدون أى قدر من الضغينة أو الحقد : «طاب يومك يا سيدتى »

فقال ميشيل طاب يومك يا سيدتى

ثم أصدر كيرتز أوامره قائلا: دعوه يكتب شيئا ما . وبعدئذ دعوه يذهب.

فأجلسوه إلى منضدة ووضعوا أمامه قلما وورقة ثم قال كيرتز انظروا كيف يمسك بالقلم وانظروا إلى الطريقة التى تتشكل بها أصابعه على نحو طبيعى من أجل أن يكتب باللغة العربية.

وكانت تشارلى تتحدث فى داخل ذهنها موجهة كلامها ليوسف: «أخرجنى من هنا » أظن أننى على وشك أن ألفظ أنفاسى الأخيرة وأموت ثم سمعت وقع اقدام

ميشيل لدى اصطحابه ليصعد على السلالم وبعدئذ تلاشى وقع اقدامه تدريجيا ولكن كيرتز لم يسمح لها بالحصول على فترة من الاستراحة مثلما لم يسمح لنفسه بالحصول على الراحة : ياتشارلى لدينا مرحلة واحدة أخرى من هذا الشيء وأعتقد أنه ينبغى علينا أن نجتازها الآن ولو كلفنا بعض الجهود هنالك أمور ينبغى انجازها».

كانت قاعة الاستقبال هادئة للغاية امسكت بذراع يوسف وصعدت على السلالم وراء كيرتز ووجدت أنه من المريح لها أن تعرج فى مشيتها وهى تصعد السلالم مثل ميشيل ولم تعرف السبب.

.. ..

وكان الدرابزين الخشبى مازال لزجا بسبب العرق الموجود عليه.. وكانت السلالم عليها شرائط من مادة تشبه ورق الصنفرة ولكنها عندما وطأت بقدميها على السلالم فإن لم ينجم عن هذا ذلك الصوت الخشن المثير للأعصاب والذى كانت تتوقع سماعه . لقد حرصت على التقاط هذه التفاصيل فى شيء من الدقة لأنه توجد هناك أوقات يمكن فيها للتفاصيل أن تقدم الرابطة الوحيدة مع الحقيقة الواقعية وكان باب دورة المياه مفتوحا لكنها عندما ألقت نظرة أخرى أدركت أنه لايوجد هناك باب حيث لايوجد سوى مدخل يؤدى الى دورة المياه بل لاتوجد سلسلة متدلية من الخزان ثم أدركت أنها قد دخلت إلى غرفة مبطنة يوجد بها سرير مفرد واحد موجود عند الحائط البعيد وفوق ذلك السرير يوجد ميشيل مرة أخرى فى هذه المرة كان عاريا تماما باستثناء ارتدائه للميدالية الذهبية الكبيرة الخاصة به بدت يداه متماسكتين فوق أعضائه التناسلية وكانت هناك تجاعيد خفيفة عند طيات بطنه وكانت عضلات كتفيه ممتلئة ومستديرة كما كانت عضلات صدره منبسطة وعريضة وكانت الظلال تحتها متموجة فى تجعد مثل خطوط مرسومة بالحبر الهندى. ووفقا للأوامر التى صدرت عن كيرتز قام الشابان بمساعدته على النهوض لكى يقف على قدميه ثم جذبا يديه وظهر الختان فى عضوه التناسلى وفى صمت وعبوس أثار

الولد الملتحى الى الوجمة البيضاء التى تشبه بقعة من اللبن على جنبه الايسر كما أشار الى الندبة الغائرة على كتفه الأيمن والناجمة عن الضرب بالسكين ثم أشار الى نهر الشعر الأسود الجميل المحبب للنفس الذى يتجه لأسفل من عند السره وفى صمت جعلوه يلف ويدور عندئذ تذكرت لوسى وتذكرت ذلك النوع من الظهر المفضل لديها العمود الفقرى المنحسر بين العضلات ولكن لاتوجد فى ظهر ميشيل ثقوب ناجمة عن الاصابة بطلقات الرصاص ولاشى على الاطلاق من شأنه أن يفسد جماله ووسامته متكاملة.

وأوقفوه على قدمين مرة أخرى.. ولكن يوسف رأى آنئذ أن تشارلى قد شاهدت بما فيه الكفاية شيئا جيدا لأنه قد بدأ يقودها بسرعة للهبوط على السلالم وهو يضع ذراعا حول خصرها بينما الذراع الأخرى ممسكة بمعصمها بقوة شديدة حتى أنها شعرت بالالم يسرى فى يدها . وفى المرحاض البعيد عن الصالة توقفت تشارلى لفترة طويلة من أجل أن تتقيأ إلا أن كل ماكانت تريده بعد ذلك هو أن تخرج من ذلك المكان وتخرج من تلك الشقة وتخرج مبتعدة عن أنظارهم وتخرج مبتعدة عن ذهنها وعن جسدها .

كانت انطلقت تجرى وتعدو إنه يوم من أيام الرياضة البدنية تجرى بأقصى سرعة ممكنة الأسنان المتماسكة لخط السماء المحدق بها تتذبذب وتتأرجح متخطية إياها من عند الاتجاه الآخر وكانت الحدائق المرتفعة متصلة مع بعضها البعض بممرات جميلة من الطوب اللبن راحت تجرى لكى تصل الى أبعد مسافة ممكنة صاعدة على سلالم وهابطة على سلالم أخرى مع النظر فى شغف إلى التنوع البستانى وتنوع الخضرة التى تصادفها أثناء جريها كما استمتعت بمشاهدة نباتات إبرة الراعى وشجيرات مزهرة وأعقاب للسجاير ومساحات من الأرض الخالية التى تشبه القبور الخالية من الشواهد ، وكان يوسف يجرى إلى جوارها إنها تصرخ فى وجهه لكى ينصرف بعيدا عنها هناك رجل وزوجته طاعنان فى السن يجلسان على أريكة طويلة بالحديقة فابتسما فى حنين للماضى عندما وقع

بصرها على هذا المشهد من شجار العشاق وجرت تشارلى على طول مسافة رصيفين على ذلك النحو إلى أن وصلت الى سور والى مساحة مخصصة لوقوف السيارات الا انها لم تنتحر حيث انها ليست من ذلك النوع من الناس الذى يلجأ للانتحار ولأنها تريد أن تعيش مع يوسف ولاترغب فى أن تموت مع ميشيل توقفت عن الجرى بدون أن تنقطع أنفاسها وبدون أن تلهث الا بقدر ضئيل لقد أفادها الجرى وشعرت بتحسن حالتها النفسية وطلبت من يوسف ان يناولها سيجارة ولكنه لم يكن لديه سجائر ثم جذبها لكى تجلس على مقعد خشبى طويل فجلست ثم وقفت مرة أخرى لكى تفرض عليه الاعتراف بحقوقها وشخصياتها كانت قد علمت ان المشاهد العاطفية لاتؤدى على نحو فعال بين العشاق الذين ينخرطون فى المشى ولذلك حرصت على أن تقف فى صمت وسكون .

قال يوسف لها فى تحذير : انصحك بأن ينصب عطفك وتعاطفك على الأبرياء فقط

فقالت : كان بريئا الى أن اخترعته وابتكرته !

وبطريق الخطأ فسرت صمته على أنه تشوش أو فوضى فى داخل ذهنه ثم فسرت هذه الفوضى على أنها بمثابة ضعف وتخاذل ولذلك لاذت بالصمت وفضلت أن تنخرط فى التأمل فى خط السماء الهائل الرهيب ثم قالت فى انتقاد ملىء بالقسوة : اقتباس انه لأمر ضرورى أننى لم أكن لأوجد هنا إذا لم تكن هناك ضرورة أو حاجة لذلك. اقتباس آخر لا يمكن لأى محكمة عادلة على وجه الكرة الارضية ان تديننا على مانطلبه منك أن تفعله . هذه هى كلماتك على ماأعتقد أتريد أن تتراجع وتسحب هذا الكلام؟

ـ لا . لا أظن ذلك.

ـ لا أظن ذلك . حسنا . من الأفضل أن تكون متأكدا تماما لأنه لو كانت هناك أية شكوك حولنا هنا فأننى أفضل أن تكون شكوكا خاصة بى وأثناء استمرارها فى الوقوف تحول انتباهها إلى نقطة تقع أمامها مباشرة.. فى مكان ما

فى جسد المبنى المقابل الذى راحت تدرسه الآن باهتمام شديد وكأنها تفكر فى شرائه. إلا أن يوسف ظل جالسا على المقعد الخشبى مما جعل المشهد يبدو خاطئا على نحو ما. إذ كان ينبغى أن يكونا مواجهين لبعضهما البعض وجها لوجه فى لقطة سينمائية مأخوذة عن قرب. أو أن يكون واقفا وراءها ومتجها ببصره إلى نفس علامة الطباشير البعيدة.

تساءلت: ألديك مانع من أن نضيف بعض الأمور القليلة؟

ـ لا مانع. تفضلى.

ـ لقد قتل يهوداً.

ـ قتل يهودا كما قتل متفرجين أبرياء لم يكونوا من اليهود ولم يكن لهم أى علاقة بالصراع.

ـ أود أن أؤلف كتابا بالفعل عن ذنب جميع أولئك المتفرجين الأبرياء الذين أشرت إليهم. ولسوف أشير فى بداية هذا الكتاب الى قصفكم اللبنانيين بالقنابل وأنطلق فى الكتابة من هذه الزاوية.

وسواء أكان جالسا أم لا فإنه قال بسرعة تفوق توقعاتها: «إن هذا الكتاب قد تم تأليفه بالفعل ياتشارلى. وعنوانه «الهلوكست».

وضمت تشارلى اصبع الأبهام وأصبع السبابة لبعضهما البعض مما أوجد ثقبا صغيرا للتجسس ثم راحت تحدق من خلال هذا الثقب نحو شرفة بعيدة. وقالت:

ـ ومن ناحية أخرى فأنا أقول لك أنك شخصيا قتلت أشخاصا من العرب.

ـ بالطبع.

ـ قتلت كثيرين من العرب؟.

ـ قتلت أعدادا كثيرة.. بما فيه الكفاية ولكن فقط من أجل الدفاع عن النفس فالإسرائيليون لا يقتلون أبدا الا من أجل الدفاع عن النفس. فلم يرد على كلامها.

أكملت: «حسنا. هذه نقطة بداية أخرى للكتاب الذى ساكتبه. إذ يمكن أن يبدأ الكتاب بهذه العبارة: الإسرائيلى الذى قتل عددا كافيا من العرب».

كانت جونلتها المصنوعة من قماش الطرطان الصوفى المقلم مأخوذة من جهاز العروس الخاص بميشيل وكان لهذه الجونلة جيوب على كلا الجانبين. هو أمر لم تكتشفه إلا أخيرا. فدفعت يديها فى الجيبين وجعلت الجونلة تتمايل وتظاهرت بأنها تدرس التأثير الناجم عن ذلك.

قالت متسائلة فى عدم اكتراث: «أنتم أولاد حرام، أليس كذلك؟» أنتم بكل تاكيد أولاد حرام أيمكن لك أن تقول ذلك؟وكانت لا تزال تنظر إلى جونلتها وقد شغفت بالفعل بالطريقة التى تمتلئ بها الجونلة وتدور. واستطردت: «وأنت تعتبر أسوأ شخص ابن حرام بينهم جميعا. أليس كذلك؟ لأنك تختار أحد أمرين، ثانيهما تأمينا لمصلحتك أو تأييدا لحجتك. فأنت تبدو فى بعض الأحيان بمثابة قلبنا الدامى وأحيانا أخرى تبدو بمثابة المقاتل الشرس الخاص بنا. بينما أنت فى حقيقة الأمر شخص يهودى متعطش للدماء والاستيلاء بدون وجه حق على المزيد من أراضى العرب».

فهب واقفا وضربها على وجهها مرتين وذلك بعد أن انتزع عنها نظارة الشمس الخاصة بها. وكان هذا الضرب هو أقوى وأسرع لطمتين تهبطان على وجهها على مدى حياتها حيث هبطتا على نفس الصدغ من الوجه وكانت اللطمة الأولى ثقيلة للغاية حتى أنها قالت لنفسها وهى تتذكر منزل أثينا أن ذلك يعتبر بمثابة تصفية للحساب أو أخذ بالثأر. وكانت اللطمة الثانية بمثابة تفجر جديد فى نفس فوهة البركان. وعندما انتهى من اللطمتين جذبها لأسفل لكى تجلس على المقعد الخشبى فجلست وانخرطت فى بكاء مرير. وساءلت نفسها فى تعجب: «هل ضربنى إكراما له أو إكراما لى». وتمنت فى يأس أن يكون ذلك إكراما له كما تمنت أن تخترق سره عقب مرور اثنتى عشرة ساعة على زواجهما المجنون. ولكنها عندما ألقت نظرة واحدة على وجهه المغلق وعلى حملقته المشتتة المتناثرة جعلتها تدرك أنها

ـ وليست يوسف ـ هى التى تحلت بالصمود والصبر. راح يمد منديله نحوها ولكنها دفعت بمنديله بعيدا عنها.

تمتمت قائلة : انس ما حدث.

امسكت ذراعه. ثم سارا سويا فى بطء عائدين على المشى الخرسانى. فابتسم لهما نفس الرجل العجوز وزوجته لدى مرورهما بجوارهما. وقال الرجل العجوز وزوجته لبعضهما البعض: إنهما طفلان مثلما كنا طفلين فى يوم ما. التشاجر فى عنف مثل السفاحين القتلة للحظات ولكن فى اللحظة التالية يذهبان إلى السرير للممارسة على نحو أفضل من ذى قبل.

.. ..

كانت الشقة السفلية تشبه كثيرا الشقة العلوية باستثناء أنها لا يوجد بها شرفة ولا يوجد بها سجين. وهى فى بعض الأحيان بينما تقرأ أو تصغى فانها تحاول أن تقنع نفسها أنها ليست فى الدور العلوى على الإطلاق ـ اذ كان الدور العلوى بمثابة غرفة من الرعب فى العليات الداكنة لذهنها. وبعدئذ بدأت تسمع أصوات حزم الأمتعة من خلال السقف وذلك أثناء قيام الفتيان بحزم معداتهم الفوتوغرافية. وكان عليها أن تعترف بأن الدور العلوى كان حقيقيا وواقعيا شأنه فى ذلك شأن الدور الأرضى: بل وأكثر واقعية نظرا لأن الخطابات كانت مزيفة فى حين أن ميشيل كان لحما ودماً .

وجلس ثلاثتهم فى حلقة أو دائرة وابتدأ كيرتز باحدى المقدمات التمهيدية الافتتاحية الخاصة به الا أن أسلوبه كان أكثر وضوحا وأقل التواء عما هو معتاد، ربما لأنها أصبحت الآن جندية مثبتة وصارت جندية قديمة محنكة. وكانت الخطابات فى داخل حقيبة موجودة فوق المنضدة. وقبل أن يفتح الحقيبة فانه ذكرها مرة أخرى «بالرواية» وهى كلمة متداولة بينه وبين يوسف. فالرواية لم تكن فقط بمثابة حبيبة عاطفية وإنما أيضا بمثابة مراسلة عاطفية كانت محرومة خلال غياب ميشيل الطويلة من كافة المتنفسات والمخارج الأخرى. وبعد أن أوضح ذلك قام بارتداء قفاز

قطنى ولذلك فان الخطابات لم تكن بمثابة مجرد مشهد ثانوى جانبى فى العلاقة وإنما كانت «المكان الوحيد الذى يمكن لك العيش فيه يا عزيزتى» إن الخطابات تسجل حبها الاستحواذى المتزايد لميشيل ـ وغالبا فى صراحة ملطفة واسترضائية ـ ولكنها تعبر أيضا عن يقظتها السياسية وعن تحولها إلى «استخدام القوة لتحقيق الأغراض السياسية» الذى يسلم بوجود «الرابطة» التى تربط ما بين جميع أنواع الكفاح المناهض للقمع فى أى مكان فى جميع أنحاء العالم. وهذه الخطابات اذا ضمت إلى بعضها البعض تتألف منها المذكرات اليومية «لانسانة مثارة عاطفيا وجنسيا» لدى تقدمها من مرحلة الاحتجاجات إلى مرحلة العمل النشيط الذى يتقبل استخدام العنف بكل صراحة.

وأضاف وهو يفتح قفل الحقيبة «ونظرا لأنه لا يمكن لنا الاعتماد عليك من حيث قيامك بتزويدنا بالتنويع الكامل لأسلوبك الأدبى فاننا قررنا أن نؤلف الخطابات نيابة عنك.

وراحت تفكر وقالت لنفسها: بالطبع. ثم ألقت نظرة خاطفة على يوسف الذى جلس معتدلا وبريئا على نحو رائع وغير مألوف بينما ضغطت يديه على بعضهما البعض بين ركبتيه مثل رجل لم يسبق له أن ضرب أى شخص فى حياته على الإطلاق.

كانت الخطابات ملفوفة فى عبوتين محزومتين لهما لون بنى. وإحدى العبوتين أكبر بكثير من العبوة الأخرى. واختار كيرتز العبوة الصغيرة وراح يفضها بأطارف أصابعه المتوارية تحت القفاز. ثم نشر الخطابات لكى تكون منبسطة. وتعرفت تشارلى على خط ميشيل فى الكتابة وهو خط بالحبر الأسود وشبيه بخط أولاد المدارس. ثم قام كيرتز بفتح العبوة الثانية. وعلى نحو يشبه الحلم الذى يتحقق تعرفت على خط يدها فى الكتابة. وكان كيرتز يقول: إن الخطابات المرسلة من ميشيل اليك هى نسخ فوتوستاتية.. فنحن لدينا النسخ الأصلية فى انتظارك فى انجلترا. أما الخطابات الخاصة بك فهى النسخ الأصلية وهى خطابات تخص ميشيل. أليس كذلك يا عزيزتى؟

فقالت بصوت مرتفع فى هذه المرة: «هذا أمر طبيعى. ثم ألقت نظرة خاطفة فى اتجاه يوسف ولكن نظرتها انصبت فى هذه المرة على يديه المغلقتين المصممتين على انكار التآليف.

وقامت بقراءة خطابات ميشيل أولا لأنها كانت تشعر أنها تكن له المجاملة والاهتمام. وكانت مجموعة خطابات ميشيل تضم اثنى عشر خطابا وكانت تتراوح ما بين خطابات حسية عاطفية إلى خطابات مختصرة وفاشستية. «أرجو أن تتكرمى بترقيم خطاباتك وتحرصى على هذا الترقيم. واذا لم تلتزمى بالترقيم فلا داعى لأن تكتبى لى خطابات. فأنا لا أستطيع الاستمتاع بخطاباتك إذا كنت غير متأكد تماما من أننى استلمتهم جميعا: فهذا يتعلق بالأمن الشخصى الخاص بى». وبين عبارات الامتداح الصوفى الوجدانى المنصب على أدائها فى التمثيل كانت تظهر نصائح جافة تحثها على ضرورة الالتزام فقط بتمثيل الأدوار «ذات الأهمية الاجتماعية والتى يمكن أن توقظ الوعى». وهى فى نفس الوقت ينبغى عليها أن تتجنب القيام بالأدوار الجماهيرية التى تكشف عن اتجاهاتها السياسية الحقيقية. اذ ينبغى عليها عدم الذهاب إلى اجتماعات جماهيرية راديكالية أخرى ويجب عليها عدم الاشتراك مرة أخرى فى اضرابات أو مؤتمرات جماهيرية. كما ينبغى عليها أن تدخل نفسها فى نطاق «السلوك البرجوازى» بحيث تبدو وكأنها تتقبل المستويات الرأسمالية. وعليها أن تجعل الناس يعتقدون أنها «قد تخلت تماما عن التمرد والثورة» بينما هى فى حقيقة الأمر وعلى نحو سرى «تستمر بكل الوسائل الممكنة فى القراءات الراديكالية». وكان هناك الكثير من التشويش فى النواحى المنطقية علاوة على وجود أخطاء فى التركيبات اللغوية بالاضافة إلى العديد من الأخطاء الهجائية. وكان هناك كلام عن «اتحادنا الجديد المرتقب فى القريب العاجل» بما يعنى اللقاء من جديد فى أثينا . كما كانت هناك اشارتان خجولتان إلى العنب الأبيض والفودكا «والحصول على قدر كاف من النوم قبل أن نلتقى سويا مرة أخرى».

ولدى استمرارها فى قراءة الخطابات بدأت تكوّن فى ذهنها صورة جديدة عن ميشيل تتسم بأنها أكثر تواضعا أو صورة قد اتخذت فجأة تشابها كبيرا مع

السجين الموجود فى الدور العلوى. وقالت فى تمتمة: «إنه طفل صغير» ثم نظرت إلى يوسف فى نوع من الاتهام وقالت له: «لقد نفخت فى صورته أكثر من اللازم. فهو فتى صغير».

وعندما لم يرد عليها تحولت إلى الخطابات الخاصة بها والتى أرسلتها إلى ميشيل حيث التقطتها فى نشاط كما لو أنها تحل لغزا كبيرا. وقالت بصوت مرتفع «كتب مدرسية». وابتسمت ابتسامة بلهاء لدى إلقائها أول نظرة عليها فى توتر وكان ذلك بسبب ـ وبفضل إدارة الأرشيف لدى نيد كويللى ـ قام الرجل الجورجيانى العجوز باستخراج نسخة طبق الأصل من الأدوات الكتابية من ورق وأقلام والتى تخص تشارلى ـ ظهور قوائم الطعام والفواتير وورق الرسائل المعنون الخاص بالفنادق والمسارح وبيوت الطلبة والطالبات على طول طريقهما بل وقام أيضا بالتقاط التغييرات التلقائية التى ظهرت فى طريقة كتابتها اليدوية إبتداء من الشخبطة الطفولية المتسمة بالأحزان المبكرة إلى خطها وهى امرأة مفعمة بالحب وغارقة فى العاطفة. وابتداء من شخبطة خط يد الممثلة الغارقة فى الارهاق الراغبة فى الحصول على قدر من الراحة إلى خط يد الانسانة الثورية التى يهمها أن تكتب رسالة مطولة بها عبارات مقتبسة من تروتسكى ولكنها مع ذلك تقع فى أخطاء إملائية.

شعرت تشارلى بالخجل والارتباك عندما أدركت كيف أنهم قد قلدوا تماما مغالاتها الرهيبة وقلدوا وقوعها فى التفلسف المتسم بالارتباك وعدم الاكتمال وقلدوا غضبها العنيف من حكومة حزب المحافظين المتولية للسلطة. وهى على النقيض من ميشيل من حيث أن كلامها عن ممارستها للجنس كان نابضا بالحياة ومتسما بالصراحة الشديدة. وكان كلامها عن والديها مليئا بالاساءات وعن فترة طفولتها مليئا بالحنق والغيظ والغضب. وتقابلت مع تشارلى الكاتبة الرومانسية، ومع تشارلى الشاعرة بالندم الراغبة فى التوبة، ومع تشارلى المومس وتقابلت مع ما يسميه يوسف الطابع العربى الموجود فى داخل كيانها... مع تشارلى التى كانت تعشق فن الخطابة الخاص بها والتى كانت تستوحى أفكارها عن الحقائق من الأمور التى

حدثت وليس من الأمور التى ينبغى لها أن تحدث. وعندما انتهت من قراءة كافة الخطابات فانها وضعت مجموعتى الخطابات مع بعضها البعض ثم راحت تعيد قراءتها كلها مرة أخرى ـ وقد وضعت رأسها بين يديها ـ من حيث مجموعة كاملة من خطابات التراسل تضم خطاباتها الخمسة التى تحررها كرد على كل خطاب واحد مرسل منه وتضم اجاباتها كرد على أسئلته وتضم مراوغاته وتهربه من حيث الرد على أسئلتها.

وأخيرا، قالت تشارلى بدون أن ترفع رأسها «شكرا يا يوسف. شكرا جزيلا. لو قمت باعارتى بندقيتنا الجميلة لفترة قصيرة سأقوم باطلاق الرصاص على نفسى على الفور».

كان كيرتز غارقا بالفعل فى الضحك ولكنه بدا غارقا بمفرده فى هذا المرح والطرب، وقال: «والآن يا تشارلى. لا أعتقد أن ذلك أمرا منصفا تماما لصديقنا يوسف هنا على الاطلاق. فهذا كان أمرا يتعلق بانجازات قامت بها لجنة. فنحن لدينا كميات كبيرة من الأذهان التى تعمل هنا».

وكان لكيرتز مطلب أخير: المظاريف التى ضمت خطاباتك ياعزيزتى. لقد كانت موجودة معه هنا. أنظرى. انها لم يكن عليها علامات تفيد بأن أجر البريد مدفوع أو ملغ، لم يكن قد وضع الخطابات فى داخل المظاريف لكى يقوم ميشيل باستخراجها مرة أخرى فى الحفلة الافتتاحية. فهل يمكن أن تتفضل تشارلى لكى تؤدى هذه الخدمة؟ وقال أن هذا أمر حيوى من بصمة أصابعها: أولا بصمات أصابعك يا عزيزتى وبعد ذلك بصمات أصابع فارز الرسائل فى مكتب البريد وأخيرا بصمات أصابع ميشيل. ولكن كنت هناك نقطة أخرى تتعلق بوضع لعاب فمها على لسان ظرف الرسالة وتحت طوابع البريد. فهذا يتعلق بفصيلة الدم الخاصة بها وذلك خشية أن يقوم أى شخص ذكى بالتفكير فى عمل مراجعة لأنه ينبغى عليك ألا تنسى أن لديهم أناسا يمتازون بالمهارة الشديدة.

تذكرت المعانقة الطويلة المتسمة بالطابع الأبوى التى قام بها كيرتز لأنها بدت أمرا حتميا وضروريا مثل الأبوة، لكنها لم تتذكر على الاطلاق توديعها ليوسف

ولا الكيفية التى تم بها التوديع ولا المكان الذى شهد التوديع. صحيح أنها تذكرت التعليمات النهائية وتذكرت العودة السرية إلى سالزبورج: حيث قضت ساعة ونصف الساعة فى السيارة «الفان» الخاصة بديمترى حيث لم يكن هناك أى كلام عقب اطفاء الأنوار. وتذكرت أيضا الهبوط فى لندن حيث كانت تشعر بالوحدة على نحو لم تشاهده فى حياتها على الاطلاق. تذكرت رائحة الحزن الانجليزى التى هجمت عليها وهى مازالت على المر بالمطار حيث ذكرها ذلك بالأمور التى دفعتها الى التحول إلى الحلول الراديكالية فى بادئ الأمر: الكسل الخبيث للسلطة واليأس الحبيس الذى يعانى منه الخاسرون. كان هناك اضراب جزئى يقوم به الحمالون كما كان هناك اضراب يقوم به عمال السكة الحديد وكانت مراحيض النساء شبيهة بالسجن. وكالمعتاد أوقفها المسئول عن الجمارك ووجه إليها أسئلة. ولكن مع وجود فارق، وهو أنها ساءلت نفسها فى تعجب عما إذا كان لديه سبب آخر بخلاف الرغبة فى مجرد التحادث والدردشة معها.

قالت تشارلى لنفسها لدى انضمامها لطابور المكتئبين المتجهين للركوب فى الاتوبيس أن العودة للوطن تشبه تماما السفر إلى خارج الوطن. هيا ننسف ونفجر كل شئ ونبدأ من جديد.

الفصل الخامس عشر

كان الفندق يسمى رومانز يقع بين أشجار الصنوبر على ربوة تطل على الأتوبان (الطريق البرى السريع). لقد شيد منذ ١٢ شهرا من أجل الذين يعشقون أساليب العصور الوسطى حيث يضم أروقة مسقوفة مزخرفة بالأسمنت وبنادق ذات طراز قديم مصنوعة من البلاستيك واضاءات خفيفة منبثقة عن لمبات النيون. كان كيرتز قد حصل على الشاليه الأخير فى الصف والذى به نافذة ذات حصيرة تطل على الحارة المتجهة نحو الغرب. كانت الساعة آنئذ الثانية صباحا وهو الوقت المفضل لديه . لقد أخذ حماما وحلق ذقنه وأعد لنفسه القهوة مستعينا بالماكينة الخاصة بالقهوة كما تناول كوكا كولا من الثلاجة وعلى مدى الوقت المتبقى فعل ماكان يفعله الآن جلس إلى منضدة الكتابة الصغيرة وقد أطفأ جميع الأنوار ووضع منظارا عند مرفقة وراح يرقب زنوار المصابيح الأمامية لدى تحركها بين جذوع الأشجار لدى انطلاق السيارات فى طريقها إلى ميونيخ بدت حركة المرور خفيفة فى تلك الساعة من الصباح بمعدل خمسة سيارات فى كل دقيقة .

كان يوما طويلا وليلا طويلا أيضا اذا أحصيت الليالى، إلا أن كيرتز كان يعتقد أن الكسل يصيب الرأس بغشاوة وتعتيم مثل السحب بل يعتقد أن المرء يكفيه نوم لمدة خمس ساعات فقط، ولكنه هو شخصيا يكفيه أن ينام فترة أقل من ذلك بكثير كان يوما طويلا على كل حال، وهو يوم لم يبدأ الا بعد أن غادرت تشارلى المدينة. اذ كانت هناك أعمال تنظيف شقق القرية الأولمبية حيث قام كيرتز بالاشراف على تلك العملية بنفسه . لأن ذلك يعطى المزيد من الحماس للأولاد عندما يتذكرون تصميمه على تناول التفاصيل . كما كانت هناك الخطابات التى ينبغى وضعها فى شقة يانوكا إهتم كيرتز بذلك أيضا.

ومن مركز المراقبة عبر الشارع كان قادرا على الاشراف على الملاحظين وظل

موجودا لكى يمتدح أعمالهم لدى عودتهم ولكى يؤكد لهم أن يقظتهم البطولية الطويلة سرعان ماستجلب لهم المكافآت المالية.

كان لينى قد تساءل فى نوع من التبرم: ماذا يحدث له؟ يامارتى. إن ذلك الولد له مستقبل، الآن عليك فقط بتذكر ذلك .

كان رد كيرتز متسما بالغموض والابهام: يا لينى. إن ذلك الولد له مستقبل ولكن ليس معنا .

وجلس شيمون ليتفاك خلف كيرتز على حافة السرير المزدوج كان قد خلع معطف المطر وألقى به عند قدميه وقد بدت عليه ملامح الضيق والغضب أما بيكار فيجلس بمعزل عن كلاهما فوق كرسىٍ مريح .

قال ليتفاك فى سخط موجها كلامه لظهر كيرتز : الفتاة لاتعرف أي شىء فهى حمقاء وبلهاء. أنها هولندية تسمى لارسين تعتقد أن يانوكا إلتقطها بينما تجلس القرفصاء مع لجنة ثورية فى فرانكفورت، ولكنها غير متأكدة تماما ان لديها العديد من الرجال بالإضافة إلى أنها مصابة بداء النسيان لقد اصطحبها يانوكا فى رحلات قليلة وعلمها كيف تطلق النيران من بندقيته وأعارها لأخ كبير من أجل أن تروح عنه. انها تتذكر تلك الجزئية وحتى بالنسبة للحياة الجنسية لخليل فانهم استخدموا الحذف والاختصار ولم يستخدموا نفس المكان مرتين وقد وجدت ذلك الأمر متسما بالـــرتابة والنمطية ومن وقت لآخـــر كانت تقود السيارات نيابة عنهم علاوة على وضع قنبلتين نيابة عنهم بالاضافة الى سرقة عدد قليل من جوازات السفر من أجلهم. كل ذلك من أجل الصداقة لأنها إنسانة فوضوية بلهاء وحمقاء .

قال كيرتز فى روية : انها فتاة للترفيه

ـ انها تعترف بعملية بادنسبرج وتعترف إعترافا جزئيا بعملية زيوريخ ولو كان لدينا متسع من الوقت لاعترفت إعترافا كاملا بعملية زيوريخ وهى لم تعترف بعماية أنتويرب.

فتساءل كيرتز : وماذا عن ليدن ؟

وبدت هناك عقدة فى صوت كيرتز أيضا، حتى أنه من المكان الذى يجلس فيه بيكار بدا الأمر وكأن الرجلين يعانيـــان من مرض بالحلق يطبق على الأحبال الصوتية .

فأجاب ليتفاك قائلا: إنها ليست لها علاقة بعملية ليدن على الاطلاق فقد كانت تقضى أجازة مع والديها فى ذلك الوقت فى منطقة سيلت أين تقع سيلت ؟

قال بيكار: على الساحل الشمالى لألمانيا.

وقال ليتفاك وهو يحملق فيه معبرا عن تبرمه إنها بطيئة وغبية للغاية. موجها كلامه لكيرتز مرة أخرى وأضاف قائلا: لقد بدأت فى التكلم فى منتصف النهار تقريبا ولكنها بحلول فترة مابعد الظهر كانت قد بدأت تتراجع عن كل كلام قالته حيث قال (لا لم أقل ذلك الكلام أبدا أنت تكذب علىّ) فأدرنا شريط التسجيل من جديد لكى تسمع كلامها ولكنها قالت إن ذلك الكلام المسجل مزيف وليس بصوتها، وبدأت تسبنا وتبصق علينا . إنها فتاة هولندية عنيدة ومجنونة .

قال كيرتز: أدرك ذلك جيدا

لكن ليتفاك كان يريد ماهو أكثر من الفهم:

اذا قمنا بالحاق الأذى بها فسوف نثير غضبها مما يجعلها تصبح اكثر عنادا واذا توقفنا عن إلحاق الأذى بها فاننا نتيح لها الفرصة لكى تستجمع قواها مما يجعلها بالتالى أكثر عنادا وبحيث تبدأ فى صب السباب واللعنات علينا .

وبدأ كيرتز يستدير بعض الشىء الى أن أصبحت نظراته متجهة نحو بيكار إذا كان مستغرقا فى النظر إلى أى شخص وأضاف ليتفاك فى تذمر قائلا : إنها تساوم إذا حدثتك عن هذا الموضوع فتعهد بالابقاء على حياتى ؟ موافق . واذا أعطيتك معلومات عن ذاك الموضع تطلق سراحى ؟ موافق ؟

ثم استدار فجأة فى اتجاه بيكار وقال متسائلا: إذن ماهو طريق البطل؟ أينبغى علىّ أن أسحرها وأفتنها أينبغى علىّ أن اجعلها تقع فى حبى وغرامى؟

وكان كيرتز ينظر إلى ساعته وقال معلقا : أى شىء تعرفه هى يعتبر فى عداد التاريخ بالفعل والأهم من ذلك هو ما الذى ينبغى أن نفعله معها ومتى؟ تكلم مثل رجل ينبغى عليه أن يقدم الاجابة النهائية بنفسه ثم سأل بيكار كيف تسير الرواية ياجادى؟

قال بيكار الرواية تتلاءم لقد استخدمها روسينو فى فيينا لمدة يومين ودفعها فى اتجاه الجنوب وسلمها للسيارة . كل ذلك حقيقى وقامت هى بقيادة السيارة الى ميونيخ وتقابلت مع يانوكا وهذا غير حقيقى ولكنهما الشخصان الوحيدان فقط اللذان يعرفان ذلك .

ومن هذه النقطة أضاف ليتفاك مستكملا القصة:

ـ وهما تقابلا فى أوتوبران وتلك قرية تقع الى الجنوب الشرقى من المدينة ومن هناك ذهبا الى مكان ما وقاما بممارسة الحب ومن الذى يهمه أن يعرف المكان؟ ليس كل شىء ينبغى أن يتلاءم مع اعادة البناء ربما تمت الممارسة فى السيارة فهى تحب الممارسة فى كل الاوقات ولاتقول لا أبدا ولكنها تفضل ممارسة الحب مع المقاتلين كما تسميهم ربما قاما باستئجار غرفة فى مكان ما وكان صاحب الغرفة خائفا للغاية بحيث لم يستطع أن يعرض خدماته والتغيرات الشبيهة بذلك هى أمر طبيعى . والمعارضة سوف تتوقع مثل هذه الثغرات .

قال كيرتز وهو ينظر نحو النافذة والليلة ؟ والآن ؟

لم يكن ليتفاك يرغب فى أن يحاصر ويضيق عليه الخناق من خلال توجيه الأسئلة الدقيقة إليه. « ولذلك فهما الآن فى السيارة وفى طريقهما إلى المدينة. لكى يمارسا الحب لكى يقوما بعمل ويتخفيا خلال الفترات التى تعقب الانفجار ومن الذى سوف يعرف فى أى وقت من الأوقات؟ ولماذا ينبغى علينا أن نوضح الأمور أكثر من اللازم ؟»

تساءل كيرتز: إذن أين هى فى هذه اللحظة ؟

قال ليتفاك: فى السيارة الفان.

ـ أين السيارة الفان؟

ـ إلى جوار المرسيدس أنت تعطى الأوامر ونحن ننقل هذه الفتاة .

ـ وماذا عن يانوكا ؟

« فى السيارة الفان أيضا آخر ليلة لهما سويا لقد قمنا بتهدئتهما وتخديرهما سويا »

فالتقط كيرتز المنظار الخاص به مرة أخرى وجعله مبتعدا عن عينيه بعض الشيء ثم اعاده الى المنضدة ووضع يديه مع بعضهما البعض ونظر اليها فى تجهم وتفكير .

قال موجها كلامه لبيكار حدثنى عن طريقة مختلفة نرسلها بالطائرة الى الوطن ونحبسها هناك فى صحراء النقب وماذا بعدئذ ؟ ما الذى حل بها أو حدث لها؟ هذا هو السؤال الذى سيوجهونه فمنذ اللحظة التى تختفى فيها فانهم سوف يفترضون أسوأ الأمور سيعتقدون أنها تراجعت عن اتجاهها السياسى .

وأن اليكسيس قبض عليها وأن الصهاينة أمسكوا بها وعلى كل حال سيعتقدون أن العملية الخاصة بهم أصبحت محفوفة بالأخطار ولذلك فهم سيتخذون قرارا بعدم توجيه أية أسئلة :

سرحوا فريق العمل وابعثوا بكل شخص إلى وطنه . ثم لخص الموقف قائلا : وينبغى أن يحصلوا على الدليل الذى يؤكد أن أحدا لم يحصل عليها باستثناء يانوكا ينبغى عليهم أن يعرفوا أنها أصبحت ميتة مثل يانوكا هل تخالفنى فى الرأى ياجادى ؟ أم أننى أدرك من التعبيرات التى ظهرت على وجهك أنك تدرك الأمور على نحو أفضل ؟

والتزم كيرتز بمجرد الانتظار إلا أن نظرات ليتفاك المتركزة على بيكار ظلت مليئة بالاتهام والروح العدائية ربما يشك فى براءته فى اللحظات التى هو فيها بحاجة اليه لكى يشاركه الذنب قال بيكار بعد لحظات طويلة ممتدة من الصمت : «لا» الا أن وجهه كان متسما بصلابة الاخلاص المليء بارادة من نوع معين .

وفجأة وجه ليتفاك هجومه ضده . وظهرت الرعشة فى صوته يقول مكررا كلمة «لا»؟ وأضاف لا بالنسبة لماذا ؟ لا عملية ؟ ماذا تعنى بكلمة : لا ؟

قال بيكار لا بمعنى أننا ليس أمامنا حل بديل ولا مناص ولا مفر انهم اذا استغنوا عن الفتاة الهولندية فانهم لن يتقبلوا تشارلى على الاطلاق والمس لارسين هى نفس خطورة يانوكا . وإذا كان علينا ان نستمر فى العملية فهذا هو المكان الذى ننجزها فيه .

قال ليتفاك فى ازدراء : اذا .

فأعاد كيرتز الهدوء والنظام من خلال توجيه سؤال آخر إذ سأل ليتفاك وقد بدا عليه وكأنه يريد الاجابة بكلمة: نعم حيث قال ألا يوجد لديها أية أشخاص مشهورين مفيدين على الاطلاق؟

فهز ليتفاك كتفيه وقال انها تعرف شخصية كبيرة من شمال ألمانيا تسمى إيداً وهى لم تقابلها سوى مرة واحدة فقط والى ماوراء إيدا هناك فتاة أخرى تظهر فى تليفزيون باريس . يساندها خليل ولكن خليل لايوزع بطاقات الزيارة إنها فتاة بلهاء وحمقاء وهى مدمنة للمخدرات بدرجة كبيرة .

قال كيرتز : اذن فهي بمثابة طريق مسدود . كان ليتفاك قد بدأ يغلق أزرار معطف المطر الداكن وقال : نعم انها بمثابة طريق مسدود، ابتسم ابتسامة خالية من البهجة الا انه لم يتحرك نحو الباب اذ كان مازال منتظرا إصدار أوامر محددة له .

كان لدى كيرتز سؤال أخيرا : كم تبلغ من العمر؟

– فى الأسبوع القادم سيصل عمرها واحدا وعشرين عاما .

هل ذلك سبب ؟

ببطء وبوعى بالذات نهض كيرتز واقفا على قدميه وواجه ليتفاك عبر الغرفة الصغيرة الضيقة التى بها أثاث قديم مزخرف ثم أصدر أوامره.. ياشيمون إسأل كل شخص على انفراد إن كان يرغب فى الانسحاب؟ لا حاجة للحصول على

تبريرات وايضاحات لا توضع علامة ضد اسم اى شخص يرغب فى الانسحاب مجرد قرار يتخذ بالتصويت عبر اللوحة .

قال ليتفاك : لقد سألتهم بالفعل .

فرفع كيرتز معصمه الأيسر ونظر إلى ساعته وقال: اسألهم مرة أخرى وبعد ساعة واحدة من الان اتصل بى تليفونيا وليس قبل انقضاء ساعة ولاتفعل أى شىء قبل أن تتكلم معى .

كان كيرتز يعنى: عندما تكون حركة المرور ضعيفة للغاية .

وانصرف ليتفاك بينما بيكار باقيا.

وأجرى كيرتز المكالمة التليفونية الأولى له مع زوجته أيلى وكان حريصا على أن تسدد زوجته التكاليف والنفقات الخاصة بالمكالمة وقال فى هدوء عندما ادرك أن بيكار نهض مستعدا لمغادرة المكان: ابق فى مكانك لو سمحت ياجادى لأن كيرتز كان يحب أن يفتخر بأنه يعيش حياة مكشوفة للغاية. لذلك ظل بيكار يصغى على مدى عشر دقائق إلى أمور تافهة مثل: كيف أن ايلى تتقدم فى دراسة التوراة أو تتغلب على مشكلات التسويق، بينما السيارة موجودة بعيداً عن الطريق لم يكن بحاجة لأن يسأل عن السبب الذى جعل كيرتز يتصل تليفونيا فى مثل هذه اللحظات فهو فى يومه قد فعل الشىء نفسه على وجه الدقة . أن كيرتز يريد أن يلمس القاعدة قبل القيام بالقتل. كان يريد أن يسمع إسرائيل تتحدث اليه بصوت حى وليس بصوت مسجل على اسطوانات أو شرائط قال كيرتز فى حماس لدى وضعه سماعة التليفون مؤكدا لبيكار «ايلى على مايرام وهى ترسل تحياتها لك وتقول لك ياجادى أسرع بالعودة إلى الوطن لقد التقيت بطريق الصدفة منذ يومين مع فرانكى وكانت فرانكى على مايرام أيضا إنها تشعر بالوحدة والاشتياق لمشاهدتك ولكنها على مايرام.

أما المكالمة التليفونية الثانية لكيرتز فقد اجراها مع أليكسيس واستمع كيرتز للأنباء العائلية للعميل الخاص به. وسأل عن الطفل القادم فى الطريق ـ نعم الأم والطفل فى صحة جيدة . ولكن ما أن انتهت هذه العبارات التمهيدية حتى استجمع

كيرتز قواه ودخل فى لب الموضوع لأنه من خلال محادثاته القليلة الأخيرة مع أليكسيس كان قد شعر بنوع من الاهمال والاسترخاء من جانب أليكسيس .

وقال فى بهجة :يابول يبدو هناك حادثة معينة : ـ وهى حادثة سبق لنا أن تحدثنا عنها أخيرا ـ على وشك أن تحدث فى أى لحظة وليس بمقدورى أنا ولا أنت عمل أى شىء من أجل منع حدوثها لذلك أرجو أن تحضر ورقة وقلما ثم غير نغمة صوته وراح يصب أوامره وتعليماته على مدى الـ ٢٤ ساعة الأولى عقب استلامك هذه الاشارة الرسمية سوف تقصر تحرياتك واستفساراتك على احياء ومساكن الطلبة فى فرانكفورت وميونيخ ولسوف تشيع أن الشكوك الرئيسية تحوم حول مجموعة من الاشخاص النشطاء المنتمين للجناح الأيسر والذين لهم علاقات مع خلية موجودة فى باريس. هل كتبت ذلك ؟ وفى اليوم الثانى وعقب فترة الظهيرة تقدم نفسك الى مكتب البريد الرئيسى فى ميونيخ وتحصل على رسالة مكتوب عليها عبارة (تحفظ فى شباك البريد) ★ وهى رسالة مرسلة إليك وعليها اسمك «واستمر كيرتز فى الكلام بعد أن حصل على التأكيدات اللازمة» وهذا سوف يزودك بهوية المتهمة أو المجرمة الأولى وهى فتاة هولندية بالاضـــافة إلى خلفية من البيانات والمعلومات التى تتعلق بتورطها فى حوادث سابقة .

بدأت الأوامر التى يلقيها كيرتز تتدفق وفق سرعة الاملاء : لاينبغى أن يتم عمليات تحرى فى مدينة ميونيخ حتى حلول اليوم الرابع عشر ونتائج كافة الاختبارات الشرعية ينبغى أن ترسل الى أليكسيس وحده فى اللحظات الأولى ولا يتم نشر وتوزيع هذه الاختبارات إلا بعد أن يوافق كيرتز على ذلك والمقارنة العامة مع الحوادث الأخرى لاتتم الا بموافقة كيرتز فقط الذى عندما سمع صوت إليكسيس وهو يشمخ بأنفه أبعد سماعة التليفون عن أذنه لكى يتمكن بيكار من سماع ذلك ولكن يامـــارتى ـ استمع الى ـ ياصديقى ـ ينبغى علىّ أن أسأل عن شىء ما بالفعل

★ وهى عبارة يكتبها المرسل على غلاف الرسالة مبديا رغبته فى احتفاظ ادارة البريد بها حتى يأتى المرسل إليه بنفسه فيطلبها .

ـ اسأل كما يحلو لك .

ـ ماالذى نتصفحه هنا؟ فوقوع حادثة ليس على كل حال بمثابة رحلة خلوية يامارتى ونحن هنا يامرتى دولة ديمقراطية متحضرة هل تدرك ماأعنيه ؟

كان كيرتز قد أدرك هذا لذا أحجم عن قول ذلك .

ـ استمع الىّ يامارتى ينبغى على أن أطلب شيئا ما وأنا أطلب ذلك الشىء واصر عليه لا أريد دمارا وتخريبا ولا أريد إزهاقا للأرواح .

وهذا هو الشرط الذى أضعه. نحن أصدقاء. هل تتابع كلامى فى انتباه؟

كان كيرتز يتابع الكلام حيث رد فى أسلوب مهذب: يا بول. بالتأكيد لن يكون هناك تدمير للملكيات والعقارات الألمانية. وربما تكون هناك بعض الخدوش القليلة. ولكن لا تدمير.

وماذا بالنسبة لازهاق الأرواح؟ يا مارتى. نحن لسنا أناسا بدائيين وهمجيين هنا .

فرد كيرتز فى صوت هادئ «يابول. لن تسفك دماء بريئة. وهذا وعد شرف من جانبى. لن يصاب أى مواطن ألمانى بخدش واحد» .

ـ أيمكننى الاعتماد على كلامك هذا؟

فقال كيرتز: عليك أن تعتمد على كلامى .

فى الظروف العادية لم يكن بمقدور كيرتز أن يستخدم التليفون بمثل هذه الحرية، ولكن نظراً لأن أليكسيس أصبح مسئولاً عن التجسس على المكالمات التليفونية وتسجيلها فانه شعر بأنه يمكن له أن يخاطر ويستخدم التليفون فى حرية.

واتصل ليتفاك تليفونيا بعد عشر دقائق فقال كيرتز: اذهب وانطلق. اننى إعطيك الضوء الأخضر. نفذ العملية.

وظلا منتظرين. حيث كان كيرتز موجودا عند النافذة بينما جلس بيكار فى كرسيه مرة أخرة ينظر نحو سماء الليل القلقة. هنا أمسك كيرتز بالمزلاج الرئيسى، وفك الترباس وفتح مصراعى النافذة إلى أبعد مسافة ممكنة مما سمح بدخول هدير

حركة المرور المترامى من الطريق البرى الرئيسى تمتم كيرتز قائلا: «لماذا أقوم بمخاطرات لا لزوم لها؟» كما لو كان قد ضبط نفسه متلبساً بالاهمال.

فبدأ بيكار يحصى مستخدما سرعة الجندى المقاتل. إن ذلك من أجل القيام بالمراجعة النهائية قبل أن تصدر إدارة المرور إشارة بغلق حركة المرور من كلا الاتجاهين. ومن أجل التفكير فى قيمة الحياة البشرية حتى بالنسبة لأولئك الذين ينتهكون الروابط الانسانية تماما.

وكالمعتاد كان الانفجار هو أشد الانفجارات التى سمعها أى شخص فى حياته. ونجم عنه صوت رهيب عال. وأعلى من بادنسبرج ومن هيروشيما من كافة المعارك التى خاضها المتحاربون. وظل بيكار جالسا فى الكرسى الخاص به ينظر إلى ما وراء ظل كيرتز. فشاهد كرة برتقالية من اللهيب تتفجر منبعثة من الأرض ثم اختفت بعد ذلك آخذة معها النجوم الأخيرة المتبقية فى السماء علاوة على تعتيم الخيوط الأولى للصباح الباكر. وعلى الفور ظهرت موجة من الدخان الأسود الزيتى التى اندفعت لتملأ الفراغ بالغازات الآخذة فى التوسع والانتشار. كما شاهد الحطام والأنقاض تتطاير فى الهواء ورأى رزازاً من الشظايا السوداء تلف وتدور من الخلف ـ عجلة وقطعة غليظة من الأسفلت وشيئا ما بشرى يتطاير أيضا فى الهواء. كما شاهد الستارة تلمس فى رفق وعاطفة ذراع كيرتز العارى وأحس بلفحة دافئة مثل تلك التى تنجم عن أداة تجفيف الشعر فى محلات الحلاقة. وسمع أزيزاً شبيها بأزيز الحشرات ينبعث عن أشياء صلبة ترتعش متصادمة مع بعضها البعض. وقبل أن يتلاشى الأزيز سمع صيحات الاستياء الأولى ونباح الكلاب وأصوات أقدام بشرية خائفة لدى تجمع أناس يلبسون شباشب فى أقدامهم فى الممر المغطى الذى يربط الشاليهات مع بعضها البعض، كما سمع العبارات اللامعقولة التى يقولها الناس لبعضهم فى الأفلام التى تتناول السفن الغارقة: «يا أمى! أين أمى! لقد فقدت مجوهراتى». وسمع صوت امرأة انتابتها الهستيريا وهى تقول: «الروس قادمون» فرد عليها صوت خائف يؤكد لها أن الأمر ليس سوى انفجار شاحنة بترول. قال شخص ما أن ذلك الانفجار يتعلق بالأمور العسكرية وأشار أن الأشياء

التى ينقلها العسكريون فى الليل تعتبر مصدر خزى وعار! كان هناك راديو بجوار السرير. وبينما قبع كيرتز عند النافذة، أدار بيكار الراديو على برنامج محلى يتناول دردشة عن الاصابة بالأرق وترك الراديو مفتوحا على هذه المحطة المحلية حيث توقع أن يتم قطع البرنامج فجأة من أجل اذاعة معلومات عن الحادث. وسمع ولولة سرينة سيارة حيث تسرع سيارة شرطة بينما الضوء الأزرق يومض منبعثا منها ثم ظهرت بعد ذلك سيارة المطافى تعقبها سيارة إسعاف. وتوقفت الموسيقى من الراديو من أجل إصدار أول بيان عن الحادث: انفجار غامض لا يعرف سببه قد وقع فى غرب ميونيخ ولا توجد أية معلومات تفصيلية. تم اغلاق الطريق الرئيسى من كلا الاتجاهين. وينبغى على سائقى السيارات اتخاذ طريق بديل.

أغلق بيكار الراديو. وأضاء الأنوار. ثم أغلق كيرتز النافذة وأسدل الستائر. ثم جلس على السرير وخلع حذاءه دون أن يفك الأربطة.

قال كيرتز كأن شيئا ما أنعش ذاكرته فجأة: لقد تلقيت رسالة من رجالنا الموجودين بالسفارة فى بون منذ أيام قليلة يا جادى. طلبت منهم أن يقوموا ببعض التحريات عن أولئك البولنديين الذين تعمل معهم فى برلين. من حيث مراجعة النواحى المالية الخاصة بهم.

لم يرد بيكار بأى تعليق.

فأضاف كيرتز: يبدو أن الأنباء ليست على ما يرام تماما. وان علينا أن نعثر على المزيد من النقود أو البولنديين .

وعندما لم يتلق كيرتز أى رد، رفع رأسه فى بطء فشاهد بيكار يحملق فيه وهو واقف عند فتحة الباب. وكان هناك شئ ما فى وقفة الرجل الأطول تسبب فى اشعال غضب كيرتز الذى قال: أترغب فى أن تقول لى شيئا ما يا بيكار؟

ويبدو أن بيكار لم يكن لديه شئ يقوله، وفى هدوء شديد أغلق الباب وراءه. وانصرف خارجا .

وكان على كيرتز أن يجرى اتصالا هاتفيا واحداً مع جافرون مستخدما الخط

المباشر مع وطنه. ومد يده نحو سماعة التليفون. ولكنه أصابه التردد وسحب يده، قال لنفسه لدى تصاعد الغضب فى داخله مرة أخرى: ينبغى على أن أدع الروك الضئيل فى حالة انتظار. لكنه مع ذلك رفع السماعة واتصل به تليفونيا. وابتدأ كلامه بطريقة مهذبة ومعقولة. وعلى النحو الذى يبتدئان فيه الكلام سويا باستمرار. كان يتحدث باللغة الانجليزية مع استخدام الأسماء السرية المخصصة لذلك الأسبوع. «يا ناتان». أنا هارى الذى يتحدث معك. مرحبا. كيف حال زوجتك؟ عظيم. بلغ سلامى اليها. يا ناتان. هناك معزتان صغيرتان من معارفنا أصيبتا ببرد شديد توا. ومن المؤكد أن ذلك سوف يدخل السرور على الذين ينبغى إرضاؤهم من وقت لآخر» .

وعندما أصغى كيرتز لردود الفعل الملتبسة غير الواضحة الصادرة عن جافرون بدأ يشعر بالارتجاف. إلا أنه حاول السيطرة على صوته. وقال: «يا ناتان أعتقد أن المرحلة المهمة فى تطور الأحداث وهى المرحلة الخاصة بك تبدأ الآن. عليك أن تصد ضغوطا معينة وتدع هذا الشئ ينضج. إن الوعود قد تم تقديمها كما تم الايفاء بها وتنفيذها. وهناك قدر من الثقة الآن. والأمر يستلزم القليل من الصبر» . ومن بين كافة الرجال والنساء الذين يعرفهم كان جافرون وحده هو الذى يحثه على قول أشياء يندم عليها فيما بعد.

وكان لا يزال يتحكم فى نفسه ويكبح جماحها على الأرجح لا يتوقع أحد كسب مباراة فى الشطرنج قبل فترة تناول طعام الافطار يا ناتان. إننى أحتاج يا سيدى، هل تسمعنى؟ أحتاج إلى الهواء.... أحتاج إلى قدر ضئيل من الحرية والمرونة فى التصرف... أريد أرضا أو منطقة خاصة بى.

لذلك أريد منك أن تربط وتقيد حركة أولئك الناس المجانين المعتوهين. ممكن؟ أخرج إلى السوق التجارى واشتر لى بعض العون والتأييد .

وتعطل الخط التليفونى. ولم يعرف كيرتز أبدا ما اذا كان التعطل قد نجم عن الانفجار أو عن ميشا جافرون لأنه لم يحاول الاتصال تليفونيا مرة أخرى.

الفصل السادس عشر

على مدى ثلاثة اسابيع لانهائية وبينما كانت لندن تنزلق من الصيف إلى الخريف عاشت تشارلى حياة شبه واقعية . حياة تتذبذب وتتأرجح من عدم التصديق إلى الصبر ومن الاستعداد الملىء بالاثارة إلى الرعب التشنجى .

ظل يقول : إن عاجلا أو آجلا سيجيئون من أجلك وينبغى عليهم أن يجيئوا وراح يهيئ ويعد لها ذهنها وفقا لذلك .

ولكن لماذا ينبغى أن يجيئوا ؟ لم تكن تعرف السبب وهو لم يوضح لها السبب وانما استخدم انعزاله ليكون نوعا من الوقاية والحماية هل سيقوم مايك ومارتى على نحو ما يجعل ميشيل الرجل الخاص بهما مثلما جعلا تشارلى الفتاة الخاصة بهما؟ لقد شهدت أياما تخيلت أثناءها أن ميشيل سوف يلحق ذات يوم بالرواية أو الحكاية التى ألفاها من أجله بحيث يظهر أمامها متحمسا من أجل حق حبيبته عليه. وفى هدوء ورفق قام يوسف بتشجيعها على الانخراط فى حالة الفصام النفسى التى تردت اليها مع توجيهها أكثر وأكثر نحو التفويض الغائب الخاص به.

ياعزيزى ميشيل تعالى إلىّ . يجب عليك أن تحبى يوسف ولكن يجب عليك أيضا أن تحلمى بميشيل. فى بادىء الأمر لم تكن تجرؤ على النظر إلى نفسها فى المرآة اذ كانت مقتنعة أن سرها أصبح مكشوفا وكان وجهها ممطوطا وممتدا فى احكام بسبب المعلومات الهائلة الشنيعة المتوارية خلف وجهها وكان صوتها وحركاتها يتسمان بالتروى والتفكير مما جعلها بمعزل وعلى مسافة أميال من باقى البشرية : أنا العرض المسرحى المكون من فتاة واحدة على نحو مستمر ودائم .

ولدى مرور الوقت تدريجيا أفسح خوفها من الافتضاح والانكشاف المجال أمام ظهور ازدراء خفيف ازاء الأبرياء الموجودين حولها والذين فشلوا فى مشاهدة

ماكان يُقحم ويُدفع تحت أنوفهم فى كل يوم وراحت تفكر: انهم موجودون فى المكان الذى جئت منه انهم انا قبل أن أنظر فى المرآة بطريقة روتينية .

وازاء يوسف نفسه استخدمت الوسيلة التى أتقنتها أثناء قيادة السيارة عبر يوجوسلافيا فقد كان هو الرفيق المألوف الذى تعزو اليه كل عمل من أعمالها وهو الحبيب الذى من أجله تضع المكياج علي وجهها وتطلق النكات المرحة من أجل ادخال البهجة والسرور عليه. انه الملاذ الخاص بها هو أفضل صديق وبكل ما فى هذه الكلمة من معنى انه بمثابة العفريت الصغير الذى ظهر فجأة فى جميع الأماكن الغريبة وقد تزود بمعرفة مسبقة عن كل تحركاتها ـ أحيانا عند محطة الأتوبيس وأحيانا فى المكتبة وأحيانا أخرى يجلس تحت أضواء النيون بين زهور الأقحوان. الا أنها لم تعترف بوجوده على الاطلاق اذ كان خارج حياتها تماما وخارج نطاق الزمن والملمس باستثناء المواعيد الغرامية الخاصة بهما وهى المواعيد المختلسة التى تدعمها وتعززها وباستثناء التفويض الغائب الخاص به : ميشيل

ومن أجل التدريب على مسرحية «كما تحبها» فان الشركة استأجرت صالة تابعة للجيش بالقرب من محطة فيكتوريا وكانت تذهب إلى هناك فى كل صباح وفى كل مساء تزيل رائحة البيرة العسكرية الكريهة من شعرها .

سمحت لكويللى بأن يقدم لها طعام الغداء فى مطعم بيانكى وأدركت أنه كان غريب الأطوار اذ بدا وكأنه يرغب فى أن يحذرها من شىء ولكنها عندما طلبت منه أن يحدثها عن طبيعة ذلك الشىء لاذ بالصمت ثم أشار أن النواحى السياسية تعتبر من الشئون الخصوصية للناس. ولكنه بدا عليه وكأنه مخمور للغاية. وبعد أن ساعدته لكى يتمكن من التوقيع على الفاتورة انضمت إلى الجماهير بالشارع وكان لديها شعور بالصمود فى مواجهة نفسها وشعور بالشكل المراوغ الخاص بها لدى انزلاقه بعيدا عنها بين الجمهور المتمايل المترنح اننى منفصلة عن الحياة ولن أتمكن ابدا من العثور على طريقى. ولكن حتى وهى تفكر فى ذلك أحست بتلامس يد على مرفقها لدى اقتراب يوسف منها قبل ذهابه إلى ماركس وسباركس وكان تأثير هذه المشاهد عليها غير عادى خلال فترة قصيرة اذا جعلتها فى حالة مستمرة من اليقظة والحذر

بل وجعلتها ـ اذا كانت هى أمينة مع نفسها ـ فى حالة مستمرة من الرغبة فاليوم الذى يمر بدون وجوده هو يوم مفقود لاقيمة له واذا القت عليه مجرد نظرة خاطفة فان قلبها وجسدها يهتزان طربا وكأنها فتاة فى السادسة عشرة من عمرها .

وكانت تقرأ جرائد الصنداى المحترمة الوقورة وتدرس أحدث الأنباء المدهشة عن ساكفيل ويست، تتعجب من عدم عقلانية العقلية الانجليزية الحاكمة . ونظرت إلى لندن التى نسيتها فوجدت فى كل مكان تأييدا ازاء هويتها ذات الاسلوب العنيف فالمجتمع كما عرفته كان نبتا جافا ميتا وكانت مهمتها هى ازالة النباتات الميتة واستخدام التربة من أجل شىء ماأفضل وكانت الوجوه اليائسة للمتسوقين الذين يمشون فى تثاقل مثل عبيد مكبلين بالاغلال فى أرجاء السوبر ماركت المضاء بلمبات النيون تقول لها ذلك. وكذلك الحال بالنسبة للعجائز اليائسين ورجال الشرطة الذين لهم عيون حقودة ومليئة بالسموم كما كانت تستشف ذلك من الاولاد السود المتسكعين الذين يرقبون سيارات الرولزرويس تمرق بجوارهم وكذلك الشىء نفسه بالنسبة للبنوك اللامعة وجو العبادة الدنيوية ومديريها المتشددين فى فرض النظام وكذلك جمعيات المبانى التى تغرى المخدوعين لكى يقعوا فى شراك ومصايد التملك والملكية وكذلك محلات العربدة والمرح الصاخب والسُكر ومحلات القمار والمراهنات. والتقيؤ الذى يتم بمجهود بسيط من جانب تشارلى. كانت لندن بمثابة صندوق زبالة ممتلىء بالقمامة وبالآمال المحبطة والأنفس البشرية المصابة بخيبة الأمل والاحباط وبفضل الالهام الذى قدمه ميشيل لها تمكنت من تشييد الكبارى الذهنية الخاصة بها والتى تربط مابين الاستغلال الرأسمالى بالعالم الثالث وبين عتبة بابها الموجودة هنا فى مدينة كامدين .

ومع العيش فى اشراق شديد فان الحياة أرسلت لها رمزا ثقيلا عن انجراف الانسان وسيره على غير هدى وبعد أن خرجت للتريض والنزهة فى الصباح الباكر يوم الأحد ـ وذلك فى حقيقة الأمر من أجل أن يتم لقاء من ضمن اللقاءات القليلة المتفق عليها مع يوسف سمعت صوت آلة وترية تشدو وتتغنى بأنشودة دينية زنجية وفتحت القناة فشاهدت فى منتصف المستودعات المهملة للميناء رجلا زنجيا عجوزا

شبيه بالبطل فى رواية كوخ العم توم جالسا فوق زورق مربوط طويل ويعزف على الكمنجة الخاصة به أمام مجموعة من الأطفال المشدوهين المنبهرين كان ذلك مشهدا مأخوذا عن فيلم الفيلليني ، كان مادة رديئة أو سرابا ووهما خادعا أو رؤيا مستلهمة ناجمة عن لاوعيها .

ونامت فى السرير مع «آل» مرات قليلة لأنها لم تكن ترغب فى نشوب أزمة معه ولأنها عقب فترة الجفاف الطويلة مع يوسف أصبح جسدها فى حاجة إليه. هذا بالاضافة إلى أن ميشيل أصدر أوامره لها لكى تفعل ذلك. لم تسمح لآل بأن يزورها فى شقتها لأنه قد أصبح بلا مأوى مرة أخرى ولانها كانت تخشى أن يحاول الإقامة معها فى شقتها حيث فعل ذلك من قبل فظل مقيما عندها إلى أن قامت بالقاء ملابسه وماكينة حلاقته فى الشارع وعلى كل حال فان شقتها أصبحت توجد بها أسرار جديدة، وهى ليست مستعدة إطلاقا أن تدعه يشاركها هذه الأسرار: فسريرها هو سرير ميشيل وبندقية ميشيل الصغيرة موضوعة تحت الوسادة. ولم يكن هناك شىء يمكن أن يفعله «آل» أو أى شخص آخر بحيث يرغمها على تدنيس السرير وهى أيضا قد توخت الحذر مع «آل» لأن يوسف حذرها وأبلغها أن صفقة التعاقد معه على التمثيل فى السينما قد فشلت وهى أيضا كانت تعرف من قبل كيف أنه يتحول إلى إنسان رهيب عندما تجرح كرامته وكبرياؤه .

لقد تم أول لقاء جديد متقد بالعاطفة بينهما فى الحانة التى يعتاد الجلوس فيها، حيث وجدت الفيلسوف العظيم مستكنا مع اثنتين من تلميذاته ولدى سيرها عبر الصالة لكى تنضم اليه فانها راحت تفكر سوف يشم رائحة ميشيل لأنها موجودة فى ملابسى وفوق بشرتى وابتسامتى الا أن «آل» كان مشغولا للغاية ولم يهتم بتشمم أية روائح ودفع بكرسى إلى الوراء بقدمه كى تجلس عليه وبينما هى تجلس قالت لنفسها فى تفكير: ساعدنى ياالهى منذ شهر واحد فقط كان هذا القزم بمثابة المستشار والناصح الأول لى فيما يتعلق بالأمور التى تجعل العالم يتكتك وعندما أغلقت الحانة أبوابها وذهبا إلى شقة صديق وقامت بالاستيلاء على الغرفة الاضافية الاحتياطية الخاصة به شعرت بالرعب عندما تخيلت أن ميشيل موجود فى

داخل كيانها وأن وجهه يحملق نحوها وأن جسده الزيتونى اللون يندفع نحوها فى الجو المشوب ببعض الظلام ـ ميشيل الولد الصغير القاتل يدفعها نحو الحافة. وفيما وراء ميشيل يوجد هيكل آخر.. انه يوسف وقد تفجرت قواه الجنسية المحبوسة وجسده الملىء بالندبات الغائرة وذهنه المليىء بالندبات وقد أصبحا ملكا لها .

.. ..

وباستثناء أيام الآحاد فانها كانت تقرأ صحف رأسمالية من وقت لآخر كما كانت تستمع إلى نشرات الأخبار المذاعة بالراديو، الا أنها لم تسمع أى كلام عن فتاة انجليزية شعر رأسها أحمر اللون ويعتقد أن لها صلة بتهريب متفجرات بلاستيكية روسية إلى داخل النمسا . لم يحدث أن أذيع نبأ من هذا القبيل على الاطلاق . كان هناك كلام يتعلق بفتاتين أخريين إحداهما لها نفس اهوائى ونزواتى، وفى معظم المجالات الأخرى فان حالة العالم الأرحب لم تعد تشد انتباهها وتثير اهتمامها. وقرأت عن قيام الفلسطينيين بالقاء قنابل فى «آخين» كما قرأت عن قيام الاسرائيليين بشن غارة جوية انتقامية على معسكر للاجئين فى لبنان مما أدى إلى وفاة أعداد كبيرة من المدنيين كما قرأت عن تصاعد الغضب بين الجماهير فى إسرائيل وشعرت بالقشعريرة الشديدة عندما وعد جنرال اسرائيلى أثناء حوار صحفى بأنه سيحل المشكلة الفلسطينية « بحيث يقتلعها من جذورها تماما » ولكنها بعد أن حصلت على مجموعة من الدروس والمحاضرات عن التآمر، فانها لم تعد تؤمن بالوصف الرسمى للأحداث ولم تعد على استعداد لأن تصدق شيئا بالمرة . وكانت الأخبار الوحيدة التى تتابعها فى اهتمام هى تلك التى تتعلق بحيوان الباندا الانثى العملاقة الموجودة فى حديقة الحيوانات فى لندن والتى رفضت الزواج وإن كان المنادون بالمساواة بين الجنسين أصروا أن الغلطة هى غلطة الذكر. فحديقة الحيوان من الأماكن التى يتردد عليها يوسف حيث يتقابلان سويا على أريكة خشبية طويلة ولو لمجرد أن يعتصرا أيدى بعضهما البعض مثلما يفعل العشاق قبل أن يذهب كل منهما إلى سبيله .

انها تهيم شاردة على هذا النحو حيث أنها تمثل طوال الوقت أمام جمهور غير مرئى مع التحكم فى كل كلمة وكل حركة فى مواجهة الطيش والاهمال المتكرر فى أية لحظة. ووجدت تشارلى نفسها تعتمد إعتمادا كبيرا على الطقوس ففى أجازات نهاية الاسبوع كانت تذهب عادة إلى نادى «الأولاد» فى بيكهام وفى صالة هائلة ضخمة يمكنها أن تستوعب بريخت كانت تستحث مجموعة الدراما المكونة من «الأولاد» لكى يتفانوا فى العمل أثناء تدربهم على مسرحية صامتة من أجل عرضها فى الكريسماس .

وفى أيام الجمعة تذهب إلى الحانة التى يجلس فيها «آل». وفى أيام الأربعاء تأخذ زجاجتين من البيرة من أجل إعطائهما للانسة دابر التى تعيش عند الناصية وهى امرأة كانت تعمل فى الكوراس أو الانشاد الجماعى ثم استقالت واعتزلت العمل، انها مصابة بالتهاب المفاصل وكساح الأطفال والتسوس علاوة على العديد من الأمراض الخطيرة كانت تلعن جسدها الذى منحته ذات يوم للعشاق الذين لايستأهلونها والذين يتسمون بالبخل وعدم الكرم. كانت تشارلى بدورها تملأ دابر أذنها بالعديد من القصص الملفقة العجيبة التى تتعلق بالعروض المسرحية المليئة بالفضائح والتى تعرض فى المسارح وعندئذ كانتا تنخرطان فى عاصفة مدوية من الضحكات كان الجيران يرفعون صوت أجهزة التليفزيون من أجل أن تغطى على صوت ضجيج الضحكات .

وبخلاف هذا لم تهتم تشارلى بزيارة عائلات أخرى رغم أن مستقبلها التمثيلى قد زودها بالعديد من العائلات التى يمكن لها القيام بزيارتها اذا شعرت بالرغبة فى ذلك .

وكانت تدردش مع لوسى تليفونيا تتفقان على اللقاء الا أنهما كانتا تتركان الموعد مفتوحا بدون تحديد ، وأجرت اتصالات مع روبرت الموجودة فى «بترسى» الا أن جمهور ميكونوس كانوا يشبهون أصدقاء المدارس منذ عشر سنوات حيث ليس هناك حياة متبقية لكى تشاركها معهم . كما أجرت اتصالات مع «ويللى» وبولى إلا أنهما كانا يفكران فى الانفصال وكان ذلك بمثابة تغيير فجائى فى الأوضاع . كما

قامت بمحاولات قليلة مع أصدقاء حميمين منذ فترات سابقة، وقامت تشارلى بكتابة خطابات لانهائية إلى رجلها المفقود إلا أنها تدريجيا توقفت عن وضع الخطابات فى صندوق البريد .

عزيزى ميشيل : عد إلىّ بدافع الشفقة .

الا أنها امتنعت عن الجلوس القرفصاء كما تجنبت الذهاب إلى محلات بيع الكتب الموجودة فى ازلنجتون حيث اعتادت على زيارتها من أجل حضور جلسات القهوة المخدرة. كما تجنبت الذهاب للشلة الساخطة الموجودة فى شارع بانكراس حيث اعتادت على توزيع النشرات التى تصدر من وقت لآخر عن الكوكايين لأن أحدا لايرغب فى توزيعها سواها. استردت سيارتها من إيوستاس انها سيارة «فيات» متينة كان «آل» قد حطمها وفى عيد ميلادها قادت السيارة وذهبت لكى تزور والدتها اللعينة ولكى تأخذ معها مفرش المنضدة الذى سبق أن اشترته من أجلها من ميكونوس كانت تخشى مثل هذه الزيارات بوجه عام : وجبة اللحوم فى غداء يوم الأحد مع ثلاثة أنواع من الخضراوات علاوة على فطيرة محشوة بأعشاب الراوند يعقب ذلك التلخيص التفصيلى الذى تسوقه والدتها عما فعله الزمن بها من أمور شنيعة منذ آخر مرة تقابلتا فيها. وأمضت الليلة مع والدتها وفى صباح اليوم التالى ارتدت تلفيعة داكنة اللون واصطحبت والدتها إلى الكنيسة وحرصت على عدم التفكير فى آخر مرة ارتدت فيها التلفيعة وبينما هى تركع وجدت نفسها متأثرة بسبب ظهور بقايا غير متوقعة من الاحساس بالشفقة وفى حماس وضعت هوياتها العديدة فى خدمة الله. ومع الاستماع إلى موسيقى الأرغن بدأت تنخرط فى البكاء بالدموع مما جعلها تسائل نفسها فى تعجب : ترى إلى أى حد أتمكن من السيطرة على ذهنى ؟

قالت فى تفكير : السبب فى ذلك هو أننى لا أستطيع مواجهة العودة إلى شقتى .

ومما سبب لها القلق والارتباك هى تلك الطريقة التى تم بها تغيير شقتها لكى تتلاءم مع الشخصية الجديدة التى تدخل نفسها فيها فى حرص وحذر شديدين .

وكان اعادة التشييد لشقتهما المتسم بالمكر والدهاء والذى تم أثناء فترة غيابها من الشقة هو أشد الأمور التى سببت لها الارتباك. انها الآن تنظر إلى شقتها باعتبارها أكثر الأماكن أمنا وأمانا . كانت قد حصلت على تلك الشقة من ممثل عاطل دأب على السطو على المنازل وسرقة البيوت ثم اعتزل العمل فى مجال التمثيل وهاجر مع صديق له إلى أسبانيا . وكانت هذه الشقة تقع عند الطرف الشمالى من مدينة كامدين وموجودة فوق مقهى هندى يدب فيه النشاط فى الساعة الثانية صباحا ويظل ساهرا لكى يقدم وجبات الافطار حتى الساعة السابعة صباحا ولكى تصل إلى السلالم الخاصة بها فانه يتعين عليك أن تسير مابين دورة المياه والمطبخ وتعبر فناء وعندئذ يقوم بتفحصك صاحب المطعم والطاهى وصديق الطاهى الوقح الممتلىء الخدين بالاضافة الى تعرضك للفحص من جانب أى شخص يتصادف أن يكون موجود فى دورة المياه ، وعندما تصل إلى قمة السلالم يوجد أمامك باب رئيسى يتعين عليك أن تدخل منه قبل أن تدخل إلى المنطقة المقدسة المملوكة لها، والتى تتألف من غرفة فوق السطوح بها أفضل سرير فى العالم، وحمام ومطبخ منفصلين عن بعضهما البعض، ولكنهما بمثابة وحدة واحدة من خلال عقد الايجار .

والآن ، وعلى نحو فجائى فقدت ذلك العزاء المتعلق بالأمن والطمأنينة لقد سرقوا منها الأمان اذ احست كأنهم أجروا الشقة إلى شخص ما أثناء غيابها، فقام بممارسة كافة الخطايا ومع ذلك كيف أمكن لهم الدخول إلى الشقة بدون أن يلحظهم أحد؟ وعندما سألت فى المقهى أخبروها انهم لايعرفون أى شىء وكان هناك درج الكتابة الخاص بها على سبيل المثال انحشرت فى داخله كافة الخطابات التى أرسلها ميشيل اليها ـ كافة الخطابات الأصلية وهى نفس الخطابات التى شاهدت نسخا مصورة منها فى ميونيخ . وكان هناك الاعتماد المالى الخاص بها والذى يبلغ ٣٠٠ جنيه من فئة الجنيهات الخمس القديمة كانت مخبأة خلف لوحة مفاتيح الحمام الكهربائية وهو المكان الذى اعتادت أن تضع فيه الاعشاب الخاصة بها خلال تلك الأيام التى تدخن فيها السجاير ونقلت النقود إلى مكان يقع تحت الألواح الخشبية

للأرضية، ثم نقلتها مرة أخرى إلى الحمام ثم إلى أسفل الألواح الخشبية مرة أخرى. كانت أشياء تذكارية تتعلق بقصة غرامها فى نوتنجهام : علب كبريت مأخوذة من الفندق والقلم الرخيص ذو السّن الكروى والذى كتبت به خطاباتها الأولى المرسلة الى باريس ونباتات السحلبية الأولى الموجودة بين صفحات كتاب الطهو وأول فستان اشتراه من أجلها فى يورك والحلق الشنيع الذى أعطاه لها فى لندن والذى لاتضعه فى أذنيها إلا من أجل ارضائه وادخال السرور عليه . كانت قد توقعت إلى حد ما وجود مثل هذه الأشياء . وكان يوسف قد حذرها بالفعل من هذه الأشياء وما كان يزعجها أن هذه اللمسات الدقيقة مع بدأها فى العيش معها قد أصبحت لا تعبر عن ذاتها الحقيقية ففى خزانة الكتب الخاصة بها توجد تلك الكتب الضخمة المليئة بالمعلومات عن فلسطين والتى يوجد عليها اهداء حذر من جانب ميشيل كما يوجد على الحائط ذلك الملصق الموالى للفلسطينيين ، والتى يظهر فيه رئيس الوزراء الاسرائيلى بملامحه الضفدعية والى جوار الملصق توجد مجموعة من الخرائط توضح التوسعات الاسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ والتى يوجد عليها علامة استفهام مكتوبة بخط يدها حول منطقة Tyre ومنطقة صيدا وهى علامة استفهام مستوحاة من قراءاتها عن مطالبة بن جوريون بهاتين المنطقتين. كما كانت توجد كومة من المجلات الصادرة باللغة الانجليزية فى طباعة رديئة والتى تتناول دعاية مناهضة للاسرائيليين .

قالت لنفسها فى تفكير : هكذا أنا باستمرار طوال حياتى فما أن أجد نفسى محاصرة أخرج وأشترى الدكان . قالت ذلك بينما كانت تشق طريقها فى بطء بين مجموعات الأشياء .

«باستثناء أننى لم أفعل ذلك أبدا . فهم الذين فعلوا ذلك». لم يساعدها هذا القول بل لم تســتطع مع مرور الوقت أن تبقى على الفــارق أو التميز فى داخل ذهنها .

ـ ياميشيل اكراما لتشارلى هل هم قد أمسكوا بك ؟

وعقب عودتها إلى لندن ووفقا للتعليمات الصادرة اليها قامت بزيارة مكتب البريد في مايدا فال وقدمت له أوراق الاعتماد الخاصة بها وحصلت على خطاب واحد فقط عليه خاتم بريد استانبول كان من الواضح أن الخطاب وصل بعد أن غادرت لندن إلى ميكونوس .. عزيزتي لم يمر وقت طويل الآن في أثينا أحبك . توقيع «م» إنها اشارة مكتوبة لكي تحثها على الاستمرار الا ان منظر هذا الاتصال المفعم بالحياة سبب لها ازعاجا حيث تقافز حشد من الصور المدفونة من أجل احكام السيطرة عليها والاستحواذ بها منظر قدمي ميشيل وهما ينزلقان لأسفل على السلالم في حذائه الجوشي وجسده الضعيف المحبب للنفس المتساند على سجانيه ووجهه الذي يشبه وجه الغزال الصغير والذي يعتبر صغيرا بالنسبة للخدمة العسكرية . وصوته الرخيم المتسم بالبراءة الشديدة والميدالية الذهبية التي تصفع في رفق صدره الزيتوني العاري : أقبل يايوسف .

راحت تذهب يوميا إلى مكتب البريد وفي بعض الاحيان كانت تذهب مرتين يوميا بحيث أصبحت من الملامح المميزة لهذا المكان لأنها دائما ما كانت تغادر مكتب البريد وقد بدا عليها الذهول وهو اجراء تمثيلي موجه كانت تؤديه في عناية اجراء كان يوسف من حيث هو المعلم السري الخاص بها يشهده شخصيا أكثر من مرة أثناء قيامه بشراء طوابع بريد .

وفي الفترة نفسها وعلى أمل أن تتلقن الحياة منه، وضعت في صندوق البريد ثلاثة خطابات مرسلة لميشيل بباريس تتوسل اليه ان يكتب لها وتعبر عن حبها له وعفوها عنه مقدما واغتفارها للصمت الذي التزم به وتلك هي الخطابات الأولى التي كتبتها لنفسها وعلى نحو غامض أحست بالراحة النفسية عقب ارسالها لتلك الرسائل اذ أعطت تلك الخطابات مصداقية اكثر من سابقتها فبعد كل مرة تكتب فيها الخطاب تأخذه إلى صندوق البريد الذي تم اختياره لها وهي تعرف أن هناك أناسا يرقبونها الا أنها تعلمت عدم الحملقة فيما حولها وعدم التفكير في هذا الشأن .

وفى إحدى المرات اكتشفت وجود راشيل فى نافذة حانة «ويمبى» حيث بدت فى ملابس قديمة خالية من الذوق كما بدت متخذة الطابع الانجليزى أكثر من اللازم، وفى مرة أخرى انطلق راؤول وديمترى إلى جوارها فوق دراجة بخارية . أما الخطاب الأخير الذى أرسلته لميشيل كان مرسلا بالبريد المستعجل السريع من نفس مكتب البريد حيث كتبت على ظهر المظروف ـ عقب لصق طابع البريد عليه ـ عبارة «عزيزى» عزيزى .. أرجوك وأرجوك وأرجوك أن تكتب الرد على خطاباتى ، بينما كان يوسف يقف خلفها منتظرا فى صبر .

وتدريجيا بدأت تنظر إلى حياتها عبر هذه الأسابيع على أنها تمتلك نشرة مطبوعة كبيرة ونشرة مطبوعة صغيرة كانت النشرة الكبيرة بمثابة العالم الذى تعيش فيه. أما الصغيرة فبمثابة العالم الذى تنسل منزلقة إلى داخله وتنسل خارجة منه بينما العالم الكبير لا يرقبها فلم تكن ممارسة الحب حتى مع الرجال المتزوجين أمرا سريا بالنسبة لها فى أى وقت .

تمت رحلتها إلى نوتنجهام فى اليوم الخامس لها. اتخذ يوسف تدابير وقائية استثنائية تتسم بالحذر والحيطة وقام بالتقاطها فى سيارة لاندروفر من محطة بعيدة لمترو الانفاق فى مساء يوم السبت وقاد بها السيارة عائدا فى فترة مابعد الظهر يوم الأحد . كان قد اشترى لها باروكة شقراء ممتازة للغاية علاوة على ملابس جديدة . خاصة معطف من الفراء ، وحقيبة وكان قد رتب لها عشاء متأخرا وفى أثناء العشاء اعترفت تشارلى لنفسها أنها اصيبت بهلع وخوف سخيف حيث كانت تخشى من احتمال تعرف مجموعة العاملين معها على شخصيتها رغم ارتدائها للباروكة ومعطف الفراء ثم يطلبون منها أن تحكى لهم عما حدث لحبيبها الأوحد الحقيقى .

ثم توجها إلى غرفة نومها غرفة تضم سريرين بسيطين وفى الرواية قاما بضم السريرين وللحظات اعتقدا بالفعل أن ذلك بصدد أن يحدث خرجت هى من الحمام بينما تمدد يوسف على السرير مسددا نظراته اليها واضطجعت الى جواره ووضعت رأسها على صدره ثم رفعت وجهها لكى تواجهه وشرعت فى تقبيله بقبلات خفيفة

انتقائية حول صدغيه ووجنتيه وراحت تقبل شفتيه مد يده ليبعدها قليلا عنه ثم ارتفع برأسه لكى يواجهها وراح يقبلها بدوره مبقيا يده على خدها وعيناها مفتوحتان. ثم فى رفق شديد أبعدها عنه وجلس معتدلا ثم قبلها قبلة أخرى : مع السلامة.

وقال لدى إلتقاطه معطفها هل تسمعى ؟

كان يبتسم ابتسامته الجميلة الشغوفة التى تعتبر أفضل ابتسامة لديه. وأصغت وسمعت أمطار نوتنجهامشاير ترتطم بالنافذة الخاصة بهما ــ وهو نفس المطر الذى أبقاها فى السرير على مدى ليلتين ويوم واحد طويل .

وفى صباح اليوم التالى راحا يسترجعان ويتذكران فى حنين تلك الرحلات القصيرة التى قامت بها مع ميشيل فى الأماكن الريفية المجاورة لدرجة أن الرغبات الجامحة فى داخلهما كانت تدفعهما للعودة بسرعة إلى الفندق وأكد لها يوسف فى حماس أن كل ذلك من أجمل الذكريات المرئية البصرية ومن أجل الثقة الاضافية فى عملية المشاهدة . وفى الأوقات التى تخلل مثل هذه الدروس كان يعلمها أشياء أخرى مثل الاشارات الصامتة على حد تسميته لها علاوة على طريقة للكتابة السرية على الجوانب الداخلية لعلب سجاير مارلبورو.

تقابلا مرات عديدة فى محل تأجير الملابس المسرحية وعادة ماكان يتم اللقاء عقب الإنتهاء من البروفات.

قالت امرأة شقراء ضخمة الجثة تبلغ من العمر ستين عاما وترتدى أثوابا طويلة ستكونين بحاجة لأن تجيىء من أجل ملاءمة الملابس لكى تكون على مقاسك . أليس كذلك ياعزيزتى ؟ وكانت تقول نفس هذه العبارة فى كل مرة تخطو فيها تشارلى إلى المدخل ثم تضيف قائلة: ذلك هو الطريق ياعزيزتى وبعدئذ تدخلها إلى غرفة نوم خلفية حيث ينتظرها يوسف أشبه بزبون ينتظر عاهرة .

إن أهم ماكان يقلقها هو عدم معرفتها كيفية الوصول اليه : «أين يقيم ؟ وكيف يمكن لى أن اتصل بك؟

وعندئذ كان يرد عليها قائلا لها أنها يمكن لها أن « تتصل به عن طريق كاتى، لديك اشارات الامان عند كاتى »

كانت كاتى هى حبل السلامة والانقاذ بالنسبة لها انها بمثابة المكتب الأمامى ليوسف بل وهى التى تحافظ على عدم اختلاطه بمن هم أدنى منه. وفى كل مساء فى الفترة ما بين السادسة والثامنة تدخل تشارلى إلى كابينة تليفون مختلفة ـ وتطلب رقم فى الويست اند وذلك حتى يمكن لكاتى أن تصحبها وتعرف منها كل شىء: على أى نحو سارت البروفات وآخر الانباء التى تتعلق بـ «آل» الشلة والكيفية التى كان عليها كويللى وهل هم تناقشوا فى أجزاء أخرى وهل أجريت لها الاختبارات من أجل الالتحاق بالتمثيل فى السينما وهل هى بحاجة إلى أى شىء؟ ـ وغالبا ما يتم ذلك على مدى ساعة أو أكثر . وفى بادىء الأمر كانت تشارلى تستاء من كاتى من حيث أنها تقوم بتخفيض علاقاتها مع يوسف، الا أنها بدأت تتطلع تدريجيا إلى الدردشة التى تتم بينهما خاصة حين اتضح أن كاتى تتمتع بقدر كبير من الذكاء والحكمة . كان لدى تشارلى صورة ذهنية عن انسانة ما كريمة وعطوفة وودودة ومستقلة وربما كندية : واحدة من السيدات التى اعتادت أن تزورهن فى عيادة تافيستوك عقب طردها من المدرسة، وشعورها بأنها على وشك أن تصاب بالهوس والسخافة كان ذلك يدل على ذكاء تشارلى لأنه على الرغم من أن المس باخ أمريكية وليست كندية فإن أسرتها تضم أطباء على مـــدى أجيال .

كان المنزل الذى استأجره كيرتز فى هامبستيد من أجل المراقبين واسعا للغاية فى مكان خلفى منعزل للتدريب على قيادة السيارات وأصحاب هذا المنزل ـ وبناء على اقتراح من صديقهم الطبيب مارتى القادم من القدس ـ كانوا قد رحلوا فى صمت إلى مارلو الا أن منزلهم ظل مكانا يتسم بالهدوء والأناقة الثقافية اذ كانت توجد هناك لوحات زيتية للفنان نولده فى غرفة الجلوس علاوة على وجود صورة فوتوغرافية لتوماس مـــان فى الكونسيرفاتوار، وطائر فى قفص يغنى عندما تدير الزمبرك الخاص به بالاضافة إلى وجود مكتبة بها كراس رائعة جلدية وغرفة للموسيقى . وفى البدروم توجد صالة للبينج/ بونج وفى الخلف حديقة متشابكة

الأغصان وتضم ملعبا للتنس ، وعند الواجهة يوجد كشك بوابة صغير وعند هذا الكشك توجد لافتات منكتوب عليها :« طلبة الدراسات العبرانية والانسانية يسمح بالدخول للطلبة والاساتذة فقط» لم تتسبب هذه اللافتات فى إثارة أى انتباه فى هامبستيد.

كان عددهم الاجمالى ١٤ فردا بما فى ذلك ليتفاك لكنهم وزعوا أنفسهم على الطوابق الأربعة فى نظام يتسم بالتكتم والحذر وعلى نحو يوحى بأنه لايوجد هناك أى شخص على الاطلاق . أما روحهم المعنوية فلم تكن بمثابة مشكلة كانوا يحبون الاثاث الداكن والعمل طوال اليوم وحتى منتصف الليل فى بعض الاحيان، يحبون العودة إلى هذا المعبد الذى يتسم بالحياة اليهودية وعندما يعزف ليتفاك مقطوعات موسيقية من تأليف برامز على نحو جيد تماما فانه راشيل المهووسة بالموسيقى الشعبية تسارع بالنزول على السلالم إلى الدور الأرضى لكى تستمع إلى غرفة رغم أنها فى بادىء الأمر كانت ترفض بشدة فكرة العودة إلى انجلترا بل مجرد السفر بجواز سفر بريطـــانى .

وبروح الفريق الجماعى هذه انخرطوا فى العمل يجنبون ـ من تلقاء أنفسهم وبدون أن تصدر اليهم تعليمات بذلك – الحانات والبارات والمطاعم المحلية ويتجنبون الاختلاط مع أحد . ومن ناحية أخرى يهتمون بارسال خطاباتهم بأنفسهم ويشترون الالبان والصحف بأنفسهم بحيث يبدون طبيعيين وبحيث يبتعد عنهم الفضوليون وكثيرا ماكانوا يركبون الدراجات وكان اسطبل النقل والمواصلات الخاص بهم بمثابة جراج أنيق صغير مطلى باللون الأحمر الوردى ويحتوى على سيارة رولز رايس قديمة فضية اللون وموجودة فى نافذة العرض المكتوب عليها عبارة «ليس للبيع» مع الاشارة إلى أن المالك يسمى بيرنى إنه رجل ضخم الجثة نو وجه داكن وبدلة زرقاء اللون وقبعة بنفس اللون . كانت لديه سيارات وموتوسيكلات ودراجات بخارية وكميات وفيرة من لوحات الأرقام وفى اليوم الذى وصلوا فيه وضع لافتة كبيرة مكتوب عليها : من أجل أعمال التعاقد فقط. غير مسموح للزوار بدخول المكان ».

فى كل يوم تجيىء أنباء سارة من خلال سفارة لندن مثل الأنباء التى تجىء عن معركة بعيدة لقد ذهب روسينو لزيارة شقة يانوكا فى ميونخ واصطحب معه امرأة شقراء تنطبق أوصافها على الفتاة «إيدا» فلان وفلان زاروا فلانًا وفلانًا فى باريس أو بيروت أو دمشق أو مرسيليا ومع تحديد هوية روسينو تفتحت طرق ومجالات جديدة فى اثنى عشر اتجاها جديدا كان ليتفاك يعقد ثلاثة اجتماعات أسبوعيا لكى يقدم بيانا موجزا ويفتح الباب أمام المناقشات الحرّة. وفى الحالات التى تم فيها التقاط صور فوتوغرافية كان ليتفاك يعرض الموضوع مستعينا بالفانوس السحرى علاوة على القاء محاضرات موجزة عن الأسماء المستعارة المعروفة ونماذج السلوك والأهواء الشخصية والخداع التجارى، ومن وقت لاخر كان يعقد امتحانات مختصرة مع بث روح المنافسة من خلال جوائز مسلية للفائزين .

ومن وقت لآخر كان جادى بيكار العظيم يتسلل داخلا من أجل سماع أحدث الانباء والقرارات حيث يجلس فى الجزء الخلفى من الغرفة بعيدا عن جميع الحاضرين مع مغادرة القاعة بمجرد انتهاء الاجتماع. لم يكن بمقدورهم أن يعرفوا أى شىء عن حياته الخاصة بل لم يتوقعوا أن يعرفوا أى شىء .

كان من سلالة مختلفة عنهم انه بيكار كانوا يتحدثون عنه فى محبة وعاطفة ويطلقون عليه اسم «ستيبنوولف» يروون لبعضهم البعض حكايات عن أعماله الفذة .

جاء الاستدعاء فى اليوم الثامن عشر اذ ورد تلكس من جنيف مما جعلهم يقفون فى حالة استعداد تام . كما وردت برقية من باريس تؤكد ماجاء بالتلكس ففى خلال ساعة أصبح ثلثا فريق العمل على الطريق متجهين غربا تحت المطر الأسود .

الفصل السابع عشر

كانت الفرقة تسمى هيرتيكس وقد بدأت جولتها فى اكزيتار أمام حشد من المصلين خارجين مباشرة من الكاتدرائية : نساء يرتدين فساتين بنفسجية لها طابع شبيه بالحداد وقساوسة عجائز على وشك الانفجار فى البكاء وعندما لاتكون هناك حفلة ماتينيه فان مجموعة الممثلين والممثلات يتجولون فى أرجاء المدينة ويتثاءبون وفى الأمسيات وعقب الانتهاء من العروض يتناولون الخمور والأجبان مع تلاميذ الفنون المتحمسين لأن الاتفاق ينص على تبادل الخبرات مع المواطنين .

ومن «اكزيتار» ذهبوا إلى بلايموث وقدموا عرضا مسرحيا فى القاعدة البحرية أمام ضباط شبان ، كانوا يشعرون بالقلق ازاء ما اذا كان ينبغى على عمال المسرح الذين يقومون بنقل أثاث المسرح وستائره أو ترتيبها أن يمنحوا صفة الجنتلمان وبحيث يُسمح لهم بتناول الطعام فى مطعم الضباط .

ولكن كل من اكزيتار وبلايموث كانتا مدينتين تتسمان بالسلوك الشيطانى والحياة الجامحة بالمقارنة مع مدينة التعدين الجرانيتية التى تقع فى جنوب شبه جزيرة الكورنيش التى تمتلئ بضباط البحر والأشجار المعوقة النمو والتى أصبحت محدَّبة بسبب كثرة العواصف الهوجاء كان الممثلون والممثلات موزعين على ستة من بيوت الضيافة كان من نصيب تشارلى جزيرة مليئة بالأسقف الجملونية ومحاطة تماما بنباتات «الكوبية» التى لها ثمار شبيهة بكوب الماء وحيث يجعلها هدير القطارات المتجهة إلى لندن أثناء نومها فى السرير تشعر وكأنها أشبه بشخص أنقذ نفسه من الغرق بعد أن شاهد سفنا بعيدة . وكان المسرح موجوداً فى داخل قاعة رياضية بمقدورها أن تشم رائحة الكلور المترامية من حمام السباحة وباستطاعتها سماع الأصوات المكتومة الناجمة عن كرات الاسكواش المترامية من

وراء الحائط . كان جمهور المشاهدين هم افراد فرقة عسكرية ، وكانت غرفة الملابس هى غرفة لتخزين الأطعمة المثلجة تمتلكها امرأة وذلك هو المكان الذى أحضروا لها فيه نباتات السحلبية بينما كانت تضع المكياج لنفسها قبل رفع الستار بعشر دقائق .

رأت نباتات السحلبية لأول وهلة فى داخل المرآة الطويلة الموجودة فوق حوض غسيل الأيدى حيث شاهدت النباتات تنساب فى رفق من فتحة الباب وقد لُفت حتى العنق بورق أبيض رطب . وشاهدتهم وهم يصابون بالتردّد ثم يتقدمون نحوها فى شئ من التردّد .

الاّ أنها استمرت فى عمل المكياج الخاص بها وكأنها لم تشاهد أىّ هذه النباتات قط فى حياتها كان غصنا واحدا من النبات محمولاً مثل طفل ملفوف فى ورق عْبر ذراعى انسانة تبول تبلغ من العمر خمسين عاما تسمى «فال» ذات ضفائر سوداء وابتسامة مبتذلة متسمة بالاستخفاف .

قالت «فال» فى خجل وارتباك : أعلن هنا أنك روزاليند بطلة رواية «كما تحبها» ولكن على نحو غير مفيد .

ساد صمت ملىء بالروح العدائية خلال ذلك بدا أن الممثلات يستمتعن باللاعقلانية التى أبدتها «فال» انه الوقت الذى يصاب فيه الممثلون بحالة من العصبية الشديدة وحالة من الهدوء الشديد .

قالت تشارلى «أنا روزاليند لماذا تتساءلين ؟» واستأنفت أعمال المكياج لكى تبين أنها لاتهتم كثيراً بالحصول على اجابة على تساؤلها .

وفى طقوس مراسمية قامت فال بوضع نباتات السحلبية فى حوض غسيل الأيدى ، ثم خرجت بسرعة بينما قامت تشارلى بالتقاط المظروف أمام أعين كل شخص يرغب فى المشاهدة . كان المظروف مكتوب عليه عبارة «إلى الآنسة روزاليند» وفى داخل المظروف توجد بطاقة زيارة شديدة اللمعان . أما الاسم

فمكتوب بحروف كبيرة شائكة عديمة اللون على الجزء المائل : انتون مستار باين / جنيف / أ. وتحت الاسم توجد كلمة واحدة : العدالة .

ونقلت مكياجها إلى حاجب العين الأخرى فى حرص وعناية شديدين كأن حاجب عينها هو أهم شئ على وجه الكرة الأرضية .

قالت «الفتاة الريفية» الواقفة عند حوض الغسيل المجاور متسائلة : مَنْ يكون هذا يا تشارلى ؟ وكانت قد خرجت توا من الكلية وكان عمرها الذهنى ١٥ عاماً .

فراحت تشارلى تدرس نتيجة صنْع يديها فى مجال المكياج وتتجهم وهى تنظر لنفسها فى تركيز فى المرآة .

قالت الفتاة الريفية من المؤكد أن تكلفة ذلك هى قنبلة . أليس كذلك يا تشارلى؟

فردت تشارلى نفس العبارة : أليس كذلك يا تشارلى ؟

- إنه هو !

- انها كلمة عنه !

- اذن لماذا هو ليس موجوداً هنا ؟ ولماذا الاشارة ليست مكتوبة فى يده ؟

لقد سبق لميشيل أن حذرها : لا تثقى فى أىّ شخص . وبصفة خاصة لاتثقى فى أولئك الذين يزعمون أنهم يعرفوننى .

انها مصيدة . انهم الخنازير . لقد اكتشفوا مسألة قيامى بقيادة السيارة عبْر يوجوسلافيا . انهم يدفعوننى لكى أوقع حبيبى فى المصيدة .

يا ميشيل !! ميشيل يا حبيبى يا حياتى . قلْ لى ماذا ينبغى علىّ أن أفعله!

سمعت شخصا ما ينادى عليها باسمها «يا روزاليند - أين تشارلى بحق الجحيم ؟ يا تشارلى» .

وفى الدهليز حملق مجموعة من السباحين الذين يضعون فوطة حول أعناقهم بدون أن تظهر تعبيرات ما على وجوههم فى منظر سيدة لها شعر أحمر ترتدى ملابس رثة وتبزغ خارجة من حجرة الأدراج المقفلة الخاصة بالسيدات .

.. ..

وعلى نحو ما أدّت دورها . وأثناء فترة الاستراحة قام المخرج – ويسمى الأخ ميكروفت ـ بتوجيه سؤال لها وهو ينظر اليها نظرة غريبة : «هل يمكن لك أن تخففى من حدة الأداء بعض الشئ؟» فوعدته فى خنوع واستسلام بأنها ستعمل على تنفيذ توجيهاته الاَّ أنها لم تكن منتبهة اليه تماما حيث كانت مشغولة للغاية فى تفحّص الصفوف والمقاعد شبه الشاغرة على أمل أن تشاهد رداء فضفاضا أحمر اللون .

ولكن دون جدوى .

لقد شاهدت وجوها أخرى . فعلى سبيل المثال شاهدت وجه راشيل ووجه ديمترى . الاَّ أنها لم تتعرف على شخصيتهما . وقالت لنفسها فى يأس: انه ليس موجودا هناك . انها خدعة انها الشرطة .

وفى حجرة الأدراج المقفلة قامت بتغيير ملابسها على وجه السرعة وارتدت التلفيعة البيضاء على رأسها وتلكأت بعض الشئ فى داخل الحجرة إلى أن اضطر البواب إلى اخراجها . وانتظرت فى تلكوّ مرة أخرى فى الردهة حيث تقف مثل شبح ذى رأس أبيض بين اللاعبين الرياضيين الخارجين وقد ضمت نباتات السحلبية إلى صدرها . وسألتها سيدة عجوز عما اذا كانت قد زرعت هذه النباتات بنفسها . كما طلب منها تلميذ أن توقع له فى الأتوجراف الخاص به وأمسكتها الفتاة الريفية وجذبتها من كُمّها وقالت : «فال يبحث عنك فى كل مكان» .

وانغلقت خلفها الأبواب الأمامية لصالة الرياضيين خرجت إلى هواء الليل وكادت أن تسقط على الأرض أمام الرياح الهوجاء الشديدة التى تضر بها واتجهت فى تمايل الى سيارتها وفتحت بابها بالمفتاح ووضعت نبات السحلبية على المقعد

الأمامي وسحبت الباب لتغلقه وأدارت مفتاح التشغيل الاَّ أن الموتور لم يدرْ في بداية الأمر ولكنه عندما دار انطلقت السيارة كالحصان الذي يجاهد لكي يصل إلى المنزل . وعندما تركت الطريق الفرعي لكي تنطلق على الطريق الرئيسي شاهدت في مرآتها المصابيح الأمامية لسيارة أخرى تنطلق وراءها ثم تتبعها على مسافة ثابتة إلى بيت الضيافة الخاص بها .

وقفت بسيارتها في المكان المخصص لوقوف السيارات وسمعت نفس الرياح العاتية تمزق في نباتات الكوبية . فلفَّت معطفها حول جسدها ووضعت نباتات السحلبية في داخل معطفها ، وانطلقت نحو الباب الأمامي كان هناك أربع درجات تعثر خلفها شخص ما . ولم يكن هناك نزلاء عند مكتب الاستقبال أو في قاعة الانتظار أو في الصالة . كان الشخص الوحيد المتبقي على قيْد الحياة هو : همفري أنه صبي ممتلئ اشبه بشخصيات تشارلز ديكينز وهو الذي كان يقوم بدور البواب في النوباتجية الليلية .

قالت في ابتهاج عندما مدّ يده لكي يحضر لها مفتاحها : ليس المفتاح رقم ٦ يا همفري . وانما المفتاح رقم ١٦ . هيَّا . يا عزيزي المفتاح في الصف العلوي . كما يوجد خطاب غرامي هنالك أيضا . أعطه لي قبل أن تسلمه بطريق الخطأ لشخص ما آخر .

أخذت منه قطعة الورق المطوية وهي تأمل أن يكون خطابا مرسلا من ميشيل . وبعدئذ ظهرت على ملامح وجهها مشاعر خيبة الأمل عندما اكتشفت أنه خطاب مرسل من أختها تقول فيه «اتمنى لك الحظ السعيد في العرض الذي تقدمينه الليلة» وتلك كانت هي الطريقة التي يهمس بها يوسف قائلا : «نحن معك» .

وانفتح باب الصالة وانغلق خلفها . سمعت أقدام رجل تتقدم عبرْ سجادة الصالة وسمحت لنفسها بأن تلقي عليه نظرة واحدة سريعة لمجرد أن تعرف ما اذا كان هو ميشيل أم لا . ولكنه لم يكن ميشيل وفقا لتعبيرات الاحباط التي ظهرت على وجهها كان شخصا ما ينتمي لباقي العالم وليس له أية فائدة بالنسبة لها . كان

رجلا نحيلا مسالما وهادئا ذا عينين داكنتين بهما مشاعر الحب للأمّ ويرتدى معطف مطر ويرتدى رباط عنق بنىّ اللون يتمشى فى لونه مع لون عينيه اللتين تتمشيان مع لون المعطف . وله حذاء بنىّ اللون له قطع من الجلد تغطى مقدّم الحذاء مع وجود غُرز مزدوجة . قالت لنفسها : إنه ليس رجل عدالة على الاطلاق - ولكنه محروم من العدالة . أنه رجل فى سن الأربعين يرتدى السترة الطويلة التى يرتديها اليهود فى القرون الوسطى .

السيدة تشارلى ؟

ثم اضاف : السيدة تشارلى . أبلغك تحيات صديقنا المشترك ميشيل .

وكانت تشارلى قد نشّفت وصلّبت وجهها مثل شخص ما يعدّ نفسه لكى يلقى عقاباً . وقالت : مَنْ هو ميشيل الذى تعنيه ؟ وأدركت أن شيئا لم يتحرك فى داخله مما جعلها بدورها تقف هادئة وساكنة تماما بنفس الطريقة التى نقف بها ساكنين لكى يرسمنا الفنانون أو كانت ساكنه مثل التماثيل ومثل رجال الشرطة الذين يقفون وقفة انتباه خالية من الحركة تماما .

- «ميشيل الذى هو من نوتنجهام يا تشارلى» وكانت النبرة السويسرية متسمة بالحزن علاوة على اتسامها بالاتهام بعض الشئ . كان الصوت مكسوا بالفراء كما لو أن العدالة أمر سرى «لقد طلب منى ميشيل أن أحضر لك نباتات السحلبية الذهبية وأن أصطحبك لكى تتناولى طعام العشاء من أجله وهو مصرّ على ضرورة مجيئك لو سمحت فانا الصديق الوفى لميشيل . تعالِ».

وراحت تفكر : أنت ؟ صديق له ؟ ميشيل ليس على استعداد لأن يكون له صديق مثلك من أجل انقاذ حياته اللعينة . إلاَّ أنها جعلت حملقتها تقول هذه الأفكار نيابة عنها .

وأنا أيضا مكلف بمهمة تقديم ميشيل على نحو قانونى وشرعى يا تشارلى فهو له الحق فى الحصول على الحماية القانونية الكاملة . هيا . تعالِ الآن لو سمحت .

وتطلبت الحركة مجهوداً كبيراً ولكنها كانت تهدف إلى ذلك . اذ كانت نباتات السلحبية ثقيلة للغاية وكانت مسافة طويلة عبر الهواء نقلت خلالها السحلبية إلى ذراعيه . ولكنها تمكنت من فعل ذلك .

قالت «لقد وصلت إلى العرض المسرحى الخاطئ . فأنا لا أعرف شخصا من نوتنجهام يُسمى ميشيل . ولا أعرف شخصا ينتمى الى أىّ مكان ويُسمى ميشيل ونحن لم نتقابل فى مونتى فى خلال الموسم الأخير أن تلك محاولة متقنة وخبيثة ولكننى أشعر بالارهاق والسأم منكم جميعا» .

وبينما تستدير لكى تلتقط مفتاحها أدركت أن همفرى البواب كان يتكلم معها فى موضوع له أهمية كبرى . وكان وجهه اللامع اللزق يرتعد ثم رفع قلم رصاص فوق دفتر كبير . قال فى استياء فى لهجة الريف الشمالى المنحدرة المطوطة : فى أىّ وقت تريدين شاى الصباح يا سيدتى ؟

قالت : فى الساعة التاسعة صباحا يا عزيزى وليس قبل ذلك بدقيقة واحدة ثم تحركت فى اعياء نحو الكرسى .

وتساءل همفرى : «وماذا عن الصحف والمجلات يا سيدتى ؟» .

فاستدارت ورمقته بنظرة ثقيلة وهمست : «أيها السيد المسيح» .

وفجأة ظهرت الاثارة الشديدة على وجه همفرى . وبدا عليه وكأنه يعتقد أن الانعاش فقط يمكن أن يوقظها الجريدة الصباحية ! من أجل القراءة فيها ! ماهى الجريدة التى تفضلين قراءتها ؟

فقالت : جريدة التايمز يا عزيزى .

فغاص همفرى فى فتور متسم بالرضا والاطمئنان . وكتب وهو يتكلم بصوت مسموع : «جريدة التلجراف» وجريدة التايمز هى مجرد أوامر فقط وعندئذ كانت قد بدأت تصعد فى تثاقل على السلالم الضخمة متجهة نحو الظلام .

- تشارلى !

راحت تفكر : أنت تنادى علىَّ بهذه الطريقة وأنا اكتفى بمجرد النزول على سلالم قليلة وأضربك بقوة على الممر الجبلى السويسرى . سارت خطوتين أخريين قبل أن يتكلم هو مرة أخرى لم تكن قد توقعت وجود مثل هذه القوة فى داخل كيانه .

- سيشعر ميشيل بالسرور للغاية عندما يعرف أن روزاليند كانت ترتدى السوار الخاص به فى هذه الليلة !! أم أن ذلك بمثابة هدية من رجل آخر ؟

واجهته برأسها ثم بكل جسدها أسفل السلالم . كان قد نقل نباتات السحلبية إلى ذراعه الأيسر . أمَّا اليمنى فكان متدلية إلى جواره مثل كُمّ شاغر.

- قلت لك انصرف . اخرج . لو سمحت

- أمرنى ميشيل بأن أشترى لك سمكة طازجة من نوع جراد البحر علاوة على زجاجة من خمور البوتاريس أنه يرى أن الخمور ينبغى أن تكون من النوع الأبيض المثلج . وأنا لدىّ رسائل أخرى منه أيضا . وهو سيغضب للغاية عندما أبلغه أنك رفضت كرم الضيافة . كما سيشعر بالاهانة .

كان ذلك أمراً لايحتمل أنه ملاكها المظلم والذى يطالب بالروح التى رهنتها فى اهمال . وسواء أكان يكذب ام كان رجل شرطة فانها على استعداد ان تتبعه إلى منتصف العالم السفلى اذا كان باستطاعته أن يقودها إلى ميشيل وتقافزت على كعبيها هابطة السلالم فى بطء ومتجهة إلى مكتب الاستقبال .

ألقت بمفتاحها امامها وهى تقول : «همفرى» ثم أخذت القلم الرصاص من يده المستسلمة وكتبت كلمة «كاثى» على بلوك الأوراق ثم أضافت «انها سيدة أمريكية . أفهمت ذلك ! انها رفيقة لى . فاذا اتصلت بى تليفونيا أخبرها أننى خرجت مع ستة من العشـاق . أننى ربمـا أقود السيارة حتى حلول وقت الغــداء غــداً أفهمت ذلك ؟ » .

ثم قطعت قصاصة الورق وطوتها ووضعتها فى جيبه العلوى . ثم قبلته قبلة متسمة باللهو والتسلية بينما ماستاربين يتفرَّج وقد اعتراه استياء مُقنَّع مثل ذلك ،

الاستياء الذى يحس به عاشق ينتظر قضاء الليل معها . وعند الشرفة استخرج بطارية سويسرية أنيقة . وتحت ضوئها شاهدت ملصق هيرتز الأصفر ملتصقا باللوح الزجاجى الأمامى لسيارته . وفتح لها باب المسافرين بالسيارة وتمتم «لو سمحت» الاّ أنها اتجهت مباشرة نحو السيارة الفيات وفتحت الباب وجلست وأدارت الموتور وظلت منتظرة . ولاحظت لدى انطلاقه بسيارته أمامها انه ارتدى بيريه أو قلنسوة سوداء اللون . وكانت حافة القلنسوة منبسطة تماماً مثل قبعة الاستحمام باستثناء أنها جعلت أذنيه تبرزان إلى الخارج .

.. ..

راحا ينطلقان فى موكب بطيئ بسبب مساحات متفرقة من الضباب . أو ربما يقود ماستاربين سيارته على هذا النحو البطئ دائما . تسلقا جبلاً واتجها شمالاً فوق أراضٍ شاغرة . ثم انقشع الضباب فظهرت أعمدة البرق والتليفون مثل الابر الملضومة على صفحة السماء الليلية . وحملق قمر يونانى ممزق فى اقتضاب قبل أن تجره السحب إلى الوراء فى داخل كيانها . وعند مفترق الطرق توقف ماستاربين لكى ينظر فى خريطة . وأخيرا أعطى إشارة تفيد الاتجاه إلى اليسار مستخدما الأضواء فى بادئ الأمر ثم مستخدما يده البيضاء اللون التى راحت تدور على محور . نعم يا أنتون . لقد تلقيت الاشارة . ثم تتبعته هابطة من فوق تلّ ثم مخترقة أرجاء قرية . وأنزلت زجاج نافذتها وملأت عربتها برائحة البحر وأرغمها الهواء المندفع على فتح فمها فى شبه صيحة . وتتبعته تحت راية ممزقة مكتوب عليها عبارة : «الشركة المحدودة بشاليهات شرق / غرب بالمشاركة لبعض الوقت» . ثم صعدا على طريق جديد ضيق يخترق كثبانا رملية فى اتجاه منجم للقصدير محطم وجاثم فوق خط السماء مثل اعلان عن «تعالوا إلى كورنوول» وعلى يمينها وعلى يسارها توجد شاليهات غير مضاءة ومكسوة بألواح خشبية أوقف ماستاربين سيارته وأوقفت سيارتها خلفه . وحرصت أن تكون سيارتها معشقة التروس بسبب وجود الميول المنحدرة . وراحت تفكر : هناك أنين جديد فى فرملة اليد .. الأمر

يستلزم اعادة السيارة إلى ايوستاس خرجت سيارته ففعلت هى نفس الشئ وأغلقتْ سيارتها بالمفتاح . كانت الرياح قد خفت حدّتها حيث أصبحا عند الجانب المحجوب من الرياح لشبه الجزيرة . وكانت طيور النورس تحلّق على ارتفاعات منخفضة وتصدر صراخها . وكأنها فقدتْ شيئا هاما على الأرض . مدّ ماستاربين يده لكى يمسك بمرفقها ويرشدها نحو السير للأمام بينما يده الأخرى ممسكة بالبطارية .

قالت «دعنى وشأنى» فدفع بوابة أطلقت صريراً . وتسابق ضوء أمامها كان المفتاح جاهزا مع ماستاربين وقف على جانب لكى يجعلها تمرّ بحانة وكيل عقارات يفسح المكان لزبونة محتملة . لم يكن يوجد هناك شرفة وعلى نحو ما لا يوجد تحذير تبعته إلى الداخل ثم قام باغلاق الباب وراءها ووجدت نفسها فى غرفة جلوس شمت رائحة ملابس مبللة ورطبة ، كما شاهدت بقعاً من الفطريات السوداء مبعثرة فى السقف . كانت توجد امرأة طويلة شقراء مرتدية بدلة قطنية سميكة مضلعة تقوم بحشر قطعة نقود معدنية فى العدّاد الكهربائى . وعندما شاهدتهما يدخلان عليها حملقت بسرعة فيما حولها فى ابتسامة مشرقة ثم قفزت ناهضة على قدميها .

قالت «أنتون ! أوه هذا أمر لطيف للغاية ! لقد أحضرت لى تشارلى ! مرحبا بك يا تشارلى . ولسوف يكون الترحيب بك مضاعفا اذا تكرمت علىّ وأوضحت لى كيفية تشغيل هذه الماكينة الرهيبة» . ثم أمسكت بكتفى تشارلى وقبّلتها فى اثارة على وجنتيها . وقالت «يا تشارلى . استمعى إلىّ لقد كنت خيالية للغاية فى هذه الليلة فى تلك الرواية التى ألفها شكسبير . أليس كذلك ؟ ألم تكن هى رائعة وممتازة يا أنتون . اننى هيلجا . أوكى ؟ » وكانت تعنى أن الأسماء بمثابة لعبة بالنسبة لى . «هيلجا . أليس كذلك ؟ ومثلما أنك تشارلى فأنا هيلجا » .

وكانت عيناها رماديتين ورائقتين بل وبريئتين على نحو خطير مثل عينى ماستاربين . بل وكانت هناك بساطة قتالية تطل من عينيها على العالم المتسم بالتعقيدات وانخرطت تشارلى فى التفكير : أن تكون صادقا هو أن تكون غير أليف

وغير مُروَّض حيث اقتبست تلك العبارة لنفسها من احدى الخطابات التى أرسلها ميشيل لها . اننى أشعر اذن فأنا أفعل .

ومن زاوية بالغرفة عرض ماستاربين إجابة متأخرة على سؤال هيلجا . حيث قال : أوه لقد كانت بالطبع مُؤثِّرة للغاية .

وكانت يدا هيلجا مازالتا مستقرتين على كتفى تشارلى وتساءلت وهى تحملق فى اشراق فى وجه تشارلى أمن الصعب أن يحفظ المرء كلمات كثيرة للغاية يا تشارلى ؟

ردت تشارلى : أنا لا أعانى من تلك المشكلة .

– اذن فأنت تحفظين الكلام بكل سهولة ؟ ثم أمسكت بيدّ تشارلى ووضعت فى راحة يدها قطعة نقدية من فئة الخمسين بنساً . وقالت هيا . أرينى أرينى كيف يمكن تشغيل هذا الاختراع الانجليزى الخيالى الذى يسمى: النيران .

فجثمت تشارلى عند العداد وأدارت الرافعة فى اتجاه واحد ودفعت بالعملة لكى تنزلق لأسفل ثم ادارت الرافعة فى الاتجاه الآخر وجعلت العملة تسقط بصوت مرتفع . وكان هناك طنين احتجاجى لدى ظهور النيران .

فصاحت هيلجا على الفور قائلة : «هذا شئ لايصدقه العقل يا تشارلى . ولكننى كما ترين ليس لدىّ موهبة تكنيكية اننى ضد فكرة امتلاك الاشياء تماما ، ولذلك فاننى اذا كنت لا أمتلك شيئا فكيف لى أن أعرف طريقة تشغيله ؟ ولسوف يتولى أنتون مهمـة الترجمة . إننى أؤمن بالمبـدأ الذى يقول أن تكون ولكن لا أن تمتلك » .

هل قرأت كتبا من تأليف اريك فروم يا تشارلى ؟

وقال ماستاربين فى اكتئاب وهو ينظر إلى المرأتين : انها تعنى الوجود الكينونى وليس الامتلاك هذا هو جوهر المبدأ الاخلاقى الذى تؤمن به الآنسة هيلجا . فهى تؤمن بالخير والطيبة الأساسية . كما تؤمن بأن الطبيعة تعلو فوق العلم ونحن الاثنان نؤمن بذلك .

كرّرت هيلجا سؤالها هل قرأت كتبا من تأليف اريك فروم ؟ اننى أعشقة إلى أقصى درجة فأنا اذا أعجبت بفيلسوف فاننى أعشقه ، وتلك أيضا صفة جوهرية من صفاتى . وكانت حركاتها مكتسبة رشاقة وسطحية وكسل وتثاقل الشباب الذين هم تحت سن العشرين . وكانت ترتدى حذاء بدون كعب لكى يساعدها ذلك بالنسبة لطولها .

وتساءلت تشارلى : أين ميشيل ؟

فترامى صوت ماستاربين فى اعتراض حاد قائلا : الانسة هيلجا لاتعرف أين يوجد ميشيل انها ليست محامية لقد جاءت فقط من أجل الرحلة ومن أجل العدالة انها ليست لديها معلومات عن الانشطة التى يقوم بها ميشيل أو الأماكن التى يوجد فيها .

لو سمحت اجلسى .

ظلت تشارلى واقفة . الاّ أن ماستاربين أجلس نفسه فوق مقعد وطوى يديه النظيفتين البيضاوين فوق حجره . وكان قد خلع معطف المطر فظهرت البدلة البنية الجديدة التى يرتديها .

قالت تشارلى : «اخبرتنى انك لديك أخبار عنه» وظهرت رعشة فى صوتها وهى تتكلم كما أحست بظهور تخشّب وتصلّب فى شفتيها .

تساءل ماستارباين : منذ متى شاهدتيه فى آخر مرة لو سمحت ؟

ردت : شاهدته فى سالزبورج فاعترضت هيلجا قائلة سالزبورج . ذلك لايعبّر عن وقت محدّد أو تاريخ معين على ما أظن .

– منذ خمسة أسابيع أو ستة أسابيع . أين هو الآن ؟

فتساءل ماستاربين : ومنذ متى سمعت أخباراً عنه فى آخر مرة ؟

اتجهت تشارلى نحو هيلجا وقالت «أريد فقط أن تخبرينى أين هو ! وماذا حدث له ؟»

أين هو الآن ؟

تساءل ماستاربين ألم يجئ اليك أىّ شخص ؟ ولا أصدقاء له؟ ولا الشرطة ؟.

أضافت هيلجا : ربما لاتكون ذاكرتك قوية مثلما تقولين يا تشارلى .

قال ماستاربين : حديثنا عن الأشخاص الذين أجريت اتصالات معهم لو سمحت يا سيدة تشارلى . الآن وعلى الفور . فهذا أمر بالغ الأهمية فنحن هنا من أجل أمور عاجلة

قالت هيلجا : أن ممثلة كهذه يمكن لها أن تكذب بالفعل بكل سهولة . انها امرأة مُدرَّبة على التظاهر . فكيف يمكن للمرء أن يصدق أىّ كلام تقوله ؟

علق ماستاربين اذن : ينبغى أن نكون حريصين للغاية .

وكان العمل المزدوج الذى يقومان به له طابع السَّادية . اذ كانا يلعبان على الآلام الخاصة بها . فراحت تحملق فى هيلجا ثم فى ماستاربين وانسابت الكلمات منزلقة منها . حيث لم يصبح بمقدورها الاحتفاظ بالكلام فى داخل كيانها لفترة أطول ، همست قائلة «لقد مات . أليس كذلك؟» .

وبدا على هيلجا أنها لم تسمع ذلك الكلام وكانت منهمكة تماما فى متابعة الموقف .

وقال ماستاربين نعم . لقد مات وأنا بالطبع آسف لذلك كل الأسف . والآنسة هيلجا تشعر أيضا بالأسف . ونحن كلانا غارقان فى الأسف . ومن واقع الخطابات التى أرسلتيها اليه فاننا نفترض أنك ستشعرين بالأسف أيضا .

فقالت هيلجا مذكرة ماستاربين ولكن يا أنتون ربما تكون الخطابات متسمة بالادعاء والتظاهر .

لقد حدث لها ذلك من قبل فى حياتها أثناء فترة وجودها بالمدرسة . ثلاثمائة فتاة واقفات فى طابور عند حائط قاعة الجمباز بينما ناظرة المدرسةواقفة فى الوسط حيث الجميع فى انتظار سماع اعترافات الإنسانة المتهمة بارتكاب الجريمة . وكانت تشارلى تحملق فيما حولها باحثة عن الفتاة المذنبة ـ أهى الإنسانة المذنبة ؟

ولم تتصاعد الدماء إلى وجهها كدليل على الارتباك أو الخجل إذ كانت تبدو وقورة وبريئة فهى لم تسرق أىّ شىء على الإطلاق وهو أمر حقيقى تماما وثبت صحته بشكل إيجابى . ورغم كل ذلك شعرت بالتخاذل فى ركبتيها وسقطت على قدميها مع شعورها بأنها على ما يرام تماما فيما بين الخصر والرأس أما الجزء الأسفل من وسطها فقد اصبح مشلولاً الآن يحدث لها نفس الشئ . وهو أمر ليس مدروساً على الإطلاق فقد فعلت ذلك قبل أن تدرك ما يجرى لها بل ، وقبل أن تفكر بعض الشئ فى مدى فداحة المعلومة التى هبطت عليها وسجدت على الأرض وراحت تضرب الأرضيةبالغرفة فى ضربات قوية مكتومة مما جعل أنوار السقف تتقافز . فركعت هيلجا بسرعة إلى جوارها وتمتمت بكلام ما باللغة الألمانية ووضعت يدها على كتفها محاولة التهدئة من روعها ـ وهو تصرف متسم بالصدق وعدم التكلّف . وانحنى ماستاربين يحملق فيها الاّ أنه لم يلمسها بيده . وكان اهتمامه منصبا بصفة خاصة على تفحصّ الطريقة التى تبكى بها .

كانت تشارلى قد أمالت رأسها على جانب ووضعت خدها على جُماع يدها حتى أن دموعها راحت تنساب عبْر وجهها بدلاً من الاتجاه إلى أسفل نحو ذقنها . وتدريجيا ومع استمراره فى مراقبتها والنظر إليها بدت دموعها وكأنها تدخل عليه البهجة والسرور . وأومأ برأسه إيماءة هادئة مثل الإيماءة التى تعنى الموافقة بينما قامت هيلجا بنقلها إلى الأريكة حيث استلقت ودفنت وجهها فى الوسائد المليئة بالأشواك اللاسعة . وهى تبكى مثلما يبكى الأطفال الذين فقدوا آباءهم . اهتياج وغضب وشعور بالذنب والندم والرعب كانت تدرك كل واحد منها مثل إدراكها لأداء تمثيلى عميق مُتَحكّم فيه . أنتم أيها الغشاشون . أيها القتلة . أيها الغشاشون الفاشيست أنتم يا أولاد الزنا قد قتلتم حبيبى على مسرح الحياة .

من المؤكد أنها قالت بعض تلك العبارات بصوت مرتفع . كانت قد راجعت واختارت عبارتها المخنوقة بينما الحزن الهائل يمزق كيانها : أنتم أولاد حرام وفاشست . أنتم خنازير . أوه أيها السيد المسيح . أوه يا ميشيل .

وسادت فترة من الصمت وبعدئذ سمعت صوت ماستاربين وهو يدعوها للإسهاب فى هذا الكلام . ولكنها تجاهلته واستمرت فى لفّ رأسها من جانب لآخر خلف يديها . وشعرت بالاختناق وحاولت أن تتقيأ . وانحشرت كلماتها فى حلقها ، وتعثرت كلماتها عند شفتيها . إن الدموع والكرب العظيم وشهقات البكاء المتكررة كانت أموراً سهلة بالنسبة لها ولا تعتبر بمثابة مشكلة - فهى على وفاق تام مع مصادر حزنها وموارد غضبها الهائل . فهى لم تكن بحاجة لأن تتذكر أباها الراحل ولا لأن ترسم فى مخيلتها صورة لطفلة تراجيدية تجتاز قفار الحياة المراهقة ، وهى أمور تلجأ إليها عادة لكى تستجلب أحزانها العميقة . كان عليها فقط أن تتذكر الولد العربى المُروَّض نسبيا الذى أعاد لها مقدرتها على الحبّ والذى أعطى لحياتها الاتجاه الذى تتطلع إليه والذى أصبح الآن ميتا وجثة هامدة لكى تنهار دموعها مدراراً .

قال ماستاربين موجها كلامه باللغة الانجليزية لهيلجا : إنها تقول إن الصهاينة هم الذين قتلوه فلماذا تقول هى إن الصهاينة هم الذين قتلوه فى حين أن موته قد نجم عن حادث ؟ لقد أكدت لنا الشرطة أنه حادث فلمَ هى تُكذب الشرطة ؟ إن تكذيب الشرطة يعتبر من الأمور الخطيرة للغاية .

وعلى نحو فجائى ظهر الغليان والفقاقيع فى إناء القهوة . فنهضت هيلجا لإنجاز مهمة إعداد القهوة ، وجلست تشارلى على الأريكة ممسكة بفنجان القهوة بكلتا يديها وكأنها تستنشق البخار بينما تجرى دموعها باستمرار هابطة على خدّيها كانت هيلجا قد لفت ذراعها حول كتف تشارلى بينما كان ماستاربين جالساً فى مواجهتهما محملقا فى المرأتين من بين ظلال العالم المظلم الخاص به .

قال لقد كان حادث انفجار . على الطريق السريع بين سالزبورج وميونيخ . وطبقا لما قالته الشرطة كانت سيارته مليئة بالمتفجرات . مئات الأرطال فلماذا ؟ لماذا ينبغى أن تنفجر هذه المواد فجأة على طريق ناعم ومنبسط وخالٍ من أىّ مطبات ؟

وهمست هيلجا قائلة : خطاباتك فى مكان آمن ثم قال ماستاربين : لقد كانت السيارة من نوع المرسيدس وكانت الرخص الخاصة بها صادرة من ميونيخ ولكن الشرطة قالت ان الرخص زائفة . وكذلك كل الأوراق . كل المستندات كانت زائفة . ولماذا يقوم عميلى الخاص بقيادة سيارة بأوراق زائفة ومليئة بالمتفجرات ؟ لقد كان طالبا . ولم يكن قاذفا للقنابل . انها مؤامرة بالفعل . وهذا هو اعتقادى .

قالت هيلجا متمتمة فى أذنها : هل تعرفين هذه السيارة يا تشارلى ؟ ثم ضمتها إلى صدرها فى محاولة منها لانتزاع إجابة على تساؤلها إلاَّ أن كل ما استطاعت تشارلى أن تشاهده فى داخل ذهنها هو حبيبها الذى تمَّ نسف جسده لدى انفجار ٢٠٠ رطل من المتفجرات البلاستيكية الروسية المخبأة فى أماكن مختلفة بالسيارة مما أدى إلى تمزيق وحرق الجسد الذى كانت تعبده ، وكل ما استطاعت سماعه هو سماع صوت المعلّم الآخر الخاص بها الذى ليس له اسم وهو يقول لها : لاتضعى ثقتك فيهمّ . اكذبى عليهم وارفضى كل شىء واعترضى على كل شىء والتزمى بالرفض .

وقال ماستاربين فى نغمة متسمة بالاتهام لقد قالت كلاماً ما .

قالت هيلجا : نطقت باسم ميشيل . وراحت تمسح هجوما آخر من الدموع المتدفقة مستخدمة منديلاً سحبته من حقيبة يدها .

وقال ماستاربين : وماتت فتاة أيضا . يقولون إن تلك الفتاة كانت معه فى السيارة .

قالت هيلجا بصوت منخفض : إنها فتاة هولندية شقراء وجميلة للغاية.

فاستطرد ماستاربين بصوت مرتفع نسبيا لقد ماتا سويا على ما يبدو.

وأوضحت هيلجا الأمور قائلة : فأنت لم تكونى الفتاة الوحيدة التى يحبها يا تشارلى . لم تكونى أنت الإنسانة الوحيدة التى استغلت هذا الشاب الفلسطينى .

ولأول مرة منذ أن أعلن نبأ وفاة ميشيل تنطق تشارلى بعبارة متماسكة

ومترابطة منطقيا حيث قالت فى همس : إننى لم أنشد استغلاله فى أىّ وقت من الأوقات على الإطلاق .

وقال ماستاريين الشرطة تقول إن الفتاة الهولندية كانت إرهابية .

قالت هيلجا : وتقول أيضا إن ميشيل كان إرهابيا .

واكمل ماستاريين : ويقولون إن الفتاة الهولندية سبق لها أن قامت بزرع القنابل مرات عديدة تنفيذا لتعليمات صادرة من ميشيل وإنهما كانا يخططان للقيام بعملية أخرى حيث وجدوا بالسيارة خريطة لمدينة ميونيخ مع وجود علامة بخط يدّ ميشيل حول المركز التجارى الإسرائيلى بالخريطة . عند نهر «إيسار» وهـو هـدف صعب بالفعل هـل حـدثك عن هذه العملية يا تشارلى ؟

وفى رعشة وارتعاد ارتشفت تشارلى قليلاً من القهوة مما جعل هيلجا تشعر بالسرور من هـذه الحركة وكأنها إجابة على التساؤل . قالت هيلجا إنهـا تتيقظ أخيراً . أتريدين المزيد من القهوة يا تشارلى ؟ هل لى أن أسخن لك بعض القهوة ؟ أو بعض الطعام ؟ لدينا هنا جبنة وبيض وسجق بل وكافة أصناف الطعام . كل شىء هنا .

هزت تشارلى رأسها بما يفيد الرفض . ثم سمحت لهيلجا أن تصطحبها إلى دورة المياه حيث ظلت باقية هناك لبعض الوقت وراحت تلقى بالماء على وجهها وتحاول التقيؤ . وكانت تتمنى لو كانت تعرف قدرا كافيا من اللغة الألمانية بحيث يسمح لها بتتبع الحوار المتقطع الذى يترامى إليها من خلال باب الحمام .

وعندما رجعت من الحمام وجدت ماستاريين واقفا عند الباب الأمامى وقد ارتدى معطف المطر الجباردينى الخاص به قال «يا سيدة تشارلى . أذكرك بأن الآنسة هيـلجا تتمتع بالحماية الكاملة للقانون» ثم خرج من الباب الأمامى .

.. ..

بمفردهما أخيراً . فتاتان مع بعضهما البعض ووجهاً لوجه .

قالت هيلجا ضاحكة : أنتون رجل عبقرى . وهو الملاك الحارس بالنسبة لنا . وهو يكره القانون . ولكنه على نحو طبيعى يقع فى حبّ الأمور التى يكرهها هل تتفقين معى فى هذا الرأى ؟ يا تشارلى ، ينبغى عليك دائما أن تتفقى معى فى الرأى . وإلاّ فإننى سأشعر بالإحباط الشديد . العنف ليس هو المسألة على الإطلاق . نحن نتخذ عملا يتسم بالعنف ونقوم بعمل يتسم بالسلم . فهذا أمر غير مهم ولا يقدم ولا يؤخر . المسألة معنا هى أن نكون منطقيين ولا نقف على أجانب : بينما العالم يدير شئون نفسه . وإنما نحول وجهة النظر إلى إيمان راسخ ونحوّل الإيمان الراسخ إلى عمل .

وتوقفت عن الكلام وراحت تدرس مدى تأثير هذا الكلام على تلميذتها . وكان رأساهما متقاربيْن للغاية إن العمل هو تحقيق الذات والعمل أيضا يتسم بالموضوعية . أليس كذلك ؟ وتوقفت عن الكلام مرة أخرى ولكنها لم تتلق أىّ أجابة وأنا لدىّ علاقات ممتازة مع والدىّ . ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لك . ويمكن للمرء أن يدرك ذلك مـــن خطاباتك . وأنتون أيضا . ووالدتى هى الأكثر ذكاء ولكن والدى .

.. ..

توقفت عن الكلام مرة أخرى ولكنها فى هذه المرة شعرت بالضيق والغضب بسبب التزام تشارلى بالصمت وبسبب تجدّد انخراطها فى البكاء .

- يا تشارلى . توقفى عن البكاء على الفور هه ؟ لسنا عجائز فى نهاية الأمر . لقد شعرت بالحب نحوه ، ونحن نتقبل ذلك كأمر منطقى . لكنه أصبح ميتا الآن . أصبح صوتها جافا على نحو مثير للدهشة لقد مات . لكننا لانؤمن بالمذهب الفردى بالنسبة للتجربة الخاصة فنحن مقاتلون وعُمَّال توقفى عن البكاء .

أمسكت هيلجا بمرفق تشارلى ورفعتها لكى تقف على قدميها وسارت بها فى بطء عبْر الغرفة .

استمعى إلىَّ . على ذات يوم كان لى عشيق بالغ الثراء والغنى . كورت وهو فاشستى وبدائى لقد استخدمته من أجل الجنس مثلما استخدم أنتون حاليا ولكننى

حاولت أيضا أن أعلمه . وفى يوم ما تم تنفيذ حكم الإعدام فى السفير الألمانى لدى بوليفيا بمعرفة المدافعين عن الحرية . هل تتذكرين هذا العمل ؟ ولكن كورت الذى لايعرف هذا السفير شعر بالغضب الشديد على الفور وقال «الخنازير . هؤلاء الإرهابيون ! إن هذا العمل متسم بالعار !» فقلت له «يا كورت . على مَنْ تحزن وتتفجع ؟ فالناس يموتون من الجوع يوميا فى بوليفيا . فلماذا ينبغى علينا أن نهتم بشخص واحد ميت ؟ » . أنت توافقين على هذا التقييم يا تشارلى ؟ نعم ؟

فلومأت تشارلى بإيماءة خفيفة . ثم أدارتها هيلجا وسارت بها فى رحلة العودة عبرْ الغرفة .

والآن أدخل معك فى مزيد من المناقشة الجادة . إن ميشيل شهيد . ولكن الشهيد لايستطيع أن يقاتل كما يوجد هناك أيضا العديد من الشهداء الآخرين . جندى واحد أصبح ميتا ولكن الثورة تستمر . أليس كذلك ؟

فهمست تشارلى : نعم .

ووصلا إلى الأريكة . ورفعت هيلجا حقيبة يدها واستخرجت منها نصف زجاجة مفلطحة من الويسكى . وشاهدت تشارلى ورقة تفيد أن الزجاجة غير خاضعة للرسوم الجمركية . ثم فتحت هيلجا غطاء الزجاجة وناولتها لتشارلى .

قالت : نحن نشرب تكريما للشهيد ميشيل من أجل ميشيل . قولى ذلك.

وارتشفت تشارلى رشفة ضئيلة . وبدا علها الاكتئاب الشديد . فاستردت هيلجا الزجاجة منها :

– لو سمحت يا تشارلى . اجلسى أريدك أن تجلسى على الفور الآن .

فجلست تشارلى فى فتور وتراخ على الأريكة ووقفت هيلجا إلى جوارها مرة أخرى :

– أنت تصغين إلىَّ وتجيبين على أسئلتى هه ؟ أنا لم أحضر هنا من أجل العبث . أتفهميننى ؟ ولا من أجل المناقشات والمجادلات . وأنا أحب النقاش ولكن ليس الآن . قولى «نعم»

قالت تشارلى فى إعياء : نعم

– انه كان منجذبا اليك . وهذه حقيقة علمية بل كان متيّما ومفتونا بك فى حقيقة الأمر . وكان هناك خطاب غير مكتمل موجهٍ إليك وموجود على مكتبه فى شقته وهذا الخطاب مليىء بالعبارات الرائعة التى تتعلق بالحب والجنس . كما توجد أيضا بعض العبارات التى تتعلق بالنواحى السياسية.

وعلى نحو تدريجى دبّ الشغف والاهتمام فى وجه تشارلى الملطخ الملتوى . وقالت : أين يوجد هذا الخطاب ؟ أعطينى الخطاب ؟

– انه يتم حاليا دراسة هذا الخطاب وتحليل محتوياته . ففى العمليات ينبغى تحليل وتقييم كل شىء وبأسلوب موضوعى .

فنهضت تشارلى واقفة على قدميها وقالت : هذا الخطـــاب ملكى أنا . أعطيه لىّ !

إنه من ممتلكات الثورة . وربما ستحصلين عليه فيما بعد . ولسوف نرى ما سيتقرر بشأن ذلك الخطاب ثم قامت بدفع تشارلى فى شىء من القوة لكى تعيدها إلى الجلوس على الاريكة . واستطردت وهذه السيارة . السيارة المرسيدس التى صارت الآن صندوقا من الرماد . هل قمت بقيادتها عبْر الحدود إلى داخل ألمانيا ؟ من أجل ميشيل ؟ أكانت هذه مهمة أو مأمورية ؟ أجيبى على أسئلتى .

فتمتمت قائلة : النمسا – من أين ؟

– عبْر يوجسلافيا

– يا تشارلى . أعتقد أنك رديئة للغاية من حيث الالتزام بالدقة : من أين ؟

– تسالونيكا

– اصطحبك ميشيل طوال هذه الرحلة . بالطبع هو فعل ذلك . وأعتقد أنه كان من الطبيعى أن يصطحبك .

– لا

– ماذا تعنين بـ «لا» ؟ هل قدت السيارة بمفردك ؟ على مدى هذه المسافة الطويلة ؟ لايمكن له أن يعهد لك بمثل هذه المسئولية . إننى لا أصدقك على الإطلاق القصة كلها مليئة بالأكاذيب .

قالت تشارلى وقد عاد إليها الفتور واللامبالاة : ومنْ الذى يهتم ؟

بدت هيلجا مهتمة . وكانت قد أصبحت تموج بالغضب بالفعل : بالطبع أنت لاتهتمين ! فإذا كنت جاسوسة فلماذا ينبغى عليك أن تهتمى ؟ إن ما حدث قد أصبح واضحا فى ذهنى بالفعل . لستُ بحاجة لأن أسأل المزيد من الأسئلة . لقد قام ميشيل بتجنيدك وجعل منك حبه السّرى . وبمجرد أن أصبحت قادرة نقلت قصتك إلى الشرطة لكى تحمى نفسك ولتكونى لنفسك ثروة من الأموال . أنت جاسوسة تابعة للشرطة . ولسوف أقدم تقريراً بذلك إلى أناس لهم نفوذ كبير على اتصال بنا . وبالتالى سيتم إعدامك حتى ولو بعد مرور عشرين عاما من الآن .

قالت تشارلى عظيم ، بل شىء رهيب افعلى ذلك يا هيلجا . فذلك هو ما أريده على وجه الدقة . أرسليهم إلىَّ . ممكن ؟ الغرفة رقم «١٦» بالفندق .

كانت هيلجا قد ذهبت إلى النافذة وأزاحت الستائر وكانت تريد على مايبدو استدعاء ماستاربين فنظرت تشارلى إلى ما وراء هيلجا فشاهدت سيارته المستأجرة الصغيرة وقد أضيئت أنوارها الداخلية كما شاهدت الخطوط الخارجية لماستاربين جالساً فى هدوء فى مقعد القيادة بالسيارة .

وطرقت هيلجا على النافذة وقالت : أنتون ؟ يا أنتون تعال إلى هنا على الفور . فنحن لدينا جاسوسة موجودة بيننا لماذا لم يحدثنا ميشيل عنك؟ لماذا لم يقتسمك معنا ؟ أنت ـ بمثابة المفاجأة غير المتوقعة الخاصة به . فالأمر يدعو للسخرية الشديدة !

– كان يحبنى

– بل كان يستخدمك . ألا زالت خطاباته موجودة معك ؟

أمرنى بأن أدمّر الخطابات

- ولكنك لم تدمرى الخطابات . بالطبع لم تدمرى الخطابات فأنت انسانة بلهاء مهتمة بالعواطف وهذا يتضح من الخطابات التى أرسلتيها له . لقد قمت باستغلاله وهو أنفق عليك الكثير من الأموال واشترى لك الثياب والمجوهرات وسدّد لك فواتير الفنادق وبعدئذ فأنت قمت ببيعه للشرطة بالطبع أنت فعلت ذلك .

ووجدت هيلجا نفسها قريبة من حقيبة اليدْ الخاصة بتشارلى . فقامت فجأة بالتقاط الحقيبة وأفرغت محتوياتها على منضدة الطعام . فظهرت المفاتيح التى كانت قد زُرعت بالحقيبة : المفكرة اليومية وقلم الحبر الذى له سنّ على هيئة كرة من نونتنجهام وعلب الكبريت التى من أثينا . لكنها كانت تبحث عن دليل واضح يدلّ على خيانة تشارلى وليس إخلاصها .

- هذا الراديو

إنه الراديو اليابانى الصغير والذى به منبه من أجل البروفات .

- ما هذا ؟ إنه جهاز خاص بالتجسس .

من أين جاء هذا الجهاز ؟ ولماذا تحمل امرأة مثلك جهاز راديو فى حقيبة يدها ؟

فأشاحت تشارلى بوجهها بعيداً عنها . وراحت تحملق فى شرود فى النيران . وأخذت هيلجا تعبث بمؤشر الراديو والتقطت شيئا من الموسيقى . ثم أغلقته ووضعته على جانب فى توتر وقلق .

- فى الخطاب الأخير لميشيل الذى لم يضعه فى صندوق البريد عبارة تفيد بأنك قمت بتقبيل البندقية فما معنى ذلك ؟

- هذا يعنى أننى قبلْت بندقيته . ثم صححت كلامها وقالت فى استدراك قبلْتُ بندقية أخيه » .

فارتفع صوت هيلجا فجأة ، أخوه ؟ مَنْ هو أخوه ؟

- إنه له أخ أكبر منه . وهو بمثابة البطل الخاص به . وهو محارب عظيم . وقام هذا الأخ الأكبر بإعطاء أخيه ميشيل بندقيته . ولقد جعلنى ميشيل أقبّل هذه البندقية كنوع من الدخول فى العهْد أو إعطائى العهْد .

وراحت هيلجا تحملق فيها فى غير تصديق : لقد قال لك ميشيل هذا ؟

- لقد قرأت هذا فى الأوراق . أليس كذلك

- متى قال لك هذا

- فوق قمة تلّ فى اليونان .

قالت فى صوت مرتفع شبيه بالصراخ : وماهى الأشياء الأخرى التى قالها عن أخيه ؟ ردّى علىّ بسرعة ؟ !

- أخبرتك أن ميشيل كان يعبد ويقدس أخاه .

- قدّمى لى الحقائق . ولا شىء سوى الحقائق . ماهى الأمور الأخرى التى قالها عن أخيه ؟

ولكن الصوت السرّى لتشارلى كان يوحى بأنها تجاوزت حدودها بما فيه الكفاية . وقالت تشارلى : إنه سرّ عسكرى .

اقتربت هيلجا من تشارلى وقالت : هل أخبرك عن مكانه ؟ هل كلمك عن الأمور التى يفعلها ؟ يا تشارلى إننى آمرك أن تجيبى على أسئلتى هذه الشرطة والاستخبارات وربما الصهاينة كل شخص يقوم بالبحث عنك . ونحن لدينا علاقات ممتازة مع عناصر مهمة فى الشرطة الألمانية . وهم يعرفون بالفعل أن الفتاة الهولندية ليست هى الفتاة التى قادت السيارة عبْر يوجوسلافيا . فهم لديهم بعض الأوصاف . وهم لديهم الكثير من المعلومات التى تدينك وتتهمك بالتورط فى الجريمة. ونحن يمكن لنا أن نقدم لك يد العون والمساعدة إذا رغبنا فى ذلك . ولكن ليس قبل أن تحكى لنا عن كل شىء قاله ميشيل عن أخيه وانحنت بشدة للأمام إلى أن أصبحت عيناها الشاحبتان على مسافة بوصات قليلة للغاية من عينى تشارلى . ثم

أضافت : فهو لم يكن له الحق فى أن يحدثك عن أخيه . وأنت ليس لك الحق فى الحصول على هذه المعلومات . أفضى لى بهذه المعلومات التى قالها عن أخيه .

راحت تشارلى تفكر فى هذا المطلب الذى طلبته هيلجا ولكنها بعد تفكير عميق رفضت ذلك المطلب . وتمتمت : لا .

كانت تهدف إلى أن تستطرد قائلة : لقد وعدت بالحفاظ على السرّ وذلك هو كل مافى الأمر ، وأنا لا أثق فيك ، انزلى من فوق ظهرى .

عندما أصغت لكلمة «لا» المتسمة بالبساطة فإنها قررت الاكتفاء بهذه الكلمة بمفردها لأنها معبرة على نحو أفضل .

كان يوسف قد قال : إن مهمتك هى أن تجعليهم فى حاجة إليك . وفكرى فى هذا الأمر من حيث هو نوع من التودد والمغازلة إنهم سوف يعجبون كثيراً بالأمور التى لايستطيعون الحصول عليها .

.. ..

كانت هيلجا قد اتخذت نوعا من الهدوء المثالى ورباطة الجأش . لقد انتهى التمثيل المسرحى وانتهى التكلف فى السلوك والكلام لقد دخلت فى مرحلة من الانفصال المتسم بالبرود الثلجى وهو أمر كانت تدركه تشارلى على نحو غريزى لأنه أمر تستطيع أن تفعله بنفسها .

– إذن قد قمت بقيادة السيارة إلى النمسا . وماذا بعدئذ ؟

– لقد تخلصت من السيارة فى المكان الذى حدّده هو ثم تقابلت بعد ذلك وذهبنا سويا إلى سالزبورج .

– كيف ؟

– باستخدام الطائرة والسيارة .

– ثم ؟ فى سالزبورج ؟

– ذهبنا إلى فندق .

– ماهو إسم الفندق . لو سمحت ؟

– لا أتذكر إسم الفندق .

– اذن قدمى لى وصفا لهذا الفندق .

– كان فندقا قديما وضخما وقريبا من النهر . وكان فندقا جميلاً .

– لقد مارست الحب . فهو كان شهوانيا ومكتمل الرجولة ولديه العديد من هزات التهيج كالمعتاد .

– ذهبنا سويا للنزهة والتريض سيرا على الأقدام .

– وبعد الانتهاء من النزهة مارست الحب معه . أرجوك لاتكونى سخيفة.

فقالت تشارلى : كنا نهدف إلى ممارسة الجنس . لكننى استغرقت فى نوم عميق بمجرد الانتهاء من تناول طعام العشاء سويا . فقد كنت أشعر بالإرهاق الشديد الناجم عن قيادة السيارة . لقد حاول إيقاظى من النوم مرتين ثم توقف عن محاولاته . وفى الصباح ارتدى ملابسه بحلول الوقت الذى استيقظت فيه .

– وبعدئذ ذهبت معه إلى ميونيخ ـ أليس كذلك ؟

– لا

– اذن ماذا فعلت ؟

– ركبتُ طائرة فى فترة ما بعد الظهر متجهة إلى لندن .

– وماهى السيارة التى كانت معه ؟

– سيارة مستأجرة

– وماهى ماركة السيارة ؟

فتظاهرت بأنها لاتتذكر ماركة السيارة .

– ولماذا لم تذهبى معه إلى ميونيخ ؟

– لم يرد لنا أن نعبر الحدود سويا .

لقد قال إن لديه أعمالا ينبغى عليه إنجازها .

– هو قال لك هذا الكلام ؟ عمل ينبغى عليه انجازه ؟ هذا كلام فارغ ! وماهو ذلك العمل ؟ لا عجب فى أنك كنت قادرة على خيانته !

– قال إن أوامر قد صدرت له لالتقاط السيارة المرسيدس وتسليمها فى مكان ما لأخيه .

وفى هذه المرة لم تظهر هيلجا أىّ قدْر من الدهشة . وبل ولم يظهر عليها مشاعر السخط والاستياء وذلك وفقا لما اشتهر به ميشيل من طيش مطبق . وكان ذهنها متركزا على العمل . وكان العمل هو الأمر الذى تؤمن به . وسارت بخطوات واسعة نحو الباب وفتحته فى عنف على مصراعيه وأشارت بيدها فى غطرسة لماستاربين لكى يعود إلى داخل الغرفة . ثم استدارت ووضعت يديها على ردفيها وحملقت فى تشارلى . وكانت عيناها الكبيرتان الشاحبتان مثيرتين للذعر والرعب .

قالت : أنت يا تشارلى أصبحت فجأة مثل روما . فجميع الطرق تؤدى إليك . فالأمر متسم بالحماقة الشديدة فأنت واقعة فى حبّه السرىّ وأنت تقودين له سيارته . وأنت تقضين معه آخر ليلة له على وجه الكرة الأرضية . أكنت تعرفين ما كان موجوداً بالسيارة عندما قمت بقيادة السيارة .

– متفجرات .

– كلام فارغ . وما نوع تلك المتفجرات ؟

– متفجرات بلاستيكية روسية . حوالى ٢٠٠ رطل من هذه المتفجرات .

– الشرطة أخبرتك بهذه المعلومة إنها الكذبة التى قالتها الشرطة . فالشرطة تكذب دائما .

- إن ميشيل هو الذى قال لى هذه المعلومة .

أصدرت هيلجا ضحكة غاضبة زائفة وقالت : أوه يا تشارلى ! أنا لا أصدق أىّ كلمة تقولينها . أنت تكذبين علىّ تماما وفى خطوات عديمة الصوت لاح ماستاربين فى شكل ضخم متسم بالتهديد خلفها . يا أنتون كل شىء أصبح أصبح معروفا . فهذه الأرملة الصغيرة الخاصة بنا انسانة كذابة تماماً. وأنا متأكدة الآن من ذلك تماما . ولن نفعل أىّ شىء لمساعدتها على الإطلاق . سوف نغادر الآن على الفور .

وراح ماستاربين يحملق فيها وراحت هيلجا تحملق فيها أيضا كانت تشارلى تجلس مثل امرأة جميلة مسترخية بل وغير مبالية بأىّ شىء باستثناء فقدانها لحبيبها .

جلست هيلجا إلى جوار تشارلى مرة أخرى ولفت ذراعها حول كتفها وتساءلت : ماهو اسم أخيه ؟ هيا أجيبى علىّ يا تشارلى . وراحت تقبلها فى رفق على عظمة خدّها . واستطردت «وربما نصبح أصدقاء لك . ينبغى علينا أن نلتزم بالحرص والحذر . ويجب أن نلجأ للخداع بعض الشىء . فهذا أمر طبيعى . وهو كذلك . أخبرينى أولا باسم ميشيل الحقيقى

- إنه يسمى : سالم . ولكننى أقسمتُ بالاَّ أستخدم هذا الاسم على الإطلاق.

- وماهو اسم أخيه ؟

فقالت فى تمتمة : «خليل» ثم انخرطت فى البكاء مرة أخرى . وأضافت «ميشيل كان يعبد ويقدس أخاه خليل»

- وماهو اسمه الحركى .

ولم تفهم معنى كلمة «الاسم الحركى» ولم تشغل بالها بذلك .

وأضافت : لقد كان سراً عسكريا .

.. ..

كانت قد قررت أن تواصل قيادة السيارة إلى أن تسقط فجأة وتصاب بالانهيار والموت - يوجوسلافيا مرة أخرى . سأسير خارجة من العرض المسرحى ولسوف أذهب إلى نوتنجهام ثم أقتل نفسى فى سرير الموتيل الخاص بنا .

وأصبحت فوق الأرض السبخة مرة أخرى وكانت بمفردها وكانت منطلقة على سرعة ٨٠ كم / ساعة قبل أن تخرج عن الطريق تقريباً . ثم أوقفت السيارة ورفعت يديها فى حدة عن عجلة القيادة . وكانت العضلات فى مؤخرة رقبتها تتلوى مثل أسلاك ساخنة وشعرت بالمرض يزحف على كيانها

كانت جالسة على حافة الطريق تضع رأسها بين ركبتيها . وجاء حصانان صغيران بريّان إليها مثل . لكى يحملقا فيها . وكان العشب طويلاً ومليئاً بندى الفجر . ومدت يديها فى تثاقل وبلّلتهما بالندى ووضعتهما على وجهها لكى تبرّده وترطبه . ومرت بجوارها دراجة بخارية فى بطء وشاهدت صبيا ينظر اليها فى تردّد كما كان لايعرف ما إذا كان عليه أن يتوقف ويساعدها . ومن بين أصابعها شاهدته يختفى تحت خط السماء . إنه واحد تابع لنا . انه واحد تابع لهم ؟ وعادت إلى السيارة وكتبت رقم الدراجة البخارية . انها ولأول مرة لم تعد تثق فى ذاكرتها . وكانت نباتات ميشيل السحلبية موجودة بالمقعد إلى جوارها فقد طالبت بأخذ هذه النباتات معها عندما استأذنت للانصراف .

كانت هيلجا قد قالت فى احتجاج : ولكن يا تشارلى لا تكونى سخيفة تماما ! فأنت عاطفية أكثر من اللازم .

- أنت إنسانة غريبة الشأن أيضا يا هيلجا فهذه النباتات تخصنى أنا .

وأصبحت فوق هضبة عالية خالية من الأشجار ولها ألوان وردية وبنية ورمادية . وظهر منظر شروق الشمس منعكسا على مرآة القيادة الخاصة بها . ولم يقدم راديو سيارتها أىّ شئ سوى اللغة الفرنسية . ويبدو أن البرنامج كان بمثابة سؤال وجواب عن مشاكل فتيات المدارس إلاّ أنها لم تستطع فهم الكلمات .

ومرت بجوار سيارة نوم زرقاء اللون واقفة فى حقل توجد إلى جوارها سيارة لاندروفر شاغرة . وإلى جوارها توجد ملابس أطفال معلقة على حبْل غسيل لايُرى إلا بالتلسكوب . أين شاهدت حبل غسيل يشبه هذا من قبل ؟ إنها لم تشاهد مثله فى أىّ مكان آخر من قبل .

استلقت على سريرها فى بيت الضيافة وراحت ترقب النهار وهو يشرق فوق السقف . وراحت تصغى لهديل الحمام الموجود فوق قاعدة نافذتها . لقد سبق أن حذرها يوسف قائلا : إن أخطر الأمور تحدث عندما تنزلين هابطة من فوق الجبل . وسمعت وقع أقدام مكتومة فى الطرقة . إنهم هُمْ . ولكن أىّ نوع منهم ؟ دائما نفس السؤال . أكانت السيارة حمراء ؟ لا أيها الضابط فأنا لم يسبق لى على الإطـــلاق أن قدتُ سيارة مرسيدس حمراء لذلك ينبغى عليك أن تخـــرج من غرفة نومى. وجرت نقطة من العرق البارد على بطنها العارية . وفى داخل ذهنها راحت تتبع مجراها عبرْ سرُتّها وإلى ضلوعها ثم إلى ملايتها . تزييق فى الألواح الخشبية التى تكسو الأرضية وأنفاس مكتومة لجهد مبذول : إنه ينظر من خلال ثقب مفتاح الباب . ظهرت زاوية ورقة بيضاء تحت بابها . وشقت الورقة طريقها فى تمعّج والتواء، وتزايد حجم الورقة كان همفرى الصبى السمين يدفع بجريدة «الديلى تلجراف» من تحت عقب الباب .

.. ..

استحمت وارتدت ثيابها . ثم قادت السيارة فى بطء متخذة طرقاً قليلة مع التوقف عند دكانين على طريقها وفقا للتعليمات التى أصدرها لها . لقد ارتدت ملابس غير أنيقة وسرحت شعرها كيفما اتفق كان مظهرها المتسم بالإهمال يوحى لمن يشاهدها أنها تمرّ بحالة من الهمّ والقلق . وأظلم الطريق : إذ تشابكت أشجار الدردار المريضة فوقها على الطريق بينما توجد كنيسة قديمة كورنيثية جاثمة بين الأشجار . فأوقفت السيارة مرة أخرى ودفعت البوابة الحديدية فانفتحت أمامها كانت المقابر قديمة للغاية . والقليل منها كانت توجد لها شواهد وشاهدت قبرا يقع

بعيـــداً عن القبور الأخرى . أهو قبرٌ لشخص منتحر ؟ أهـــو قبْر لشخص قاتل ؟ خطأ : إنه قبْر لزعيم ثورى متطرف . فركعتْ وقامت فى تبجيل واحترام بوضع نباتات السحلبية عند نهاية القبرْ وفى المكان الذى اعتقدت أنه يحتوى على رأس الرجل الثورى . خطتْ خارجة من الهواء البارد الثلجى الموجود فى داخل الكنيسة وهى تشعر بجوّ من الحداد التام . وهو إجراء ما كانت ستقدم عليه تشارلى فى مسرح الحياة الواقعية وتحت الظروف الواقعية .

استمرت لساعة أخرى تتجول على غير هُدى بهذه الطريقة حيث توقفت بسيارتها بدون أن يكون هناك داع لذلك على الإطلاق اللهم إلاّ من أجل أن تستند على بوابة أو من أجل أن تحملق فى إحدى الحقول . أو من أجل أن تستند على بوابة وعدم الحملقة فى أى شئ على الإطلاق . وبعد الساعة الثانية عشرة أصبحت واثقة أن راكب الدراجة البخارية توقف عن تعقبها تماما . ورغم ذلك فانها دخلت فى العديد من الانعطافات والالتفافات ، كما جلست فى كنيستين أخريين قبل أن تدخل إلى الطريق العمومى الرئيسى المتجه إلى «فالماوث» .

كان الفندق بمثابة مزرعة لها سور من القرميد المموج تقع فى منطقة هلفورد وبداخل الفندق يوجد حمام سباحة وحمامات ساونا وأرض ممهدة للجولف لها تسعة ثقوب ونزلاء يشبهون أصحاب الفنادق . لقد سبق لها أن نزلت فى فنادق عديدة أخرى ، لكنها لم تنزل فى هذا الفندق من قبل ، كان قد ملأ الاستمارة بالفندق على أساس أنه صاحب دار نشر ألمانية وأحضر معه كومة من الكتب غير المقروءة لكى يثبت صحة ذلك . كان قد قدّم بقشيشا للسيدات العاملات على لوحة المفاتيح موضحا لهن أن لديه مراسلين دوليين لا يحترمون مواعيد نومه . وكان السفرجية والبوابون يعرفون عنه أنه إنسان غريب الأطوار لأنه يظل ساهرا طوال ساعات الليل . كان يعيش على ذلك النحو تحت أسماء مختلفة على مدى الأسبوعين الأخيرين ، وذلك أثناء قيامه بتعقب تشارلى فى رحلتها الانفرادية كان قد استلقى على الأسرّة محملقا فى الأسقف مثلما فعلت تشارلى لقد تحدث تليفونيا مع كيرتز .

وجعل نفسه متوافقا مع العمليات الميدانية الخاصة بليتفاك ساعة وراء ساعة يتحدث مع تشارلى مرات قليلة توفيراً للنفقات كما كان يطعمها بوجبات قليلة ويعلمها المزيد من ألاعيب الكتابة السرية . كان سجينا خاضعا لها مثلما هى خاضعة له .

فتح الباب فسارت متخطية إياه فى تجهم ملىء بالذهول والحيرة حيث كانت لاتعرف المشاعر التى عليها أن تشعر بها . قاتلة متنمرة . غشاشة . إلاّ أنها لم تكن لها شهية إزاء المشاهد الإجبارية . فهى قد لعبت كل تلك الأدوار إنها إنسانة محترقة فى حداد وتوقعت منه أن يتقدم للأمام ويُعانقها إلاّ أنه ظل مكانه لم يسبق لها أن شاهدته وقورا على هذا النحو ومكبوح الجماح إلى هذه الدرجة . كانت ظلال الهم والقلق مرتسمة حول عينيه يرتدى قميصا أبيض اللون وقد شمرّ كُمَّيه حتى المرفقين مصنوعا من القطن وليس الحرير . حملقت فى القميص وهى تدرك المشاعر التى تجتاحها . لاتوجد أصفاد حديدية فى اليدين ولاتوجد ميدالية حول الرقبة ولا حذاء جوشى قالت أنت الآن تتمتع بالفردانية والوحدانية . لم يستطع أن يدرك المعنى الذى تهدف اليه. فأضافت : يمكنك أن تنسى الرداء الأحمر الفضفاض ليس كذلك ؟ فقد أصبحت «أنت» وليس شخصا آخر لقد قتلت حارسك الخاص . ولم يتبق شخص ما لكى تختفى وراءه .

فتحت حقيبة اليد وناولته الراديو المنبه الصغير . قال ضاحكا وهو يغلق حقيبتها : أوه إن علاقاتنا لم تعد بحاجة إلى الاستغراق فى التفكير .

قالت تشارلى : على أى نحو كنت أبدو ؟ ظننت أننى كنت أفضل شىء منذ بيرنارد . ومن وجهة نظر مارتى كنت أفضل منذ نزل سيدنا موسى هابطا من فوق الجبل . وربما أفضل شىء قبل أن يصعد موسى إلى قمة الجبل . إذا كنت ترغبين يمكنك التوقف الآن مع مرتبة الشرف . فهم مدينون لك بالكثير . وأكثر من اللازم .

راحت تفكر إنه يقول « هم » ولا يقول « نحن » تساءلت : ومن وجهة نظر يوسف ؟

– أولئك أناس كبار يا تشارلى . أناس كبار من الوسط .

– هل أنا استغفلتهم ؟

فجاء جلس إلى جوارها . ليكون قريبا وليس من أجل التلامس .

قال : طالما أنك مازلت على قيد الحياة ينبغى علينا أن نفترض أنك استغفلتهم إلى درجة كبيرة .

وقالت «هيا بنا» وكان جهاز تسجيل أنيق صغير يعمل بالشرائط مستلقيا وجاهزا فوق المنضدة فسارت متخطية إياه أدارته وبدون الدخول فى المزيد من المقدمات انتقلا إلى مرحلة استخلاص المعلومات على النحو الذى يصبح عليه زوجان تزوجا منذ سنين طوال . لأنه علي الرغم من أن عربة اللاسلكى الخاصة بليتفاك أصغت لكل كلمة وردت فى محادثة الليلة الأخيرة حيث إنها أرسلت باللاسلكى بواسطة الراديو الصغير الموجود فى حقيبة يد تشارلى فإن الذهب الخالص لمدركاتها كان ينبغى التنقيب عنه واستخراجه والتفرقة ما بين الجيّد والردئ منه .

الفصل الثامن عشر

كان شاب السريع الحركة الذى قام بزيارة السفارة الاسرائيلية فى لندن يرتدى معطفا جلديا طويلاً وقال إنه يسمى ميدوز . وكانت السيارة اللاندروفر خضراء اللون ونظيفة ومزودة بسرعة إضافية جلس كيرتز فى المقعد الأمامى لكى يكون برفقة ميدوز . أما ليتفاك فظل قابعا فى المقعد الخلفى بالسيارة . وبدت طريقة كيرتز متسمة بعض الشئ بالخسة والدناءة، فهو يصبح كذلك عندما يوجد المتفوقون الاستعماريون .

تساءل ميدوز فى بهجة وحيوية : هل وصلت توا بالطائرة يا سيدى ؟

رد كيرتز : وصلت بالأمس كالمعتاد .

– من المؤسف أنك لم تخبرنا بمجيئك . فالقائد كان سيسهل لك الأمور فى المطار .

قال كيرتز . محتجاً : أوه . الأوضاع مختلفة الآن بعض الشىء .

واتجهوا بالسيارة إلى آيليسبرى ومنها عبر الحارات والأزقة الجميلة. حتى وصلوا إلى مدخل من الحجر الرملى تحدد معالمة ديوك صغيرة . وظهرت لافتة زرقاء / حمراء مكتوب عليها : رقم ٣٠ كانت هناك ذراع رافعة بيضاء اللون تسد الطريق أمامهم . فترك ميدوز كيرتز وليتفاك بمفردهما وذهب إلى كشك البوابة كانت هناك عيون داكنة تتفحصهما من داخل نوافذ الكشك . ولم تمر أية سيارات ولم تظهر أصوات زقزقة صادرة عن جرار بعيد . وبدا الأمر وكأنه لا يوجد هناك شىء تدب فيه الحياة سوى القليل .

فقال كيرتز بالعبرية أثناء انتظارهما : هذا المكان يبدو ظريفا وجميلاً

علق ليتفاك : إنه مكان جميل والناس طيبون أيضا .

قال كيرتز : إنهم أناس من الدرجة الأولى . إنهم قمة أهل المهنة . ما فى ذلك شك .

وعاد ميدوز إليهما . ثم ارتفع ذراع الرافعة لأعلى . وعلى مدى وقت طويل سلكوا طريقا ملتويا فى الأراضى المخصصة للمعدات العسكرية البسيطة لانجلترا .

أراضٍ مخصصة للهجوم ومهبط خاص بالطائرات محدد بكيزان برتقالية اللون، ومخروطية الشكل . وأماكن تضم خفراء للحراسة من الجنود بالغى التدريب والبراعة الذين يرتدون الزى العسكرى أزرق اللون والأحذية ذات الرقبة العالية . كانت هناك كبارٍ مصنوعة من الحبال ومشدودة عبر جداول مائية .

قال كيرتز فى تبجيل : هذا بمثابة حلم جميل يا سيد ميدوز . ينبغى أن يكون لدينا مثل هذا فى وطننا . ولكن كيف يتسنى لنا ذلك ؟ .

قال ميدوز : حسنا . شكراً

كان المنزل ذات يوم قديماً ، إلا أن واجهته أتلفت بسبب دهانها بطلاء وزارى حكومى كما أن الأزهار الحمراء المزروعة فى إصيص النوافذ قد شُذبت فى دقة بمعرفة الراديكاليين . وقف رجل آخر عند المدخل سرعان ما أشار لهم بصعود السلالم اللامعة المصنوعة من خشب الصنوبر .

قال الرجل لاهثا كما لو كان قد أصبحوا متأخرين : «أنا اسمى لاوسون» ثم طرق بمفاصل أصابعه على باب مزدوج . فنبح صوت متراميا من الداخل قائلا: أدخل.

قال لاوسون : السيد رفائيل ياسيدى .من إسرائيل . وأخشى أن يكون قد تعرض لبعض الإزعاج بسبب حركة المرور الخاصة بالسيارات .

وظل بيكتون نائب القائد جالساً إلى مكتبه لفترة طويلة تكفى لأن يبدو وقحاً . والتقط قلماً ووقع باسمه على خطاب . ثم نظر لأعلى ورمق كيرتز بنظرة صفراوية . ثم أمال برأسه إلى الأمام كأنه على وشك أن ينطح شخصا ما . ثم

رفع جسده فى بطء لكى يقف على قدميه إلى أن أصبح واقفاً وقفة ساكنة منتصبة وقال أتمنى لك نهاراً طيباً يا سيد رفائيل .

ثم ابتسم ابتسامه خفيفة كما لو أن الموسم ليس هو موسم الابتسامات كان ضخم الجثة وله ملامح الجنس الآرى . شعر أشقر متموج وفرق فى شعره أشبه بجرح ناجم عن استخدام موسى للحلاقة . بدا عريضاً وممتلئ الوجه وعنيفا له شفتان مضغوطتان ونظرات تشبه حملقة حامى العاهرة . وضع منديلا منقطا فى كمه الأيسر . إنه شخص عصامى مقاوم للارهاب «هو أحيانا جندى وأحيانا شرطى وأحيانا أخرى وغد ونذل» وفقا لما كان يحب أن يقوله عن نفسه إنه ينتمى للجيل المؤمن بحرفته . سبق له أن اصطاد شيوعيين فى ماليزيا- ماو فى كينيا ويهود فى فلسطين وأيرلنديين فى كل مكان . سبق له أن نسف أناساً فى المحميات البريطانية السبعة التى تقع شرق الجزيرة العربية . وفى قبرص لم ينجح فى اصطياد جريفاس .إنه عندما يصبح مخموراً يتحدث بأسف عن فشله هذا . وهو الذى كان يقوم بدور الرجل الثانى فى العديد من الأماكن ونادرا ماقام بدور الرجل الأول لأنه كانت هناك ظلال أخرى أيضا .

تساءل : «هل ميشا جافرون فى حالة جيدة ؟»

رد كيرتز فى حماس « ايها القائد . ميشا على ما يرام !

كان هناك صندوق فضى لامع خاص بالسجاير فوق مكتبه على نحو لافت للأنذار . وكان غطاء الصندوق يحتوى على توقيعات إخوانه الضباط بأسلوب الحفر على الغطاء . فتح بيكتون الصندوق ومده نحو كيرتز ، إلا أنه أشار بأنه لا يدخن فأعاد بيكتون الصندوق إلى مكانه الصحيح . وكان هناك طرق على الباب . وتم السماح لرجلين بالدخول .أحدهما يرتدى بدلة رمادية والآخر يلبس بدلة «تويد» . كان ملاكما ويبلغ من العمر حوالى ٤٠ عاما ، وبه آثار خدوش على فكة الأسفل ووصفه بيكتون بأنه «المفتش الرئيسى» .

قال المفتش الرئيسى .. لم يسبق لى الذهاب إلى إسرائيل على الإطلاق . ولكن زوجتى تفضل قضاء الكريسماس فى بيت لحم ولكن كارديف كانت تناسبنى

أما الرجل الذى يرتدى بدلة التويد فهو الكابتن مالكولم الذى كان يتمتع بالمنزلة الاجتماعية يرنو إليها بيكتون فى بعض الأحيان ويكرهها دائماً

قال لكيرتز فى صدق : «حقيقة إنه لشرف عظيم يا سيدى» ثم مد يده مصافحا قبل أن يكون كيرتز مستعداً لمصافحته .

وعندما جاء الدور على ليتفاك بدا على الكابتن مالكولم أنه لم يستوعب اسمه تماما فقال : اخبرنى باسمك مرة أخرى أيها الولد العجوز ؟

فكرر ليتفاك اسمه مرة أخرى : ليفين ومن حسن حظى أنه سبق لى العمل مع السيد رفائيل هنا .

وتم إعداد مائدة طويلة من أجل عقد اجتماع . ولم تكن هناك صور زيتية – ولا فوتوغرافية . كانت النوافذ ذات الإطارات تطل على فناء شاغر . وكانت المفاجأة الوحيدة تتمثل فى رائحة الزيت الساخن التى ظلت منتشرة فى الهواء كما لو أن غواصة مرت تواً قال بيكتون : حسناً . لماذا لم تقم بإطلاق الرصاص يا سيد رفائيل ؟

وكان لهذه العبارة أثر عجيب . فبينما قام كيرتز بفتح محفظته الجلدية المسطحة التى تحفظ بها الأوراق وبدأ فى إخراج الملفات اهتزت الغرفة بسبب ذلك الصوت الطويل المكتوم الناجم عن تفجير شحنة فى ظروف متحكم فيها. قال بيكتون وهو يرفع جلدة الملف الموجودة أمامه ويحملق فى داخله وكأنه يلقى نظرة أولى خاطفة على قائمة الطعام :

كنت أعرف شخصا باسم رفائيل ذات يوم . وقد جعلناه عمدة لبعض الوقت . لقد نسيت اسم المدينة . أكنت أنت هو ذلك الشخص ؟

وفى ابتسامة حزينة أبدى كيرتز أسفه لأنه لم يكن هو ذلك الشخص سعيد الحظ .

.. ..

كان كيرتز يتحلى بالصبر على نحو خارق للطبيعة . ولا حتى ليتفاك الذى سبق له أن شاهده من خلال مئات الظلال المختلفة لشخصيته ، كان بمقدوره أن يتنبأ بهذا الكبح المثالى لشياطينه . ان نشاطه المتسم بالاصطخاب والعربدة قد اختفى تماماً وحلت محله إبتسامة ذليلة تبدو على وجه الشخص الخاسر . بل وحتى صوته كان له نغمة مليئة بالاعتذار والحياء وعدم الثقة بالنفس .

قرأ المفتش بصوت مرتفع : ماستاربين هل تلك هى الطريقة التى ننطق بها ذلك الاسم ؟

توقف كيرتز عن الكلام لكى يجعلهم يتصفحون ملفاتهم لفترة أطول . وأضاف : أيها القائد . ينبغى علينا أن نحصل على تعهدكم الرسمى فيما يتعلق بالاستخدام والتوزيع .

وفى بـــطء رفع بيكتـون رأســـه الأشقـــر . وتســـاءل : تعهـــد مكتوب ؟

فابتسم كيرتز باستخفاف وقال : إن كلمة الشرف التى يقولها ضابط بريطانى ستكون كافية تماما بالنسبة لميشا جافرون .

قال بيكتون فى غضب مفاجئ : «اتفقنا إذن» ثم انتقل كيرتز بسرعة إلى شخصية أنتون ماستاربين التى تتسم بأنها أقل مشاكسة .

الأب جنتلمان سويسرى محافظ يمتلك فيللا جميلة تطل على شاطئ البحيرة – ولا توجد لديه اهتمامات معروفة لما هو وراء تكوين الثروات . وأما الأم فسيدة ذات آراء حرة وتنتمى لليسار وتمضى نصف العام فى باريس لها صالون فكرى وشعبية كبيرة بين الجالية العربية فى باريس .

قال بيكتون : هل تحقق نجاحا فى هذا الشأن ؟

– إنها تحقق نجاحاً ضئيلا ياسيدى .

وأضاف كيرتز : وأنتون الابن الشاب يعمل محاميا فى مجال العقارات والممتلكات لقد درس العلوم السياسية فى باريس والفلسفة فى برلين . وتتلمذ على

يدى بيركلى لمدة سنة حيث درس القانون والعلوم السياسية . وأمضى نصف سنة دراسية فى روما كما أمضى أربع سنوات فى زيورخ . وتخرج بتقدير امتياز .

قال بيكتون : هذا يعنى أنه إنسان مثقف . رد كيرتز : يمكننا القول إن السيد ماستربين يميل إلى آراء والدته من الناحية السياسية . ولكنه يفضل والده من الناحية المالية .

أطلق بيكتون ضحكة عالية ضخمة . وتوقف كيرتز عن الكلام لفترة طويلة تسمح له بمشاركة النكتة معه

– الصورة الموجودة أمامكم قد التقطت فى باريس إلا أن الممارسة القانونية لماستاربين تتم فى جنيف التى تعتبر مقرا للقوانين بالنسبة للطلبة الراديكاليين وللشخصيات المنتمية للعالم الثالث . وهناك أيضاً تشكيلة من منظمات تقدمية فقيرة تعتبر أيضاً من الزبائن ثم قلب صفحة ودعا المستمعين أن يسايروه فى تقليب الأوراق . كان يرتدى نظارة متدلية فوق طرف أنفه وكان له هدوء وفئرانية كاتب فى أحد البنوك .

استطرد كيرتز قائلاً : فى نوفمبر الماضى حضر ماستاربين مؤتمرا يسمى «محاميو العدالة» فى برلين الشرقية . وأعطى هذا المؤتمر اهتماما خاصا بالوفد الفلسطينى حيث استمعوا له فترة طويلة للغاية . وعلى كل حال ربما تكون هذه وجهة نظر متحيزة ومغرضة . وفى إبريل قام ماستاربين بأول زيارة لبيروت تلبية لدعوة وجهت إليه فى تلك المناسبة . وقدم ولاءه واحتراماته لمنظمتين من أكثر المنظمات العسكرية الرافضة هناك .

تساءل بيكتون : أكان يطوف فى المدينة من أجل عقد الصفقات التجارية ؟

استمر كيرتز قائلا : وأثناء عود ماستاربين من هذه الرحلة توقف فى استانبول . وعقد لقاءات وحوارات مع بعض العناصر التركية النشطة السرية التى تلتزم بالقضاء على الصهيونية حيث إن ذلك هدف من بين أهدافهم الأخرى .

فقال بيكتون : إذن فهم رجال نوو طموح وفى هذه المرة ولأنها النكتة التى أطلقها بيكتون ماج كل فرد بالضحك باستثناء ليتفاك وفى سرعة مذهلة عاد مالكولم من المهمة القصيرة التى قام بها . وقال فى تمتمة بعد أن مرر قصاصة الورق إلى بيكتون : «أخشى ألا يكون هناك قدر كبير من البهجة» ثم ابتسم فى وجه ليتفاك وهو يستئنف الجلوس على مقعده . إلا أن ليتفاك كان قد استغرق فى النوم . إذ كان قد وضع ذقنه بين يديه الطويلتين وأمال رأسه للأمام فوق ملفه المغلق . وبفضل يديه كان التعبير على وجهه غير محدد المعالم.

تساءل بيكتون وهو يلقى بقصاصة الورق التى قدمها مالكولم على جانب : هل أخبرت السويسريين بأى شىء عن هذا ؟

فقال كيرتز معترفا وفى نغمة توحى بأن هذا أثار مشكلة : أيها القائد. نحن لم نبلغ السويسريين بعد

فقال بيكتون معترضا : اعتقدت أنكم أيها الرجال كنتم قريبين بعض الشىء من السويسريين .

نحن قريبون بكل تأكيد من السويسريين . ومع ذلك فإن ماستاربين لديه عدد من الزبائن الذين يسكنون بشكل كامل أو جزئى فى جمهورية ألمانيا الفيدرالية . وهذه حقيقة تضعنا فى موقف صعب بعض الشىء .

فقال بيكتون فى عناد : لم أتتبع كلامك . ظننت أنكم سويتم الخلافات بالطرق الودية منذ فترة طويلة .

ربما كانت ابتسامة كيرتز قد نُشّيَت فى داخل جلده إلا أن إجابته كانت نموذجا للمراوغة : أيها القائد . الأمر كذلك . ولكن إسرائيل مازالت تشعر فى ضوء حساسية مصادرنا وتعقيدات التعاطف السياسى الألمانى فى هذه الأوقات حاليا - أنه لا يمكن أن ننصح أصدقاء نا السويسريين بدون أن ننصح أيضا نظراءهم الألمان ولكى نفعل ذلك فإن هذا يعنى أن نضع عبئا من الصمت على السويسريين فى تعاملاتهم مع فيزبادن .

تساءل بيكتون فجأة وعلى نحو غير متوقع : إننى أفترض أنك سمعت أنهم قد أعادوا أليكسيس إلى المقعد الساخن . فهل سمعت عن ذلك ؟

قال كيرتز إنه كان قد سمع عن هذه الأنباء بالطبع . إلا أن ذلك لم يؤثر عليه على ما يبدو لأنه انتقل فى ثبات إلى المستند القانونى التالى .

علق بيكتون فى هـدوء «انتظر» .كان يحملق فى المستند رقـم ٢ فى ملفه . وأضـــاف أعرف ذلك الجمال . إنه العبقرى الذى أحرز هدفا خاصا به على الطريق الرئيسى لميونيخ منذ شهر . وأخذ معه الفتاة الهولندية الجميلة

قال كيرتز على وجه السرعة الأمر كذلك أيها القائد ولدينا معلومات تفيد أن كلا من السيارة والمتفجرات فى تلك الحادثة المشئومة قد تم تقديمها بمعرفة أشخاص تابعين لماستاربين وموجودين فى استانبول وأن هذه المتفجرات نقلت بتلك السيارة عبر يوجوسلافيا إلى النمسا .

التقط بيكتون قصاصة الورق التى أعادها مالكولم إليه ، وبدأ يحركها أمام ناظريه ثم قال متظاهرا بعدم الاكتراس لقد أبلغت بأن الصندوق السحرى الموجود بالدور الأرضى لا يتضمن ماستاربين واحدا . ولا شخصًا فى قائمة بيضاء ولا شخصًا فى قائمة سوداء . ولا شخصا تافها .

وبدا الابتهاج على كيرتز وقال : أيها القائد . هذا لا يعكس عدم كفاءة من جانب إدارة السجلات ويمكننى القول إنه منذ يومين فقط لم نكن ننظر إلى ماستاربين على أنه إنسان ضار . ونفس هذا الرأى ينطبق على شركائه .

فتساءل مالكولم راجعا إلى النقطة التى تتعلق بزميله ماستاربين : بما فى ذلك بلوندى الشقراء ؟

اكتفى كيرتز بالابتسام وشد نظارته كوسيلة لجذب انتباه المستمعين إليه للصورة الفوتوغرافية التالية . إنها واحدة من الصور العديدة التى التقطها فريق ميونيخ للمراقبة عبر الشارع . إنها تبين يانوكا وهو يدخل ليلاً إلى الباب الرئيسى بالشارع الذى يؤدى إلى شقته كانت الصورة ضبابية ومشوشة شأنها شأن كافة

الصور التى تلتقط تحت الأشعة الحمراء مع استخدام السرعة البطيئة . إلا أن الصوره مع ذلك أظهرته فى وضوح يكفى للتعرف على شخصيته . وكان برفقة امرأة طويلة شقراء تقف إلى الوراء قليلاً بينما هو يضع مفتاح المنزل فى الباب الأمامى . إنها المرأة التى ظهرت فى الصورة الفوتوغرافية السابقة والتى سبق أن استحوذت على إعجاب الكابتن مالكولم وتساءل بيكتون : أين نحن الآن ؟ هذه المناظر لا تدل على باريس . فالمبانى ليست شبيهة بمبانى باريس .

قال كيرتز : بل ميونيخ .

فتساءل بيكتون فى حدة وكأن كيرتز كان أحد الموظفين التابعين له : ومتى كان ذلك ؟

ولكن كيرتز فضل أن يسمع السؤال بطريقة خاطئة حيث قال إن اسم السيدة هو أستريد بيرجر ، ومرة أخرى تركزت نظرات بيتون الصفراء عليه فى مسحة من الشك وفى تلك الأثناء فإن رجل الشرطة الويلزى الذى حرم منذ فترة طويلة من إلقاء خطب كبيرة فضل أن يقرأ البيانات التفصيلية عن السيدة بيرجر بصوت مرتفع من الملف : بيرجر أستريد التي تعرف باسم ايدا وأيضا باسم هيلجا . بالإضافة إلى عديد من الأسماء المستعارة الأخرى . ولدت فى بريمين فى عام ١٩٥٤ ، ابنة لرجل ثرى يمتلك شركة للشحن : يمكننى القول يا مستر رفائيل إنك تتحرك فى دوائر ممتازة . تلقت تعليمها فى جامعات بريمين وفرانكفورت وحصلت على الليسانس فى الفلسفة والعلوم السياسية فى عام ١٩٧٨ . تكتب مقالات فى بعض الأحيان فى الجرائد الراديكالية التى تصدر فى ألمانيا الغربية .آخر عنوان معروف لها كان فى عام ١٩٧٩ بباريس وهى تكثر من زياراتها لمنطقة الشرق الأوسط

قاطعه بيكتون وطلب منه الكف عن الكلام . وقال : إنها إنسانة أخرى مثقفة . الق القبض عليها يا مالكولم .

وعندما انزلق مالكولم خارجا من الغرفة مرة أخرى استرد كيرتز المبادرة فى رشاقة :

– أيها القائد . لو قمت بمقارنة التواريخ الموجودة هنالك فسوف تكتشف أن آخر زيارة قامت بها السيدة بيرجر لبيروت تمت فى ابريل هذا العام وهذا يتوافق زمنيا مع الرحلة التى قام بها ماستاربين . كما كانت موجودة فى استانبول أثناء توقف ماستاربين هناك . سافرا فى رحلات طيران مختلفة ولكنهما كانا يقيمان فى نفس الفندق . نعم . يا مايك . لو سمحت .

وقدم ليتفاك نسختين مصورتين لاستمارتى تسجيل بفندق إحداهما خاصة بأنتون ماستاربين والأخرى بآستريد بيرجر . وتاريخ الاستمارتين هو ١٨ أبريل . وإلى جوار الاستمارتين توجد نسخة مصورة طبق الأصل من فاتورة ، مؤشر عليها بأن القيمة قد سددت بمعرفة ماستاربين .

قال مالكولم فى ابتسامة بائسة : يا سيدى ليس هناك ما يسترعى الانتباه بالنسبة لآستريد بيرجر . هل يمكن لك أن تصدق ذلك ؟

فتساءل كيرتز بسرعة : هل ذلك بمعنى : لا شىء مسجل ضدها .

أمسك بيكتون بقلمه الرصاص الفضى اللون بطرفى يديه وأداره أمام حملقته الكئيبة المتشائمة قال فى تفكير : نعم وكانت الصورة الفوتوغرافية الثالثة التى عرضها كيرتز أو كما قال عنها فيما بعد ليتفاك بأنها بطاقته الثالثة فى الخدعة – قد زيفت على نحو رائع للغاية لدرجة أن أفضل الخبراء فى تل أبيب فشلوا فى التقاطها من بين مجموعة كبيرة من الصور الأخرى التى دعوا لفحصها وهى صورة تبين تشارلى وبيكار يقتربان من السيارة المرسيدس الواقفة فى الساحة الأمامية لفندق دلفى صباح يوم رحيلهما . كان بيكار يحمل حقيبة الكتف الخاصة بتشارلى وحقيبته الخاصة بالسفر أما تشارلى فكانت ترتدى ملابسها اليونانية وتحمل الجيتار الخاص بها . ارتدى بيكار الرداء الأحمر الفضفاض والقميص الحريرى والحذاء الجوشى .

– أيها القائد التقطت هذه الصورة من حسن الحظ قبل وقوع حادث الانفجار خارج ميونيخ بأسبوعين فقط . وهو الحادث الذى قام فيها اثنان من

الإرهابيين بتفجير نفسيهما، والفتاة ذات الشعر الأحمر الموجودة فى الجزء الأمامى بالصورة هى بريطانية . ومرافقها كان يخاطبها باسم «جان دارك» وكانت تخاطبه باسم «ميشيل» إلا أن ذلك الاسم لم يكن هو اسمه المدون فى جواز سفره.

وكان التغير فى الجو شبيها بحدوث انخفاض فجائى فى درجة الحرارة . ابتسم المفتش فى تكلف مصطنع في وجه مالكولم الذى بدا عليه وكأنه يرد على الابتسامة بابتسامة من جانبه . إلا أنه اتضح تدريجيا أن ابتسامة مالكولم لم تكن ذات علاقة بما يظنه الناس عادة بأنه فكاهة . فالجمود الذى أبداه بيكتون قد سيطر على الموقف - إذ إن رفضه لأن يحصل على معلوماته من أى مصدر آخر بخلاف الصورة الفوتوغرافية كان واضحاً .

ردد بيكتون من خلال شفتيه المزمومتين عبارة «من حسن الحظ» صديق ممتاز تصادف أن كان جاهزا بالكاميرا الخاصة به . إننى أفترض وجود مثل هذا الحظ السعيد أو مثل هذه الفرصة اللعينة السعيدة .

ابتسم كيرتز فى خجل وارتباك ولكنه لم يقل أى كلام .

جهز إطارين على وجه السرعة ، وأرسلهما إلى تل أبيب .

اتسعت ابتسامة كيرتز . ولدهشته شاهد بيكتون يبتسم هو الآخر كرد على ابتسامته وإن لم تكن ابتسامته ظريفة للغاية .

- نعم . حسنا . أظن أننى أتذكر بالفعل أصدقاء على ذلك النحو . . أنتم أيها الناس لديكم أصدقاء فى كل مكان وأنا أفكر فى هذا الأمر الآن . أماكن عالية وأماكن منخفضة وأماكن غنية .

وللحظات غير سعيدة اتضح أن احباطات قديمة معينة عن أيام بيكتون فى فلسطين قد أحيت نفسها على نحو غير متوقع وأصبحت تهدد بالتدفق خارجة من كيانه فى حدة وانفعال . إلا أنه تمالك نفسه ولطف من حدة ملامحه وأخفض من حدة صوته . وأرخى من ابتسامته إلى أن أصبحت متسمة بعض الشىء بالطابع الودى .

سلك المفتش الرئيسى الرمادى صوته فى وداعة وخاطر بالتدخل مرة أخرى حيث قال : حسنا حتى ولو افترضنا أنها إنجليزية يا سيدى ، فإنه مازال لا يوجد هناك قانون فى هذه الدولة يحرم الاضطجاع مع الفلسطينيين. هل يوجد هناك قانون من هذا القبيل ؟ لا يمكن لنا أن نفتش تفتيشا دقيقا عن سيدة فى جميع أرجاء الأمة بناء على ذلك فقط ! ونحن إذا.

وقال بيكتون وهو يحملق فى كيرتز : أن لديه الكثير . الكثير جداً .

لكن نغمة صوته ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك . حيث قال : إنهم دائما لديهم الكثير بالفعل .

ودعا كيرتز المستمعين اليه لكى يدرسوا السيارة المرسيدس الموجودة بالجهة اليمنى . من الصورة وأوضح أنه لا يعرف معلومات كثيرة عن ماركات السيارات ولكن تابعيه أكدوا أنها من نوع السيارة الصالون بها هوائى للراديو فوق الجناح مرآتان ولها نظام إغلاق مركزى وأحزمة للمقاعد فى المقعد الأمامى فقط . قال إنه طبقا لكافة هذه التفصيلات وغيرها فان السيارة المرسيدس التى ظهرت فى الصورة تتمشى فى أوصافها مع السيارة المرسيدس التى انفجرت خارج ميونيخ والتى ظل معظم الجـزء الأمامى منهـا متبقيـا على نحو أشبه بالمعجزة .

وكان لدى مالكولم حل فجائى : ولكن هل من المؤكد تماما ياسيدى أنها ليست فتاة هولندية ؟ شعر أشقر وشعر أحمر – إن ذلك لا يعنى شيئا . فكلمة انجليزى فى هذه الحالة تعنى فقط لغتهما المشتركة

قال بيكتون فى لهجة آمرة : الهدوء ، دعوه يستمر فى الكلام .

كان صوت كيرتز فى تلك الأثناء قد أصبح غليظاً وكذلك أصبحت كتفاه للحظات . كان قد وضع جماع يديه على المنضدة عند جانبى الملف .

أعلن كيرتز فى مزيد من القوة : أيها القائد . إن معلوماتنا التى حصلنا عليها من مصدر مختلف تفيد أن نفس هذه السيارة المرسيدس فى رحلتها شمالاً ،

من اليونان عبر يوجوسلافيا كانت بقيادة فتاة شابة تحمل جواز سفر بريطانيا . وعشيقها لم يصطحبها فى هذه الرحلة وإنما سبقها مسافرا بالطائرة إلى سالزبورج على طائرة تابعة للخطوط الجوية النمساوية . ونفس شركة الطيران النمساوية هذه قد حجزت له فى فندق بسالزبورج حيث توضح تحرياتنا أن الفتاة والشاب أطلقا على نفسيهما اسم «المسيو لاسير» وزوجته رغم أن الفتاة لم تكن تتكلم باللغة الفرنسية وإنما الأنجليزية فقط . وتشير التقارير إلى أن الفتاة كانت جميلة للغاية ذات شعر أحمر ليس فى إصبع يدها دبلة الزواج تحمل معها جيتارها مما تسبب فى ظهور تعليقات مرحة كما أشارت التقارير أنها رغم مغادرتها للفندق فى الصباح الباكر مع زوجهافإنها عادت فيما بعد خلال النهار لاستخدام التسهيلات الموجودة بالفندق . وأشار بواب الفندق أنه استدعى سيارة أجرة من أجل المدام لاسير لكى ينقلها إلى مطار سالزبورج وهو يتذكر الوقت الذى استدعى فيه السيارة وهو الساعة الثانية بعد الظهر أى قبل أن تنتهى نوباتجيته مباشرة . عرض عليها أن يؤكد لها على الحجز بالطائرة علاوة على معرفة ما إذا كانت الطائرة لن تتأخر عن الموعد المحدد لرحيلها من المطار ، إلا أن المدام لاسير لم تسمح له أن يفعل ذلك . ربما السبب فى ذلك أنها لم تكن مسافرة تحت ذلك الاسم . وهناك ثلاث رحلات طيران خارجة من سالزبورج تتلاءم مع ذلك التوقيت . احداها طائرة نمساوية متجهة إلى لندن . والسيدة الموجودة فى مكتب مبيعات الخطوط الجوية الاسترالية تتذكر فى وضوح فتاة انجليزية ذات شعر أحمر كانت لديها تذكرة تشارتر غير مستخدمة تسالونيكا / لندن ، وكانت ترغب فى أن تعاد كتابة هذه التذكرة مرة أخرى إلا أن ذلك كان أمراً مستحيلاً . ولذلك اضطرت لأن تشترى تذكرة كاملة بدون عودة سددت ثمنها بالدولارات الأمريكية ومعظمها أوراق مالية من فئة العشرين دولاراً .

زمجر بيكتون قائلا : ما اسمها ؟

وكرد على هذا السؤال كان ليتفاك قد بدأ يوزع نسخا مصورة من قائمة تضم أسماء مسافرين . بدا شاحب الوجه كأنه يعانى من بعض الآلام. وعندما

انتهى من التوزيع شرب كمية ضئيلة من الماء من ابريق زجاجى رغم أنه لم ينطق بكلمة واحدة طوال الصباح إلا فيما ندر .

قال كيرتز عندما شرع الجميع فى النظر إلى القائمة التى تضم أسماء المسافرين : لم يكن هناك اسم : جان مما سبب لنا ذعرا فى بداية الأمر . وكان الاسم الذى التقينا به هو : «تشارميان» . ويوجد أمامكم اسم أسرتها . وموظفة الخطوط الجوية النمساوية تؤكد تحديداتنا لهويتها بل أن الموظفة تتذكر جيتارها . فمن حسن الحظ أن هذه الموظفة ذاتها من أنصار فرقة مانيتاسى دى بلاتا العظيمة . ومن ثم فإن الجيتار ترك انطباعا عميقا على ذاكرتها .

كان آخر شىء عرضه كيرتز قد جاء من المحفظة الجلدية المسطحة الخاصة بليتفاك . إذ مد كيرتز يديه لأعلى لكى يحصل على ذلك الشىء فقام ليتفاك بوضعه فى يديه : لفيفة من الصور مازالت لزجة عقب خروجها من آنية الطبع . كانت تلك الصور تبين وجود كل من ماستاربين وهيلجا فى أحد المطارات هو يحملق فى اكتئاب فى الهواء الشاغر . أما هى فتقف خلفه حيث تشترى زجاجة من السوق الحرة . وكان ماستربين يحمل فى يديه كمية من نباتات السحلبية ملفوفة فى ورق رقيق شبه شفاف .

وقال كيرتز : مطار شارل ديجول منذ ٣٦ ساعة مضت «بيرجر وماستاربين على وشك السفر جوا باريس / اكزيتار . وطلب ماستاربين توفير سيارة بدون سائق بحيث تكون تحت تصرفه فى مطار اكزيتار . وعادا إلى باريس بالأمس بدون نباتات السحلبية سالكين نفس الطريق . كانت بيرجر مسافرة تحت اسم مستعار جديد يمكن لنا أن نضيفه إلى باقىأسمائها المستعارة الأخرى . وكان جواز سفرها هو واحد من جوازات السفر العديدة التى يعدها ويجهزها الألمان الشرقيون من أجل الاستخدام الفلسطينى .

لم ينتظر مالكولم لحين صدور الأوامر إليه . إذ كان قد دخل من الباب بالفعل . قال بيكتون فى تلميح بينما هم ينتظرون : من المؤسف أنكم لم تحصلوا على لقطة لهما لدى وصولهما إلى إكزيتار أيضاً

قال كيرتز : لم يكن بمقدرورنا أن نفعل ذلك . وهو أمر تعرفونه جيداً

فقال بيكتون : أعرف ذلك ؟

إن رؤساءنا لديهم اتفاقية تبادل تجارى . يا سيدى . فلا صيد فى مياه بعضهم البعض بدون الحصول على موافقة مسبقة مكتوبة .

فقال بيكتون : أوه ذلك

راح رجل الشرطة يستخدم دهانا دبلوماسيا ، هنا سأل كيرتز قائلا: إنها من مدينة إكزيتار . أليس كذلك ياسيدى ؟ فهى فتاة من إقليم ديفون ؟ وأنا أفترض أنك لا تومن بأن فتاة ريفية يمكن أن تكرس نفسها لأعمال الإرهاب والرعب ؟ فهذا ليس من طبيعة الأمور ؟

بدت معلومات كيرتز كأنها قد توقفت تماما عند الشاطئ الانجليزى . وسمعوا وقع أقدام تصعد على السلالم الضخمة ، ثم سمعوا صرير حذاء مالكولم السويدى . فالرجل الويلزى الذى لا تثبط همته أبداً كان يحاول مرة أخرى .

قال فى تفجع ورثاء : لا أعتقد أبداً أن أولئك الذين لهم رءوس ذات شعر أحمر ينتمون إلى إقليم ديفون . ولا أعتقد أن شارميان يمكن أن تكون أمينة على نحو صادق . والأكثر احتمالا أن تكون شارميان من لندن .

وجاء مالكولم فى إعياء . وكان يحمل معه كومة من الملفات:إنها ملفات حول نزوات تشارلى فى اليسار المناضل المقاتل .

وكانت قصاصات الصحف والنشرات بارزة من الحواف والأطراف . قال مالكولم فى زمجرة ارتياح وهو يضع هذه الحمولة الثقيلة على المنضدة : يا سيدى . ينبغى أن أقول إنها اذا لم تكن فتاتنا فينبغى أن تكون هى فتاتنا !

قال بيكتون فى حدة : «حان وقت الغداء» وتمتم بسلسلة من الأوامر الغاضبة الموجهة للشخصين التابعين له ثم سار مع ضيوفه إلى صالة طعام شاسعة تفوح منها رائحة الكرنب و ورنيش الأثاث .

كانت هناك نجفة على شكل نبات الأناناس تتدلى فوق المنضدة التى يبلغ طولها ٣٠ قدماً . وقام اثنان من السفرجية يرتديان معطفين لهما لون أبيض لامع بالتخديم عليهم . وتناول بيكتون طعامه فى تخشب أما ليتفاك الذى بدا شاحبا للغاية فكان يتناول الطعام وكأنه مريض . وراح كيرتز يثرثر بعيداً عن الموضوعات التى تتعلق بالأعمال : إذ قال إنه يشك فى أن القائد بامكانه أن يتعرف على تل أبيب إذا أتيحت له الفرصة للعودة إلى هناك . وعبر عن إعجابه بأول وجبة يتناولها فى ميس للضباط الانجليز . وحتى ذلك الحين لم يواصل بيكتون تناول الطعام حتى النهاية . إذ استدعاه الكابتن مالكولم مرتين إلى الباب لكى يهمس له بكلام . كما أن رئيسه استدعاه على التليفون أيضاً . وعندما جاء طبق البودينج نهض فجأة وكأن عقربا لدغه وأعطى فوطة السفرة للخادم وسار بخطوات واسعة لكى يجرى بعض الاتصالات التليفونية .

.. ..

باستثناء خفراء الحراسة الموجودين دائما كانت المساحة المخصصة للسيارات شاغرة تماما مثل الملاعب الرياضية فى مدرسة فى أول يوم من أيام الأجازات . وراح بيكتون يمشى الهوينى وقد ظهر عليه القلق الشديد حيث راح يرقب فى حذر الأسوار ويطعن بعصاه كل شىء لا يحب منظره . أما كيرتز الذى كان أقصر من بيكتون بتسع بوصات فراح يتمايل فى ابتهاج إلى جواره . ومن على مسافة كانا شبيهين بسجين وسجان رغم أنه لم يكن من المعروف على وجه الدقة من هو السجين ومن هو السجان . ووراءهما كان يمشى ليتفاك ممسكا بالمحفظتين تتبعه السيده أفلاهيرتى وهى المرأة الالزاسية رفيقة السيد بيكتون .

انفجر بيكتون قائلا بصوت مرتفع على نحو يكفى لأن يسمع ليتفاك الكلام : هل المستر ليفين يود أن يصغى ويستمع ؟ هل هو مستمع جيد ؟ هل له ذاكرة قوية ؟ كم أحب ذلك .

رد كيرتز فى ابتسامة متسمة بالطاعة : أيها القائد إن مايك قريب إنه يجيئ إلى كل مكان .إنه يبدو لى مثل شخص عابس متجهم . لقد قال رئيسى العين بالعين ..

استدار كيرتز وتكلم إلى ليتفاك باللغة العبرية . فتقهقر ليتفاك إلى الوراء إلى أن أصبح بعيداً عن مرمى السمع وما لبث أن هبط إحساس بالود والزمالة على كل من كيرتز وبيكتون بمجرد أن أصبحا بمفردهما .

وكانت فترة ما بعد الظهر رمادية وعاصفة . وكان بيكتون قد أعار كيرتز معطفا له نسيج صوفى خشن مما جعل كيرتز يبدو أشبه بكلب البحر. أما بيكتون فقد أكفهر وأصبح قاتما فجأة مع استنشاقه للهواء الطلق قال على نحو أشبه بالتحدى إنه لأمر لطيف أن تجيئ بطول هذه المسافة لكى تحدثنا عنها . إن رئيسى سوف يرسل خطابا إلى ميشا العجوز . الشيطان.

فقال كيرتز بدون أن يستفسر من بيكتون عن الشخص الذى يشير إليه بكلمة الشيطان : من المؤكد أن ميشا سوف يرحب بذلك .

إنه لأمر يدعو للسخرية على كل حال . فأنتم تقومون بتزويدنا بمعلومات سرية عن الإرهابيين . فى أيامى كانت حركة المرور تميل إلى السير فى الاتجاه الآخر .

قال كيرتز كلاما استرضائيا ملطفا يتعلق بعجلة التاريخ إلا أن بيكتون لم يكن أحد الشعراء ، قال : بالطبع العملية الخاصة بكم . والمصادر الخاصة بكم . ورئيسى يتخذ موقفا صلبا إزاء هذا . مهمتنا أن نلتزم الهدوء وننفذ التعليمات التى تصدر إلينا .

أشار كيرتز أن التعاون هو أهم شيء فى هذه الأيام . وبدا على بيكتون كأنه على وشك أن ينفجر ويفقد السيطرة علي أعصابه . واتسعت عيناه الصفراوان ولكى يهدئ من نفسه أشعل سيجارة ثم أعطى ظهره للرياح وكور يديه لكى يحمى اللهب .

قال بيكتون فى سخرية شديدة وهو يطفئ عود الكبريت : وفى تلك الأثناء سوف تندهشون عندما تسمعون بأن معلوماتكم قد تأكدت صحتها لقد سافر بيرجر وماستاربين بالطائرة باريس / اكزيتار مع العودة . واستقلا سيارة لدى

وصولهما إلى مطار اكزيتار . وقطعا مسافة ٤٢٠ ميلاً وسدد ماستاربين الحساب عن طريق بطاقة ائتمان تحمل اسمه . ولا تعرفون أين أمضيا الليلة لكنكم ستقومون فى الوقت المناسب بإبلاغنا بذلك .

فالتزم كيرتز بالصمت المطبق الشديد واستطرد بيكتون بنفس الخفة المصطنعة : وبالنسبة للسيدة طرف هذا الموضوع فإنكم سوف تندهشون عندما تعرفون أنها منضمة إلى فريق للتمثيل الدرامى الكلاسيكى . وهو فريق يسمى : الهرطوقيون وأنا أحب هذا الاسم أنتم لا تعرفون هذه المعلومة أليس كذلك ؟ ويقال فى فندقها إن رجلا له نفس أوصاف ماستاربين التقطها عقب انتهاء العرض . لم ترجع الى فندقها حتى طلوع النهار .

فضل التوقف عن الكلام للحظات ولكن كيرتز تجاهل ذلك . واستطرد بيكتون قائلا : وأنا أقول لك إن رئيسى هو ضابط وهو جنتلمان وهو سوف يقدم كل المساعدة لكم . ورئيسى إنسان مستحب ولطيف . وهو ممتن ومن النوع الذى يتأثر عاطفيا . وهو لطيف مع اليهود ويعتقد أنه لأمر جميل للغاية من جانبكم أن تتكبدوا المشاق وتجيئوا إلى هنا من أجل أن تطلعونا على شئونها، رئيسى انسان شاب يتفجر بالحيوية . وغير ميال للإصغاء لأية شكوك رديئة قد تراودنى .

وتوقف بيكتون أمام حظيرة خضراء كبيرة وطرق بعصاه على الباب الحديدى . فقام صبى يرتدى بدلة زرقاء بإدخالهما إلى قاعة جمباز شاغرة . وقال بيكتون : «يوم السبت» ربما لكى يقدم تفسيراً لهذا الجو الكئيب الخالى من الناس. ثم راح يتفقد المبانى ووضع أصابعه على قضبان جهاز المتوازيين لكى يرى ما إذا كان هناك غبار على القضبان أم لا .

قال بيكتون فى نغمة مليئة بالاتهام : سمعت أنكم قمتم بقصف تلك المعسكرات مرة أخرى بالقنابل . وتلك هى فكرة ميشا . أليس كذلك ؟

بدأ كيرتز يعترف فى صدق تام بأن عمليات اتخاذ القرار على المستويات العليا بالمجتمع الإسرائيلى كانت دائما بمثابة سر غامض بالنسبة له . إلا أن بيكتون لم يكن لديه متسع من الوقت لسماع مثل هذه النوعية من الاجابة .

- حسناً . لن يفعل أمرا منكرا بدون أن يتعرض للعواقب الوخيمة . ويجب أن تبلغه برأيي هذا الذى يتعلق به . فتلك الأعمال سترتد عليكم وتطاردكم حتى نهاية العمر

وفى هذه المرة اكتفى كيرتز بالابتسام وهز رأسه فى تعجب من تصرفات الأقدار قال بيكتون فى فضول : لقد كان ميشا جافرون من فرقة الأرجون . أليس كذلك ؟

فصحح كيرتز المعلومة قائلا : بل كان من فرقة الهاجاناه .

فتساءل بيكتون : وإلى أى فرقة كنت تنتمى ؟ فاختار كيرتز أن يبدى الأسف المتسم بالخجل الذى يبديه الشخص الخاسر . وقال . سواء أكان ذلك من حسن الحظ أم لا فإننا نحن مجموعة الرفائيليون وصلنا إلى إسرائيل فى وقت متأخر للغاية بحيث لم نشكل أى إزعاج للبريطانيين .

فقال بيكتون لا تغشنى وتخدعنى . فأنا أعرف من أين ينتقى ميشا أصدقاءه . قد منحته وظيفته اللعينة .

قال كيرتز مبتسما ابتسامته المضادة للماء : لقد أخبرنى بذلك أيها القائد .

أمسك الشاب الرياضى بأحد الأبواب لكى يظل مفتوحا . كى يمروا من خلاله . وفى داخل صندوق زجاجى طويل كان يوجد عرض لأسلحة القتل الصامت المصنوعة محليا : نبوت به مسامير تغرز فى الرأس + دبوس القبعة + السرنجات المصنوعة محليا .

قال بيكتون موجها كلامه فى حدة إلى الشاب : أصبحت البطاقات الورقية التى تحتوى التفسيرات باهتة ومع حلول يوم الاثنين القادم يجب أن تضع لافتات وبطاقات جديدة . هل تسمعنى والا سأضعك فى موقف حرج لا تحسد عليه ؟

خرج بيكتون إلى الهواء النقى بينما كيرتز يتهادى فى تثاقل إلى جواره . وسارت السيدة أفلاهيرتى فى أعقاب سيدها قال بيكتون : وهو كذلك ماذا تريد ؟

لا تخبرنى أنك جئت إلى هنا لكى تحضر لى خطابا غراميا من زميلى القديم ميشا الروك لأننى لن أصدقك .

ابتسم كيرتز وهز رأسه معبرا عن إعجابه بالذكاء الانجليزى الذى يتميز به بيكتون ، قال موضحا فى نغمة من يقوم بدور الرسول فقط : حسنا. يا سيد. إن ميشا الروك يشعر أن مجرد إلقاء قبض فى هذه الحالة هو أمر مستحيل وغير وارد .

قال بيكتون فى شىء من الاشمئزاز : لقد ظننت أن مصادركم كانوا جميعا أصدقاء حميمين .

استطرد كيرتز وهو مازال مبتسما : وحتى لو افترضنا أن ميشا يوافق على إصدار أمر رسمى بإلقاء القبض فإنه يسائل نفسه عن الاتهامات التى يمكن أن تجمع ضد السيدة وفى أى محكمة تتم المحاكمة . ومن يمكنه أن يبرهن أن المتفجرات كانت داخل تلك السيارة فى تلك الفترة . ستقول إن المتفجرات وضعت بالسيارة فيما بعد وفى فترة لاحقة . وهذا من شأنه - على ما أعتقد - أن يتركنا مع تلك المخالفة البسيطة نسبيا . . ألا وهى قيادة سيارة عبر يوغوسلافيا بأوراق زائفة . أين توجد تلك الأوراق ؟ ومن هو الذى يمكنه أن يبرهن أن تلك الأوراق موجودة فى أى وقت من الأوقات ؟ إنها أسانيد واهية وضعيفة للغاية .

قال بيكتون : نعم إنها أسانيد واهية للغاية . هل أصبح ميشا يشتغل بالمحاماة وهو عجوز فى أواخر أيامه ؟ يا إلهى . إن الأمر أشبه بشخص يصطاد الطيور يتحول إلى شخص يمنع المتطفلين من صيد الطيور . ويشير ميشا أيضا إلى مسألة مدى أهميتها بالنسبة لنا وبالنسبة لكم وفقا لموقفها الحالى . وما هى الأمور التى تعرفها فى نهاية الأمر ؟ وما هى الأمور التى يمكنها أن تكشف عنها ؟ وخذ حالة الميس لارسين

- لارسين ؟

الفتاة الهولندية التى كانت متورطة فى حادث السيارة التعس خارج ميونيخ

والتفت بيكتون نحو كيرتز وحملق نحوه فى شكوك متزايدة وتساءل : ماذا عنها ؟

هز كيرتز رأسه ، وقال : كانت أيضا تقود السيارات وتقوم بمهام ورحلات ومأموريات من أجل عشيقها الفلسطينى . إنه نفس العشيق بل إن لارسين زرعت القنابل نيابة عنه . فعلت ذلك مرتين وربما ثلاث مرات . ووفقا لما هو وارد فى الأوراق فإنها كانت سعيدة للغاية ولكنها من حيث ذكائها كانت بمثابة إناء شاغر . مجرد فتاة صغيرة أحبت هذه المشاهد ، والمخاطر والأولاد . كانت تحب إدخال السرور على الآخرين . وهم لم يخبروها بأية معلومات ولا أية عناوين أو أسماء أو خطط .

قال بيكتون فى شىء من الاتهام : وكيف تسنى لك معرفة ذلك ؟

– لقد تحدثنا معها لفترة قصيرة .

– متى ؟

– منذ فترة مضت . إذ عقدنا معها صفقة سرية محدودة قبل أن نعيدها إلى المستنقع القذر . أنت تعرف الكيفية التى تسير عليها مثل هذه الأمور .

قال بيكتون وهو يحملق بعينيه الصفراوتين فى وجه كيرتز : يبدو أن لقاءكم معها تم قبل قيامكم بتفجيرها بخمس دقائق فقط

إلا أن ابتسامة كيرتز كانت هادئة على نحو عجيب ، قال فى تنهيدة : لو كان الأمر فقط سهلاً إلى هذه الدرجة أيها القائد .

– لقد سألت عما تريده يا سيد رفائيل .

– نحن نريد تحريكها . أيها القائد

– اعتقدت أنه يمكن لكم أن تفعلوا ذلك

– نحن نريد أن نخرجها من مخبئها السرى ونجعلها تبوح ببعض الشىء ، لكن بدون أن يتم القبض عليها . ونريدها أن تجرى وهى خائفة – بل وشديدة

الخوف مما يجعلها تضطر لعقد مزيد من الاتصالات مع رفاقها أو يضطرهم إلى عقد اتصالات معها . وبالطبع سوف نشارك فى العمل معكم . وعندما تنتهى العملية سنوجه لكم الدعوة لاستخدام الفتاة .

قال بيكتون معترضا : لقد تمت اتصالات بالفعل . لقد جاء وا وقابلوها فى كورنوول . وأحضروا لها باقة من الأزهار اللعينة . أليس كذلك ؟

– أيها القائد . أن قراء تنا لذلك اللقاء توحى لنا بأنه كان بمثابة مناورة استكشافية إلى حد ما . نحن نخشى من عدم احتمال ظهور نتائج أخرى من وراء الاجتماع .

فامتلأ صوت بيكتون بالغضب ، وهو يقول : كيف تعرف ذلك بحق الجحيم؟ سوف أخبرك كيف يتسنى لك أن تعرف . لقد وضعت أذنك على ثقب المفتاح اللعين ! ماذا تظنني يا سيد رفائيل ؟ هل تظنني مغفلا ؟ فهذه الفتاة تنتمى إليكم يا سيد رفائيل . وأنا أعرف ذلك ! أنا أعرفك جيدا وأعرف أمثالك وأعرف ذلك القزم الذى يسمى ميشا . الآن ، أصبح لدى سيناريو ظريف للغاية يا سيد رفائيل أود أن أشارككم فيه . هل لى أن أفعل ذلك ؟

قال كيرتز فى ابتهاج : سيكون ذلك بمثابة متعة كبيرة . أيها القائد .

– شكرا . الخدعة تتم عادة من خلال استخدام لحوم ميتة . أنت تحصل على جثة رجل فى حالة جيدة ويلبس الجثة ملابس لائقة وتتركه فى مكان ما بحيث يعثر عليه العدو . ويقول العدو «آه . ما هذا ؟» إنه جسد ميت يحمل محفظة جلدية مسطحة هيا بنا ننظر إلى الأشياء الموجودة فى المحفظة وينظرون فى داخل المحفظة فيعثرون على رسالة صغيرة . فيقولون «من المؤكد أن ذلك الرجل كان يعمل ساعيا هيا بنا نقرأ مضمون الرسالة فيقرأون مضمون الرسالة ويقعون فى المصيدة . وبذلك نحصل جميعا على الميداليات . لقد اعتدنا على أن نسمى هذه العملية بـ «التضليل» ويراد بها تضليل عيون العدو إنها عملية ظريفة للغاية أيضاً . إلا أن هذا أمر بسيط للغاية بالنسبة لك وبالنسبة لميشا . فلكونكما شخصين

متعصبين فإنكما تتخذان أسلوباً أبعد من ذلك «لا لحوم ميتة بالنسبة لنا .فنحن سوف نستخدم اللحوم الحية . لحوم عربية . لحوم هولندية » هكذا فعلتم . وتم تفجير سيارة مرسيدس جميلة . سيارة تملكونها . والشيء الذى لا أعرفه بالطبع ، ولن أعرفه أبداً لأنك أنت وميشا ستنكران العملية كلها حتى وأنتما على فراش الموت . أليس كذلك ؟ هو أين زرعتم ذلك التضليل . لقد زرعتم ذلك التضليل بالفعل فى مكان ما . وهم الآن قد أكلوا الطعم . والا لما كانوا أحضروا لها بتلك الأزهار الجميلة . أليس كذلك ؟

هز كيرتز رأسه إعجابا بخيال بيكتون المسلى ثم بدأ يتحرك مبتعدا عنه . إلا أن بيكتون من خلال لمسات رجل الشرطة السديدة تمكن من إيقاف كيرتز فى مكانه .

– عليك أن تقول هذا للسيد جافرون اللعين . فإذا كنت أنا على صواب وأنتم قد جندتم واحدة من فتياتنا الانجليزيات بدون الحصول على موافقة منا فإننى سأحضر شخصيا إلى دولته الصغيرة الرديئة الكريهة واستخرج أمعاءه . أفهمت ذلك ؟

ثم أسترخى وجه بيكتون فجأة ، وظهرت عليه ابتسامة رقيقة تتعلق بالذكريات القديمة وبدا ذلك وكأنه ضد رغبته ثم تحجرت ملامحه مرة أخرى. وقال : وعلى المستوى الرسمى يا سيد رفائيل أقدم لك تحيات رئيسى في العمل .

ثم استدار على عقبه وسار فى نشاط عائدا إلى المنزل تاركا كيرتز والسيدة أفلاهيرتى يهرولان وراءه للحاق به وأضاف بيكتون قائلا : وهو يلوح بعصاه فى وجه كيرتز فى تأكيد نهائى لسلطاته الاستعمارية : وأخبره أن يكف عن استخدام جوازات السفر اللعينة التى تحمل هويتنا . فإذا كان الآخرون يستطيعون تدبير شئونهم بدون استخدام جوازاتنا فإن الروك يستطيع ذلك أيضا . لعنة الله على الروك .

.. ..

ولدى رحلة العودة إلى لندن جعل كيرتز ليتفاك يجلس فى المقعد الأمامى للسيارة لكى يعلمه الأساليب الانجليزية . وكان ميدوز يرغب فى مناقشة مشكلة الضفة الغربية : كيف يمكن حل هذه المشكلة حلا فعليا حقيقيا يا سيدى من خلال عقد اتفاقية عادلة مع العرب بالطبع من وجهة نظرك ؟ أبعد كيرتز نفسه عن حديثهم العقيم وانخرط ذهنه فى الذكريات القديمة التى مرت عليه فى حياته .

هناك مشانق صالحة للعمل حيث لم يعد يشنق أى شخص . وكيرتز يعرف هذه المشانق معرفة جيدة : إنها ملاصقة لمجموعة المنازل والمتاجر المسورة الروسية القديمة حيث تقع على الجانب الأيسر لدى قيادتك للسيارة هابطا على الطريق شبه المرصوف مع التوقف أمام بوابتين قديمتين تؤديان إلى ما كان يسمى ذات يوم بالسجن المركزى للقدس . واللافتات مكتوب عليها عبارة «إلى المتحف» ولكنه هناك رجل عجوز شبه معتوه يتسكع بالخارج وينحنى أمامك موجها لك الدعوة بالدخول. ورسوم الدخول هى ١٥ شيكل ولكن هذه الرسوم آخذة فى الارتفاع . أنه المكان الذى قام فيه البريطانيون بمحاكمة اليهود أثناء فترة الانتداب البريطانى على فلسطين . وحقيقة الأمر أنهم لم يشنقوا سوى عدد ضئيل للغاية منهم بينما قاموا بشنق عدد كبير للغاية من العرب إنه المكان الذى قاموا فيه بشنق اثنين من أصدقاء كيرتز خلال السنوات التى انضم فيها للهاجاناه مع ميشا جافرون . كان من المحتمل أن يحاكم كيرتز هو الآخر ويلحق بصديقيه . إذ سبق لهم أن سجنوه مرتين واستجوبوه أربع مرات .

قال كيرتز لنفسه على كل حال فإن بيكتون يعتبر رجلا ظريفا

ثم ابتسم فى نفسه ابتسامة داخلية لدى تأمله فى اتخاذ خطوة ناجحة أخرى على الطريق ، صحيح أن بيكتون ربما يعتبر جافاً بعض الشيء وهو حزين بسبب ولعه بالخمور ولكنه فى نهاية الأمر منصف مثل معظم الرجال وهو أيضا صاحب مهنة . له عقل ممتاز فى داخل اطار العنف . ودائما ما كان ميشا جافرون يقول إنه تعلم منه الكثير .

الفصل التاسع عشر

كان الموقف يتمثل فى العودة إلى لندن والانتظار . على مدى أسبوعين ممطرين من أيام الخريف ومنذ أن أخبرتها هيلجا بذلك النبأ الرهيب ، فإن ذلك الجانب من تشارلى النابع من خيالها دخل فى جحيم مرضى ملىء بالرغبة فى الانتقام، وأخذ يشتعل ويحترق « إننى أعانى من صدمة نفسية. أنا إنسانة فى حالة حداد أنا إنسانة استحوانية غير سوية ، وليس لى صديق يمكننى اللجوء إليه . أنا جندية حُرمت من جنرالها أنا إنسانة ثورية عُزلت وقطعت علاقاتها مع الثورة . حتى كاتى قد هجرتها » . قال لها يوسف فى ابتسامة مسحوبة إلى الداخل : « من الآن فصاعداً ستديرين شئون نفسك بدون مربية . لن ندعك تذهبين إلى كابينات التليفونات مرة أخرى » . كانت لقاءاتهما خلال هذه الفترة نادرة وشبيهة بلقاءات إنجاز الأعمال حيث يتم التقاطها بالسيارات وفقا لخطط مسبقة . وهو فى بعض الأحيان يصطحبها إلى المطاعم البعيدة التى تقع عند مشارف لندن . وفى إحدى المرات اصطحبها إلى بلاچات بيرنهام من أجل التريض سيرا على الأقدام ، وفى مرة أخرى اصطحبها إلى حديقة الحيوان . فى كل مكان يوجدان فيه يحدثها عن حالتها الذهنية ودائماً ما كان يحدثها فى اختصار عن الأحداث المتوقعة التى يمكن أن تحدث دون أن يصف لها طبيعة تلك الأحداث .

تساءلت : وما الذى سيفعلونه بعد ذلك ؟

إنهم يقومون بأعمال الفحص والمراجعة . إنهم يرقبونك . ويفكرون فيك.

وفى بعض الأحيان كانت تزعج نفسها بأن تتفجر فى مشاعر عدائية نحوه.

ولكنه يسارع إلى التأكيد لها بأن الأعراض تعتبر طبيعية بالنسبة لحالتها . « إننى العدوّ البدئى أو الأوّلى. يا إلهى ! لقد قتلت ميشيل ولو كانت قد أتيحت لى شبه فرصة لقتلتك . وينبغى أن تنظرى إلىَّ فى هواجس وشكوك خطيرة . ولم لا ؟

شكرا للغفران .. هكذا راحت تفكر فى تعجب سرّى فى الواجهات والمظاهر اللانهائية للفصام النفسى التى يشاركان فيها سويا : أن تفهم هو أن تعفو .

جاء اليوم الذى أعلن فيه أنه ينبغى عليهما إلغاء أية لقاءات من أى نوع بصفة مؤقتة اللهم إلا إذا حدثت حالة من الطوارئ . كان يبدو أنه يعرف أن هناك شيئا ما على وشك أن يحدث ولكنه رفض أن يحدثه عن طبيعة ذلك الشيء خشية أن تستجيب على نحو غير ملائم . أو خشية ألا تستجيب على أى نحو على الاطلاق وأخبرها أنه سيكون قريباً منها مذكرا إياها بوعوده فى بيت أثينا : قريب - ولكن ليس موجودا - من يوم إلى يوم . وهو بذلك ربما يكون قد تعمد أن تتوتر حاسة عدم الأمن لديها إلى أن تصل إلى درجة الانهيار تقريباً . لقد أعادها مرة أخرى إلى حياة العزلة التى اخترعها لها ولكن فى هذه المرة مع موت حبيبها كلحن رئيسى أو كفكرة أساسية .

أصبحت شقتها التى كانت تحبها ذات يوم تلقى كل الإهمال من جانبها بحيث صارت بمثابة الضريح المهمل لذكرى ميشيل . فالكتب والنشرات التى أعطاها لها ملقاة على الأرضية وفوق المنضدة . وفى الليل عندما يطير النوم من عينيها تجلس إلى مكتبها وتقوم بكتابة فقرات مقتبسة من خطاباته. تهدف من ورائها إلى حشد أفكار عنه بحيث تظهره على أنه « شى چيفارا » العربى . بل وفكرت فى إجراء اتصالات مع ناشر له آراء متطرفة كانت تعرفه: « خطابات ليلية من شهيد فلسطينى » . كتاب مطبوع على ورق ردئ ملئ بالأخطاء المطبعية . وكانت تشارلى تدرك أن طبع مثل هذا الكتاب يعتبر أمراً محفوفا بالجنون . ولكنها كانت تدرك أيضاً أنه بدون الجنون لا توجد هناك سلامة عقل .

كانت نزهاتها ورحلاتها الخلوية إلى العالم الخارجى قليلة للغاية . ولكنها فى

إحدى الليالى - ولكى تبرهن لنفسها على أنها مصممة على حمل لواء ميشيل إلى المعركة نيابة عنه إذا ما أمكنها فقط العثور على ميدان معركة - حضرت اجتماعا للرفاق تمَّ فى الغــرفة العلوية لحــانة بشارع القديس بانكراس . وجلست مع فريق « المجانين » ومعظمهم كانوا فى حالة غير طبيعية ألا أنها أدركت حقيقة الأمور ومراميها الخفية . لقد أثارت الرعب فى نفسها وفى نفوسهم عندما ألقت خطبة رائعة ضد الصهيونية المتمثلة فى كافة تجلياتها الفاشية وأساليبها المتسمة بالإبادة الجماعية . مما أدى إلى ظهور إحتجاجات عصبية من ممثلى الجناح الأيسر اليهودى الراديكالى .

وفى أوقات أخرى أظهرت إزعاجها الراديكالى فيما يتعلق بمستقبلها الفنى - ما الذى حدث بالنسبة للاختبارات التى تمت بشأن العمل فى السينما؟ يا نيد إننى بحاجة إلى العمل ! بحق السماء . ولكن حقيقة الأمر أن حماسها تجاه المسرح الاصطناعى كان آخذاً فى الانحسار والذبول . إذ كانت قد بدأت ترتبط بمسرح الحياة الواقعية على الرغم من المخاطرة المتزايدة التى تكتنفه وتحدق به .

وبعدئذ بدأت التحذيرات فى الظهور مثل أصوات الصرير التى تصدر عن حبال الأشرعة والصوارى لدى اقتراب هبوب عاصفة بحرية .

.. ..

جاء التحذير الأول من جانب نيد كويللى المسكين ، إذ اتصل بها تليفونيا فى وقت مبكر للغاية بالنهار بما يتعارض مع عادته فى الاتصال بها، حيث إنه معتاد أن يتصل بها فى أوقات متأخرة كان من الواضح أنه يرد على المكالمة التليفونية التى أجرتها معه فى اليوم السابق . إلا أنها أدركت على الفور أن ذلك كان شيئاً ناجما عن إصدار «مار جورى» الأوامر له بأن يفعل ذلك فى اللحظة التى يصل فيها إلى مكتبه - قبل أن ينسى أو قبل أن تضعف عزيمته أو قبل أن ينخرط فى تناول الخمور قال كويللى إنه ليس لديه شىء يقوله لها . لكنه يرغب فى إلغاء طعام غدائهما فى ذلك اليوم. ردت عليه قائلة بأنه لا توجد مشكلة فى ذلك حاولت

إخفاء مشاعر الإحباط التى هبطت عليها لأنهما اتفقا على تناول الغداء سويا بمناسبة الاحتفال بانتهائها من رحلتها مع التطرق إلى ما ينبغى عليها أن تفعله بعد ذلك . كانت تتطلع بالفعل إلى حفلة الغداء من حيث هى متعة تقدمها لنفسها .

قالت فى إصرار : « ذلك شئ ظريف للغاية » وانتظرت منه أن يسوق الأعذار ولكنه بدلاً من ذلك قال كلاما يتسم بالغباء والوقاحة .

قال فى غطرسة : لا أظن أن ذلك من الأمور المناسبة فى هذه المرة .

يا نيد . ماذا فى الأمر ؟ لسنا الآن فى فترة الصوم الكبير . ماذا دهاك ؟ ما الذى أصابك ؟ ولكن طيشها الزائف الذى تهدف من ورائه إلى تسهيل الأمور بالنسبة له لم يؤد إلا إلى حفزه إلى المزيد من الافتخار بأهميته الذاتية .

ثم بدأ يقول من فوق منبره العالى : يا تشارلى أنا لا أعرف الأمور التى كانت تشغلك وتستحوذ على تفكيرك . لقد كنت شابا صغيرا فى يوم ما ولم أكن ضيق التفكير على النحو الذى تظنينه ، ولكن لو أن نصف ما يتم الإيعاز به صادق فلا يسعنى إلاَّ أن أشعر أننى أنا وأنت يمكن لنا أن نفعل أموراً أفضل بالنسبة لكلا الجانبين . ولسوف أؤجل الموعد المرتقب بيننا إلى أن تعودى إلى طريق الرشاد وتفوقى من حالة الإغماء . وعند هذه النقطة ووفقا لسيناريو «مارجورى» ينبغى عليه أن ينهى المحادثة التليفونية بأن يضع السماعة وقد تم ذلك بالفعل . فأجرت اتصالاً تليفونيا معه على الفور فردت عليه أليس . وهو ما كانت تريده .

– ماذا فى الأمر ؟ ولماذا حصلت أنا على هذه الأنفاس الرديئة فجأة ؟

فقالت أليس بصوت منخفض للغاية لأنها كانت تخشى أن يكون التليفون موضوعاً تحت المراقبة « أوه تشارلى . ما هى الأمور التى كنت مشغولة بها ؟ فالشرطة جاءت هنا وأمضت الفترة الصباحية بأكملها بسبب أمور تتعلق بك .

قالت فى شجاعة : حسنا ، سُحْقاً لهم .

وقالت لنفسها : هذه إحدى المراجعات والتفتيشات الموسمية التى يقومون

بها . ففرقة المباحث السرية يُقْحمون أنفسهم وهم يرتدون أحذية ذات مسامير غليظة فى النعل من أجل استكمال الملف الخاص بها قبل حلول الكريسماس . لقد اعتادوا أن يفعلوا ذلك على فترات دورية منذ أن بدأت هى فى الذهاب إلى المؤتمرات الجماهيرية . وفيما عدا ذلك فإن الأمر لم يبد شبيها بالروتين . ليس فترة صباحية بأكملها وثلاثة منهم فى آن واحد . فذلك أمر يتعلق بالشخصيات البالغة الأهمية « V.I.P. » .

وبعد ذلك جاء موضوع محل الكوافير .

لقد حددت موعدا لتصفيف شعرها فى الساعة الحادية عشرة . وقد التزمت بذلك الموعد . كانت صاحبة هذا المحل سيدة إيطالية كريمة الخلق تسمى بيبى . تجهمت عندما شاهدت تشارلى تدخل المحل وقالت إنها ستقوم بتصفيف شعر تشارلى بنفسها اليوم .

تساءلت وهى تضع الشامبو على شعر تشارلى : أكنت تضطجعين مع شخص متزوج مرة أخرى ؟ أدركين أنك لا تبدين إنسانة ملتزمة بالأخلاق الحميدة ؟ لقد كنت إنسانة رديئة لأنك سرقت زوج إنسانة ما ؟ ما هـــذا الذى تفعلينه يا تشارلى ؟ .

وعندما ضيقت تشارلى الخناق على بيبى ، قالت هذه أن ثلاثة من الرجال جاءوا إليها بالأمس . وقالوا إنهم من مفتشى الضرائب ويرغبون فى عمل مراجعة على دفتر الحجوزات والمواعيد الخاصة بدكان بيبى ، علاوة على مراجعة دفاتر الحسابات الخاصة بها من أجل معرفة القيمة المضافة .

إلا أن كل ما كانوا يريدون معرفته كان يتعلق بتشارلى .

قالوا لى من تكون تشارلى التى يوجد اسمها هنا ؟ هل تعرفينها معرفة جيدة يابيبى ؟ فقلت لهم « إننى أعرفها بكل تأكيد . فتشارلى فتاة طيبة ومنتظمة فى مواعيدها » . أوه . أهى منتظمة فى مواعيدها ؟ وهل هى تحدثت معك عن أصدقائها وعشاقها ؟ ومن هم هؤلاء العشاق الذين حصلت عليهم ؟ وأين تنام هى

فى هذه الأيام ؟ وتحدثوا عن الأجازة التى قمت بها - ومن هم الناس الذين ذهبت معهم لقضاء الأجازة . وما هى الأماكن التى ذهبت اليها بعد أن غادرت اليونان .. فلم أزودهم بأية معلومات ويجب أن تثقى فى كلام بيبى . ولكن عند الباب وبعد أن قامت تشارلى بتسديد فاتورة الحساب فى أمن وأمان ظهرت المشاعر الرديئة على وجه بيبى لأول مرة حيث قالت « لا داعى لأن تجيئى إلى هنا لبعض الوقت .هه ؟ فأنا لا أحب المتاعب . ولا أحب الشرطة » .

- ولا أنا يابيبى . صدقينى أنا لا أحب الشرطة .

ثم جاء موضوع الصبى الجميل بعد ساعتين . لقد شرعت فى السير على الأقدام رغم المطر الغزير المنهمر ، كانت تؤمن بالفكرة السخيفة التى تقول إنها تصبح فى حالة من الأمن والأمان أثناء سيرها على الأقدام وتصبح فى مزيد من الأمان عندما يكون المطر منهمراً . ثم غيرت رأيها وقفزت إلى داخل أتوبيس . ولكنها عندما ألقت نظرة إلى رصيف المغادرة ، شهدت رجلاً يدخل فى سيارة أجرة على مسافة ٥٠ ياردة خلفها .

وفى هلع فكرت فى أن تفر هاربة إلى دكان الترزى وتطلب التحدث مع يوسف على الفور . إلا أن ولاءها له منعها من اتخاذ هذه الخطوة . فهى تحبه بدون خجل وبدون أمل . ففى هذا العالم الذى قلبه رأساً على عقب من أجلها كان هو بمثابة الشخص الوحيد الدائم الباقى لها سواء فى الرواية الخيالية أو فى الحقيقة الواقعة .

لذلك ذهبت إلى السينما بدلاً من ذلك . وفى السينما حاول الرجل الجميل أن يلتقطها، كادت أن تسمح له بالتقاطها .

كان فارع الطول وخبيثا ومؤذيا . يرتدى معطفا جلديا ونظارة . تقدم نحوها أثناء فترة الاستراحة التى تتخلل العرض السينمائى . اعتقدت أنها تعرفه ، واجتاحها اضطراب كبير مما جعلها لا تستطيع تحديد اسم أو مكان خاص به . لذلك ردت على ابتسامته .

صاح قائلاً وهو يجلس إلى جوارها « هالوا . كيف حالك ؟ أنت شارميان ، أليس كذلك ؟ يا الهى . لقد كنت رائعة فى تمثيل دورك فى مسرحية « ألفا بيتا » فى السنة الماضية . أتريدين تناول بعض الفشار .

وفجأة لم تتلاءم الأمور مع بعضها لم تتلاءم الابتسامة البهيجة مع الفك الشبيه بالجمجمة . ولم تتلاءم نظارة المرضة مع عينى الفأر ولم يتلاءم الفيشار مع الحذاء اللامع و لم يتلاءم المعطف الجلد مع الطقس . لقد وصل هنا قادما من القمر . ولا يوجد أى شئ فى ذهنه سوى انتزاعها وتمزيقها .

تساءلت : أتريدنى أن استدعى المدير أم ستبتعد فى هدوء ؟

فظل فى مكانه ، وراح يحتج ويسألها عما إذا كانت اشبه بسد منيع . ولكنها عندما اندفعت متجهة إلى الصالة الأمامية اكتشفت أن موظفى السينما اختفوا مثل اختفاء ثلوج الصيف باستثناء فتاة صغيرة سوداء فى كابينة صرف التذاكر وقد تظاهرت بأنها مشغولة فى عدّ النقود .

كان ذهابها إلى منزلها يتطلب منها شجاعة تفوق ما تملكه من شجاعة. وعلى طول الطريق إلى منزلها راحت تدعو الله أن تنكسر ساقها أو يدهمها أتوبيس أو تتعرض لاحدى نوبات الإغماء التى تهاجمها من وقت لآخر . وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساءً . وكانت المقهى فى حالة من الهدوء المؤقت . وابتسم لها رئيس الطهاة ابتسامة مشرقة . ولوح لها مساعد رئيس الطهاة بيده كما لو كانت معتوهة . وفى داخل شقتها لم تقم بإضاءة الأنوار . واكتفت بالجلوس على السرير ، وترك الستائر مفتوحة . راحت ترقب من خلال المرآة الرجلين الموجودين على الرصيف المقابل وهما يتسكعان ولا يتحدثان أبداً مع بعضهما البعض ولا ينظران أبداً فى اتجاهها . كانت خطابات ميشيل مازالت موجودة تحت أخشاب أرضية الغرفة . ومع هذه الخطابات يوجد جواز السفر الخاص بها وما يتبقى من الاعتماد المالى الخاص بكفاحها . لقد حذرها يوسف فى الخطبة التى ألقاها عليها فيما يتعلق

بوضعها الجديد الذى طرأ عقب موت ميشيل : إن جواز سفرها أصبح الآن بمثابة وثيقة خطيرة ... وما كان ينبغى على ميشيل أن يدعك تستخدمين جواز السفر هذا وأنت تقودين السيارة ... ان جوازك ينبغى أن يوجد فى الحفظ والصون مع باقى أسرارك الأخرى .

وانصب تفكير تشارلى على : سيندى .

إنها فتاة متشردة تعمل فى نوبة المساء بالدور الأرضى . وكان عشيقها الهندى الغربى موجود فى السجن بتهمة الإساءة الجسدية البالغة . وكانت تشارلى تعطيها دروسا خصوصية مجانية فى العزف على الجيتار من وقت لآخر لكى تساعدها على قضاء أوقات الفراغ .

وحررت تشارلى رسالة اليه : ياسيندى . توجد هنا هدية عيد ميلاد من أجلك. عليك أن تأخذى هذه الهدية وتنقليها إلى منزلك وتمارسى العزف عليها إلى أن تصابى بالإغماء . فأنت موهوبة . لذلك لا تتوقفى عن العزف . وخذى الصندوق الموسيقى أيضاً . لقد تركت المفتاح فى منزل أمى ولكننى سأحضر المفتاح عندما أقوم بزيارة أمى فى المرة القادمة . مع خالص حبى وتقديرى ، تشارلى .

كان صندوق الموسيقى مملوكا لوالدها . فقامت بوضع خطابات ميشيل فى ذلك الصندوق . كما وضعت فيه نقودها وجواز سفرها والكثير من النوت الموسيقية . ثم حملت الصندوق والجيتار إلى الدور الأرضى . ثم قالت لرئيس الطهاة « هذه الأشياء من أجل سيندى » فانفجر رئيس الطهاة فى نوبة من الضحك . ووضع الأشياء فى دورة مياه السيدات المليئة بالزجاجات الفارغة .

وعادت تشارلى إلى الدور العلوى . وأضاءت الأنوار . وجذبت الستائر. وارتدت الزى الرسمى الكامل لأن الليلة هى ليلة بيكهام . ولن يتمكن كل رجال الشرطة فى العالم ولا كل عشاقها الموتى من منعها من عمل البروفات مع أولادها الصغار من أجل المسرحية الصامتة [البانتوميم] الخاصة بهم . ورجعت إلى منزلها عقب الساعة الحادية عشرة مباشرة . كان الرصيف شاغراً . فأخذت

سيندى صندوق الموسيقى والجيتار . ثم اتصلت تليفونيا بـ «آل» لأنها فى مسيس الحاجة لأى رجل . ولكن أحداً لم يرفع السماعة ليرد عليها . لقد خرج ابن الحرام للصعلكة مرة أخرى . وحاولت الاتصال تليفونيا باثنين من الرجال القدامى . ولكن بدون جدوى . وبينما هى على وشك النوم فى سريرها ألقت نظرة أخيرة من النافذة. وعندئذ شاهدت حارسيها وقد عادا إلى موقعيهما على الرصيف .

وفى اليوم التالى لم يحدث أى شىء باستثناء أنها عندما قامت بزيارة لوسى على أمل أن تعثر على « آل » عندها ، أخبرتها لوسى أن « آل » اختفى من على وجه الأرض واتصلت تليفونيا بالشرطة والمستشفيات . عندما رجعت إلى شقتها كان « آل » العجوز الرهيب على التليفون وهو فى حالة من الهستيريا الكحولية .

تعالى إلىَّ على الفور . عليك فقط بالمجئ فوراً .

وذهبت إليه .

.. ..

كان المقام قد استقر «بآل» عند ويللى وبولى اللذين لا يفترقان أبداً . ووصلت إلى هناك لتكتشف أنه أنشأ نادياً كاملا من المؤيدين . وكان روبرت قد أحضر صديقة جديدة له . وهى فتاة بلهاء تصبغ شعرها باللون البنفسجى وتضع على شفتيها مادة بيضاء تسمى سمانتا . وكالمعتاد راح « آل » يتزعم المجموعة .

وصرخ لدى دخول تشارلى قائلاً : وأنت يمكنك أن تخبرينى بالأمور التى تحبينها ! هذه حرب ! نعم هذه حرب !

ظل منفعلاً فى غضب إلى أن صرخت تشارلى فى وجهه : اخرس . واخبرنى ماذا حدث .

– ماذا حدث أيتها الفتاة ؟ ماذا حدث ؟ إن ما حدث هو أن الثورة المضادة أطلقت أول انفجار لها . وكان الهدف منصبا على « چو صوب » هنا!

ثم صرخت فى وجهه مرة أخرى . ولكنها كادت تصاب بالجنون قبل أن تتمكن من انتزاع الحقائق منه .

عندما خرج « آل » من الحانة هاجمه الفدائيون الثلاثة . كان بمقدوره أن يتغلب على شخص واحد أو اثنين . ولكنهم كانوا ثلاثة أشداء مثل برينجتون روك اللعين الدموى . راحوا يتناوبون عليه كفريق عمل موحد . وعندما تمكنوا من وضعه فى سيارة الشرطة بعد أن أصبح مشوها وشبه مخصىّ أدرك أنهم خنازير يتهمونه كذباً بالبذاءة.

وهل تعرفين ماذا يريدون كانوا يريدون التحدث عنك أيتها الفتاة ! وعن اتجاهاتنا السياسية اللعينة !وهل يوجد من بين أصدقائنا ومعارفنا أشخاص نشطاء فلسطينيون ؟ قالوا إنهم سيقتلعون أظافر أصابعى الواحد تلو الآخر ويضعوننى فى السجن لمدة عشر سنوات بتهمة قيامى بتدبير مؤامرات مناهضة للسلطات الحاكمة بالاشتراك مع أصدقائى الراديكاليين فى الجزر اليونانية لقد حدث بالفعل أيتها الفتاة ! ولذلك فنحن الموجودون فى هذه الغرفة نعتبر بمثابة خط المواجهة أو الخطوط الأمامية .

كانوا قد صفعوه بعنف شديد على أذنه فلم يعد يتمكن من سماع نفسه عندما يتكلم . وسببوا له كدمات لعينة فى ذراعه . واحتفظوا به فى السيارة الفان لمدة ٢٤ ساعة وراحوا يستجوبونه لمدة ست ساعات . وعندما طلب منهم إعطاءه دليل التليفونات ادعوا أن الدليل ضاع ، وذلك لكى لايتمكن من الاتصال بوكيله . وبعد ذلك وعلى نحو غير قابل للتفسير أسقطوا تهمة البذاءة وسمحوا له بالانصراف مع توجيه التحذيرات له .

كان هناك صبى يدعى ماتيو ضمن هذه الشلة . وكان يمتلك شقة . دُهش عندما ذهبت تشارلى إلى شقته وضاجعته . وفى اليوم التالى لم تكن هناك بروفات لذا فكرت تشارلى فى زيارة والدتها . ولكنها عندما استيقظت فى فترة الظهيرة من

نومها فى سرير ماتيو أصبحت لا تشعر بالرغبة فى الزيارة . ولذلك اتصلت تليفونيا بوالدتها وألغت الزيارة . وعندما وصلت إلى خارج مقهى جونينز وجدت سيارة شرطة واقفة عند حافة الطريق . كما شاهدت رقيب شرطة مرتديا الذى الرسمى عند المدخل بينما راح رئيس الطهاة الواقف إلى جواره يبتسم ابتسامة متسمة بالخجل .

كان رقيب الشرطة من النوع الذى يكره العالم كله ، إلا أن كراهيته تنصب أكثر على الهنود والفتيات الجميلات . وقال لتشارلى فى حدة : المقهى مغلق بصفة مؤقتة . ابحثى عن أى مكان آخر .

إن موت الحبيب يولد ردود الفعل الخاصة بذلك الموت . فتساءلت فى ذعر : هل مات شخص ما ؟

لم يخبرونى بأن شخصا ما مات . ولكن تحوم الشكوك حول لص شوهد فى المبنى ويقوم ضباطنا بالفحص . والآن أذهبى واغربى عن وجهى .

لعله كان فى الخدمة لفترة طويلة مما جعل النوم يداعب عينيه . وربما لم يكن يعرف كيف أن الفتاة المتهورة يمكنها أن تفكر بسرعة فتهرب من الأخطار بسرعة . وعلى كل حال فإنها كانت تحت حراسته . وتمكنت من الدخول إلى المقهى فى لمح البصر وضفعت الأبواب خلفها أثناء انطلاقها فى الجرى . كان المقهى شاغرا . وكان الباب الأمامى مغلقا . إلا أنها تمكنت من سماع أصوات رجال يتحدثون من خلال الباب . وفى الدور الأرضى راح رقيب الشرطة يصرخ ويطرق الباب فى عنف . سمعته يقول « أنت . توقفى عن ذلك . أخرجى » ولكن صوته كان خافتا . وراحت تفكر : المفتاح . ثم فتحت حقيبة يدها . فشاهدت تلفيحة الرأس البيضاء . فوضعتها على رأسها. مجرد تغيير بسيط بين المشاهد المسرحية . ثم ضغطت على الجرس مرتين . ثم دفعت لسان صندوق الخطابات .

– تشارلى ؟ هل أنت موجودة بالداخل ؟ أنا ساندى .

توقف هدير الأصوات فجأة . ثم سمعت وقع أقدام وهمسا يقول « هيا . أسرعوا » . وفتح الباب ووجدت نفسها تحملق فى عينى رجل ضئيل الحجم رمادى الشعر يرتدى بدلة رمادية ويميل إلى التوحش . واستطاعت أن تشاهد خلفه القطع الأثرية الغالية الخاصة بميشيل حيث كانت مبعثرة فى كل مكان . كما شاهدت سريرها مقلوبا وملصقاتها التى أنزلت من على الحوائط، وسجادتها التى طويت بالإضافة إلى فتح الألواح الخشبية الموجودة فى الأرضية . كما شاهدت كاميرا فوق حامل وقد اتجهت عدستها إلى أسفل . كما رأت رجلاً ثانياً يحملق من خلال العدسة بينما العديد من خطابات أمها قد نشرت تحتها . شاهدت أزميلات ومنقاشات وكمّاشات صغيرة بالإضافة إلى مشاهدة عشيقها المرتقب من السينما مرتديا نظارته وراكعا بين كومة من ملابسها الغالية الجديدة . وأدركت من أول لمحة أنها لم تعرقل عملية فحص الأشياء ، وإنما عرقلت اقتحام الشقة فى حد ذاته . وقالت أننى أبحث عن أختى شارميان فمن تكونون بحق الجحيم ؟

قال الرجل ذو الشعر الرمادى : «إنها ليست موجودة هنا » . لاحظت أن بفكه آثار خدوش . ظل ينظر إليها فى تفرس . ثم قال فى حدة صارخاً :

أيها الرقيب ماليس . أخرج هذه السيدة من هنا . ودوّن بياناتها التفصيلية !

وأغلق الباب فى وجهها . ومن أسفل كان بمقدورها سماع رقيب الشرطة المشئوم ، وهو مازال يصرخ ويولول . ونزلت فى هدوء على السلالم وحشرت نفسها بين صناديق الورق المقوى واتجهت نحو باب الفناء . فوجدته مغلقا بالترباس. أفضى الباب إلى مجموعة من الاسطبلات . التى تؤدى إلى الشارع الذى تعيش فيه الآنسة دوبير . وعندما مرت تشارلى بجوار نافذتها طرقت على النافذة وألقت عليها التحية . كيف فعلت ذلك ومن أين حصلت على هذه المهارة؟ . ذلك ما لن تعرفه أبداً . ظلت مستمرة فى سيرها إلا أنه لم يترامَ من ورائها وقع أقدام ولا هدير أصوات غاضبة . بل لم تطلق سيارة صرخات فى ذعر إلى جوارها . حتى بلغت الطريق

الرئيسى . وفى مكان ما أثناء سيرها على الطريق ارتدت فردة واحدة من القفاز الجلدى حيث سبق أن طلب منها يوسف أن تفعل ذلك إذا أثاروا ذعرها . ثم شاهدت سيارة تاكسى شاغرة . فنادت عليها . وراحت تفكر فى ابتهاج : أنا حرة الآن . ثم خطر على ذهنها أنهم تعمدوا أن يتركوها تذهب وشأنها .

كان يوسف قد اتخذ قراراً بعدم استخدامها لسيارتها الفيات .رغم أنها كانت تدرك أنه على حق . ولذلك راحت تتحرك على مراحل وبدون اللجوء إلى التسرع. وهى تقنع نفسها بالتحدث مع نفسها بصوت عالٍ . قائلة بعد التاكسى نأخذ الأتوبيس ثم نسير قليلاً على الأقدام ثم نواصل باستخدام مترو الأنفاق . كانت تتمتع بذكاء خارق . لكن ينبغى عليها أن تضع أفكارها فى الاتجاه الصحيح . تدرك أنه ينبغى عليها أن تتحكم فى ردود أفعالها قبل أن تتخذ خطواتها التالية . لأنها إذا أخطأت فى ذلك فسوف تفشل فى أداء دورها فى المسرحية . لقد حدثها يوسف عن ذلك وصدقت كلامه .

أننى مثل مجرمة تلوذ بالفرار . إنهم يقتفون أثرى . يا الهى ما الذى أفعله يا هيلج ؟

يمكن لك الاتصال برقم التليفون فى حالات الطوارئ القصوى ياتشارلى وإذا اتصلت تليفونيا بدون أن تكون هناك حاجة ملحة تستدعى ذلك فأننا سنغضب بشدة أتسمعيننى ؟

نعم يا هيلج . إننى أسمعك .

وجلست فى احدى الحانات . وتناولت كأسا من الفودكا التى يفضلها ميشيل وراحت تتذكر باقى النصائح التى قالتها هيلجا بينما توارى ماستاربين فى السيارة. تأكدى أن أحداً لا يرقبك ويتتبعك . لا تستخدمى تليفونات الأصدقاء أو العائلة : لا تستخدمى مقصورة التليفون الموجودة على ناصية الشارع أو عبر الطريق أو فى أول الشارع أو فى نهاية الشارع الذى توجد فيه شقتك .

أبداً . أبداً . هل تسمعيننى ؟ فهم جميعا خطرون للغاية . هؤلاء الخنازير

يمكنهم وضع كبسولات تَنَصُّت فى أى تليفون فى ثانية واحدة لا تستخدمى أى تليفون مرتين على الإطلاق . هل تسمعينني يا تشارلى ؟ .

إننى أسمعك تماما يا هيلج .

وخطت إلى الشارع وشاهدت رجلاً يحملق فى فاترينة دكان غير مضاءة. كما شاهدت رجلاً آخر يتسكع ويمشى الهوينى بعيداً عن الرجل الأول حيث كان يتجه نحو سيارة تقف فى المكان المخصص لوقوف السيارات وهى سيارة مزودة بإيرال هوائى . لقد اجتاحها الرعب الآن . كان رعبا هائلاً حتى أنها كانت ترغب فى الاستلقاء فى أنين على الرصيف مع الاعتراف بكل شىء والتوسل إلى العالم لكى يعود بها ويرجعها . كان الناس أمامها مرعبين تماما مثل الناس الذين خلفها . وكانت الخطوط الشبحية للحاجز الحجرى عند حافة الطريق تؤدى إلى نقطة ما رهيبة تؤدى إلى نقطة التلاشى لكيانها بأكمله . راحت تتوسل : هيلجا . اخرجينى من هذا الذى يحدق بى . وصعدت إلى أتوبيس فى الاتجاه الخاطئ . وانتظرت ثم صعدت إلى أتوبيس آخر . ثم سارت على الأقدام مرة أخرى . لكنها أحجمت عن استخدام مترو الأنفاق . لأنها تعتقد أن وجودها تحت الأرض يسبب لها الذعر لذلك استقلت تاكسيا للمرة الثانية . وراحت ترقب الشارع من خلال الزجاج الخلفى للتاكسى . لا أحد يرقبها ويتتبعها . إذا كان الشارع شاغراً . سحقا للمشى وسحقا لخطوط مترو الانفاق وسحقا للأتوبيسات .

قالت لسائق التاكسى : « بيكهام » واتجهت إلى البوابات ذات الديكورات الحديثة .

كانت الصالة التى استخدموها من أجل إجراء البروفات تقع فى الجزء الخلفى من الكنيسة . وهى مكان يشبه الشونة ويجاور ساحة اللعب التى حطمها الأولاد منذ فترة طويلة . ولكى تصل تشارلى إلى الصالة كان عليها أن تسير فى ممشى تصطف على جانبيه أشجار الطقوس الصنوبرية . لم تكن هناك أنوار مضاءة ولكنها ضغطت بأصبعها على الجرس بسـبب لوفتى الملاكم المعتـزل . إنه

الحارس الليلى . ولكنه منذ حذف بعض المشاهد والأجزاء أصبح يجيئ ثلاث ليالٍ أسبوعيا على الأكثر . ولكن أحداً لم يرد على الجرس . فقامت بفتح الباب بالمفتاح وخطت إلى الداخل . وعندئذ ذكرها الهواء البارد الموجود بالداخل بالكنسية الكورنيشية التى ذهبت إليها عقب وضع أكاليل الزهور على قبر الإنسان الثورى المجهول . وأغلقت الباب وراءها وأشعلت عود كبريت . فرفرف اللهيب فوق الرقائق المطاطية الخضراء التى تكسو الأرضية والقبو العالى للسقف . وراحت تنادى بصوت متنـاغم من أجل رفع معنوياتها « يا لوفتى » . وانطفأ عود الكبريت . ولكنها وجدت سلسلة الباب فأزاحتها قبل أن تشعل عود كبريت آخر . وراحت أصداء صوتها ووقع أقدامها ورنين السلسلة تتلاطم فى جنون على مدى ساعات .

وراحت تفكر فى الخفافيش وغيرها من الأشياء البغيضة للغاية . وراحت تفكر فى أعشاب البحر التى تنجذب عبر وجهها . كانت السلالم ذات الدرابزين الحديدى تؤدى لأعلى إلى رواق صنوبرى يعرف باسم « الغرفة العمومية » . وهى غرفة تذكرها بميشيل منذ أن قامت بتلك الزيارة السرية لشقة ميونيخ أمسكت تشارلى بالدرابزين وصعدت على السلالم . ثم وقفت بدون حراك فى الرواق بين ظلام الصالة . وراحت تصغى بينما أخذت عيناها تتعودان على الظلام . وتبينت الخطوط الخارجية لخشبة المسرح . ثم السحب المتلاطمة المخدرة لستارة المسرح الخلفية وتمكنت من مشاهدة جمالونات السقف . ثم التقطت التوهج الفضى للكشاف الضوئى المسرحى الوحيد . وهو بمثابة مصباح أمامى لسيارة تم تحويله إلى كشاف مسرحى بمعرفة ولد باهامى يسمى جامز . كان قد استخرج مصباح السيارة من مقلب نفايات السيارات القديمة . وهناك كنبة قديمة فى الرواق . وإلى جوارها منضدة ذات قرص بلاستيك شاحب ينعكس عليه توهج المدينة المتسرب من خلال النافذة . وفوق المنضدة يوجد التليفون الأسود الذى لا يستخدمه الا طاقم العاملين فقط .

جلست تشارلى على الأريكة ، وانتظرت حتى استرخت بطنها . وهبط معدل نبضات القلب عندها إلى أقل من ٣٠٠ نبضة . ثم رفعت التليفون وحامل السماعة

فى آن واحد ووضعتهما على الأرضية تحت المنضدة . وأدارت القرص . ثم ترامى إليها الصوت الحاد لهيلجا التى شرعت فى التكلم باللغة الألمانية .

قالت تشارلى : أنا جان دارك . هل تذكريننى ؟ ثم تلقت صمتا يتسم بالاستغراق فى التفكير .

– أين أنت يا جان ؟

– لا تتدخلى فيما لا يعنيك .

– هل أنت تواجهين مشكلة يا جان ؟

– فى حقيقة الأمر لا أواجه مشكلة . أردت فقط أن أشكرك لأنك أحضرت الخنازير إلى عتبة بابى الخارجى .

.. ..

وراحت هيلجا تستمع إليها فى صمت حتى النهاية . ثم قالت عندما خيل إليها أن تشارلى قد انتهت تماما من كلامها « أين أنت الآن » . وكانت تتكلم على الرغم منها كما لو كانت تخرق القواعد والقوانين الخاصة بها .

قالت تشارلى : انس هذا الموضوع .

– هل بالإمكان الوصول إليك فى أى مكان ؟ أخبرينى أين ستكونين فى خلال الـ ٤٨ ساعة القادمة .

– لا .

– أيمكنك أن تتصلى بى مرة أخرى بعد ساعة ؟

– لا أستطيع ذلك .

وسادت فترة طويلة من الصمت . ثم تساءلت هيلجا :

– أين الخطابات ؟

– فى أمن وأمان .

وسادت فترة صمت أخرى . ثم قالت هيلجا : أحضرى ورقة وقلماً .

– لست بحاجة لإحضار ورقة أو قلم .

– لابد أن تحضرى ورقة وقلما . فأنت لست فى حالة تساعدك على التذكر على نحو دقيق . هل أنت مستعدة الآن ؟

– لا عنوان . ولا رقم تليفون . وإنما اتجاهات شارع ووقت محدد والطريق الذى ينبغى عليها أن تسلكه .

– أفعلى على وجه الدقة ما أقوله لك . فإذا لم تستطيعى تنفيذ ما أقوله لك . وإذا واجهت المزيد من المشكلات . اتصلى برقم التليفون الموجود فى البطاقة الخاصة بأنتون قولى إنك ترغبين فى الاتصال بـ بيترا وأحضرى الخطابات . هل تسمعيننى ؟ بيترا وأحضرى الخطابات . وإذا لم تحضرى الخطابات سنشعر نحوك بالغضب والضيق الشديد .

ووضعت تشارلى سماعة التليفون . ثم سمعت صوت يديْن تصفقان فى خفة . حيث ترامى التصفيق من قاعة الاستماع بالدور الأرضى . فاتجهت نحو حافة الشرفة . وراحت تنظر . فاجتاحتها غبطة هائلة عندما شاهدت يوسف جالساً بمفرده فى منتصف الصف الأول . ثم استدارت ونزلت بسرعة على السلالم لكى تقابله . وعندما وصلت إلى آخر سلّمة وجدته وقد فتح ذراعيه لكى يستقبلها بالأحضان . وراح يقبلها . واستمر فى التقبيل . ثم عاد بها إلى الرواق وقد لف ذراعه حول خصرها حتى أثناء صعودها على السلالم الضيقة بينما كان يحمل سلة فى يده الأخرى .

كان قد أحضر معه سلمون مدخن وزجاجة من الخمور ووضعها على المنضدة بدون أن يفك الأغلفة التى تربطها .. وكان يعرف المكان الذى فيه الأطباق تحت حوض الغسيل بالإضافة إلى معرفته كيفية توصيل النيران الكهربائية إلى جهاز الطهو . كان قد أحضر معه «ترموس» مليئا بالقهوة بالإضافة إلى إحضار بطانيتين

من فوق السرير الموجود بالدور الأرضى . ثم استدار ليقوم بالمراجعة على الأبواب الضخمة مع غلقها بالترابيس من الداخل . ثم جلس إلى جوارها على الأريكة . ووضع بطانية على جسدها لأنها كانت ترتعش بشكل متواصل بسبب برد القاعة . لقد سببت لها المكالمة التليفونية مع هيلجا ذعرا شديداً . بالإضافة إلى أن عينى رجل الشرطة الذى وجد فى شقتها سبب لها الكثير من الخوف .

وكان الضوء الوحيد يترامى من النيران الكهربائية . وكانت النيران تسطع لأعلى على وجهه مثل أضواء مقدم خشبة المسرح الشاحبة التى كانت تستخدم ذات يوم فى المسارح . تذكرته عندما حدثها فى اليونان بأن إنارة الأماكن الأثرية بالضوء الغامر هو بمثابة تخريب متعمد من النوع الحديث . لأن المعابد شيدت من أجل أن تشاهد مع وجود الشمس فوقها وليس تحتها . ولف ذراعه حولها تحت البطانية . قالت له كنوع من لفت انتباهه وتحذيره : لقد انخفض وزنى بشكل كبير .

لم يرد عليها . وضمها أكثر إليه من أجل أن يسيطر على الرعشة التى تسرى فى كيانها ويمتص تلك الرعشة ويجعل منه رعشته هو . خطر على ذهنها أنها كانت تعرف دائماً – على الرغم من مراوغاته وتنكراته – أنه فى جوهره إنسان طيب ولديه تعاطف غريزى إزاء كل شخص وأنه فى الحرب والسلام بمثابة رجل قلق يكره أن يسبب الآلام للآخرين . ووضعت يدها على وجهه وشعرت بالسرور عندما أدركت أنه لم يحلق ذقنه لأنها لم تكن ترغب أن تعرف أنه أعد لكل شىء عدته .

أزاح يدها فى رفق وجذبها إليه . وقبل فمها فاستجابت فى غير مبالغة. وانتظرت منه أن يشعل العواطف التى كثيراً ما كان يتكلم عنها . كانت تحب معصميه ويديه ؛ إذ لم تكن هناك أيدٍ لها نفس هذه الحكمة الكبيرة . وراح يلمس وجهها ورقبتها وثدييها . أحجمت عن تقبيله لأنها تريد أن تتذوق كل طعم على حدة : إنه الآن يقبلنى . الآن يلمسنى . الآن يخلع لى ملابسى . الآن مستلقٍ بين ذراعى . نحن عاريان تماما . ونحن على البلاج مرة أخرى وفوق الرمال . نحن بمثابة اثنين

من المبانى المخربة بينما الشمس تحرقنا من أسفل وضحك وتدحرج مبتعدا عنها واتجه عائدا إلى النيران الكهربائية . وهى فى كل تجاربها السابقة المتعلقة بالحب لم يسبق أن شاهدت أى شىء فى مثل جمال جسده المنحنى فوق وهج النيران . عاد إليها . وركع إلى جوارها . وشرع مرة أخرى فى التقبيل والتلامس . سرعان ما فقد حياءه . إلا أنه دائما ما كان يعود إلى وجهها لأنهما كانا بحاجة لأن يشاهد كل منهما الآخر إنه الحبيب الذى لا يقارن معه أى حبيب آخر سبق أن تعرفت عليه . كان بمثابة النجم البعيد الذى تهتدى به فى جميع أرجاء هذه الدولة المتعفنة . وحتى لو كانت هى مكفوفة البصر لكانت قد أدركت ذلك من خلال لمساته لها .

وأفاقت فوجدته جالساً إلى جوارها ينتظرها أن تعود إلى وعيها . كان قد حزم وعبأ كل شىء . قال « إنه ولد » . وابتسم .

فردت عليه قائلة « إنهما توأم » ثم جذبت رأسه لأسفل إلى أن أصبحت رأسه مستندة على كتفها . وشرع فى الكلام . إلا أنها أوقفته فى تحذير حازم : لا أريد سماع صوت يصدر عنك مثل الصرير . ولا أريد قصصا للاعتذارات . ولا أكاذيب . وإذا كان ذلك جزءا من الطقوس الخدمية فلا تخبرنى بذلك . كم الساعة الآن؟

– منتصف الليل .

– إذن . إرجع إلى السرير .

قال : مارتى يريد التحدث معك .

– كان هناك شىء ما فى صوته وطريقة إلقائه للكلام جعلها تدرك أن ذلك اللقاء المرتقب ليس من تدبير مارتى ، وإنما من تدبيره هو .

.. ..

إنه المكان الخاص بيوسف لقد أدركت ذلك بمجرد أن دخلت : حجرة صغيرة مستطيلة الشكل زاخرة بالكتب تقع فى مستوى الشارع بها ستائر مزركشة .

ومساحة تتسع لمستأجر واحد . وعلى هذا الحائط تتدلى خرائط عن الأماكن الداخلية فى لندن . وعلى طول الحائط توجد منضدة مائدة عليها اثنان من التليفونات . والجانب الثالث يشغله سرير مُبيَّت فى جدار الحائط . وعلى الجانب الرابع يوجد مكتب من خشب الصنوبر فوقه مصباح قديم وإناء من القهوة بجوار التليفونين . لم ينهض مارتى لدى دخولها . وإنما اكتفى بالالتفات برأسه نحوها مبتسما . وكانت أفضل وأحرّ ابتسامة حصلت عليها منه فى أى وقت من الأوقات . ولكن ربما كان السبب فى ذلك أنها كانت تنظر إلى العالم على أنه شفوق للغاية فى تلك اللحظات . وفتح ذراعيه لها مرحبا . فانحنت لأسفل . ودخلت فى أحضانه الأبوية : ها هى ابنتى قد عادت من أسفارها . وجلست تشارلى فى مواجهته بينما جثم يوسف قابعاً على الأرض بالطريقة العربية وبنفس الطريقة التى جثم بها فوق قمة التل عندما جذبها وألقى عليها محاضرة تتعلق بالبندقية .

قال كيرتز مشيراً إلى جهاز تسجيل موجود إلى جواره : أتريدين الاستماع إلى نفسك ؟ لقد كنت رائعة للغاية يا تشارلى . لم يكن ترتيبك الثالث أو الثانى وإنما كان ترتيبك الأول من حيث الأفضلية .

قال يوسف محذراً : إنه يمتدحك فى تملق . عن من الذى يريد السُّكَّر.

قال كيرتز : يا تشارلى لك مطلق الحرية فى الانسحاب . ويوسف هنا يصر أنه ينبغى على أن أذكرك بهذا . هأنا أخبرك بصوت مرتفع وفى وضوح شديد : يمكنك أن تذهبى الآن . مع مرتبة الشرف الأولى . أليس هذا صحيحا يا يوسف . وكمية كبيرة من النقود والشرف . وتحصلين على كل ما وعدناك به بل وأكثر .

قال يوسف : لقد أخبرتها بذلك بالفعل . شاهدت تشارلى ابتسامة كيرتز تزداد اتساعا . وربما كان ذلك من أجل إخفاء توتره . قال كيرتز : من المؤكد أنك أخبرتها يا يوسف . وأنا الآن أبلغها بذلك أيضاً . أليس ذلك ما تريد منى أن أفعله؟ يا تشارلى . لقد فتحت لنا غطاء صندوق كامل ملىء بالأفاعى والديدان . إنه صندوق ظللنا نبحث عنه منذ زمن بعيد . فأنت قد أزحت الستار عن المزيد من

الأسماء والأماكن والاتصالات . ولسوف يتم الكشف عن المزيد . سواء بك أو بدونك فأنت ، إلى حد بعيد مازلت نظيفة وحيث توجد أماكن قذرة اعطنا شهوراً قليلة وسنكون قد انتهينا من تنظيفها . فترة تبريد وتهدئة وخذى صديقاً معك – فأنت تريدين الأمور على ذلك النحو ولك الحق فى ذلك .

قال يوسف : إنه يعنى ذلك . لا تقولى فقط إنك سوف تستمرين . عليك بالتفكير ملياً .

ومرة أخرى لاحظت مسحة من الضيق فى صوت مارتى لدى عودته للهجوم على الموظف التابع له : أعنى ذلك بكل تأكيد .

قالت تشارلى متسائلة : إذن أين نحن ؟ وما هى هذه اللحظة ؟

وشرع يوسف فى التكلم إلا أن كيرتز سارع إلى الكلام قبله :

– فى هذا الأمر يوجد ما هو فوق الخط وما تحت الخط . وحتى الآن يمكن القول إنك فوق الخط ، ولكنك حاولت على كل حال أن ترينا ما يحدث ويدور فى الأعماق . ولكن من الآن فصاعداً قد يكون الأمر مختلفا بعض الشىء . وتلك هى الطريقة التى ندرك بها هذا الأمر . وربما نكون على خطأ . تلك هى الطريقة التى نقرأ بها الدلائل .

إنه يريد أن يقول : إنك حتى الآن كنت فوق أراضٍ تتسم بالود والصداقة . بحيث يمكننا أن نكون قريبين منك وبحيث يمكن لنا أن نظهرك للعيان إذا احتجنا ذلك . ولكن من الآن فصاعداً فإن كل ذلك قد انتهى . لأنك سوف تصبحين واحدة منهم . ستشاركين فى حياتهم وعقليتهم ومبادئهم الأخلاقية . ولسوف تقضين الأسابيع وربما الشهور بعيداً عنا وبدون أن يكون لك أية اتصالات بنا .

قال مارتى : صحيح ستكونين بعيدة عنا ولكنك لن تكونى فى وضع لا يمكننا من الوصول إليك لكننا سنقف من حولك . ويمكنك أن تعتمدى علينا .

فتساءلت تشارلى : وما هى النهاية ؟

ظهر الارتباك على وجه مارتى على نحو مؤقت . ثم قال :

- ما هو نـوع النهاية يا عزيزتى - النهاية أو الهدف الذى يبرر هذه الوسائل ؟ لا أظن أننى قد فهمت سؤالك على وجه الدقة .

- ما الذى أبحث أنا عنه ؟ ومتى ستشعرون بالإشباع والرضا والارتياح ؟

قال مارتى فى أدب جم ولباقة : يا تشارلى نحن الآن نشعر بالرضى والارتياح بما فيه الكفاية وأكثر . لقد أدركت أنه كان يراوغ ويتملص .

قال يوسف فجأة : « الهدف يتمثل فى رجل » . ثم شاهدت تشارلى رأس مارتى تتحول لكى تواجهه إلى أن أصبح وجهه غير مرئى بالنسبة لها . بدت حملقته وهو يرد على نظرات مارتى الفاحصة مليئة بتحدٍ صريح لم يسبق لها أن شاهدته فيه من قبل على الإطلاق .

وقال كيرتز : أخيراً يا تشارلى . الهدف يتركز على رجل ، وإذا كنت ستواصلين المشوار معنا فتلك أمور سوف ينبغى أن تعرفيها .

فقالت : خليل .

فقال مارتى : هذا صحيح . إنه خليل . فخليل يرأس كل أعمالهم فى أوربا . وهو الرجل الذى ينبغى أن نحصل عليه .

قال يوسف : إنه خطير للغاية .

وأضاف كيرتز : « خليل لا يثق فى أى إنسان . ليست له عشيقة منتظمة . ولا ينام أبداً فى سرير واحد ليلتين متتابعتين . لقد عزل نفسه عن الناس . وخفض من احتياجاته الأساسية إلى درجة أنه قد أصبح لديه اكتفاء ذاتى تقريباً . إنه إنسان يدير الأعمال على نحو رائع » . ثم وجه ابتسامة عذبة للغاية إليها . ولكنه عندما أشعل لنفسه سيجاراً آخر فإنها أدركت من خلال اهتزاز عود الكبريت أنه كان غاضبا للغاية فى حقيقة الأمر .

لماذا لم يصبها التردد ؟

، هبط هدوء غير عادى على كيانها . شعور بالاستبصار وبُعْد النظر على نحو يفوق أى شىء عرفته حتى الآن . فيوسف لم يمارس الجنس معها لكى يرسلها بعيداً وإنما كى يجعلها تتراجع عن الأخطار . كان يعانى نيابة عنها من التردد الذى يعتمل فى داخل كيانها . ولكنها تدرك أيضاً من خلال هذا العالم السرى الذى صنعوه من أجلها أن الارتداد على عقبيها يعنى الارتداد إلى الأبد . كما تدرك أن الحب الذى لا يحرز تقدما لا يجد نفسه على الإطلاق حيث يصبح محكوما عليه أن يسقط فى حفرة الجودة المعتدلة أو الضئيلة التى أودع فيها العشاق الآخرون أنفسهم منذ أن بدأت حياتها مع يوسف . حقيقة أنه أراد لها أن تتوقف ولكن ذلك يجعلها تتراجع وإنما على العكس من ذلك جعلها تزيد من تصميمها على عدم التراجع . لقد كانا شريكين . كانا حبيبين . يربطهما بمصير مشترك .

راحت تسأل كيرتز عن الكيفية التى يمكن بها التعرف على الفريسة التى يراد اصطيادها . هل هو يشبه ميشيل ؟ كان ميشيل يهز رأسه ويستغرق فى الضحك . « يا عزيزتى . إنه لم يقف متخذا وضعا معينا لكى نلتقط له صورا » .

وبعدئذ وبينما حملق يوسف بعيداً عن كيرتز فى اتجاه النافذة نهض كيرتز بسرعة واستخرج من حقيبة جلدية مسطحة سوداء اللون موجودة بجوار الكرسى الذى كان يجلس عليه شيئا ما يشبه عبوة مسطحة لها سنّ كروى ومكرمشة عند طرفيها ، ولها سلكان رفيعان لهما لون أحمر ناتئان منها مثل شوارب سمكة جراد البحر . قال وهو يقرع بخفة باصبعه الغليظ على العبوة : « هذا هو ما نسميه المفجر أو فتيل التفجير وعند النهاية هنا توجد سدادة الثقب هذه . ويلاحظ أن الأسلاك قد أدخلت فى الثقب الذى يحتاج إلى كمية قليلة من الأسلاك أما بقية الأسلاك يتم حزمها على هذا النحو ثم استخرج مقصاً من الحقيبة وقطع به كل سلك مجدول على حدة مع الإبقاء على حوالى ١٨ بوصة فى حالة متصلة . وفى حركة رشيقة مدربة راح يلف الأسلاك الإضـــافية بحيث تصبح على شكل دمية لها

حزام كامل . ثم مررها إليها لكى تمسك بها . هذه الدمية الصغيرة هى ما نسميه توقيعه . وكل شخص إن عاجلاً أو آجلاً يكون له بصمته . وذلك هو بصمته .

وجعلته يأخذ الدمية من يدها .

كان لدى يوسف عنوان على تشارلى أن تذهب إليه . قامت السيدة الضئيلة الحجم المرتدية فستاناً بنياً باصطحابها إلى الباب لتوديعها . وخرجت تشارلى إلى الشارع فوجدت سيارة أجرة واقفة فى انتظارها متأهبة للرحيل وكان الوقت فى اللحظات المبكرة من الفجر حيث شرعت العصافير فى الغناء .

الفصل العشرون

بدأت فى وقت أكثر تبكيراً عن الوقت الذى حددته هيلجا . وذلك لأنها على نحو ما كانت إنسانة مناضلة لأنها تعمدت أن تغلف نفسها فى شكوك شديدة فيما يتعلق بالخطة كلها . كانت قد اعترضت قائلة : « وماذا لو كان التليفون معطلا ؟ فهذه هى انجلترا يا هيلجا وليست ألمانيا الأكثر كفاءة » . إلا أن هيلجا رفضت التفكير فى هذه المجادلات : « نفذى بالضبط الأوامر الصادرة إليك حرفيا . واتركى كل ماعدا ذلك لى . ولذلك بدأت من شارع جلوشيستار . وجلست بالدور العلوى . بدلا من أن تستقل الأتوبيس الأول عقب الساعة ٧,٣٠ استقلت الأتوبيس الذى يغادر فى الساعة ٧,٢٠ . وعند محطة مترو الأنفاق على طريق توتنهام كورت رود بدت سعيدة الحظ ، إذ توقف قطار لدى وصولها توا إلى رصيف المسافرين المتجهين الى الجنوب . ونتيجة ذلك اضطرت لأن تجلس كشخص يقنع بمشاهدة الرقص إما حياء وإما لأن أحدا لم يدعُه للرقص عند تقاطع الجسر الى أن اتخذت الوصلة الأخيرة الخاصة بها . وكان الوقت صباح يوم الأحد . وبخلاف عدد قليل من المصابين بالأرق والمترددين على الكنيسة باستمرار كانت هى الإنسانة الوحيدة المستيقظة فى لندن كلها . وعندما وصلت إلى المدينة وجدتها مهجورة تماما ومإن عثرت على الشارع حتى وجدت مقصورة التليفون على مسافة مائة ياردة أمامها وفقا لما قالته هيلجا تماما ، لقد قالت هليجا : « عليك أن تسيرى إلى نهاية الطريق ثم تستديرى وترجعى مرة أخرى » . فنفذت ذلك . ولكنها لدى رجوعها تضايقت عندما شاهدت رجلا يدخل مقصورة التليفون ويغلق الباب وراءه . فنظرت إلى ساعتها وأدركت أنه مازال أمامها ١٢ دقيقة أخرى لذلك أوقفت نفسها على مسافة أقدام قليلة . وراحت تنتظر . وكان قد أعطى ظهره لها وراح يتكلم باللغة الإيطالية على نحو متواصل وبدون توقف .

انقضت سبع دقائق ، ومازال الرجل منخرطا فى تلك المونولوجات الإيطالية العاطفية ، فبدأت تشعر بالتوتر وأخذت تلْعق شفتيها ، وراحت تنظر فى أرجاء الشارع ، ولكن شيئا لم يكن يتحرك - لا سيارات سوداء ولا رجال فى مداخل البيوت والمنازل ولا سيارة مرسيدس حمراء - كانت السيارة الوحيدة التى على مرمى البصر هى سيارة « فان » صغيرة شبيهة بالكهف وذات جوانب مموجة بينما باب السائق مازال مفتوحا وهو واقف أمامها مباشرة، بدأت تشعر بأنها عارية تماما ، وأصبح الوقت الثامنة صباحا حيث انطلقت تشكيلة مذهلة من الأجراس العلمانية والدينية . كانت هيلجا قد حدَّدت لها الساعة الثامنة وخمس دقائق ، توقف الرجل عن الكلام ، ولكنها سمعت خشخشة النقود المعدنية الموجودة فى جيبه لدى بحثه عن المزيد من النقود . ثم سمعت طرقا خفيفا لدى محاولته جذب انتباهها . فاستدارت وشاهدته وهو ممسك بقطعة نقود من فئة خمسين بنسا فى مواجهتها مع ظهور التجاوب على وجهه .. قالت : أتسمح لى بالاتصال أولا .. فأنا فى عجلة من أمرى .

لم يكن يفهم اللغة الانجليزية .. قالت لنفسها فى تفكير : لسوف تضطر هيلجا إلى مواصلة إدارة قرص التليفون ، وذلك هو بالضبط ما حذرتها منه . وراحت تمسك قطع نقود من فئة عشرة بنسات وخمس بنسات الى أن جمعت خمسين بنسا ، أيها السيد المسيح ، أنظر الى العرق الموجود فوق أصابعى ، مدت قبضة يدها المغلقة نحوه بينما أصابعها المبللة بالعرق متجهة لأسفل وفى حركة استعداد لإسقاط النقود فى راحة يده اللاتينية . أدركت أنه كان يصوِّب مسدسا صغيرا نحوها من بين طيات جاكتته الطويلة ، بدا التصويب نحو المكان الذى تتلاقى فيه معدتها مع قفصها الصدرى ، كان المسدس فى نفس حجم بندقية ميشيل ، ولكن مثلما قال لها ميشيل من قبل فإن كل بندقية تُحمل فى اليد تجمع بين مميزات الإخفاء وسهولة الحمْل والكفاءة ، مازال الرجل ممسكا بسماعة التليفون بيده الأخرى .. افترضتْ أن شخصا ما كان لايزال يصغى عند الطرف

الآخر؛ لأنه على الرغم من مخاطبته لتشارلى فى تلك اللحظات كان لايزال يحتفظ بوجهه قريبا من ذلك الجزء من سماعة التليفون الذى يتكلم فيه المرء .

قال موضحا بلغة انجليزية جيدة : ينبغى عليك يا تشارلى أن تسيرى الى جوارى نحو السيارة ، مع الالتزام بالسير عند جانبى الأيمن ، تسيرى عند جانبى الأيمن مع التقدم أمامى بعض الشئ ومع وضع يديك خلف ظهرك بحيث يمكن لى مشاهدتهما ، وتكون يداك متشابكتين خلف ظهرك ، هل تفهميننى ؟ إذا حاولت الفرار أو إعطاء إشارة إلى شخص ما أو صرخت طلبا للنجدة سأطلق الرصاص على الجانب الأيسر لك وأقتلك على الفور ، وإذا ظهرت الشرطة فى الشارع بطريق المصادفة أو إذا أطلق شخص ما أىّ رصاصات أو خامرتنى الشكوك سأضطر الى اطلاق الرصاص على جانبك الأيسر .

ثم أضاف كلاما ما باللغة الايطالية فى التليفون ووضع سماعة التليفون ، وبعدئذ سار خطوة خارجًا إلى الرصيف ، وابتسم بكل الثقة فى اللحظة التى أصبح فيها وجهه قريبا للغاية من وجهها ، كان وجها ايطاليًا حقيقيًا بمعنى الكلمة ، بل وكان صوته ايطاليًا أيضا ، وتخيلت صوته وهو يتكلم فى غير تكلُّف عند أماكن الأسواق القديمة مع النساء الموجودات فى الشرفات والبلكونات الخاصة بهن .

قال : هيا بنا .. لا تسيرى بسرعة كبيرة للغاية .. هه ؟ سيرى بطريقة لطيفة وسلسة .

قال أثناء سيره خلفها : عندما تجلسين فى الكرسى الأمامى المجاور لمقعد السائق ضعى يديك أمامك على لوحة أجهزة القياس بالسيارة ، فالفتاة الموجودة فى المقعد الخلفى بالسيارة تتميز بالسرعة الفائقة فى إطلاق الرصاص على الناس ، بل وأسرع منّى .

ففتحت تشارلى الباب الأمامى .. وجلست .. ووضعت أطراف أصابعها على لوحة أجهزة القياس بالسيارة مثل فتاة طيبة تضع يديها على منضدة .

قالت هليجا فى ابتهاج من خلفها : استرخى يا تشارلى ، واخفضى كتفيك،

ابتسمى الآن يا عزيزتى ، استمرى فى الابتسام ، فكل شخص سعيد اليوم ، وأىّ شخص لا يشعر بالسعادة ينبغى إطلاق الرصاص عليه .

قالت تشارلى : إبدأى بإطلاق الرصاص علىّ .. ودخل الايطالى الى مقعد القيادة بالسيارة وفتح الراديو على برنامج دينى عن الذات الالهية .

فأصدرت هيلجا أوامرها : اغلق الراديو .

كانت قد حشرت نفسها بين البابين الخلفيين ، ممسكة بالبندقية بكلتا يديها، وأغلق الايطالى الراديو ، وعندما ساد الهدوء بدأ يتكلم مع تشارلى مرة أخرى :

– حسنا ، إذن ارتدى حزام المقعد .. ثم ضعى يديك فى تشابك على حجرك . انتظرى ، سوف أفعل لك ذلك .

التقط حقيبة يدها وقذف بها إلى هيلجا ، ثم أمسك بحزام المقعد وربطه فى غير حرص مما جعل يديه تتلامسان مع ثدييها ، انه فى الثلاثينات من عمره ، وسيم مثل نجم سينمائى ، وفى هدوء شديد أحضر نظارة شمسية كبيرة من جيبه ، ووضعها على عينيها ، فظنت فى بادئ الأمر أنها أصيبت بالعمى الناجم عن الذعر الشديد لأنها لم تستطع مشاهدة أىّ شىء من خلال تلك النظارة ، وبعدئذ خطر على ذهنها أن النظارة ربما تكون من النوع الذاتى التلاؤم بحيث ينبغى عليها أن تجلس فى هدء وتنتظر لحين انقشا ع المنظر أمامها . أدركت بعدئذ أن عدم مشاهدتها لأىّ شئ هو أمر متعمد .. قال الايطالى محذرا اياها لدى البدء فى الانطلاق بالسيارة : لو خلعت النظارة ، فسوف تطلق الرصاص على مؤخرة رأسك .

قالت هيلجا العجوز فى ابتهاج : أوه .. ستفعل ذلك بكل تأكيد .

وانطلقوا .. وفى بادئ الأمر كانت السيارة تنطلق فى اهتزاز فوق مسافة ممهدة بالحصى والحصباء ثم انطلقت فى سلاسة ، وأصغت تشارلى على أمل سما ع صوت سيارة أخرى ، إلا أنها لم تسمع سوى صوت موتور سيارتهم وهى تتكتك وتدمدم عبْر الشوارع ، حاولت أن تُخمن اتجاه السيارة إلا أنها كانت قد فقدت تماما الإحساس بالاتجاهات ، وعلى نحو فجائى توقفت السيارة ، بدأ

الايطالى يساعدها على الخروج من السيارة . ثم وضع عصا فى يدها فافترضت أن لونها أبيض ، وبقدر كبير من المساعدة من جانب صديقتها بدأت تتغلب على الخطوات الست والسلالم الأربع الصاعدة إلى الباب الأمامى لشخص ما ، وجلست على مقعد جلدى بلا ظهر ، وجعلوها تشابك يديها وتضعهما فى حجرها مرة أخرى واحتفظوا بحقيبة يدها معهم ، ثم سمعتهم يقلبون محتوياتها فوق منضدة زجاجية مما أحدث رنينا عندما هبطت مفاتيحها وبعض العملات المعدنية الصغيرة على السطح الزجاجى ، ثم سمعت صوتا مكتوما لدى وضع خطابات ميشيل على المنضدة ، وهى التى جمعت الخطابات فى الصباح بناء على أوامر هيلجا ، انتشرت رائحة لوسيون طبى فى الهواء ، لوسيون أكثر تهدئة وتنويما من لوسيون ميشيل ، وكانت السجادة تحت قدميها من النايلون السميك وخمرية اللون مثل نباتات السحلبية الخاصة بميشيل ، خمنت أن الستائر ثقيلة ومسدلة فى إحكام لأن الضوء عند طرفى نظارتها كان أصفر اللون لا يشبه ضوء النهار على الإطلاق .

قالت تشارلى فجأة : أنا بحاجة للرفيق ماستاربين ، أنا بحاجة للحماية الكاملة للقانون .

انفجرت هيلجا فى ضحكات مليئة بالانتعاش والبهجة .

وقالت : أوه .. تشارلى .. هذا أمر متسم بالجنون التام .. ثم أضافت موجهة كلامها للايطالى : إنها رائعة .. ألا تعتقد أنها رائعة ؟.

إلا أن هذا السؤال لم يتلق أىّ إجابة ، كما بدا على هيلجا أنها لا تتوقع إجابة على سؤالها ، فراحت تشارلى تجسّ النبض مرة أخرى .

- البندقية تناسبك يا هيلجا .. من الآن فصاعدا لن أتخيلك أبدا ، وأنت ترتدين أى شىء آخر .

وفى هذه المرة سمعت تشارلى نغمة الافتخار العصبى فى ضحكات هيلجا ، لقد كانت تعرض تشارلى فى تباهٍ على شخص ما ، شخص ما احترمته على نحو يفوق احترامها للايطالى . سمعت تشارلى وقع أقدام .. وشاهدت قطعة الجلد التى

تزين مقدمة حذاء رجالى غالى الثمن أسود ولامع ، حيث تم عرض الحذاء فوق السجادة الخمرية من أجل أن تتفحصه ، سمعت تشارلى صوت أنفاس تتردد ، وسمعت مصّ لسان موضوع عند الأسنان العليا ، واختفى القدم وأحست باضطراب لدى مرور الجسد ذى الرائحة الساخنة عن كثب شديد منها .. وعلى نحو غريزى أمالت جسدها بعيدا عن الهواء ، إلا أن هيلجا أمرتها بالبقاء ساكنة بدون حراك ، سمعت عود كبريت يتم إشعاله وشمت رائحة سيجار الكريسماس الخاص بوالدها ، ثم راحت هيلجا تحذرها مرة أخرى وتطلب منها عدم التحرك : الالتزام بعدم الحركة تماما وإلا سيتم إنزال العقاب عليك بدون أى تردد .. كانت تهديدات هيلجا بمثابة تعدٍ على أفكار تشارلى لدى محاولتها بكل الوسائل المعروفة أن تحدد شخصية الزائر المجهول بغية التعرف على هويته ، تخيلت نفسها نوعا من الخفـاش الذى يرسل إشـارات ، ثم يصـغى للكيفيـة التى ترتد بهـا الإشارات إليه .

بدأ الظلام يسبب لها نوعا من الغثيان .. إننى بصدد السقوط على الأرض، من حسن حظى أننى جالسة ولست واقفة ، وكان هو موجودا عند المنضدة الزجاجية يفحص محتويات حقيبة يدها .. تماما مثلما فعلت هيلجا من قبل فى كورنوول ، سمعت تشارلى لمحات خاطفة من الموسيقى عندما عبثت فى مسجلها الصغير ، كما سمعت صوتا مكتوما عندما وضعته على جانب ، وكان يوسف قد قال: فى هذه المرة نحن لا نلعب أىّ ألعاب مخادعة وعليك أن تتخذى نموذجك بلا بدائل، سمعته وهو يتصفح أوراق مذكراتها أثناء قيامه بنفخ دخان السجائر ، قالت لنفسها : انه بصدد أن يسألنى عن معنى (الألعاب البعيدة) وعن معنى (شاهدت م. تقابلت مع م. أحببت م. أثنينا !!..) إلا أنه لم يسألها عن شىء ، سمعت نوعا من الزمجرة عندما أجلس نفسه على الأريكة ، كما سمعت طقطقة جلوسه على القماش الشيت القطنى المنشى ، إنه رجل قصير وبدين يرتدى حذاء جميلا يدخن سيجار هاڤانا ويجلس على أريكة امرأة عاهرة ، كان الظلام يتخذ طابع التنويم المغناطيسى ، يداها مازالتا متشابكتين فوق حجرها ولكنهما كانتا يدى شخص ما آخر .. سمعت طقطقة حزام مطاط .

ستتضايق منك للغاية اذا لم تحضرى الخطابات ، يا سيدى .. لقد سددت توًا ثمن الدروس الخصوصية فى الموسيقى ، لو كنت تعرفين المكان الذى أنا بصدد الذهاب إليه عندما قمت بزيارتك ، لو كنت فقط قد أخبرتها .

كان الظلام قد جعلها تشعر بأنها أصبحت معتوهة بعض الشىء ، لو وضعونى فى السجن لكنت قد تحملت ذلك .. إلا أن أسوأ شىء لدى هو ذلك الخوف المرضى من الأماكن المغلقة والضيقة ، راحت تتلو فى داخلها أشعاراً من تأليف ت. س. اليوت .. أشعارا حفظتها عن ظهر قلب فى الفترة التى شهدت طردها من المدرسة ، وتدور حول : الزمن الحاضر والماضى كلاهما متضمن داخل المستقبل ، والوقت كله حاضر على نحو أزلى دوما ، لم تكن قد فهمت على وجه الدقة هذا المعنى آنئذ ، ولكنها أيضا لم تفهم المعنى الآن .

قال صوت رجل فى نغمة رخيمة : اذا أخبرتِنا بالحقائق فلن نقوم بقتلك .

إنه ميشيل ! يكاد يكون ميشيل .. انه يكـاد يكون على قيد الحياة مرة أخرى! إنها نغمة ميشيل .. نغمة صوته الجميل .. نغمة صوته الغنية النعسانة الصادرة عن الجزء الخلفى من الحلق .

عليك أن تخبرينا بكل شىء قلتِه لهم وما فعلتِه من أجلهم .. وما هى المبالغ التى يدفعونها لك .. هه ؟ وبعدئذ نطلق سراحك .

قالت هيلجا فى حدة من ورائها : لا تحركى رأسك .. نحن لا نعتقد أنك خُنتِه بمعنى الكلمة للخيانة .. هه ؟ فقد تعرضت للخوف .. توغلت أكثر من اللازم ، أنت الآن تلعبين معهم ، حسنا .. وذلك أمر طبيعى .. نحن لا نتسم بالطابع الإنسانى ونحن سنخرجك من هنـا .. ولسوف ننزلك من السيارة عنـد مشارف المدينة ، وأنت ستقولين لهم كل الأمور التى حدثت لك هنا .. ومازال هذا الأمر لا يهمنا طالما أنك تلتزمين بالأسلوب النظيف .

تنهد .. كأن الحياة أصبحت تشكل بعض الأعباء على كاهله .

ربمـــا تعتمـــدين على رجل شرطة لطيف وتضــــعين ثقتك فيــه .. أليس كذلك ؟ وتقدمين له معروفا .. ونحن نفهم تلك الأمور .. ونحن أناس ملتزمون ولكننا لسنا أشخاصا سيكوباتيين أو مضطربين عقليا .. أليس كذلك ؟

قالت هيلجا فى ضيق : هل تفهمين ما يقوله يا تشارلى ؟ أجيبى على سؤالى وإلا ستتعرضين للعقاب .

فأصرت تشارلى على عدم الرد .

– متى ذهبت إليهم لأول مرة ؟ أخبرينى .. بعد نوتنجهام ؟ بعد يورك ؟ هذا لا يهم .. لقد ذهبت إليهم .. هذا أمر مُسلَّم به .. ثم شعرت بالخوف .. ثم هرولت الى الشرطة وقلت لهم : « هذا الفتى العربى المخبول يحاول تجنيدى للقيام بدور فتاة إرهابية .. أنقذونى ، وأنا على استعداد لعمل أى شىء تشيرون علىّ به .. هل الأمور قـد حدثت على هــذا النحـو ؟ استمعى الىّ .. لا توجد هناك مشكلة بالنسبة لرجوعك إليهم .. عندما ترجعين إليهم قولى لهم إنك تتسمين بالبطولة والشـجاعة إلى درجة هائلة ، لسوف نعطيك بعض المعلومات لكى تنقليها لهم مما يجعلك تشـعرين بتحسن موقفك معهم ، ونحن أناس طيبون ، ونحن أناس معقــولون .. حسنا .. هيا بنا نتفق على إنجاز أعمال سويا .. ولا نلجأ للغش والمخادعة .. وأنت إنسانة طيبة ولكنك غير قادرة على فهم هذا الموضوع .. هيا بنا .

بدأت تشارلى تشعر بالهدوء والسلام ، لقد هبط عليها فجأة تعب وكسل عميق ناجم عن العزلة والعمى ، لقــد أصبحت فى حالة من الأمن والأمان ، صارت موجودة فى داخل الرحم من أجل أن تبدأ من جديد مرة أخرى أو تموت فى هدوء وسلام وفقـا لإرادة الله ومشـيئته ، كانت تنجرف إلى نوم الطفولة أو نوم الطاعنين فى السن ، وسحرها صمتها فى افتتان واعجاب ، لقد كانوا ينتظرونها فى ترقّب فهى قد أحست بنفاد صبرهم ولكنها لم تشاركهم فى نفاد الصبر والقلق .. وفى مرات عديدة راحت تفكر فيما ينبغى عليها أن تقوله إلا أن صوتها كان يقع على مسافة بعيدة للغاية منها وبدا لها أنه لا يوجد هناك داعٍ لاحضار صوتها ، تكلمت

هيلجا بالألمانية ، ورغم أن تشارلى لم تستطع فهم كلمة واحدة من كلامها إلا أنها أحست بنغمة الإذعان والحيرة التى تسود صوت هيلجا ، ورد عليها الرجل الممتلئ ، إلا أن نغمة صوته كانت تتسم بالحيرة أيضا ، بدا صوته خاليا من المشاعر العدائية ، وكأنه يقول : « ربما نعم ، وربما لا » .. هبط عليها احساس أن كلا منهما يتنصل من تحمّل المسئولية بشأنها حيث كانا يتقاذفانها جيئة وذهابا بينهما: مشاحنة بيروقراطية .

وحاول الايطالى الدخول فى المناقشة إلا أن هيلجا أمرته أن يلوذ بالصمت ، واستؤنفت المجادلات والمناقشات بين الرجل الممتلئ وهيلجا وتمكنت تشارلى من التقاط كلمة « منطقى » .. ربما بمعنى : أن هيلجا إنسانة منطقية أو أن تشارلى ليست منطقية ..إنه يُقال للرجل الممتلئ بأنه ينبغى عليه أن يكون منطقيا .

قال الرجل الممتلئ : أين أمضيت ليلتك عقب اتصالك تليفونيا بهيلجا ؟

- مع عشيق .

- وفى الليلة الأخيرة ؟

- مع عشيق .

- مع عشيق آخر ؟

- نعم .. ولكنهما الاثنان من رجال الشرطة .

اعتقـدت أنها لو لم تكن مرتدية النظـارة لكانت هيلجا قد ضربتها على وجهها ، إذ انقضّت عليها هيلجا فى ثورة غاضبة جامحة . كان صوتها خشنا بسبب شدة الانفعال أثناء إصدارها لوابل من الأوامر إليها : ينبغى ألا تلجئى للوقاحة .. عليك الالتزام بعدم الكذب .. عليك أن تجيبى على كل سؤال على الفور بدون اللجوء للسخرية ، وبدأت الأسئلة من جديد مرة أخرى وراحت تشارلى تجيب فى إعياء بحيث جعلتهم ينتزعون العبارات منها جملة وراء جملة ، وعبارة وراء عبارة ، لأنه

ليس من حقهم أن يسألوا تلك الأسئلة .. ما هو رقم الغرفة فى نوتنجهام ؟ وما هو اسم الفندق فى تسالونيكا ؟ وهل هما سبحا فى البحر ؟ وما هو الوقت الذى وصلا فيه وأكلا فيه وما هى المشروبات التى أرسلاها الى غرفتهما ؟ لكنها تدريجيا ـ ولدى إصغائها أولا لنفسها ثم إصغائها لهم ـ كسبت فى هذا الموقف على الأقل إنها ظلت ترتدى النظارة الشمسية عند مغادرتها المكان ، وحتى قطعت مسافة طويلة بعيدا عن المنزل .

الفصل الواحد والعشرون

كان المطر ينهمر عندما هبطوا من الطائرة فى بيروت . وكانت تدرك أنه مطر ساخن لأن حرارته تسربت إلى الكابينة عندما كانوا يدورون فى الهواء وجعلت فروة رأسها تتفجر بالهرش الناجم عن الصبغة التى صبغت بها شعرها وفقا لتوجيهات صادرة عن هيلجا . لقد طاروا فوق سحابة تشبه صخرة تأججت بالسخونة الحمراء تحت أضواء الطائرة . وتوقفت السحابة وأصبحوا فوق سطح البحر حيث راحوا ينزلقون فى سرعة وخفة نحو الجبال الآخذة فى الاقتراب . لقد سبق لها أن شاهدت كابوسا متكرراً بنفس الطريقة باستثناء أن طائرتها كانت تطير على ارتفاع منخفض فوق شارع مزدحم يضم ناطحات سحاب على كلا جانبيه . لم يستطع أىّ شىء إيقاف الطائرة فالطيار كان يمارس الحب معها . ولم يستطع أىّ شىء إيقاف الطائرة الآن . هبطوا بشكل متقن على المطار . وفتحت الأبواب . فشمت عبير *الشرق الأوسط لأول مرة استقبلها العبير* مرحبا بها وكأنها مواطنة من الشرق الأوسط عائدة إلى وطنها . وكانت الساعة هى السابعة مساءً ولكنها من الممكن أن تكون الثالثة صباحا ، أدركت على الفور أن هذا لم يكن عالما يأوى إلى الفراش والنوم فى السرير . وذكرها الضجيج المتفجر فى صالة الاستقبال بسباق خيول الدربى الذى يدور فى لندن كل عام . قبل انطلاق الخيول بلحظة وكان هناك عدد كاف من الرجال المسلحين المرتدين أزياء عسكرية مختلفة بحيث يمكن لهم البدء فى الحرب . وضمّت تشارلى حقيبة الكتف إلى صدرها . وشقت طريقها نحو طابور الهجرة . واكتشفت أنها كانت تبتسم مما آثار دهشتها . فجواز السفر الألمانى الشرقى الذى تحمله ومظهرها الزائف الذى كان منذ خمس ساعات فقط فى مطار لندن مسألة حياة أو موت بالنسبة لها قد أصبحا من الأمور التافهة فى هذا الجوّ المشحون بالطوارىء المفعمة بالقلق والاضطراب .

وكانت هيلجا قد أصدرت لها الأوامر أثناء جلوسهما فى السيارة الستيروين الواقفة فى المكان المخصص لوقوف السيارات فى مطار هيثرو بلندن «اتخذى الطابور الأيسر . وعندما تبرزين جواز سفرك أخبريهم أنك تريدين التحدث مع السيد مرسيدس» .

وماذا يحدث لو تحدث هو معى فى طلاقة باللغة الألمانية ؟

لو شعرت بالارتباك والحيرة . خذى «تاكسى» إلى فندق كومودور . واجلسى فى ردهة الفندق . وانتظرى . هذا أمر منى إليك . إنه يسمى مرسيدس مثل اسم السيارة .

وماذا بعدئذ ؟

ياتشارلى . أعتقد أنك عنيدة بعض الشى وغبية إلى حدّ ما . لو سمحت توقفى عن هذا الآن .

قالت تشارلى : وإلاَّ ستطلقين النيران علىَّ .

.. ..

مس بالم Palme . جواز السفر لو سمحت !

وكان بالم هو اسمها الألمانى . لقد أخبرتها هيلجا أن اسمها يُنطق «بالمار» وكان الشخص الذى نطق باسمها هو رجل عربى صغير السن مبتهج ومجعد الشعر ويرتدى ملابس بالية ولكنها نظيفة وطاهرة . كرَّر قائلا «لو سمحت» . بدت سترته مفتوحة وفى حزام وسطه يوجد مسدس اتوماتيكى فضى ضخم . وكان هناك عشرون شخصا فى المسافة الواقعة بينها وبين ضابط الهجرة . لم تكن هيلجا قد قالت إن الوضع سيكون على هذا النحو على الإطلاق .

أنا المستر دانى . لو سمحت يا آنسة بالم . تعالى .

أعطته جواز السفر . وشقَّ طريقه بين الجماهير ناشرا ذراعيه لكى يفسح لها الطريق ولكى تتمكن من السير وراءه . اختفى دانى للحظات . ولكنها ظهر مرة

أخرى وهو يشعر بالفخر الشديد . حيث كان ممسكا ببطاقة وصول بيضاء اللون في إحدى يديه . وفي اليد الأخرى امسك بيد رجل ضخم له الطابع الحكومي الوظيفي يرتدي معطفا جلديا أسود اللون .

وأوضح داني الأمور قائلاً : «أصدقاء ، كل الناس أصدقاء لفلسطين» . ظهرت الابتسامة المشرقة التي يتسم بها شخص شديد التحمس لوطنه . راح الرجل الضخم يتفحصها في وقار . ثم تفحص جواز سفرها وناوله لداني وأخيراً تفحص البطاقة البيضاء ووضعها في الجيب العلوي في سترة داني .

قال باللغة الألمانية : «مرحبا» في إيماءة مائلة سريعة . الاَّ أن ذلك كان بمثابة دعوة للإسراع .

كانا عن الأبواب عندما تفجّر القتال . وبدأ القتال على نحو ضيق ومحدود عندما قال موظف مرتدٍ للزي الرسمي كلاما ما لمسافر تبدو عليه مظاهر الثراء . وعلى نحو فجائي بدأ الاثنان يصيحان بصوت مرتفع ويلوحان بأيديهما في وجه بعضهما البعض . وفي خلال ثوانٍ اكتسب كل منهما مناصرين له . وبينما وصل داني إلى مكان لوقوف السيارات هرولت مجموعة من العساكر المرتدين بريهات خضراء نحو مكان الشَّغَب وهم يخلعون بنادقهم الرشاشة . قال داني موضحا : «السورّيون» . وابتسم بطريقة فلسفية في وجهها كما لو كان يريد أن يقول لها إن كل دولة لها السوريون الخاصّون بها .

وكانت السيارة ماركة بيجو زرقاء قديمة ومليئة برائحة السجائر الكريهة . وقفت بجوار كشك لبيع القهوة . قام داني بفتح الباب الخلفي للسيارة . وراح ينظف الوسائد من التراب بيده . ولدى دخولها إلى السيارة انزلق شاب داخلاً إلى السيارة من الجانب الآخر . وعندما أدار داني موتور السيارة ظهر شاب آخر وجلس في المقعد الأمامي بجوار السائق . كان الظلام شديدا للغاية بحيث لم تتمكن من مشاهدة ملامح وجهيهما إلاَّ أنها تمكنت من رؤية المدافع الرشاشة الموجودة معهما . وكانا صغيرين في السن للغاية حتى أنها للحظات لم تصدق أن مدافعهما

حقيقية . وقدّم الشاب الجالس إلى جوارها سيجارة لها وقد بدا عليه الاكتئاب عندما رفضت أن تأخذها منه .

بعد لحظات ، سألها فى أدب جمّ واحترام شديد : «أتتكلمين باللغة الأسبانية؟» ، تعرف اذن .اغفرى لى ضعفى فى اللغة الانجليزية . ولو كنت تعرفين الأسبانية لكنت قد تحدثتُ معك بطلاقة .

ولكن لغتك الإنجليزية رائعة .

قال فى استنكار : «هذا ليس صحيحا» . وكأنه قد تعرَّف بالفعل على نوعية من الخيانة الغربية أو الغدر الغربى . ولاذ بصمت متسم بالاضطراب .

دوَّت طلقتان ناريتان خلفهم إلاَّ أن أحداً لم يعلّق عليهما . راحوا يقتربون من موقع مُحصَّن بأكياس مليئة بالرمال . أوقف دانى السيارة . وحملق حارس مرتدٍ للزى الرسمى فى وجه تشارلى . ثم لوح لهم من خلال مدفعه الرشاش لكى يواصلوا المسير .

تساءلت : أهو سورى أيضا ؟

قال دانى : «إنه لبنانى» . ثم تنهَّد .

أحست باضطرابه وتوتّره .

بل وأحست أنهم جميعا يموجون بالقلق والاضطراب – حيث يتمثل ذلك فى الندب والعويل والسرعة فى العين والذهن . وكان الشارع بمثابة ميدان معركة بالإضافة إلى أنه موقع يضم مبانى . وكانت لمبات الشارع المتناثرة هنا وهناك تكشف من وقت لآخر عن معالم الشارع فى لمحات خاطفة . كما أن قرمات الأشجار المقطوعة المتفحمة تذكر المرء بأن الطريق كان يوما ما متسما بالأناقة والجمال وكانت نباتات البوجنفلية المتعرشة قد بدأت تغطى الخرائب والاطلال . هناك سيارات متفحمة مليئة بثقوب الطلقات النارية ملقاة هنا وهناك على الأرصفة . مروا بجوار أكواخ مضاءة بداخلها دكاكين مبهرجة. كما شاهدوا الصور الظلية لمبانٍ مقصوفة بالقنابل ومحطمة وشبيهة بصخور جبلية شديدة الانحدار . وكان الهلال

فى السماء ينزلق من حفرة لأخرى متمشيا مع إيقاع سرعة سيارتهم . ومن وقت لآخر يظهر مبنى جديد تماماً غير مستكمل البناء وغير مضاء بالكامل وغير آهل تماما بالسكان.

لقد أمضيتُ عامين فى براغ . وثلاثة أعوام فى هافانا . هل سبق لكِ الذهاب إلى كوبا ؟

كان الشاب الجالس إلى جوارها قد أفاق من حالة الأحباط التى اجتاحته .

فقالت تشارلى : لا ، لم يسبق لى الذهاب إلى كوبا .

أنا مترجم رسمى أسبانى / عربى .

علقت تشارلى : هذا شىء رائع . أهنئك على ذلك .

– هل سأقوم بالترجمة لك يا آنسة بالم ؟

ردّت تشارلى : «فى أىّ وقت» . انقلبت ضاحكة كامرأة غربية أُعيدت لها مكانتها السابقة برغم كل شىء .

خفَّض دانى سرعة السيارة بحيث أصبحت فى سرعة مَنْ يمشى على قدميه وأنزل زجاج نافذته . ظهرت أمامهم مباشرة وفى وسط الشارع مجمرة تتوهج بالنيران . تجلس حولها مجموعة من الرجال والأولاد يرتدون الكوفيات البيضاء وملابس الميدان الكاكية اللون . وبالقرب منهم أقامت مجموعة من الكلاب البنية اللون معسكرا خاصا بها . تذكرت ميشيل عندما كان يعيش فى قريته فى وطنه ، ويستمع إلى حكايات المسافرين . وراحت تفكر : ها هم أهالى ميشيل قد شيدوا قرية فى وسط الشارع . وعندما خفّض دانى أنوار السيارة نهض رجل وسيم عجوز على قدميه وحك ظهره . ثم أتى إليهم وهو ممسك بمدفعه الرشاش وانحنى برأسه فى نافذة دانى إلى أن أصبح بإمكانهما أن يتعانقا .انساب الحوار بينهما جيئة وذهابا فى تدفق سرمدى لانهائى . راحت تشارلى تصغى لكل كلمة متخيلة أنها يمكنها أن تفهم الكلام على نحو ما .

لكنها عندما نظرت إلى ما وراء الرجل الذى يتحدث مع دانى شاهدت منظرا لا يبعث على الارتياح : أربعة صبية واقفين فى نصف دائرة وقد سددوا مدافعهم الرشاشة فى اتجاهها بينما لايزيد سن أىّ واحد منهم على ١٥ عاماً .

قال الشاب الجالس إلى جوار تشارلى فى السيارة فى تبجيل لدى استئنافهم السير على الطريق : إنهم رجالنا إنهم كوماندوز فلسطينيون . يوجدون فى الجزء الخاص بنا من المدينة .

راحت تشارلى تفكر فى فخر واعتزاز : الجزء الخاص بميشيل من المدينة أيضاً .

.. ..

كان يوسف قد حدثها : سوف تجدينهم أناساً طيبين بحيث تشعرين بالحب نحوهم بكل سهولة .

لقد أمضت تشارلى أربع ليالٍ وأربعة أيام مع الأولاد وأحبتهم فرادى ومجتمعين . كانوا بمثابة المجموعة الأولى من عائلاتها العديدة . وكانوا ينقلونها دائماً - مثل الكنز - تحت جنح الظلام وفى احترام وتبجيل دائماً . وأوضحوا لها فى اعتذار مهذب أنها قد وصلت بشكل . فجائى . «ولذلك كان من الضرورى أن يقوم الكابتن الخاص بنا بعمل استعدادات معينة . وكانوا ينادونها باسم «آنسة بالم» ربما اعتقدوا أن ذلك هو اسمها . وراحوا يبادلونها حبا بحبّ . ولم يوجهوا إليها أسئلة شخصية أو متسمة بالطابع الفضولى وحبّ الاستطلاع مما جعلها تتعجب من طبيعة السلطة التى تسيطر عليهم . وكان أول سرير خصص لكى تنام عليه موجودا فوق سطح منزل قديم مزقته قذائف المدفعية . وكان المنزل خاليا من كافة مظاهر الحياة باستثناء الببغاء المملوك لصاحب المنزل الغائب . وكان الببغاء يكحّ فى كل مرة يقوم فيها شخص بإشعال سيجارة . ومن الألاعيب الأخرى التى يقوم بها هذا الببغاء أن يطلق صوتا حادا عاليا مثل صوت التليفون حيث كان يفعل ذلك فى الساعات الميتة مما كان يجعلها تذهب خلسة إلى الباب على أمل الانتظار

لحين يقوم أحد بالردّ على صوت جرس الباب . كان الأولاد ينامون على بسطة السلّم بالخارج بالتناوب بينما المستيقظون منهم يمضون الوقت فى شُرب الشاى فى أكواب صغيرة مع الدردشة بصوت منخفض أثناء لعب الكوتشينة.

بدت الليالى سرمدية ولا نهائية . ولكن لم تكن هناك دقيقتان متشابهتان بل إن الأصوات فى حدّ ذاتها بدت كأنها فى حالة حرب وصراع بين بعضها البعض حيث تترامى فى بادىء الأمر من على مسافة بعيدة آمنة ثم تتصاعد وتتقدم وتتجمّع، ثم تتداخل فى مصادمة ينتج عنها انفجار فى شكل موسيقى عالية ، وصرخة إطار سيارات وسارينات وأبواق ثم يعقب ذلك كله صمت مطبق شبيه بصوت الغابات . وفى تلك الأوركسترا أصبح إطلاق النيران من البنادق بمثابة آلة موسيقية فرعية صغيرة : قرع على الطبل هنا وقرع إيقاعى هناك مع وجود الصفير الخاص بقذيفة فى بعض الأحيان . وذات مرة سمعت تشارلى ضجيج ضحكات بشرية إلاّ أن الأصوات البشرية بوجه عام كانت قليلة . وذات مرة فى الصباح الباكر وعقب طرق ملحّ على بابها سار دانى والولدان على أصابع أقدامهم سويا إلى نافذتها . فذهبت وراء هم وشاهدت سيارة متوقفة على مسافة مائة ياردة بالشارع . يتدفق منها الدخان ارتفعت وتدحرجت على جانبها كشخص يتقلب فى السرير . وانتشرت سحابة من الهواء الساخن مما جعلها تندفع عائدة إلى غرفتها . شىء ما سقط من رفّ . وسمعت صوتا مكتوما مترامیا من داخل رأسها .

قال محمود وهو أكثر الأولاد جمالاً ووسامة : «سلام» . ثم غمز بعينه . ثم انصرفوا جميعا .

وكان الفجر هو الشىء الوحيد الذى يمكن التنبؤ به . وذلك عندما ينطلق صوت المؤذن من المسجد داعيا المسلمين إلى تأدية الصلاة .

أما السرير الثانى الذى نامت عليه فيوجد فى أعالى منزل لامع يضم بعض الشقق . ومن نافذتها كان بمقدورها أن تحملق فى الواجهة السوداء لبنك دولى جديد، وفى البحر الهادىء المترامى وراء البنك . كان البلاج الشاغر من الناس ذو الكبائن المهجورة شبيها بمصيف خارج فترات الموسم بصفة دائمة .

وفى الليلة الثالثة ، نامت تشارلى على سطح مبنى وشبيه بمركز قيادة عسكرى، إذ كانت توجد هناك قضبان حديدية على النوافذ ، علاوة على وجود ثقوب فى الحوائط عند السلالم . كما كانت هناك ملصقات عن أطفال يلوحون بالمدافع الرشاشة أو يلوحون بباقات من الزهور . كان هناك حرس ذوو عيون سمراء يتسكعون عند كل منبسط للدرج . وللمبنى كله طابع فيلق للعلاقات الخارجية يموج بالصخب .

وكان دانى يردد فى رفق من وقت لآخر : سوف يقابلك قائدنا حالاً . إنه يعدّ العدِة لذلك . أنه رجل عظيم .

كانت قد بدأت تتعرف على الابتسامة العربية التى تفيد حدوث تأخير بعض الشيء عن الموعد المحدّد .

ولكى يخفف عنها ملل الانتظار راح دانى يقص عليها قصة والده . بعد أن قضى الرجل العجوز عشرين عاما فى المعسكرات بدا عليه وكأنه أصبح متهوراً بسبب ما يعانيه من اليأس المرير . ولذلك فإنه ذات صباح عبّأ ممتلكاته القليلة فى حقيبة وضع فيها صكوك الملكية التى تثبت امتلاكه لأراضيه . وبدون أن يخبر أىّ فرد من أسرته انطلق عبْر الخطوط الصهيونية بهدف المطالبة بمزرعته . وعلى وجه السرعة انطلق دانى واخوته فى أعقابه ووصلوا فى الوقت الذى شاهدوا فيه هيكل والدهم المنحنى الضئيل وهو يتوغل أكثر فأكثر فى الوادى إلى أن انفجر تحته لغم أرضى . حكى دانى الأمر فى دقة مذهلة بينما الآخران يقومان بمراجعة لغته الإنجليزية مع الاعتراض عندما يكون التركيب اللغوى غير سليم أو الإيماءة بالرأس عندما تكون العبارة سليمة . وعندما انتهى من روايته راحوا يوجهون عدداً من الأسئلة العامة عن مدى عفة وطهارة النساء الغربيات حيث سبق لهم أن سمعوا أمورا مخزية ومشينة وإن كانت مسلية إلى حد ما .

لذلك ، أحبتهم أكثر وأكثر . أحبت خجلهم وحياءهم وعفتهم وعذريتهم ونظامهم . بل أحبت سلطانهم ونفوذهم الذى يفرضونه عليها . أحبتهم من حيث هم آسرون لها ومن حيث هم أصدقاء لها .

قال دانى وهو يطرق فى خفة على بابها لكى يوقظها : هيًّا لو سمحت، قائدنا مستعدّ الآن .

كانت الساعة آنئذ الثالثة صباحا . وكان الظلام مازال سائداً .

.. ..

تذكرت تشارلى فيما بعد وجود حوالى عشرين سيارة ، ولكن ربما كان عددها خمس سيارات فقط . فقد حدث كل شىء بسرعة كبيرة . تعرج من الرحلات المتزايدة المخاطر عبْر المدينة والتى تضم سيارات صالون رملية اللون وذات هوائى فى المقدمة والمؤخرة ، ومزودة بحراس مسلحين لا يتكلمون. وكانت السيارة الأولى تنتظر بجوار المبنى . وما إن خرجوا من الفناء وانطلقوا بسرعة فى الشارع حتى أدركت أنها تركت الأولاد وراءها . وفى عمق الشارع بدا على السائق أنه قد شاهد شيئا ما لا يشعر بالارتياح نحوه لأنه اندفع بسيارته فى التفاف صارخ على هيئة حرف U مما كاد أن يتسبب فى انقلاب السيارة . ولدى دخولهم إلى الطريق مرة أخرى سمعت تشارلى قعقعة من مكان قريب منها . وأحست بيد ثقيلة تدفعها إلى أسفل فى داخل السيارة . ولذلك افترضت أن إطلاق النيران كان موجها ضدهم .

وكسروا إشارة حمراء عند مفترق الطرق وتمكنوا من تفادى شاحنة وهم يبتهلون إلى الله . وصعدوا على رصيف من جهة اليمين ثم اتخذوا مساراً على شكل قوس واسع من جهة اليسار . ودخلوا إلى منحدر مخصص لوقوف السيارات يطل على ملهى أنيق مهجور . شاهدت قمر يوسف غير المكتمل مرة أخرى متدليا فوق البحر وتخيلت خلال ثوانٍ خاطفة أنها على الطريق المؤدى إلى معبد دلفى باليونان . وتوقفوا بجوار سيارة فيات وألقوا بتشارلى بداخلها . أصبحت تشارلى فى رعاية حارسين جديدين . وانطلقت السيارة على طريق مُنقَّر كالوجه المجدور تحفه مبانٍ مليئة بالثقوب والفجوات على كلا الجانبين . وانطلقت وراءهم مباشرة سيارة تطلق أضواء باهرة . ظهرت الجبال أمامها مباشرة سوداء اللون . إلاَّ أن الجبال التى تقع على يسارها بدت رمادية لأن توهجا مترامياً من الوادى راح يضيىء جوانبها .

كان عداد السرعة بالسيارة يشير إلى ١٤٠ كم/ساعة إلاً أن المؤشر وصل فجأة إلى الصفر لأن السائق أطفأ أنواره كذلك أطفأت السيارة التى تنطلق وراءهم أنوارها .

وإلى يمينهم هناك صف من أشجار النخيل . وإلى يسارهم توجد الأراضى التى تفصل بين حارتىْ الشارع .. وهى بمثابة رصيف عرضه ستة أقدام . إنه أحيانا رصيف ملىء بالحصى وأحيانا أخرى ملىء بالزراعات والنباتات . وفى مطب هائل صعدوا على الرصيف وفى مطب آخر هبطوا على الحارة العكسية من الشارع . تصاعدت أصوات أبواق السيارات التى تطلق تحذيراتها . وصاحت تشارلى قائلة «يا الهى» . إلاً أن السائق لم يهتم بكل ذلك . فقد أضاء جميع الأنوار واتجه مباشرة نحو طابور السيارات القادمة قبل أن ينحرف يساراً مرة أخرى تحت كوبرى صغير . وفجأة توقفوا فى طريق موحل شاغر . ثم انتقلوا إلى سيارة ثالثة . كانت فى هذه المرة من نوع اللاندروفر ، لا نوافذ لها لم تكن قد لاحظت هطول المطر حتى تلك الآونة. ولكنهم عندما ألقوا بها فى ظهر السيارة اللاندروفر تغلغل المطر الغزير إلى جسدها كله . ثم شاهدت تفجرا من البرق يضرب فى عنف وجه الجبال أو ربما كان ذلك قذيفة مدفع .

بدأت اللاندروفر فى تسلق طريق منحدر متعرج . ومن خلال الجزء الخلفى من السيارة تمكنت تشارلى من مشاهدة الوادى ينحسر بعيداً . ومن خلال الزجاج الأمامى للسيارة وفى المساحة الشاغرة ما بين رأس السائق ورأس الحارس كان بمقدورها مشاهدة المطر يتقافز فوق الطريق المرصوف مثل أسراب من سمك المنوة المتراقص كانت هناك سيارة منطلقة أمامهم أدركت تشارلى من خلال انطلاقهم وراءها باستمرار أنها تابعة لهم . وكانت هناك سيارة أخرى منطلقة وراء هم ومن خلال عدم الاهتمام بها أدركت تشارلى أنها تابعة لهم أيضا . ثم انتقلوا إلى سيارة أخرى . وبعدئذ اقتربوا من مبنى يبدو عليه أنه بمثابة مدرسة مهجورة . ولكن السائق فى هذه المرة أوقف الموتور ثم جلس هو والحارس فى النافذتين وقد أمسكا بمدافعهم الرشاشة . ظلا فى حالة انتظار لكى يعرفا مَنْ هم الآخرون الذين

سيصعدون إلى التلّ .كانت هناك نقاط تفتيش على الطريق يتوقفون عندها بينما نقاط أخرى يكتفى عندها بالتلويح بالأيدى للحراس الكسالى .

أخيرا توقفت السيارة نهائيا . ووجدت تشارلى نفسها فى الفناء الأمامى لفيَّلا قديمة عليها حراس من الشباب المزودين بالمدافع الرشاشة واقفين على السطح كأنهم أبطال فى فيلم روسى . كان الهواء بارداً ونظيفا ومليئا بكافة الروائح اليونانية التى خلفها المطر وراءه رائحة شجر السرو الصنوبرى وعسل النحل ، وكافة الأزهار البرية الموجودة فى العالم . كانت السماء مليئة بالعواصف والسحب المتلبدة . واصطحبوها عبْر مدخل مسقوف. ثم إلى صالة . وهناك وتحت مصابيح علوية قاتمة وقع بصرها لأول مرة على القائد أو «قائدنا» هيكل منكفىء بنىّ اللون . ذو شعر أسود مستقيم شبيه بشعر التلاميذ . كان ممسكا بعصا مصنوعة خشبية يتوكأ عليها بسبب ساقيه الأعرجين . ابتسم ابتسامة ساخرة مليئة بالترحيب مما كشف عن وجهه المليء بالندبات التى تنجم عن الإصابة بمرض الجدرى . ولكى يتمكن من مصافحتها باليد علّق عصاه على ساعد ذراعه الأيسر .

– يا آنسة تشارلى ، أنا الكابتن تايه أحييك باسم الثورة .

كان صوته رشيقا وسريعا ومتسما بالطابع العملى . وجميلا مثل صوت يوسف .

كان يوسف قد حذرها قائلاً : سوف يكون الخوف مسألة اختيار . ومن سوء الحظ أن أحداً لا يمكنه أن يتعرض للتخويف طوال الوقت وباستمرار . ولكن بالنسبة للكابتن تايه – وهو الاسم الذى يطلقه على نفسه – عليك أن تبذلى قصارى جهدك . لأنه رجل بارع وذكى للغاية .

.. ..

قال تايه فى نفاق مليء بالبهجة «اغفرى لى . وسامحينى» .

لم يكن المنزل منزله . لأنه لم يكن بمقدوره العثور على أىّ شيء يريده . وحتى بالنسبة لطفاية السجاير فإنه اضطر لأن يبحث فيما حوله ويسأل فى مزاح

عماً إذا كانت تلك الأشياء غالية الثمن للغاية بحيث لا يمكن استخدامها كان المنزل مملوكا لشخص ما صديق له . وكان الضوء مازال ضعيفا . ولكن بعد أن اعتادت عيناها على الظلام أدركت أنها موجودة فى منزل أستاذ جامعى أو شخصية سياسية أو محامٍ . إذ كانت الحوائط مليئة بالأرفف الزاخرة بالكتب والمراجع العلمية التى قرئت وأعيدت إلى أماكنها فى غير ترتيب . هناك لوحه زيتية معلقة فوق المستوقد تعبّر عن القدس . كما أن هناك مكتبة مستقلة تطل على الوادى الذى جاء ت منه تواً . حيث شاطىء البحر السابح تحت ضوء القمر .

كانت تشارلى تجلس فى المكان الذى حدده لها : فوق الأريكة الجلدية . ألاَّ أن تايه نفسه لا يزال يتجول فى أرجاء الغرفة يتوكأ على عصاه إنه يعمل كل شىء بنفسه ويرمقها بنظراته من زوايا مختلفة ، يبتسم من وقت لآخر . أحضر فودكا . كان هناك شابان يجلسان عند طرفىْ الغرفة وقد وضع كل منهما مدفعا رشاشا عبْر ركبتيه . وهناك كومة من الخطابات ملقاة فوق المنضدة وبدون أن تنظر أدركت أنها الخطابات التى أرسلتها إلى ميشيل .

وكان يوسف قد حذرها قائلاً : لا تعتقدى أن الاضطراب والفوضى الظاهرية هما بمثابة عجز وعدم كفاءة . ولا تصدقى أى أفكار عنصرية عن رداءة الجنس العربى وانخفاضه عن الأجناس الأخرى .

انطفأت الأنوار تماما . لكن الأنوار كثيرا ما تنطفىء . بل يحدث ذلك فى الوادى . راح يرقبها فى اهتمام وهو واقف بالقرب منها وقد أعطى ظهره للنافذة الضخمة . وهو يبدو مثل ظل مبتسم فى حذر يرتكز على عصا .

تساءل وهو مازال محملقا فيها : هل تعرفين الشكل الذى ستكون عليه حياتنا عندما نرجع إلى وطننا ؟ هل يمكنك أن تتخيلى كيف ستكون الأمور عندما تصبحين فى دولتك وتحت نجومك وتقفين فوق أرضك وأنت تحملين بندقية فى يدك وتبحثين عن الطغاة والظالمين ؟ اسألى الأولاد .

كانت صوته أكثر جمالاً أثناء الظلام شأنه فى ذلك شأن باقى الأصوات التى عرفتها قال : لقد شعر الأولاد بالحب نحوك . فهل تحبينهم ؟

- نعم .

- أيهم تحبين أكثر ؟

فقالت : أحبهم جميعا بالتساوى وبدون تفضيل أحد على آخر .

ابتسم وقال : يقولون إنك تحبين كثيراً فلسطينك الميت . هل هذا صحيح؟

- نعم .

اشار بعصاه إلى النافذة . وقال «إذا كانت لديك الشجاعة فيمكننا أن نأخذك معنا . عبْر الحدود . كى نهاجم . ثم نعود ونحتفل . تقول هيلجا إنك ترغبين المشاركة فى القتال . فهل تريدين بالفعل أن تحاربى ؟

- نعم .

- تحاربين أىّ شخص أم تحاربين الصهاينة فقط ؟ . ولم ينتظر الردّ منها . وكان منخرطا فى الشراب . واستطرد قائلاً : لدينا بعض الناس من حثالة القوم والذين يرغبون فى تدمير العالم كله ، هل أنت من ذلك النوع ؟

- إن أمثال هؤلاء الناس يعتبرون من حثالة القوم . واعتقد أن هيلجا وماستاربين من حثالة القوم أليس كذلك ؟

فقالت : لم يكن لدى الوقت الكافى لكى أكتشف ذلك .

- هل أنت شخصيا من حثالة القوم ؟

- لا .

وعاد التيار الكهربائى . فدبّ الضوء الخافت فى لمبات السقف قال وهو مازال مستمرا فى تفحصها : أنا لا أعتقد أنك من حثالة القوم . ولكن ربما يطرأ عليك تغير ، هل سبق لك أن قتلت أى شخص فى أى وقت من الأوقات ؟

- لا .

- أنتم سعداء الحظ . فأنتم لديكم شرطتكم وأراضيكم ، وبرلمانكم كل الحقوق والقوانين وجوازات السفر . أين تعيشين ؟

– فى لندن .

– فى أى حىّ من أحياء لندن ؟

أحست بأن الإصابات التى لحقت بساقيه قد جعلته يشعر بالضيق من إجاباتها ، وكان قد عثر على كرسى طويل فراح يجره فى عدم اكتراث فى اتجاهها إلا أن أحداً من الأولاد لم ينهض لمساعدته . خطر على ذهنها أنهم لا يجرؤون على تقديم المساعدة له ، وعندما فرغ من وضع الكرسى فى المكان الذى يريد أن يضعه فيه راح يجذب كرسيا آخر ليصبح بجوار المقعد الأول ، ثم جلس ومد رجله على الكرسى الآخر . وأخرج سيجارة من جيب بدلته العسكرية وأشعلها .

قال : هل تعرفين أنك أول انجليزية تنضم لصفوفنا فنحن لدينا هولنديون وإيطاليون وفرنسيون وألمان وسويديون ، وأيرلنديون واثنان من الأمريكيين .

كلهم جاء وا كى يحاربوا معنا . ولم يحضر إلينا أناس من الانجليز حتى الآن ، فالانجليز يجيئون دائما متأخرين أكثر من اللازم .

هبطت عليها موجة من الفهم والإدراك والتسليم بصحة كلامه ، وهو – شأنه شأن يوسف – كان يتكلم من خلال آلام لم تجربها هى ومن خلال وجهة نظر لم تسبر أغوارها بعد . لم يكن كبير السن ولكن لديه الحكمة التى اكتسبها فى وقت مبكر اقترب وجهها من المصباح الصغير . وربما ولعل سبب ذلك أنه أراد أن يضعها هناك فالكابتن تايه رجل شديد الذكاء والمهارة .

قال معلقا : إذا كنت تريدين تغيير العالم ، عليك بنسيان هذا الموضوع لقد فعل الانجليز ذلك عليك بالبقاء فى وطنك . والقيام بأدوارك الصغيرة فذلك أكثر أمناً بالنسبة لك .

قالت : ليس الآن .

علق : أوه ، يمكنك أن ترجعى وتعترفى وتحاولى إدخال الإصلاحات وتقضين سنة فى السجن . ينبغى على كل إنسان أن يقضى عاما فى السجن. ولماذا تقتلين نفسك من خلال القتال من أجلنا ؟

قالت : بل من أجله .

وفى توتر وقلق أشاح تايه بيده الممسكة بالسيجارة مبعدا عواطفها الجياشة . واستطرد : مامعنى قولك : من أجله ؟ لقد مات بالفعل وفى خلال عام او عامين سنموت جميعا . فما معنى قولك : من أجله ؟

– لقد علمنى كل شىء

– هل علمك – كيف تلقين بالقنبلة ؟وكيف تطلقين الرصاص ؟ وكيف تقتلين ؟ لا تهتمّى .

ولبعض الوقت انصب اهتمامه على سيجارته إذ راح يرقب سيجارته وهى تحترق ، ويأخذ الأنفاس منها . ثم يطفئها ويشعل سيجارة جديدة . وخمّنت أنه لا يحب التدخين ، قال معترضا : ما هى الأمور التى علّمك إياها ؟

وهل يعلم امرأة مثلك ؟ لقد كان شابا صغيرا ولم يكن بمقدوره أن يعلم أىّ شخص . لقد كان لاشىء

فقالت فى تخشّب ملىء بالإصرار : « بل كان كل شىء » ومرة أخرى أحست أنه فقد الاهتمام مثل شخص ما شعر بالسأم والملل من المناقشات السطحية القليلة الخبرة . وبعدئذ أدركت أنه سمع شيئا ما قبل أن يسمعه شخص آخر : إذ أصدر أوامر سريعة . وعندئذ قفز أحد الأولاد نحو الباب . وترامت إلى سمعها أصوات خافتة آتية من الخارج واستطرد تايه قائلاً كأن شيئا لم يحدث :

– هل علمك كيف تكرهين ؟

قالت : قال إن الكراهية ينبغى أن تكون موجهة ضد الصهاينة . إننا لكى نحارب ينبغى أن نحب . وقال إن المعاداة للسامية هى ابتكار مسيحى .

توقفت عن الكلام حيث سمعت الأشياء التى سمعها تايه قبلها بوقت طويل إنه صوت سيارة تصعد التلّ . قالت لنفسها : إنه مرهف السمع مثل الأعمى . وربما كان السبب فى ذلك هو جسده المُعوّق . تساءل : أتحبين أمريكا؟

- لا .

- هل سبق لك الذهاب إلى أمريكا ؟

- لا .

فتساءل : وكيف يمكن لك أن تقولى إنك لا تحبين أمريكا إذا كنت لم تذهبى إلى أمريكا ؟

هنا ، دخلت السيارة إلى الفناء الأمامى . ثم سمعت تشارلى وقع أقدام . سمعت أصواتامنخفضة ومكبوتة . وشاهدت انوار السيارة الأمامية وهى تمرّ عبر الغرفة امامها قبل انطفائها .قال لها فى لهجة آمرة : إبق حيث أنت وظهر ولدان آخران . أحداهما يحمل حقيبة من البلاستيك . والآخر يحمل مدفعا رشاشا . وقف فى صمت دون حراك . وانتظرا فى احترام أن يبدأ الكابتن تايه فى مخاطبتهما . وكانت الخطابات موجودة بينهما على المنضدة . وعندما تذكرت مدى أهمية الخطابات فإن الفوضى السائدة بين الخطابات بدت مهيبة . قال تايه : لن يتعقبك أحد . وأنت سوف تتجهين جنوباً ، احتسى الفودكا . ثم اذهبى مع الولدين أنا أصدقك . ولا أصدقك . ربما ليس لذلك أهمية كبيرة . ان معهما ملابس من أجلك .

لم تكن سيارة . وانما كانت سيارة إسعاف مرسوم على جوانبها هلال أخضر اللون . وفوق غطاء محرك السيارة المعدنى كميات من الغبار الأحمر كما يوجد شاب ذو شعر أشعث يرتدى نظارة سوداء عند عجلة القيادة. وكان هناك ولدان آخران يجثمان فوق السريرين المبيّتين فى جانبى السيارة بالجزء الخلفي منها وقد حشرا مدافعهما الرشاشة فى ذلك المكان الضيق ، اما تشارلى فقد جلست منتصبة القامة فى شجاعة بجوار السائق . وهى ترتدى زىّ المستشفى وغطاء الرأس الرماديين . كان معظم الليل قد انقضى حيث بزغ فجر بهيج. وظهرت بعده شمس ثقيلة على يسارهم. ظلت الشمس تختبىء لدى نزولهم فى تموج والتواء وفى حزم شديد من فوق التل . حاولت تشارلى أن تثرثر باللغة الانجليزية مع السائق . ولكنه ظهرت عليه مشاعر الغضب . فقالت فى سعادة « مرحباً » للولدين

القابعين خلفهما بالسيارة إلاّ أنّ أحدهما كان متجهم الوجه بينما بدا الآخر شرساً وضاريا . لذلك اكتفت بالتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية . لقد أخبرها بأنها ستتجه جنوبا . إلى أيّ مسافة ؟ ومن أجل ماذا ؟ كان هناك التزام أخلاقى بشأن عدم توجيه الأسئلة وكان اعتزازها وغريزة حب البقاء يتطلبان منها أن تتوافق مع ذلك الالتزام الأخلاقى .

وجاء ت أوّل نقطة تفتيش لدى دخولهم إلى المدينة . وقابلتهم أربع نقاط أخرى للتفتيش قبل أن يغادروا المدينة على الطريق الساحلى المتجه جنوبا، وعند نقطة التفتيش الرابعة يتم نقل جثة شاب ميت إلى داخل تاكسى بمعرفة رجلين بينما راحت النساء يصرخن ويطرقن بأيديهن على سقف التاكسى . وكان الميت ملقى على جانبه بينما يده الشاغرة تشير إلى أسفل كأنها لا تزال تحاول الإمساك بشىء ما . راحت تشارلى تتلو من الذاكرة لنفسها : عقب الموت الأول لايوجد هناك موت آخر . حيث كانت تفكر آنئذ فى اغتيال ميشيل وظهر البحر الأزرق على يمينهم. ومرة أخرى أصبح المنظر سخيفا . وبدا الأمر وكأن حربا أهلية قد نشبت على طول المصيف الانجليزى . على جانبى الطريق سيارات محطمة وفيلات شطرتها القذائف الصاروخية . وفى أحد الملاعب راح طفلان يقذفان الكرة لبعضهما عبْر حفرة ناجمة عن انفجار لغم . كما ظهرت القوارب واليخوت المحطمة وشبه المغمورة فى الماء .

توقفوا مرة أخرى عند نقطة مرور على الطريق . انهم السوريون . لم تجذب الممرضات الألمانيات الموجودات فى سيارات إسعاف فلسطينية انتباه أحد . سمعت تشارلى صوت موتور موتوسيكل . وحملقت فى غير فضول نحوه، إن عليه حقائب مليئة بالموز الأخضر وهناك دجاجة حيّة معلقة من قدميها فى المقود وفوق سرج الموتوسيكل كان ديمترى يصغى فى اهتمام إلى صوت الموتور . وكان يرتدى الزى الرسمى للجندى الفلسطينى . علاوة على ارتداء كوف حول رقبته . وكان يوجد غصن من نَبات الخليخ الأبيض مثبتا فى الكتفية (*) الكاكية الخاصة بقميصه ...

(*) الكتفية : نسيج مقصّب على كتف السترة العسكرية .

كأنه يقول لها « نحن معك » لأن نبات الخلبخ الأبيض بمثابة الإشارة التى تبحث عنها على مدى هذه الأيام الأربعة .

كان يوسف قد قال : من الآن فصاعداً فإن الحصان فقط هو الذى يعرف الطريق . ومهمتك أن تظلى باقية فوق السرج .

.. ..

ومرة أخرى كونوا عائلة . وانتظروا .

وكان مسكنهم فى هذه المرة فى منزل صغير بالقرب من صيدا . وهو منزل له شرفة خرسانية شُقّت الى نصفين بسبب سقوط قذيفة عليها أطلقت من سفينة حربية اسرائيلية مما أدى إلى ظهور قضبان حديدية صدئة ناتئة فى الهواء كأنها قرون استشعار خاصة بحشرة عملاقة . وكانت الحديقة الخلفية بستاناً مليئا بأشجار اليوسفى . والجزء الأمامى بمثابة مقلب للزبالة والطين والحديد الخردة . وكان ذات يوم مكانا مشهوراً خلال الغزو الأخير أو خلال الغزو الذى حدث قبل الغزوات الخمسة الأخير . وفى الاسطبل المجاور توجد عربة مدرعة محطمة تتقاسم ملكيتها عائلة من الكتاكيت وكلبة مسالمة لاجئة ومعها أبناؤها الأربعة من الكلاب الصغيرة . والى ما وراء العربة المدرعة يوجد بحر صيدا الأزرق ومن المخزون اللانهائى من الأولاد التابعين للكابتن تايه حصلت تـشارلى على ولدين آخرين : كريم وياسر كان كريم ممتلئا وجلفا . وبـدا طموحا يرغب أن يصبح مهندسا . يبلغ من العمر ١٩ عاما . لقد أمضى ست سـنوات فى القتال المتواصل ويتحدث اللغة الانجليزية بصوت هامس.

قال كريم : عندما تتحرر فلسطين سأدرس فى القدس ، وإلى أن يتم تحرير فلسطين فإننى ربما أدرس فى لينتجراد أو ربما فى ديترويت .

ثم قال فى هدوء وأدب جمّ ، إن أخته ماتت أثناء الغارة التى قام بها الصهاينة على معسكر النبطية اما أخوه فقد تم نقله إلى معسكر الرشيدية ولكنه مات ايضا هناك بعد ثلاثة أيام بسبب قيام الصهاينة بقصف معسكر الرشيدية من

جهة البحر . ووصف موت أخيه وأخته فى تواضع شديد كما لو أن موتهما يعتبر أمراً بسيطاً فى خضم المأساة الهائلة الشاملة التى لحقت بالشعب الفلسطينى كله .

ذات صباح قال لتشارلى فى شىء من الغموض بينما هى واقفة عند نافذة حجرة نومها وقد ارتدت قميص نوم أبيض متلاطم بينما قد وضع مدفعه الرشاش فى حالة استعداد لإطلاق الرصاص : ان فلسطين اشبه بقطة صغيرة . قطة تحتاج للكثير من التمليس والمداعبة والملاطفة وإلاّ ستتحول إلى قطة شرسة موحشة ضارية .

وأوضح قائلاً أنه سبق أن شاهد رجلاً قبيح الشكل فى الشارع وعندئذ راح يفكر فيما إذا كان ينبغى عليه أن يقتله .

ولكن ياسر – وهو شاب به جبين منخفض يشبه جبين الملاكم وله حملقة غاضبة – لم يكن بمقدوره أن يتكلم معها على الإطلاق .

كان يرتدى قميصا من قماش مرسوم عليه مربعات علاوة على ارتداء حبل عنقى أسود اللون ملفوف فى أنشوطة عبر كتفه بما يفيد أنه تابع للاستخبارات الحربية . عندما هبط الظلام وقف فى الحديقة يرقب البحر بحثا عن المغيرين الصهاينة . أوضح كريم فى شىء من التعاطف قائلاً أن ياسر يعتبر من كبار الشيوعيين ولذلك يسعى إلى تدمير الاستعمار الموجود فى كل مكان فى كل أرجاء الارض . وكان ياسر يكره الغربيين حتى ولو كانوا يدعون أنهم يحبون الفلسطينيين وفقا لما قاله كريم ، لقد ماتت أمه وجميع أفراد أسرته أثناء هجوم الصهاينة على معسكر تل الزعتر .

تساءلت تشارلى : ماتوا من ماذا ؟

فقال كريم : من العطش كانت تل الزعتر بمثابة مخيم للاجئين موجود فى بيروت . يضم أكواخا ذات أسقف من الصفيح . وفى كل غرفة يعيش احد عشر شخصاً . وكان المعسكر يضم ثلاثين ألفاً من الفلسطينيين واللبنانيين الفقراء . وقد صمد هؤلاء الفقراء هناك على مدى ١٧ شهرا ضد القصف المتواصل بالقنابل .

تساءلت تشارلى : من الذى قام بهذا القصف المتواصل على مدى ١٧ شهرا؟

فدهش كريم من سؤالها هذا . وقال : لقد قامت الكتائب بهذا القصف كما شارك فى هذا القصف جنود غير نظاميين من المارون الفاشيست وساعدهم فى ذلك السوريون وكذلك الصهاينة بكل تأكيد ، ولقد مات الآلاف . الا أن أحدا لا يعرف الرقم الحقيقى على وجه الدقة . وعندما دخل المهاجمون المعسكر قاموا بإطلاق الرصاص على معظم الباقين على قيد الحياة . بل وتم وضع المرضات والأطباء فى طابور ثم أطلقوا عليهم الرصاص وقتلوهم جميعا . كان ذلك أمرا منطقيا طالما أنهم لم يكن لديهم أية كميات متبقية من الدواء أو الماء أو المرضى .

قالت تشارلى لكريم : هل كنت هناك ؟

لا . ولكن ياسر كان هناك .

قال لها الكابتن تايه عندما وصل لكى يصطحبها فى الليلة التالية : لا تأخذى حمام شمس مستقبلاً فنحن لسنا فى الريفييرا .

لم تشاهد الأولاد بعد ذلك مرة أخرى على الإطلاق . وكانت تدخل تدريجيا فى تلك الحالة التى تنبأ بها يوسف على وجه الدقة . اذ كانت قد بدأت تتعرف على الحجم الهائل للمأساة .

قال كريم مرددا نفس الكلام الذى قاله الكابتن تايه : سرعان ما سنصبح جميعا فى عداد الموتى . فالصهاينة سوف يقومون بإبادتنا إبادة جماعية . ولسوف تشاهدين ذلك بنفسك .

.. ..

قال الكابتن تايه فى إيجاز متسم بالطابع الشفرى الملىء بالألغاز إن السجن يقع فى وسط المدينة وإنه المكان الذى يؤدى فيه الأبرياء فترة الأحكام بالسجن مدى الحياة . ولكى يصلوا إلى السجن عليهم أن يتركوا سياراتهم فى

الميدان الرئيسى ويدخلوا فى متاهة من الطرق والممرات القديمة المكشوفة تتدلى منها شعارات مغطاة بالبلاستيك . ولقد اعتقدت بطريق الخطأ أن تلك الشعارات بمثابة ملابس مغسولة ومنشورة على الحبال . وكانت مصابيح الشوارع تسطع فى عمق على الحوائط الرخامية . فبدت وكأنها تضيئ الرخام من الداخل . وكانت الضوضاء تتصاعد فى الأزقة تدريجيا . ثم تتوقف فى بعض الأحيان عندما يستديرون عند إحدى النواصى بحيث لا يسمعون سوى وقع أقدامهم التى تمشى فى تثاقل على الأحجار الرومانية.

راح رجل متسم بمشاعر العدائية ومرتدٍ لبنطلون مقوس الساقين يقوم بإرشادهم ويتقدمهم على الطرق . قال الكابتن تايه وهو يعرج إلى جوارها: لقد أوضحت للمدير الإدارى أنك صحفية غربية . ومشاعره نحوك ليست طيبة لأنه لا يحب أولئك الذين يجيئون إلى هنا لكى يحسنوا معلوماتهم فى مجال علم الحيوان .

وكان القمر المزق يسايرهم فى مشيتهم ولا يتخلف عنهم .دخلوا فى ميدان آخر فحياهم انفجار من الموسيقى العربية ينبعث من مكبرات للصوت مربوطة فى أعمدة . وكانت البوابات العالية مفتوحة تؤدى إلى فناء مضاء تطل عليه مجموعة متتالية من الشرفات .

همست تشارلى وهى مازالت تشعر بالحيرة : من يكونون هم إذن ؟ وما الذى فعلوه؟

فقال الكابتن تايه : لا شئ . تلك هى جريمتهم . فهم اللاجئون الذين هربوا من المعسكرات وهذا السجن ذو حوائط سميكة . وكان شاغرا ؛ لذا استولينا عليه كى نوفر لهم الحماية . يجب عليك أن تحيّى الناس فى وقار ، ولا تسارعى إلى الابتسام لهم باستمرار ، وإلا سيعتقدون أنك تسخرين من البؤس الذى يعيشون فيه.

وحملق رجل عجوز جالس على كرسى فى نظرات خاوية نحوهم . وتقدم الكابتن تايه والمدير الإدارى للأمام لكى يقوما بتحيته . حملقت تشارلى فيما حولها ، وراحت تفكر :إننى أشاهد هذا كل يوم . إننى صحفية غربية تصف الحرمان لأولئك

الذين يمتلكون كل شىء ومع ذلك يشعرون بالتعاسة . كانت تشارلى واقفة فى وسط مخزن حجرى ذى حوائط عالية وله أبواب ذات قضبان حديدية أما الطلاء الأبيض فيغطى كل شىء مما أعطى إيحاء وهميا بوجود النواحى الصحية وتوفرها . وكانت الزنزانات الموجودة بالدور الأرضى مقوسة وذات بواكٍ وتبدو أبوابها مفتوحة وكأنها تعبر عن كرم الضيافة . وبدت الهياكل الموجودة فى داخلها راح الأطفال يتحركون ببطء . وكانت الحبال التى تتدلى منها الملابس المغسولة توجد أمام كل زنزانة . شمت تشارلى رائحة قهوة ورائحة المجارى المفتوحة . عاد إليها الكابتن تايه والمدير الإدارى قال تايه دعيهم يتحدثون إليك أولاً ولا تكونى متطرفة وراديكالية مع هؤلاء الناس لأنهم لن يفهموك . فأنت تشاهدين الآن نوعية من الناس أصبحوا شبه منقرضين بالفعل .

صعدوا السلالم الرخامية . وكانت الزنزانات ذات أبواب مصمتة ومتينة وبها ثقوب كى ينظر من خلالها السجانون . وبدا الأمر وكأن الضوضاء تتصاعد مع تزايد حرارة الجو . ومرت امرأة مرتدية ملابس فلاحة قروية كاملة . فتحدث معها المدير الادارى . وعندئذ أشارت بيدها على طول البلكونة إلى لافتة مكتوبة بخط اليد باللغة العربية . وساروا فى اتجاه سهم . وسرعان ما أصبحوا عند الجزء الأوسط من السجن . وقالت فى نفسها : سأحتاج إلى خيط كى أتمكن من معرفة الطريق أثناء العودة . ألقت نظرة على الكابتن تايه ولكنه لم يرغب فى النظر إليها ، لا تأخذى حمام شمس مستقبلاً . ثم دخلوا إلى غرفة كانت فيما سبق مكتبا للموظفين أو ربما كانت مقصفا . وفى وسط الغرفة توجد منضدة للكشف الطبى عليها مفرش من البلاستيك . وعربة جديدة صغيرة تضم أدوية وجرادل نظافة ومحاقن . كان هناك رجل وامرأة يقومان بأعمال الإسعافات الأولية والتمريض والعون والمساعدة . كانت المرأة مرتدية ثيابا سوداء اللون تقوم بتنظيف عينى طفل بقطعة من القطن الطبى . جلست الأمهات المنتظرات دورهن فى صبر على طول الحائط بينما أطفالهن انتابتهن حالة من النوم الخفيف. وقال الكابتن تايه فى لهجة آمره . «قفى هنا» شاهدته المرأة وهو يدخل ، وتركزت عيناها عليه ثم على تشارلى . ثم قالت

كلاما ما لأم الطفل ، وناولتها اياه ، ثم ذهبت إلى حوض غسيل الأيدى وغسلت يديها فى إتقان ، بينما راحت تتفحص تشارلى فى المرآة .

قال الكابتن تايه : «اتبعونا»

إن بداخل كل سجن توجد غرفة صغيرة مشرقة بها أزهار من البلاستيك وصورة فوتوغرافية لسويسرا حيث يمكن استضافة الناس الأبرياء . كان المدير الإدارى قد رحل . جلس الكابتن تايه والفتاة على جانبى تشارلى جلست الفتاة فى اعتدال مثل راهبة بينما انحنى تايه على عصاه والعرق يتصبب على وجهه وتململ فى عصبية لم تكن الأصوات المترامية من السجن قد توقفت وإنما انضمت لبعضها البعض على هيئة صوت واحد متنافر يضم أحيانا أصواتا موسيقية وأحيانا أخرى أصواتا آدمية . وفى بعض الأحيان وعلى نحو مثير للدهشة سمعت تشارلى أصوات ضحكات . كانت الفتاة جميلة وحازمة فى وقار . بل كانت مثيرة للرهبة بملابسها السوداء وبملامحها القوية وحملقتها السوداء المباشرة الخالية من النفاق أو الخداع. قصت شعرها ليصبح قصيرا للغاية وكان الباب مفتوحا وتحت حراسة الشابين كالمعتاد .

تساءل الكابتن تايه وهو يطفئ سيجارته الأولى :

– هل تعرفين من تكون ؟ هل يمكنك أن تتعرفى على شئ ما مألوف فى الوجه ؟ دققى النظر ؟

ولم تكن تشارلى بحاجة لأن تدقق النظر . حيث قالت على الفور : إنها فاطمة .

– لقد عادت إلى صيدا لكى تكون بين اهلها . انها لا تعرف اللغة الانجليزية ولكنها تعرف من تكونين . فقد قرأت الخطابات التى أرسلتيها إلى ميشيل وكذلك خطاباته إليك . مترجمة إلى العربية بالطبع ، ولذا فهى مهتمة بك .

تحرك تايه فى كرسيه متألما ، ثم استخرج من جيبه سيجارة ملطخة بالعرق وأشعلها .

وهى فى حالة من الحزن والحداد لكننا جميعاً فى حداد أيضاً . وعندما تتكلمين معها أرجو ألا تثيرى النواحى العاطفية . فقد فقدت أختا وثلاثة أشقاء .

وفى هدوء شديد بدأت فاطمة فى التكلم . وعندما توقفت عن الكلام شرع تائه فى الترجمة .

– إنها ترغب أولا فى توجيه الشكر إليك . لأنك قدمت الراحة والعون لأخيها سالم أثناء محاربته للصهيونية . ولأنك شاركت بنفسك فى الكفاح من أجل تحقيق العدالة وهى تقول . إنك الآن بمثابة أخت لها . وإنكما أحببتما ميشيل معا وأنتما سويا تفخران بموته البطولى . وهى تسألك : هل أنت أيضا تفضلين الموت على أن تصبحى عبدة للامبريالية ؟ إنها تهتم بالنواحى السياسية للغاية . قولى لها : نعم .

– نعم .

– انها ترغب أن تسمع عن الكيفية التى تحدث بها ميشيل عن عائلته وعن فلسطين . ولا تلجئى للفبركة والتلفيق والاختلاف . فلديها حاسة غريزية قوية .

نهض الكابتن تايه على قدميه ، وراح يجوب الغرفة فى بطء . ويقوم بالترجمة أو بإلقاء أسئلته الثانوية الفرعية الخاصة به من وقت لآخر .

كانت تشارلى تتحدث فى صراحة من كل قلبها ومن ذكرياتها الجريحة. ولم تكن إنسانة دجالة أو محتالة بالنسبة لأى شخص أو حتى بالنسبة لنفسها . وقالت إن ميشيل فى بادئ الأمر لم يكن يتكلم عن إخوته على الإطلاق وتحدث مرة واحدة بطريقة عابرة عن أخته الحبيبة فاطمة . وبعدئذ وفى يوم ما – وكان ذلك فى اليونان – بدأ يتحدث ويستغرق فى الذكريات عن إخوته. وأشار أن أخته فاطمة جعلت من نفسها أما لجميع أفراد أسرتها عقب وفاة والدته .

وقام الكابتن تايه بالترجمة . ولم تظهر ردود فعل على وجه فاطمة . إلا أن عينيها تركزتا طوال الوقت على وجه تشارلى تتفحصها وترقبها وتصغى إليها وتستفسر منها .

– ما الذى قاله عن إخوته ؟

– قال إنه طوال فترة طفولته كان ينظر إلى اخوته الكبار على أنهم بمثابة الإلهام الساطع أمام عينيه . وفى الأردن وأثناء وجودهم فى المعسكر الأول الخاص وعندما كان صغيرا فى السن ولا يمكنه المشاركة فى القتال كان إخوته يتسللون خارجين فى خفية دون أن يقولوا لأحد عن المكان الذى سيذهبون اليه . وبعدئذ تجيئ فاطمة إلى سريره وتهمس فى أذنه قائلة له إن إخوته تمكنوا من شن هجوم آخر ضد الصهاينة .

قاطعها الكابتن تايه من خلال الدخول فى ترجمة سريعة . فقدت أسئلة فاطمة طابع الاستغراق فى الذكريات عن إخوتها واتخذت صرامة وخشونة الفحص والتدقيق . ما هى المواد التى كان يدرسها إخوتها ؟ وما هى المهارات والجدارات التى تميزوا بها ؟ وما هى الطريقة التى ماتوا بها ؟ وراحت تشارلى تجيب بقدر ما لديها من معلومات ... شيئا فشيئا : إذ أن سالم ميشيل لم يكن قد أخبرها بكل شىء . وفواز كان محاميا عظيما أو كان يهدف لأن يصبح محاميا . كان غارقا فى حب طالبة فى عمّان – كانت حبيبته منذ أيام طفولته عندما كانا يعيشان فى قريتهما بفلسطين . لقد أطلق الصهاينة الرصاص عليه فأردوه قتيلا لدى خروجه من منزلها فى الصباح الباكر ذات يوم . وأضافت قائلة : وطبقا لما قالته فاطمة فإن . قاطعها تايه متسائلاً : ماذا عن : طبقا لما تقوله فاطمة ؟

– طبقا لما تقوله فاطمة فإن الأردنيين هم الذين أعطوا عنوانها للصهاينة .

وكانت فاطمة توجه سؤالها فى غضب ، وقام الكابتن تايه مرة أخرى بالترجمة ، فقال :

– أشار ميشيل فى أحد خطاباته إلى اعتزازه لأنه تعرض للتعذيب مع أخيه العظيم الكبير . يقول فيما يتعلق بهذا الحدث إن أخته فاطمة هى المرأة الوحيدة على وجه الكرة الأرضية – بالإضافة إليك – التى أحبها حباً كاملاً صادقا . اشرحى هذا لفاطمة ووضحيه لو سمحت . فأى واحد من الأخوة يعنى ؟

فقالت تشارلى : إنه يعنى «خليل» فقال تايه : قدمى وصفا كاملا لهذه الواقعة ؟

– تم ذلك فى الأردن

– أين ؟ وكيف ؟ قدمى وصفا على وجه الدقة .

– حدث ذلك فى الفترة المسائية. إذ جاءت قافلة من سيارات الجيب الأردنية إلى المعسكر عددها ست سيارات ، ثم ألقوا القبض على خليل وميشيل / سالم وأصدروا أوامرهم لميشيل بالذهاب لكى يقطع أغصانا من شجرة رمان – ثم نشرت يديها تماما مثلما فعل ميشيل فى تلك الليلة فى معبد دلفى – ستة أغصان صغيرة طول كل منها متر ، وأمروا «خليل» بأن يخلع حذاءه وأمروا «سالم» أن يركع ويمسك بقدمى خليل وراحوا يضربون «خليل» على قدميه بأغصان الرمان . وبعد ذلك غيروا الوضع بحيث يمسك خليل قدمى سالم ، ولم تعد أقدامهما شبيهة بالأقدام على الإطلاق وبحيث لا يمكن التعرف على شكلها ، ومع ذلك أرغمهما الأردنيون على الجرى بأن راحوا يطلقون الرصاص خلفهما فى اتجاه الأرض .

قال تايه فى نفاد صبر : هكذا ؟

– ماذا تعنى بـ : هكذا ؟

– لماذا تعتبر فاطمة بالغة الأهمية بالنسبة لهذا الموضوع ؟

– لأنها هى التى قامت بتمريضهما ورعايتهما ليلاً ونهاراً بأن وضعت الكمادات على أرجلهما ، وكانت ترفع من معنوياتهما وتملؤهما بالشجاعة. بل تقرأ لهم كتبا من تأليف كبار الكتاب العرب جعلتهما يخططان من أجل القيام بهجمات شديدة ، أما هو فقد قال :

إن فاطمة هى قلبنا النابض ، وهى فلسطيننا ، وينبغى علىّ أن أتعلم من شجاعتها ومن قوة شكيمتها .

هل قال ذلك ؟

قال الكابتن تايه : بل قد كتب ذلك إنه «مغفل» ثم أشعل لنفسه سيجارة أخرى .

.. ..

راح تايه يحملق فى حدة نحو الحائط الشاغر كما لو كانت هناك مرآة مثبتة هناك . وأخذ يجفف العرق المتصبب من وجهه بمنديله ، نهضت فاطمة ، وسارت فى صمت نحو الحوض ، ثم أحضرت كوبا من الماء واستخرج تايه من جيبه زجاجة مفلطحة صغيرة وصب لنفسه بعض الويسكى فى الكوب ، ثم استدارت فاطمة بوجهها نحو تشارلى مرة أخرى بينما صاغ تايه سؤالها الأخير :

– ما معنى هذه العبارة التى وردت فى خطابه : «الخطة التى اتفقنا عليها عند قبر والدى» أوضحى هذا أيضاً ، ما هى هذه الخطة ؟

وبدأت تشارلى فى وصف الطريقة التى مات بها إلا أن تايه قاطعها فى الكلام ، وقال :

– نحن نعرف الكيفية التى مات بها . لقد مات بسبب شعوره باليأس المرير . حديثنا عن الجنازة .

– لقد أبدى رغبته فى أن يدفن فى هبرون .

– أى فى الخليل . ولذا أخذوه إلى كوبرى اللنبى ، ورفض الصهاينة السماح له بعبور الكوبرى . وعندئذ قام ميشيل وفاطمة واثنان من الأصدقاء بحمل النعش والصعود به فوق تل مرتفع وعندما جاء المساء قاموا بحفر قبر فى مكان يمكن منه أن يطل على الأراضى التى اغتصبها الصهاينة منه .

– وأين كان يوجد خليل أثناء قيامهم بهذا العمل ؟

– كان غائبا فلقد تغيب منذ سنوات . من المتعذر إجراء اتصالات معه، كان يحارب . ولكنه ظهر فجأة فى تلك الليلة بينما هم يهيلون التراب ويغلقون القبر .

– وماذا بعد ذلك ؟

– لقد شارك فى ملأ القبر بالتراب . وبعدئذ طلب من ميشيل المجيئ والدخول فى القتال .

فقال تايه مكررا نفس العبارة : المجيئ والدخول فى القتال ؟

– قال إن الوقت قد حان لمقاتلة الكيان اليهودى فى كل مكان فى العالم . وأشار إلى أنه لا يوجد فارق على الإطلاق بين اليهودى والإسرائيلى . وأوضح أن الجنس اليهودى كله هو بمثابة قاعدة حربية صهيونية . وأن الصهاينة لن يهدأ لهم بال إلا اذا تمكنوا تماما من إبادة شعبنا الفلسطينى إبادة كاملة ، وقال إن فرصتنا الوحيدة هى أن نشد العالم كله من أذنيه ونرغمه أن يصغى لنا . فإذا كان الأمر يستلزم ضرورة تبديد حياة وأرواح الناس الأبرياء فلماذا ينبغى أن ينصب هذا التهديد والتبديد دائما على الفلسطينى ؟ ان الفلسطينيين لن يلجأوا إلى تقليد اليهود والانتظار لمدة ٢٠٠٠ سنة على أمل العودة إلى أراضيهم .

قال تايه فى شيء من الإصرار : إذن ما هى تلك الخطة التى وضعت ؟

– الخطة هى أنه ينبغى على ميشيل أن يذهب إلى أوروبا ويقوم خليل بعمل الترتيبات اللازمة لذلك . أن يدرس ميشيل فى أوروبا ولكنه فى نفس الوقت يصبح أيضا مقاتلاً .

ثم تكلمت فاطمة ، لفترة قصيرة .

قال الكابتن تايه : تقول إن أخاها الصغير كان له فم كبير وإن الله كان حكيما عندما أغلق فمه . واستدعى تايه الشابين ، وسار بسرعة فى عرج أمامها هابطا على السلالم ، ولكن فاطمة وضعت يدها على ذراع تشارلى وأوقفتها وحملقت فى وجهها فى حب استطلاع ملئ بالمشاعر الودية ، وسارت المرأتان جنبا إلى جنب عائدتين على طول الدهليز ، وعند باب العيادة حملقت فاطمة فى تشارلى مرة أخرى، وفى هذه المرة كانت حملقتها مليئة بالارتباك والحيرة والذهول ، ثم قبلت تشارلى على خدها . ألقت تشارلى نظرة أخيرة على فاطمة فرأتها تستعيد الطفل مرة أخرى ، وتنهمك فى تنظيف عينيه بالقطن الطبى . ولو لم يكن تايه قد راح

ينادى على تشارلى ويستحثها على الإسراع لكانت قد بقيت لمساعدة فاطمة فى العمل طوال الفترات المتبقية لها من حياتها .

.. ..

قال تايه عندما وصلت بهما السيارة إلى المعسكر :

- عليك أن تنتظرى ، فلم نكن نتوقع مجيئك ولم نوجه الدعوة لك .

ظنت أنه جاء بها إلى قرية . لأن صفوف الأكواخ البيضاء الموجودة على منحدر التل تبدو شديدة الجاذبية لدى وقوع أضواء المصابيح الأمامية للسيارة عليها . ولكن ما إن تقدمت بالسيارة حتى بدأت تفاصيل المكان تتكشّف . وعندما وصلوا إلى قمة التل وجدت نفسها فى مدينة صغيرة بمثابة مكان بديل مؤقت شّيد ليضم الآلاف من الناس وليس المئات . استقبلهم رجل رمادى اللون جليل ومهيب . يرتدى حذاء أسود لامعا وبدلة عسكرية كاكية اللون . أحست أنه قد ارتدى أفضل ما لديه من ثياب بمناسبة زيارة الكابتن تايه .

قال تايه فى بساطة لكى يعرفه على تشارلى : إنه قائدنا هنا . وهو يعرف فقط عنك أنك انجليزية .

ساروا وراءه إلى غرفة صغيرة بها كئوس خاصة بالمسابقات الرياضية موضوعة فى صناديق زجاجية . وعلى على المنضدة طبق كبير ملئ بالسجاير من أنواع مختلفة . أحضرت فتاة شابة طويلة الشاى المحلى بالسكر والكعك . الا أن أحدا لم يتكلم معها . كانت تضع حجابا على رأسها . وترتدى جونلة تقليدية كاملة الطول وحذاء بدون كعب . أهى زوجة ؟ أهى أخت؟ لم تستطع تشارلى أن تتبين الإجابة . كانت توجد حول عينيها كدمات زرقاء تنم عن الحزن بدا وكأنها تعيش فى عالم من الأحزان . عندما انصرفت رمق الرئيس تشارلى بنظرة ضارية عميقة ، ثم تحدث طويلاً فى شىء من الاكتئاب فى لهجة اسكتلندية واضحة . وأشار دون أن يبتسم أنه عمل فى الشرطة الفلسطينية أثناء فترة الانتداب البريطانى على فلسطين، وقال إنه مازال يحصل على معاش من الحكومة البريطانية . وأوضح أن

العزم والشجاعة اللتين يتسم بهما شعبه تزايدتا وتعمقتا من خلال معاناته الشديدة، وأعطى بيانات إحصائية. ففى خلال الـ ١٢ عاما الأخيرة تعرض المعسكر لـ ٧٠٠ غارة تم فيها قصفه بالقنابل والصواريخ . وأعطى أرقاما عن القتلى والجرحى مع التركيز على النساء والأطفال ، وأشار إلى أن أكثر الأسلحة فتكا كانت هى القنابل العنقودية المصنوعة فى أمريكا . وأوضح أن الصهاينة كانوا يلقون أيضا الشراك الخادعة التى هى على شكل لعب للأطفال . وأصدر أوامره فجاء صبى ومعه لعبة أطفال على هيئة سيارة ، ثم رفع غطاء السيارة وكشف عن الأسلاك والمتفجرات فى داخلها ، ثم أشار إلى تنوع النظريات السياسية التى يؤمن بها الفلسطينيون ولكنه أكد فى حماس أن جميع الخلافات فى الرأى تتلاشى أمام مواجهة الصهيونية ومكافحتها ومحاربتها .

قال : إنهم يقصفوننا جميعا بالقنابل والصواريخ ، كان يخاطبها باسم : «الرفيقة ليلى» لأن تايه أعلن أن ذلك هو اسمها . وبعد أن انتهى من خطبته أعلن ترحيبه الشديد بها . وأسلمها فى امتنان شديد للفتاة الطويلة الحزينة قائلا : «من أجل العدالة» وذلك كبديل عن قوله : طابت ليلتك .

ردت عليه «من أجل العدالة» .

وراح تايه يرقبها وهى تذهب مع الفتاة الطويلة الحزينة ، كان الظلام يسود الشوارع الضيقة . وكانت المجارى المكشوفة تنحدر نحو الأماكن الموجودة فى الوسط . انجرف القمر شبه المكتمل فوق التلال . راحت الفتاة الطويلة تقود الطريق وتسير أمامها . وكان الأولاد يسيرون وراء تشارلى حاملين مدافعهم الرشاشة وكذلك حقيبة الكتف الخاصة بتشارلى . مروا على ملعب ملئ بالأوحال وعلى أكواخ منخفضة ربما كانت بمثابة مدرسة . تذكرت تشارلى انضمام ميشيل لفريق كرة القدم وساءلت نفسها فى تعجب : ترى هل فاز بإحدى الكئوس الفضية الموجودة فى غرفة الرئيس ؟ كانت هناك أنوار زرقاء شاحبة تسطع فوق الأبواب الصدئة للمخابئ التى يذهب إليها الناس أثناء الغارات الجوية . والضوضاء كانت هى الضوضاء الليلية لأناس مغتربين ومبعدين عن أوطانهم . راحت الموسيقى الوطنية

الصاخبة تختلط مع تمتمة العجائز ، وفى مكان ما راح شاب وزوجته الشابة يتناقشان فى ضغينة ثم تفجرت أصواتهما فى غضب مكبوت .

– والدى يعتذر لك بسبب عدم توافر وسائل الراحة من حيث المبيت . وهناك قانون فى المعسكر بشأن ضرورة أن تكون المبانى مبسطة ومؤقتة وغير دائمة ، وذلك لكى لا ننسى المكان الذى فيه وطننا . وإذا حدثت غارة جوية لا تنتظرى سماع صفارات الإنذار ، سيرى فى نفس الاتجاه الذى يجرى نحوه كل شخص . وبعد انتهاء الغارة الجوية إحرصى على عدم الإمساك بأى شىء ملقى على الأرض مثل : أقلام الحبر والزجاجات والراديوهات ولعب الأطفال .. الخ

قالت وهى تبتسم فى حزن إنها تسمى سلمى وإن والدها هو الريس .

تابعت تشارلى سيرها إلى الأمام وراء سلمى . كان الكوخ صغيرا ونظيفا للغاية مثل جناح فى مستشفى به حوض لغسيل الأيدى وبورة مياه . وله فناء خلفى فى حجم منديل الجيب .

– ماذا تفعلين هنا يا سلمى ؟

وبدا السؤال للحظات محيرا من وجهة نظر سلمى . اذ إن مجرد الوجود هنا يعتبر بمثابة عمل أو وظيفة . تساءلت تشارلى : أين تعلمت لغتك الانجليزية ؟ فردت سلمى قائلة إنها تعلمت فى أمريكا وأوضحت أنها تخرجت فى قسم الكيمياء الحيوية بجامعة منيسوتا .

.. ..

يوجد سلام رهيب ، ولكنه سلام ريفى ينشأ عن العيش لفترة طويلة بين الضحايا الحقيقيين فى العالم . وفى المعسكر عاشت تشارلى أخيراً تجربة التعاطف التى حرمتها منها الحياة حتى تلك الآونة ، فهى بمشاركتها للأسر الخاص بهم بدأت تتخيل أنها حررت نفسها من الأسر ، وهى بحبها لهم بدأت تتخيل أنها تحصل على غفرانهم لحالات النفاق والازدواجية التى أتت بها الى هنا ، ولم يتم تخصيص حراس لها . ولدى استيقاظها فى أول صباح لها بالمعسكر راحت فى

حرص وحذر تتفحص الحواجز التى تحدّ من حريتها ، بدا لها أنه لا توجد أية قيود أو حواجز ، وسارت عند الخطوط الخارجية للملاعب الرياضية . وشاهدت أولادا صغارا مقوسى الأكتاف يتدربون فى قسوة ومرارة من أجل الوصول إلى اللياقة البدنية الخاصة بالرجولة ، وعثرت على العيادة والمدارس والدكاكين الصغيرة التى تبيع كل شىء ابتداء من البرتقال حتى زجاجات الشامبو الكبيرة ، وفى العيادة راحت امرأة سويدية عجوز تتحدث معها فى ارتياح ورضا عن مشيئة الله وإرادته .

أوضحت الأمور قائلة بطريقة حالمة : لا يمكن لليهود أن يرتاحوا بينما ضمائرهم تنوء بحملنا الثقيل لقد ضيق الله عليهم – ولايزال – عليهم الخناق للغاية ولماذا لا يعلّم الله هؤلاء اليهود كيف يحبون جميع الناس ؟

وفى وقت الظهيرة قامت سلمى بإحضار فطيرة محشوة بالجبنة وابريق ملىء بالشاى إلى كوخ تشارلى وتناولتا طعام الغداء سويا ، ثم صعدتا عبر بستان برتقال إلى قمة تل شبيه للغاية بالمكان الذى قام فيه ميشيل بتعليم تشارلى كيفية إطلاق النار من بندقية أخيه ، كانت هناك سلسلة من الجبال البنية اللون تمتد على طول الأفق من الجهة الغربية والجنوبية .

قالت سلمى وهى تشير بيدها عبر الوادى : «تلك الجبال الواقعة إلى الشرق هى سوريا . أمّا تلك الجبال – ثم حركت ذراعها جنوباً وتركت ذراعها يسقط فى حركة يأس فجائية – فهى الجبال الخاصة بنا وذلك هو المكان الذى سيجيئ منه الصهاينة من أجل أن يقتلونا .

ولدى النزول من فوق التل لمحت تشارلى عربات نقل عسكرية واقفة تحت شباك التمويه . وفى داخل بستان صغير ملئ بأشجار الأرز شاهدت لمعان مواسير المدافع المصوبة تجاه الجنوب . قالت سلمى إن والدها جاء من حيفا الواقعة على مسافة أربعين ميلاً . وإن والدتها ماتت عندما أطلقت عليها طائرة مقاتلة اسرائيلية وابلاً من الرصاص لدى مغادرتها المخبأ ، وقالت إن لها أخا ناجحاً فى الحياة يمتلك أحد البنوك بالكويت . ووجهت تشارلى لها سؤالاً صريحاً فقالت سلمى : لا . لم أتزوج لأن الرجال وجدونى طويلة للغاية وذكية أكثر من اللازم .

وفى المساء قامت سلمى باصطحاب تشارلى إلى حفلة موسيقية خاصة بالأطفال ، ثم ذهبتا إلى فصل دراسى بالمدرسة ، وقامتا - بالاشتراك مع عشرين امرأة أخرى - بلصق رقعات مثيرة فى قمصان الأطفال وذلك من أجل المسيرة الكبرى . كان بعض هذه الرقعات بمثابة شعارات مكتوبة باللغة العربية تؤكد على تحقيق الانتصار الكامل الشامل . والبعض الآخر يتضمن صورا فوتوغرافية للزعيم ياسر عرفات الذى تسميه النساء : «أبو عمّار» وظلت تشارلى ساهرة معهن طوال الليل وأصبحت بمثابة البطلة التى تدافع عن القضية الفلسطينية ، وقد تم إنجاز ۲۰۰۰ قميص بالأحجام الملائمة فى الوقت المناسب وكل ذلك بفضل مجهودات الرفيقة ليلى .

سرعان ما كان كوخها يمتلئ بالأطفال من الفجر حتى غروب الشمس حيث يرغب البعض فى التحدث باللغة الانجليزية . بينما البعض الآخر يريد أن يعلمها كيف ترقص وتغنى الاغنيات الشعبية الخاصة بهم ، وكانت أمهات الأطفال تحضرن لتشارلى الكثير من البسكويت المحلى بالسكر والفطائر المحشوة بالجبنة من أجل تشجيعها على مواصلة البقاء معهم للأبد وهو أمر تريد أن تعمله بالفعل .

.. ..

بدأت المسيرة العظمى بعد ثلاثة أيام ، وكانت بداية التحرك من عند الملعب الرياضى تحت وهج حرارة الشمس فى الصباح مع التقدم فى بطء حول المعسكر عبر شوارع مزدانة بالرايات والأعلام والشعارات ومليئة بالجماهير المتدفقة . كانت تشارلى واقفة عند عتبة كوخها تحمل فتاة صغيرة للغاية . لا تقوى على السير على قدميها . وبدأ الهجوم الجوى بعد دقيقتين فى أعقاب قيام ۱۲ طفلا بحمل نموذج لمدينة القدس على أكتافهم . هنا قامت سلمى بالشرح والتوضيح : ها هو نموذج لمسجد سيدنا عمر بن الخطاب وهو مصنوع من الورق الذهبى وأصداف البحر . وبعدئذ وصل أطفال الشهداء حيث حمل كل طفل منهم غصن زيتون وبعدئذ حلت الضربات الإيقاعية البهيجة الصادرة عن نيران المدفعية المترامية من جانب الجبل .

الا أن أحداً لم يصرخ أو يبدأ فى الهرب بعيداً . بل وحتى سلمى التى كانت تقف إلى جوارها لم ترفع رأسها نحو الجبل حيث خيل للجميع أن صوت المدفعية هو جزء من الاحتفالات ذاتها .

وحتى تلك الآونة لم تكن تشارلى قد فكرت فى الطائرات على الإطلاق . رغم أنها كانت قد لاحظت وجود طائرتين على ارتفاع شاهق فى السماء وأعجبت بذيل الدخان الأبيض الطويل لدى قيامهما بالدوران على صفحة السماء الزرقاء . إذ لم يخطر على بالها أن الفلسطينيين لا يملكون طائرات ، وكانت اهتماماتها منصبة أكثر على الفتيات المرتديات للزى الرسمى اللائى يرقصن مع بعضهن البعض فوق المنصات التى تجرها الجرارات مع تقاذف مدافعهن الرشاشة جيئة وذهابا على إيقاع تصفيق الجماهير بالأيدى ، كما كان الأولاد المحاربون يرتدون الكوفية الحمراء اللون والمربوطة حول جباههم .

وبعدئذ ترامى عواء الطائرة وهى تلف وتستدير فى حدة . وعندما انفجرت أول قنبلة شاهدت وميضها على بعد ربع ميل من سفح التل ، ثم رأت دخانا أسود اللون لدى اجتياح الضوضاء والانفجار لها فى نفس الوقت . والتفتت نحو سلمى وصاحت فى وجهها رافعة صوتها كأن عاصفة قد هبت رغم أن كل شىء آنئذ قد أصبح هادئا على نحو مثير للدهشة ، إلا أن وجه سلمى كان يحملق فى نظرات ثابتة مليئة بالكراهية والبغضاء وهى تفتش بنظراتها فى السماء .

قالت سلمى : إنهم يضربوننا عندما يريدون ذلك لكنهم اليوم يلعبون معنا . يكتفون باللعب معنا من المؤكد أنك جلبت علينا الحظ السعيد .

كانت دلالة الإيحاء أكثر مما تتحمله تشارلى . ولذلك رفضت هذا الإيحاء رفضاً تاماً .

سقطت القنبلة الثانية فى مكان أبعد من القنبلة الأولى على ما يبدو . وبدأت فرقة موسيقى الأطفال فى العزف بصوت أعلى عن ذى قبل وبدأ الموكب . وكانت الفرقة تعزف لحنا لأغنية وطنية عسكرية وراحت الجماهير تصفق بالأيدى مع إيقاع

اللحن . فأجلست تشارلى الطفل الصغير على الأرض وراحت تصفق بدورها مع اللحن وشعرت باللدغ فى يديها كما شعرت بالآلام تسرى فى كتفيها إلاَّ أنها استمرت فى التصفيق وأفسح الموكب الطريق بأن سار على جانب ومرت سيارة جيب تومض بأنوارها وتبعتها سيارة إسعاف وسيارة إطفاء . وتصاعد حجاب قاتم كثيف من التراب خلف السيارات وبدا شبيها بدخان معركة . وبدد النسيم التراب واستأنفت الفرقة الموسيقية عزفها . ثم جاء الدور على اتحاد صيادى الأسماك متمثلا فى عربة صفراء مزانة بصور للزعيم ياسر عرفات . وبعدئذ جاء طابور آخر من الأطفال المسكين ببنادق خشبية وهم ينشدون أغنيات تتلاءم مع المسيرة . تصاعد الغناء وشاركت الجماهير كلها فى الغناء . وقد انضمت إليهم تشارلى تفعل ما يفعلون .

اختفت الطائرات ، لقد أحرزت فلسطين انتصاراً آخر .

قالت سلمى فى ذلك المساء لتشارلى لدى سيرهما على جانب التل : غدا ، سوف يصطحبونك إلى مكان آخر .

قالت تشارلى : لن أذهب .

وعادت الطائرات بعد ساعتين قبل حلول غروب الشمس مباشرة . وكانت تشارلى آنذاك موجودة فى كوخها . وبدأت صفارات الإنذار تدوى متأخرة عن الموعد الملائم . كانت تشارلى لاتزال تجرى فى اتجاه المخابىء عندما ظهرت أول موجة من الطائرات تضم طائرتين . وكانت أصوات موتوراتهما عالية للغاية . وسقطت أول قنبلة محدثة انفجارا هائلا مما أدى إلى إلقاء تشارلى على باب المخبأ الحديدى رغم أن صوت الانفجار لم يكن فى نفس رداءة الزلزال الذى صاحب الانفجار واصطدام جسدها بباب المخبأ مما أدى إلى تنبيه شخص ما إلى فتح الباب لها . ثم جذبتها أيدى نساء قويات إلى الظلام فى داخل المخبأ وأجلسنها على مقعد خشبى . شعرت بالصمم التام فى بادىء الأمر .

إلا أنها تدريجيا سمعت بكاء الأطفال الخائفين . ثم سمعت أصوات أمهاتهم

المتقدة بالحماس ، وقام شخص ما بإشعال مصباح زيتى وثبته فى خطاف موجود فى وسط السقف . ولبعض الوقت بدا لتشارلى من خلال الدوار والغثيان الذى أصـابها أنها تعيش فى داخل لوحة فنية للفنان هوجارث (★) بينما اللوحة معلقة بطريقة مقلوبة .وبعدئذ أدركت أن سلمى إلى جوارها . ثم تذكرت أن سلمى قد رافقتها منذ أن انطلقت صفارات الانذار . وجاءت طائرتان أخرتان أو ربما هما نفس الطائرتين لتقوما بجولة أو مهزلة أخرى ؟ وتأرجح ضوء المصباح الزيتى لدى اقتراب نسق القنابل التى تطلق على التتابع من طائرة واحدة . وأحست بالقنبلتين وكأنهما بمثابة ضربتين على جسدها – لا . ليس مرة أخرى . ليس مرة أخرى لو سمحتم . بدت القنبلة الثالثة أعلى صوتا مما أدى إلى قتلها تماما . إلا أن القنبلة الرابعة والخامسة جعلتها تدرك أنها مازالت على قيد الحياة .

فجأة صاحت امرأة فى هستيريا وآلام فى وجه تشارلى مباشرة : أمريكا ! أمريكا ! أمريكا ! وحاولت إثارة النساء الأخريات لكى يوجهن الاتهامات إلى تشارلى أيضا . إلا أن سلمى طلبت منها فى رفق أن تلتزم بالهدوء .

ظلت تشارلى منتظرة لمدة ساعة . ربما طال انتظارها لمدة ساعتين . وعندما لم يحدث شىء خلال تلك الفترة نظرت إلى سلمى وقالت لها : «هيا بنا فقد أدركت أن المخبأ أسوأ من أى مكان آخر . إلا أن سلمى هزت رأسها

وقالت فى هدوء : «إنهم ينتظرون لحين خروجنا من المخبأ ، لا يمكننا أن نخرج قبل حلول الظلام » .

وحل الظلام ، وعادت تشارلى بمفردها إلى كوخها . وأشعلت شمعة لأن الكهرباء كانت مقطوعة . كان آخر شىء شاهدته فى الغرفة كلها هو غصن نبات الخلبخ الأبيض الموجود فى كوز فوق حوض الغسيل . راحت تدرس اللوحة التى تعبر عن الطفل الفلسطينى ، ثم خرجت إلى الفناء حيث لا تزال ملابسها معلقة على

(★) الرسام هوجارث : وليام هوجارث ١٦٩٧ – ١٧٦٤ رسام انجليزى تغلب على أعماله روح النقد اللاذع .

حبل الغسيل - يا سلام يا للروعة . الملابس أصبحت جافة . لم تكن لديها التسهيلات الخاصة بكى الملابس لذلك فتحت أحد أدراج خزانتها الصغيرة وطوت الملابس ووضعتها بالدرج مع التركيز على النظافة الشديدة شأنها فى ذلك شأن باقى سكان المعسكرات . وعندما تراءى فى ذهنها منظر غصن نبات الخلبخ مرة أخرى قالت لنفسها : من المؤكد أن أحد الأولاد وضع الغصن . إنه غصن جميل ذو أشواك ذهبية أطلق عليه اسم : علاء الدين . إنه هدية من سلمى فى آخر ليلة لى هنا . يالها من مشاعر لطيفة من جانبها ومن جانبه .

كانت سلمى قد قالت لدى افتراقهما : نحن بمثابة صلة غرامية أو قصة حب وأنت سوف تذهبين . وعندما تذهبين بالفعل سنصبح أنا وأنت بمثابة حلم .

راحت تفكر : أنتم يا أولاد الحرام أيها الصهاينة المتعفنين أيها الصهاينة السفاحون والقتلة يا أولاد الحرام . لو لم أكن أنا هنا لقصفتم الفلسطينيين بوابل مستمر من القنابل إلى أن يحل يوم القيامة .

هـنا قالت سـلمى : إن الولاء الوحيد من جـانبى يتطلب منى أن أكـون هـنا .

الفصل الثانى والعشرون

لم تكن تشارلى هى الوحيدة التى ترقب الزمن وهو يمر وترقب حياتها وهى تتكشف أمام عينيها . فمنذ اللحظة التى عبرت فيها الخط كان ليتفاك وكيرتز وبيكار قد أرغموا على ربط تململهم ونفاد صبرهم بالإيقاع المغاير المختلف الخاص بأعدائهم وخصومهم. كان كيرتز يحلو له أن يقول لأتباعه: إن أصعب الأمور فى الحرب هو العمل البطولى الفذ المرتبط بالتراجع وكبح الجماح للنفس.

راح كيرتز يتراجع على نحو لم يفعله من قبل. وهو يسحب جيشه المرهق من ظلاله الانجليزية، فبدا ذلك – من وجهة نظر جنود المشاه التابعين لجيشه على الأقل – أمرا أقرب إلى الهزيمة منه إلى تلك الانتصارات التى أحرزها الجنود إلى حد بعيد، وإن كانوا قد احتفلوا فى السر بتلك الانتصارات، ففى خلال ساعات عقب رحيل تشارلى تم إعادة منزل هامستيد إلى يهود الشتات.

كما تم تجريد السيارة الفان من معداتها وأجهزتها اللاسلكية وتم شحن معداتها الالكترونية فى حقيبة دبلوماسية مرسلة إلى تل أبيب فى شىء من الخزى والعار. أما السيارة فى حد ذاتها فقد جزت أرقام الموتور الخاصة بها من الأغلفة الخارجية لدولاب السيارة وأصبحت بمثابة حطام لسيارة محترقة ملقاة فى مكان ما يقع ما بين المستنقعات . لم يبق كيرتز من أجل أن يشهد هذه الجنازات. إذ سرعان ما عاد إلى شارع دزرائيلى وربط نفسه بالأعمال المكتبية التى يكرهها، وأصبح بمثابة المنسق العام مثل اليكسيس والذى وكلت له مهام تدعو للسخرية. كانت القدس تستمتع بشتاء معتدل ملىء بالشمس المشرقة . وراح كيرتز ينتقل من مكتب سرى إلى آخر يقاوم حملات الهجوم عليه ويستجدى الموارد بينما الأحجار الذهبية للمدينة المحاطة بالسور تعكس صورتها على صفحة السماء الزرقاء المضيئة ، وفى هذه

المرة فقط فإن المنظر جعل كيرتز يشعر بالتسلية والعزاء ، قال فيما بعد أن آلته الحربية أصبحت مثل عربة تجرها الخيول بينما الخيول تجذب العربة فى اتجاهات مختلفة. وهو فى خلال العمل الميدانى له حرية التصرف رغم كل الجهود التى يبذلها جافرون ليمنعه من ذلك، وهو فى داخل وطنه حيث يرى كل رجل سياسة من الدرجة الثانية وكل محارب من الدرجة الثالثة فى نفسه أنه إنسان عبقرى فى مجال الاستخبارات ويواجه انتقادات تفوق تلك التى واجهها النبى إلياس الذى كان له من الأعداء أكثر من أعداء السومارييم. وكانت معركته الأولى من أجل الوجود المستمر لتشارلى. وربما من أجل الوجود المستمر الخاص به. وكان ذلك مشهدا إجباريا بدأ فى اللحظة التى وضع فيها كيرتز قدمه فى مكتب جافرون.

وقف جافرون الروك وقد رفع ذراعيه لأعلى وكأنه مستعد للشجار والعراك. وكان شعره الأشعث الخشن منكوشا أكثر مما كان عليه فى أى وقت مضى، وصرخ قائلا: هل أمضيت وقتا لطيفا؟ هل تناولت بعض الوجبات الشهية. أرى أن وزنك ازداد بعد أن أمضيت تلك الفترة هناك.

ثم طرق بيده فى عنف على المكتب، وبعدئذ راحت أصواتهما تدوى فى كل مكان أثناء قيامهما بالصراخ والصياح فى وجه بعضهما البعض مع الطرق على المنضدة بجماع الأيدى مثل رجل وزوجته يتشاجران فى عراك شبيه بالإسهال. تساءل الروك فى حدة صارخة: ما هى النتائج التى نجمت عن وعود كيرتز بإحراز تقدم؟ وأين كانت تصفية الحساب الكبرى التى قد تنجم عنها؟

ـ هل أنت مندهش لأننى فقدت الثقة فيك؟ ـ بعد أن استهلكت أموالا كثيرة وعصيت الكثير من الأوامر ولم تخرج إلا بنتائج قليلة للغاية؟

وكنوع من العقاب أرغمه جافرون أن يحضر اجتماعا للجنة الإشراف الخاصة به. وهى لجنة لم تعد تتكلم آنئذ إلا عن الحل النهائى. حاول كيرتز التأثير على أعضاء اللجنة. بل وحاول إقناعهم بإدخال تعديلات على خططهم.

قال أصدقاؤه بأصوات خافتة ملحة فى الأروقة والدهاليز: اخبرنا يا مارتى عن

الانجازات التى قمت بها. ما هى تلك الانجازات؟ إعطنا فكرة لكى نتمكن من معرفة الأسباب التى تدعونا لتقديم العون والمساعدة لك.

شعروا بالإساءة بسبب التزامه بالصمت، وتركوه وهو يشعر كأنه إنسان دنئ يسترضى الأعداء على حساب المبادئ الأخلاقية.

كانت هناك الجبهات الأخرى التى يحارب فيها أيضا. ولكى يراقب مدى التقدم الذى تحرزه تشارلى فى داخل أراضى الأعداء فإنه اضطر للذهاب فى تذلل إلى الإدارة التى تخصصت فى الحفاظ على خطوط الجاسوسية. وكان مدير هذه الإدارة وهو سفاردى من مدينة حلب يكره كل شخص، وكيرتز بصفة خاصة. اعترض قائلا إن تعقبا كهذا يمكن أن يقوده إلى أى مكان. وماذا عن العمليات الخاصة به؟ وبالنسبة لتقديم مساعدات ميدانية من أجل ثلاثة من المراقبين التابعين لليتفاك لمجرد فقط إعطاء الفتاة إحساسا بالطابع العائلى البهيج فى تلك البيئة الجديدة فإن مثل هذا الإسراف فى استخدام عدد من الموظفين يزيد عن الحاجة هو أمر غير معروف له ولا يمكن عمله.

اضطر كيرتز إلى اللجوء إلى كافة التنازلات السرية من أجل الحصول على حجم التعاون الذى يحتاج اليه. وظل ميشا جافرون مبتعدا عن هذه المحاولات وعن الصفقات المماثلة مفضلا اتاحة الفرصة أمام قوى السوق لكى تعثر على الحل الطبيعى الخاص بها. فإذا كان لدى كيرتز الإيمان الكافى فإنه سيتمكن من شق طريقه وذلك هو ما قاله سرا لأتباعه كما أوضح جافرون أن قدرا ضئيلا من كبح الجماح والتأنيب لن يسبب أضرارا كبيرة لرجل مثل كيرتز.

لم يكن كيرتز يشعر بالرغبة فى أن يترك القدس ولو لليلة واحدة بينما هذه المؤامرات تشق طريقها. ولذلك أوفد ليتفاك فى رحلة مكوكية أوربية بهدف تدعيم فريق المراقبة والإعداد بكل الطرق الممكنة لما يمكن أن يسمى بالمرحلة الأخيرة. فالأيام السعيدة الخاصة بـ ميونيخ حيث كان يمكن لولدين قائمين بالنوباتجية تلبية احتياجاتهم قد انتهت إلى الأبد. وحتى يمكن الإبقاء على مراقبة مستديمة على

الثلاثى ماستاربين وهيلجا وروسينو استلزم الأمر تجنيد فصائل كاملة من المتحدثين باللغة الألمانية.كما أن شكوك ليتفاك فيما يتعلق باليهود غير الاسرائيليين أدت إلى المزيد من الصداع والمتاعب، لكنه لم يكن على استعداد للتنازل عن رأيه: إذ قال عنهم إنهم لينوا العريكة أكثر من اللازم لدى إنجازهم للأعمال بالإضافة. إلى أنهم منقسمون فى ولائهم. وبناء على تعليمات صادرة عن كيرتز سافر ليتفاك إلى فرانكفورت من أجل عقد اجتماع سرى مع أليكسيس فى المطار وذلك بهدف الحصول على مساعدته فى عملية المراقبة وأيضا بهدف «اختبار قوة ارادة أليكسيس» على حد تعبير كيرتز. إلا أن تجديد التعارف بين ليتفاك وأليكسيس كان بمثابة كارثة. لأنهما شعرا بالكراهية نحو بعضهما البعض لدى تقابلهما سويا. والأسوأ من ذلك أن رأى ليتفاك عزز التنبؤ السابق الذى أشار إليه الأطباء النفسيون التابعون لجافرون: وهو أنه ينبغى عدم الثقة فى أليكسيس.

قال أليكسيس معلنا لليتفاك فى لهجة غاضبة لقد اتخذ القرار. أنا لا أتراجع أبدا عن القرار الذى اتخذه. وهذا أمر معروف عنى. ولسوف أقدم نفسى للوزير بمجرد انتهائى من الاجتماع وأوضح لسيادته كافة الأمور. فلا بديل عن شخص يتمتع بالشرف والأمانة.

وسرعان ما اتضح أن أليكسيس كان لا يعانى ليس فقط من مجرد تغير فى الاتجاه ولكن أيضا من انحياز سياسى جديد ناضج ومزدهر:

ـ لا شئ ضد اليهود بالطبع ـ ولكن المرء من حيث هو ألمانى يكون له ضميره الخاص به ـ إلا أنه من خلال التجارب الأخيرة ـ فإن حادثة قنبلة معينة ـ والإجراءات التى اضطر المرء لاتخاذها ـ والابتزاز ـ بحيث تتم المشاركة ـ فإن المرء يبدأ أيضا فى النظر إلى ردود الفعل والنظر فى الأسباب التاريخية التى جعلت اليهود يجلبون الاضطهاد على أنفسهم. أرجو أن تغفر لى قولى.

راح ليتفاك يحملق فيه بنظرات مثبتة. وكأنه لن يغفر له أبدا.

أضاف أليكسيس : وصديقك شولمان ـ وهو رجل قدير ورائع وعظيم ومقنع

أيضا. لا توجد لديه آراء معتدلة سواء فى السياسة أو الدين. فقد سبق له القيام بأعمال عنف ـ بدون الحصول على موافقة مسبقة ـ فوق الأراضى الألمانية كما أنه يظهر درجة من التجاوزات التى ألصقت بنا نحن الألمان منذ فترة طويلة للغاية.

كان ليتفاك قد حصل على مافيه الكفاية من الإهانات وفاض به الكيل. وبدأ الشحوب يظهر على وجهه،. وأشاح بوجهه بعيدا. ربما لكى يخفى النيران التى تتأجج فى داخل عينيه. ثم قال: لماذا لا تتصل به تليفونيا وتقول له بنفسك كل هذا الكلام؟

هنا لجأ أليكسيس إلى هذا الإجراء بالفعل. إذ اتصل من كابينة تليفونات المطار مستخدما الرقم الخصوصى الذى كان كيرتز قد أعطاه له بينما وقف ليتفاك إلى جواره واضعا السماعة الإضافية على أذنه وبعد أن انتهى أليكسيس من كلامه قال كيرتز بكل ترحيب «حسنا الآن. افعل ذلك يا بول» ثم تغير صوته وهو يضيف قائلا: وأثناء تحدثك مع الوزير يا بول عليك ألا تنسى أن تحدثه عن كل ما يتعلق بحسابك الخاص فى البنك السويسرى. لأنك إذا لم تحدثه عن الحساب السرى فإننى سأحذو حذوك من حيث الاتصاف بالصراحة التامة وبالتالى سأذهب بنفسى لمقابلة الوزير لكى أخبره برقم حسابك السرى فى البنك .

وعقب انتهاء كيرتز من تلك العبارة أصدر أوامره للوحة مفاتيح التليفونات بعدم استقبال المزيد من المكالمات الأخرى الواردة من أليكسيس على مدى الـ ٤٨ ساعة القادمة. الا أن كيرتز لم يكن يحمل فى داخله أية ضغائن. فقد حصل على يوم واحد اجازة وسافر بنفسه إلى فرانكفورت ؛ حيث وجد الدكتور أليكسيس قد أفاق كثيرا واستعاد هدوءه. إذ إن التلميح إلى الحساب السرى بالبنك السويسرى جعله يفيق من غفوته. إلا أن العامل الرئيسى الذى جعله يفيق من غفوته هو ذلك المنظر البهيج لملامح وجهه فى الصفحات الداخلية لجريدة ألمانية واسعة الانتشار ـ وجه ملئ بالعزم والإخلاص مع التركيز دائما على ذكاء أليكسيس ـ مما يجعله يصدق أنه على النحو الذى قالوه عنه. تركه كيرتز مع هذا التخيل السعيد. وكنوع من

الجائزة أعاد إلى الذاكرة مفتاحا محيرا للمحللين النفسيين بأن أليكسيس فى حنقه وغضبه يراجع نسخة من كارت بوستال موجه لأستريد بيرجار تحت واحد من أسمائها العديدة المستعارة الأخرى.

خط اليد غير مألوف والخاتم البريدى خاص بالحى السابع بباريس. وجاء الاعتراض من جانب مكتب البريد الألمانى بناء على أوامر صادرة من كولونيا.

وكان النص على النحو الآتى باللغة الانجليزية: «ستجرى للعم فراى المسكين عملية جراحية فى الشهر القادم وفقا للخطة الموضوعة. ولكن ذلك أمر ملائم على الأقل لأنه يمكن لكم استخدام المنزل الخاص بـ «٧» وإلى اللقاء هناك» توقيع: ك.

وبعد ثلاثة أيام جذبت شبكة الصيد خطابا آخر مكتوبا بنفس خط اليد ومرسلا إلى عنوان آخر من العناوين الآمنة الخاصة بـــ «بيرجار». وكان الخاتم البريدى فى هذه المرة هو ستوكهولم. إذ إن أليكسيس الذى عاد للتعاون الكامل من جديد كان قد قام بإرساله بالطائرة إلى كيرتز بالبريد المستعجل، وكان النص مختصرا.: «استئصال الزائدة الدودية لفراى بالغرفة ٢٥١ الساعة ١٨٠٠ فى يوم ٢٤» وكان التوقيع بحرف «م» مما جعل المحللين يدركون أن هناك حلقة اتصال مفقودة فى الوسط، وان ذلك هو الأسلوب الذى يتلقى به ميشيل الأوامر الصادرة إليه من وقت لآخر. لم يتم العثور على البطاقة البريدية ل رغم الجهود التى بذلها كل فرد، وبدلا من ذلك التقطت فتاتان تابعتان لليتفاك خطابا وضع فى صندوق البريد بمعرفة نفس الفريسة وهى فى هذه الحالة «بيرجار» كان الخطاب مرسلا إلى ماستاربين فى جنيف. تم ذلك على نحو لطيف للغاية، إذ كانت بيرجار فى زيارة لهمبورج فى ذلك الوقت وكانت تقيم مع أحد عشاقها فى بلانكنيز ومع السير وراءها نحو المدينة ذات يوم شاهدتها الفتاتان تسقط خطابا خلسة فى صندوق للبريد. وبمجرد أن غادرت بيرجار المكان قامت الفتاتان بإسقاط مظروف خاص بهما وهو مظروف كبير أصفر اللون جهز من أجل مواجهة مثل هذه المصادفة فاستلقى الخطاب الأصفر فوق خطاب بيرجار. وبعدئذ وقفت الفتاة مثل الحارسة عند صندوق البريد.

وعندما جاء ساعى البريد لكى يفرغ محتويات صندوق البريد راحت تقص عليه حكاية تتعلق بالحب والغضب وقدمت له وعودا صريحة مما جعله يقف على جانب مبتسما بينما قامت باستخراج خطابها من بين الخطابات الأخرى. بالطبع لم تستخرج خطابها وإنما استخرجت خطاب آستريد بيرجار الذى كان راقدا تحت المظروف الأصفر الكبير. وبعد أن تم فتح خطاب آستريد بالبخار وتصوير محتوياته أعيد لصقه ووضعه فى نفس صندوق البريد من أجل أن يأخذه ساعى البريد فى المرة التالية.

كانت الجائزة بمثابة ثمانى صفحات من الكتابة السريعة الشبيهة بالخربشة المليئة بالعاطفة المتدفقة لفتيات المدارس. من المؤكد أنها كانت مخمورة أثناء كتابة الخطاب، وكان الخطاب مليئا بالصراحة . حيث امتدح الخطاب القوى الجنسية لماستاربين. كما واصل إطلاق النيران على الالتواءات الأيديولوچية التى تربط على نحو اعتباطى السلفادور بميزانية الدفاع فى ألمانيا الغربية وتربط الانتخابات بأسبانيا ببعض الفضائح الأخيرة التى حدثت فى اتحاد جنوب افريقيا.. كما ورد بالخطاب هجوم عنيف ضد قيام الصهاينة بقصف لبنان بالقنابل. كما أشار الخطاب إلى «الحل النهائى» الذى يراه الإسرائيليون بالنسبة لمواجهة الفلسطينيين وإبادتهم إبادة جماعية. وأشار الخطاب أنه ينبغى أن يكون هناك أمل مشرق فى الحياة ولكنه أشار إلى الأخطاء الموجودة فى كل مكان بالعالم.

ووفقا للافتراض بأن الخطـــابات المرسلة لماســـتاربين ربما يتم قراء تها بمعرفة السلطات فإن الخطاب أكد بشدة على الحاجة إلى ضرورة العمل فى «نطاق الحدود الشرعية والقانونية فى جميع الأوقات». إلا أنه كانت توجد حاشية أو تذييل فى الخطاب فى حدود سطر واحد مكتوب بخط سريع مثل فكرة مختصرة مؤكد عليها بشدة ومنتهية بعلامات تعجب كثيرة. تورية أو تلاعب لفظى ملئ بالتباهى والألغاز حيث كانت : الحاشية مكتوبة باللغة الفرنسية على النحو الآتى : «انتبه ! سوف اثير دهشة البرجوازيين!».

شعر المحللون بالحيرة إزاء هذه العبارة. فلماذا وضع خط تحت هذه العبارة؟ وهل كان التعليم الذى تلقته هيلجا فى حياتها محدودا للغاية بحيث يجعلها تطبق الاستخدام الألمانى على الأسماء الفرنسية؟ بدت الفكرة مدعاة للسخرية. لماذا أضيفت تلك الفاصلة فوق وإلى يسار كلمة البرجوازيين فى حرص وعناية؟ وبينما كان المحللون يكدحون لحلّ الشفرة وبينما أجهزة الكمبيوتر ترتعد وتخرج تبديلات وتعديلات، فإن راشيل هى وحدها فقط التى استطاعت أن تبحر فى اتجاه الرأى الواضح والاستنتاج السليم. فقد كانت فى أوقات فراغها تمارس هواية حل الكلمات المتقاطعة. وكانت تحلم بكسب سيارة مجانية.

ولذلك قالت بكل بساطة «إن كلمة العم فراى هى نصف واحد وكلمة برجوازى هى النصف الآخر. وبذلك يمكن القول إن تعبير «فراى بورجوازى يعنى: أهالى فرايبورج ويعنى أنهم سوف يصابون بالصدمة بسبب «عملية» ستحدث فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٤. وعندما سئلت راشيل عن معنى الغرفة رقم ٢٥١ قالت للخبراء الحيارى: حسنا، ينبغى أن نبحث ونتحرى. أليس كذلك؟

ووافقوا على رأيها. نعم ينبغى علينا أن نتحرى. وتم إطفاء أجهزة الكومبيوتر - إلا أن الشكوك ظلت باقية على مدى يوم واحد أو يومين. وكان الافتراض سخيفا. وسهلا للغاية. وكان صبيانيا على نحو واضح.

وأشار الخبراء إلى ضرورة تفحص هذا الأمر.

وكانت هناك ست مدن على الأقل تحمل اسم فرايبورج . إلا أن اهتماماتهم انصبت أولا على المدينة الصغيرة التى تقع فى سويسرا وهى الموطن الأصلى لماستاربين حيث يتم التحدث هناك باللغتين الفرنسية والألمانية وحيث البورجوازية مشهورة بتبلد الحس والبلاهة حتى بين السويسريين أنفسهم.

وبدون المزيد من التأخير أوفد كيرتز اثنين من الباحثين، وأصدر لهم الأوامر للبحث عن أى هدف يمكن تخيله من حيث إنه يجذب هجوما مناهضا لليهود مع التركيز على المنشآت التجارية التى عقدت اتفاقيات مع وزارة الدفاع الإسرائيلية.

مع عمل المراجعات ـ بدون الاستعانة بأية مساعدات حكومية ـ على كافة الغرف التى تحمل رقم ٢٥١ سواء الموجودة فى المستشفيات أو الفنادق أو المبانى التى تضم مكاتب رسمية مع عمل مراجعة على كافة أسماء المرضى المقرر إجراء جراحة الزائدة الدودية لهم فى يوم ٢٤ من الشهر أو أسماء الذين ستجرى لهم أية عمليات من أى نوع فى الساعة ١٨٠٠ من ذلك اليوم.

ومن الوكالة اليهـــودية بالقدس حصـــل كيرتز على قائمة حديثة بأسماء الشخصيات اليهودية البارزة المقيمة بالمدينة بالإضافة إلى أسماء دور العبادة والجمعيات والاتحادات التى يذهبون إليها. وهل توجد هناك مستشفى يهودية؟ واذا لم تكن هناك مستشفى يهودية فهل هناك مستشفى تلبى الاحتياجات اليهودية الأرثونوكسية؟

كان كيرتز يجادل ضد الأمور التى يقتنع بها شخصيا مثلما يفعل الجميع. ومثل هذه الأهداف كان ينقصها التأثير الدرامى الذى يميز الأهداف والمشاريع السابقة عليها.

وفى وسط هذا الخضم قام روسينو السفاح الإيطالى بالسفر بالطائرة من فينا إلى بازيل حيث استأجر دراجة بخارية. ثم عبر الحدود إلى ألمانيا. وقاد الدراجة على مدى أربعين دقيقة إلى الكاتدرائية القديمة الموجودة فى مدينة فرايبورج ـ والتى كانت ذات يوم هى عاصمة ولاية بادين، هناك تناول وجبة غذاء غالية الثمن ثم قدم نفسه لعميد الجامعة. واستفسر فى أدب جم عن مدى إتاحة الفرصة لعدد من الجماهير العامة لحضور سلسلة من المحاضرات عن الموضوعات الإنسانية التى كانت متاحة وذلك على أسس محدودة، تساءل فى مزيد من السرية عن المكان الذى به القاعة رقم ٢٥١ وفقا لتخطيط مبانى الجامعة.

كان الأمر بمثابة نقطة من الضوء وسط خضم من الضباب. كانت راشيل على حق وايضا كان كيرتز. وكان ميشا جافرون عادلا .

لكن جادى بيكار هو وحده الذى لم يشارك فى تلك الفرحة العامة.

.. ..

أين كان هو ؟

هناك أوقات بدا فيها الآخرون وكأنهم يعرفون الإجابة على نحو أفضل منه شخصيا. وذات يوم راح يمشى الهوينى فى شارع دزرائيلى ويركز نظراته على آلات الشفرة التى تقدم تقارير عن الملاحظات المتعلقة بعملية تشارلى. وفى نفس الليلة ، أو إذا توخينا الدقة أكثر فى الصباح الباكر من اليوم التالى، قام بالضغط على جرس الباب فى منزل كيرتز. مما أدى إلى استيقاظ إيللى والكلاب وطلب الحصول على تأكيدات بأنه لن يحدث ضرب الكابتن تايه أو أى شخص آخر إلى أن يتم تسريح تشارلى من العمل. كان قد سمع شائعات مفادها أن ميشا جافرون لا يتحلى أبدا بالصبر.

أما إذا عاد أى شخص من الميدان ـ مثل الشاب المعروف باسم ديمترى على سبيل المثال أو مثال زميله راؤول فإن جادى بيكار كان يصر على الوجود أثناء استجواب الشخص العائد من مهمته مع قيامه بتوجيه اسئلة دقيقة إليه فيما يتعلق بحالةتشارلى.

وبعد مرو أيام قليلة على هذا الوضع بدأ كيرتز فى التضايق من جادى بيكار، وقال عنه «إنه يطاردنى مثل ضميرى السيئ «بل وهدده صراحة بأنه سيمنعه من دخول منزله. قال كيرتز لزوجته: «من الأفضل إدخال التسلية عليه ومساعدته على تمضية الوقت».

وفى سرية تامة وبدون أن يخبر أى شخص باستثناء ايللى قام كيرتز بالاتصال تليفونيا بفرانكى وأخبرها أن زوجها السابق موجود فى المدينة وأعطاها رقم تليفونه لكى تتصل به.

قامت فرانكى بالاتصال تليفونيا على الفور، واستمع جادى بيكار لصوتها لبعض الوقت ـ اذ كان هو الذى رد عليها بالفعل، ثم وضع سماعة التليفون فى هدوء بدون أن يهتم بالرد عليها مما جعلها تشعر بالحنق والغضب الشديد.

لكن هذه المناورة أو الحيلة التى أقدم عليها اسفرت عن بعض النتائج. إذ انطلق

بيكار فى اليوم التالى فى رحلة اعتبرت فيما بعد نوعا من تقييم الذات فيما يتعلق بظروف حياته السابقة حيث استأجر سيارة وانطلق بها أولا إلى تل أبيب حيث أجرى بعض الأعمال التجارية المتسمة بالتشاؤم مع مدير البنك الخاص به. ثم زار المقبرة القديمة التى دفن فيها والده. ووضع الأزهار على قبر أبيه. وراح ينظف حول المقبرة مستخدما مسطرين كان قد استعاره رغم أنه لا هو ولا والده لديهما متسع من الوقت من أجل الدين . ومن تل أبيب اتجه نحو الشمال الشرقى إلى مدينة الخليل. ثم زار مسجد سيدنا ابراهيم الموجود فى المدينة والذى أصبح منذ حرب عام ١٩٦٧ بمثابة معبد يهودى بعد ان كان مسجدا إسلاميا راح يدردش مع الجنود المتحفظين الذين يتسكعون عند مدخل المسجد وشرفاته.

وعقب انصراف بيكار، راحوا يدردشون مع بعضهم البعض عن بيكار مستخدمين اسمه العبرى: إنه «جادى» الأسطورى - إنه الرجل الذى حارب فى الجولان خلف الخطوط السورية - ما الذى كان يفعله بحق الجحيم فى هذا المكان العربى وقد بدا عليه القلق الشديد؟

وتحت حملقتهم المليئة بالاعجاب راح بيكار يتجول بين أرجاء السوق القديم المغطى. كان غير منتبه على ما يبدو للهدوء الشديد وغير مدرك للنظرات السوداء للرازحين تحت الاحتلال، وفى بعض الأحيان - وعلى ما يبدو مع ظهور أفكار أخرى فى داخل ذهنه - كان يتوقف عن المشى ويتحدث مع صاحب دكان باللغة العربية مستفسرا عن نوعية الأحذية وأسعارها بينما يلتف الأولاد والأطفال الصغار حوله لكى يصغوا إلى كلامه، أو لكى يتجرأوا على لمس يده، ثم ألقى تحية الوداع على الناس وعاد إلى سيارته. واتجه إلى الأزقة والطرقات الضيقة التى تحشر نفسها بين أراضى العنب الأحمر الرائع إلى أن وصل تدريجيا إلى القرى العربية الواقعة فوق قمة التل وعند الجانب الشرقى من التل. وهى قرى مليئة بالمنازل المبنية بالأحجار وفوق اسطحها توجد هوائيات برج ايفيل. وثلج خفيف فوق المنحدرات العلوية . كما أعطت قطعا من السحب الداكنة الأرض توهجا قاسيا. عبر الوادى

كانت توجد مستعمرة اسرائيلية جديدة تقف مثل مبعوث قادم من كوكب ما ومقتحم للوادى.

وفى إحدى القرى خرج جادى بيكار من السيارة وراح يستنشق الهواء فى عمق، إنه المكان الذى سبق أن عاشت فيه أسرة ميشيل حتى حلول عام ١٩٦٧ عندما شوهد والده وهو يتأهب للهرب.

تساءل كيرتز فى مرارة عندما سمع عن كل ذلك : هل ذهب لزيارة المقبرة الخاصة به أيضا لقد زار أولا قبر والده والآن فهو يزور مقبرته أليس كذلك؟

وظهرت عليه الحيرة للحظات. ثم انفجر الجميع فى الضحك لدى تذكرهم الاعتقاد السائد بين المسلمين بأن يوسف بن يعقوب كان قد دفن ايضا فى الخليل وهو أمر يعتقد كل يهودى أنه غير حقيقى.

ومن الخليل اتجه بيكار بسيارته شمالا فى وادى الأردن إلى أن وصل إلى مدينة بيت شيعان وهى مدينة عربية احتلها اليهود واستوطنوها عندما تركت شاغرة خلال حرب ١٩٤٨. راح بيكار يتسكع هناك لفترة طويلة وأعجب بالمدرج الرومانى الموجود هناك. ثم انطلق بسيارته إلى مدينة تبرياس التى أصبحت منتجعا للمياه المعدنية بالمنطقة الشمالية، وصارت تضم فنادق جديدة عملاقة على الطراز الأمريكى على طول الواجهة المائية بالإضافة إلى ملهى أنيق بالشاطئ الرملى، لم يبد اهتماما كبيرا. لذا لم يتوقف بسيارته وإنما اكتفى بالقيادة فى بطء مع الحملقة من النافذة فى ناطحات السحاب كأنه يحصى عددها. ثم ظهر فى الأفق بعد ذلك عند «ميتولا» التى تقع عند الحدود الشمالية مع لبنان. شريط من الأرض المحروثة به أعماق متعددة من الأسلاك التى تحدد معالم الحدود والتى كانت تسمى فيما قبل «السور الجيد» وعند أحد الجانبين وقف المواطنون الإسرائيليون عند منصة مراقبة يحملقون فى تعبيرات مليئة بالحيرة من خلال الأسلاك الشائكة فى الأراضى البعيدة. فعلى الجانب الآخر انطلقت المليشيات المسيحية بالسيارات جيئة وذهابا من أجل الحصول على المساعدات الإسرائيلية.

كانت ميتولا فى تلك الأيام هى الحافة الطبيعية لخطوط الجواسيس ومهربى البضائع التى تمتد شمالا حتى تصل إلى بيروت، ولقد أنشأ جافرون قسما سريا هناك لتقديم المساعدات والتوجيهات لعملائه بالترانزيت. وقدم بيكار العظيم نفسه فى الفترة المبكرة من المساء. وراح يتصفح سجلات الأداء الخاصة بالقسم السرى. ووجه بعض الأسئلة العابرة عن أماكن وجود القوات التابعة للأمم المتحدة. ثم انصرف. كان يبدو على بيكار القلق والإعياء فقال قائد القسم السرى: ربما يكون بيكار مريضا. فالمرض يبدو فى عينيه وعلى بشرته.

قال كيرتز مستفسرا من قائد القسم السرى عندما علم بزيارة بيكار لهذا القسم: «ترى عما كان يبحث هذا الشيطان هناك؟». إلا أن القائد ـ وهو رجل واقعى ومتبلد ـ لم يكن بمقدوره تقديم آراء أخرى ؛ حيث اكتفى بتكرار عبارة « يبدو عليه القلق والإعياء. وهذه هى الملامح التى يبدو عليها العملاء فى بعض الأحيان عندما يجيئون عقب الانتهاء من مشوار طويل».

واستمر بيكار فى قيادة سيارته إلى أن وصل إلى طريق جبلى ملتوٍ بالأخاديد الناجمة عن جنازير الدبابات واستمر فوق الطريق إلى أن وصل إلى الكيبوتز الذى يكنّ له كل الاعزاز: عش نسر قابع فى الأعالى فوق لبنان على ثلاثة جوانب. لقد أصبح هذا المكان مسكونا باليهود لأول مرة فى عام ١٩٤٨ عندما شيدت فيه قلعة عسكرية بهدف السيطرة على الطريق الشرقى / الغربى الوحيد الموجود جنوب نهر الليطانى. وفى عام ١٩٥٢ وصل أول مستوطنين من شباب الصابرا إلى هناك كى يعيشوا حياة التقشف العلمانية التى كانت ذات يوم المثل الأعلى الصهيونى. ومنذ ذلك الحين بدأ هذا الكيبوتز يتعرض من وقت لآخر للقصف بالمدافع مما أدى إلى انخفاض فى عدد السكان. وكانت آلات الرش والتنقيط تعمل فوق المساحات الخضراء لدى وصول بيكار إلى هناك. كما كان الهواء معطرا برائحة الورود الحمراء والقرمزية والوردية. واستقبله المضيفون فى خجل وارتباك وإثارة كبيرة.

هل جئت لكى تنضم إلينا أخيرا يا جادى بيكار؟

هل انتهت أيام القتال والكفاح الخاصة بك؟ استمع إلينا، فلدينا هنا منزل فى انتظارك. ويمكنك أن تسكن وتعيش فيه.

وضحك جادى بيكار ولم يقل: نعم ولم يقل: لا. طلب منهم أن يسمحوا له بالعمل معهم لمدة يومين إلا أنهم لم يكن لديهم سوى قدر ضئيل من العمل الذى يمكن إعطاؤه له. أوضحوا له أنهم يجتازون أوقات الموسم الراكد. إذ تم جمع كل القطن والفواكه وتقليم الأشجار وحرث الحقول وتجهيزها من أجل فصل الربيع. ونظرا لإصراره اقترحوا عليه أن يقوم بتوزيع الطعام فى صالة طعام المعسكر. إلا أن ما كانوا يريدونه منه حقا هو معرفة وجهة نظره فى الطريقة التى تسير بها الأمور فى الدولة. فهو أجدر إنسان يمكنه أن يحدثهم فى هذا الشأن. كان ذلك يعنى أنهم يريدون منه أن يستمع إلى آرائهم - التى تتعلق بهذه الحكومة الصاخبة وبتفسخ وتدهور سياسات تل أبيب.

لقد جئنا إلى هنا لكى نعمل ونحارب من أجل هويتنا، ولكى نحول اليهود إلى اسرائيليين يا جادى! وهل نحن سنصبح دولة فى نهاية الأمر؟ أم سنكون بمثابة واجهة عرض فى متحف دولى خاص بالشعب اليهودى؟ ما هو مستقبلنا يا جادى؟ حدثنا فى هذا الشأن!.

كانوا يوجهون الأسئلة إليه كما لو كان نبيا جاء إليهم لكى يقدم نبوءة لحياتهم الخلوية. لم يكن بمقدورهم أن يعرفوا أنهم يتحدثون إلى الخواء الموجود فى داخل روح جادى. وما هى النتائج التى ترتبت على كلامنا المعسول الجميل بشأن رغبتنا فى التوصل إلى تفاهم واتفاق مع الشعب الفلسطينى يا جادى؟ لقد حدثت الغلطة الكبرى فى عام ١٩٦٧: كان ينبغى علينا أن نبدى روح الكرم والتسامح. وأن نعرض عليهم اتفاقية عادلة فمن هو الذى يمكن له أن يكون كريما إذا لم يكن المنتصرون كرماء يا جادى: إننا أقوياء للغاية بينما هم فى غاية الضعف.

وبعد برهة أصبحت هذه المسائل المستعصية مألوفة للغاية بالنسبة لجادى بيكار. الذى كى يحافظ على انطوائيته راح يتسكع فى جميع أرجاء المعسكر بمفرده. كان

المكان المفضل لديه هو برج مراقبة محطم يطل مباشرة على مدينة شيعية صغيرة، ويطل من الجهة الشمالية الشرقية على حصن بوفورت الصليبى الذى لا يزال فى أيدى الفلسطينيين. وشاهدوه هنالك أثناء ليلته الأخيرة معهم مبتعدا عن أى غطاء وقريبا للغاية من السور الالكترونى عند الحدود، لقد تمكن من الوصول إلى هناك بدون أن يتسبب فى إطلاق أجهزة الإنذار.

كان ذا جانب مضئ وجانب آخر مظلم وذلك بسبب الشمس الآخذة فى الغروب. وبدا من وقفته المنتصبة وكأنه يدعو حوض نهر الليطانى كله لكى يعرف أنه هناك.

وفى صباح اليوم التالى عاد جادى بيكار إلى القدس. وقدم نفسه إلى شارع دزرائيلى. وأمضى اليوم متجولا فى شوارع القدس. وراح يشاهد الأماكن التى خاض فيها الكثير من المعارك، ورأى سفك الدماء الغزيرة بما فيها دماؤه هو نفسه. وبدا عليه كأنه يتفحص كل شىء يشاهده ويوجه إليه الأسئلة: وراح يحملق فى دهشة وحيرة فى القناطر والبواكى المقوسة المحدبة الموجودة بالحى اليهودى الذى أعيد تشييده. وأجلس نفسه فى بهو الفنادق العملاقة العالية التى أصبحت تكسر خط السماء فوق القدس، وراح يفكر فى أمر المجموعات السياحية التى تضم مواطنين أمريكان من أوسكش ودلاس ودينفر جاءوا إلى اسرائيل بهدف الاتصال بتراثهم القديم وراح يحملن فى محلات الخردوات الصغيرة التى تبيع القفاطين العربية الموشاة بالأشغال اليدوية بالإضافة إلى المشغولات اليدوية العربية. وأخذ يستمع إلى الدردشة البريئة الصادرة عن السياح وراح يشم الروائح العطرية غالية الثمن المنبعثة عنهم واستمع إلى شكواهم حيث اشتكوا فى أدب من نوعية قطع اللحم البقرى الممتازة التى قدمت على الطريقة الأمريكية ومع ذلك لم يكن لها نفس المذاق التى تكون عليه فى أمريكا. وأمضى فترة ما بعد الظهر كلها فى متحف الهولوكست وراح ينظر فى قلق إلى صور الأطفال ، كانوا سيصبحون من نفس عمره لو قدر لهم البقاء على قيد الحياة.

عندما سمع كيرتز عن كل هذه الأمور التى فعلها جادى بيكار فإنه أصدر أوامره بقطع أجازة بيكار وإعادته إلى العمل. وأصدر له سلسلة من التعليمات: أحصل على كل المعلومات التى تتعلق ب فرايبورج، عليك بتمشيط المكتبات والسجلات ، أريد بيانا بالأشخاص الذين نعرفهم هناك ، احصل على الرسومات التخطيطية للجامعة، احصل على رسومات المهندسين المعماريين وخطط المدينة. وانجز لنا كل ما نحتاج إليه. ويتم كل ذلك فى موعد أقصاه الأمس .

الفصل الثالث والعشرون

كانت نهاية الخط . وكان ذلك هو أسوأ مكان فى كل مراحل حياتها . كان مكاناً ينبغى عليها .أن تنساه أثناء وجودها هناك . إنه مدرستها الداخلية اللعينة المزودة بمغتصبى الفتيات . إنه منتدى للمناظرة والنقاش فى وسط الصحراء . كان حُلْم فلسطين المنسحق المضروب بالقنابل مستلقيا على مسافة قيادة بالسيارة تقصم الظهر لمدة خمس ساعات إلى ما وراء التلال . وفى مكان الحلم كان لديهم هذه القلعة الصغيرة التى بها فتحات حجرية صفراء اللون تطلق منها النيران بالإضافة إلى وجود سلم حجرى والتى قُصف نصف جانبها بالقنابل . يوجد بالقلعة بوابة رئيسية محصنة بأكياس الرمال وسارية علم تتلاطم أحبالها مع الرياح الحارقة ولا تحمل علماً على الإطلاق . كانت تعرف أن أحداً لا ينام فى القلعة . فهى مخصصة لإنجاز أعمال الشئون الادارية والمقابلات الشخصية ومن أجل تناول الأرز ولحوم الضأن ثلاث مرات يومياً ومن أجل المناقشات الجماعية الطنانة حتى منتصف الليل . وهى المناقشات التى يلقى خلالها الألمان الشرقيون محاضرات على الألمان الغربيين ويلقى فيها الكوبيون محاضرات على كل شخص ويقوم خلالها شخص أمريكى مؤمن بالديانة الودونية ★ ويسمى نفسه عبدول بقراءة بحث يتكون من عشرين صفحة عن التوصل الفورى إلى السلام العالمى .

كان المركز الاجتماعى الآخر الخاص بهم هو الساحة التى يتدربون فيها على استخدام الأسلحة الصغيرة . وهى لم تكن بمثابة محجر غير مستخدم وإنما كانت ثكنة عسكرية قديمة سدت شبابيكها ونوافذها وزودت بخط من المصابيح

★ – الديانة الودونية : دين زنجى أفريقى الأصل منتشر بين زنوج هايتى ويرتكز أساساً على أعمال السحر والعرافة .

الكهربائية ووضعت حول حوائطها زكائب من الرمال المليئة بالثقوب التى تجعل الرمال تنساب منها . ولم تكن الأهداف التى يتم التسديد عليها علب زيت وإنما كانت تماثيل لأشخاص من جنود البحرية الأمريكية ودائماً ما كان هناك إقبال على هذا المكان . وفى الغالب يكون الإقبال فى جوف الليل حيث يضج بالضحكات المليئة بالمرح الصاخب وتأوهات الإحباطات الناجمة عن التنافس . وذات يوم جاء مقاتل عظيم فى سيارة فولفو يقودها سائق على الفور تم إخلاء المكان أثناء قيامه بالتدريب على إطلاق الرصاص . وفى يوم آخر اقتحم مجموعة من السود المتوحشين فصل تشارلى . وفتحوا أبواب مستودعات الذخائر الواحد تلو الآخر دون إعطاء أية أهمية للشاب الألمانى الشرقى المسئول عن المستودعات .

وقال أحدهم بلهجة جنوبية أفريقية عبر كتفه : أهذا يرضيك أيها الأبيض ؟

فقال الألمانى الشرقى : لو سمحت، أوه، نعم هذا أمر حسن للغاية .

وانصرفوا فى تباهٍ وخيلاء وتخلصوا من الإحراج من خلال الانفجار فى الضحكات تاركين جنود البحرية مليئين بالثقوب مثل مصفاة طهو الطعام مما جعل الفتيات يقمن فى خلال الساعة الأولى من ذلك اليوم بأعمال ترميم التماثيل من الرأس إلى القدم .

وبالنسبة لمساكن الإيواء كان لديهم ثلاثة أكواخ طويلة . فى أحدها توجد مهاجع النساء ، وفى الثانى توجد مهاجع الرجال ، وفى الثالث مكتبة مزعومة من أجل هيئة المدربين . وإذا وجهوا إليك الدعوة للدخول إلى المكتبة – وذلك وفقاً لما قالته فتاة سويدية طويلة تسمى فاطمة – فلا تتوقعين أن يكون هناك ما يسمى بالقراءة . ولكى يتم إيقاظهم فى الصباح كان يتم إذاعة الموسيقى العسكرية عبر مكبر للصوت يتعذر على أى شخص أن يغلقه. وبعد الاستيقاظ تتم تمرينات رياضية فوق أرض مسطحة رملية ملطخة بخطوط من الندى اللزج . الاَّ أن فاطمة قالت إن الأماكن الأخرى أسوأ من ذلك بكثير . وفاطمة نفسها كانت بمثابة فلتة فى التدريب فقد سبق لها أن تلقت تدريبات فى اليمن ولبنان وكييف . كان لها ابن

فى الثامنة من العمر ويسمى «كنوت» يجرى عارياً هنا وهناك وتبدو عليه مشاعر الوحدة والكآبة عندما تحدثت معه تشارلى انفجر فى البكاء .

كان الحراس المكلفون بحراستهم نوعاً من العرب الذين لم تقابل مثلهم حتى ذلك الحين كانوا يقفون عند الخطوط التى تطوق القلعة وينطلقون فى سيارات الجيب بسرعة هائلة قد تؤدى إلى كسر الرقبة وتحطيم عنق الإنسان .

قالت فاطمة : إنهم ميليشيات خاصة تم إعدادهم عند الحدود مع سوريا . وبعضهم كان صغير السن حتى أن تشارلى ساءلت نفسها فى تعجب عن كيفية وصول أقدامهم إلى دواسة السيارات الجيب . وفى الليل كان هؤلاء الصغار يجيئون فى مجموعات تضم كل منها شخصين وأحياناً ثلاثة أشخاص ويحاولون إقناع الفتيات للخروج معهم فى سيارات الجيب والانطلاق فى عمق الصحراء . لم يتوقفوا عن ذلك الاَّ بعد أن اشتكت تشارلى وفتاة أخرى يابانية . عادة ما كانت تذهب فاطمة معهم وكذلك فتاة من ألمانيا الشرقية كانتا تعودان وقد ظهرت عليهما ملامح التأثر . أما باقى الفتيات الأخريات فكن يلعبن مع المعلمين الغربيين مما كان يجعل الأولاد العرب أكثر جنوناً .

وكان جميع المدربين من الرجال ذوى الخبرة . ومن أجل تأدية صلوات الصباح كانوا يقفون فى صف أمام الطلاب الرفقاء بينما يقوم واحد منهم بتلاوة اللعنات على العدو الرئيسى : الصهيونية والاستغلال الرأسمالى الأوروبى ثم الصهيونية مرة أخرى . كان الألمان الشرقيون مقصوصى الشعر . وكانوا ملتزمين بالوقار والتظاهر بأن النساء يسببن لهم المضايقات أما الكوبيون فهم متوهجون كالسعير ومتغطرسون بالإضافة إلى شعورهم بالحنين إلى وطنهم . تنبعث الروائح الكريهة عن معظمهم . لهم أسنان مسوسة فيما عدا الجنتلمان «فيدل» الشخص المفضل لدى الجميع . كان العرب هم أكثر الناس اتساماً بسرعة الغضب . أكثرهم خشونة وفظاظة، يطلقون الرصاص عند أقدام الشاردين حتى أن أحد الأولاد الأيرلنديين عض أصبعه فى ذعر مفاجئ مما جعل عبدول الأمريكى يشعر بالتسلية الشديدة وهو يرقب المشهد من على مسافة وهو دائماً ما يفعل ذلك وغالباً

ما يتكلف الابتسام ويخوض فى الوحل وراء الناس كأنه رجل يريد أن يدون ملاحظات من أجل أن يكتب قصة عظيمة ثورية .

الاَّ أن النجم المتألق فى هذا المكان خلال تلك الأيام المجنونة الأولى كان شخصاً تشيكياً يسمى بوبى قام فى أول التدريب بإطلاق رصاصة على خوذته الحربية التى وضعها على الرمال . حيث أطلق عليها أولاً رصاصة من بندقية كلاشنكوف ثم رصاصة أخرى من مسدس ٤٥. كى يجهز على خوذته تماماً ألقى عليها قنبلة يدوية روسية الصنع على ارتفاع ٥٠ قدماً فى الهواء.

وكانت اللغة المشتركة التى تستخدم فى المناقشات السياسية هي لغة انجليزية ممزوجة ببعض الكلمات الفرنسية . وكانت المناقشات تدور حول ما يسمى بـ «فجر الثورة» . وراحت تثير بعض الضحك فى بعض الأحيان . لم تكن تشارلى تضحك على أىّ شىء . فهى لم تضحك منذ أن قام أولاد الحرام بتفجير حبيبها على الطريق المؤدى إلى ميونيخ كما أن مشاهداتها الأخيرة للكرب الذى يعيش فيه أناسه وأهلوه وشعبه قد زاد من شعورها بالمرارة ورغبتها فى الانتقام من أولاد الحرام .

كانت أعدادهم متذبذة وغير ثابتة منذ اليوم الأول . وعندما تركت شاحنتهم مدينة طيرة . كان عددهم يتألف من خمسة أولاد وثلاث بنات وكان الاتصال الجنسى ممنوعاً بينهم وفقاً لأوامر صادرة عن حارسين يركبان معهم فى الخلف بينما الشاحنة تتأرجح فوق المدق الحجرى للتل . قالت لها فتاة اتضح فيما بعد أنها من شعب الباسك* وأنهم كانوا فى اليمن وأخبرها شابان تركيان أنهما كانا فى قبرص . وعندما وصلا وجدا عشرة من الطلاب الآخرين المنتظرين ، ولكن بحلول اليوم التالى اختفى التركيان والفتاة . من المؤكد أنهم اختفوا أثناء الليل حيث كان يسمع هدير الشاحنات لدى وصولها ومغادرتها بدون أن تضئ أنوارها .

ومن أجل مراسم الافتتاح طلب منهم أن يحلفوا يمين الولاء للثورة

* – شعب الباسك : هو شعب مجهول الأصل يسكن مناطق البرانس الغربية فى كل من فرنسا وأسبانيا .

المناهضة للاستعمار . كما طلب منهم أن يدرسوا «قوانين المعسكر» التى كانت معلنة مثل الوصايا العشر فوق مساحة من حائط أبيض فى «مركز استقبال الرفاق» كانت التعليمات قد صدرت لجميع الرفاق بأن يستخدموا أسماءهم العربية فى جميع الأوقات . كما نصت التعليمات على عدم تناول المخدرات وعدم تعرية الأجساد من أجل الأغراض الصحية . كما لا ينبغى أن يكون هناك تعايش بين شخصين وخاصة بأسلوب الأزواج ولا ينبغى أن يتم القسم باسم الله . ولا ينبغى أن تعقد مناقشات خاصة . كما تنص القوانين على عدم تناول الكحوليات وعدم ممارسة الاستمناء . وبينما كانت تشارلى مازالت تفكر فى أول وصية تقوم بكسرها من بين تلك الوصايا سمعت خطاباً مسجلاً يبث من مكبر للصوت :

– أيها الرفاق . من نحن ؟ نحن الذين بلا أسماء وبلا زىّ رسمى . نحن الفئران الهاربة من الاحتلال الرأسمالى . نجىء من معسكرات لبنان التى استحوذت عليها الآلام ! لسوف نحارب الإبادة الجماعية . نحن نجىء من المقابر الخرسانية الموجودة بالمدن الغربية . ونعثر على بعضنا البعض . لسوف نشعل سوياً الشعلة نيابة عن ثمانمائة مليون يتعرضون للموت جوعاً فى جميع أرجاء العالم.

عندما انتهى التسجيل الصوتى شعرت تشارلى بعرق بارد ينساب على ظهرها . وأحست بغضب ساحق يتصاعد فى صدرها . وراحت تفكر : نحن سوف . نحن سوف . نحن سوف . وعندما ألقت نظرة خاطفة على فتاة عربية بجوارها وجدت نفس الحماس يتقد فى عينيها .

.. ..

لقد قال يوسف : ليلاً ونهاراً .. ليل/نهار لذا راحت تكافح ليلاً ونهاراً .. من أجل يوسف، ومن أجل سلامة عقلها المجنون ومن أجل فلسطين وفاطمة وسلمى ومن أجل الأطفال الذين ضربوا بالقنابل فى سجن صيدا . راحت تدفع بنفسها نحو الخارج من أجل أن تتمكن من الهرب من الفوضى الموجودة فى كيانها .

وراحت تجمع عناصر شخصيتها على نحو لم يسبق أن قامت به من قبل بهدف أن تحدث التحـــاماً بين تلك العناصر بحيث تصبح كياناً موحداً متسماً بالروح القتالية .

إننى أرملة محزونة غاضبة جئت إلى هنا لكى أواصل القتال نيابة عن حبيبى الميِّت .

أنا المقاتلة التى استيقظت من سباتها بعد أن أمضت فترات طويلة للغاية منهمكة فى أنصاف الحلول وفى الإجراءات الناقصة إنها تقف الآن أمامك وقد أمسكت بالسيف فى يدها .

لقد وضعت يدى على القلب الفلسطينى أخذت عهداً على نفسى أن أرفع العالم من أذنيه لكى أرغمه على الإصغاء والاستماع .

إننى أتقد حماساً . ولكننى ماكرة وواسعة الحيلة .

إننى الرفيقة ليلى . مواطنة مؤمنة بالثورة العالمية .

ليل نهار . ليلاً ونهاراً .

ولعبت هذا الدور إلى أقصى درجة ابتداء من التعبير بالكلام الملئ بالحيرة والغضب الذى أدت به كفاحها غير المسلح إلى الحملقة المشوهة غير الاستسلامية التى تنظر بها إلى وجهها فى المرآة لدى قيامها بتمشيط شعرها الطويل الأسود الذى تلوح جنوره الحمراء بالفعل . ومنذ البداية تقريباً تقبل الموجونون بالمعسكر ذلك التحفظ بداخلها مما جعلها تقف على مسافة ما منهم . وتلك العاطفة المتدفقة التى جلبتها على حلقات التدريب – وهى حلقات امتدت قاذفات الصواريخ الروسية التى تطلق بالأيدى إلى صناعة القنابل المزودة بدوائر حمراء وأجهزة تفجير ... ومنها إلى الكلاشينكوف المحتوم الذى لا يمكن الاستغناء عنه – لقد أحدثت تأثراً على الجميع بما فى ذلك بوبي تشارلى شديدة الحماس . الاَّ أنها كانت بمعزل عن الآخرين . وعلى نحو تدريجى أحست بإذعانهم وخضوعهم لها . فالرجال بما فيهم المليشيات السورية توقفوا عن مراودتها عن نفسها . كما توقفت النساء عن إبداء

الشكوك إزاء جمالها المذهل . وبدأ الرفاق الأكثر ضعفاً يلتفون حولها وبدأ الرفاق الأقوياء يعترفون بأنها متساوية معهم .

وكانت هناك ثلاثة أسرة فى المهجع الخاص بها فى البداية باتت معها زميلة واحدة فقط - فتاة يابانية ضئيلة الحجم كانت تقضى الكثير من أوقاتها فى الركوع والصلاة . ولكنها لم تكن تتكلم مع أى شخص من الرفاق الاّ بلغتها اليابانية . وأثناء نومها كانت تطحن أسنانها فى صوت مرتفع للغاية حتى أن تشارلى أيقظتها من نومها ذات ليلة . وجلست إلى جوارها . وأمسكت يدها أثناء انخراطها فى دموع آسيوية صامتة إلى أن بدأت الموسيقى تتجشأ بعد أن حل موعد الاستيقاظ من النوم . وبعد ذلك بفترة قصيرة اختفت دون أن يكون هناك تعليل واضح لذلك . وحل محلها أختان جزائريتان كانتا تدخنان سجائر كريهة الرائحة . وبدا عليهما أنهما تعرفان معلومات كثيرة عن البنادق والمدافع والقنابل لا تقل عن المعلومات التى يعرفها بوبى . وكانتا فتاتين تتسمان بالبساطة من وجهة نظر تشارلى . الاّ أن أساتذة التدريب كانوا ينظرون إليهما فى تبجيل واحترام شديدين بسبب قيامهما بعمل بطولى حربى فذ ضد الطغاة . وفى الفترات الصباحية كانتا تشاهدان تتجولان فى كسل لدى خروجهما من مساكن أساتذة التدريب ترتديان ملابس القفز . هكذا أصبحت تشارلى تبيت بمفردها لبعض الوقت . ورغم أن «فيدل» الجنتلمان الكوبى قد ظهر أمامها ذات ليلة وراح يتلامس معها فى رفق مثل المنشد فى الجوقة ويؤكد لها حبه الثورى لها، فإنها ظلت محتفظة بوقارها . ولم تمنحه سوى قبلة واحدة قبل أن تصرفه من عندها .

أما الشخص التالى الذى حاول التودد إلى تشارلى بعد فيدل فهو عبدول الأمريكى . إذ راح ينادى عليها فى وقت متأخر ذات ليلة . وشرع فى الطرق بخفة على بابها حتى أنها توقعت أن تشاهد إحدى الفتاتين الجزائريتين .نظراً لأن كلتيهما كانتا تنسيان المفاتيح باستمرار . وبحلول ذلك الوقت بدأت تشارلى فى الاعتقاد أن عبدول أصبح شخصاً دائماً فى المعسكر . كان وثيق الصلة للغاية بهيئة المشرفين على المعسكر . كان لديه قدر كبير من حرية التصرف . ولم تكن له

أى وظيفة سوى أن يقرأ من أوراقه الكئيبة . ويقتبس عبارات عن المناضل مرجهيللا فى لهجة جنونية . وكان فيدل معجباً بعبدول وقال إنه جندى هارب من ڤيتنام بسبب كراهيته للاستعمار إنه قد جاء هنا عن طريق هافانا .

قال عبدول : «هاى . مرحباً» وانزلق متخطياً إياها فى ابتسام قبل أن تتاح لها فرصة غلق الباب فى وجهه ومنعه من الدخول . ثم جلس على سريرها وبدأ يلف لنفسه سيجارة .

قالت تشارلى : هذا تهجم انصرف حالاً .

فقال مؤكداً : بالتأكيد سوف أنصرف لكنه استمر فى لف سيجارته . كان طويلاً وأصلع الرأس يبدو نحيلاً فى الأماكن الضيقة . يرتدى ثوباً كوبياً . له لحية حريرية بنية اللون تبدو وكأنها أصبحت متساقطة الشعر .

تساءل : ما هو اسمك الحقيقى يا ليلى ؟

– سميث .

– أحب هذا الاسم : سميث . سميث . وراح يكرر اسمها مرات عديدة فى نغمات موسيقية مختلفة . ثم تساءل : أأنت أيرلندية يا سميث ؟ سمعت أنك بمثابة ملكية خاصة للمستر تايه . إننى معجب بذوقك . فالكابتن تايه ولد نيّق وصعب الإرضـاء . وماالذى تفعلينه لكى تكسبى رزقك فى الحياة ؟ يا سميث ؟ .

فسارت تشارلى نحو الباب وجذبته لكى تفتحه . إلا أنه استمر فى الجلوس على السرير . وراح يبتسم فى ضعف من خلال دخان سيجارته .

وفى تكاسل نهض واقفاً وألقى بعقب سيجارته على الأرض بجوار سريرها . وسحق العقب بقدمه، وقال : أليس لديك كمية صغيرة من الحشيش من أجل رجل مسكين . يا سميث ؟

فقالت : اخرج من هنا على الفور . ومشى متثاقلاً نحوها . ثم توقف ورفع رأسه . وظل صامتا دون حراك . ولدهشتها أدركت أن عينيه كانتا مليئتين بالدموع. كما لاحظت نتوءات من التضرع الصبيانى حول فكه .

قال شاكياً : تايه لن يجعلنى أقفز مبتعداً عن الدوامة . إنه يخشى أن تكون بطارياتى الأيديولوچية قد تناقصت قواها وأنا أخشى ذلك أيضاً . وأنا على ما يبدو نسيت البراهين التى تثبت كيف أن كل طفل ميت هو بمثابة خطوة على طريق السلام العالمى وكشحاذ حائر أمسك بيدها اليمنى فى كلتا يديه وراح يحملق فى راحة يدها الشاغرة . ثم قال لها موضحاً اسمى آرثر ج . هالوران . وإذا ما قدر لك أن تمرى جوار أى سفارة أمريكية فى أى دولة فإننى أكون شاكراً للغاية إذا ذهبت إليهم وتركت مذكرة تقولين فيها إن آرثر هالوران، وهو مواطن سابق من بوسطن ومحارب سابق فى فيتنام يود العودة إلى وطنه ويسدد ديونه للمجتمع قبل أن يجىء أولئك المكابيون★ ويصعدوا إلى التل وينسفوا عدداً كبيراً منا .

ولم تستطع تشارلى التحرك إلاَّ بصعوبة ؛ إذ كان نعاس وخمول لا يمكن مقاومتهما قد هبطا عليها مثل المشاعر الأولى للحمى التى تنتاب جسداً جريحاً . لم تكن تريد أى شىء سوى أن تنام . مع هالوران . أن تعطيه الراحة وتستخلص الراحة لنفسها بالتالى . ولن يهمها إذا وشى بها وأبلغ عما حدث فى صباح اليوم التالى . فلتسمح له بذلك . إن كل ما كانت تدركه هو أنها لم يكن بمقدورها أن تواجه – ولو لليلة واحدة أخرى هذه الزنزانة الشاغرة الشبيهة بالجحيم .

كان مازال ممسكاً بيدها . تركته يرفرف مثل رجل يريد الانتحار ويحملق من حافة النافذة إلى أسفل نحو الشارع الذى يقع أسفله على عمق بعيد . وبعدئذ وبمجهود كبير حررت يدها . ثم دفعت جسده المتخلى عن المقاومة إلى الدهليز .

ثم جلست على سريرها . إنها نفس الليلة بكل تأكيد . إذ كان بمقدورها أن تشم رائحة سيجارته . كما شاهدت عقب سيجارته الموجود عند قدميها .

إذا كنت تريدين أن تذهبى فاذهبى . هكذا قال الكابتن تايه . ثم أشار إلى الصحراء . إن تايه رجل رياضى للغاية .

كان يوسف قد قال : شجاعتك شبيهة بالأموال ، ولسوف تنفقين وتنفقين

★ – المكابيون : أسرة معروفة فى تاريخ العبرانيين .

وذات ليلة ستبحثين فى جيوبك وتصبحين مفلسة ، وعندئذ فقط ستبدأ شجاعتك الحقيقية فى الظهور .

كما قال يوسف : لايوجد هناك سوى منطق واحد ألا وهو : أنت . ولا يمكن أن يكون هناك سوى شخص واحد متبقٍ على قيد الحياة ألا وهو: أنت، ويمكنك أن تثق فى شخص واحد هو : أنت .

وقفت عند النافذة وراحت تنظر فى قلق نحو الرمال . لم تكن قد أدركت أن الرمال يمكن أن تتصاعد عاليا إلى هذه الدرجة الكبيرة . فالرمال فى النهار تروض بمعرفة الشمس الحارقة ، وعندما يسطع القمر - مثلما هو الآن - فإن الرمال تتعاظم وتتضخم وتصبح على هيئة أشكال مخروطية حرونة جامحة تنتقل من منطقة لأخرى فى مراوغة ... حتى أنها أدركت أنها فى خلال فترة قصيرة للغاية سوف تسمع صوت الرمال تنسكب من خلال النوافذ وتخنقها أثناء نومها .

.. ..

وبدأ استجوابها فى صباح اليوم التالى . واستمر لمدة يوم واحد ونصفى ليلتين كانت عملية متسمة بالجموح ومتوقفة على من الذى يجىء عليه الدور لكى يصرخ فى وجهها على ما إذا كانوا يتحدون التزامها الثورى أو يتهمونها بالعمالة لصالح البريطانيين أو الصهاينة أو الأمريكيين . وطوال فترة الاستجواب كانت تحرم من تلقى أى نوع من أنواع التعليم . وفى خلال الفترات التى تفصل ما بين جلسات الاستجواب تصدر لها الأوامر بالبقاء فى كوخها تحت التحفظ رغم أن أحداً لم يهتم على ما يبدو عندما راحت تتجول حول المعسكر . وكانت النوبات مقسمة بين أربعة من الأولاد العرب المتقدين بالحماس والذين كانوا ينبحون بأسئلتهم المعدة مسبقاً والتى يتلونها من صفحات المذكرات المكتوبة بخط اليد . كانوا يغضبون منها عندما لا تتمكن من فهم لغتهم الانجليزية . لم يضربوها إلا أن غضبهم كان مخيفا للغاية . وفى بعض الأحيان يتبادلون الصياح فى وجهها ويتركونها وهى فى حالة من الصداع النصفى الأليم . وفى بعض الأحيان يقدمون

لها كوبا من الماء. ثم يلقون بالماء عندما تكون على وشك أن تمد يدها لكى تمسك بالكوب .

وفى مرة أخرى راحوا يهددونها بإطلاق النار عليها نظرا لاتصالاتها المعروفة بالصهاينة وملكة بريطانيا ولكنها عندما أصرت على رفضها الاعتراف بهذه الخطايا بدا عليهم وكأنهم فقدوا الاهتمام بهذا الموضوع . وبدلاً من ذلك راحوا يقصون عليها فى افتخار قصصاً عن قراهم الموجودة فى وطنهم التى لم يشاهدوها فى حياتهم على الإطلاق . وكيف أنها تضم أجمل النساء فى العالم وأجمل زيت زيتون وأحسن الخمور . وكان ذلك يحدث عندما تدرك أنها عادت إلى سلامة العقل مرة أخرى وإلى ميشيل .

.. ..

كانت هناك مروحة كهربائية فى السقف . وعلى الحوائط تتدلى ستائر رمادية تحجب الخرائط بعض الشىء . ومن خلال النافذة المفتوحة تمكنت تشارلى من سماع الهدير المكتوم المترامى الناجم عن التدريب على إلقاء القنابل فى ميدان الرماية . وكان الكابتن تايه قد أخذ الأريكة ووضع إحدى ساقيه عليها . وقد بدا وجهه الجريح شاحباً وعليلاً . وقفت تشارلى أمامه مثل فتاة شقية رديئة . نظرت بعينيها لأسفل . كان فكها مشدوداً فى إحكام بسبب مشاعر الغضب التى تجتاحها . حاولت أن تتكلم ذات مرة . إلاَّ أن تايه فوت عليها الفرصة بأن راح يبحث فى جيبه ويستخرج زجاجة ويسكى يتناول منها جرعات كبيرة . ثم راح يمسح فمه بظهر يده فى كلا الاتجاهين كأن له شارباً . بدا ملتزماً بضبط النفس.

قالت تشارلى : عبدول الأمريكانى.

– ماذا ؟

كانت تشارلى قد رتبت الأمور فى ذهنها . فأجرت البروفات مراراً وتكراراً : إن الرفيقة ليلى لديها حاسة عالية بالواجب الثورى . هذه الحاسة تتغلب على إحجامها عن الوشاية بجندى زميل . كانت تحفظ الجمل والعبارات عن ظهر قلب .

ولكى تنطق بهذه العبارات أبقت على الإشاحة بوجهها بعيداً عنه . وتحدثت فى صوت ملىء بالغضب الرجولى .

– إن اسمه آرثر ج. هالوران . إنه شخص خائن ؛ إذ طلب منى عندما أغادر المعسكر أن أقوم بابلاغ الأمريكيين، بأنه يرغب فى العودة إلى وطنه أمريكا، وأنه على استعداد لمواجهة المحاكمة التى ستعقد لمحاكمته . لقد اعترف لى بكل صراحة بأن لديه معتقدات مناهضة للثورة . وهو بذلك باستطاعته أن يخوننا جميعاً .

تركزت حملقة تايه بصفة دائمة على وجهها . ورفع عصاه، وأمسكها بكلتا يديه، وراح يطرق بها بخفة على ساقه العاجزة كأنه يريد للدماء أن تستمر فى التدفق إليها .

– أهذا هو السبب فى أنك طلبت مقابلتى ؟

– نعم

قال وهو يشيح بوجهه بعيداً عنها : لقد جاء هالوران إليك منذ ثلاث ليالٍ . فلماذا لم تخبرينى بذلك فى وقت مبكر ؟ لماذا انتظرت لمدة ثلاثة أيام؟

– أنت لم تكن موجوداً هنا . كان هناك آخرون موجودون . ولماذا لم تسألى عنى؟

– كنت أخشى أن تقوم بمعاقبتى .

ولكن تايه لم يبد عليه أنه يعتقد أن هالوران كان مطلوباً من أجل محاكمته فى بلاده . راح تايه يكرر كلمة «خائفة» كان ذلك بمثابة اعتراف خطير من جانب تشارلى . «خائفة» ؟ . لماذا ينبغى عليك أن تكونى خائفة على هالوران ؟ وتظلين صامتة على مدى ثلاثة أيام كاملة ؟ هل تتعاطفين فى السر مع موقفه ؟

– أنت تعرف أننى لا أتعاطف مع موقفه .

– أهذا هو السبب فى أنه تحدث معك فى صراحة شديدة للغاية ؟ لأنك قدمت له من الأسباب ما يجعله يثق فيك ؟ أظن ذلك .

- لا .

- هل اضطجعت معه ؟

- لا .

- إذن لماذا كنت ترغبين فى حماية هالوران ؟ لماذا تخافين على حياة إنسان خائن بينما أنت تتعلمين كيف تقتلين من أجل الثورة ؟ ولماذا أنت غير صادقة معنا ؟ لقد خيبت ظنى فيك

- إننى إنسانة قليلة الخبرة . وكنت أشعر بالأسف من أجله . وكنت لا أرغب فى أن أتسبب فى إلحاق الأضرار به . وبعدئذ تذكرت الواجب الملقى على كاهلى .

وبدا على الكابتن تايه أنه تعرض للمزيد من الارتباك الناجم عن كل ذلك الحوار . فأخذ جرعة أخرى كبيرة من زجاجة الويسكى .

- إجلسى .

- لست بحاجة للجلوس .

- قلت لك اجلسى

فاضطرت للجلوس تنفيذاً لأوامره . واستطرد تايه قائلاً :

- فى إحدى الرسائل التى كتبتها لميشيل تحدثت عن طفل . فهل أنت قد أنجبت منه طفلاً ؟

- كنت أتحدث عن البندقية . لقد استغرقنا فى النوم سوياً مع البندقية .

- ما نوع هذه البندقية ؟

- أ . وولثار . وهى البندقية التى أعطاها خليل له .

فتنهد الكابتن تايه . وأشاح برأسه بعيداً عنها قائلاً :

لو أنكِ مكانى واستلزم الأمر منك أن تتصرفى إزاء هالوران - الذى يطلب الذهاب إلى وطنه، ولكنه يعرف الكثير من المعلومات المهمة عنّا - فما الذى ستفعلينه معه ؟

– أقوم بتحييده .

– هل تطلقين الرصاص عليه ؟

– هذا الأمر يرجع إليك . وهذا هو شغل خاص بك

فقال : نعم . الأمر كذلك .

ولكن لماذا أنفذ حكم الإعدام فى رجل يعتبر ميتاً بالفعل ؟ لماذا لا أدعه يعمل لصالحنا ؟

– لأنه إنسان خائن .

ومرة أخرى بدا على الكابتن تايه كأنه يتعمد أن يسيء فهم المنطق الخاص بموقفها .

إن هالوران يحاول التقرب من أناس كثيرين فى هذا المعسكر . ودائماً ما يكون لديه الأسباب التى تدعوه لذلك . إنه نسرنا المتوحش . الذى يبين لنا مواطن الضعف . وهو الذى ينبهنا إلى الأشخاص الذين يمكنهم أن يصبحوا خونة بين صفوفنا . فهل تعتقدين أننا يمكن أن نكون أغبياء بحيث نتخلص من مثل هذا المخلوق المفيد لنا ؟ هل مارست الجنس مع فيدل ؟

– لا .

– هل ضاجعت الأولاد العرب .

– لا .

– أنت إنسانة صعبة الإرضاء للغاية على ما أعتقد .

– لم أكن صعبة الإرضاء مع ميشيل .

تنهد الكابتن تايه فى ارتباك . وأخذ جـرعة ثالثة من زجاجة الويسكى . ثم تسـاء ل فى لهجة متسـمة بالتذمر : من يكون يوسـف هذا ؟ . من يكـون لو سمحت ؟

هل أصبحت روح الممثلة فى داخل كيانها ميتة فى نهاية الأمر ؟ أم أنها كانت متوافقة للغاية مع مسرح الحياة حتى أن الفارق ما بين الحياة والفن قد اختفى تماماً ؟

لم يخطر على ذهنها أىّ دور من الأدوار المسرحية التى سبق أن تدربت عليها ولم تقم باختيار الدور المناسب الذى تؤديه . ولم تفكر فى الركوع على قدميها والاستلقاء فى صمت دون حراك على الأرضية . لم تشعر بالرغبة فى الدخول فى اعتراف متسم بالاندفاع بحيث تنقذ حياتها فى مقابل الإدلاء بكافة المعلومات التى تعرفها ، لقد قيل لها هذا كاختيار وحيد مسموح به . شعرت بالغضب والغثيان بسبب تعريض أمانتها للتفحص من وقت لآخر فى كل مرحلة مهمة من مراحل مسيرتها نحو ثورة ميشيل . لذلك انفجرت فى الهجوم عليه فى اهتياج يخلو من التفكير السليم .

– أنا لا أعرف شخصاً يسمى يوسف .

– هدئى من روعك . وفكرى فى هدوء . فى جزيرة ميكونوص وقبل أن تذهبي إلى أثينا . قال أحد أصدقائك أثناء حديثه بطريقة عابرة مع شخص تابع لك كـــلاماً عن رجل يسمى يوسف وإنه انضم إلى مجموعتكم وقال إنك كنت مفتونة به .

لم تكن هناك حواجز متبقية فقد أزالت كل الحواجز وأصبحت متحررة .

«يوسف ؟ آه . ذلك الرجل الذى يسمى يوسف !» ثم جعلت وجهها يكفهر فى اشمئزاز لدى تذكرها فى وقت متأخر عن المعتاد .

وأضافت : لقد تذكرته . كان شاباً يهودياً زيتى الملمس . ظل على مقربة من مجموعتنا .

– لا تتحدثى عن اليهود على هذا النحو . فنحن لسنا ضد السامية . انما نحن فقط ضد الصهاينة .

فقالت فى حدة : قل كلاماً آخر . فهذا الكلام لا ينطلى علىّ .

قال الكابتن تايه : إذن فأنت تعتبرينني كذاباً يا تشارلى ؟

– سواء أكان هو صهيونياً أم لا فإنه إنسان بغيض وتافه . وهو إنسان يذكرنى بوالدى .

– أكان والدك يهودياً ؟

– لا والدى كان لصاً .

وراح الكابتن تايه يفكر فى هذا الأمر لفترة طويلة مستخدماً وجهها أولاً، ثم جسدها كمصدر لأية شكوك قد تكون مازالت تحوم فى داخل ذهنه . وعرض عليها سيجارة . لكنها لم تأخذها : انبأتها غريزتها أنه ينبغى عليها ألاَّ تتخذ أية خطوة نحوه .

راح يطرق بعصاه مرة أخرى على قدمه الميتة . ثم قال :

– هل تذكرين الليلة التى أمضيتها مع ميشيل فى تسالونيكا – فى الفندق القديم ؟

– ماذا عن تلك الليلة ؟

– لقد سمع موظفو الفندق أصواتاً عالية منبعثة من غرفتك في وقت متأخر من تلك الليلة .

– إذن . ما هو سؤالك ؟

– لا تستعجلينى من فضلك . من الذى كان يصيح فى تلك الليلة ؟

– لا أحد . كانوا يسترقون السمع عند الباب الآخر .

– من الذى كان يصيح ؟

– لم نكن نصيح . لم يكن ميشيل يريدنى أن أذهب . ذلك هو كل ما فى الأمر . كان خائفاً علىَّ .

– وأنت ؟

إنها قصة كانت قد نسجتها مع يوسف : لحظة كونها أكثر قوة من ميشيل.

قالت : لقد أعدت له السوار الخاص به .

فئوماً الكابتن تايه برأسه وقال : وهذا يفسر ويعلل الحاشية الواردة فى خطابك : «أنا مسرورة للغاية لاحتفاظى بالسوار» وبالطبع لم يكن هناك صياح . أنت على حق . اغفرى لى هذه الغلطة العربية الصغيرة التى وقعت فيها .

ألقى عليها نظرة فاحصة محاولاً مرة أخرى أن يحل اللغز . ثم زم شفتيه كالجندى ومثلما كان يفعل يوسف في بعض الأحيان كمقدمة تمهيدية للتهيؤ لإصدار قرار .

– لدينا مأمورية من أجلك . اذهبى واحضرى حاجياتك وعودى إلى هنا على الفور . فتدريبك أصبح مستكملاً .

كانت المغادرة هى أكثر الأمور غير المتوقعة . لقد كانت أسوأ من الطرد من المدرسة، وأسوأ من التخلص من الشلة عند ميناء بيروس . وضمها فيدل ويوبى إلى صدريهما بينما دموعهما تختلط بدموعها . قامت إحدى الفتاتين الجزائريتين بإعطائها قلادة خشبية صغيرة تعبر عن السيد المسيح عندما كان طفلاً .

.. ..

كان البرفيسور مينكيل يعيش فوق الربوة التى تربط بين جبل سكوبوس والتل الفرنسى فى الطابق الثامن بناطحة سحاب جديدة قريبة من الجامعة العبرية . أنها واحدة من سلسلة ناطحات السحاب التى تكسر خط السماء التى سببت الكثير من الآلام للمنادين بضرورة صيانة الموارد الطبيعية فى القدس وكانت كل شقة تطلّ من علٍ على مدينة القدس القديمة . ولكن هناك مشكلة أن القدس القديمة تطل لأعلى نحو كل شقة أيضاً . وناطحة السحاب هذه مثل بقية ناطحات السحاب الأخرى كانت بمثابة قلعة . حيث تم تصميم مواقع نوافذها بحيث تسمح بأن ينطلق منها أكبر قدر من النيران بهدف الرد الانتقامى على أى هجوم .

وقام كيرتز بثلاث محاولات خاطئة قبل أن يتمكن من العثور على المكان الذى يريد الوصول إليه . إذ وصل بطريق الخطأ أولاً إلى سوق تجارى مشيد بالخرسانة المسلحة على عمق خمسة أقدام من سطح الأرض . ثم وصل بطريق الخطأ إلى مقبرة بريطانية لضحايا الحرب العالمية الأولى عليها لافتة منحوتة مكتوب عليها عبارة : «هدية مجانية من الشعب الفلسطينى» .

وشاهد بنايات أخرى معظمها هى منحة مجانية من مليونيرات يعيشون فى أمريكا . وصل كيرتز أخيراً إلى ناطحة السحاب المشيدة من الأحجار . كانت لافتات الأسماء قد تعرضت للتخريب . لذلك اضطر لأن يضغط على جرس بطريقة عشوائية . فخرج شخص بولندى عجوز لا يعرف سوى اللغة اليديشية . وكان ذلك البولندى يعرف مكان المبنى الذى يبحث عنه كيرتز . قال إنه يعرف الدكتور مينكيل شخصياً . إنه معجب بمواقفه وآرائه ، وأشار إلى أنه هو نفسه تلقى دراساته فى جامعة كراكو التى تحظى بكل تبجيل واحترام . إلاَّ أن لديه أيضاً الكثير من الأسئلة التى تهمه شخصياً . اضطر كيرتز إلى الردّ على أسئلته بقدر ما يستطيع: ما هو الموطن الأصلى الذى جاء منه كيرتز ؟ حسناً يا إلهى . هل يعرف كيرتز فلان الفلانى ؟ وما هى المهمة التى يسعى إليها كيرتز هنا فى الساعة الحادية عشرة صباحاً بينما الدكتور مينكيل يقوم بإعطاء محاضرات لطلبة الفلسفة ؟

كان عمال المصاعد الكهربائية مضربين عن العمل . لذلك اضطر كيرتز إلى الصعود على السلالم . لم يكن بمقدور أىّ شىء أن يضعف من معنوياته العالية . وذلك لأسباب عديدة منها أن ابنة أخيه كانت قد أعلنت توا خطبتها على شاب يعمل تحت رئاسته . ومنها أن المؤتمر الانجيلى الخاص بزوجته ايللى مرَّ بسلام وسعادة بعد أن قدمت حفلة القهوة فى نهاية المؤتمر، وبعد أن حضر كيرتز بنفسه هذه الحفلة مما جعلها تشعر بالامتنان والرضا. إلاَّ أن أهم الأسباب هى أن اختراق فرايبورج تمت متابعته من خلال العديد من المؤشرات المؤكدة ومن بينها المؤشر الذى حصل عليه بالأمس فقط أحد المتنصتين التابعين لليتفاك لدى قيامه باختبار ميكروفون توجيهى جديد فوق سطح أحد المنازل فى بيروت : فرايبورج .

فرايبورج ثلاث مرات فى خمس صفحات مما أعطى متعة حقيقية . راح كيرتز يفكر فى تأمل أثناء صعوده على السلالم : فى بعض الأحيان يلعب الحظ دوره بتلك الطريقة . فالحظ هو الذى خلق الجنرالات العظام وهو أمر قد عرفه نابليون جيداً وكل شخص موجود فى اسرائيل .

بعد أن وصل كيرتز إلى إحدى درجات السلم توقف لكى يلتقط أنفاسه كان بئر السلم مضاء على نحو شبيه بالمخبأ الخاص بالغارات الجوية حيث هناك أقفاص سلكية حول اللمبات الكهربائية .

وكان باب الشقة به عين سحرية لها لوحة من الصلب، وبه أقفال على طول أحد جوانبه . وقامت مدام مينكيل بفك الأقفال الواحد تلو الآخر مثل شخص يقوم بفك أزرار حذائه . هى تقول : «انتظر لحظة من فضلك» بينما هي تنزل وتهبط لأسفل وأسفل أثناء فك الأقفال . واتخذ كيرتز خطوة إلى الداخل وانتظر لحين قيامها بإعادة الأقفال إلى مكانها فى صبر وجلد . كانت امرأة جميلة وطويلة . ولها عينان زرقاوان لامعتان . وشعر رمادى طويل مثبت أسفل ظهرها فى عجيزة أكاديمية .

قالت لكيرتز وهى تمد يدها كى تصافحه :

– أنت السيد سبيلبرج من وزارة الداخلية هانسى فى انتظارك مرحباً بك.

فتحت باب مكتبة صغيرة . وكان زوجها هانسى جالساً . متوعك الصحة وأرستقراطياً . كان مكتبه صغيراً للغاية بالنسبة لحجم جسده . لقد ظل مكتبه على ذلك النحو على مدى سنوات عديدة . وكان مكتبه منحرفاً قليلاً داخل نافذة تشبه المشربية . وكان بها مقعد خشبى مشيد فى داخلها . وشق مينكيل طريقه فى وقار عبر الغرفة . وقد امتزج ترحيبه بالقلق والتوجس. عندما أجلسا نفسيهما داخل المشربية جذبت زوجة مينكيل كرسيا وأجلست نفسها فى ثبات عليه بينهما كأنها حريصة على مشاهدة مباراة نظيفة .

أعقب ذلك صمت متسم بالقلق والتوتر . ابتسم كيرتز ابتسامة مليئة

بالاعتذار وقال : «يا سيدة مينيكيل . هناك مسألتان سريتان تتعلقان بعملى فى وزارة الداخلية أود مناقشتهما على انفراد مع زوجك فى بادئ الأمر» . ثم انتظر للحظات وهو لا يزال يبتسم إلى أن اقترح البرفيسور على زوجته أن تقوم باعداد القهوة . على أىّ نحو تريد قهوتك يا سيد سبيلبرج ؟ مضبوط ؟ سادة ؟

فرمقت السيدة مينكيل زوجها بنظرة تحذير وانسحبت على الرغم منها . وفى الواقع كانت هناك فوارق بسيطة بين عمرى الرجلين ، ولكن كيرتز كان حريصاً علي الحديث فى وضوح للتعبير عن رأيه فى صراحة مع مينكيل حسبما اعتاد . ابتدأ كيرتز كلامه فى احترام :

– يا بروفيسور . أدرك أن صديقتنا المشتركة روثى زادير تحدثت معك بالأمس فقط . كان يدرك ذلك جيداً لأنه راقب روثى فى انتباه شديد أثناء حديثها التليفونى مع مينكيل وأصغى جيداً إلى الحوار الذى دار بين الجانبين بهدف أن يسبر أغوار مينكيل .

قال مينكيل فى شىء من التحسر على فقدانه لروثى : كانت روثّى من أفضل الطالبات لدىّ .

قال كيرتز : وهى الآن بكل تاكيد واحدة من أفضل الموظفات لدينا أيضاً . هل تعرف طبيعة العمل الذى تقوم به روثى حالياً ؟

لم يكن مينكيل معتاداً على الإجابة على أية أسئلة تخرج عن نطاق تخصصه . راح يفكر بعض الشىء قبل أن يجيب ثم قال فى ارتباك : أشعر أنه ينبغى علىّ أن أقول أى شىء .

فابتسم كيرتز فى شىء من الود والصداقة . وأضاف البروفيسور :

– إذا كانت زيارتك لى هنا تتعلق بالميول والنزعات السياسية الخاصة بطلبة حاليين أو سابقين ممن تلقوا التعليم تحت إشرافى ومسئوليتى فإننى أحب أن أخبرك أننى آسف لأننى لن أستطيع أن أتعاون معك . اذ لا توجد هناك معايير

يمكننى أن أقبلها على أنها معايير شرعية وقانونية . لقد سبق لنا الدخول فى هذه المناقشة من قبل . أنا آسف .

بدا عليه وكأنه يشعر بالارتباك الناجم عن معتقداته وعن لغته العربية. واستطرد قائلاً : أنا أناضل وأكافح من أجل شىء ما هنا ينبغى علينا أن نتحدث بصراحة وبدون خوف . لكن الأهم هو الاتساق بين الفكر والعمل . وذلك هو ما أناضل من أجله .

لقد سبق لكيرتز أن قرأ الملف الخاص بمينكيل . ولذلك كان يعرف جيداً الأمور التي يناضل من أجلها مينكيل . فهو تلميذ سابق لمارتين بوبار كما كان عضواً فى جماعة مثالية تبنت فى خلال الفترة من عام١٩٦٧ حتى عام١٩٧٣ فكرة عقد سلام حقيقى دائم مع الفلسطينيين . فاتهمه اليمينيون واليساريون بالخيانة . كان بمثابة الإنسان الحكيم أو الحجة والمرجع فيما يتعلق بالفلسفة اليهودية وفيما يتعلق بالمسيحية المبكرة الأولى والاتجاهات الإنسانية وذلك أثناء وجوده فى وطنه الأصلى ألمانيا . كان حجة فى حوالى ثلاثين من الموضوعات المهمة فقد ألف كتاباً ضخماً من ثلاثة مجلدات عن الصهيونية كنظرية وتطبيق عملى . وكان لهذا الكتاب فهرس طويل شبيه بدليل التليفونات .

قال كيرتز : يا بروفيسور . أعرف موقفك جيداً إزاء هذه الموضوعات والأمور، لا أهدف بالتأكيد إلى التدخل بأى حال من الأحوال فى موقفك الأخلاقى ازاء تلك الأمور . ثم توقف عن الكلام لكى تستقر تلك العبارة فى ذهن البرفيسور . واستطرد على فكرة : هل يمكننى أن أقول إن المحاضرة التى سوف تلقيها فى جامعة فرايبورج ستتناول أيضاً مسألة الحقوق الفردية ؟ وتتناول الحريات الأساسية الخاصة بالعرب ؟ أليس ذلك هو الموضوع الذى ستتناوله فى الرابع والعشرين ؟

قال البروفيسور : فى يوم ٢٤ سوف أتناول موضوعاً آخر مختلفاً . موضوعا يتعلق بتحقيق الذات لليهودية وأن تحقيق الذات لليهودية لا يتم من خلال

الغزو، وإنما من خلال تقديم أمثلة ونماذج من الثقافة اليهودية والمبادئ الأخلاقية اليهودية .

تســـاء ل كيرتز فى رقة وهــدوء : إذن كيف سيتم ذلك الجدل على وجه الدقة ؟

عادت زوجة مينكيل ومعها صينية بها كعك مصنوع فى المنزل . فتساءلت : هل يطلب منك أن تقوم بالإبلاغ عن الناس مرة أخرى ؟ إذا طلب منك ذلك ارفض: لا قل له : «لا» مرات عديدة إلى أن يسمعك تماماً .

وما الذى ســيفعله على ما تظن ؟ هل سيقوم بضربك بعصا من المطاط ؟

قال كيرتز بدون أن يتعرض للقلق :

– يا سيدة مينكيل . أنا لا أطلب من زوجك أىّ شىء من هذا القبيل .

فانسحبت مدام مينكيل مرة أخرى وقد بدا عليها أنها لا تصدق كلام كيرتز.

قال البروفيسور مينكيل فى وقار : لسوف أقول لك يا سيد سبيلبرج الكيفية التى تسير عليها المناقشات على وجه الدقة طالما أننا لدينا دولة صغيرة فيمكن لنا أن نتقدم ونشق طريقنا بأسلوب ديموقراطى من حيث نحن يهود نحو تحقيق ذاتنا . ولكن فى حالة حصولنا على دولة كبيرة المساحة تضم أعداداً كبيرة من السكان العرب فعلينا عندئذ أن نختار على هذا الجانب توجد ديمقراطية بدون تحقيق الذات . وعلى ذلك الجانب يوجد تحقيق الذات بدون ديمقراطية .

تساءل كيرتز : إذن فما هو الحل يا بروفيسور ؟

طارت يدا مينكيل فى الهواء فى حركة متسمة بالتململ الذى يعانى منه الأكاديميون . وبدا عليه وكأنه قد نسى أن كيرتز ليس أحد تلاميذه :

– الحل بسيط للغاية ! هو أن نخرج من قطاع غزة والضفة الغربية قبل أن نفقد قيمنا ! فهل هناك أىّ حلّ آخر ؟

«وما هى ردود فعل الفلسطينيين إزاء هذا الاقتراح يا بروفيسور ؟

ظهر الحزن والاكتئاب على وجه البروفيسور بعد أن كان وجهه مليئاً بالثقة بالنفس والشجاعة . ثم قال : يقولون عنى إننى كلبىّ ★ .

– أهم يقولون ذلك ؟

– يقولون عنى إننى أريد كلا من الدولة اليهودية والتعاطف العالمى، ولذلك، فأنا من وجهة نظرهم أعتبر إنساناً مخرباً وهادماً لقضيتهم .

فتح الباب مرة أخرى ودخلت السيدة مينكيل ومعها إناء القهوة والفناجين . استطرد البروفيسور قائلاً فى يأس : ولكننى لست إنساناً هداماً ومخرباً .

قالت السيدة مينكيل فى حدة : مخرباً ؟ أنت تصف زوجى هانسى بأنه مخرب ؟ لأننا نتكلم فى صراحة وبقلب مفتوح عما يحدث فى هذه الدولة؟

لم يكن بمقدور كيرتز أن يوقفها عن الكلام كان قد حاول أن يفعل ذلك لكنه لم يبذل أيّة محاولة لكى يوقفها . حيث كان يرغب فى أن يدعها تنفث عن كل ما يدور فى صدرها .

استطردت زوجة مينكيل : ألا توجد أعمال الضرب والتعذيب فى هضبة الجولان . ألا تتم معاملة الفلسطينيين فى الضفة الغربية على نحو أسوأ مما كان تفعله فرق الصاعقة النازية فى اليهود ؟ ألا يتم تعذيب الناس فى لبنان وقطاع غزة؟ بل وهنا فى القدس ألا يتم صفع وجلد الأطفال العرب لا لشىء إلاً لأنهم عرب؟ أنا وزوجى ينبغى أن نكون مخربين لأننا نتكلم فى جرأة عن الظلم والطغيان ونقول إن اليهود القادمين من ألمانيا يقومون بأعمال تخريبية فى داخل اسرائيل ؟

كان من الواضح أن السيدة مينكيل قد اعتادت إحراز النجاح فى مناقشاتها . أضافت قائلة : لم يكن بمقدورنا إيقاف النازيين . والآن نحن لا نستطيع إيقاف أنفسنا . لقد حصلنا على دولة لنا . فما الذى نفعله الآن ؟ ها نحن

★ – الكلبى : هو الانسان الذى يؤمن بأن السلوك الفردى تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها

بعد مرور أربعين عاماً نشير فى تلفيق إلى قبيلة مفقودة جديدة . إنها بلاهة وحماقة بالغة ! نحن إذا لم نقل ذلك فالعالم سيقوله . بل ان العالم يقوله بالفعل . هل قرأت الصحف يا سيد سبيلبرج ! وتلك الفتاة التى تسمى روثى إنها فتاة شديدة الذكاء درست لمدة ثلاث سنوات على أيدى هانسى هنا . فما الذى تفعله هى الآن ؟ لقد التحقت بالجهاز .

كان كيرتز قد رفع يده قليلاً ليحجب وجهه عنها، وعندما أنزل يده اتضح أنه كان يبتسم . لم تكن ابتسامة سخرية أو غضب وإنما كانت مليئة بالافتخار الذى يشعر به رجل محب لذلك التنوع المذهل فى الآراء التي يؤمن بها شعبه . بدأ كيرتز يقول لها : «لو سمحت» . وراح زوجها يناشد إلاَّ أنها كانت لا تزال لديها الكثير للغاية من الكلام الذى تريد أن تقوله .

ثم توقفت عن الكلام . عندئذ طلب منها كيرتز أن تتفضل بالجلوس لكى تصغى إلى الموضوع الذى جاء ليتحدث عنه . لذلك جلست على الكرسى مرة أخرى وانتظرت لكى يتم استرضاؤها .

انتقى كيرتز كلماته فى حرص وحذر وفى روح من الود . أشار أنه جاء لكى يتحدث فى موضوع يعتبر من الأمور البالغة السرية . وأوضح أن روثى لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع رغم أنها تتناول فى عملها الكثير من الأسرار فى كل يوم . وهو كلام لم يكن صادقاً ولكن لا داعى للاهتمام بذلك. أشار أنه جاء فقط من أجل المحاضرة القادمة التى سيلقيها البروفيسور فى فرايبورج، والتى أثارت انتباه عناصر بالغة السلبية . ثم أفزع من جوفه الحقيقة الكاملة : – ها هى الحقيقة الحزينة المؤلمة «لو أن بعض الفلسطينيين الذين ظللتما تدافعان فى شجاعة عن حقوقهم تمكنوا من تنفيذ ما يريدون فإنك لن تتمكن على الإطلاق من القاء محاضرتك فى يوم ٢٤ من هذا الشهر الحالى فى فرايبورج. بل لن تتمكن إلى الأبد من إلقاء أىّ محاضرة أخرى»

توقف عن الكلام ولكن مستمعيه لم يظهرا أية دلائل تشير إلى رغبتهما فى

مقاطعته فى كلامه . فأضاف قائلاً : فطبقاً للمعلومات المتوافرة لدينا حالياً اتضح أن بعض المجموعات الأكاديمية المنخفضة المستوى اختاروك على أساس أنك إنسان معتدل وقادر على إضافة الماء إلى الخمور النقية الخاصة بقضيتهم . وأنك تناصر الحل البنتوستانى بالنسبة للفلسطينيين وأنك تقود ضعاف العقول نحو الموافقة على تنازل آخر مميت لصالح الحذاء العسكرى الثقيل الصهيونى .

قال البروفيسور فى حدة : – إنها نفس الأوصاف التى ألحقوها بى والتى ظهرت فى الصحافة الفلسطينية عقب المحاضرة التى ألقيتها فى بير شيفا (بئر سبع) .

قال كيرتز : يا بروفيسور . لقد حصلنا على هذه الأوصاف التى ألحقوها بك من الصحافة الفلسطينية .

الفصل الرابع والعشرون

كانت تشارلى بصدد الهبوط بالطائرة فى مطار زيوريخ فى وقت مبكر من الليل . وكانت الأنوار الساطعة تسطع على جانبى الممر وتتوهج أمامها مثل الممر الخاص بحياتها وهدفها . أصبح ذهنها بمثابة تجميع يضم كافة الإحباطات القديمة الخاصة بها والتى نضجت وراحت تهاجم العالم المليء بالفساد . لقد بدأت تدرك الآن أنه لم يعد يوجد بالعالم أىّ قدْر ضئيل من الخير . وبدأت تشاهد الكرب العظيم الذى أصبح ثمن الغنى والثراء الفاحش الغربى . وكانت دائما على نفس النحو : إنسانة منبوذة تموج بالغضب وتنزع إلى العناد مع وجود فارق ، وهو أن الكلاشنكوف حلّ محلّ نوبات غضبها عديمة الجدوى . وكانت الأنوار الباهرة تنطلق بسرعة بجوار نافذتها مثل حطام سفينة مشتعلة تتقاذفها الأمواج فى اتجاه الشاطىء . لمست عجلات الطائرة الأرض .

كان لا يزال عليها أن ترسو وتنزل إلى الأرض من الناحية النظرية . كان الكابتن تايه قد أخبرها لدى إعطائها تعليماته المختصرة فى بيروت : الفتيات اللائى يسافرن بمفردهن قادمات من الشرق الأوسط يكن فى موضع شك . ولذلك فإن أول مهمة نقوم بها هى أن نعطيك مصدرا أكثر احتراما . فقد جاء ت فاطمة وقالت : لقد أصدر خليل أوامره بأن تكتسبى هوية جديدة عندما تصلين .

وبعد أن دخلت تشارلى صالة الترانزيت الشاغرة هبط عليها إحساس أنها أول من تضع قدميها هناك . وانبعثت الموسيقى فى أرجاء الصالة إلا أنه لم يكن هناك أحد لكى يستمع إليها . كان هناك دكان أنيق صغير يبيع الجبنة والشيكولاته . إلا أنه كان خاليا من الزبائن ثم ذهبت إلى دورة المياه . وراحت

تتأمل فى شكلها ومظهرها على مَهل . قُص شعرُها ليكون قصيرا وصُبغ بلون بنّى غير واضح . كان الكابتن تايه قد راح يعرج فى أرجاء شقة بيروت بينما راحت فاطمة تقص لها شعرها لقد أصدر تايه أوامره : ممنوع المكياج والزينة . وممنوع الجاذبية الجنسية . كانت تشارلى ترتدى بدلة بنية ثقيلة وتضع على عينيها نظارة لكى تنظر فى تقطيب وعبوس . قالت لنفسها كل ما أريده هو سترة فضفاضة مزودة بشعار فى أعلاها . لقد جاء ت على طول مسافة بعيدة . كانت فاطمة قد قالت وهى تقبلها مودعة : ابلغى تحياتى وحبّى لخليل .

كانت راشيل تقف إلى جوارها عند حوض غسيل الأيدى إلاَّ أن تشارلى نظرت من خلالها إلى الأمام . لم تكن تحبها ولم تكن تعرفها . وكان من قبيل المصادفات البحتة أن تشارلى قد وضعت حقيبة يدها المفتوحة بينهما في حين كانت علبة سجائرها موجودة فى القمة تنفيذاً للتعليمات التى أصدرها يوسف إليها . ولم تشاهد يد راشيل وهى تأخذ علبة السجائر وتضع مكانها علبة أخــرى لم تشاهد راشيل وهى تغمز لها بعينها بسرعة فى المرآة .

ليس لدىّ حياة سوى هذه الحياة . وليس لدىّ حب سوى حبّ ميشيل وليس لدىّ ولاء سوى ولائى لخليل العظيم .

كان الكابتن تايه قد أصدر لها أوامره قائلاً : اجلسى فى مكان قريب للغاية من منصة المغادرة بقدر ما تستطيعين . هاهى تفعل ذلك . استخرجت من صندوقها كتابا عن نباتات جبال الألب . وكانت ترتدى بادجا مستديرا مكتوبا عليه : «انقذوا الحوت» . وتلك كانت العلامة الأخرى وفقا لما قاله الكابتن تايه لأنه ابتداء من الآن فصاعداً يريد خليل أن يكون هناك دائما شيئان من كل شىء : خطتان وعلامتان وأسلوب ثانٍ احتياطى بالنسبة لكل شىء بحيث إذا فشل الأسلوب الأول يتم اللجوء على الفور إلى الأسلوب الثانى وكذلك رصاصة ثانية فى حالة إذا ما ظل العالم على قيدْ الحياة .

كان يوسف قد قال : إن خليل لا يثق فى أىّ شىء إذا لم تكن له خطة ،

بديلة ثانية . ولكن يوسف قد مات ودفن منذ فترة طويلة . وأصبح نبياً منبوذاً. إنها كانت أرملة ميشيل وجندية مقابلة تابعة للكابتن تايه . جاء ت من أن أجل أن تنضم إلى صفوف الجيش الخاص بشقيق حبيبها الميّت .

كان هناك جندى سويسرى يرقبها بعينيه ، إنه رجل كبير فى السن يحمل مسدسا أتوماتيكيا . وقلبتْ تشارلى صفحة فى الكتاب بين يديها . إن ذلك المسدس من النوع المفضل لديها . ففى آخر حلقة تدريبية سجلت ٨٤ رصاصة فى الحلقة الدائرية التى يتعلم عليها جنود العاصفة كيفية الرماية وذلك من بين المائة رصاصة التى أطلقتها . كان ذلك هو أعلى رقم بين كافة الرجال والنساء يتم تسجيله . ومن بين زاوية عينيها أدركت أن الجندى السويسرى مازال ينظر إليها . فهبطت على ذهنها فكرة غاضبة : سأفعل ما سبق أن فعله بوبى ذات يوم فى فنزويلا . وكان بوبى قد صدرت له الأوامر بأن يطلق الرصاص على رجل شرطة فاشستى معين لدى خروجه من منزله فى الصباح وهو وقت ملائم للغاية من أجل تنفيذ مثل هذه الاغتيالات . اختفى بوبى فى مدخل المنزل وراح ينتظر . وكان رجل الشرطة هذا يحمل بندقية تحت ذراعه . ولكنه ربّ أسرة ومن النوع الذى يلاعب أطفاله دائما . ولدى خروجه إلى الطريق استخرج بوبى كرة من جيبه وألقى بها أمام رجل الشرطة . أنها كرة من المطاط خاصة بالأولاد مما يدفع أىّ ربّ أسرة إلى الانحناء لالتقاطها . وبمجرد أن انحنى رجل الشرطة بزغ بوبى من مدخل البيت وأطلق رصاصة أردته قتيلاً على الفور . فمن ذا الذى يمكنه أن يستخدم سلاحه ويطلق النيران بينما هو ممسك بكرة مطاطية ؟ .

كان هناك شخص ما يحاول أن يلتقط تشارلى . إنه شخص يدخن الغليون ويرتدى حذاء من جلد الخنزير وبنطلونا رمادى اللون . شعرت به يحوم ويرفرف ويتقدم نحوها .

– معذرة . هل تتحدثين باللغة الانجليزية ؟

يبدو أنه شخص انجليزى من الطبقة المتوسطة ومن النوع الذى يغتصب

الفتيات . إنه قصير ممتلىء . ذو شعر أشقر . يبلغ من العمر حوالى ٥٠ عاما . وأرادت أن تردّ عليه قائلة : لا . إننى لا أعرف اللغة الانجليزية ولكننى أنظر فقط إلى الصور الموجودة فى الكتاب . إنها تكره هذا الطراز من الناس حتى أنها كانت على وشك أن تشعر بالغثيان نظرت إليه فى دهشة كانت لديه قدرة على الاحتمال شأنه فى ذلك شأن كافة الناس الذين على شاكلته.

قال موضحا : كل ما هنالك أن هذا المكان يبدو كئيبا وموحشاً للغاية. كنت أسائل نفسى عما إذا كنت توافقين على تناول مشروب معى ؟ وبدون أىّ تحكمّ أو سيطرة من جانبى .

فقالت : « لا . شكراً جزيلاً » . كانت على وشك أن تقول له «أبى يقول لى دائما إنه ينبغى علىّ ألا أتكلم مع الغرباء» . وبعد برهة سار مبتعدا عنها فى استياء وراح يبحث عن رجل شرطة لكى يبلغ تقريرا عنها . ثم راحت تشارلى تدرس نباتات الألدفايز السويسرية راحت تصغى إلى المكان وهو يمتلىء تدريجيا بالناس المسافرين . زوج من الأقدام فى كل مرة . مروراً بجوارها فى اتجاه دكان الجبنة أو مرورا بجوارها فى اتجاه البار . ثم توقفت قدمان بجوارها .

- يا إموجين ؟ هل تذكريننى ؟ أنا سابين !

نظرت تشارلى لأعلى ، وصمتت للحظات من أجل أن تتمكن من التعرف عليها .

منديل سويسرى جميل من أجل إخفاء الشعر المقصوص القصير المصبوغ بلون بنىّ . لا ترتدى نظارة . ولكن إذا ارتدت سابين نظارة هى الأخرى لاعتبرنا أىّ مصور فتاتين توأم . كانت تتدلى من يدها حقيبة مكتوب عليها : فرانز كارل وبيار / زيورخ . وكانت تلك الحقيبة بمثابة العلامة الثانية .

- ياإلهى . سابين . ها أنت موجودة نهضت . طبعت قبلة سريعة رسمية على الخدّ . يا له من أمر مدهش . إلى أين أنت ذاهبة ؟

إن طائرة سابين على وشك أن تقلع . واأسفاه . لا نستطيع أن ندردش

سويا مثلما تفعل الفتيات . ولكن هكذا الحياة . أليس كذلك . ألقت سابين حقيبتها عند قدمى تشارلى . راقبينى فى دقة يا عزيزتى . بالتأكيد ياسابين . لا توجد مشكلة . وتختفى سابين فى داخل دورة المياه المخصصة للسيدات . ثم تقوم تشارلى بالتفتيش فى حقيبة سابين فى شجاعة وجرأة ، وكأن الحقيبة حقيبتها . ثم تستخرج مظروفا مغطى حوله شريط . وتشاهد فى داخل المظروف جواز سفر وتذكرة طيران . وفى هدوء تستبدل بهما جواز السفر الخاص بها وتذكرة الطائرة وبطاقة الترانزيت . ثم تعود سابين وتختطف حقيبتها – يجب أن تنطلق بسرعة وتخرج على الفور . وتقوم تشارلى بالعدّ حتى رقم عشـــرين . ثم تعود إلى دورة المياه وتجثم فى قرفصاء . وتقرأ : بستروب إموجين .. من اتحاد جنوب افريقيا . مولودة فى جوها نسبرج بعدى بثلاث سنوات وشهر واحد . الجهة المراد الذهاب إليها هى شتوتجارت خلال ساعة واحدة وعشرين دقيقة مع السلامة أيتها الأيرلندية ومرحبا بفتاتنا الصغيرة العنصرية المسيحية ذات الردفين .

وبعد أن خرجت تشارلى من دورة مياه السيدات وجدت الشرطى ينظر إليها مرة أخرى . لقد شاهد كل شىء . إنه على وشك أن يلقى القبض علىّ . وراحت تشارلى تحملق فى وجهه إلى أن اضطر إلى الانصراف بعيدا عنها . ثم استخرجت كتابها الذى يتناول أزهار جبال الألب .

.. ..

بدت رحلة الطيران وكأنها استغرقت خمس دقائق فقط . هناك شجرة كريسماس قديمة تقف فى صالة الوصول بمطار شتوتجارت . هناك جوّ من الاصطخاب العائلى حيث كل شخص بصدد الذهاب إلى منزله . سارت تشارلى فى الطابور ومعها جواز السفر الافريقى الجنوبى . وراحت تتفحص الصور الخاصة بالنساء الارهابيات المطلوب إلقاء القبض عليهن . هبطت عليها هواجس وأحاسيس داخلية بأنها على وشك أن تشاهد صورتها بين تلك الصور . ومرت تشارلى من خلال باب الهجرة بدون أن تطرف لها عينْ . ثم مرت من خلال الباب

الأخضر . وعندما اقتربت من باب الخروج النهائى شاهدت زميلتها روز كانت تتكىء على حقيبة ظهرها بينما يغالبها النوم . الاَّ أن روز كانت ميتة بالنسبة لتشارلى شأنها فى ذلك شأن يوسف أو أيّ شخص آخر . كما كانت روز غير مرئية أيضاً بالنسبة لتشارلى شأنها فى ذلك شأن راشيل . فتحت الأبواب الالكترونية . وعندئذ ضربت دوامة ثلجية وجهها فى عنف . فجذبت .. ياقة معطفها لأعلى . وسارعت بالسير عبر الرصيف العريض نحو جراچ السيارات . كان الكابتن تايه قد قال : الطابق الرابع اذهبى إلى الركن البعيد يساراً ، وابحثى عن ذيل ثعلب مثبت فى هوائى الراديو . وبالفعل شاهدت ذلك الذيل فوق الغطاء المعدنى لمحرك سيارة ماركة فولكس ڤاجن .

قال صوت رجالى مترامٍ من مكان قريب منها بلهجة أمريكية رخيمة : «أنا شاؤول. ما اسمك يا عزيزتى ؟» ومرت عليها لحظة مريعة تخيلت فيها أن ذلك الصوت هو صوت هالوران الذى يسمى عبدول كاسم مستعار وأنه رجع إليها لكى يستحوذ عليها . ولكنها عندما حملقت فيما حولها أحست بالارتياح عندما شاهدت شابا يستند على الحائط . يرتدى حذاء له رقبة . ترتسم على وجهه ابتسامة مشرقة كســولة . وعلى صدره بادج مكتوب عليه عبارة «انقذوا الحوت» تماما مثلها .

قالت رداً على سؤاله : «اسمى إموجين» لأن شاؤول كان هو الاسم الذى حدّده لها الكابتن تايه وأوضح لها أنها ستقابل شخصا يسمى شاؤول .

– ارفعى غطاء السيارة يا إموجين . وضعى حقيبتك بداخلها . الآن انظرى فيما حولك وتأكدى أن أحداً لا يرقبك . هل هناك شخص يراقبك ويضايقك ؟

راحت تتفحص صالة الجراچ فى دقة . وفى مقصورة سيارة «فان» شاهدت راؤول ومعه فتاة لم تستطع مشاهدة وجهها بوضوح وكانا على وشك البدء فى المضاجعة .

قالت .. لا أحد هناك .

ثم فتح لها شاؤول الباب الأمامى للسيارة .

قال لدى جلوسه إلى جوارها اربطى الحزام . فهم لديهم قوانين صارمة فى هذه الدولة . حسنا ؟ أين كنت يا إموجين ؟ ومن أين حصلت على هذه البشرة النحاسية السمراء الناجمة عن التعرض كثيراً لأشعة الشمس ؟

إلا أن الأرامل المصممات على الاغتيال لا ينخرطن فى الدردشة مع الغرباء . هزّ شاؤول كتفيه وفتح الراديو وراح يستمع للأنباء باللغة الألمانية .

كان الثلج قد أضفى جمالاً ورونقاً على كل شىء . وانطلقت السيارات تنطلق فى حرص وحذر بين الفوضى . ثم دخلا طريقا مزدوجا . كانت رقائق الثلج تتسابق فى اتجاه الأنوار الأمامية لسيارتهما . وعندما انتهت نشرة الأخبار أعلنت امرأة عن اذاعة كونشيرتو موسيقى .

– أتحبين سماع هذا يا إموجين ؟ إنها موسيقى كلاسيكية .

ثم ترك الموسيقى تنساب . إنه موزارت المولود فى سالز بورج . المدينة التى تشعر فيها تشارلى بالتعب الشديد بحيث لم تستطع ممارسة الحبّ مع ميشيل فى تلك الليلة السابقة على وفاته مباشرة .

وكانا يحاولان الابتعاد عن التوهج الضوئى المحتدم بالمدينة . وكانت الرقائق الثلجية تتجول بالمدينة مثل رماد أسود . صعدا فوق مفترق للطرق . وتحتهما وفى داخل ملعب رياضى محاط بالأسوار يوجد أطفال يرتدون سترات ذوات قلنسوة ويلعبون بكرات ثلجية وراحت تفكر : إننى أفعل ذلك من أجلهم . وعلى نحو ما كان ميشيل يؤمن بذلك . وعلى نحو ما نؤمن جميعا بذلك . جميعنا باستثناء هالوران . ثم سألت نفسها فى تعجب : لماذا يوجد أكثر من اللازم داخل ذهنها ؟ لعل السبب فى ذلك أنه كان ينزع إلى الشك والارتياب . وهى كانت قد تعلمت أن تخاف من الشك أكثر من أىّ شىء آخر . وكان الكابتن تايه قد حذرها قائلاً : أن تشك هو أن تخون . فالشك يؤدى حتما إلى الخيانة .

لقد حدثها يوسف بكلام له نفس هذا المعنى . كانا قد دخلا منطقة أخرى .

وأصبح الطريق أمامهما أشبه بنهر أسود يخترق وديانا ضيقة من الحقول البيضاء والغابات المثقلة . وانزلق الإحساس بالزمن لدى تشارلى . ثم انزلقت حاسة التوازن لديها . وراحت تشاهد قلاعا خيالية رائعة الجمال ومجموعات من القرى الطويلة الشبيهة بالقطارات على هيئة صور ظلية منعكسة على صفحة السماء الشاحبة . شاهدت خيولاً صغيرة ترتعد وهى تحمل بالات من الحطب والقش وتذكرت خيولها الصغيرة أثناء طفولتها . وكل شىء جميل كان ينصرم وينطوى ويتلاشى . كانت تلقى بقلبها وراء كل شىء جميل محاولة اللحاق به وتخفيض سرعة تلاشيه . إلا أن شيئا لم يتبق. ولا شىء ترك انطباعا وبصمات على ذهنها . كانت كلها أشياء شبيهة بالأنفاس الموجودة فوق سطح زجاج لامع . ومن وقت لآخر تلحق بهما سيارة وتتخطاهما . وذات مرة تخطاهما موتوسيكل فخُيِّل إليها أنها تعرفت على رقبة ديمترى . إلا أنه كان يقع خارج نطاق الأنوار الأمامية لسيارتهما قبل أن تتمكن من التأكد من شخصيته .

صعدا فوق قمة تلّ . وبعدئذ بدأ شاؤول يزيد من سرعته . ثم انحرف إلى اليسار . وعبر طريقا مليئا بالمطبات وعلى الممر الفرعى كانت هناك أشجار ملقاة على جانبيه مثل جنود متجمدين من البرد فى نشرة أخبار روسية . وعلى مسافة أمامهما بدأت تشارلى تتبين الخطوط الخارجية لمنزل قديم ذى مجموعة مداخن فوق السطح . وللحظات خاطفة ذكرها المنزل بالمنزل الموجود فى أثينا . أوقف شاؤول السيارة . وخفض الأنوار الأمامية للسيارة مرتين . وردت بطارية من قلب المنزل بأن غمزت مرتين . راح شاؤول ينظر إلى ساعة يده . يعد الثوانى بصوت مرتفع ، وقال «تسعة – عشرة – ينبغى أن يكون الآن» . وتغامز الضوء البعيد مرة أخرى . ثم انحنى شاؤول عبْر تشارلى . وفتح لها الباب .

أمسكت تشارلى حقيبتها فى يدها واختارت مدقا أخدوديا بين الثلج . وشرعت فى السير تجاه المنزل ولم يكن معها أىّ شىء يرشدها فى سيرها سوى لون الثلج الشاحب وشرائط ضوء القمر المنسابة من بين الأشجار . شاهدت برج ساعة حائط قديم وحصانا صغيرا متجمدا .

فجأة سمعت صوتا مألوفا يتحدث إليها فى تحفظ : «يا إموجين . انتبهى للسقف . لو أن قطعة من السقف ضربتك فستقتلك على الفور . يا إموجين - أوه تشارلى هذا أمر سخيف للغاية» ، وفى اللحظة التالية بزغ جسد قوى ناعم من ظلام الشرفة لكى يطوق جسدها .

واضطرت تشارلى إلى الردّ على هذا الفيض من الترحيب فقالت «أوه - هيلجا - أيها السيد المسيح - هذا شىء عظيم » .

.. ..

وتحت ضوء بطاريتها اقتادتها هيلجا عبْر صالة لها أرضية رخامية قد اقتلعت وأزيلت نصف بلاطاتها الرخامية بالفعل . ثم اقتادتها فى حذر فوق سلالم خشبية متداعية ليس بها درابزين .

كان المنزل يلفظ أنفاسه الأخيرة . إلا أن شخصا ما كان يستعجل وفاته . وكانت الجدران المنخرطة فى البكاء ملطخة بشعارات مكتوبة بطلاء أحمر اللون . وكانت مقابض الأبواب قد سرقت . استعادت تشارلى مشاعر العداء نحو هيلجا فحاولت أن تسحب يدها . إلا أن هيلجا أصرت على الاستمرار فى الإمساك بيد تشارلى وكأن ذلك من حقها وسارتا سويا عبْر مجموعة من الغرف الشاغرة . وهى كلها غرف كبيرة تكفى لعقد وليمة أو مأدبة ضخمة . وفى الغرفة الأولى يوجد موقد من الخزف الصينى مهشَّم ملىء بأوراق الصحف والمجلات . وفى الغرفة الثانية توجد آلة طباعة يدوية مليئة بالتراب وحولها على الأرضية توجد أوراق صفراء اللون تتناول الثورات الماضية .

قالت هيلجا فجأة بصوت مرتفع « يا إموجين هل تعرفين ما أفعله أنا وصديقتى هنا ؟ إن صديقتى إنسانة خيالية وغريبة الأطوار . إنها تسمى فيرونا كان والدها نازيا يمتلك الأراضى وغير ذلك من الأمور» . لقد مات والدها . ولذلك فنحن نبيع ممتلكاته انتقاما منه . نبيع الأشجار للذين يقومون بذبح الأشجار وقطعها . ونبيع الأراضى للذين يعملون على تدمير الأراضى . ونبيع التماثيل

وقطع الأثاث لتجار الروبابيكيا . وإذا كان ثمن الشيء الذى نبيعه يبلغ حوالى ٥٠٠٠ فإننا نبيعه بخمسة فقط . وهنا كان يوجد مكتب والدها . قمنا بتمزيق هذا المكتب بأيدينا وأحرقناه فى النيران . ليكون ذلك بمثابة رمز . لأن المكتب كان مركزاً لقيادة الحملة الفاشستية كان يوقع على الشيكات وهو جالس على هذا المكتب يدير أعماله القمعية من هنا . فقمنا بتكسيره وحرقه . والآن أصبحت فيرونـــا تتمتع بالحرية والانطلاق . إنها انسانة فقيرة حرة .. انضمت إلى الجماهير الشعبية أليست هى خيالية ورائعة ؟ لعله عليك أن تفعلى ذلك أيضاً .

وكان هناك سلم للخدم يتصاعد فى التواء إلى دهليز طويل . انطلقت هيلجا أمامها . ومن فوقهما سمعت تشارلى موسيقى فلكلورية وشمت رائحة كيروسين فى حالة احتراق . ومرّتا بجوار صف من غرف النوم الخاصة بالخدم ثم توقفتا أما الباب الأخير . كان هناك ضوء يسطع أسفل الباب طرقت هيلجا الباب وقالت كلاما باللغة الألمانية فى هدوء . فأدير قفل وفتح الباب . فدخلت هيلجا أولاً وأشارت بيدها لتشارلى لكى تتبعها . وقالت : «يا إموجين . هذه هى الرفيقة فيرونا . فيرو !

انتظرت فتاة ممتلئة وجميلة ومخبلة لكى تستقبلهما . ترتدى مريلة فوق بنطلون أسود كان شعرها مقصوصا على طريقة شعر الأولاد . قد تدلّى مسدس فى جراب جلدى من ردفها الممتلىء . مسحت فيرونا راحة يدها فى مريلتها . وتصافحن بالأيدى مصافحة برجوازية .

قالت هيلجا فى لهجة مليئة بالسلطة وكأنها صاحبة المنزل : منذ سنة واحدة فقط كانت فيرو فاشستية تماما مثل والدها . وكانت عبْدة وفاشستية فى آن واحد . لكنها الآن تقاتل وتجاهد وتكافح . أليس كذلك يافيرو ؟

وبعد ذلك ذهبت فيرونا بمفردها إلى ركن بالغرفة حيث كانت تطبخ طعاما على موقد خاص بمعسكرات الخيام . ساءلت تشارلى نفسها فى تعجب : ترى هل كانت تحلم فى السرّ بمكتب والدها .

قالت هيلجا : « تعالِ . لتشاهدى الشخص الموجود هنا » . وسارت لمسافة . ثم نظرت تشارلى بسرعة فيما حولها . ترامى الضوء الضعيف من مصباح زيتى متدلٍ من عارضة خشبية فى سقف مائل . كانت هناك ستائر من القطيفة مشبوكة بالمسامير عبْر النوافذ الروش الناتئة من سقف مائل . حصان خشبى هزاز يتبختر على طول حائط واحد . وإلى جواره توجد سبورة مربية أطفال مرتكزة فوق حامل وعلى السبورة توجد خريطة للشارع مرسومة فى وضوح بالإضافة إلى وجود الأسهم الملونة التى تشير إلى مبنى كبير مستطيل الشكل فى وسط الشارع . وفوق منضدة بينج بونج قديمة توجد بقايا من الخبز الأسمر والسجق والجبنة متدلية وناشفة أمام نيران زيتية . كانتا قد وصلتا إلى سلالم خشبية قصيرة . راحت هيلجا تصعد السلالم ومعها تشارلى . وعلى الأرضية المرتفعة يوجد سريران متجاوران . وفوق أحد السريرين رجل شبه عارٍ مضطجعا على السرير . إنه الإيطالى الذى سبق أن صوب مسدسه فى وجه تشارلى فى صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد فى المدينة .

ولاحظت تشارلى أنه يقوم بتنظيف أجزاء مسدسه الأتوماتيكى الذى كان ملقى إلى جواره . وعند مرفق ذراعه كانت تنبعث موسيقى برامز من راديو ترانزستور .

قالت هيلجا فى تهكم وهى تنخث أعضاءه التناسلية بأصبع قدمها : لدينا هنا ماريو النشيط يا ماريو . أليس لديك أىّ خجل على الإطلاق . غطِّ جسدك وأدِّ التحية لضيفتنا وهذا أمر .

اكتفى ماريو بدحرجة نفسه فى لعب ومزاح نحو حافة السرير موجها الدعوة لأى منهما بالانضمام إليه ثم تساءل : يا تشارلى . كيف حال الرفيق الكابتن تايه ؟ احكى لنا كل أخبار العائلة .

ومثل صرخة فى كنيسة دقّ جرس التليفون : وشعرت تشارلى بالذعر الفجائى حيث إنها لم يخطر على ذهنها أن لديهم تليفوناً . وعندما سمعت هيلجا

جرس التليفون تجمدت فى مكانها . وقام روسينو بإغلاق الراديو الترانزستور . كان التليفون فوق منضدة خشبية صغيرة مطعّمة بالصدف . وقفت هيلجا بجوار التليفون . ولكنها لم ترفع السماعة . وراحت تشارلى تحصى ثمانى دفعات من الصوت المجلجل للجرس قبل أن يتوقف الرنين تماما . ظلت هيلجا واقفة فى مكانها ومحملقة فى التليفون . سار روسينو عاريا تماما فى الغرفة . ثم أخذ قميصا من حبْل الغسيل .

قال وهو يرتدى قميصه . إنه سوف يتصل بنا تليفونيا غداً . فما الذى ظهر فى الأفق على نحو فجائى ؟

فقالت هيلجا فى حدة «التزم بالهدوء» .

واستمرت فيرونا فى تحريك الطعام الذى تطبخه ببطء .

ودق جرس التليفون مرة أخرى . وفى هذه المرة رفعت هيلجا سماعة التليفون ووضعتها مرة أخرى على الفور . عندما دق جرس التليفون للمرة الثالثة رفعت هيلجا السماعة على الفور وردت فى غلظة قائلة «نعم» ثم راحت تصغى دون أن تومىء برأسها أو تبتسم على مدى دقيقتين تقريبا ثم وضعت السماعة .

وأعلنت قائلة : لقد غيّر مينكيل وشلّته خططهم سيمضون هذه الليلة فى توبنجين حيث إن لديهم أصدقاء فى الكلية . وهم معهم أربع حقائب كبيرة والعديد من الحقائب الصغيرة بالإضافة إلى محفظة جلدية مسطحة .

ثم التقطت قطعة قماش مبللة وقامت بمسح السبورة . واستطردت قائلة : والمحفظة الجلدية المسطحة ذات لون أسود . ولها مفاصل مبسطة . لقد تغيّر المكان الذى ستُلقى فيه المحاضرة . والشرطة لا تساورها الشكوك والهواجس ولكنها تموج بالقلق والتوتر . إنهم يتخذون تدابير وقائية معقولة على حدّ تعبيرهم .

قال روسينو : ماذا عن الشرطة السرية ؟ .

الشرطة ترغب فى زيادة الحراس . ولكن مينكيل يرفض هذا الوضع تماما . إنه رجل مبادىء وإذا كان عليه أن يلقى محاضرة عن القوانين والعدالة فإنه لا

يريد أن يشاهد نفسه وقد أحيط برجال الشرطة السرية . لم يتغير شيء بالنسبة لإموجين . فالأوامر الصادرة لها هى نفس الأوامر . وذلك سيكون أول عمل تقوم به. ولسوف تكون هى النجمة الكاملة أو البطلة أليس كذلك يا تشارلى ؟

وفجأة راح الجميع ينظرون إليها ... إذ راحت فيرونا تنظر بنظرات متسمة بالغباء بينما ابتسم روسينو ابتسامة مليئة بالتفكير بينما نظرت هيلجا فى شكل مباشر وصريح .

.. ..

استلقت تشارلى واستخدمت ساعد ذراعها كوسادة . لم تكن غرفة نومها بمثابة قاعة ضيقة وإنما كانت على هيئة علية (*) بدون لمبات أو ستائر . كان سريرها عبارة عن مرتبة قديمة محشوة بشعر الخيول وبطانية قديمة صفراء اللون تنبعث منها رائحة نبات الكافور . كانت هيلجا تجلس إلى جوارها وتملّس بيدها القوية على شعرها المصبوغ . بينما انساب ضوء القمر من خلال النافذة العلوية ، إنها موجودة فى مكان أشبه بالكوخ الخشبى تشعر بأنها فى مأمن من كل شيء باستثناء الغد .

– ماذا فى الأمر يا تشارلى ؟ افتحى عينيك . ألم تعودى ترغبين فى مشاهدتى ؟

فتحت تشارلى عينيها . وحملقت فى الفراغ أمامها مباشرة بدون أن تشاهد أو تفكر فى أىّ شيء .

– أمازلت تحلمين بصبيك الفلسطينى الصغير ؟ هل تشعرين بالهم والقلق إزاء الأمور التى نفعلها هنا ؟ هل تريدين التخلى عن هذه المهمة والهرب بعيدا عنا إذا واتتك الفرصة المناسبة ؟

فقالت تشارلى : أشعر بالتعب والإرهاق .

(*) العلية : حجرة تحت السقف الأعلى مباشرة .

إذن لـــاذا لا تنامين معنا ؟ ويمكننا أن نمارس الحبّ . ثم نستغرق فى النوم . وماريو ممتاز فى ممارسة الحب .

انحنت هيلجا على تشارلى وقبلت رقبتها .

– أتريدين لماريو أن يجيىء إليك هنا بمفردك هل تشعرين بالخجل ؟ إننى أسمح لك بأن يحدث ذلك إذا أردت .

– غداً فى الليل ربما تصبحين عاطفية أكثر . ومع خليل ليس هناك رفض من جانبك . إنه متلهف للغاية لمقابلتك سأل عنك شخصيا . لقد أحببت شقيقه ميشيل ولذلك سوف يحبك . ولا يوجد أدنى شك فى هذا .

مالت هيلجا عليها مرة أخرى . وقبلتها من جديد . ثم غادرت الحجرة. وكانت تشارلى مستلقية على ظهرها ومفتوحة العينين ترقب الأنوار الأولى للفجر وهى تنعكس على النافذة . ثم سمعت صرخة مدوية صادرة عن امرأة وأعقب ذلك بكاء مكتوم ملىء بالتوسل . كانت هيلجا وماريو يدفعان بالثورة إلى الأمام بدون الاستعانة بمساعدتها .

وكان يوسف قد قال : اتبعيهم إلى أى مكان يقودونك إليه . لو أصدروا لك الأوامر بأن تقتلى فاقتلى ستقع المسئولية علينا وليست عليك .

– وأين ستكون أنت ؟

– فى مكان قريب .

– فى مكان قريب عند حافة العالم .

وفى حقيبة يدها كانت توجد بطارية يد صغيرة من النوع الذى يرسل نوراً كشافاً أو الذى كانت تلعب به تحت البطانية فى مدرستها الداخلية فاستخرجت البطارية . وفى حرص شديد ومثلما علمها يوسف أزالت ورقة التغليف وفتحت الورق المقوى لعلبة السجائر ونشرته ليكون مسطحا وبحيث يكون السطح الداخلى متجها لأعلى . ولعقت اصبعها وبللته بلعابها . وبدأت تحك فى رفق على الورق

المقوى الخالى من الكتابة . ثم ظهرت حروف الكتابة تدريجيا فى لون بنى مكتوبة بخط واضح ، قرأت الرسالة . ثم دفعت بالورقة المقواة المفلطحة فى داخل شرخ موجود بين أخشاب الأرضية إلى أن اختفت الورقة عن الأنظار تماماً .

« كونى شجاعة . فنحن معك »

.. ..

كانت غرفة العمليات فى قلب مدينة فرايبورج تشغل مكتبا مستأجرا بالدور الأرضى بشارع مزدحم كان المكتب يعمل تحت غطاء : شركة وولكار للاستثمارات. وهى واحدة من عشرات الشركات التى حرص جافرون على الإبقاء عليها مسجلة بصفة مستمرة وكانت معدات الاتصالات الخاصة بهم لها طابع ومظهر الشركات التى تتعامل فى الأجهزة الالكترونية . هذا بالإضافة أن لديهم ثلاثة تليفونات عادية وكان أحد هذه الخطوط الثلاثة هو الخط الساخن الذى يربط أليكسيس مع كيرتز . كان الوقت فى الصباح الباكر عقب قضاء ليلة مشحونة بالعمل الكثير . حيث انقضى الوقت فى متابعة وتعقب تشارلى وإيوائها ثم مناقشات حادة تتعلق بتحديد الاختصاصات والحدود التى تفصل ما بين ليتفاك ونظيره الألمانى الغربى . لأن ليتفاك أصبح آنئذ يدخل فى جدال مع كل شخص . ولقد حرص كل من كيرتز وأليكسيس على أن يكونا بمعزل عن مثل هذه الأمور التى تحدث بين المرؤوسين لهما .

أما بالنسبة لجادى بيكار فقد عاد أخيراً إلى ساحة القتال . كان أسلوبه قد اتخذ طابع السرعة فى اتخاذ الإجراءات . فالاستبطانات التى سيطرت عليه أثناء وجوده بالقدس قد تركته . وبينما كان كيرتز يغفو أسفل بطانية عسكرية وبينما كان ليتفاك يموج بالتوتر ويجوب الغرفة جيئة وذهابا ويردّ على التليفونات كان بيكار يقف عند شيش النافذة ويحملق نحو التلال المغطاة بالثلج . لأن فرايبورج - شأنها شأن سالزبورج هى مدينة محاطة بالمرتفعات حيث يبدو كل شارع وكأنه يتجه لأعلى .

وقال ليتفاك فجأة موجها كلامه لظهر بيكار . إنها مصابة بالهلع والذعر .

استدار بيكار ونظر إلى ليتفاك فى حيرة . فأضاف ليتفاك فى توتر : لقد غيرت مذهبها واتجاهها .

عاد بيكار إلى النافذة . ثم قال : إن جزءا منها قد راح إليهم وظل جزء آخر منها باقيا معنا . وذلك هو ما طلبناه .

رد ليتفاك فى حدة : لقد غيرت مذهبها واتجاهها مثلما حدث مع عملاء آخرين من قبل . لقد شاهدتها فى المطار وأؤكد أنها كانت تشبه الشبح .

قال بيكار فى هدوء مهيب : إذا كانت تشبه الشبح فتلك هى الطريقة التى تريد أن تبدو عليها . إنها ممثلة ستواصل الأمر حتى النهاية . ولا داعى للقلق .

– إذن ما الذى يدفعها إلى ذلك ؟ فهى ليست يهودية . ليست أىّ شىء . إنها تابعة لهم . يجب أن نسقطها من حساباتنا .

وتحرك كيرتز تحت البطانية فرفع ليتفاك صوته بهدف أن يشركه فى هذه المناقشة :

– إذا كانت مازالت تابعة لنا فلماذا أعطت لراشيل علبة سجائر شاغرة فى المطار . أخبرنى عن سبب ذلك ؟ لقد أمضت أسابيع متواصلة بدون انقطاع بين هؤلاء الرعاع والغوغاء ومع ذلك لم تكتب لنا أىّ مذكرة عندما بزغت على السطح مرة أخرى . أىّ نوع من العميلات هى والتى تقول عنها إنها مخلصة لنا ؟

بدا على بيكار وكأنه يبحث عن الإجابة فى الجبال البعيدة . ثم قال ربما ليس لديها أىّ شىء تقوله . وربما تتخذ قرارات بشأن أعمالها وليس بشأن كلامها وكلماتها .

ومن السرير السفرى الصغير قال كيرتز عارضا مواساته المتسمة بالنعاس: إن ألمانيا تجعلك عصبيا ومتوترا يا شيمون . استرخِ وهدىء من روعك . فلا يهمنا إلى مَنْ تنتمى طالما أنها توضح لنا الطريق وترشدنا ؟

أحدثت كلمات كيرتز نتيجة عكسية . إذ شعر ليتفاك وكأن هناك تحالفا ظالماً ضده . مما جعله أكثر جموحاً وتوحشاً .

– وإذا أصيبت بالانهيار واعترفت ؟ وإذا روت لهم الحكاية كلها ابتداء من ميكونـــوس حتى هنا ؟ فهل تظل فى هذه الحالة تنير لنا الطريق وترشدنا ؟

كان يبدو عليه وكأنه مصمم على الدخول فى صدام ولم يكن بمقدور أىّ شىء إقناعه أو إرضاؤه .

ورفع كيرتز نفسه قليلا لكى يرتكز على مرفق واحد . وقال فى حدة بعض الشىء : إذن ما الذى ينبغى أن نفعله يا شيمون ؟ قدم لنا الحل . ولنفرض أنها أصبحت بالفعل فى صفهم . إنها نسفت العملية كلها ابتداء من الإفطار إلى العشاء . أتريد منى أن أتصل بميشا جافرون وأقول له إننا ضعنا وانتهينا ؟

ولم يكن بيكار قد تخلّى عن النافذة . ولكنه استدار مرة أخرى وراح يرقب ليتفاك الذى ينتقل ببصره ما بين بيكار وكيرتز . ثم ألقى بذراعيه فى حركة جامحة وقال صارخاً : إنه (أى خليل) موجود فى مكان ما هنالك . فى فندق أو فى شقة أو فى منزل يقضى فيه الليل بشكل مؤقت . إنه بكل تأكيد فى أحد هذه الأماكن وعلينا أن نحكم الإغلاق على المدينة والطرق والسكة الحديد ومحطات الأتوبيسات . ونطلب من أليكسيس أن يطوق تلك الأماكن . ونفتش فى كل منزل إلى أن نعثر عليه .

فقال كيرتز فى روح من الفكاهة : يا شيمون . إن مدينة فرايبورج ليست غزة أو الضفة الغربية .

هنا علق بيكـــار «وما الذى سنفعله يا شيمون بعد أن نعثر عليه بالفعل ؟ »

– عندما نعثر عليه نقوم بقتله على الفور . وننهى العملية .

فتساءل بيكار ومَنْ الذى يقوم بقتل تشارلى ؟ نحن أم هُمْ ؟

فتدافعت الدماء إلى وجه ليتفاك وهو يمدّ ذراعه فى وجه بيكار فى اتهام قائلا : «إنها كما هى عاهرة وداعرة . إنها شيوعية . إنها تحب العرب»

كان صوته عاليا للغاية بحيث يمكن سماعه من خلال الجدار الداخلى الفاصل . ثم أضاف قائلا «يجب أن نتخلص منها . ومن الذى يهتم بها ؟» .

وإذا كان ليتفاك قد توقع من بيكار أن يتشاجر من أجل تشارلى فإنه أصيب بخيبة الأمل . لأن بيكار اكتفى بالإيماء برأسه فى هدوء . بينما أزاح كيرتز البطانية وجلس فى سريره مرتديا سرواله التحتانى الداخلى . وأصدر أوامره فى هدوء : يا شيمون . اذهب وخذ حماماً واسترح قليلا وتناول بعض القهوة . وعدْ إلينا فى منتصف النهار تقريباً وليس قبل ذلك ولا تردّ على التليفون .

ثم قام كيرتز برفع سماعة التليفون وقال باللغة الألمانية «إنه مشغول . نعم . هنا هلموث من يتكلم ؟ . »

قال كلمة نعم ثم كلمة نعم مرة أخرى . وأضاف «هذا العمل تم إنجازه » . وبعدئذ وضع سماعة التليفون وابتسم ابتسامته المعهودة لليتفاك أولاً لكى يواسيه ثم لبيكار لأن الخلافات بينهما أصبحت عديمة الأهمية . وقال : لقد وصلت تشارلى إلى الفندق الذى سيقيم به مينكيل وزوجته منذ خمس دقائق فقط . وروسينو موجود معها . إنهما يتناولان طعام الإفطار حاليا قبل الموعد الملائم بوقت كاف . وهو ما يفضله أصدقاؤنا .

تساءل بيكار : وماذا عن السوار ؟

رد كيرتز فى فخر : إنه فى معصم يدها اليمنى . فهى لديها رسالة لنا . إنها فتاة رائعة يا جادى . وأنا أهنئك .

.. ..

كان الفندق قد شيد فى الستينات عندما كانت صناعة الفندقة تحرص على وجود الأروقة الكبيرة الضخمة والنافورات المضاءة المهدئة للأعصاب . وكانت توجد سلالم مزدوجة عريضة تؤدى لأعلى إلى شرفة . ومن منضدة الشرفة التى تجلس إليها تشارلى وروسينو فإنهما يطلان على الباب الرئيسى للفندق . كان روسينو يرتدى بدلة زرقاء . أما تشارلى فترتدى الزى الرسمى لمرشدة من جنوب افريقيا

علاوة على ارتدائها للسلسلة التى تضم الحلية الخشبية لصورة السيد المسيح وهو طفل والتى حصلت عليها عندما كانت بالمعسكر .

كانت عدستا نظارتها - وكان الكابتن تايه قد أصرّ أن تكونا عدستين حقيقيتين - تسببان آلاما فى عينيها عندما يجيىء عليها الدور لكى تقوم بأعمال المراقبة .

جلس روسينو يقرأ الجريدة . ومن وقت لآخر يحدثها عن بعض الأخبار الطريفة الواردة فى الجريدة . كانا قد دخلا إلى المدينة فى الصباح المبكر . كادت أن تتجمد من البرد الشديد وهى فوق المقعد الخلفى للدراجة البخارية . لقد تركا الدراجة البخارية عند محطة السكة الحديد . ثم جاء إلى الفندق بالتاكسى . وفى خلال الساعة التى أمضياها هنا شاهدت تشارلى رجال شرطة يركبون الخيول مع وفد من الأفارقة الغربيين الذين يرتدون أزياء قبلية وشاهدت مجموعة من الأمريكيين يصلون إلى الفندق كما شاهدت مجموعة من اليابانيين يغادرون المكان. كانت تعرف جيدا الإجراءات المتعلقة بقيام المرء بتسجيل اسمه فى الفندق . حيث يقوم الخادم بأخذ الحقائب من النزلاء الجدد لدى دخولهم من الأبواب المنزلقة ويقف على مسافة منهم بينما يقوم النزلاء بملء استمارات تسجيل أسمائهم بالفندق .

قال روسينو من خلف جريدته لدى وقوف تشارلى على قدميها : وقداسة البابا يخطط للقيام بجولة فى كافة دول أمريكا الجنوبية الفاشستية وربما سيتمكنون فى هذه المرة من الإجهاز عليه وقتله . إلى أين أنت ذاهبة يا إموجين ؟

- كى أتبول .

- ماذا فى الأمر ؟ هل أنت متوترة وعصبية ؟ .

انبعثت فى دورة مياه السيدات أضواء وردية فوق أحواض غسيل الأيدى . كما انبعثت موسيقى هادئة لكى تغطى أزيز مراوح التهوية . وقفت راشيل تضع لنفسها مكياج تظليل العيون . وهناك سيدتان أخريان تغتسلان . باب واحد مغلق .

احتكت تشارلى بجوار راشيل ووضعت رسالة مكتوبة بخط اليد فى يدها . ثم نظفت نفسها وعادت إلى المنضدة .

قالت كما لو أن الارتياح الناجم عن ذهابها لدوره المياة قد جعلها تغيّر رأيها : هيا بنا نخرج من هنا فالأمر يدعو للسخرية .

وتوقفت سيارة مرسيدس لها الطابع الرسمى وتقيأت رجالاً يرتدون ملابس سوداء عليها علامات تضم أسماءهم . وبدأ روسينو يطلق التعليقات الفاحشة عنهم عندما قاطعه خادم بالفندق مناديا عليه لكى يذهب إلى التليفون . جلست راشيل مع عشيق تحت شجرة نخيل مصنوعة من الألمونيوم تقرأ فى جريدة . كان العشيق غير معروف لتشارلى يبدو عليه أنه ألمانى ، وأنه يمسك بوثيقة داخل ملف من البلاستيك . وهناك حوالى عشرين فرداً يجلسون هنا وهناك لم تكن تشارلى تعرف منهم سوى راشيل . عاد روسينو وقال :

– لقد وصل مينكيل وزوجته إلى المحطة منذ دقيقتين فقط . ثم استقلا سيارة زرقاء وهما على وشك الوصول إلى هنا .

ثم طلب الفاتورة . وقام بتسديد الثمن . وبعدئذ استأنف القراءة مرة أخرى .

تمتمت تشارلى لنفسها لدى استلقائها فى انتظار بزوغ الصباح : لسوف أفعل كل شىء للمرة الأخيرة فقط . كل شىء سيكون بمثابة المرة الأخيرة . فإذا كنت أجلس هنا فلن أفعل ذلك مرة أخرى على الإطلاق . وعندما أهبط على السلالم فإننى لن أضطر إلى الصعود مرة أخرى . وعندما أغادر الفندق فلن أعود إليه أبداً .

وهمست تشارلى فى تفجّر ملىء بالخوف والكراهية لدى تركيز نظراتها على مدخل الفندق : لماذا لا نطلق الرصاص على ابن الحرام هذا ونتخلص منه على الفور ؟

قال روسينو فى صبْر : لأننا نريد أن نبقى على قيْد الحياة لكى نطلق

الرصاص على أولاد حرام آخرين . ثم قلب صفحة من جريدة . وأضاف لقد خسر فريق مانشستر لكرة القدم مرة أخرى . مسكينة أنت أيتها الإمبراطورية القديمة .

قالت تشارلى : جاء ت لحظة البدء فى العمل . وكانت سيارة زرقاء قد توقفت عند الجانب الآخر من الأبواب الزجاجية . اندفعت منها امرأة ذات شعر رمادى . ثم تبعها رجل طويل له شكل مميز ويسير فى مشية متسمة بالطابع الرسمىّ التقليدى .

قال روسينو مصدرا أوامره لتشارلى وهو يعيد إشعال سيجارة : راقبى الأمتعة الصغيرة وسأراقب الأمتعة الكبيرة .

وكان السائق يفتح صندوق الأمتعة الموجود فى خلف السيارة وكان خادم الفندق الذى يسمى فرانز يقف خلف السائق ومعه عربته الترولى الصغيرة . وظهرت فى بادىء الأمر حقيبتان متماثلتان من القماش البنى اللون . وكانتا نواتى حزام فى الوسط . عليهما بطاقات حمراء اللون . ثم ظهرت حقيبة جلدية أكبر حجما . ثم جاء ت بعدها حقيبة أخرى .

قال روسينو باللغة الإيطالية بصوت رخيم : تُرى كم من الأيام سيمكثان هنا ؟

تكومت الحقائب الصغيرة فى مقعد المسافرين الأمامى . وبعد أن قام السائق بإغلاق حقيبة السيارة راح يفرغ الحقائب الصغيرة من المقعد الأمامى . إلا أن ترولى فرانز لم يكن بصدد حمل كل تلك الحقائب مرة واحدة . وبعدئذ شاهدت تشارلى أهمّ شىء: محفظة جلدية سوداء مسطحة لها إطار من الصلب وبها رقعة جلدية عليها اسم صاحبها . بدأ مينكيل يدفع أجرة التاكسى مستخرجا العملات المعدنية من كيس نقوده بينما التقطت زوجته المحفظة السوداء وقالت تشارلى : زفت .

قال روسينو : انتظرى .

وسار مينكيل محملا بالطرود وراء زوجته ودخل عبْر الأبواب المنزلقة .

قال روسينو فى هدوء : اخبرينى يا تشارلى أن باستطاعتك التعرف عليه . وأنا أسألك لماذا لا تلقين نظرة عن قُرْب ؟ أنت مترددة . أنت عذراء صغيرة خجولة وكان ممسكا بكم ردائها . قال لا تستخدمى العنف . إذا لم تفلح الخطة فهناك وسائل أخرى . عليك بالتدخل الآن .

كان مينكيل يقترب من مقصورة الاستقبال بالفندق فى خطوات قصيرة خفيفة سخيفة كأنه لم يفعل مثل هذا الأمر من قبل على الإطلاق ، وإلى جواره زوجته الممسكة بالمحفظة السوداء . وكانت هناك فتاة واحدة فقط فى الاستقبال مشغولة مع اثنين آخرين من الضيوف . ظل مينكيل يحملق فيما حوله فى ارتباك . وراحت زوجته تكون رأيا عن الفندق فى شىء من الامتعاض نظرت فى استياء إلى مجموعة من الألمان . وقالت كلاما فى تمتمة لزوجها ثم أصبح الاستقبال شاغرا . أخذ مينكيل المحفظة الجلدية من يد زوجته : إنه تعامل غريزى صامت بين شخصين متزوجين . كانت فتاة الاستقبال شقراء ترتدى فستانا أسود اللون . راحت تراجع سجل الحجز بأظافر أصابعها قبل أن تعطى لمينكيل استمارة لكى يملأها . بدا مينكيل أشبه بصورة تجريدية مليئة بالضباب من خلال نظارتها اللابؤرية . وصلت إلى أرضية صالة الاستقبال .

انحنى مينكيل ليملأ الاستمارة كان قد وضع جواز سفره عند مرفق ذراعه لكى يكتب البيانات . وقفت تشارلى على يمين مينكيل وراحت تحملق من فوق كتفه أثناء انهماكه فى الكتابة . وظهرت الزوجة على اليسار وراحت تنظر إلى تشارلى فى دهشة وحيرة . ثم لكزت زوجها بكوعها . عندئذ أدرك مينكيل أن هناك مَنْ يرقبه عن كثب فرفع رأسه المهيب فى بطء . واستدار ليواجه تشارلى وتظاهرت بالخجل وقالت : هل أنت البروفيسور مينكيل ؟

كانت له عينان رماديتان مليئتان بالإرهاق . وبدا أكثر ارتباكا من تشارلى أحست بالثقة فى نفسها عندما أدركت أن أداءه ردىء للغاية . فقالت بسرعة :

– يا بروفيسور . اسمى إموجين باستروب من جوهانسبرج . خريجة قسم

الدراسات الاجتماعية من حسن حظى أننى سمعت محاضرتك المئوية فى السنة الماضية والتى كانت تتناول حقوق الأقليات فى المجتمعات العنصرية . كانت المحاضرة رائعة لقد غيرت مجرى حياتى . كنت أودّ الكتابة إليك لكن حدثت بعض الظروف فهل تسمح أن أصافحك باليد ؟

واضطرت من الناحية العملية أن تمسك يده لكى تتمكن من مصافحته. حملق فى بلاهة نحو زوجته . التى كانت أكثر لباقة منه سارعت بالابتسام لتشارلى تشجع مينكيل وابتسم ابتسامة ضعيفة واهنة .

– هل ستقيم هنا لفترة طويلة يا دكتور ؟ وما الذى ستفعله هنا ؟ هل ستلقى المحاضرات مرة أخرى ؟

وفى خلفية الموقف وخارج نطاق البؤرة راح روسينو يسأل فتاة الاستقبال عما إذا كان شخص يسمى بوكاسيو قد حجز لنفسه من ميلانو أم لا ؟

سارعت مدام مينكيل إلى إنقاذ زوجها مرة أخرى من ورطته حيث قالت موضحة : إن زوجى يقوم برحلة فى أوربا . فنحن نمضى أجازة . ونلقى محاضرات قليلة ، ونقوم بزيارة الأصدقاء . ونتطلع إلى الاستمتاع بالرحلة .

تشجع مينكيل وقال : وما الذى أتى بك إلى فرايبورج يا آنسة باستروب ؟

– أوه . وددت فقط أن أستمتع بعض الشىء بالعالم قبل أن أقرر ماذا ينبغى على أن أفعله فى حياتى .

قالت موظفة الاستقبال إنها لم تجد حجزا باسم السيد بوكاسيو . وأضافت إن الفندق كامل العدد ، وهى تناول المفتاح للسيدة مينكيل راحت تشارلى توجه الشكر لمينكيل مرة أخرى على تلك المحاضرة المليئة بالتنوير والثقافة . فراح يرد على كلماتها الرقيقة وبعد أن وجه روسينو الشكر لفتاة الاستقبال انطلق نحو الفندق الرئيسى كانت المحفظة الجلدية متوارية تحت المعطف الأنيق الخاص بروسينو . وفى فيض من الشكر والاعتذارات خرجت تشارلى من الفندق وراء روسينو بدون أن تظهر أنها فى عجلة من أمرها ولدى وصولها إلى الأبواب

الزجاجية شاهدت الصورة المنعكسة لمينكيل وزوجته يحملقان فى يأس حولهما مع محاولة تذكر مَنْ الذى كان معه المحفظة فى آخر مرة وأين .

وصلت تشارلى إلى المكان المخصص لوقوف سيارات الفندق فوجدت هيلجا تنتظرها داخل سيارة ستروين خضراء . فدخلت إلى جوارها بالسيارة . قادت هيلجا السيارة نحو بوابة الخروج . ووضعت تذكرتها ونقودها . وبعد ارتفاع الذراع المعدنى من أجل فتح الطريق انفجرت تشارلى ضاحكة وقالت «إنه أمر لا يصدقه العقل ياهيلجا . كان عليك أن تشاهدينى وأنا أفعل ذلك ياالهى . أيها السيد المسيح !

.. ..

وفى غرفة العمليات جلس ليتفاك بجوار جهاز اللاسلكى ، بينما وقف بيكار وكيرتز خلفه . بدا على ليتفاك كأنه خائف من نفسه فهو شاحب الوجه يضع جهازا للرأس به سماعة أذن واحدة وميكروفون .

قال ليتفاك لقد أخذ روسينو سيارة أجرة للذهاب إلى المحطة . ومعه المحفظة الجلدية .

فقال بيكار عبْر كتف ليتفاك موجها كلامه لكيرتز : لا أريد أن يتتبعه أحد .

فجذب ليتفاك جهاز الرأس . وبدا كأنه لا يصدق أذنيه ، قال «لا تريد أن يتتبعه أحد ؟ لدينا حاليا ستة من الرجال حول الدراجة البخارية . كما أن أليكسيس خصص ٥٠ رجلاً من أجل المتابعة . لقد ركبنا جهازاً صغيراً فى الدراجة البخارية . وجهزنا عدداً كبيراً من السيارات الواقفة على أهبة الاستعداد والمنتشرة فى جميع أرجاء المدينة . إذا تتبعنا الدراجة البخارية فهذا معناه أننا نتتبع المحفظة الجلدية وهى التى ستقودنا إلى الرجل الذى نرغب فى اصطياده .

سأل كيرتز : ما رأيك يا جادى ؟

رد بيكار : سوف يستخدم طريقة التقطيع والخروج عن الطريق الرئيسى . وهو دائما ما يستخدم هذا الأسلوب ولذلك من المتوقع له أن يقطع مسافة ومعه

هذه المحفظة . ثم يسلمها بعد ذلك لشخص آخر يقوم بدوره بتسليمها إلى شخص ثالث متخصص فى المرحلة التالية . وبحلول فترة ما بعد ظهر هذا اليوم سيكونون قد جرونا وراء هم فى جميع أرجاء الشوارع الضيقة بالمدينة ومنها إلى المناطق الريفية المكشوفة والمطاعم الشاغرة . لذا يمكن القول إنه لا يمكن لأى فريق فى العالم أن يتمكن من مواصلة المراقبة على هذا النحو دون أن ينكشف أمره .

تساء ل كيرتز : وما هو الأمر الذى يعنيك شخصيا ؟

أن تظل بيرجر ملازمة لتشارلى طوال النهار . ولسوف يقوم خليل بالاتصال بها فى مواعيد متفق عليها وفى أماكن متفق عليها . وإذا ساورت خليل أية شكوك ولو ضئيلة فإنه سيصدر أوامره على الفور لبيرجر بأن تقتل تشارلى . وإذا لم يتصل تليفونيا خلال ساعتين أو ثلاث فإن بيرجر ستبادر إلى قتل تشارلى أيضاً .

وبدا على كيرتز أنه غير قادر على اتخاذ قرار معين . ثم أعطى ظهره لكل من جادى وليتفاك . وراح يتجول فى أرجاء الغرفة . بينما يرقبه ليتفاك فى جنون وأخيرا التقط كيرتز سماعة تليفون الخط الساخن مع أليكسيس . وراح يتكلم فى هدوء لبعض الوقت ثم أصغى ، وتحدث مرة أخرى وأخيراً وضع سماعة التليفون .

قال ليتفاك فى جموح ووحشية وهو يصغى لجهاز الرأس الخاص به : إنه بصدد الوصول إلى المحطة فى خلال تسع ثوانٍ وأضاف فى خلال ست ثوانٍ .

فتجاهل كيرتز كلام ليتفاك . وقال : لقد أبلغت توا أن بيرجر وتشارلى دخلتا توا إلى محلّ كوافير من الطراز الحديث . ويبدو أنهما ستتجملان بأحسن أنواع المكياج من أجل التلاؤم مع هذا الحدث المهم العظيم .

قال ليتفاك فى يأس : إن سيارة الأجرة التى استقلها روسينو وصلت توا إلى ميدان محطة السكة الجديد . وهو يقوم الآن بدفع النقود للسائق .

كان كيرتز ينظر إلى بيكار بكل الاحترام والتقدير قال ونظرته مثبتة على

بيكار : يا ليتفاك ، لقد ربح جادى فترة النهار ، إصدر أوامرك لرجالك بالتوقف عن العمل . اطلب منهم أن يستريحوا حتى المساء .

دق جرس الهاتف ورفع كيرتز السماعة مرة أخرى . كان المتحدث هو البرفيسور مينكيل وقد أصابه انهيار عصبى . استمع إليه كيرتز حتى النهاية ثم تحدث لفترة طويلة مع زوجة مينكيل بهدف التهدئة من روعها .

وضع سماعة التليفون فى استياء مكبوت ، وقال : إنه ليوم لطيف حقا . فكل شخص لديه وقت عظيم .

.. ..

تلقت هيلجا أول مكالمة تليفونية وهى فى داخل محل الكوافير . ثم غادرت المحل ومعها تشارلى إلى محل لبيع الملابس حيث اشترت حذاء وقفازاً لتشارلى . وبعدئذ ذهبتا إلى الكاتدرائية حيث راحت هيلجا تلقى محاضرة تاريخية على تشارلى . وفى كثير من القهقهة والغمز واللمز والتلميح والتملق ، قامت هيلجا باصطحاب تشارلى إلى ميدان صغير حيث كانت مصممة على تعريفها على بيرتهولد شفارتز وهو «أكثر الناس فى العالم إثارة للغريزة الجنسية - بحيث إنه من المؤكد أن تقع تشارلى فى حبه على الفور» . واتضح فى نهاية الأمر أن بيرتهولد شفارتز هذا كان مجرد تمثال .

أليس رائعا ياتشارلى ؟ ألا تتمنيه لو كان بمقدورنا أن نرفع ملابسه ذات مرة ؟ هل تعرفين ما الذى فعله هذا البيرتهولد ؟ لقد كان عالما كيمائيا شهيراً . إنه مخترع البارود .

كان يحب الله حبا جماً لدرجة أنه قد علم مخلوقات الله كيف ينسفون ويدمرون بعضهم البعض . ومن ثم قام المواطنون الطيبون ببناء هذا التمثال من أجله . وهذا أمر طبيعى هل تعرفين ما الذى سنفعله عقب انقضاء هذه الليلة ؟ سنرجع ونحضر بعض الأزهار من أجل بيرتهولد . ونضع الأزهار عند قدميه . أليس كذلك يا تشارلى ؟

ذهبتا إلى مطعم فاخر من أجل تناول طعام الفداء وقدمت هيلجا خمور بادين لتشارلى . وتم استدعاء هيلجا لكى ترد على التليفون مرة أخرى. وعندما عادت أشارت أنه ينبغى عليهما الذهاب إلى الجامعة وإلا فإنهما لن يتمكنا من إنجاز أى شىء . ولذلك دخلتا فى طريق تحتانى مخصص للمشاة وزاخر بالمحلات الصغيرة التى تقع على كلا الجانبين . ثم بزغتا أمام مبنى مشيد بالحجـر الرملى له أعمدة وواجهة مقوسة بها حروف ذهبية فى أعلاها . سارعت هيلجا إلى ترجمة الكلمات.

توجد هنا ياتشارلى رسالة جميلة من أجلك . استمعى إلىّ «الحقيقة سوف تحررك » إنهم يقتبسون كلاما من كارل ماركس من أجلك . أليس ذلك أمراً جميلا ورائعا ومتسما بالأفكار العميقة الأصيلة ؟

قالت تشارلى : لقد اعتقدت أن هذه العبارة مقتبسة عن نويل كوارد .

وكان هناك ميدان حجرى يحيط بهذا المبنى وشرطى عجوز يقوم بأعمال الحراسة على المبنى وينظر فى حذر إلى الفتاتين . فى الداخل كانت أضواء الصالة تلمع من خلال أبواب زجاجية مظلمة . وكان المدخل الجانبى يحظى بحراسة تمثالين لكل من : هوميروس وأرسطو ، إنه المكان الذى تلكأت فيه هيلجا وتشارلى لفترة طويلة حيث أبديتا إعجابهما بالتماثيل وبالأسلوب الفخم للفن المعمارى بينما كانتا فى حقيقة الأمر تقيســان المسافات والفتحـــات والمداخل والمنافذ . كان هناك ملصق أصفــر اللون عن المحاضــرة التى سيلقيها مينكيـل فى نفــس ذلك المساء .

وهمست هيلجا : هل أنت خائفة يا تشارلى ؟ استمعى إلىّ . بعد ما قمت به فى هذا الصباح أقول لك إنك سوف تحرزين نصرا كاملا . فأنت انسانة رائعة سوف توضحين ما هى الحقائق وما هى الأكاذيب سوف توضحين لهم المفهوم الحقيقى للحرية . ونظرا لأن العالم ملىء بالأكاذيب فإننا بحاجة للقيام بعمل هائل . إنه أمر منطقى تماما .

كان هناك كوبرى جديد للمشاه يمتدّ عبر طريق مزدوج للسيارات . وكانت هناك أعمدة طوطمية حجرية رهيبة مشتملة على تصوير تشخيصى للموت تطل على كلا الجانبين . ومن الكوبرى ذهبتا إلى مكتبة الجامعة ومنها إلى مقهى الطلبة. ومن خلال الأبواب الزجاجية للمقهى كان بمقدورهما مشاهدة الأساتذة والطلبة يدخلون ويخرجون من قاعة المحاضرات وكانت هيلجا فى انتظار مكالمة تليفونية أخرى . وجاء ت المكالمة بالفعل . ولدى عودتها عقب الانتهاء من التحدث فى التليفون شاهدت شيئا ما فى تعبيرات وجه تشارلى سبب لها الغضب قالت فى صوت خافت : ماذا دهاك ؟ أنت ممتلئة بالشفقة والحنو والتعاطف مع آراء مينكيل الخلابة على نحو فجائى ؟ استمعى إلىّ . إن مينكيل هذا أكثر سوءاً من هتلر . وهو طاغية فى حالة من التخفى والتنكر . لسوف أشترى لك مسكرا هولنديًا ثقيلا هولندى ثقيل يسمى الشينص كى يثير الشجاعة فى داخلك .

وكانت سخونة المشروب مازالت تحرقها لدى وصولهما إلى الحديقة العامة . وراح هواء المساء يحدث وخزا بسبب وجود ذرات المياه المتجمدة فى الهواء . وفى صوت مرتفع دق جرس قديم معلنا الساعة فأطلقت هيلجا على الفور صيحة ابتهاج.

– أوه تشارلى . استمعى إلىّ . هل سمعت ذلك الجرس ، إنه مصنوع من الفضة.

أومأت تشارلى برأسها . وحاولت أن تبتسم ولكنها لم تفلح فى ذلك . لفت هيلجا ذراعها القوى حول تشارلى وقالت ياتشارلى – استمعى إلىّ – أأنت بحاجة لأن أقدم لك موعظة .

فهزت تشارلى رأسها ونظرت هيلجا إلى ساعتها وهى تضم تشارلى إلى صدرها ثم نظرت نحو الظلام الآخذ فى التزايد :

– أتعرفين أية معلومة أخرى عن هذه الحديقة يا تشارلى ؟

– أعرف أنها ثانى أسوأ مكان فى العالم . وأنا لا أمنح أبداً . جوائز أولى.

نظرت هيلجا إلى ساعة يدها مرة أخرى ثم حملقت فى الظلام المليء بالضباب . وقالت : إنه هنا . مع السلامة .

فقالت تشارلى فى داخل ذهنها ... لا تجعلينى أذهب إلى خليل .

فوضعت هيلجا يديها على خدى تشارلى . ثم قبلتها فى رفق على شفتيها .

ثم قبلتها مرة أخرى فى مزيد من العنف وقالت لها : سوف تقابلين «خليل» من أجل ميشيل . سوف تقابلينه من أجل الثورة والسلام وميشيل سيرى فى خط مستقيم على الممر إلى أن تصلى إلى بوابة ، وهناك ستجدين سيارة فورد خضراء فى انتظارك . اجلسى فى المقعد الخلفى وراء السائق مباشرة .

أوه تشارلى . استمعى إلىّ . أنت إنسانة رائعة ولسوف نصبح صديقتين دائما وللأبد .

ثم لوحت هيلجا بيدها الكبيرة . وردت عليها تشارلى بتلويحة من يدها بينما كان برج الكاتدرائية يرقبها .

.. ..

كان السائق يرتدى قبعة من الفراء تخفى نصف وجهه . وقد رفع الياقة الفرائية لمعطفه لأعلى . لم يستدر لكى يلقى التحية عليها . ومن المكان الذى تجلس فيه لم تتمكن من تكوين صورة عن شكله ، وساورتها شكوك بأنه عربى ، كان يقود السيارة فى بطء بين حركة مرور المساء فى بادىء الأمر . ثم إلى داخل المناطق الريفية المكشوفة عبر حارات ضيقة مستقيمة مازالت مغطاة بالثلوج .

قالت تشارلى «شكرا» . سمعته وهو يضحك فى جلجلة : لقد كان شابا عربيا بكل تأكيد . وصعد بالسيارة على تلّ . وتوقف بعدئذ عند محطة أتوبيس . وناولها عملة معدنية وقال : اقطعى تذكرة من فئة اثنين مارك واستقلى الأتوبيس التالى المتجه فى ذلك الطريق .

كان الظلام حالكا وكانت النجوم الأولى قد شرعت فى البزوغ . هبت

الرياح الريفية القاسية من فوق التلال . وعلى مسافة ما على الطريق شاهدت أضواء محطة بنزين لم تكن هناك أية منازل على الإطلاق . انتظرت خمس دقائق .

اشترت تذكرة وجلست بالقرب من باب الأتوبيس وقد وضعت ركبتيها بجوار بعضهما البعض . وفى المحطتين التاليتين لم يصعد إلى الأتوبيس أى شخص . وفى المحطة الثالثة صعد شاب يرتدى سترة جلدية وأجلس نفسه إلى جوارها فى بهجة . لقد كان هو سائقها الأمريكى خلال الليلة الماضية .

قال فى شغف واهتمام : بعد محطتين توجد كنيسة جديدة . لسوف تنزلين من الاتوبيس . وتسيرين على الطريق . وتتخطين الكنيسة مع الالتزام بالسير فى الممشى الجانبى الأيمن . وبعدئذ سوف تشاهدين سيارة حمراء واقفة بها تمثال صغير لشيطان يتدلى من مرآة السائق . وعليك أن تفتحى الباب وتجلسى وتنتظرى وهذا ما عليك أن تفعليه .

وقف الأتوبيس نزلت تشارلى وشرعت فى المشى . أما الولد فقد ظل راكبا . وكان الطريق مستقيما ، وكان الليل حالكا وعلى مسافة أمامها ربما فى حدود ٥٠٠ ياردة شاهدت بقعة ملطخة حمراء معقوفة تحت أحد مصابيح الشارع . وكان الثلج تصدر عنه أصوات كالصرير تحت حذائها ذى الرقبة الجديد . أعطاها إحساسا بأنها منفصلة عن جسدها . مرحبا أيها القدمان ماذا تفعلان هنالك ؟ سيرى أيتها الفتاة . سيرى . واقتربت تدريجيا من السيارة . إنها سيارة واقفة فوق الحاجز الحجرى عند حافة الطريق . وبعد السيارة وعلى مسافة ٥٠ ياردة على الطريق يوجد مقهى صغير ، وإلى ما وراء المقهى لا شىء سوى الهضبة الثلجية العارية والطريق الممتد إلى مالا نهاية .

فتحت تشارلى باب السيارة وجلست فى داخلها . كانت مضاءة من خلال الأنوار المترامية من مصباح الشارع الموجود فوقها . وشمت رائحة بصل . وشاهدت صندوقا من الورق المقوى الملىء بالبصل حيث يوجد بين كرتونات مليئة بالزجاجات الشاغرة فى الجزء الخلفى من السيارة .إنه أهدأ مكان فى العالم .

وتقدم ضوء رفيع فى بطء نحوها على الطريق ، وعندما اقترب الضوء أدركت أنه قس شاب راكب دراجة . استدار نحوها لدى مروره بجوارها . وبدت على وجهه مشاعر الاستياء كما لو كانت هى قد ارتابت فى نقائه وطهارته . وراحت تنتظر مرة أخرى . ثم خرج من المقهى رجل طويل يرتدى طاقية لها حافة . وتشمم الهواء وعاد إلى المقهى . ثم خرج مرة أخرى . وسار فى بطء نحوها إلى أن أصبح بجوارها . ثم طرق على زجاج نافذة تشارلى بأطارف أصابع يد واحدة مرتدية قفازاً . إنه قفاز جلدى لامع . سطعت أنوار بطارية يد صغيرة على تشارلى . وألقى بالضوء فى بطء حول السيارة ثم عاد وسلط الضوء على إحدى عينيها . فرفعت تشارلى إحدى يديها لكى تحمى عينيها . ثم أطفئت البطارية وفتح بابها . وأطبقت يد واحدة على معصم يدها وجذبتها إلى خارج السيارة . وأصبحت واقفة وجها لوجه معه لقد كان أطول منها بحوالى قدم وكان عريض المنكبين إلا أن وجهه كان واقعا تحت ظلال سوداء أسفل حافة طاقيته ، كان قد رفع ياقته لأعلى للاحتماء من البرد .

قال لها : لا تتحركى ، ثم انتزع حقيبة كتفيها وفتحها وراح ينظر فى داخلها . وللمرة الثالثة يثير الراديو الصغير الخاص بها الانتباه الشديد . حيث قام بتشغيله ثم أغلقه . وراح يعبث فيه ثم دفع بشىء إلى داخل جيبه . وخطر على ذهنها للحظات أنه قرر أن يأخذ الراديو . لكنها شاهدته يعيده إلى حقيبتها . ثم ألقى بالحقيبة فى السيارة . ثم وضع أطارف أصابع يده على كتفيها بينما لا يزال يحملق على وجهها . أنزل ذراعه اليمنى فى بطء وراح يلامس جسدها فى رفق بالجزء المسطح من يده اليسرى متفحصا رقبتها وكتفيها فى بادىء الأمر ، ثم عظمة الترقوة والعظام الكتفية مع تفحص الأماكن التى توجد عليها شرائط الصديرية . ثم تفحص إبطيها وجوانب ردفيها وثدييها وبطنها .

– فى هذا الصباح أثناء وجودك بالفندق كنت ترتدين السوار فى معصم يدك اليمنى . هذه الليلة ترتدينه فى يدك اليسرى . فما سبب ذلك ؟ كانت بلغته

الانجليزية لكنة أجنبية تنم عن ثقافة ودماثة الخلق وخيل إليها أنه ينطق الانجليزية فى لكنة عربية . كان صوته رخيما ولكنه قوى فى نفس الوقت . صوت شبيه بصوت الخطيب . قالت : أحب أن أغيّر فأنقله من يدٌ لأخرى فقال فى إصرار : لماذا ؟

– لكى أشعر أنه جديد .

فهبط جاثما وراح يتفحص ردفيها وساقيها والأجزاء الداخلية بين فخذيها فى دقة بالغة . ثم لكز فى حذر حــذاء ها الجديد . وتساءل لدى نهوضه واقفا : هل تعرفين ثمن هذا السوار ؟

– لا .

– قفى ساكنة بدون حركة .

وقف خلفها وراح يتفحص ظهرها وردفيها وساقيها مرة أخرى ألم تؤمّنى على هذا السوّار ؟ .

– لا .

– ولم لا ؟ .

– أعطاه لى ميشيل على أساس أنه هدية حبنا . أعطاه لى مجاناً بدون نقود .

– ادخلى السيارة .

ففعلت ذلك . سار حولِ السيارة من الجهة الأمامية . ثم جلس إلى جوارها . شغل موتور السيارة . وقال :حسنا لسوف أصطحبك لكى تقابلى خليلا . تسليم من الباب للباب .

لاحظت أنه يقود السيارة بيده اليسرى بينما وضع يده اليمنى فى حجره . ترامى صوت الزجاجات الشاغرة المتنافرة فشعرت بالدهشة ووصل إلى مفترق الطرق . ثم استدار إلى اليسار . ودخل فى طريق مستقيم خالٍ من مصابيح

الإضاءة . وذكرها الجزء الذى تمكنت من مشاهدته من وجهه بوجه يوسف . ليس من حيث الملامح ولكن من حيث التصميم والرغبة فى تحقيق الهدف . ومن حيث الزوايا المشدودة إلى الخلف فى عينيه والتى تجعلها شبيهة بعينى مقاتل . قال بصوت يعلو على قعقعة الزجاجات : هل تحبين البصل ؟

– أحبه تماما .

– هل تحبين أن تقومى بطهو الطعام ؟ وما الذى تطبخينه ؟ الأسباجيتى؟ .

– أشياء من هذا القبيل .

– ماذا طهوت لميشيل ؟

– شرائح من لحم البقر .

– متى ؟

– فى لندن . فى الليلة التى أقام فيها معى فى شقتى .

فصاح : ولا بصل ؟

قالت : فى السلاطة .

وكانا يتجهان عائدين فى اتجاه المدينة . ثم نزلا من فوق تل ووصلا إلى وادٍ منبسط . شاهدت تشارلى مصانع غير مكتملة البناء ومساحات مخصصة لوقوف الشاحنات الضخمة . ولكنها مساحات شاغرة . لم تكن هناك أضواء فى أية نافذة. ثم دخلا إلى فناء أمامى . وهنا أوقف السيارة بدون أن يطفىء الموتور . وقرأت تشارلى عبارة مكتوبة بحروف من النيون الأحمر : «فندق جارنى عدن» . وفوق المدخل المبهرج بالديكورات كانت توجد عبارة : « مرحبا » بعدة لغات اوربية.

ناولها حقيبة الكتف ثم قال لها كأن فكرة قد خطرت على ذهنه : «أعطيه هذه الأشياء فهو يحبها للغاية» وأخرج لها صندوق البصل ، لاحظت مرة أخرى سكون يده اليمنى المرتدية للقفاز . وأضاف قائلا : الغرفة رقم ٥ الدور الرابع . اصعدى السلم . ولا تستعملى المصعد .

راح يرقبها وهى تعبر الفناء الأمامى وتتجه نحو المدخل المضاء ، وكان الصندوق أثقل وزنا مما كانت تتوقعه مما اضطرها لأن تحمله بكلا ذراعيها . وكان الرواق شاغرا . وكان المصعد فى حالة انتظار ، لكنها لم تستخدمه . بدت السلالم ضيقة وملتوية . السجادة بالية ومليئة بالخيوط . وكان صوت الموسيقى المسجلة مليئة بتلميحات لاهثة متسمة بالتلهف والاشتياق . وكان الهواء مليئا برائحة دخان السجائر الكريهة .

وعند بسطة السلالم الثانية سمعت تشارلى موسيقى وضحكات أنثوية. وعند البسطة الثالثة فوجئت بالمصعد يتجه لأعلى فساءلت نفسها فى تعجب : تُرى لماذا لم يسمح لى باستخدام المصعد ؟ . كان الصندوق ثقيلا مما جعل الألم يتفجر فى ذراعيها ، ووصلت إلى الدور الرابع .

وطرقت على باب الشقة رقم ٥ وفتح الباب . أصيبت بالذهول . لأن الرجل الذى فتح باب الشقة كان هو نفس الرجل الذى قاد السيارة ولكن بدون غطاء الرأس وبدون قفاز اليد اليسرى . أخذ منها الصندوق ووضعه على المنضدة المنخفضة الخاصة بالأمتعة ثم نزع عنها نظارتها وطواها وأعادها إليها . وبعدئذ أخذ منها حقيبة الكتف وأفرغ محتوياتها على لحاف رخيص محشو بزغب البط الناعم . وكانت هناك المحفظة الجلدية ملقاة على المنضدة التى يوضع عليها ابريق لغسل الوجه واليدين ، وكانت المحفظة شاغرة وفمها الأسود متجه نحوها مثل فك مفتوح.

.. ..

هبط هدوء شديد على الرجال الثلاثة فى غرفة العمليات الخاصة بهم . لا مكالمات تليفونية . ولا اعترافات يائسة علنية بشأن الرابطة الشفرية مع السفارة فى بون . ومن خلال قصورهم الجماعى بدت المؤامرة وكأنها تحبس أنفاسها خوفاً . سقط ليتفاك فجأة فى قنوط واكتئاب فوق الكرسى . أما كيرتز فقد غرق فى حلم متفائل من نوع ما حيث كان قد أغلق عينيه بعض الشىء واستغرق فى ابتسامة .

وكان جادى بيكار هو أكثرهم هدوءاً وهو يحملق فى الظلام الآخذ فى التزايد مثل رجل يتفحص كافة التعهدات الخاصة بحياته المنصرمة من أجل أن يعرف التعهدات التى أوفى بها وتلك التى لم يوف بها . قال ليتفاك : كان ينبغى أن نزودها بعبوة ناسفة فى هذه المرة . فهم يثقون فيها حاليا . لماذا لم نزودها بالعبوة الناسفة ؟ لماذا لم نزودها بشراك معدنى ؟

قال بيكار : لأنه سوف يفتشها فى دقة بحثا عن أية أسلحة أو أسلاك أو جهاز لاسلكى .

قال ليتفاك فى مجادلة : إذن لماذا يستخدمونها ؟ أنت إنسان معتوه . لماذا يستخدمون فتاة لا يثقون فيها من أجل انجاز مهمة كهذه ؟

قال بيكار : لأنها لم تقتل أحدا حتى الآن لأنها نظيفة . وذلك هو السبب فى أنهم يستخدمونها كما أنه سبب يجعلهم لا يثقون فيها .

قال كيرتز فى ابتسامة بها سمة انسانية :

– عندما تقوم بأول عملية قتل يا شيمون . وعندما لا تصبح مجرد إنسانة مبتدئة . وعندما تصير إنسانة تنتهك القوانين فسوف يضعون ثقتهم فيها . سيثق فيها كل شخص . وأضاف مؤكدا لليتفاك فى رضا واقتناع : بحلول الساعة التاسعة فى هذه الليلة ستصبح واحدة منهم – ليست هناك مشكلة فى هذا الشأن يا شيمون . لا مشكلة .

ظل ليتفاك على حالته وهو لا يشعر بارتياح .

الفصل الخامس والعشرون

كان وسيما وجميلاً . كان بمثابة النسخة الناضجة الكاملة لميشيل . وكان له نفس صفات يوسف من حيث الامتناع عن تناول الخمور والرقة والكياسة . كان عريض الكتفين ومهيبا مثل تمثال منحوت . إنه من النوع الذى إذا دخل مطعما يتوقف الناس عن الكلام . وإذا خرج من مطعم يشعر الناس بالارتياح . رجل يحب الانطلاق فى العراء بين الهواء الطلق . ولكنه مضطر للاختباء فى داخل غرف صغيرة مغلقة مما أدى إلى امتقاع بشرته وشحوبه الشديد .

كان قد جذب الستائر . وأضاء مصباح الفراش . لم يكن هناك مقعد من أجلها . استخدم السرير كمنصة لأعمال النجارة . وألقى الوسائد على أرضية الغرفة إلى جوار الصندوق وأجلسها . بينما انصرف إلى إنجاز الأعمال يتكلم طوال الوقت أثناء العمل موجها الكلام لنفسه أحيانا ولها أحياناً أخرى ، وكان صوته لا يعرف سوى الهجوم = مسيرة عسكرية من الأفكار والكلمات تتدفق للأمام .

– إنهم يقولون إن مينكيل إنسان ظريف . وربما هو ظريف بالفعل . عندما قرأت كلاما مكتوبا عنه قلت لنفسى إن هذا العجوز مينكيل ربما لديه الشجاعة التى تعينه على قوْل ذلك الكلام . إننى احترمه وأبجله . ولا توجد لدّى مشكلة إزاء هذا الأمر .

ووضع البصل فى ركن . ثم راح يبحث عن مجموعة من اللفائف الصغيرة الموجودة داخل الصندوق مستخدما يده اليسرى ، أخذ يفك أغلفتها الواحدة تلو الأخرى مع استخدام اليد اليمنى لتثبيتها فى أماكنها أثناء الفك . راحت تشارلى ترقبه فى تركيز : لفافة تضم حجرى بطارية ؛ ولفافة أخرى تحتوى على جهاز

تفجير من نفس الطراز الذى استخدمته فى القلعة من أجل التدريب ، مزود بأسلاك حمراء متبرعمة . ولفافة بها مطواة ، أخرى بها مسامير من الصلب وخيوط من النحاس الأحمر . وشريط عازل كهربائى ، ولبة بطارية يد ، وقضبان خشبية صغيرة ذات أطوال متنوعة مختلفة . بالاضافة إلى قطعة من الخشب من أجل استخدامها كقاعدة للجهاز الذى يقوم بتصنيعه . وأخذ خليل سبيكة اللحام واتجه إلى حوض غسيل الأيدى وعرضها لمصدر حرارى قريب مما أدى إلى ظهور رائحة تراب محترق .

هل تعتقدين أن الصهاينة يفكرون فى جميع الناس الطيبين عندما يقصفوننا بالقنابل ؟ لا أظن ذلك . إنهم يحرقون قرانا بالنابالم . ويقتلون نساءنا وأطفالنا . لا أعتقد أن الطيار الاسرائيلى الإرهابى الجالس فى طيارته بالأجواء العليا يقول لنفسه « هؤلاء مدنيون مساكين . هؤلاء الضحايا أبرياء » اعتقدت تشارلى أنه يكلم نفسه على ذلك النحو عندما يكون بمفرده فى غرفته . فهو يقضى وقتا طويلاً بمفرده . يكلم نفسه على ذلك النحو كى يجعل إيمانه عميقا ومتواصلاً كى يجعل ضميره مستريحاً وهادئاً . أضاف خليل قائلا : « لقد قتلتُ أناساً كثيرين. لقد قتل الصهاينة الكثيرين أيضا . لكننى أقوم بالقتل من أجل الحبّ فقط. أنا أقتل من أجل فلسطين ومن أجل أطفال فلسطين . وحاولى أن تفكرى من هذه الزاوية أيضاً .

ثم نظر إليها فى عمق متسائلاً : هل تشعرين بالتوتر ؟

– نعم .

– هذا أمرٌ طبيعى . فأنا متوتر وعصبى أيضاً . هل تشعرين بالتوتر أثناء وجودك على خشبة المسرح ؟

– نعم .

– الأمر سيّان . نحن نلهم الناس ونثير مشاعر الاستياء والغضب والحبّ بين

الناس . بل ونحن ننير عقولهم ثقافيا وروحيا . وهذا هو ما يفعله المسرح أيضاً . فالإنسان الفدائي هو أعظم ممثل فى العالم .

– لقد كتب ميشيل نفس هذه المعانى فى الخطابات التى أرسلها إلىَّ .

– ولكننى أنا الذى قلت له هذه المعانى . إنها أفكارى أنا .

كان الطرد الثانى ملفوفا فى ورق زيتى . فقام بفتحه فى هدوء وتبجيل واحترام . يوجد به نصف رطل من الأصابع البلاستيكية الروسية وضعها فى افتخار فى مكانها فى وسط الحاشية المحشوّة بالزغب .

أضاف خليل قائلاً : الصهاينة يقومون بالقتل بسبب ما يعتمل فى صدورهم من خوف وكراهية . أما الفلسطينيون فيقومون بالقتل من أجل الحبّ وتحقيق العدالة . عليك أن تتذكرى دائما الفارق فى السلوك . لأن ذلك أمر بالغ الأهمية . عليك أن تتذكرى الفارق إذا شعرت بالخوف . وأن تقولى لنفسك إنك تعملين من أجل تحقيق العدالة . وإذا ذكرت نفسك بذلك فلن تشعرى بالخوف على الإطلاق .

قالت : أنا أمارس العنف من أجل ميشيل أيضا .

فلم يشعر بالاقتناع التام إزاء سماع هذه العبارة . ولكنه أذعن قائلا : « ومن أجل ميشيل أيضاً ، ثم استخرج مشبكين للغسيل . ووضعهما على السرير . ثم وضعهما فى دائرة الضوء لكى يضاهى ما بينهما . وبينما راحت تشارلى ترقبه لاحظت وجود مساحة من البشرة البيضاء المتجعدة فى المكان الذى يلتقى فيه خدّه مع الجزء الأسفل من أذنه وكأنَّ هذه المساحة قد صُهرت مع بعضها البعض ثم تعرضت للتبريد مرة أخرى .

تساءل خليل بدافع من حبّ الاستطلاع أثناء اختياره للمشبك الأنسب : لماذا تضعين يديْك على وجهك ؟

قالت : كنت أشعر بالإرهاق للحظات .

إذن عليك أن تكونى متنبهة ومتيقظة من أجل أن تنفذى مهمتك . وأيضاً من

أجل الثورة . هل تعرفين هذا النوع من القنابل ؟ هل قام الكابتن تايه بتعليمك شئ عن هذه القنابل ؟

– لا أدرى . ربما بوبى علَّمنى ذلك .

جلس إلى جوارها والتقط القاعدة الخشبية ورسم عليها بعض الخطوط من أجل الدائرة الكهربائية مستخدما قلما له سنّ على هيئة كرة . قال : « هذا الذى نصنعه هو قنبلة من أجل جميع الحوادث والمناسبات . إنها تعمل أيضاً كأداة فى محرك داخلى الاحتراق تجعل الشرارة تنبعث فى الوقت الملائم . وهى تعمل أيضا من حيث هى شرك الغفلة : أىْ من حيث هى قنبلة مخبوءة متصلة بشىء لا يثير الريبة والشك . وينبغى عليك عدم الثقة فى أيّ شىء . وهذه هى فلسفتنا . أتعرفين أننى لست مناهضا للسامية ؟

– نعم .

اتجه نحو حوض غسيل الأيدى . وراح يلحم الأسلاك فى رأسى دبوّسىْ الرسم وتساءل فى حيرة : كيف عرفت ذلك ؟

لقد قال لى الكابتن تايه نفس هذا الكلام وكذلك قاله ميشيل .

تمتم خليل : إن تعبير المناهضة والعداء للسامية هو ابتكار مسيحى أنتم أيها الأوربيون مناهضون لكل فرد . مناهضون لليهود ومناهضون للعرب ومناهضون للزنوج والسود نحن لنا أصدقاء كثيرون فى ألمانيا . والسبب فى ذلك ليس نابعاً من حبهم لفلسطين ولكن لأنهم يكرهون اليهود . وتلك المرأة التى تُسمى هيلجا ... هل تشعرين بالارتياح والحبّ نحوها ؟

– لا .

– ولا أنا أيضاً ، فهى على ما أعتقد ، امرأة منحطة وسافلة ومتفسخة.

– هل تحبين الحيوانات ؟

– نعم .

– كان جالسا إلى جوارها بينما المحفظة الجلدية ملقاة على السرير بجواره، تساءل : هل كان ميشيل يحب الحيوانات ؟ » .

وكان يوسف قد سبق له أن قال لها : اختارى ولا تترددى . فمن الأفضل أن تكونى غير متسقة منطقيا على أن تكونى غير متأكدة ومثيرة للشكوك .

قالت : لم يحدث لنا أن تحدثنا سويا عن الحيوانات ولا عن الخيول ؟

– ولا عن الخيول ؟

كان يوسف قد سبق له أن قال لها : ولا ترجعى فى كلامك ولا تصححى من أقوالك السابقة أبداً .

– لا .

واستخرج خليل من جيبه منديلاً مطويا . واستخرج من وسطه ساعة جيب بدون زجاج أو عقارب . وضع الساعة بجوار المتفجرات ، وأمسك بسلك الدائرة الكهربائية الأحمر اللون . وشرع فى فكِّه . وكانت خشبة القاعدة موجودة فى حجرها . أخذها منها ثم أمسك يدها ووضعها حتى يمكنها الامساك بالشرائط أثناء قيامه بدفعها إلى الداخل فى رفق لكى يثبت السلك الأحمر فى القاعدة الخشبية طبقا للنموذج الذى رسمه . ثم عاد إلى حوض غسيل الأيدى وراح يلحم الأسلاك مع البطارية بينما تقوم بتقطيع أطوال من الشريط العازل الكهربائى باستخدام مقصّ .

قال فى فخر بعد أن أضاف الساعة : هكذا يتم انجاز هذا العمل .

وتساءل خليل وهو يأخذ لمبة ويلوى فى داخلها طرف مكشوط من السلك : هل كان أخى محتشما معك من الناحية الأخلاقية ؟ وملتزما بالقواعد الدينية ؟

– كان ملحدا .

أنه فى بعض الأحيان ملحد . ولكنه كان متدينا ، وفى بعض المرات كان مجرد ولد صغير سخيف يهتم بالنساء والسيارات . لقد أخبرنى الكابتن تايه أنك

كنت محتشمة أثناء وجودك فى المعسكر . حيث لم تصادقى الأولاد الكوبيين ولا الألمان ولا أىّ شخص .

قالت فى تأكيد شديد كنت أريد ميشيل . ذلك هو كل ما كنت أريده ، ولا أحد سوى ميشيل .

عندما نظرت إليه وجدت عبوسا وتقطيباً على وجهه . قال : الكابتن تايه رجل عظيم لقد تعرضتُ أنا والكابتن تايه لموت حقيقى سويا . هل أخبرك تايه بهذه الحادثة ؟

- لا .

وكان قد استخرج من الصندوق بطانية بنية قديمة جعلها تنشرها عبرْ صدرها أمامه لبعض الوقت بينما راح يقصها فى رشاقة إلى شرائح . وكان وجهاهما عبرْ البطانية قريبن للغاية فتمكنت من شمّ العنوبة الدافئة لجسده العربى .

كان سلاح المطواة بداخل البطانية على مسافة بوصات من جسدها ، هو يقطع فى سرعة ورشاقة كما لو كانت البطانية شيئا ما قد اصطاده وقتله وراح خليل يطوى الشرائح ويجعل منها كومات عسكرية أنيقة . ثم انكب على العمل فى محفظة مينكيل السوداء المسطحة . لاحظت تشارلى لأول مرة أن المحفظة قد فُتحت من الخلف عن طريق المفصلات بينما مازالت أقفالها مغلقة فى أحكام من الأمام . قام بوضع الشرائح الواحدة تلو الأخرى فى داخل المحفظة إلى أن أصبح هناك رصيف لينّ لكى تنام القنبلة عليه تساءل : هل تعرفين ما قاله لى الكابتن تايه ذات ليلة ؟ لقد قال لى « يا خليل . منذ متى نقوم بدور الناس الطيبين ؟ ومع ذلك فلا أحد يساعدنا . ولا أحد يقدّم الشكر لنا . نحن نلقى الخطب الرنانة ونبعث بكبار الخطباء إلى الأمم المتحدة . وإذا انتظرنا خمسين سنة أخرى فان أحفادنا - إذا تمكنوا من البقاء على قيْد الحياة - ربما لن يحصلوا إلاَّ على قدْر ضئيل للغاية من العدالة .

وفى تلك الأثناء يقوم اخوتنا العرب بقتلنا ويقوم الصهاينة بقتلنا ويقوم الكتائبيون بقتلنا ، وأولئك الذين يتبقون على قيّد الحياة منّا يذهبون إلى شتاتهم . مثل الامريكان ، ومثل اليهود أنفسهم . ولكننا إذا قمنا بصناعة بعض القنابل القليلة – وقمنا بقتل عدد قليل من الناس . وانشاء سلخانة لمدة دقيقتين فقط فى عمْر التاريخ المديد ...

وبدون أن ينهى الجملة أمسك بالقنبلة ووضعها فى وقار ودقة كبيرة فى داخل العلبة .

وأوضح قائلا فى ابتسام : « إننى احتاج لنظارة » . ثم هز رأسه كرجل عجوز ، وأضاف : ولكن إلى أين ينبغى علىَّ أن أذهب من أجل عمل نظارة طبية ، كيف يمكن لرجل مثلى أن يفعل ذلك فى حرية ؟

تساءلت تشارلى فى مزيد من التوتر : اذا كنت قد عُذبت مثل تايه فلماذا لا تعرج مثله ؟

قال : السبب فى أننى لا أعرج هو أننى توسلتُ إلى الله لكى يمنحنى القوة . فاستجاب الله ومنحنى القوة حتى يمكننى محاربة الأعداء الحقيقيين .

ناولها جهاز التفجير . وراح يرقبها فى امعان بينما راحت تربط جهاز التفجير فى الدائرة الكهربائية . وعندما فرغت من ذلك أمسك خليل بالأسلاك المتبقية . وفى حركة رشيقة تكاد تتم بدون وعى راح يلف السلك المتبقى حول أطراف أصابعه الميتة إلى أن صنع دمية صغيرة . ثم ضفَّر جديلتين من الأسلاك لكى يصنع منها حزاماً تساءل : هل تعرفين ماذا كتب لى ميشيل قبل أن يموت ؟ فى خطابه الأخير ؟

فقالت : لا . يا خليل .

لقد أرسل لى بالبريد ذلك الكلام قبل موته بساعات قليلة . « أننى أحبها . أنها ليست مثل الآخريات . صحيح أننى عندما تقابلت معها لأول مرة كان لديها

الضمير المشلول الذى يتميز به أىّ أمريكى » هنا . اربطى الساعة لو سمحت « لقد كانت عاهرة . إلاّ أنها أصبحت الآن متسمة بالطابع العربى فى روحها وشخصيتها، ولسوف أعرفها عليك وعلى شعبنا » .

ولم يتبق سوى شرك الغفلة ، ولكى يتم تركيبه كان عليهما أن يعملا عن كثب حيث طلب منها أن تثبت السلك الصلب من خلال نسيج الغطاء مع قيامه بدفع الغطاء لأسفل بقدر الامكان حتى تتمكن من انجاز عملها . ثم أخذ هذا الاختراع الغريب إلى حوض الغسيل مرة أخرى وقام باعادة دبابيس المفصلات إلى حالتها الطبيعية .

– أتعرفين ماذا قلت للكابتن تايه يوما ؟

– لا يا تايه يا صديقى . نحن الفلسطينيون الموجودون فى المنفى أناس كسالى للغاية . لماذا لا يكون لنا فلسطينيون فى داخل البنتاجون ؟ وفى داخل الادارة الامريكية ؟ ولماذا لم نقم حتى الآن بتسيير دفة الامور فى داخل جريدة النيويورك تايمز وفى « وول ستريت » وفى داخل الاستخبارات المركزية الامريكية ؟ ولماذا لا ننتج أفلاما فى هوليوود تتناول كفاحنا العظيم ؟ ولماذا لا نعمل ونجتهد بحيث يتم انتخاب شخص فلسطينى لشغل منصب عمدة نيويورك ومنصب رئيس المحكمة العليا ؟ ما هى العيوب الموجودة فينا يا تايه؟ لماذا نحن بدون استراتيجية وخطة عظمى ؟ وبدون مشروع ضخم يتطلب الجرأة فى التنفيذ ؟ لا يكفى أن شعبنا أصبح متعلما وأصبح من بينه الأطباء والعلماء والمدرسون . لماذا لم نهيمن على شئون أمريكا أيضا ؟ وهل هذا هو نفس السبب الذى يضطرنا إلى اللجوء إلى القنابل والأسلحة الأوتوماتيكية ؟

كان واقفا فى حزم ووقار أمامها وممسكا بالمحفظة الجلدية من المقبض الخاص بها .

– أتعرفين ما ينبغى علينا أن نفعله ؟

- لا .

- علينا جميعا أن نزحف فى مسيرة شعبية شاملة تضمنا جميعا . قبل أن يتمكنوا من تدميرنا للأبد نزحف فى مسيرة قادمين من الولايات المتحدة الامريكية ومن استراليا وباريس والأردن والمملكة العربية السعودية ولبنان ومن كافة الأماكن فى العالم التى فيها فلسطينيون . ونستقل السفن والبواخر ذاهبين إلى الحدود نركب الطائرات . ملايين من الفلسطينيين . مثل موجة هائلة لا يستطيع أحد صدّها. « ثم ناولها المحفظة الجلدية وراح يجمّع أدواته بسرعة ويعبئها فى الصندوق » وبعدئذ نمشى مسيرة واحدة إلى وطننا فلسطين ونطالب باسترداد منازلنا وبيوتنا وحدائقنا وقرانا حتى لو كان ذلك يتطلب منا أن نهدم مدنهم ومستوطناتهم وكيبوتزاتهم من أجل العثور على ممتلكاتنا . ولكن هذه الخطة لن تأتى بالنتيجة المرجوة . هل تعرفين السبب فى ذلك ؟ لأنهم لن يجيئوا على الاطلاق . « لأن الأغنياء لن يتحملوا أن يعيشوا فى وضع اقتصادى / اجتماعى أقلّ من ذلك الذى يعيشون فيه . ولن يستطيعوا التخلى عن أسلوب حياتهم المتسم بالرفاهية . فتجارنا لن يتخلوا عن بنوكهم ومحلاتهم الضخمة ومكاتبهم الفاخرة وأطباؤنا لن يتخلوا عن عياداتهم الطبية الأنيقة ومحامونا لن يتخلوا عن ممارساتهم وأساتذة جامعاتنا لن يتركوا جامعاتهم لذلك فإن الأغنياء يقومون بجمْع النقــود وتكوين المزيد من الثـــروات بينما الفقــراء هم الذين يقومون بأعمال القتال . ومتى كان هذا الوضع مختلفا ؟

وسارت أمامه هابطة على السلالم . وكانت السيارة مازالت واقفة فى الفناء الأمامى . إلاَّ أنه استمر فى السير متخطيا اياها كأنه لم يسبق له أن شاهد تلك السيارة فى حياته على الاطلاق . ثم تسلق صاعدا إلى سيارة فورد من النوع الذى يستخدمه القرويون وهى سيارة ديزيل محملة ببالات من القش ، ودخلت تشارلى إلى جواره بالسيارة . وظهرت التلال مرة أخرى . صدرت لها التعليمات بنفس أسلوب يوسف : يا تشارلى هل تفهمين ؟ نعم يا خليل أننى أفهم . عليك أن تتذكرى أن العمل الذى أقوم به هو من أجل السلام . سوف أتذكر ذلك يا خليل : أنه عمل من

يشعر الموجودون بداخل السيارة أنهم يثيرون اهتمام الناس ويجعلون الناس ينظرون إليهم . إلاّ أن الأمر فى هذه الليلة كان مختلفا، فقد أصبح بامكانها أن تتشامخ ، ولديها الردّ فى الحقيبة ، حملقت فيهم وشاهدت رجلاً مهندما متورّد الوجه مليئا بالطعام إلى درجة التخمة ومرتديا بدلة سوداء ورباط عنق فضىّ اللون ومعه زوجة متجهمة الوجه ولها لُغْد مضاعف صعد الرجل البارز وزوجته نحو الأبواب الزجاجية وقد جذبا اعجاب ثلاثة من المارين على الأقل . قالت تشارلى لنفسها : حالاً يا أولاد الحرام ... حالا ستشاهدون ما سيحدث .

« عند أسفل السلالم اتجهى إلى اليمين » . فعلت ذلك واستمرت فى السير إلى أن وصلت إلى ناصية . كانت هيلجا قد قالت فى مزاح : إحرصى على عدم الوقوع فى المجرى المائى لأن قنابل خليل ليست مضادة للماء يا تشارلى وأنت يا تشارلى لست مضادة للماء أيضاً . اتجهت تشارلى إلى اليسار وبدأت تطوف حول المبنى فوق رصيف ملئ بالحصى الصغير لم يفلح الثلج فى الاستقرار فوقه ، واتسع الرصيف وأصبح فناء واسعاً . فى وسطه توجد عربة كرفان كبيرة تابعة للشرطة . وأمام السيارة يوجد اثنان من رجال الشرطة مرتدين الزىّ الرسمى . يداعبان بعضهما البعض ويرفعان الحذاء لأعلى ويضحكان ، وأصبحت تشارلى على مسافة ٥٠ قدماً من الباب الجانبى وبدأت تشعر بالهدوء الذى كانت تنتظره أنه الاحساس أو بالتحليق فى الهواء الذى يهبط عليها عندما تدخل إلى خشبة المسرح وتترك كافة هواياتها الأخرى وراءها فى غرفة الملابس . أصبحت إموجين من جنوب افريقيا المليئة بالشجاعة والشهامة والتى تسارع إلى مساعدة بطل ليبرالى عظيم . وصلت بالفعل إلى باب المدخل الجانبى . فوجدته مغلقا . وجربت أكرة الباب . لكنها لم تلفّ . فاحست باهتياج عصبى شديد . فنظرت فيما حولها بهدف الاستعانة بشخص ما لكى يساعدها على فتح الباب . وعندئذ توقف رجلا الشرطة عن اللعب مع بعضهما البعض . وراحا ينظران إليها فى شك وريبة . إلاّ أنهما لم يحضرا إليها لمساعدتها .

أجل السلام ومن أجل ميشيل ومن أجل فلسطين بل ومن أجل يوسف وخليل بل ومن أجل مارتى والثورة ومن أجل اسرائيل ومن أجل مسرح الحياة الواقعية .

توقف عند زريبة ، وأطفأ الأنوار الأمامية . وراح ينظر فى ساعته . ومن على مسافة على الطريق أضاءت بطارية يدْ مرتين . فمال بجسده عليها وفتح الباب وقال لها : «اسمه فرانز ، ستخبرينه أن اسمك مرجريت . أتمنى لك حظا سعيداً » .

.. ..

كان المساء مليئا بالرطوبة والهدوء . وكانت مصابيح الشارع بالمدينة القديمة معلقة فوق تشارلى مثل أقمار بيضاء محبوسة داخل حوامل المصابيح الكتفية . لقد طلبت تشارلى من فرانز أن ينزلها عند الناصية لأنها تريد أن تقطع تلك المسافة القصيرة عبْر الكوبرى قبل أن تدخل الجامعة . إذ كانت تريد أن تبدو كانسانة لاهثة قادمة من الأجواء الخارجية الباردة وراغبة فى الدخول بسرعة إلى الجامعة . ووصلت إلى قمة الكوبرى وشاهدت الأبواب الزجاجية للمكتبة التى تقع على يسارها . كانت الأنوار مازالت متدفقة فى مقهى الطلبة . وكانت راشيل جالسة فى توتر عند النافذة ومعها ولد . وتخطت تشارلى العمود الرخامى . سارت على الممشى المحفوف بالأشجار وكانت قاعة المحاضرات تقع أمامها مباشرة السيارات تجئ تباعا وتتوقف حيث يتوافر جمهور المستمعين على السلالم الأربعة المؤدية إلى المدخل ويتوقفون للحظات لكى يصافحوا بعضهم البعض هناك اثنان من رجال الأمن يفحصون حقائب اليْد الخاصة بالسيدات . استمرت تشارلى فى السير . سوف تحرّرك الحقيقة من الخوف ، وتخطت فى سيرها العمود الثانى .

وكانت المحفظة الجلدية متدلية من يدها اليمنى . شعرت بها تتلامس مع فخذها ، انطلقت صفارة انذار من سارينة عربة شرطة مما جعل عضلات كتفها تتقلص فى رعب شديد . إلاَّ أنها ظلت مستمرة فى مشيها . توقفت ودراجتان بخاريتان تابعان للشرطة تسبقان سيارة مرسيدس سوداء عليها علم . وهى عادة عندما كانت تمرّ بجوارها سيارة فاخرة فانها كانت تشيح بوجهها بعيداٍ لكى لا

« رُفعتْ الستارة . إذهبى » .

فنادت عليهما : لو سمحتما . هل تتكلمان اللغة الانجليزية ؟ .

لكنهما لم يتحركان من مكانهما . إذا كانت هناك مسافة ينبغى قطعها فلتقم هى بنفسها بقطع تلك المسافة . فهى مجرد مواطنة عادية .

– سألتكما هل تتكلمان باللغة الانجليزية ؟ فهناك شخص ما يريد أن يعطى هذه المحفظة للبرفيسور . على الفور . هل يمكن لكما المجيئ إلىّ هنا ؟

تجهم كلاهما . إلاّ أن أحدا لم يحضر اليها . قال أحدهما فى حدة : التواليت ليس هنا وألقى برأسه لأعلى نحو الطريق الذى جاءت منه تشارلى .

– أننى لا أريد التواليت . أريد أن أعثر على شخص ما لكى يقوم باعطاء هذه المحفظة للبرفيسور مينكيل .

– لم يأخذ رجل الشرطة المحفظة . وانما جعلها تحتفظ بها بينما قام بالضغط على المزلاج ، تأكد أن المزلاج مغلق .

– إنها محفظة البرفيسور . ألا تفهمنى ؟ أعرف أن المحفظة بها المذكرات الخاصة بالمحاضرة التى سيلقيها هذه الليلة ثم راحت تطرق بيدها فى عنف على الباب يا بروفيسور مينكيل ؟ أنا إموجين من جنوب افريقيا . أوه . يا الهى .

وانضم رجل الشرطة الثانى اليهما . وكان أكبر سنا من زميله . فقالت تشارلى مخاطبة عقله وحكمته . حسنا . هل تتكلم الانجليزية ؟ فى نفس اللحظة فتح الباب فتحة صغيرة وأطل منها وجه رجل شبيه بوجه العنزة وتحدث باللغة الألمانية مع رجل الشرطة الواقف بالقرب منه . وسمعت تشارلى كلمة « أمريكية » فى الردّ الذى قاله رجل الشرطة .

ردتْ فى احتجاج حاسم : لست أمريكية . اسمى إموجين باستروب . وأنا من اتحاد جنوب افريقيا . وأنا أحضر المحفظة الخاصة بالبرفيسور مينكيل . لقد

ضاعت منه . فهل يمكن لك أن تتكرم وتعطيها له على الفور لأننى واثقة أنه فى أشدّ الاحتياج اليها . لو سمحت .

فتح الباب فتحة أكبر من ذى قبل بحيث تسمح بخروجه كاملاً من الباب : أنه رجل قصير وممتلئ وله شكل العمدة أو رئيس البلدية ويبلغ من العمر حوالى ٦٠ عاما ويرتدى بدلة سوداء اللون . وكان شاحب الوجه للغاية . وأحست تشارلى بغريزتها أنه كان خائفا للغاية .

– يا سيدى . هل تتحدث باللغة الانجليزية ؟

كان من الواضح أنه يتحدث الانجليزية بطلاقة حيث رد قائلاً : « نعم » فى وقار شديد .

– اذن . لو سمحت أعط هذه المحفظة للبرفيسور مينكيل مع تحيات إموجين باستروب . وقل له أنها آسفة لما حدث لأن إدارة الفندق وقعت فى غلطة سخيفة وأخبره أننى أتطلع إلى الاستماع لخطبته هذه الليلة .

مدت يدها الممسكة بالمحفظة . إلاّ أن رئيس البلدية رفض الامساك بها ونظر إلى رجل الشرطة الواقف خلف تشارلى وبدا عليه وكأنه قد حصل على تأكيدات منه . ثم نظر إلى تشارلى . قال : تعال إلى هنا ... أدخلى أصيبت تشارلى برعب وذعر شديدين . لم يكن هذا مدونا فى النص المكتوب أو السيناريو . ليس فى النص الذى أعده خليل أو هيلجا أو أىّ شخص آخر . فماذا لو قام مينكيل بنفسه بفتح المحفظة تحت سمعها وبصرها ؟ قالت : أوه . لا أستطيع أن أفعل ذلك. إذ ينبغى أن آخذ مكانى بين جمهور المستمعين . فلم أحصل على تذكرة حتى الآن لو سمحت .

إلا أن رئيس البلدية كان لديه الأوامر الخاصة به أيضا . وكان له مخاوفه وهواجسه لأنها عندما دفعت بالمحفظة نحوه قفز مبتعدا وكأن المحفظة مشتعلة بالنيران ، وأغلق الباب . ودخلا دهليز به أنابيب مغلفة عبْر السقف . وسار أمامها

شخص مرافق لها . وشمت تشارلى رائحة زيت . وسمعت الرعد المكتوم الناجم عن فرن ، وشعرت بموجة من السخونة تمرّ عبْر وجهها وفكرت فى أن تدعى تعرضها للاغماء أو الغثيان . نظرت فى يأس خلفها فشاهدت ولدين أشقرين يرتديان سترتين من الجلد ويقفان خلفها . يحملان مدافع أوتوماتيكية . أيها السيد المسيح ! ماذا أشاهد ؟

فُتح الباب . فخطا الرجل المسمى اوبرهوسار وقف بسرعة على جانب كأنه يتبرأ من تشارلى . كان جناحا المسرح والجزء الخلفى به مليئا بأكياس الرمال ، هناك بالات من الحشو معلقة عند السقف بمعرفة أسلاك ، وممشى متعرج ممتد من الباب به حواجز من أكياس الرمال ، وفى وسط المسرح توجد منضدة منخفضة عليها صينية بها مشروبات . وإلى جوارها جلس مينكيل يجلس فوق مقعد منخفض مثل تمثال من الشمع . وهو يحملق فى اتجاهها ، وفى مواجهته جلست زوجته وإلى جواره تجلس امرأة ألمانية ممتلئة ترتدى فستانا فضفاضا ، واعتقدت تشارلى أنها زوجة أوبرهوسار .

فى الجناحين كان يوجد باقى الناس فى مجموعتين متميزتين وكانت المجموعة الاسرائيلية تحت قيادة كيرتز . وإلى يساره يقف رجل فى منتصف العمر واعتقدت أنه إليكسيس ، وإلى جوار إليكسيس كان يقف الأولاد التابعون له الذين يشبهون كلاب الوولف ، الذين استداروا بوجوههم العدائية نحوها . وفى مواجهة هؤلاء الكلاب وقف أناس آخرون تعرفهم مختلطين مع أشخاص غرباء لا تعرفهم . ووضع كيرتز مدير حلبة السيرك أصبعه على شفتيه ثم رفع معهم يده اليسرى لكى ينظر فى ساعته .

وبدأت تشارلى تقول « أين هو ؟ » وبعدئذ وفى مسحة من البهجة والغضب شاهدته واقفا بعيداً عن الآخرين كعادته . فجاء بسرعة إليها تاركا لها ممرا يؤدى إلى مينكيل وقال فى هدوء : حديثه على طريقتك المسرحية له يا تشارلى . قولى ما ترغبين وتجاهلى كل شخص غير موجود عند المنضدة .

قالت تشارلي على وجه السرعة : يا بروفيسور . لقد حدث شئ رهيب للغاية. فالأغبياء بالفندق أرسلوا محفظتك الجلدية إلى غرفتي مع امتعتي الخاصة . حيث شاهدوني وأنا أتحدث معك ، وعلى نحو ما قام الولد العبيط بأخذ المحفظة حيث ظن بطريق الخطأ أنها محفظتي .

ثم استدارت نحو يوسف لكي تقول له أنها قد نضب معينها ولم يعد لديها كلام آخر تقوله . فقال لها في لهجة آمرة : أعطي المحفظة الجلدية للبرفيسور .

شرع مينكيل في الوقوف . وقد ظهر عليه التخشب والذهول كرجل يتلقى حكما صادراً ضده بالسجن مدى الحياة ، وكانت السيدة مينكيل تستعرض نفسها من خلال الابتسام وأصبحت ساقا تشارلي مشلولتين . ولكن عندما وضع يوسف يده على مرفقها اندلقت إلى الأمام وهي تمد يدها الممسكة بالمحفظة نحوه مع قوْل مزيد من العبارات .

- لم أشاهد المحفظة إلاَّ منذ نصف ساعة فقط . إذ كانوا قد وضعوها أسفل الدولاب وكانت فساتيني متدلية فوقها . وعندما شاهدتها وقرأت البطاقة الخاصة بها كدت أُصاب بنوبة من الاغماء .

كان مينكيل على وشك أن يأخذ المحفظة منها ولكن أيدي أخرى اختطفتها . ووضعتها في صندوق أسود كبير ملقى على الأرض وبه أسلاك ناتئه منه مثل الثعابين . وفجأة بدا على كل شخص وكأنه خائف منها حيث جثموا قابعين خلف زكائب الرمال ، وبعدئذ أمسك يوسف بها بيديه القويتين . ودفع رأسها إلى أسفل إلى أن أصبحت تنظر إلى خصرها وسار مبتعدا . ثم عاد بها إلى وسط الغرفة .

قال في أذنها بلهجة آمرة : استمري في توضيح الأمور . لقد كنت تتحدثين عن قراءتك للبطاقة الخاصة بالمحفظة . استمري من هذه النقطة . ما الذي قمت بعمله بعد ذلك ؟

وبعدئذ عندما سألت عنكَ فى صالة الاستقبال قالوا أنك خرجت من أجل الفترة المسائية بهدف استعدادك لالقاء المحاضرة بالجامعة . لذلك وثبت فى داخل سيارة تاكسى ، لا أعرف كيف أعتذر لك عمَّا حدث ، ينبغى علىَّ الآن أن انطلق بسرعة . أتمنى لك حظا سعيداً يا بروفيسور وأتمنى لك التوفيق فى محاضرتك .

وبدأت تشارلى تتجه نحو الباب تحت ارشاد يوسف الذى يكاد يحملها وهو يضع ذراعه حول خصرها .

لن استطيع أن أفعل ذلك يا يوسف . لا استطيع أبداً . لقد استنزفتُ شجاعتى . لا تدعنى أذهب يا يوسف . ترامى من ورائها أوامر مكتومة وأصوات أقدام مسرعة حيث يود كل شخص أن يتراجع متقهقراً .

ونادى كيرتز وراءها فى تحذير قائلا : دقيقتين ، ورجعوا إلى الطرقة التى بها الشابان الأشقران المسكان بالمدافع الرشاشة ، تساءل يوسف بصوت سريع منخفض : أين تقابلت معه ؟

فى فندق عدن . أنه فندق أشبه بالماخور أو بيت الدعارة . يقع عند مشارف المدينة بعد صيدلية ، وهو يمتلك سيارة حمراء . أيضاً سيارة فورد صالون . لم استطع الحصول على أرقام السيارة .

افتحى حقيبتك .

فتحت حقيبتها بنفس السرعة التى يتكلم بها . فاستخرج يوسف الراديو / المنبه الصغير الخاص بها ووضع مكانه راديو صغيرا آخر مشابها تماما . قال بسرعة : إنه ليس نفس الجهاز الذى استخدمناه من قبل . يستقبل على محطة واحدة فقط . سوف يرشد عن الوقت ولكن ليس به منبه . إنه يرسل ويرشدنا عن المكان الذى أنت فيه .

تساءلت فى غباء : متى ؟

ما هى الأوامر التى أصدرها لك خليل الآن ؟

إنه ينبغى علىَّ أن أسير فى الشارع وأظل مستمرة فى السير فمتى ستجيء؟ إكراما لوجه تشارلى ؟

ظهرت على وجه يوسف جدِّية مستميتة مليئة بالشراسة والقلق . ولكن لم يكن هناك أىّ تنازل أو إذعان فى وجهه .

– استمعى إلىَّ يا تشارلى . هل أنت مصغية ؟ .

– نعم يا يوسف أنا مصغية .

– إذا ضغطت على زرار التشغيل فى الراديو الخاص بك – لا تديرى الزرار ولكن اضغطى عليه – سنعرف أنه مستغرق فى النوم . هل تفهميننى ؟

– انه لا ينام .

– ماذا تقصدين ؟

– إنه مثلك . فى حالة استيقاظ طوال النهار والليل . أنا لا أستطيع العودة إليه . لا تدعنى أذهب إليه راحت تتوسل إليه بشدة انتظرت أن يلين وجهه ويرق قلبه. إلاً أن وجهه كان صارما للغاية فى مواجهتها قالت « إنه يريدنى أن أنام معه . إنه يريد عقد ليلة زفاف معى يا يوسف . أليس ذلك سببا كافيا لإقناعك بوجهة نظرى ؟ سوف يحلّ محلّ ميشيل فى داخل جسدى . فهل مازلت مصرا على ذهابى إليه ؟ أمسكت به فى عنف حتى أنه وجد صعوبة فى التحرّر من قبضتها . كانت تريد منه أن يشملها بحمايته . كان وجهه مغلقا بالقفل وموصدا بالترباس . أوضح لها أن الحب ليس هو النشاط الذى يجمع بينهما . دفعها لكى تذهب . فاضطرت إلى الانصراف بمفردها . تراجع ثم توقف . ونظرت نحوه وشعرت بالكراهية بخاصة . ثم أغلقت عينيها وفتحتهما وأطلقت تنهيدة عميقة .

لقد أصبحت فتاة ميتة .

خرجت إلى الشارع . وسارت فى حزم مثل جندى ، ومرت بجوار ملهى ليلى ردئ السمعة يعرض صورا مضاءة بالنيون لفتيات تكشفن عن صدورهن. قالت

لنفسها : ذلك هو العمل الذى ينبغى أن أقوم به . ثم وصلت إلى الطريق الرئيسى . وتحولت إشارة المرور أمامها إلى الضوء الأخضر . فواصلت المسير .ثم شاهدت تلالاً سوداء عالية تسدّ المنظر عند نهاية الشارع . ونظرت فيما حولها ، وشاهدت برج الكاتدرائية يتتبعها . ثم اتجهت إلى اليمين وسارت فى بطء شديد وعلى نحو لم تفعله من قبل فى حياتها على الإطلاق . ودخلت فى شارع يضم منازل أرستقراطية تحفه الأشجار المورقة على كلا الجانبين . والآن راحت تعدّ الأرقام لنفسها ، وتركت الأرقام وراحت تترنم بقصائد من الشعر : جو يذهب إلى وسط المدينة . ثم بدأت تتذكر ما حدث فى قاعة المحاضرات . وعلى مسافة أمامها كان روسينو يدفع دراجته البخارية فى صمت إلى خارج الطريق المرصوف . فسارت متجهة إليه . ناولها روسينو خوذة سترة من الجلد . ولدى قيامها بارتداء السترة حدث ما جعلها تنظر إلى الوراء فشاهدت وميضا برتقاليا يمتد نحوها لأسفل فوق الحصى المبلل . وأدركت أنه استمر موجودا فى داخل عينيها عقب اختفائه وتلاشيه . ثم سمعت الصوت الذى كانت تتوقع سماعه : صوتا بعيدا مكتوما مألوفا وشبيها بانكسار شىء ما فى داخل أعماق كيانها على نحو غير قابل للإصلاح . إنه النهاية الدائمة المحكمة للحب . نعم يا يوسف . نعم وداعاً إلى الأبد .

وفى هذه اللحظة تفجر موتور روسينو ممزقا الليل الرطب بزئير من الضحكات المنتصرة الصادرة عن دراجته البخارية . قالت لنفسها فى تفكير : وأنا أيضاً . إنه أعجب يوم فى تاريخ حياتى .

.. ..

قاد روسينو دراجته البخارية فى بطء مع الحرص على الدخول فى الطرق الفرعية الصغيرة .

أنت تقود وأنا أتبعك . ربما حان الوقت لأن أصبح إيطالية . كان روسينو يحدثها عن أمور بهيجة ولكنها لم تشاركه بهجته . مرا من بوابة كبيرة تؤدى إلى طريق معزول يصعد إلى تلال ووديان عبرا تلك الأماكن بمفردهما تحت قمر متمايل

فى اهتزاز اعتاد أن يكون مملوكا ملكية خاصة ليوسف . نظرتْ لأسفل . فشاهدت قرية نائمة متدثرة فى كَفَن أبيض اللون . شمت رائحة أشجار الصنوبر اليونانية . وأحست بدموعها الدافئة التى تقذفها الرياح بعيداً عنها . وبالجسد المرتعش لروسينو وهو يندس تحت طيّه جسدها . قالت له : تفضل وتناول بنفسك ما تشاء من المائدة فلم يبق هناك شيء .

نزلا من فوق تلّ أخير . وخرجا من بوابة أخرى ودخلا طريقا مليئا بأشجار الصنوبر ، ولدى وصولهما إلى القمة أوقف روسينو موتور دراجته وهبط لأسفل بفعل الجاذبية على ممر ضيق يؤدى إلى غابة . ثم فتح حقيبة السرج واستخرج لفّة من الملابس وحقيبة يد وألقى بهما نحو تشارلى . وأنار لها ببطارية اليدْ . وراح يرقبها تحت الضوء أثناء قيامها بتغيير ملابسها خاصة عندما أصبحت شبه عارية أمامه .

إذا كنت تريدنى خذنى . فأنا الآن متاحة وفى متناول اليد وغير مرتبطة بشخص ما معين .

إذ كانت من وجهة نظر نفسها إنسانة بدون حبّ وبدون قيمة ، فقد عادت إلى النقطة التى بدأت منها وأصبح بمقدور العالم الفاسد كله أن يلويها ويفعل بها ما تريد .

صبَّتْ سقط المتاع الخاص بها من حقيبة يد إلى حقيبة يد أخرى : علبة المساحيق والسدادات القطنية التى تحشى بها الجرح من أجل وقف النزيف وقطع النقود المعدنية الصغيرة وعلبة سجائرها والراديو الصغير الحجم الرخيص الخاص بالتدريب على البروفات المسرحية ... اضغطى على مفتاح التشغيل يا تشارلى هل تسمعيننى ؟ أخذ منها روسينو جوازها القديم ، وناولها جوازا جديدا ، لكنها لم تهتم بمعرفة نوعية الجنسية الجديدة التى حصلت عليها .

إنها مواطنة بدولة اللامكان المولودة بها بالأمس فقط .

وجمع روسينو ملابسها القديمة وألقى بها فى حقيبة السرج مع حقيبة الكتف القديمة الخاصة بها ونظارتها . وقال : انتظرى هنا ، لكن أنظرى نحو الطريق . فسوف يومض بضوء أحمر مرتين . وبعد انصراف روسينو بحوالى خمس دقائق ، شاهدت تشارلى الضوء يتغامز بين الأشجار .. وافرحتاه ! هاأنذا أحصل على صديق ما أخيراً .

الفصل السادس والعشرون

امسك خليل بذراعها وكاد أن يحملها إلى السيارة الجديدة، كانت تبكى وترتعد لدرجة أصبحت تمشى في تعثر وبعد أن كان خليل مرتديا ملابس متواضعة لسائق سيارة أصبح متخفيا على هيئة مدير ألمانى موثوق به ولايرقى إليه الشك على الإطلاق،! معطف أسود فاخر وقميص ورباط عنق وشعر معتنى به ممشط إلى الخلف بعد أن فتح باب السيارة خلع معطفه ولفه حولها فى رعاية واهتمام كأنها حيوان مسكين مريض وبدا أنه لايشعر بالصدمة إزاء حالتها بقدر ما يشعر بالتقدير والاحترام وكان موتور السيارة فى حالة تشغيل بالفعل قام بتشغيل جهاز التدفئة بأقصى كفاء ته .

قال فى عطف : لو كان ميشيل على قيد الحياة لأصبح فخورا بك ثم راح يدقق فيها تحت ضوء السيارة الداخلى شرعت فى الحديث إليه ثم انفجرت فى البكاء مرة أخرى فأعطاها منديلا فأمسكت به بكلتا يديها وراحت تلويه حول أصابعها والدموع تتساقط وتتساقط وانطلقت السيارة هابطة على جانب التل المزروع بالأشجار . همست قائلة : ماذا حدث ؟

ـ لقد أحرزت لنا انتصارا عظيما فقد مات مينكيل أثناء قيامه بفتح المحفظة كما أشارت الأنباء أن أصدقاء آخرين للصهيونية أصيبوا بجروح بالغة . وهم يتحدثون عن هذا الهجوم الوحشى والصدمة والاغتيال الوحشى ينبغى عليهم جميعا أن يقوموا بزيارة لمعسكر الراشدية فى يوم ما. إننى أدعو كل الاساتذة والطلبة بهذه الجامعة لزيارة معسكر الراشدية . ينبغى عليهم أن يجلسوا فى المخابىء ثم تطلق عليهم المدافع الرشاشة الآلية لدى خروجهم ينبغى أن يشهدوا

تكسير عظامهم وتعذيب أطفالهم غدا سوف يعرف العالم كله أن الفلسطينيين لن يصبحوا الزنوج المساكين التابعين لآل صهيون.

كان جهاز التدفئة قويا ويعمل بكل طاقته إلا أنه لم يكن كافيا بالنسبة لها مما جعلها تضطر لجذب معطفه فى إحكام حول جسدها وكانت طية صدر المعطف مصنوعة من القطيفة ورائحة المعطف تدلّ على أنه جديد تماما. تســاء ل : أتريدين أن تروى لى تفاصيل ماحدث؟

فهزت رأسها بالنفى. وكانت مقاعد السيارة مغلقة بقماش مخملى لين وكان موتور السيارة ذا صوت هادىء منخفض راحت تصغى لكى تسمع صوت سيارات أخرى بالخارج. لكنها لم تسمع أية أصوات. فنظرت فى مرآة السيارة فلم تجد سيارات وراء ها أو أمامها ثم التقت عينا خليل الداكنتان مع عينيها .قال لها : لاتشعرى بالقلق فلسوف نعتنى بك ونرعاك وهذا وعد منى بذلك. وأنا مسرور لأنك تشعرين بالحزن. فالآخرون عندما يمارسون القتل ينخرطون فى الضحك ومشاعر الانتصار ويتناولون الخمور إلى أن يصبحوا سكارى ويمزقون ثيابهم مثل الحيوانات. كل هذه المناظر سبق أن شاهدتها أما أنت فإنك تنخرطين فى البكاء . وهذا أمر ممتاز للغاية .

كان المنزل يقع بجوار بحيرة موجودة فى وادٍ عميق منحدر. مر خليل بسيارته بجوار البحيرة مرتين قبل أن يدخل إلى الطريق الضيق المؤدى إلى المنزل . كانت عيناه أثناء تفحصه للطريق شبيهة بعينى يوسف مليئتين بالعزم والتصميم . كان المنزل على هيئة شاليه حديث الطراز أو منزل لرجل غنى من أجل الاستجمام . وكان للمنزل حوائط بيضاء اللون وشبابيك مراكشية وسقف أحمر منحدر وكان الجراج ملتصقا بالمنزل فدخل بسيارته إلى الجراج فأغلقت الأبواب ثم أطفأ موتور السيارة وسحب مسدسا آليا ذا ماسورة طويلة من جيب سترته إنه خليل الذى يطلق المسدس بيد واحدة وظلت جالسة بالسيارة وراحت تحملق فى أخشاب النيران المخزونة على طول الحائط الخلفى ثم فتح لها الباب .

سيرى ورائى على مسافة ثلاثة أمتار

كان هناك باب جانبى من الحديد يؤدى إلى دهليز داخلى انتظرت ثم سارت وراءه كانت أضواء غرفة الجلوس مضاءة بالفعل. كما كانت نيران الأخشاب تحترق فى الموقد وكانت هناك أريكة مصنوعة من جلود الخيول بالاضافة إلى أثاث ريفى بسيط الطراز .قال لها : ابقِ هنا .

وقفت فى وسط الأرضية أمسكت حقيبتها بكلتا يديها بينما راح ينتقل من غرفة لأخرى فى صمت شديد بحيث إنها لم تسمع سوى صوت فتح الدواليب، وغلقها بدأت تشارلى ترتعش مرة أخرى فى عنف شديد. ثم عاد إلى غرفة الجلوس. أنزل بندقيته ووضعها بعيدا عنه. جثم قابعا أمام النيران وراح يعمل من أجل زيادة لهيبها. أخذت ترقبه وقالت لنفسها إنه يفعل ذلك من أجل إبعاد الحيوانات ومن أجل أن يجعل الخراف فى حالة من الأمن والأمان زأرت النيران فجلس أمامها على الأريكة . فتح خليل التليفزيون تساءل فى أدب : أتودين بعض الفودكا؟ فأنا شخصيا لا أحتسى الخمور على الإطلاق . أما بالنسبة لك فينبغى أن تدخلى البهجة على نفسك .

ثم صب لها كمية كبيرة للغاية من الفودكا .

ـ أتودين تدخين سيجارة ؟

وناولها علبة سجائر وأشعل سيجارتها .

تزايدت الإضاءة داخل الغرفة. فاتجهت نظرتها بسرعة إلى التليفزيون. ووجدت نفسها تحملق فى ملامح وجه الرجل الألمانى الذى شاهدته منذ ساعة إلى جوار مارتى. وكان واقفا إلى جوار عربة تابعة للشرطة ، ومن خلفه تمكنت من مشاهدة ذلك الجزء من الرصيف وكذلك الباب الجانبى الخاص بقاعة المحاضرات وقد أحيطا بشريط من الفلورسنت وكانت سيارات الشرطة وعربات المطافىء وعربات الاسعاف تسارع إلى الدخول إلي المنطقة المحاطة بالكردون والخروج منها. ثم تغيرت خلفية الصورة حيث ظهرت لقطة لقماش مشمع أخضر اللون قد نصب

لصد التيار الهوائى بينما كان البحث جاريا ورفع خليل صوت التليفزيون فسمعت تشارلى ولولة وصراخ عربات الاسعاف الذى يعلو عليه صوت أليكسيس الذى كان يتكلم بصوت مصقول ملىء بالترنيم والتجويد تساءلت تشارلى : ماذا يقول ؟

ـ إنه يقود عملية البحث والتحرّى. انتظرى .سوف أقول لك .

اختفى أليكسيس وظهرت لقطة من الاستوديو عن أوبيرهوسار الذى لم يصب بأى أذى. قالت تشارلى : ذلك هو الرجل المغفل الذى فتح الباب لى .

رفع خليل يده لأعلى أمامها لكى تلتزم بالهدوء وعدم الكلام وراحت تشارلى تصغى فأدركت فى فضول أن أوبيرهوسار كان يعطى أوصافا عن نفسها. والتقطت أذنها كلمة «جنوب أفريقيا» وسمعت كلمة : شعر بنى اللون . وشاهدت يده وهى ترتفع لكى يصف نظارتها. ثم انتقلت الكاميرا إلى أصبع مرتعش يشير إلى نظارة تشبه النظارة التى سبق أن أعطاها لهـا الكابتن تايه .

أغلق خليل جهاز التليفزيون ورجع ووقف أمامها وسألها فى خجل وارتباك أتسمحين لى ؟

فرفعت تشارلى حقيبة اليد الخاصة بها ووضعتها إلى جوارها عند الجانب الآخر حتى يمكنه أن يجلس. هل صدر طنين؟ بليب؟ أكان ذلك صوت ميكروفون؟ ما هذا بحق الجحيم ؟ تحدث خليل فى دقة إنه ممارس ناضج يعرض تشخيصه وتعليله . قال : انت إلى حد ما معرضة للمخاطر . فالسيد أوبيرهوسار يتذكر شكلك وملامحك وكذلك زوجته ورجال الشرطة والعديد من الناس بالفندق . ومن سوء حظك أيضا أنه توجد هناك امرأة انجليزية سمعت جانبا من المحادثة التى دارت بينك وبين مينكيل وهى تعتقد أنك لست من جنوب أفريقيا وانك انجليزية لقد تم إرسال أوصافك إلى لندن ، ونحن ندرك أن الانجليز لديهم حاليا بعض الأفكار السيئة عنك. والمنطقة هنا أصبحت فى حالة من الطوارىء والاستنفار الكامل حيث تم إغلاق الطرق ووضع نقاط للتفتيش. لكن لا ينبغى عليك أن تشعرى بالقلق. فأنا سوف أحميك بحياتى. وفى هذه الليلة سوف نكون فى حالة من الأمن والأمان وغدا سوف

نقوم بتهريبك إلى برلين ونرسلك إلى وطنك. فقالت: إلى وطنى.

ـ أنت الآن أصبحت واحدة منا أنت أخت لنا وفاطمة تقول إنك أخت لنا وأنك لك وطن، ولكنك جزء من عائلة كبيرة عظيمة ويمكن لنا أن نبتكر لك هوية جديدة أو يمكنك الذهاب إلى فاطمة والعيش معها على مدى الفترة الزمنية التى ترغبينها . وعلى الرغم من أنك لن تقومى بأية عملية قتالية أخرى فاننا سنقدم لك كل الرعاية والاهتمام. وذلك إكراما لميشيل وإكراما للدور الذى قمت به من أجلنا .

بدا اخلاصه وولاؤه مروعا . اما يدها فمازالت قابعة فى يده .كانت لمسة يده متسمة بالقوة وتوفير الطمأنينة وعيناه تلمعان فى افتخار متسم بالتملك والاقتناء. نهضت تشارلى خارجة من الغرفة وقد أخذت حقيبة يدها معها. وذهبت إلى الحمام

استخرجت الراديو وراحت تتفحصه. لقد كان مماثلا تماما للراديو القديم الخاص بها . إلا أنه أكثر ثقلا وقالت لنفسها: «أنتظر لحين أن ينام» وبعدئذ راحت تخلع ثيابها ودخلت تحت الدش واستغرقت وقتا طويلا لمجرد أن تبعد نفسها لفترة طويلة عن دفء ثقته فيها وفى إخلاصها. ثم رشت اللوسيون على جسدها وعندما رجعت إليه وجدته يضع الأطعمة على المنضدة : لحوما باردة وجبنة وزجاجة من الخمر كانت الشموع قد أشعلت بالفعل وجذب كرسيًا الى الوراء من أجلها على الطريقة الأوربية فجلست وجلس هو فى مواجهتها وشرع فى تناول الطعام على الفور بنفس الاستغراق الطبيعى الذى يعطيه لكل شىء. تساءل : هل مازلت تأسفين على ما فعلت ؟

فقالت وكانت تعنى ماتقول بالفعل: إنهم خنازير إنهم قتلة وليس فى قلوبهم رحمة على الإطلاق. وشرعت فى البكاء إلا أنها تمالكت نفسها بسرعة وكانت السكينة والشوكة ترتعشان فى يدها كثيرا حتى أنها اضطرت لوضعهما على المنضدة . ثم سمعت صوت سيارة تمر أو أكان ذلك صوت طائرة ؟ قالت لنفسها فى تشويش كامل : حقيبة يدى أين تركت حقيبة يدى ؟ لقد تركتها فى الحمام لكى

تكون بعيدة عن أصابعه التى تتفحص الأشياء فى فضول وحب استطلاع . ثم التقطت شوكتها مرة أخرى وشاهدت وجه خليل الجميل الجامح يتفحصها عبر ضوء الشموع مثلما فعل يوسف معها فوق قمة التل عند مشارف معبد دلفى وقال: ربما تبذلين جهدا كبيرا لكى تشعرى بالكراهية نحوهم .

إنها أسوأ مسرحية شاركت فيها. وكان ذلك الطعام هو أسوأ عشاء قدم لها. وكانت رغبتها فى تحطيم التوتر مماثلة لرغبتها فى تدمير نفسها . ونهضت واقفة. ثم سمعت صوت شوكتها وملعقتها لدى سقوطهما على الأرض. لم تستطع مشاهدة خليل إلا من خلال دموع اليأس التى تنساب من عينيها وبدأت تفك زرار فستانها. إلا ان يديها كانتا فى حالة من الاضطراب والاهتزاز مما جعلها تعجز عن فكها فذهبت حول المنضدة إلى خليل الذى بدأ ينهض بالفعل. والتفت ذراعاه حولها وقبلها ثم رفعها عبر جسده. وحملها مثل رفيقة جريحة إلى غرفة النوم. ووضعها على السرير وبعدئذ دبت الحيوية فى داخل كيانها. فهجمت عليه وراحت تخلع له ثيابه وتجذبه نحوها كما لو كان هو آخر رجل على وجه الكرة الأرضية، فى آخر يوم فى عمر الكرة الأرضية . وكما لو كانت تسعى لتدمير نفسها وتدميره فى آن واحد .

وراحت تفترسه وتلتهمه وتملأ فمها المخادع بأجزاء من كيانه وتحشره فى المساحات الشاغرة الصارخة لمشاعر الذنب والوحدة والاكتئاب الخاصة بها. راحت تقبله وتمحو نفسها وتمحو ذكرى يوسف تحت ثقل جسده الوحشى وأحست باندفاقه ولكنها ظلت قابضة عليه لفترة طويلة عقب توقف حركته وقد أغلقت يديها حوله بينما تخفى نفسها من العاصفة القادمة والتى على وشك أن تهب .

.. ..

لم يكن مستغرقا فى النعاس ولكنه كان يغفو فى سنة من النوم بالفعل، كان مستلقيا وقد وضع رأسه الأشعث الداكن على كتفها بينما يده السليمة ملقاة فى غير اكتراث على صدرها .

قال خليل فى تمتمة مع ظهور ابتسامة فى صوته:

ـ لقد كان سالم ولدا سعيد الحظ وفتاة مثلك تعتبر سببا كافيا لأن يموت .

ـ من قال إنه مات من أجلى ؟

ـ لقد أشار الكابتن تايه إلى احتمال حدوث ذلك .

ـ لقد مات سالم من أجل الثورة . فقد فجر الصهاينة سيارته .

بل فجر نفسه. لقد قرأنا الكثير من التقارير التى أوردتها الشرطة الألمانية عن هذا الحادث . وأنا سبق لى أن حذرته وطلبت منه ألا يقوم بتصنيع أية قنابل ولكنه لم يطع أوامرى وهو لم تكن لديه الموهبة التى تعينه على إنجاز مثل هذا العمل . كما أنه لم يكن مقاتلا بطبيعته .

قالت وهى تبتعد عنه : ما هذا الصوت ؟

كان صوتا مثل الطقطقة أو مثل خشخشة متتابعة من الأصوات المقتضبة الشفرية أعقبها صمت مطبق .

فقال خليل : شخص مايصطاد فى البحيرة .

ـ فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

فضحك فى نعاس وقال : ألم يسبق لك أن قمت بصيد السمك فى الليل ؟ ألم تأخذى زورقا صغيرا إلى البحر ومعك مصباح من أجل أن تمسكى السمك بيديك ؟

ـ استيقظ وتحدث معى

ـ من الأفضل لك أن تنامى .

ـ لا أستطيع النوم. أنا خائفة .

وراح يحكى لها قصة عن مهمة ليلية كان قد قام بها فى منطقة الجليل ومعه شخصان آخران منذ فترة طويلة . وأوضح كيف أنهم كانوا يعبرون فوق البحر مستخدمين زورق تجديف صغير. وقال إن الجو كان رائعا وجميلا للغاية حتى أنهم نسوا المهمة التى كلفوا بها وانشغلوا فى صيد السمك . فقاطعته قائلة :

- إن الصوت الذى سمعته لم يكن صوت قارب وإنما هو صوت سيارة لقد سمعت ذلك الصوت مرة أخرى .استمع .

قال فى نعاس :إنه صوت قارب .

وكان القمر قد عثر على فراغ بين الستائر فسطعت أنواره نحوهما عبر أرضية الغرفة. فنهضت تشارلى واتجهت الى النافذة وبدون أن تلمس الستائر راحت تحملق إلى الخارج. كانت تطوق غابات الصنوبر المكان لكنها لم تشاهد أية قوارب فى البحيرة ولم تشاهد أضواء مصابيح من أجل إغواء السمك واستدراجه فعادت إلى السرير وانزلقت يده اليمنى عبر جسدها لكى يجذبها نحوه ولكنه عندما شعر بمقاومتها ابتعد عنها واستدار فى كسل وبطء لكى يستلقى على ظهره .

قالت مرة أخرى : تحدث معى ياخليل استيقظ ياخليل .

راحت تهزه فى عنف وتقبله على شفتيه. ولذلك أرغم نفسه على الاستيقاظ من أجل تحقيق رغبتها لأنه كان رجلا شفوقا ولأنه اختارها أختا له قال : هل تعرفين ذلك الشىء الغريب الذى يتعلق بالخطابات التى أرسلتها إلى ميشيل؟ إنه البندقية «من الآن فصاعدا لسوف أحلم برأسك على وسادتى بينما بندقيتك تحت الوسادة» انه كلام العشاق وكلام العشاق جميل .

لماذا كان ذلك أمرا غريبا ؟ أخبرنى عن السبب.

لأننى سبق لى أن تحدثت معه في هذا الشأن ذات مرة. وفي نفس هذا الموضوع بالتحديد، اذ قلت له ياسالم استمع إلىّ إن رعاة البقر هم فقط الذين ينامون مع وضع بندقياتهم تحت المخدة. ولكن ينبغى عليك ألا تنس أبدا هذه النصيحة عندما تذهب للنوم فى السرير ضع بندقيتك إلى جوارك حيث يمكنك أن تخفيها على نحو أفضل وحيث يمكن لك أن تحصل عليها على نحو أسرع . وتعلّم أن تنام دائما على ذلك النحو حتى ولو كانت معك امرأة على السرير فقال لى إنه سينفذ وصيتى هذه ودائما ما كان يعدنى بتنفيذ نصائحى. ولكنه كان ينسى ويركز ذهنه على العثور على امرأة جديدة أو سيارة جديدة .

قالت : إذن فهو كان يحطم الأوامر أليس كذلك ؟ ثم أمسكت بيده المرتدية للقفاز وراحت تتفحصها تحت الظلام الخفيف مع وخز الأصابع الميتة الواحد تلو الآخر. كانت أصابع من المـواد المحشوة باستثناء إصبع الإبهام والخنصر .

فقال في إشراق : إذن ما الذي أكل أصابعك على هذا النحو. هل هي الفئران؟ ياخليل؟ استيقظ.

ظل صامتا لفترة ثم قال : ذات يوم في بيروت كنت آنئذ ولدا غبيا مثل سالم وكنت موجوداً في مكتبي وجاء ت الخطابات البريدية وكنت في ذلك الوقت عجولا انتظر وصول طرد معين إليّ. وقمت على الفور بفتح الطرد وكانت تلك غلطة كبيرة ماذا حدث ؟ فتحت الطرد ثم حدث انفجار مدوى ؟ . انفجار مدوٍّ اطاح بأصابعك . وهل هذا الانفجار هو الذي أحدث تلك الكرمشة والتجاعيد الموجودة في مساحة من وجهك؟

ـ وعندما استيقظت في المستشفى وجدت «سالم» إلى جوارى وقال لى في مزاح « في المرة القادمة وقبل أن تفتح أى طرد ينبغى عليك أن تعرضه عليّ أو ينبغى عليك أن تقرأ العلامة البريدية أولا فإذا وجدت أنه مرسل إليك من تل أبيب بادر على الفور إلى إعادته إلى المرسل .

ـ ولماذا تقوم بنفسك بصنع قنابلك؟

اذا كان لك يد واحدة سليمة فقط؟

كانت الإجابة ماثلة داخل الصمت الخاص به، وفي سكون الفجر كان وجهه ملتفتا نحوها حيث كان ينظر في حملقة مباشرة خالية من الابتسام. وكانت الإجابة ماثلة في كل شيء شاهدته منذ الليلة التي تعاقدت فيها مع مسرح الحياة.

وعلى نحو فجائى بدأ يطلبها مرة أخرى. فقالت في همس : «ياعزيزى خليل. أوه. أيها السيد المسيح. أوه . ياحبيبي . أرجوك لو سمحت . وغير ذلك من الكلام الذى تقوله العاهرات .

.. ..

وحلّ الفجر. لكنها لم تدعه ينام. حيث استغرقت فى تقبيله والتربيت عليه مع استخدام كافة الحيل والوسائل التى تعرفها لكى تجعله مستيقظا معها ومتأججا في عاطفته نحوها. وهمست فى أذنه : أنت أفضل إنسان لدىّ وأنت أقوى الناس وأشجعهم وأمهر حبيب لى فى جميع الأوقات والأزمنة . فقال لها: وهل أنا أفضل من سالم؟

فقالت له: وأنت أفضل من سالم بل وأفضل من يوسف الذى أرسلنى إليك على طبق .

ثم قالت لدى ابتعاد خليل عنها فجأة ماذا فى الأمر ؟ هل آذيتُك أو جرحتُ مشاعرك؟

وبدلا من أن يجيب عليها رفع يده السليمة وفى حركة آمرة ضمّ لها شفتيها فى رفق مع بضعهما البعض. ثم رفع جسده قليلا مستندا على مرفقه. وراحت تصغى معه . لقد صدرت قعقعة طائر من النوع الذى يحوم فوق الماء لدى طيرانه من فوق سطح البحيرة. كما صدر صياح أوز وصياح ديك صغير وقرع جرس. قال فى صوت منخفض وهو واقف عند النافذة :

– لاتوجد أبقار .

كان يقف عند جانب النافذة وهو مازال عاريا إلاّ أن بندقيته كانت معلقة فى كتفه . وللحظات ومن خلال توترها الشديد للغاية تخيلت الصورة المنعكسة ليوسف وهو واقف فى مواجهته بحيث لايفصل بينهما سوى الستارة الرفيعة. وأخيرا همست تشارلى قائلة فى توتر بالغ : ماذا ترى ؟

لا أبقار . ولا صيادو سمك . ولا دراجات .

كان صوته مليئا بالتوتر. وملابسه ملقاة بجوار السرير على الأرض. فارتدى بنطلونه الأسود وقميصه الأبيض وثبت بندقيته فى مكانها تحت إبطه.

قال : « لا سيارات ولا أضواء تمرّ . ولا عامل واحدا متجها فى طريقه إلى العمل . ولا أبقار .

الأبقار قد ذهبت لكى يتم حلبها والحصول على اللبن منها .

هزّ رأسه فى اضطراب. فقالت : الجو ملىء بالثلوج وأصحاب الأبقار يحتفظون بالأبقار داخل الحظائر بسبب البرد .

وكان هناك شىء ما فى صوتها استرعى أذنه مما جعله يركز تفكيره عليها. وقال لها : لماذا تدافعين عن أصحاب الأبقار ؟

ـ أنا لا أدافع عنهم. أحاول فقط ..

لماذا تدافعين عن عدم وجود أى مظهر من مظاهر الحياة حول هذا المنزل؟

ـ من أجل أن أبدد مخاوفك ومن أجل أن أهدىء شكوكك . ومن أجل أن أدخل عليك الهدوء والاطمئنان.

كانت هناك فكرة بدأت تتبلور فى داخل ذهنه، إنها فكرة رهيبة للغاية كان بمقدوره قراءة تلك الفكرة التى انطبعت علي وجهها وتجسدت فى نطاق جسدها العارى وهى بالتالى تشعر بتكون شكوكه وتصاعد هواجسه. قال لها: لماذا ترغبين فى تبديد مخاوفى؟ ولماذا تشعرين بالخوف علىّ أكثر من شعورك بالخوف على نفسك ؟

ـ أنا لاأشعر بذلك.

ـ أنت إمرأة تسعى الشرطة لإلقاء القبض عليها. فلماذا لديك المقدرة أن تحبينى؟ ولماذا تتحدثين عن الأمان الخاص بى وليس عن الأمن والأمان الخاص بك؟ وماهى عقدة الذنب الموجودة فى داخل ذهنك ؟

ـ لاشىء كل ماهنالك أننى لم أحب قتل ميشيل وأريد أن أخرج نفسى من كل هذه الأمور ياخليل .

ـ هل الكابتن تايه كان على صواب ؟ هل كان مصيبا فى رأيه؟ هل مات أخى من أجلك وبسببك ؟ أجيبى علىّ لو سمحت . إننى أرغب فى سماع الاجابة منك .

وتوسل جسدها كله من أجل أن يتم إنقاذ جسدها من الإعدام مؤقتا. كانت الحرارة فى داخل وجهها رهيبة للغاية. حرارة متأججة ومستعدة للاحتدام فى احتراق للأبد.

همست قائلة : ياخليل عُد إلى السرير. واحتوينى بحبك ارجع إلىّ .

لماذا كان متروياً للغاية وبطيئاً وغير متعجلٍ بينما هم أصبحوا محدقين بالمنزل من جميع الجهات. كيف أمكن له أن يحملق فى وجهها على هذا النحو بينما هم يضيقون الخناق حوله مع مرور كل لحظة ؟

تساءل خليل وهو مازال محملقا فى وجهها : ياتشارلى . كم الساعة الآن لو سمحت؟

الساعة حاليا هى الخامسة . أو الخامسة والنصف . ما أهمية ذلك ؟

ـ أين يوجد الراديو؟ ذلك الراديو الصغير . أريد أن أعرف الوقت على وجه الدقة لو سمحت .

ـ لا أعرف . إنه فى الحمام .

ـ ابقى فى مكانك لو سمحت ياتشـــارلى . والا سأضطر لأن اقتلك . لسوف نرى .

ذهب إلى الحمام وعاد ومعه الراديو وناولها إياه فوق السرير، وقال لو سمحت افتحى الآن غطاء هذا الراديو ثم راح يرقبها وهى تصارع المشبك . اذن ماهو الوقت الآن ياتشارلى ؟ أبلغينى لو سمحت بالوقت من خلال مذياعك .

ـ الساعة الآن السادسة الا عشر دقائق وهو وقت متأخر عما كنت أعتقد .

فقام بجذب الراديو من يدها وقرأ الارقام التى تشير إليها عقارب الساعة . ثم شغل الراديو فصدر عنه صراخ موسيقى فأغلقه على الفور ثم وضعه على أذنه وقام بوضعه فى راحة يده من أجل أن يعرف وزنه .

ـ عندما تركتينى الليلة الماضية لم يكن لديك أي متسع من الوقت من أجل عمل أى شىء يتعلق بك شخصيا على ما أظن . أليس كذلك ؟

ـ بالفعل لم يكن لدى أى وقت .

ـ إذن كيف تسنى لك شراء بطاريات جديدة من أجل هذا الراديو .

ـ لم أقم بشراء أية بطاريات جديدة .

ـ إذاً ما السبب فى أن الراديو يشتغل بهذه القوة ؟

ـ إننى لم أكن بحاجة إلى تغيير البطاريات ـ فهى لم تستهلك بعد. انها بطاريات تستمر فى العمل على مدى سنوات لأنها ممتدة المفعول .

وبعد أن وصلت إلى نهاية كلامها الملفق تذكرت فجأة تلك اللحظة عندما أوقفها خليل خارج السيارة ليفتش جسدها وتذكرت تلك اللحظة عندما أسقط خليل بطاريات الراديو فى جيبه قبل أن يعيد الراديو إلى حقيبة الكتف الخاصة بها وألقاها فى داخل السيارة .

وكان قد بدأ يفقد الاهتمام بها ، وانصب كل تفكيره على الراديو وقال : ياتشارلى لو سمحت احضرى لي هذا الراديو المهيب الجليل . لسوف نقوم بتجربة بسيطة. تجربة مسلية تكنولوجية تتعلق بالأمور اللاسلكية ذات التردد العالى .

همست قائلة : « هل لى أن أرتدى بعض ثيابى ؟ » ثم ارتدت ثوبها وأحضرت له الراديو الموجود بجوار السرير، وهو راديو حديث له غطاء أسود من البلاستيك وله سماعة أشبه بسماعة التليفون ووضع خليل المنبه والراديو مع بعضها البعض وفتح الراديو وبدأ فى تحريك المؤشر على كافة المحطات والقنوات إلى أن صدرت عنه فجأة ولولة منتحبة جريحة ترتفع وتنخفض مثل صوت الإنذار الخاص بالغارات الجوية. ثم التقط المنبه ودفع إلى الوراء اللسان المزود بمفصلات والخاص بالتجويف الذى توضع فيه البطاريات وذلك من خلال استخدام اصبع ابهامه. ثم هز البطاريات لكى تسقط على الأرض بنفس الطريقة التى لجأ إليها فى الليلة الماضية فتوقفت الولولة على الفور ثم رفع خليل رأسه نحوها وتظاهر بالابتسام فحاولت تشارلى عدم النظر إليه ولكنها لم تستطع ذلك .

ـ لصالح من تعملين ياتشارلى ؟ هل تعملين لصالح الألمان ؟

فهزت رأسها بالنفى .

ـ هل تعملين لصالح الصهاينة ؟

فالتزمت بالصمت فأدرك أن الإجابة هى : نعم .

ـ هل أنت يهودية ؟

ـ لا .

ـ هل تؤمنين باسرائيل ؟ وماهى الأيديولوجيات التى تؤمنين بها؟

فقالت: لا شىء.

ـ هل أنت مسيحية؟ هل باعتبارك مسيحية تعتقدين أن اليهود هم مؤسسو الدين المسيحى العظيم؟

فهزت رأسها بالنفى مرة أخرى.

ـ هل تفعلين ذلك من أجل الحصول على النقود؟ هل قدموا الرشوة لك؟ هل يبتزونك من خلال اللجوء للتهديدات؟

فشعرت بالرغبة فى أن تصرخ. وكورت قبضتى يديها وملأت رئتيها بالهواء. إلا أن التشويش الكامل الموجود فى داخل ذهنها خنقها وكبتها. فاضطرت للانخراط فى البكاء.

وقالت: «إن ما أقدمت عليه كان من أجل إنقاذ حياة. ومن أجل القيام بدور. ومن أجل أن أكون شيئا ما له أهميته فى هذه الحياة. ولأننى أحببته .

ـ هل قمت بخيانة أخى ؟

واختفت العوائق داخل حنجرتها وحل محلها صوت غير واضح ملىء بالموت وهى تقول: «أنا لم أتقابل معه على الإطلاق. ولم أعرفه أبدا . ولم أتحدث معه فى أى وقت من الأوقات على الإطلاق. ولقد جعلونى أشاهده مرة واحدة عقب قيامهم بقتله

أما باقى الأمور فهى ملفقة تماما . فمسألة حبى لميشيل ملفقة تماما وكذلك اعتناقى لمذهب جديد ملفق تماما . وكل شيء آخر كان ملفقا وغير صحيح على الإطلاق. بل إننى لم أكتب تلك الخطابات وإنما هم الذين قاموا بكتابتها . وهم أيضا الذين قاموا بكتابة الخطاب الموجه منه إليك أيضا وهو الخطاب الذى يتحدث فيه عنى. لقد وقعت فى حب الرجل الذى لاحقنى باهتماماته ورعايته لى. وذلك هو كل ما فى الأمر.

وفى بطء وبدون أية مشاعر عدوانية مد يده اليسرى ولمس جانب وجهها ربما لكى يتأكد أنها إنسانة حقيقية. ثم نظر إلى أطراف أصابعه وبعدئذ نظر إلى تشارلى مرة أخرى وكأنه لا يصدق ما يشاهده بعينيه.

ثم رفع رأسه. وبينما هو يفعل ذلك شاهدت تشارلى وجهه ينخلع بعيدا فى غير تصديق. وفى اللحظة التالية شاهدت وجهه مشتعلا بالنيران بعد أن أطلق يوسف النيران عليه. كانت تشارلى قد تعلمت أن تقف ساكنة بدون حركة تماما أثناء ضغطها على الزناد. إلا أن يوسف لم يفعل ذلك. لم يكن يثق أن رصاصاته سوف تؤدى المهمة. إذ اندفع وراء الرصاصات محاولا أن يضرب بها الهدف. لقد اندفع يوسف داخلا من الباب إلى الغرفة مثل إنسان متطفل عادى. ولكنه بدلا من أن يتوقف عند الباب للحظات دفع نفسه للأمام أثناء اطلاقه للنيران. وأطلق النيران بينما ذراعاه ممتدان إلى أقصى حد ربما من أجل أن يقصر المسافة أكثر وأكثر. شاهدت تشارلى وجه خليل يتفجر. ورأته وهو يلف ويدور حول نفسه ثم وضع ذراعيه على الحائط لكى تقدم له يد العون والمساعدة. وانطلقت باقى الرصاصات على ظهره مما أتلف قميصه أبيض اللون. وتسطحت يداه المستندتان على الحائط ـ يد من الجلد ويد أخرى حقيقية. ثم انزلق جسده المحطم إلى سجود شبيه بالسجود أثناء الصلاة بينما كان يحاول فى استماتة شق طريقه فى داخل الحائط. ولكن بحلول تلك اللحظات أصبح يوسف قريبا للغاية منه مما جعله يسحب قدمه من تحت جثته وبالتالى أتاح له الفرصة لكى يسارع فى رحلته الأخيرة نحو الأرض. وبعد يوسف جاء ليتفاك الذى كانت تعرفه تشارلى تحت اسم مايك وهو رجل له طبيعة تتسم دائما بالضراوة والفساد الأخلاقى. ولدى تراجع يوسف إلى الوراء انحنى

مايك وأطلق رصاصة أخيرة على الجزء الخلفى من رقبة خليل وهو أمر لم يكن ضروريا على الإطلاق. وبعد مايك جاء ما يقرب من نصف عدد الجلادين فى العالم، وكانوا يرتدون ملابس الضفادع البشرية سوداء اللون. وجاء بعدهم مارتى والحيوان الألمانى ابن العرس ومعهما ألفان من حاملى النقالات وسائقى عربات الإسعاف والأطباء والنساء غير المبتسمات اللاتى أمسكن بتشارلى ورحن ينظفنها من القىء الموجود على صدرها وملابسها ويسرن بها فى الدهليز ويخرجن بها إلى الهواء الطلق بينما الرائحة الدافئة اللزجة لدماء خليل تزكم نفسها وتسد حلقها.

كانت عربة إسعاف قد وقفت معطية ظهرها نحو الباب الأمامى. وفى داخل عربة الإسعاف توجد زجاجات مليئة بالدماء وبطاطين حمراء ولذلك رفضت الدخول إلى عربة الاسعاف. بل انها فى حقيقة الأمر أظهرت مقاومة شديدة. ومن المؤكد أنها اندفعت خارجة من العربة. لأن إحدى النساء المسكات بها رفعت يدها وضربتها فى عنف شديد على وجهها. فأصيبت تشارلى بالصمم لأنها لم تعد تسمع أى شىء سوى الصراخ الصادر عنها على نحو غير واضح. إلا أن اهتمامها الرئيسى أصبح منصبا على قيامها بخلع ملابسها لسببين: السبب الأول هو أنها عاهرة. والسبب الثانى هو أن ملابسها كانت ملطخة بكميات كبيرة من دماء خليل. وبعدئذ ظهرت كل من راشيل وروز على جانبيها وقد أمسكت كل منهما بذراع من ذراعيها مثلما فعلتا فى بيت أثينا عندما وصلت هنالك لأول مرة من أجل تقديمها للتمثيل على مسرح الحياة الواقعية الحقيقية. وقالت لها تجربتها السابقة إنه لا فائدة من وراء بذل المزيد من المقاومة. وقامت راشيل وروز باقتيادها للصعود إلى داخل عربة الإسعاف. وجلستا على جانبيها فوق أحد الأسرة. نظرت تشارلى لأسفل. وشاهدت كافة الوجوه السخيفة تحملق فى وجهها: الأولاد الصغار المتجهمين فى نظرات بطولية ومارتى ومايك وديمترى وراؤول مع وجود أصدقاء آخرين لم تكن قد تعرفت على بعضهم. أفسح الجمهور مكانا. وظهر يوسف أمامها بعد أن تخلص من البندقية التى أطلق منه الرصاص على خليل. كان لا يزال يوجد قدر كبير جدا من دماء خليل على بنطلونه الجينز وحذائه حيث شاهدت تشارلى تلك الدماء فى

وضوح . واقترب يوسف من سلالم عربة الإسعاف. ونظر لأعلى نحو تشارلى. وفى بادئ الأمر خيل إلى تشارلى أنها تحملق فى نفس وجهها لأنها استطاعت أن تشاهد على وجه الدقة نفس الأشياء الموجودة فى داخله والتى تكره وجودها فى داخل نفسها، لذلك حدث نوع من تبادل الشخصية حيث انتحلت دوره من حيث هو سفاح وقاتل وقواد وانتحل هو دورها من حيث هى داعرة مخادعة خائنة .

فجأة وبينما كانت تشارلى تحملق فى وجهه توهجت شرارة غضب متبقية فى داخل كيانها وردت لها الهوية التى كان قد سرقها منها. إذ نهضت واقفة بدون أن تتمكن راشيل أو روز من الإمساك بها فى الوقت الملائم وسحبت نفسا عميقا هائلا ثم صاحت قائلة: «أغرب عن وجهى Go» ـ أو هكذا بدا لها رنين صوت تلك الكلمة. وربما كانت الكلمة هى: «لا No» وليست أغرب Go. ولم تكن توجد هناك أهمية تذكر فيما يتعلق بالفارق فى المعنى بين الكلمتين .

الفصل السابع والعشرون

وعن الآثار المباشرة وشبه المباشرة الناجمة عن هذه الحادثة كان العالم يعرف معلومات أكثر مما نجم عن هذه الحادثة بالفعل وبالتأكيد كان يعرف معلومات أكثر مما لدى تشارلى . إذ كان يعرف – على سبيل المثال – أن إرهابيا فلسطينيا تحوم حوله الشكوك لقى مصرعه أثناء تبادله إطلاق النيران مع أفراد وحدة صاعقة ألمانية وأن المرأة الرهينة التى كان يحتجزها – وهى امرأة مجهولة الهوية – نقلت إلى المستشفى وهى فى حالة من الصدمة النفسية رغم أنها لم تُصب بأية جروح . وتناولت الصحف الألمانية مزيدا من الروايات المثيرة عن هذه القصة تحت عناوين مختلفة مثل : « الغرب الأمريكى الضارى يجىء إلى منطقة الغابة السوداء الألمانية » . إلاّ أنه كان من الصعب استخلاص معلومات واضحة من هذه الروايات العديدة نظرا لوجود تناقض شديد بينها . وقد أنكر أليكسيس وجود أية صلة بين تلك الحادثة وبين المحاولة الفاشلة للهجوم بالقنبلة على البرفيسور مينكيل الذى أشارت التقارير إلى أنه مات فى حادث ثم أفادت فيما بعد أنه تمكن من الافلات من الموت بأعجوبة . وقد صدق الناس الكلام الذى أدلى به أليكسيس . وأثار بعض كبار المحررين بالصحف أنه من الحكمة عدم الإدلاء بالمزيد من التفاصيل والمعلومات للجماهير .

ثم حدثت سلسلة من الحوادث الأخرى فى نطاق نصف الكرة الأرضية الغربى . وأثار ذلك تأملات من وقت لآخر عن الأعمال التى تقوم بها بعض المنظمات الفدائية العربية والتى تقف ضدها العديد من المجموعات المنافسة مما يتعذر معه تحديد المسئولية ومعرفة الجهة التى بدأت بإطلاق الرصاص فى حماقة على وجه

الدقة . مثال ذلك أن إطلاق النيران على الدكتور أنتون ماستاربين وهو محامٍ سويسرى مهتم بالشئون الإنسانية ومؤيد لحقوق الأقليات وابن مموّل ورجل أعمال بارز قد ألقيت مسئوليته على عاتق منظمة كتائبية كانت قد «أعلنت الحرب» أخيرا ضد الأوربيين الذين يتعاطفون مع «الاحتلال» الفلسطينى للبنان . وقد حدث إطلاق النيران على ماستاربين لدى مغادرته الفيلا الخاصة به من أجل الذهاب إلى العمل فى مكتبه - دون أن يكون مزودا بالحماية والحراسة اللازمة كالمعتاد - وقد صُدم العالم لدى سماعه هذا النبأ على مدى الفترة الأولى من ذلك الصباح على الأقل .

وعندما تلقى رئيس تحرير جريدة تصدر فى زيورخ خطابا موقعا باسم «جبهة تحرير لبنان» ومشيرا إلى أن جبهة تحرير لبنان هى المسئولة عن إطلاق النيران ثم اتضح أن ذلك الخطاب حقيقى وليس مزورا فإنه طُلب من دبلوماسى لبنانى أن يغادر البلاد . ففعل ذلك فى رباطة جأش .

كما أن تفجير سيارة دبلوماسى تابع لـ « جبهة الرفض » عند الجامع المشيد حديثا فى منطقة سانت جون وود لم يثر أى قدر من الاهتمام فى أى مكان وكان ذلك الحادث هو الرابع من نوعه فى خلال شهور .

ومن ناحية أخرى نجد أن نبح الموسيقار الإيطالى البرت روسينو والذى يقوم بتحرير عمود خاص به فى جريدة . وكذلك ذبح عشيقته الألمانية حيث تم اكتشاف جثتهما العاريتين عقب ذبحهما بأسابيع فى بحيرة التيرول وقد علقت عليه السلطات النمساوية قائلة إن الحادث ليست له أهمية سياسية على الإطلاق رغم الحقيقة التى مفادها أن هاتين الضحيتين كانت لهما أفكار راديكالية . إذ فضلت الحكومة النمساوية أن تنظر إلى هذا الحادث على أنه جـريمة تتعلق بالأمور العاطفية . وأشارت الحكومة النمساوية فى تقريرها أن العشيقة الألمانية والتى تسمى آستريد بيرجر كانت معروفة بشهواتها الشاذة ، وبالتالى رجحت الحكومة ألاّ يكون هناك شخص ثالث أو طرف ثالث متورط فى جريمة القتل .

* وحدثت مجموعات متتالية من حوادث الاغتيال الأخرى بدون أن تثير

الصحافة العالمية ضجة بشأنها : مثال ذلك قيام الإسرائيليين بإلقاء القنابل على قلعة صحراوية قديمة تقع على الحدود السورية وهى القلعة التى قالت عنها السـلطات الإسرائيلية إنها كانت تسـتخدم كقاعدة يقوم فيها الفلسطينيون بتدريب المناضلين الأجانب . أما بالنسبة للقنبلة التى يبلغ وزنها ٤٠٠ رطل والتى انفجرت فوق قمة تل خارج نطاق بيروت محطمة فيلا صيفية فاخرة مما أدى إلى قتل مَنْ يسكنون فيها بمن فيهم الكابتن تايه وفاطمة فإن ذلك كان أمرا مستغلقا ولا سبيل إلى فهمه شأنه فى ذلك شأن أى عمل من الأعمال الإرهابية التى تتم فى تلك المنطقة التراجيدية .

لكن تشارلى القابعة فى معقلها المنعزل الذى يقع بجوار البحر لم تكن تعرف شيئا عن تلك الاغتيالات والتفجيرات التى تتم تباعاً أو بالأحرى كانت تعرف كل هذه الأمور بوجه عام ولكنها كانت فى حالة من الملل أو الخوف الشديد بحيث فضلت عدم معرفة أية تفاصيل عما يحدث . وفى بادئ الأمر كانت تكتفى بالسباحة فى البحر أو التريض سيراً على الأقدام بدون هدف حتى نهاية البلاج والعودة مرة أخرى وقد أمسكت بروب الاستحمام مع رفعه لأعلى حتى رقبتها بينما الحراس يتبعونها على مسافة معقولة . وفى البحر كانت تميل إلى الجلوس فى المياه الضحلة عند حافة خالية من الأمواج وتقوم بحركات الغسيل مستخدمة مياه البحر فتغسل وجهها أولاً ثم ذراعيها ويديها . وكانت هناك فتيات أخريات قد صدرتْ لهن الأوامر بالاستحمام عاريات تماما إلاّ أن تشارلى فضلت عدم تقليدهن فى هذا الأسلوب المتحرّر فاضطر الطبيب النفسانى أن يصدر أوامره لهن بتغطية أجسادهن والتحلى بالصبر والانتظار .

وكان كيرتز يجيئ لزيارة تشارلى مرة واحدة أسبوعيا . وفى بعض الأحيان مرتين . كان يحرص دائما أن يكون لطيفا معها ومتحليا بالصبر والإخلاص حتى فى حالة قيامها بالصراخ فى وجهه . وكانت الأخبار التى ينقلها لها متسمة بالطابع العملى وكلها أنباء تتركز على مصلحتها .

وكان الطبيب النفسانى الذى يعالج تشارلى شابا متألقا بعينيه لمعان وبريق وذا ثقافة عسكرية . لم يكن ميالا إلى تحليل الذات أو أى نوع من الاستبطان الكئيب . راح يصطحبها معه فى جولات بالسيارة على طول الطرق المطلة على شاطئ البحر . ولكنه عندما أشار بيده فى طيش وحماقة إلى بعض البيوت القديمة القليلة الجميلة العربية التى تمكنت من البقاء على قيْد الحياة عقب إدخال التطوير على المنطقة . امتلأ ذهن تشارلى بالتشويش والغضب . اصطحبها الطبيب النفسانى إلى مطاعم تقع فى أماكن خلوية وسبح معها فى الماء بل واستلقى إلى جوارها على رمال البلاج وراح يتحدث فى غير كلفة إلى أن قالت له فى صوت ملتوٍ بأنها تفضل التحدث معه فى داخل مكتبه . وعندما علم أنها تحب ركوب الخيل أصدر أوامره بإحضار خيول . مما جعلها تبدو وكأنها قد نسيت نفسها تماماً . إلاّ أنها فى اليوم التالى التزمت الهدوء مما جعله يخبر كيرتز أن الأمر يستلزم الانتظار لمدة أسبوع آخر على الأقل . وفى نفس تلك الليلة راحت تشارلى تتقيأ لفترة طويلة دون أن يعرف أحد السبب فى هذه النوبة الفجائية من التقيؤ خاصة وأنها تأكل كميات ضئيلة للغاية من الطعام .

وجاءت راشيل بعد أن استأنفت دراساتها بالجامعة . كانت صريحة ولطيفة وخالية من التوتر ومختلفة تماما عن الصورة التى شاهدتها تشارلى عندما تقابلتا لأول مرة فى أثينا . أخبرتها أن ديمترى عاد أيضا إلى المدرسة . وأشارت أن راؤول يفكر فى دراسة الطب وأنه ربما يصبح ضابطا فى الجيش يعكف على دراسة الآثار القديمة . ابتسمت تشارلى فى أدب لدى سماعها هذه الأنباء المتفرقة عن أفراد العائلة . وقالت راشيل لكيرتز إنها عندما تحدثت مع تشارلى شعرت وكأنها تتحدث مع جدتها العجوز . إلاّ أن راشيل على المدى البعيد لم تتمكن من إحداث تأثير إيجابى على تشارلى نظراً لأنها طلبت منها فى نهاية الأمر أن تتكرم وتتركها بمفردها .

وفى أواخر الربيع وبمجرد أن أصبح حوض نهر الليطانى جافا بحيث يسمح بسير الدبابات عليه تحققت أسوأ المخاوف التى كانت تراود كيرتز وأسوأ

التهديدات التى كان يبديها جافرون : إذ تم الهجوم العسكرى الإسرائيلى على لبنان منهيا بذلك تلك المرحلة الحالية من الأعمال العدوانية أو طبقا للمكان الذى يقف فيه معلنا عن المرحلة التالية من الأعمال العدوانية . وبذلك أصبحت معسكرات اللاجئين التى سبق أن استضافت تشارلى تشهد النواحى الصحية التعقيمية التنظيفية بمعنى أن هذه المعسكـرات جاء ت إليها البلدوزورات لكى تدفن الجثث وتستكمل الأعمال التى بدأتها الدبابات والمدفعية والطائرات بعد أن سارت قافلة صغيرة مثيرة للشفقة من اللاجئين متجهة شمالاً تاركة وراءها الآلاف من جثث الموتى . ثم قامت مجموعات خاصة بتدمير الأماكن السرية الموجودة فى بيروت والتى سبق لتشارلى أن شاهدتها وأقامت بها . أما بالنسبة للمنزل الموجود فى سيدون صيدا فلم يتبق منه سوى الدواجن وحديقة اليوسفى . إذ تم تدمير ذلك المنزل بمعرفة فريق من السياريت الذين قتلوا «كريم وياسـر» . إذ جاء وا إلى ذلك المنزل تحت جنح الظلام بالليل من نفس الاتجاه الذى سبق أن تنبأ به دائماً ياسر ضابط الاستخبارات الحربية . واستخدموا نوعا من الرصاص الأمريكى الانفجارى الحديث والذى لم يسبق استخدامه من قبل والذى يقتل الإنسان على الفور بمجرد أن يلمس جسده . وتم إخفاء كل هذه المعلومات عن تشارلى حيث كان اليهود يدركون أنها فى حالة حب مع فلسطين . وأشار الطبيب النفسى أن مثل هذه المعلومات يمكن أن تزيد من شعورها بالقلق والتشويش الذهنى خاصة وأنها من خلال تخيلاتها واستغراقها فى التفكير فى الذات يمكنها أن تعتقد أنها المسئولة عن عملية الغزو كلها . ومن ثم تقرر عدم إبلاغها بتلك الأخبار وبحيث تكتشف الأخبار بطريقتها الخاصة تدريجيا فى الأوقات المتلائمة معها . أما بالنسبة لكيرتز فإنه ظل مختفيا لفترة تزيد على شهر ، وكان من الصعب على أحد أن يتعرف على شكله خلال تلك الفترة . إذ تقلص جسده وأصـبح فى نصف حجمه الطبيعى على ما يبـدو . وفقدت عيناه بريقهما . وكان يبدو عجوزاً . وذات يوم ومثل رجل ينفض عن كاهله مرضا مزمنا طويلاً عاد كيرتز واستعاد فى خلال ساعات على ما يبدو عداءه العجيب مع ميشا جافرون .

.. ..

كانت الجولة تسمى «باقة من الكوميديا» . والمسرح شأنه شأن المسارح الأخرى التى عرفتها تشارلى يخدم برنامجا تعليميا للنساء ، ومن حيث هو مدرسة للمسرح بل ومن حيث هو مكان يتم فيه الاقتراح أثناء الانتخابات *العامة* . وكانت المسرحية المعروضة حقيرة وكان المسرح نفسه متواضعا . وجاءت المســـرحية عند الخط المنخفض لتدهورها . كان للمسرح سقف من الصفيح وأرضية خشبية وعندما راحت تشارلى تخطو وتطرق بقدمها فى قوة على الأرض الخشبية للمسرح تتصاعد سحب التراب بين الكتل الخشبية . وكانت تشارلى قد بدأت تختار الأدوار التراجيدية فقط لنفسها بناء على نصيحة نيد كويللى الذى ألقى على تشارلى نظرة واحدة متسمة بالقلق وافتراض أن التراجيديا هى اللون الذى ترغب فيه ولذلك فضلت تشارلى القيام بأدوار التراجيديا خاصة وأن ذلك يتمشى مع أسباب أخرى خاصة بها . سرعان ما اكتشفت أن الأدوار الجادة كانت أمراً لا تستطيع أن تتحمله حيث تبادر إلى الصراخ أو البكاء فى المواقف التى لاتتطلب ذلك بل إنها فى كثير من المرات تضطر لأن تترك خشبة المسرح كى تتمكن من السيطرة على نفسها .

لكن الأدوار نفسها لم تتلاءم مع تشارلى بعد أن أصبحت لا تشعر بالميل والرغبة فى التمثيل . والأسوأ من ذلك أنها لم تعد تفهم ما يمكن أن يُنظر إليه على أنه آلام من وجهة نظر مجتمع الطبقة المتوسطة فى العالم الغربى ، ولذلك أصبحت الكوميديا هى القناع الأفضل بالنسبة لها . ومن خلال الكوميديا بدأت تشارلى تشاهد أسابيعها وهى تتعاقب بين شريدان(١) وبين بريستلى(٢) وبين النوابغ المحدثين الذين وصفوا بأنهم يتميزون بخفة الدم والتهكم اللاذع . الذين قدموا مسرحيات فى يورك ولكن من حسن حظها أنهم تجنبوا تقديم عروض فى نوتنجهام . لقد قدموا عروضا فى أماكن عديدة ولكن للأسف كانت تشارلى تلقى كلماتها مثل ملاكم مترنح ينبغى عليه إما أن يضرب بقوة أو يسقط على الأرض نهائيا .

(١) ريتشارد برنسلى شريدان : ١٧٥١ - ١٨١٦ كاتب مسرحى أيرلندى ومن كبار رجال السياسة .

(٢) جون بوينتون بريستلى : ١٨٩٤ - . وهو ناقد وروائى وكاتب مسرحى إنجليزى .

وطوال اليوم عندما لا تتدرب تشارلى على البروفات تبدو مثل مريض فى غرفة الانتظار بعيادة طبيب . حيث تموج بالقلق وتدخن السجاير وتقرأ المجلات فى عصبية . ولكنها فى هذه الليلة ولدى رفع الستار هبط عليها كسل خطير وحل محل قلقها وعصبيتها . وظلت ترغب فى الاستسلام للنوم العميق .

وأحست تشارلى بصوتها يتهدج وشعرت بذراعها يسير فى اتجاه وقدمها تسير فى اتجاه آخر . ثم توقفت على أمل أن تسمع ضحكات من جانب الجمهور . لكنها ارتطمت بهدوء غير متوقع . وفى نفس الوقت بدأت صور من الألبوم الممنوع تنصب إلى داخل ذهنها : صور عن السجن الموجود فى صيدا وصور عن طابور من النساء المنتظرات على طول الحائط وصور عن فاطمة وصور عن الحجرة المدرسية بالمعسكر ليلا ، وصور عن كتابة الشعارات اللازمة من أجل المسيرة ، وصور عن المخبأ الذى احتمى فيه الفلسطينيون من الغارات الجوية وصور عن الوجوه التى راحت تحملق فى وجهها وتتساءل عما إذا كان اللوم يقع عليها أم لا ... وصور عن يد خليل المرتدية للقفاز والتى رسمت بدمائه علامات من الدم على الحائط لدى اغتياله .

كانت غرفة الملابس مخصصة لجميع الممثلين والممثلات . عندما جاء ت فترة الاستراحة بين الفصول لم تذهب تشارلى إلى تلك الغرفة . حيث وقفت خارج باب المسرح فى الهواء الطلق . وراحت تدخن السجاير وترتعد وترتعش وتحملق نحو الشارع .الملىء بالضباب . وساءلت نفسها فى تعجب عما إذا كان ينبغى عليها أن تمشى وتستمر فى المشى إلى أن تسقط مغشيا عليها أو إلى أن تصطدم بها سيارة . كانوا ينادون عليها باسمها . وبمقدورها سماع صوت الأبواب لدى فتحها وإغلاقها فى عنف وصوت الأقدام التى تهرول بسرعة . كانت المشكلة على ما يبدو هى مشكلتهم وليست مشكلتها . إلا أن إحساسا واحدا وأخيراً بالمسئولية هو الذى جعلها تفتح الباب وتتجه إلى داخل المسرح .

– يا تشارلى . بحق السماء . بحق تشارلى ، ما هذا الجحيم اللعين !.

ورفعت الستار فوجدت تشارلى نفسها مرة أخرى فوق خشبة المسرح بمفردها . وفى مونولوج طويل بينما هيلدا تجلس إلى مكتب زوجها وتكتب خطابا لعشيقها : إلى ميشيل .. إلى يوسف .. وكانت هناك شمعة مشتعلة عند مرفقها .. وفى خلال دقيقة كان عليها أن تجذب درج المكتب للبحث عن ورقة شاغرة أخرى وعندئذ تعثر - « أوه - لا » - على خطاب كان زوجها قد كتبه لعشيقته ونسى أن يضعه فى صندوق البريد . بدأت تكتب فى الفندق الموجود فى نوتنجهام وراحت تحملق فى لهيب الشمعة فشاهدت وجه يوسف يتلألأ أمامها عبر المنضدة فى الحانة التى خارج معبد دلفى . فنظرت مرة أخرى وإذا بوجهه يختفى ويحل محله وجه خليل يتناول طعام العشاء معها على المنضدة الخشبية بمنزله فى منطقة بلاك فورست راحت تردد تقول سطورها وعلى نحو معجز ، لم تكن سطور يوسف ولا سطور تايه ولا سطور خليل وإنما سطور هيلدا . وقامت بفتح درج المكتب ووضعت يدها فى داخل الدرج وسحبت ورقة مكتوبة بخط اليد وهى تموج بالحيرة والدهشة . رفعت الورقة لأعلى وأدارت الورقة لكى يلقى جمهور المشاهدين نظرة عليها . ثم نهضت واقفة على قدميها . وفى تعبير من عدم التصديق المتزايد تقدمت إلى الجزء الأمامى من خشبة المسرح وبدأت تقرأ بصوت مرتفع - مثل هذا الخطاب الطريف الفكه الملىء بالإسنادات الأنيقة . وفى خلال دقيقة يدخل زوجها جون من جهة اليسار مرتديا الروب دى شامبر ويتقدم فى سيره نحو المكتب ويقرأ خطابها غير المكتمل الذى كتبته لعشيقها . ويموج الجمهور فى اهتياج وانفعال ثم يتحول الاهتياج إلى غبطة عندما يقوم العاشقان المخدوعان - وقد شعر كل منهما بالضيق من الآخر بسبب ارتكابه للخيانة الزوجية - بالدخول فى عناق فاسق داعر . سمعت زوجها وهو يدخل وكان ذلك بمثابة مفتاح لها لكى ترفع صوتها : الاستياء يحلّ محل حبّ الاستطلاع لدى استمرار هيلدا فى القراءة . أمسكت بالخطاب بكلتا يديها واستدارت واتخذت خطوتين لليسار والأمام لكى لا تحجب جون .

وبينما هى تفعل ذلك شاهدته - لم يكن هو جون وإنما كان يوسف . كان

جالسا فى نفس المكان الذى سبق أن جلس فيه ميشيل وسط المقاعد الخشبية . وكان يحملق لأعلى نحوها بنفس ذلك الاهتمام الشديد .

.. ..

فى بادئ الأمر لم تشعر بالدهشة الحقيقية على الإطلاق . إذ إن الخط الفاصل بين عالمها الداخلى وعـــالمها الخارجى كان ضـعيفا للغاية فى أفضل الأحوال . إلا أن ذلك الخط قد تلاشى تماماً هذه الأيام .

راحت تفكر : إذن لقد جاء أخيراً . جاء فى الوقت المناسب الذى تماثل مع مجيئه السابق إلى حدّ ما . هل معك أى قدر من نباتات السحلبية يا يوسف ؟ ألا يوجد معك ثوب فضفاض أحمر ؟ ولا سلسلة ميدالية ذهبية ؟ ولا حذاء جوشى ؟ أكان ينبغى علىّ الذهاب إلى غرفة الملابس من أجل أن أقرأ المذكرة التى تركتها هناك ؟ . أكان ينبغى أن أعرف أنك كنت بصدد المجىء ؟ حتى أجهز لك كعكة .

توقفت عن التلاوة بصوت مرتفع لم يكن هـناك بالفعل داع لأن تمثل بعد ذلك . رغم أن الملقّن راح يلقنها سطورها بصوت مرتفع فى غير خجل أو ارتباك ورغم أن المخرج المسرحى يقف خلف الملقن ملوحا بيديه كشخص ما يقوم بمحاربة سرب من النحل . وعلى نحو ما كان كل من المخرج والملقن هناك عند خط رؤيتها رغم أنها كانت تركز حملقتها على يوسف وحده . أو ربما كانت تتخيلها لأن يوسف كان قد أصبح متجسدا . وإلى وراء تشارلى كان يوجد زوجها جون . وراح جون – فى غير اقتناع على الإطلاق – يلفق كلاما وعبارات من أجل التغطية عليها وعدم انكشافها أمام جمهور المشاهدين . وأرادت أن تقول له فى اعتزاز : أنت بحاجة إلى شخص ما . يقول الكلام نيابة عنك فى جميع المناسبات .

وكان هناك ستار من الضوء يفصل بينهما ، ليس ستارا بقدر ما هو حاجز بصرى . بدأت تشك فى أنه ليس سوى سراب ، ومن جناحى المسرح بدأوا ينبهونها ويصيحون فيها من أجل أن تؤدى دورها على نحو أفضل . سار زوجها جون نحو الجزء الأمامى من خشبة المسرح . وأمسك بها فى شفقة ممزوجة بالحزم من

مرفقها كحركة تمهيدية من أجل أن يلقى بها فى صندوق الزبالة . وافترضت تشارلى أن المسئولين عن المسرح سيبادرون فى خلال دقيقة إلى غلق الستار ويعطون للبديلة فرصة العمر لكى تحل محلها فى تمثيل دورها . وأضيئت الأنوار فى صالة المشاهدين، تأكدت أنه يوسف فعلا .لكنها عندما شاهدته بوضوح تام سبب لها انزعاجا هائلا ؛ إذ كان مجرد شخص من الأشخاص العديدين الجالسين لمشاهدة المسرحية . فبدأت تسير فى الممشى بين المقاعد . ثم أحست بيد فوق ذراعها فقالت لنفسها فى تفكير : « الزوج جون مرة أخرى . ابتعد يا جون عنى » كانت الردهة شاغرة ولا يوجد بها سوى اثنتين من الدوقيات طاعنتين فى السن ومليئتين بالشيخوخة . وافترضت تشارلى أنهما المسئولتان عن النواحى الإدارية بالمسرح . قالت إحداهما : ينبغى أن أحضر طبيبا ياعزيزتى .

ثم قالت الأخرى : أو نجعلها تحرّر نفسها بأن تستغرق فى النوم .

قالت تشارلى فى سعادة مستخدمة عبارة لم تستخدمها من قبل : ينبغى عليكما إسقاطها من الحسبان والتخلى عنها تماما .

لم تكن أمطار نوتنجهام تنهمر فى تساقط . ولم يكن هناك سيارة مرسيدس حمراء واقفة من أجل استقبالها . ولذلك سارت . ثم وقفت عند محطة أتوبيس وهى تتوقع إلى حدّ ما أن تجد الفتى الأمريكى فى داخل الأتوبيس لكى يخبرها بأنه ينبغى عليها أن تنظر أمامها بحثا عن سيارة حمراء .

واتجه يوسف نحوها عبر الشارع الشاغر . وهو يمشى بسرعة . وكان يبدو طويلا للغاية تخيلته وهو يتخلى عن مشيته ويلجأ إلى الهرولة والجرى بسرعة لكى يطلق رصاصاته عليها عن كثب ، إلاّ أنه لم يفعل ذلك . توقف أمامها بينما أنفاسه لاهثة ومتقطعة بعض الشىء ، وكان من الواضح أن شخصا ما قد بعث به لكى يُسلم رسالة . وأغلب الظن أنها رسالة مبعوثة من مارتى ولكن ربما تكون مبعوثة من الكابتن تايه . فتح فمه لكى يسلم الرسالة إليها إلاّ أنها منعته من الكلام .

أنا إنســانة ميتة يا يوسف . فأنت قد أطلقت عليّ الرصاص . ألا تتــذكر ذلك؟

أرادت تشارلى أن تضيف كلاما ما عن مسرح الحياة الواقعية وعن كيف أن الأجساد لم تنهض وتسير مبتعدة . إلاّ أنها فقدت ذلك الكلام على نحو ما .

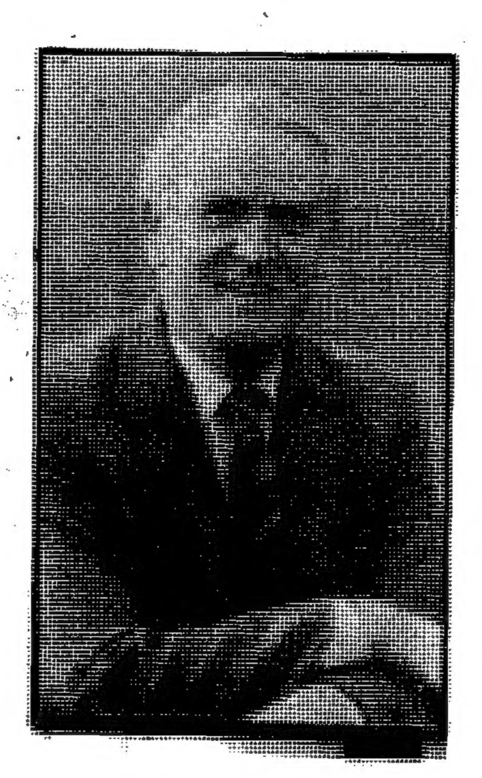
مرت سيارة أجرة . فنادى عليها يوسف . ولكن سائق التاكسى لم يتوقف . فما الذى يمكنك أن تتوقعه ؟ فسيارات الأجرة فى هذه الأيام لا تلتزم بتنفيذ القوانين راحت تشارلى تسير وهى مستندة عليه . وكانت عرضة لأن تسقط على الأرض لو لم يمسك بها . وكانت دموعها الغزيرة تشوش الرؤية أمام عينيها وتجعلها شبه كفيفة وسمعت صوته متراميا من تحت الماء . ظلت تشارلى تقول فى تكرار : إننى إنسانة ميتة . إننى إنسانة ميتة . إننى إنسانة ميتة . بدا عليه وكأنه يريدها سواء أكانت ميتة أم حيَّة . تشابكت ذراعاهما وانطلقا فى السير فى ارتباك على طول الرصيف رغم أن المدينة كانت غريبة بالنسبة لهما .

« تمت »

رقم الايداع : ١٩٩٣/٥٢٨٠

I. S. B. N.

977-07-0270-6



جون لوكاريه

★ هو الاسم المستعار للروائى دافيد كرونويل / المولود عام ١٩٣١ .

★ هو واحد من مجموعة أدباء بريطانيين سبق لهم العمل فى الاستخبارات . ومنهم سومرست موم ، وجرهام جرين وايان فلمنج .

★ يعتبر أهم كاتب لروايات التجسس التى واكبت أهم الأحداث السياسية المعاصرة ، ومنها : «الرجل الذى أتى من الصقيع» . و «جاسوس نقى» . و« المنزل الروسى» .

★ تحولت أعماله الروائية الى أفلام سينمائية بالغة الأهمية ، ومسلسلات تليفزيونية بيعت بمليارات الجنيهات .

هذه الرواية

طبعت هذه الرواية باللغة **الانجليزية اثنتى عشرة مرة منذ** صدورها لاول مرة عام ١٩٨٣ ، وحتى عام ١٩٩٠ .

أنها واحدة من أهم روايات التجسس فى السنوات الأخيرة ، بل هى أكثرها أهمية وخاصة أنها تدور حول الصراع العربى الإسرائيلى ، وتكشف الاساليب غير الإنسانية التى يمارسها رجال الموساد فى تنفيذ عملياتهم .

فى هذه الرواية نجح جون لوكاريه أن يحول روايات التجسس التى تقوم على الغموض، والإثارة المفتعلة إلى عمل أدبى يتغلغل فى نفوس البشر . وخاصة فى داخل الممثلة المبتدئة «تشارلى» التى وجدت نفسها وسط قوى متصارعة لا تعرف هل تتعاطف مع من يضغطون عليها لتنفيذ مهمة غير انسانية .. أم مع أصحاب الأرض الذين يسعون لإستعادة حقوقهم المفقودة .

«الطبالةالصغيرة» رواية ضخمة ، تجئ متعتها فى قراءتها دفعة واحدة . وفى لهاث متواصل .